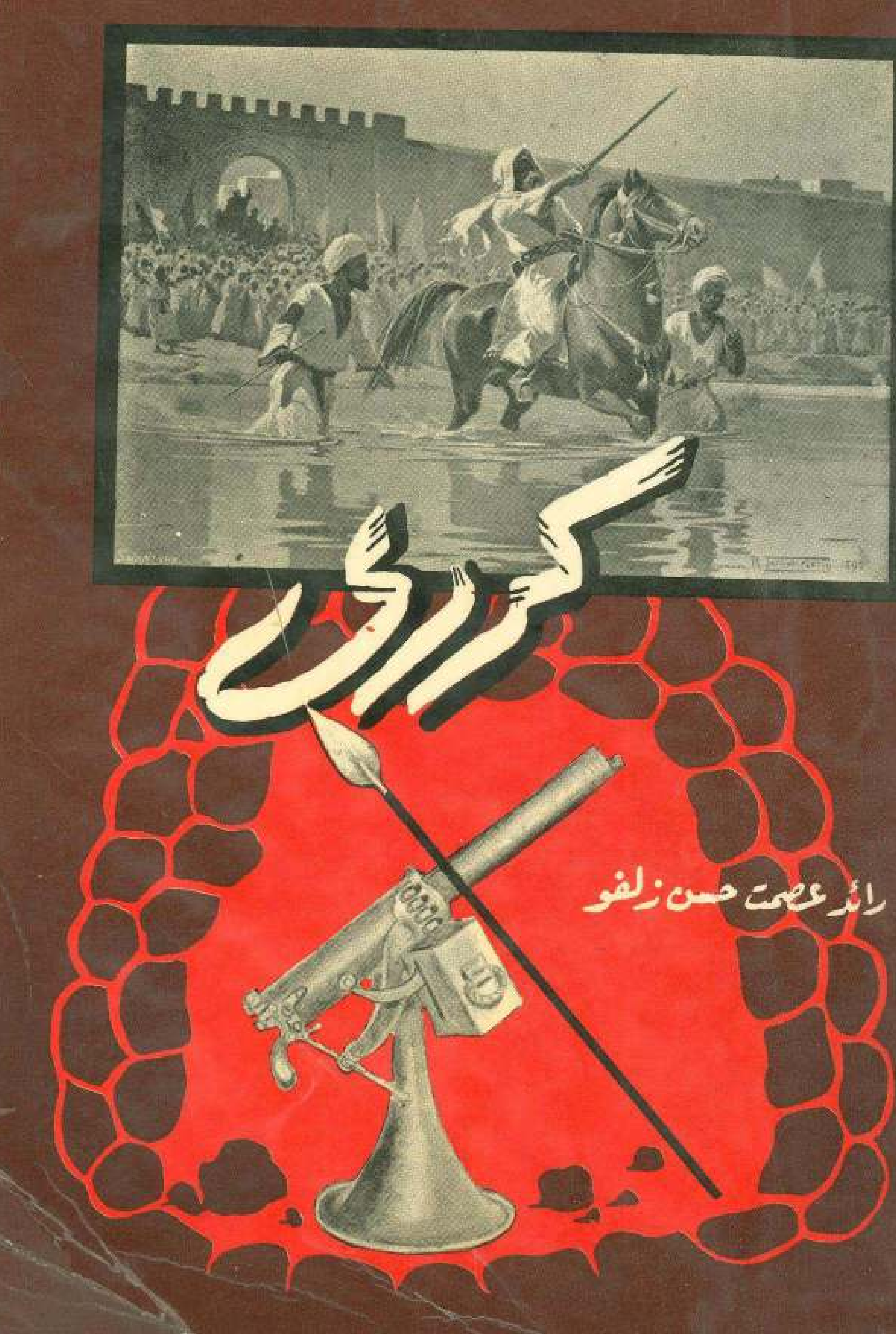

رائد عصمت حسن زلفو

كررى

تحليل عسكرى لمعركة أمدرمان

رائد عصمت زلفو

الغـــلاف تصميم : رقيب أول ابراهيم سليم
الخرائط : إعـــداد المؤلف

الطابعون
دار الطباعـــة
دار التأليف والترجمة والنشـــر
جامعة الخرطوم

اهـــداء

الى عشرة آلاف رجل سالت دماؤهم الغالية ، رخيصة وهـــم
يذودون عن حياض وطنهم ، في أربع ســـاعات من الزمان ،
وفي بقعة من الأرض لم تتجـــاوز أربعة من الأميال . . . .
الى شـــهداء كـــــررى . . .

المحتويات

في مثل هذا اليوم من كل عام، وعندما نحتفل بذكرى ذلك اليوم الذي تحقق لنا فيه الحرية وتحقق الاستقلال، إنما نحتفل بسلسلة طويلة من الذكريات تضرب جذورها بعيداً في أعماق الماضي السوداني الأصيل حيث تتعانق قطرات الدماء الأولى التي أراقها على أرضنا السودانية الحبيبة الطاهرة ثائر سوداني أصيل فداء للحرية والاستقلال الصحيح.

من هذا التاريخ الحافل الطويل الذي لا ينتهي كانت ملحمة من الملاحم التي تعالت صيحاتها على ربى (كرري) معلنة الحرية ومعلنة أبدية الاستقلال وخلوده، ومعلنة أن لا سواها إلا شهادة أن لا إله إلا الله كأغنية على كل شفة وترنيمة على كل لسان.

هؤلاء أسلافنا حملوا الراية السودانية خفاقة بشرف وصدق وإخلاص ومن هذا المنطلق الذي يسري إيماناً في دماء أبنائنا نحمل المشعل وضاء، نتطلع لندفع نحو الوصول إلى غاياتنا التي ترابنا الطهور.

وهذا هو كتاب كرري لابن من أبنائنا بالقوات المسلحة رائدة الثورة يعيد بناء ماضينا الزاهي لنستلهم حاضرنا المشرق، ونتطلع لمستقبلنا الوضاء فله منا الشكر والثناء ولنكن مشعل نور لزملائه ومواطنيه والله الموفق.

اللواء أ.ح. جعفر محمد نميري
وزير الدفاع والقائد العام
١٩٧٣/١/١م

تقديم

فى أكتوبر ١٩٧٠ شرفنا السيد الرئيس بزيارة تفقدية بفرع التدريب وكنا نعد لأول امتحان دخول لكلية القادة والاركان السودانية .

لقد استرعى انتباه السيد الرئيس ان المطلوب فى ورقة التاريخ العسكرى « معركة كررى » وهنا بدأ يناقش معنا اهمية المعركة وأهمية تحليلها من وجهة النظر العسكرية وتقييمها بطريقة منطقية ، ثم وجه بتقديم كافة التسهيلات لمن تناط به هذه المسئولية لاداء هذا الواجب الوطنى الكبير .

من ذلك التوجيه الكريم ومع ايماننا بأهمية التراث الحربي السوداني ، بدأنا نفكر فيمن يقوم بهذه المسئولية الجسيمة والتى تتطلب الحيوية والعمل المتواصل والقدرة التحليلية وامكانية الاستنباط والاستنتاج وأخراج الحقائق من مخابئها فى الداخل أو الخارج .

لم تواجهنا صعوبة ، اذ وقع اختيارنا على الزميل الرائد عصمت حسن زلفو والذى اعجبتنى كتاباته فى المجلة العسكرية عن ابو الدروع « جودريان » ويومها كنا نعتقد انه اذا استمر على ماهو عليه فسيقدم لزملائه الكثير وهاهو اليوم ــ لم يخيب ظننا ــ يقدم لنا موسوعة تاريخية نحن فى امس الحاجة لها .

ولقد كان لى شرف الاطلاع على كل اجزاء الكتاب قبل طبعها وهى مسودة ، فوجدتها دراسة مستفيضة وعميقة . ودون اطراء ، استطيع القول بأن القارى أو الباحث العسكرى سيجدان فيها متعة ولن يملا قراءتها عديد المرات وذلك للأسلوب الذى عالج به الكاتب الفصول المختلفة والطريقة التى سرد بها الحوادث والاستدلالات التى اشار اليها من المراجع المختلفة ولتبويب الكتاب فى فصول مستقلة تمكن القارئ من قراءة فصل دون الآخر .

كل ذلك سيجعلنا نقيم الجهود التى بذلها لقرابة العامين ، وهو يواصل البحث والسؤال ليلا ونهارا . فلم يترك دارا للوثائق ، ولاسمع عن شخص له معرفة بالمعركة أوكان له شرف المبادرة فى تسجيل شىء عن المهدية ، إلا وزاره وتحدث اليه وسجل منه . وقد ذهب لاكثر من ذلك فزار فى السودان غربه واوسطه ، واجتمع بمن مد الله فى عمرهم أو بمن خلف اباؤهم واجدادهم تراثا أو مخطوطات أوذكريات ، وتفقد مواقع المعركة وآثارها وتحدث لاحيائها بامدرمان واحفادهم. وزار بريطانيا حيث سهلت له القيادة العامة ذلك ،فكان من رواد المتاحف والمكتبات العسكرية البريطانية وقد جاء منها بالكثير .

مقـــدمة

المعرفة العسكرية معرفة غالية ، فثمن تحصيلها الباهظ دفع بالدم البشرى المسكوب عبر الأجيال والقرون . وهى تختلف قليلا عن بقية العلوم فى وسائل تحصيلها ، فنظرياتها وأسسها لايمكن أن تستمد الا من الواقع والخبرة العملية . والتاريخ العسكرى مثل ذلك النبع الذى لاينفد من حصيلة التجارب العملية ، واليه دائما نلجأ لنغترف الدروس والعبر والنظريات .

وقد يسأل المرء نفسه : لماذا ندرس التاريخ العسكرى ؟ ولماذا ندرس التاريخ على الاطـــلاق ؟

ان البحث عن الامجاد القديمة لتجرنا وتشدنا للخلف ليست هى الاجابة بالتأكيد ، فذلك يحرم التاريخ من أعظم عطائه ، وهو استمراريته وعدم سكونه أو جموده ومواقفه المتغيرة وتدفقه المستمر بالتجارب . فالتاريخ يتناول مواقف متغيرة للامم والمجتمعات والافراد ، وهو ردود فعل مستمرة لمؤثرات مختلفة تساهم فى عجن وتشكيل وصقل الأحداث والمواقف وأخيرا النتائج . فهو ليس رواية تروى ، أو قصة تحكى ، وانما تكمن أهميته الأبدية فى استخراج الدروس وتحليل المواقف والأحداث .

ومخطئ من يظن أن دراسة السلوك العسكرى ، عبر دراسة التاريخ العسكرى يتناول شيئا منفصلا عن سلوك المجتمعات والأمم . فالجيوش ، تلك العصارات النضالية فى الأمم ، ليست قطاعات مختارة أو مجتمعات منفصلة ، وانما هى جزء لايتجزأ من هذه المجتمعات ، وان مثلت شريحة مكبرة ومجسمة لصفات هذه الأمم من شجاعة وذكاء وتضحية وسمو فوق الاهتمامات الغريزية للبشر ، أو عكسها من ضعف وخور ، فذلك لايعنى تميزها أو اختلافها ، بل يؤكد انتماءها ووضعها كمرآة صغيرة تعكس ماخلفها .

اذن نحن لايمكننا عندما ندرس التاريخ العسكرى أن نفصله عن العديد من المؤثرات والتيارات الروحية والوجدانية والاجتماعية والاقتصادية والحضارية .

وان كان هذا مبدأ عاما في دراسة الحملات والمعارك الا أنه في هذه الحالة ، معركة كررى ، أوضح وأبرز . ففى معركة امدرمان كما عرفت عالميا ، أو معركة كررى كما عرفت محليا ، كان كل الذكور من السكان جنـــودا ، والرجل كان مقاتلا قبل أن يكون شيئا آخر .

ونلاحظ ان الخط العسكرى هو الخط الرئيسى الذى تناولناه فى دراستنا ، وهو من أهم النواحى الجديرة بالدراسة فى الثورة المهدية ، ان لم يكن أهمها على الاطلاق ، فتلك الثورة ولدت بحد السيف ، وعاشت بحد السيف ، وقضى عليها بحد السيف . الا أننا لايمكن أن نتجاهل المؤثرات الاجتماعية التى ساهمت فى خلق الظروف التى أحاطت بالمعركة .

وقد كان لهذا الاعتبار أثر بعيد فى تكييف وتوجيه الطريقة التى سنتناول بها دراسة معركتنا . فلم استطع أبدا ، ولاللحظة واحدة ، فصل تلك العوامل وأثرها فى الموقف العسكرى ، أو التكوين القتالى لجيش الخليفة ، أو الفكر والأسس العسكرية التى تحكمت فى الطريقة التى خاض بها قادتـــه المعركة ، أو الدوافع والعناصر التى أبرزت ، أو مزقت ، وحدة صفوف ذلك الجيش ، ان كان بين القادة أو الأفراد ، وأخيرا فى العوامل الاقتصادية التى حددت حشد الخليفة ، وأجبرته على القعود وخوض المعركة المصيرية فى كررى .

فنحن حينما نتحدث عن التكوين القتالى لجيش كتشنر نتحدث عن الفرق والالوية والكتائب وسرايا المدفعية ، ولكنا ان أردنا أن نتحدث حديثا جادا عن التكوين القتالى لجيش الخليفة ، فستحدث عن ألفاظ أشبه بالالغاز ، الارباع والرايات ، والمقدميات ، والجهادية ، والحرابة ، والبنداقة .

وان أردنا أن نتحدث عن تخطيط الخليفة أو طريقة تحريكه وحشده لقوته العسكرية لمواجهة الغزو ، كان لابد لنا أن نتحدث عن المبادئ والفكر العسكرى الموجه لطاقات جيشه . ولما لم تكن هناك معاهد تدريب فى جيش المهدية ، بل استمدت كل هذه الأسس من خبرة المعارك الاولى ، فقد تحتم علينا أن نمر مرورا سريعا على الدروس التى ابرزتها هذه المعارك وخلفت بصماتها للنهاية فى تفكير

قادة معركتنا . وحقيقة سنلاحظ ان خطة الخليفة التى قرر ان يخوض بها معركة كررى لم تكن الاتكررا لمعركة شيكان ، بل انه طوع الظروف ليتمكن مــن خوضها بتلك الطريقة . اذا فالمرور السريع على معارك أبا وقدير وشيكان والخرطوم والقلابات كان امرا لازما لتوضيح ما اسهمت به تجاربها فى صقل الاسس العسكرية للخليفة ولقادته ، أو ما اثرت به نتائجها المادية المباشرة فى الحشد العسكرى النهائى . فتلك المعــارك الضخمة التي خاضها اولئك القادة الفطاحل كانت هى مدارسهم العسكرية ، ومنها استمدوا اسس التنظيم القتالى لجيشهم ومبادئه التكتيكية واخيرا السلاح الذى قاتلوا به في كررى ، ولكننا سرعان مانكتشف ان بعضا من هذه الخبرات العسكرية استمدت من احداث أو معارك حدثت قبل الثورة نفسها .

كل تلك المؤثرات حتمت وجود الباب الاول «الثورة » . ولم يكن الامر كما يبدو من الوهلة الاولى، مجرد انتهازية من جانبنا، أو اننا لم نستطع مقاومة الاغراء الذى تقدمه دراسة تلك الحقبة الحافلة ، أو ان نزحزح اعيننا المثبتة عن ذلك المنبع الذى توفرت فيه مجالات لاتحصى للدراسة ، وهو حروب المهدية التى سبقت كررى ، لنمضى مباشرة لدراسة المعركة نفسها . وذلك بالضبط ما احس به ليدل هارت فى المنهج الذى اتخذه لتقديم دروسه العسكرية ، فقد كتب يقول :

« ان الطريقة الحديثة في دراسة معركة واحدة أو حملة معينة دراسة تفصيلية منهكة دون ان نوضح الملابسات أو الخلفيات لن تمكن من تقديم الفائدة والدروس المرجوة ، فستكون عملا مبتورا ناقصا . وقد وجدت دائما ان المسح التاريخى لفترة من الزمن أو لسلسلة من الحملات والمعارك وتقديم اهم الدروس التى تبرزها اكثر جدوى لقارئ العسكرى »

وقد قسم الباب الاول لثلاثة فصول : الفصل الاول خصص لاعطاء فكرة سريعة عن دوافع الثورة المهدية ، وعن التكوين الاجتماعى لسكان مسرح احداث معاركنا ، وللدروس والخبرات التى برزت اثناء فترة الاحتــلال واستفاد منها الثوار سواء من جيش الاحتلال نفسه ، أو من مدرسة حروب الزبير التى خرّجت اكفأ قادة المهدية .

اما الفصل الثاني فقد خصص لحروب الثورة المهدية نفسها وتأثر قائدها بعدة

مدارس عسكرية ، اهمها مدرسة الحروب الاسلامية الاولى ، وكيف مضت تلك المعارك الجبارة التى ذابت وامتزجت فيها الخبرات المتنوعة بانضمام قادة يحملون معهم خبرات جديدة مختلفة .

اما الفصل الثالث الذى يتحدث عن عهد الخليفة عبد الله ، بطل روايتنا ، فقد احتل فترة زمنية طويلة ، فتحتم علينا ان نقتصر على بضعة امور جوهرية تمس امر معركتنا مساسا مباشرا ، وهى على التحديد مظاهر الانقسام والفرقة التى سادت عهد الخليفة ، وانحسار موجة الحماس ووحدة الصفوف التى برزت فى حياة المهدى . وكان لابد لنا ان نتناول شخص الخليفة نفسه والظروف التى حتمت ان تأخذ الاحداث المجرى الذى اخذته . فالخليفة عام ٩٨ ، لابد ان يختلف عن الخليفة عام ١٨٨٦ .

والجزء الاخير من هذا الفصل — تنظيم جيش الخليفة — يمثل خلاصة كل الباب . وهو تقديم سريع للتكوين القتالى، والتسلسل القيادى ، والنشاط والفعاليات العسكرية فى جيش الخليفة ، ليمكن القارئ من التصور المعقول لاستراتيجية وتكتيك الخليفة . فالغرض الاساسى من هذا البحث « تحليل عسكرى لمعركة امدرمان من وجهة نظر الخليفة » فاغلب المصادر ، خصوصا المصادر الاوربية ، قدمت معركة امدرمان من وجهة نظر السردار كتشنر والجيش الغازى ، وكفتنا شر تقديمها عندما وصفتها وصفا كاملا فى ثلاثة وعشرين كتابا (هذا فقط ما تمكنت من احصائه والاطلاع عليه) والجانب المهمل تاريخيا ، كان دائما جانب الخليفة . اذن فكل مايرد فى بحثنا عن جانب الجيش الغازى أو الحكومة البريطانية القصد منه هو سرد افعال السردار لنوضح ردود فعل الخليفة ، أو لابراز امور لايمكن تجاهل اثرها فى تحديد مجرى المعركة ، كالتفوق فى التسليح أو التدريب أو نشاط الاستخبارات .

ولقد اتبعت فى الباب الاول المنهج العادى فى دراسة التاريخ ، وهوترجيح كفة المعلومات التى تقدمها الوثائق والتقارير الاصلية ، على ماتقدمه المصادر الثانوية كالكتب أو الاقوال السماعية ، واستفدت من الاخيرة لملء الثغرات أو لربط الاحداث فقط . فتلك فترة غنية بالمخطوطات والمصادر الاولية .

اما الباب الثاني « الغزو » فالقصد منه هو توضيح ردود فعل الخليفة على تقدم السردار من حلفا الى عطبرة وتأثير العمليات العسكرية التى قام بها السردار على معركة كررى ، وهو تأثير مباشر على نتيجة المعركة . وان خصص الفصل الاول لتوضيح الموقف العالمى والدوافع التى حدت ببريطانيا للموافقة ثم الاشتراك الفعلى فى غزو السودان ، الا ان الفصل الثاني والثالث يوضحان الآثار المباشرة المترتبة على عمليات السردار اثناء تقدمه ، ان كانت آثارا مادية عسكرية واضحة كنجاحه فى انقاص حشد الخليفة العسكرى بما لايقل عن خمسة عشر الف جندى بعد هزيمة محمود ود احمد فى عطبرة ، أو الآثار غير المباشرة المترتبة على مذبحة المتمة التى ادت الى هز معنويات جزء كبير من مقاتلى الخليفة .

اما الباب الثالث – المعركة – وهو الباب الرئيسى فالامر فيه كان يختلف قليلا . وهناك عدة امور حتمت على ان اسلك منهجا مختلفا فى تناولى لاحداث معركة كررى . ويستحسن ان نقف قليلا عندما نتحدث عن هذا المنهج .

اولا معركة كررى ، ان اردنا ان نتناولها من ناحية الخليفة ، تختلف عن بقية معارك المهدية ، فقد كانت نهاية الثورة المهدية . وتلك الساعات الخمس التى استغرقتها والايام القليلة التى سبقت المعركة ، تمثل فترة تنعدم فيها الوثائق والتقارير من جانب الخليفة تماما ، عكس بقية معارك المهدية التى عاش قادتها بعد المعارك وكان الخليفة مازال موجودا ، فتمكنوا من ارسال تقارير عسكرية تصف الموقف تماما ، وبالتالى يمكن الاعتماد عليها لحد كبير فى دراستنا . فكان هناك اختياران لمعرفة مادار اثناء لحـظات المعركة نفسها . والفقرة القادمة ستوضح لم رفضت الاعتماد كلية على الاختيار الاول وهو الوصف المقدم فى التقارير الرسمية أو الكتب التى قدمها من شهد أو اشترك فى المعركة من الاوربيين أو من كانوا فى جانبهم .

فالمعلومات التى تقدمها تلك المصادر لاتكفى لاعطاء فكرة كاملة صحيحة عن الطريقة التى خاض بها الخليفة المعركة ، فهى تقدم جيشه فى لمحات عابرة ، القصد منها تمجيد عبقرية السردار أو بسالة جنوده . أو إلقاء الضوء على تحركات وردود فعل جيش السردار . وان كانت ندرة المعلومات أو الاهمال المتعمد فى

تقدم جيش الخليفة هو احد الاسباب التى حالت دون اعتمادى الكلى على المصادر الاوربية وعدم التقيد بها ، الا ان هناك امر لايقل اهمية جعلنى اتشكك كثيرا فى دقة هذه المعلومات ، وان اعاملها بمنتهى الحذر وان لا آخذ كل ماجاء فيها كبديهيات . ألا وهو تحوير الحقائق وتزييفها وتفصيلها لتناسب المعلومات التى قدمتها الجهات الرسمية ، وستبرز هذه الظاهرة طوال بحثنا .

فالطريقة التي تناولت بها المصادر التقليدية جيش المهدية طريقة غيرموضوعية. فعندما يهجم لواء الفرسان الخفيف البريطاني هجوما اخرق وفي وضح النهار على الرشاشات والنيران الروسية ويباد عن آخره ، تتطاير الاشعار والاغاني لتمجد الشجاعة والبطولة والتضحية ، وعندما يقتحم عشرات الالوف من جيش الخليفة خضم النيران الهائلة وهم يذودون عن حياضهم ، ويباد الالوف دون ان يتقهقر منهم رجل واحد ، تراهم يوصمون بأنهم دراويش « Dervishes » ومتوحشون « Savages » وغـلاة المتعصبين « Fanatics » تمـاما كالمتملقين الذين عندما يتحدثون عن الرجل القوى أو الغنى يعتبرون تهوره شجاعة ، وجبنه حكمة .

قلت اننى لم اعر هذا الامر التفاتا كبيرا ، فهو امر طبيعى ، فهم كانوا اعداء الخليفة ، فالمنتصر يكتب التاريخ على هواه ، وللنصر آباء كثر ، ولكن الهزيمة ابنة يتيمة . ولكن عندما يؤثر هذا الامر ويتدخل فى تقديم الحقائق نفسها كتعداد جيش الخليفة ، أو تحركاته ، أو عملياته ، أو تخطيطه بدأت اعطى اعتبارا اكبر للاختيار الثاني ، فمصدر المعلومات الذى استقى منه المؤرخون لمعركة امدرمان كان واحدا ، وهو شعبة استخبارات الجيش المصرى وعلى راسها ونجت ، وشقير ، وسلاطين. فهى التى تنشر تقارير المخابرات وهى التى حددت ماينشره الكتاب والمراسلون الحربيون الذين شهدوا المعركة . وسنعجب كل العجب عندما نرى الفارق الكبير بين المعلومات التى وردت فى مفكرة الاستخبارات اليومية Field intelligence diary المكتوبة بقلم الرصاص ولم تطبع أو تنشر بعـد وبين تقارير المخابرات التى طبعت ونشرت ، أو ماشاهده قادة السردار نفسه الذين اشتبكوا مع جيش الخليفة واوردوه فى تقاريرهم الرسمية التى لم تنشر ايضا ، وبين التقارير الرسمية التى نشرت واعتمد عليها ، ولم يجرؤ على مخالفتها ، كل من قدم المعركة .

كل هذه الاسباب جعلتنى احدد المنهج الذى ساتخذه للحصول على المادة اللازمة . فالتفت لمصدر ثمين للمعلومات أهمل لزمن طويل ولم يستفد منه الفائدة القصوى . ألا وهو أقوال الاحياء ممن اشتركوا أو شاهدوا المعركة من جيش الخليفة. والحصول على اقوال هؤلاء ، الذين تشتتوا فى ارجاء القطر الواسعة ، كان امرا اكثر صعوبة : فقد غربلت عشرات الالوف من الوثائق والصفحات ، وعبرت آلافا من الاميال ، واستمعت لمئات الاشخاص ، ولكن كان عزائي دائما ان الحقيقة اروع من الخيال ، وان الحقائق التاريخية كالمعادن الثمينة لايمكن الحصول عليها إلا بعد الحفر المتواصل الدؤوب ، ثم اخذها بعيدا لننفض منها الشوائب والمواد الدخيلة التى علقت بها .

اذن فقد اعتمدت لحد بعيد على اقوال غير مكتوبة ، وهذا يقودنا الى مناقشة هذا المنهج . منهج قبول الاقوال سواء اكانت اولية أو أقوال سماعية .

حقيقة ان وزن وقيمة الوثيقة كمصدر تاريخى يرجع فى المكان الاول الى ان الوثيقة لاتتغير ، وان عامل الزمن لايؤثر فى ماجاء فيها ، عكس ذاكرة الانسان المعرضة للضعف والاضمحلال والنسيان . ولكن من الناحية الأخرى ، يجب ان لاننسى ان هناك امرا اعظم من النسيان يهدد بتشويه التاريخ . وهو التحيز وعدم الأمانة فى لحظة كتابتها ، وتعرض كاتبها لمؤثرات غريزية وطبيعية تجعله يهون من شأن اعدائه ، ويرفع من شأن نفسه ويحاول تبرير كل افعاله ، وهذا امر واضح فى تقارير العمليات العسكرية خصوصا التى تصف المعارك بعد انتهائها ، وواضح جدا فى حالة معركتنا .

فالقضية اساسا هى موازنة بين هذه المصادر المختلفة . وقد عاملت كل المعلومات الواردة فى تلك المصادر سواء ماسمعت أو ما اطلعت عليه من وثائق أو كتب ، على اساس قبول البينة القانونية . معطيا كل الاعتبار لقرائن الاحوال ، ولتفضيل مصدر على آخر ولتأثير طول الزمن والتحيز الطبيعى .

وقادني هذا الى اتخاذ احتياطات عديدة عند قبول اقوال من اشتركوا فى المعركة. لم يكن اولها تحليفهم اليمين على المصحف الشريف واغلبهم رجال مسنون على شفا الموت ، ولم يكن آخرها مقارنتها والتأكد من صحتها جزئيا بالوثائق

والتقارير العسكرية من ناحية التواريخ والازمنة والحشود ، ثم تسجيلها على شرائط مسجلة لاهميتها التاريخية .

واسماء من اشتركوا في المعركة وذكرت اسماؤهم في مصادر البحث جزء ضئيل ممن استمعت اليهم فعلا ، ولكن المذكورين هم ابرز المصادر واصفاها ذاكرة واكثرها حيادا وموضوعية . اما من استمعت اليهم فعلا فقد تجاوز عددهم العشرات . فان كانت نقمة كررى للباحث التاريخى تكمن فى انعدام الوثائق ، فنعمتها تكمن فى أنها اقرب معارك المهدية زمنا ، وبالتالى زادت نسبة الاحياء ممن اشتركوا فيها .

وقد يبدو للوهلة الاولى ان محاولة تنشيط ذاكرة لانسان ما ليصف احداثا وقعت قبل سبعين عاما ، امر شبه مستحيل ، ولكن الامر ليس كذلك تماما . فقد لاحظت اثناء تجوالى فى مناطق السودان المختلفة لتسجيل اقوال الشهود ان الانسان فى الريف (واغلب مصادرى من الريف) ، يستمتع بذاكرة اقوى واصفى من انسان المدينة ، لانحصار همومه ومشاغله . كما ان كررى تمثل بالنسبة لغالبيتهم لحظات لاتنسى ، بل مثلت اعنف لحظات حياتهم ، فضراوة المعركة وتلاحق الاحداث وسرعتها وحجم النيران الهائل الذى انصب عليهم ، وفقدانهم لمعظم عشيرتهم ورفاقهم فى دقائق ، جعلت لحظات المعركة تنطبع فى ذاكرتهم وتترك بصماتها فى عقولهم الى الأبد ، بل لم تستطع ذاكرتهم الفكاك من ذكرياتها حتى الآن ، فقد حدثنى ابناؤهم واحفادهم انهم حتى اليوم لايملون ولايكفون عن الحديث عنها .

وقد قسمت باب « المعركة » الى خمسة عشر جزءا ، تفاوتت احجامها . وقد يغفر لى القارئ العسكرى خوضى احيانا فى بديهيات عسكرية ، وعذرى انها كلها ضرورية ، فمعركة كررى تختلف عن بقية المعارك ، فلو كانت معركة عادية لما خصصت فصلا « للجنود » ولكن جنود كررى كانوا نوعا مختلفا عن جميع المقاتلين الذين شهدتهم مسارح حروب القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، ولما خصصت فصلا «للسلاح » وخواصه لنقارن بين تسليح الجانبين ولنوضح تفوق تسليح السردار وقوة نيرانه ، وهو السبب الرئيسى فى انتصاره ، ولما خصصت

فصلا لقادة المعركة والخلفيات والحساسيات التى تمكنت منهم لتفسير سلوكهم وادائهم اثناء المعركة .

ويبدأ سرد احداث المعركة من الفصل الرابع « الحشد» اى منذ ان بدأ الخليفة فى حشد قوته وتقليب الخطط المتتالية لمواجهة الغزو ، يليه فصل « العدو » الذى يصف تقدم العدو « من وجهة نظر الخليفة ورئيس استخباراته الامير عبد الباقى» من عطبرة حتى كررى .

اما الفصل السادس «التقدم» والسابع «ليلا أم نهارا» والثامن «الليلة الاخيرة» والتاسع «الخطة» فهى فصول تتحدث عن الاحداث والعمليات والمجالس العسكرية التى عقدها الخليفة في يوم وليلة الاول من سبتمبر ، وتبلورت كلها فى الخطة النهائية التى قرر ان يخوض بها المعركة .

اما احداث معركة ٢ سبتمبر ، المعركة الرئيسية نفسها ، فقد وصفت فى الفصل العاشر «المرحلة الاولى» والفصل الحادى عشر «الصدام» والفصل الثاني عشر « المرحلة الثانية » وقد اعتمدت فى الوصف والسرد على الخرائط والرسوم العسكرية . فالغرض من السرد المكتوب هو تفسير الرسوم والخرائط ، وليس العكس .

اما الفصل الثالث عشر « المدينة الجريحة» والفصل الرابع عشر « نهاية المطاف» فهى الختام الطبيعى للمعركة ولمصير بطل بحثنا ، الخليفة عبد الله .

اما الباب الخامس عشر فهو نقد وتحليل عسكرى لاستراتيجية الخليفة التى واجه بها السردار منذ بداية الغزو ، ومثلت معركة كررى قمتها ونهايتها .

وقبل ان اختم حديثى يجدر بي ان اذكر ان بحثنا خصص اساسا للعسكريين ، ولكن كررى اكبر من ان تكون حكرا عليهم وحدهم ، فقد مثلت نهاية فترة حافلة في تاريخنا القومى ، وترتبت على احداثها امور جسيمة ، اولها احتلال اجنبى دام ستين عاما . اما عالميا فقـــد مثلت قمة الفـــترة الاستعمارية التى اشتهرت بـــ «التكالب على افريقيا» ،ومكنت الاستعمار الاوربي من فرض ارادته على اول امة افريقية تبنى بسواعد ابنائها لاغير .

ونحن لانستطيع ان نتحدث الآن عن الثمن الذى دفع عندما « نلنا» استقلالنا ، فذلك من واجب الاجيال القادمة . ولكنى استطيع ان أتحدث بثقة عن الثمن الذى دفع عندما «فقدنا» استقلالنا . وهو ثمن باهظ جدير بأمة عظيمة ، غنية بالرجال والمبادئ والأصالة .

والله المـــــوفق ، ، ،

رائد : عصمت حسن زلفـــــو

امدرمـــان مايو ١٩٧٢

الباب الاول

الثــورة



العاج الابيض . . . والعاج الاسود

انحدرت شمس الاصيل وألقت بأشعتها الواهنة على الحشائش الطويلة المتماوجة ، وهى لاتدرى انها تشهد لحظة عظيمة عندما كشفت عن رجلين جالسين يتحدثان بهدؤ . كان أحد الرجلين طويل القامة اسمر اللون ذا عينين قدريتين وأسنان بيضاء لامعة ، التف حوله بضعة رجال من سكان الجزيرة ، والرجل ذو الزى الرسمى يصغى بانتباه ليقاطعه بين فينة واخرى . . . وفجأة انتفض الرجل الطويل واقفا وضرب صدره بيده وبدأ يتكلم بصوت عال ، وكلما مضى فى حديثه كلما ازدادت حدة انفعاله ثم ختم حديثه قائلا : « لن أذهب للخرطوم ولن أبرئ نفسى امام علمائكم المضللين . ورب الكعبة لقد كلفت برسالة سأؤديها ولو وقفت امامى كل عقبات الدنيا ». تراجع الرجل الآخر مذعورا أمام لهجة محدثه العنيفة وبدا يهدئه بعبارات رقيقة محاولا التخفيف من حدة لهجته ، ولم يزد هذا صاحبه الا انفعالا . وعندما يئس أخيرا صار يتلصص النظر للنهر الذى رست على ضفافه الباخرة التى أقلته شمالا ، فقد أصبح همه العودة للخرطوم نافدا بجلده . واذن له محدثه فودعه متخاذلا وسار بخطى مضطربة الى الباخرة التى أقلعت شمالا .

كان ذلك فى عصر يوم ٧ أغسطس ١٨٨١ وكان المتحدثان هما محمد أحمد المهدى وأبو السعود بك الذى أرسله رؤوف بك حكمدار السودان لحث المهدى للحضور للخرطوم لمقابلة علماء الدين لاقناعه ورده للصواب بعد ادعائه بأنه المهدى المنتظر . وكانت تلك هى المرة الأولى التى يجاهر فيها المهدى بدعواه أمام ممثل الحكومة معلنا تمرده عليها صراحة . فقد أحس أن اللحظة المناسبة قد حانت وأن سكان تلك الارض التى سيطرت عليها أداة حكومية خربة، وجيوش ضعيفة قد نضجوا للثورة ولم يبق الا اشعال فتيلها . فقد أعمات فيهم ستون عاما من الغضب المكبوت عملها، وبدأ الهمس الساخط يتحول الى مجاهرة وتمرد متقطع .

وحتى حينما بدأ الغزو التركى عام ١٨٢١ لم يكن السودان أمة واحدة بل كانت مجموعة من قبائل مفككة غير مترابطة ، لازالت غالبيتها العظمى محتفظة

بالسمات الأولى للمجتمع القبلى ، عدم استقرار ،وتنقل سعيا وراء المراعي للقطعان ، فيما عدا تلك القبائل التى استقرت على النيل ، وقد كانت أكثر تعرضا لرياح المدنية التي تهب عليها من الخارج ، فاستوطنت شواطئ النهر واستثمرت الشريط الضيق على شاطئيه وذاقت نعمة الاستقرار داخل الاطار القبلى ، لارابط ولاضابط بينها إلازعماء العشائر والاحترام العميق للدين .

أما تلك المساحات الهائلة من الأراضى التى أحاطت بالنيلين وروافدهما فقد فصلت بين مملكتين عريقتين هما مملكة الفونج فى الشرق ، والفور فى الغرب . وعلى الرغم من تمكنهما من ابراز فعالية واضحة فى مركزية السلطات الادارية والتنظيمية داخل ممالكهم ، الا أن سلطتهم على بقية أجزاء البلاد كانت محدودة فى أوائل القرن التاسع عشر ، ولم تعد هذه أن تكون اما مقاطعات تابعة لهمـــا أو مجرد مناطق نفوذ ، وغلب اضمحلال نفوذهما كلما بعدت المسافة من العواصم .

ولكن مملكة الفونج أسهمت اسهاما حضاريا واسعا فى تكييف حياة سكان تلك البقاع . فملوك الفونج اشتهروا بالنزعة الدينية القوية . واهتموا اهتماما كبيرا بعلوم الفقه والشريعة . وما ارتفع اسم عالم فى العالم الاسلامى الا دعوه، وماسمعوا باسم فقيه أو متبحر فى علوم الدين داخل دولتهم الاوسارعوا باكرام وفادته . وقد ظل الرواق السنارى فى الأزهر يشع بقبس المعرفة الضئيل لقرون طويلة ويصدر العلم والفقه الى تلك الاصقاع الشاسعة . فكان أن انتشرت الطرق الصوفية والخلاوى والزوايا لتدريس القرآن فى طول البلاد وعرضها ، ومارس دعاتها نفوذا قويا على السكان والقبائل ، وحقيقة كان يمكن اعتبارهم « الطبقة المثقفة » وسط تلك المجتمعات القبلية .

أما المجتمع الجاهلى القبلى حقيقة فقد تمثل فى غرب النيل الأبيض وحتى حدود مملكة الفور ، وبالاخص فى حزام البقارة ، فهؤلاء قوم لم يفلح تغيير البيئة ، ولا المسافات الشاسعة التى قطعوها ليستقروا أخيرا فى تلك البقاع ، ولا استبدالهم رعى الجمال برعى الماشية التى استمدوا منها اسمهم ، كل ذلك لم يفلح فى تغيير ميلهم الطبيعى للفروسية والقتال المتصل وعزوفهم عن الاستقرار .

لقد أنتج الاختلاط بين العرب والزنوج والحاميين مزيجا رائعا حملت

جذوره خصال القوة والضعف لكل تلك العناصر ، ولكن ذلك الرجل الذى دق صدره متحديا السلطات عزم على أن يقدم للتاريخ خير خصال أمته من تضحية وشجاعة وقوة نضالية لم يشهدها العالم الا قليلا .

لقد أرسل محمد على حاكم مصر ابنه اسماعيل باشا عام ١٨٢١ فاتحا لينهب خيرات تلك الاقاليم . وجهز جيشا حديثا اخترق البلاد جنوبا ثم مال شرقا الى مملكة الفونج ليستولى على عاصمتها بسهولة . فقد كانت حربا بين البارودوالعضلات البشرية ، بين السيف والبندقية ، ولم يكن هناك دافع ولاخلفية لخوض حرب استقلالية بمعنى الكلمة ، بل كانت الكرامة الشخصية هى الدافع ، فالدين لم يكن حافزا على القتال ، فالغزاة مسلمون ، اما الوطن فلم يكن هناك احساس به لأن الروابط التى تصنع الامم على الرغم من توفرها لم تجد من الأحداث أو الاشخاص من يبرزها .

ومضى الشاب المتعجرف الغرير اسماعيل ينتقل من نصر الى نصر ، ودانت له كل القبائل بالطاعة الى أن سولت له نفسه أن يوجه اهانة شخصية للملك نمر زعيم قبيلة الجعليين الذى لم يصبر على الضيم طويلا ورد الصاع صاعين ، فحملت الرياح الشمالية انباء انتقامه رمادا مذرورا من جثث الغزاة المغرورين .

ومن هنا بدأت الغصة تتجمع فى حلق السكان ، فالدفتردار ، صهر اسماعيل ، والذى انعطف عنه غربا لفتح اقايم كردفان سمع بمصير قريبه فكرّ راجعا الى شندى خائضا بحرا من الدماء مخلفا وراء طريقه الدموى الحرائق والاشلاء.

وعندما وصل لشندى كانت يداه قد غرقتا دما دمارا ، فصمم على أن يقتص من الملك نمر قصاصا عادلا وأن ينهى الموضوع عند هذا الحد . وقابله سكان المتمة خارج البلد وطلبوا منه الأمان فأمنهم على حياتهم وأموالهم ومضى ليعبر النهر لشندى فاندفع أحد رجال الجعليين وقذف نحوه حربة اخطأته ، فعاوده فوران الدم وفارقه اتزانه ، وأمر بجمع السكان مرة أخرى وبكلمة واحدة أبادهم جميعا ، رجالا ونساء واطفالا . ووقف على صهوة جواده يرقب الجثث وهى تتهاوى بالعشرات ، ثم عبر النهر لشندى وعندما وصلها كان الملك نمر قد غادرها فصب جام غضبه على السكان العزل وأحرق المدينة وأباد سكانها واستمر فى

مطاردة الملك نمر مخلفا وراءه مجزرة امتد مسرحها لمئات الأميـال ووجدت القرى والمدن التي مر بها نفس مصير شندى ، وهى المتمة ، والعيلفون ، وتوتي وود مدني. وقد كانت حمامات دم الدفتردار هى أول سبب للمرارة التى أحس بها الأهلون نحو الادارة التركية ، فقد كانت تلك هى الأيام الأولى للعهد الجديد ، ومن الفجر يعرف المرء ان كان يومه صافيا هادئا أم مليئا بالغيوم والعواصف .

وعلى الرغم من أن محمد على الكبير كان رجلا حكيما يحسن ادارة البلاد التى يحكمها الا أنه لم يكن كذلك نحو السودان ، فقد وضع لاعوانه الخطوط العريضة لحكم السودان وهي باختصار :« انهبوا قدر ما استطعتم وأرسلوها لى » وكان يظن أن السودان منجما كبيرا للذهب ، وعندما خاب فأله تحول لخيراته الأخرى وأهمها اصطياد الرقيق . وكان واضحا أنه يرغب فى عصر طاقات الاقاليم البشرية لتغذية الجيش الضخم الذى انتوى انشاءه للمحافظة على سلطته ولاقامة الامبراطورية الواسعة التى طمع فى انشائها . فقبلا كانت الجندية حكرا على الاتراك والارنؤوط ، وشكلت العناصر التركية فى مصر على قلتها طبقة عسكرية ممتازة مرهوبة الجانب ، واضطرته حروبه فى الحجاز الى تجنيد الآلاف من عناصر مختلفة سواء من المغاربة أو الفلاحين .وسرعان ما أقنعته تجربته الأليمة فى حملات الحجاز الى البحث عن مصدر آخر ، فأتجهت انظاره جنوبا . وتلك كانت البداية التى أدت الى اشتهار السودان بتجارة الرقيق ، وأدت الى آثار بعيدة المدى . وصحيح كانت هنـــاك تجارة رقيق من قبل وبعض القلة من الكبار وزعماء العشائر كانوا يحتفظون بالعبيد ، ولكن عددهم كان جد ضئيل . وكانوا قلة هنا وهناك ، ومن الخطأ مقارنتهم بحال العبيد فى الولايات الجنوبية فى امريكا مثلا ، اذ لم يكن عددهم كبيرا ولم يكن استغلالهم منظما فى مزارع أو نحوها ، وأحسنت معاملتهم وكانوا يعتبرون فى أغلب الاحيان كأحد أفراد العائلة وظلت هذه الحالة سائدة لقرون ، ولكن تعليمات محمد على لقادته كانت هى الشرارة الاولى التى فجرت عشرات من حملات الاستجلاب .

والمتصفح لخطابات محمد على التى أرسلها لابنيه اسماعيل ثم ابراهيم وهو يحثهم حثا متواصلا على مواصلة ارسال الرقيق،يستشف فورا رغبته المحمومة

واهتمامه البالغ بجمع أكبر عدد ممكن للدرجة التي قسم فيها عملية الاستجلاب الى عدة أطوار من حملات الاصطياد فالترحيل والفرز والتطويع ، وكل هذا يجري على نطاق واسع منظم . فقد كتب لابنيه اسماعيل وابراهيم :

« وانكم عاقدون عزمكم على أنكم متى أخذتم بنصره تعالى السود استخرجتم منهم نسوانهم وصبيانهم فابقيتموهم هنالك وبعثتم بذكورهم الصالحين لاعمالنا الى الامام . وحين يبلغ عدد هؤلاء الذكور عشرة آلاف تعقبونهم بارسال ما استوقف واستبقى من النساء والصبية أيضا » .

أما مصادر الرقيق التي لم يتمكن من اخضاعها بحد السيف لبعد المسافة فقد وجه ابنيه إلى عقد معاهدات مع الممالك المحلية ليمدوه بالرقيق ، فقد كتب في أول رجب ١٢٧٣ يوصي ابناءه بأهمية الوصول لاتفاق مع سلطات دارفور :

« . . . بما أن من مقتضى ارادتنا أن نرتبط مع حاكم دارفور باتفاق بخصوص جلب العبيد واستخراج معدن النحاس فقد كتبنا للحاكم الموحى اليه كتابا عربيا يتضمن صورة الاتفاق على ذينك الامرين وأرسلناه مع أحد المماليك (الامراء) . . »

وفي ذو القعدة من نفس العام كتب كاشفا عن نفاذ صبره لتأخير وصول جنود المستقبل وأنه قد قطع شوطا طويلا في الاستعداد لاستقبال الضحايا الجدد :

« الجهات التي يرجى فيها وجود العبيد يستولوا على كثير منهم واذا لم يمكن في العام الماضي الحصول على عبيد وفق مأمولنا بسبب قلة الخبرة والانشغال ببعض الأمور . . . . والذين أمكن الحصول عليهم لم يوقوا التلف لبعد الطرق ولقلة بعض المهمات كالنافورة والماء الا أنه لامراء أن الطرق قد اتخذت فيها الاستعدادات في هذه السنة فأرني نشاطك فاني أرجو منك الاتنئ في القيام بالغزوات كما قلت في متن كتابي وأن تعتني بارسال كثير من العبيد على حساب الفردة وان تملأ ثكنات اسوان هذه السنة بالعبيد بفضل الله تعالى وأن تهتم بهذا الأمر أكثر من كل شأن . »

وبعد مرور فترة زمنية طويلة لم تتجمع خلالها الأعداد بنفس القدر المأمول

أرسل يلوم قادته موضحا لهم المشاق التى تجسمها فى أقامة الثكنات والاستعدادات الصحية :

« حمداً لله ثم حمداً ان ثكنات اسوان وفرشوط قد اكتسبت نظامها ولم يبق شيءٌ من الامر الا ورود العبيد الذين نطلبهم . »

ولما تلاشت الحمى الاولى من حملات محمد على وبدأت الاعداد تتناقص اضطر محمد على الى طلب تجنيد جيشه من ابناء القبائل الشمالية وبدأ نظام «المردان» للتحايل على الأهالى للحصول منهم على المجندين بدلا من الحملات التى فشلت فى استجلاب الكميات المأمولة من المناطق الجنوبية . ولنا أن نتمعن فى ماذكره المؤرخ محمد عبد الرحيم الذى أجرى استقصاءا واسعا حول هذه النقطة :

« المردان هم الشبان الذين لم يتجاوزوا الحلقة الثانية وهو ما انطبق عليهم سن القرعة — قابل الحكمدار خورشيد محمد على باشا عام ١٨٣٦ وأكد له ضرورة الحصول على الشبان لتقوية جيشه،فاستدعى خورشيد نظار القبائل وطلب منهم الشبان فامتعضوا وأخذوا يعقدون المجالس ويتناجون بما عسى فعله . فوصل احمد بك أبو سن زعيم الشكرية وطلبوا منه الحل .

ولقد عارض الاهالى فى أخذ ابنائهم للجندية وبعد مفاوضات طويلة مع الحكمدار تم الاتفاق على أخذ المردان من اولاد العبيد — وفرضهم غرامة على من يرتكب جريمة ضد الحكومة . وهذه روجت تجارة العبيد أو الرقيق اذ اصبحت الحكومة تفرض المردان فرضا على الاهالى ويشتريهم هؤلاء من النخاسين ويقدمونهم الى الجباة بدلا من الضرائب — كما قام الحكمدار نفسه بغزوة فى حدود السودان مع الحبشة واحضر معه بضعة آلاف شاب من البرقو،والانقسنا،والبرتي،وعاد الى الرصيرص ومنها الى الخرطوم.ولما ضمت كبانيات بحر الغزال الى الحكومة عين حسين الشلالى مديرا للقرعة أى لجمع المردان فى جهات خط الاستواء حتى بلغ عدد السودانيين فى الجيش المصرى ٣٠٫٠٠٠ فى عهد محمد على وأوقف فى عهد اسماعيل . وكان أغاب مديرى السودان يسربون نحو ٣٠٪ من المردان ليباعوا لجيبهم الخاص فى

اسواق العالم بواسطة تجار الرقيق . »

ولو كانت هناك حسنة واحدة بدت خلال ستين عاما من القهر والاستغلال فى ذلك العهد فقد كانت توحيد السودان اداريا . ففيها رسمت لاول مرة حدوداً رسمية لهذه المساحات الشاسعة المتباينة التى أصبحت تسمى بالسودان . ولم يكن الهدف الاساسى بالطبع هو خلق أمة واحده بل كان تسهيل إدارتها وحكمها بما يكفل طريقة أكفأ وأسرع للنهب . فقسمت البلاد الى اقاليم وقسمت الاقاليم الى مديريات ، ولكل ادارة شبه منفصلة انشطها ادارة جمع الضرائب .

أما ماكان يحدث داخل هذه الرقعة بقبائلها وعناصرها وطبائعها المتباينة فلم يتأثر كثيرا بالوضع الجديد .

وطوال الستين عاما التى استغرقها الاحتلال كانت تبدو بين الفينة والأخرى لمعات عابرة من الخير ، فبعض الحكام حاولوا جهدهم تنظيم الادارة بل حاولوا اشراك السودانيين فى الحكم وتنظيم أداة الحكم المحلى بواسطة النظار والمشائخ ولمعت الاسماء السودانية أمثال الياس باشا امبرير، والنور عنقرة، وخالد زقل، وحسين خليفة كاداريين وضباط سودانيين اكفاء . وتبعهم توظيف اعداد كبيرة من أهالى البلاد فى مختلف المهن المختلفة ، وهذا مما خفف قليلا من سؤ الاحوال ولكن الخط العام كان لايزال كما هو ، والقياس لنجاح الحاكم ظل هو مقدار مايبعث به الى مصر . فلكى يجمع الحكمدار فى الخرطوم حصيلته السنوية لارسالها لمصر ، لم يكن يترك سبيلا فى الضغط على مرؤوسيه لتجميعها ، فلا العاج ولاريش النعام ولا الصمغ كان يكفى ، فكان يلجأ دائما الى فرض الضرائب الباهظة على السكان ، وزبانيته جامعى الضرائب الذين صارت فظائعهم اساطيرا شعبية لم يألوا جهدا فى جمعها — أولا لتحقيق مطلب الحاكم وثانيا لملء جيوبهم تعويضا لهم عن نفيهم الى ذلك الاقليم السحيق، اذ لم يكن يبعث للسودان الا الموظفين المغضوب عليهم ، وظنوا ان جمع الاموال بطرق غير مشروعة هو أقل تعويض لهم لما يقاسونه فى المنفى .

وكان العبء كله يقع على المواطنين وعلى امكانياتهم البسيطة ، وسرعان مابرزت سمات تلك الفترة : ضرائب باهظة على الأهالى تفوق طاقتهم ، فالأغنياء

منهم كانوا يتخلصون برشوة جامعي الضرائب ، والفقراء اما وجهوا طاقاتهم لجمع العبيد من الاقاليم الجنوبية ، اذ صارت تلك المغامرة المربحة هي الملجأ الوحيد لمقابلة الضرائب المتصاعدة وسوط الباشبزق الذى لايرحم ، أو كانوا يلجأون الى التنقل المستمر وهجر الارض والمرعى الى أماكن لايصلهم فيها جامعو الضرائب . ومن ثم اصبحت الارض الخصبة مهجورة من سكانها .

وقد هال الأمر سلاطين عندما أرسله غردون فى حملة تفقدية عندما كان مفتشا ماليا لحكومة السودان ، وضمن فى تقريره سؤ نظام الضرائب ، سواء فى مقاييس تحديدها أو طرق جمعها ، فالاغنياء كانوا يدفعون ضرائب أقل من البسطاء وكانت الضرائب متصاعدة ولكن بطريقة عكسية ، كما أن جامعى الضرائب لم يكونوا يلتزمون بالحدود القانونية فى جمعها . وجمع سلاطين آلافا من العرائض والظلامات من السكان ، ورفع الأمر لغردون .

ثم تولى الحكم فى مصر الخديوى اسماعيل ، وسرعان ماوضح طموحه لانشاء امبراطورية كبيرة تمتد حتى منابع النيل جنوبا وتضم كل شرق افريقيا واثيوبيا . وانتهز الفرصة فى الحفلة الراقصة التى أقامها فى أعظم أيام حياته ، ليلة افتتاح قنال السويس ، حينما لمح المستكشف صمويل بيكر يقف مرافقا لوفد ولى العهد البريطاني . وكان اسم بيكر قد لمع قبل ذلك فى كتاباته ومحاولاته لاكتشاف منابع النيل . فتقدم الخديوى منه وقدم اليه عرضا بالعمل معه بمرتب مغر مقابل فتح كل جنوب السودان حتى منابع النيل وضمها لمصر أولا ، وايقاف تجارة الرقيق فى تلك المناطق النائية ثانيا .

أما الهدف الأول فلاشك ان اسماعيل كان جادا مخلصا فى تحقيقه ، فكل ايرادات مصر من بيع الاقطان والمحاصيل لم تتمكن من اشباع وتغطية اسرافه وبذخه المشهور ، أو تمويل مشاريعه الضخمة ، ولاشك انه ظن ان خيرات الاقاليم الجديدة من سن الفيل والصمغ والجلود والحبوب ستساعد كثيرا فى تمويل مشاريعه وملء يده المبسوطة دائما . أما جديته فى تحقيق الهدف الثاني ، وهو ايقاف تجارة الرقيق ، فهى محل شك وجدل . فاسماعيل اكتظ جيشه بعشرات الألوف من السود وكان يعلم مصدرهم جيدا ، وكان يغمض عينيه طوال السنين عن مصادر

ثروات عماله من الخرطوم وعن أعمال شركات الاستثمارات المشبوهة مثل شركة العقاد التى كونت ثروة عظيمة فى زمن وجيز جدا من المتاجرة فى سن الفيل وريش النعام علنا ، وفى الرقيق سرا .

على أى حال ، كان اسماعيل مجبرا على اعلان واذاعة هذا الهدف على أوسع نطاق . فبعد كتابات بيكر ، وبيرتون،وسبيك ، وبعد انتشار قصص ضبط عشرات من السفن المحملة بالرقيق فى المحيط الهندى فى طريقها من زنزبار وشرق افريقيا ، أصبحت محاربة تجارة الرقيق هى الصيحة الجديدة وسط الدول الاوربية وهى تبحث عن ذريعة للتدخل فى افريقيا . وكان لابد لاسماعيل الذى لايستغنى أبدا عن الديون الأوربية ، أن يعلن هذا القرار على (١) الملأ ليضمن استمرار تدفق التمويل الأوربي ، وكان اختيار بيكر اختيارا بارعا . فقد كان بيكر هو الذى استصرخ الحكومة البريطانية قبل أعوام :

« ان لم تتدخل بريطانيا فورا فستصبح هذه الأراضى المبشرة بالامكانيات الضخمة قاعا صفصفا وتضيع قبل أن تمتد اليها يد الحضارة المسيحية . »

ومن هنا بدأت مهمة بيكر الطويلة التى استمرت ٥ سنوات تمكن خلالها من انشاء عدة نقاط عسكرية أشبه بالقلاع على طول النيل الأبيض من غند كرو جنوبا الى منابع النيل. فانشأ نقاط الابراهيمية،وفلتيكو،وفويره،وماسندى،وتوقف هناك حيث قاومه الاهالى مقاومة مسلحة . واثبتت احداث ماسندى ان كل اغلفة المبادئ الانسانية وتحرير الانسان تتبخر فى لحظة واحدة عندما تصطدم بالاطماع

---

(١) يوضح شبيكة ان حساسية حكام مصر من اثارة الدول الأوربية بشأن تجارة الرقيق تعود إلى زمن محمد علي . فيورد لنا خطاب محمد علي إلى حكمدار السودان بتاريخ ٥ رجب ١٢٥٩ فى اقتصار الحملات على استجلاب المقاتلين وعدم بيع من لا يصلح للجندية :

« ونحن نلفت نظركم إلى وجوب عدم بيع هؤلاء العبيد بأى حال من الأحوال وانما عليكم ان تعملوا على اعادتهم إلى أوطانهم لان بيعهم يثير ثائرة الأفرنج ويجعلهم يحملون علينا من جديد فاياكم وبيعهم فان فعلتم ذلك لما قبلنا منكم أى عذر واذا كنتم قد بعتم أحدهم قبل صدور أمرنا هذا عليكم ان تعملوا على استرداده ولا بد من تعيين عقوبة صارمة لكل من يقدم على بيع أى عبد منهم . »

شبيكة – تاريخ شعوب وادى النيل ص ٤٧٩

الحقيقية . فعندما ثار « كابريقة » السلطان اليوغندى على تدخل الغزاة فى أرضه لم يجد بيكر طريقة أحسن لفرض سلطانه على القوم الذين أتي لتحريرهم . . . إلا بقتلهم . فهاجمه السلطان وارغمه على اخلاء ماسندى وانسحب عائدا بعد نهاية مهمته بنهاية مدة الخمس سنوات.

بعد انشاء النقاط العسكرية على النيل الابيض انتقل نشـــاط الشركات والكبانيات ومن خلفهم صغار التجار غربا نحو بحر الغزال وبحر العرب . وظهروا باعداد ضخمة فى تلك المناطق . وهنا بدأ اسم الزبير (١) ودرحمة فى اللمعان .

---

(١) نادرا ماثار الجدل حول شخصية تاريخية وتناقضت وتضاربت الروايات عنها مثلما تضاربت حول الزبير . ولكن هذه الظاهرة ستقابلنا كثيرا فى مرورنا السريع على تلك الحقبة التاريخية . فبينما قدم الأوربيون الزبير كشر مستطير عاث فسادا فى الأرض وكان المسئول الأول عن تجارة الرقيق فى بحر الغزال ، ووصفته الصحافة الأوربية بانه « أكثر نخاسي أفريقيا ذيوع صيت . »

"The most notorious slave trader Africa has ever produced"

نجده يقدم فى مذكراته التى كتبها بيده رواية مختلفة تماما عن كل الأحداث والاتهامات التى الصقت به وينفيها نفيا باتا ويعتبر نفسه قائدا لجيش ضخم وفاتحا لبلاد وأقاليم وقائدا لثورة اجتماعية .. على أن هناك عدة أسانيد تقف فى صف روايته عندما ذكر أنه لم يبع الرقيق ابدا بل كان يشترى ضحايا السلاطين ممن صدرت أحكام الاعدام ضدهم ويدربهم على استخدام السلاح لضمهم لجيشه . فهو لا ينكر انه اشتراهم ولكنه ينكر انه باعهم ..

أولا من أين تسنى للزبير انشاء ذلك الجيش الضخم ليواجه به قبيلة الرزيقات « تراب الهين » أقوى قبائل الغرب واغناها وأكثرها عددا لينتصر عليها ثم يواجه جيش سلطان دارفور الذى تجاوز مئات الألوف . ؟

ثانيا : اخلاص واستماتة جنوده فى القتال وأغلبهم من السود الذين اتهم باسترقاقهم ونوع العلاقة بينه وبينهم لا يمكن أن تكون أبدا العلاقة السائدة بين التاجر وبضاعته — بل تكاد تؤكد روايته من أنه انقذهم من الموت وافتداهم وكساهم وأطعمهم ثم دربهم ليصبحوا ذلك الجيش القوى .

وهناك مدرسة تتوسط الرأيين تعتقد أن السلاطين من الدينكا تواطأوا مع الزبير لحاجتهم الماسة لبضائعه ، وان حملات استجلاب الرقيق كان يقوم بها سلاطين الدينكا ، وهم بدورهم كان لهم رقيقهم الخاص من قبائل غرب بحر الغزال مثل الكريش والفرتيت « ومن هنا نشأ اسم الكارا أكبر عنصر مكون للجهادية » وتولى هوتدريبهم ليكونوا نواة جيشه الضخم .

ومن جميع المؤرخين وقف المؤرخ شقير فقط فى صفه فقد قابله وقبل روايته كما هى ونشرها على أنها حقيقة الأمر وهى تكاد تطابق مذكراته التى اطلعت عليها فيما عدا بعض الاختلاف البسيط وكتاب هـ .ج . جاكسون عبارة عن تحقيق لهذه المذكرات

ويستحق منا الزبير وقفة قصيرة . ليس لان ثلاثة من أشهر قادة المهدية خدمـــوا فى مقتبل حياتهم فى صفوفه ، بل لما أسهم به الزبير فى تقدم الفكـــر العسكرى لاهالى البلاد عندما انشأ جيشا نظاميا حديثا يتبع أسســـا تكتيكية سليمة . فالزبير كان صاحب الفضل الأول بلامنازع فى تدريب وتخريج اعداد كبيرة من أهالى البلاد، دربوا على الاسلحة النارية التى كانت وقفا على جيش الاحتلال . فالبحارة « والبازنجر » . لم يعرفوا استخدام السلاح كمجاميع الا عندما خدموا مع الزبير ، والرزيقات والفور، لم يعرفوه الاعندما حاربوا ضد الزبير .

وقد هاجر الزبير تاجرا بسيطا فى الشمال الى بحر الغزال وبعد سلسلة من المغامرات الاسطورية مع سلاطين بحر الغزال وبحر الجبل ارتفع صيته كأحـــد سدنة التجارة فى تلك المناطق، فبدأ يخطط لانشاء جيشه المشهور الذى نما حتى تجاوز ١٥٫٠٠٠ وأغلبهم من سكان البلاد الأصليين الذى اشتهروا باسم « البازنجر » ،

M.C.Jackson, *White Ivory and Black Ivory. The story of Zhubier Pasha as told by himself* ;London, 1913).

ويمكن القول باطمئنان أن الزبير لم يبع الرقيق فتعداد جيشه الضخم يشهد بهذا ولكن الشكوك تحيط به فى أمرين . أولا ان لم يبع الرجال فماذا حدث لعوائلهم . لعل رأى المدرسة المتوسطة هو الذى يقدم الا جابة على هذا السؤال من أنه اشترى الذكور من السلاطين ولم يقم هو بعمليات الاستجلاب التى يصحبها سبى النساء والأطفال . كما توضح مذكراته أنه كان دائما فى موقف المدافع عن نفسه ولم يبدأ أحد بالحرب بل دافع ضد جيوش من الرجال ولم يغز أى من أقاليم بحر الغزال .

أما الأمر الثانى فهو ثراؤه الضخم وثروته التى نمت بسرعة. هل كان سن الفيل والعسل والصمغ كمصادر ربح وحدهما كافيه لتكوين هذه الثروة الطائلة ؟ والتحقق من هذا الأمر قمت بالاطلاع على بعض اوراقه القديمة المحفوظة الآن بمنزله بالجيلى . حقيقة اثبت التحقيق السريع فى الفواتير ودفاتر الحسابات أن عمليات التجارة بهذه المنتجات تجاوزت مئات الألوف من الجنيهات .

وقد تكتمل الصورة لحد ما اذا اضفنا لها المعلومات التى قدمتها مذكرات النور عنقره « بخط اليد» فالنور يعترف فى مذكراته انه غزا بعض أماكن بحر الغزال وسبى الرقيق فى الفترة التى سبقت إنضمامه للزبير .

أما بعد انضمامه للزبير فلا يذكر حدوث ذلك الأمر ابدا وانما يتحدث عن انشغالهما بأمور أعظم من تدريب وتسليح ومعارك .

Wingate Paper, Box 18, مذكرات الزبير باشا بخـــط اليد
Oriental Studies Department, University of Durham.

مذكرات النور عنقرة بخط اليد – من مجموعة السيد عبد الله الأمير اسماعيل
شقير ص ٥٨٦ – ٥٩٤

ويروى لنا في مذكراته التي كتبها بخط يده كيف اختمرت الفكرة في رأسه من البداية بعد رحلته الثانية لبحر الغزال عائدا من الخرطوم :

« ولبثنا في بندر الخرطوم بضعا من الشهور صرفنا خلالها مامعنا من البضائع المحضرة معنا من تلك الجهات واشترينا بأثمانها بضائع واسلحة وذخاير ووجدنا مستخدمين زيادة واخذنا في أهبة السفر للبلاد المذكورة ثانيا وحملت معي من الهدايا النفيسه الى السلطان تكمه ورؤساء مملكته ومايليق بهم وفي الثاني والعشرين من القعدة عام تاريخه بارحنا الخرطوم قاصدين بلاد النمنم فصار وصولنا اليها في عشرين صفر عام ١٢٨١ (٢٥ يوليو ١٨٦٤) فقابلنا السلطان تكمه وفرح بقدومنا وهيأ لنا عزومة ذبح لنا فيها كثيرا من الوحوش ومابة كلب سمين من الكلاب المعدودة لاكله خاصة، وقدمنا له ما احضرناه معنا من الهدايا النفيسة لخاصته وكذلك لرؤساء مملكته فسروا بذلك سرورا عظيما وبعد ذلك أخذت في تصريف ما احضرته من البضائع وفي مشترى سن الفيل وكان من عوائد اهل البلاد تلك انهم يبيعون اهل الجنايات كالسارق والزاني في الاسواق ويذبحونهم ويبيعون لحومهم كالابقار يشتروها اهل تلك الجهة ليأكلوها فلما رأيت منهم ذلك اخذت اشترى من اجد فيه اللياقة لحمل السلاح وافديه من الذبح حتى بلغ ما اشتريته نحو الخمسمائة تقريبا وصرت اعلمهم حمل الاسلحة النارية الى أن عرفوا ذلك وسلحتهم جميعا من الاسلحة التي احضرتها معي وصاروا من جملة المستخدمين فلم أدر حتى رأيت السلطان تكمه تغير حاله معي باطنا لما أوجسه خيفة من استيلائي . »

ثم بدأ جيشه في التوسع بعد انضمام أغلب التجار لصفوفه (١) :

« ومن ذلك الوقت انتقلنا في طور جديد وصرت ملكا على أهالي تلك البلاد وشرعت في تنظيم العساكر وجلب الأسلحة والذخائر وكل ذلك لم يمنعني من

(١) حسب رواية النور عنقرة فان انضمامه بكل رجاله وكبانيته إلى كبانية الزبير كانت هي بداية انطلاق الزبير في توسعه لا نشاء ذلك الجيش العرمرم :

« اجتمعنا نحن والزبير باشا بالكبانية وكان تحت رئاستي زيادة على الالفين نفر تقريبا جميعها حاملة أسلحة نارية بروحين والزبير معه ثلاثة ألف نفر حاملة أسلحة بروحين الجملة خمسة ألف بازنقر ولهم معرفة بالنيشان وضرب السلاح . »

مذكرات النور عنقرة — ص ٢ .

تجارتي . بل صار لى عونا عليها وزيادة فيها ، وبعد ذلك تسامعت بنا كافة المستخدمين فى أطراف التجار وغيرهم ممن يرغب فى الاستخدام فحضروا عندنا افواجا واستخدمناهم عندنا بصفة عساكر فزادت قوتنا اضعافا وفتحنا كثير من الاملاك المتاخمة لنا أحجمنا عن ذكرها خوف الاطالة وصارت تلك البلاد مركزا عمومياً لى الى أن حضرت الى المحروسة فى عام ١٢٩٣هـ» .

وسرعان ماتمكن الزبير بعد عقد سلسلة من الاحلاف مع السلاطين من السيطرة على كل بحر الغـــزال . والمتتبع لمذكرات الزبير لابد سيعجب من أين توفرت لهذا التاجر المغامر كل هذه الكفاءة (١) العسكرية التى مكنته من تدريب الجيوش ، وتنظـــيم الوحـــدات وتسليحها وابراز تلك المقـــدرة الواضحة فى تنفيذ عملياته الليلية وتنظيم رئاسته واقامة الاستحكامات وتحسسه الصادق دائما للمبدأ التكتيكى المهم ، تحقيق المفاجأة بالهجوم الليلى أو مباغتة العدو فى أماكن غير متوقعة وبحشود اخفيت بذكاء وحنكة ؟ !

أما غزوة دارفور فقد كانت أعظم امجاده العسكرية . وقبلا أحس الزبير بأنه عاهل غير متوج على بحر الغزال وأن حفظ الأمن وتصريف الشئون لتلك الاصقاع من مسئوليته هو . ولايمكن أن يلام على ذلك ، فهو صاحب القوة الوحيدة التى يمكنها فرض ارادتها ، ومن هنا بدأت شرارة الحرب مع السلطان ابراهيم سلطان دارفور ولندعه يصف الاحداث بلسانه هو :

---

(١) حتى غردون – ألد أعداء الزبير شهد بكفاءته التكتيكية . فعندما كان غردون محاصرا فى الخرطوم كتب ينصح حملة الانقاذ التى تقدمت نحو الخرطوم « الوقت الملائم دائما للهجوم هو الفجر أو قبل طلوع الفجر . كان هذا تكتيك الزبير دائما . والسبب ان قوة العرب الحقيقية تكمن فى خيولهم التى لا يجرؤن على استخدامها أثناء الظلام . »

"The time to attack, is dawn, or rather before it.. This was always Zhubier's tactics. The reason is that the strength of the Arabs is their horsemen who does not attack in the dark."

Journals. P 117

أما فيما يختص بالتدريب النظامى الذى تلقاه جنوده فيمكننا أن نستنتج أن النور عنقره كانت له اليد الطولى فى التخطيط والتنفيذ فالنور خدم خدمة عسكرية نظامية منذ ان كان فى الخامسة عشر عندما انضم لاوردى ملك الشايقية « الاوردى عبارة عن سرية شبه نظامية كان يكونها ملوك الشايقية للخدمة مع الحكومة » وسافر معه لمصر   مذكرات النور عنقرة ص ١

« وقبل فراغنا من حرب النمانم بثلاثة شهور بلغنا ان عربان الرزيقات خانوا العهود وقطعوا الطريق ومازال التشكي منهم من الواردين يزداد حتى تأكد لدينا غدرهم وخيانتهم فبعثت مخصوصين اليهم اسألهم عن سبب تعديهم وقطعهم الطريق فما أجابوني بجواب غير الذم والسب وأقسموا بانهم لايتركون احد من التجار يمر بأرضهم فشق علينا هذا وأرجعتهم بالمكاتبة خمس دفعات بغاية اللين والتعطف ابتغي منهم عدم التعدى على المارة فلم يأت هذا بثمرة بل مازالوا يكاتبوننا بالذم ويطلبون منا الاستعداد للحرب فاستخرت الله تعالى على حربهم وجمعت جيشي وتوجهت اليهم في اليوم الرابع عشر من جمادى الاولى عام ١٢٩٠ (١٠ يوليو ١٨٧٣) وبعد وصولنا أول بلادهم قابلونا وحاربونا حربا شديدا في دفعات انتصرنا عليهم فيها ودخلنا بلادهم عنوة بالرغم عنهم في اليوم الرابع من رجب عام تاريخه وصارت جميع بلادهم تحت طاعتنا واحكامنا إلا من فرّ هاربا الى داخل دارفور كما سنذكر تلك ، وتغلبنا على اراضي شكا ودخول جميع من فيها من العربان تحت طاعتنا وامتلكت جميع البلاد وحكمت كافة اهاليها على اختلاف اجناسهم بالعدل والانصاف وقد تغلبت ايضا على عربان الرزيقات والحمر والمسيرية وبني جرار واولاد ام سريرة والهبانية وصاروا تحت طاعتي وأحكامي . »

وبعد لجؤ شيوخ الرزيقات الى سلطان دارفور طلب منه الزبير تسليمهم له وعندما رفض السلطان ، وجد الزبير ذريعته لشن الحرب عليه . ومن الواضح ان الزبير ركز عينيه منذ زمن على دارفور وصمم على ضمها لامبراطوريته الصغيرة بقوة السلاح ، فالتجاء بضعة شيوخ من الرزيقات للفاشر لايمكن أن يكون المبرر الحقيقي لان يشن الزبير حربا ضارية ضد سلطنة الفور القوية التي ظلت مركز الثقل الوحيد في تلك الارجاء لعدة قرون . وهذا أمر واضح في تخطيط الزبير الماكر للقضاء على السلطان ، وهو يرسل له عشرات الخطابات للانذار والنصح ويستشهد بكل علماء الدين في دارفور وكأنه يرفض الحرب ، ويستعد في نفس الوقت بنشاط للمعركة الحاسمة ، ولما اكمل استعداده بدأ في استفزاز السلطان ابراهيم طالبا منه الاستسلام . وأخيرا تحرك السلطان فبعث باحد جيوشه بقيادة أحد وزرائه :

« بعد أن بعث لنا السلطان ابراهيم جوابه المذكور آنفا جهز لنا جيشا عرمرما مؤلفا من مائة وتسعة وثلاثون الفا نفر منهم من ستون الفا من الفرسان لابسين الزنخ ومقلدين بالاسلحة النارية، وخمسة وعشرين الفا من المشاة حاملين الاسلحة النارية، والباقون متقلدون السلاح الابيض من سيوف ورماح، وجعله تحت قيادة عمه السلطان حسب الله ومن معه من أكابر وزراء سلطنة دارفور وهم الوزير على الدادنقاوى والى دارفور القبلية، والوزير حسن ولد ابلى والى دارفور الغربية، والوزير آدم والى الجهات البحرية، والوزير رحمة قوموا والى الجهات الصعيدية، وفى يوم الثاني من رجب ١٢٩١ (١٥ اغسطس ١٨٧٤) وصل ذلك الجيش وأحاط بنا من كل فج ووقت ذاك كانت جيوشي مؤلفة من اثنى عشر الفا منهم مائتين سوارى فقط مقيمين داخل الاستحكام آمنين هجمات العدو وتعدياته وفي اليوم المذكور نشبت الحرب بيننا من قبل طلوع الشمس إلى الساعة الواحدة ليلا وتوالى الحرب مدة ثلاثة أيام على هذا النسق وفى اليوم الرابع رفعوا خيامهم من تحت خط النار ومابرحوا يقاتلوننا مدة ثلاث ايام أخر الا أن قوتهم صارت تتناقص يوم بعد يوم وجيوشنا لم تزل داخل الاستحكام وفى الساعة العاشرة نهارا من اليوم السابع عشر فى الشهر المذكور خبرنا بواسطة الجواسيس ان الامير حسب الله قد دعا كافة رؤساء جيوشه للمداولة في كيفية الهجوم يكون على اى صفة . لما تحقق لنا اجتماع رؤساء وضباط جيش العدو فى ليلة الخميس الموافق ثمانية عشر من رجب انتهزنا الفرصة وخرجنا تحت ظلام الليل قبل طلوع الفجر وهاجمناهم فى الخيام فما بلغت الساعة واحدة نهارا حتى نصرنا الله عليهم وقتل من قتل وولى الفرار الباقون ورجعنا الى مركز الاستحكام الساعة الثالثة نهارا بعد أخذ الغنائم وهى الفين زرخ واسلحة ومهمات وذخاير حربية بخلاف المؤون التى جعلت عساكرنا تقتات منها ٤ أشهر تقريبا وقد كان انهزام جيوش دارفور فى هذه الواقعة انهزاما لايجبر كسره بعدها وعندما بلغ السلطان انهزام جيوشه غضب غضبا شديدا وجهز جيشا آخر وضمه على من بقى من المنهزمين وكروا كرة ثانية علينا فى اليوم السابع والعشرين من رجب ووقع الحرب بيننا وبينهم لمدة ٤ ساعات فدارت الدائرة عليهم وولت جيوشهم منهزمة وانتصرنا عليهم نصرا عزيزا وقتل من عائلة السلطان وأكابر اصحاب الرتب خلق كثيرين

واسر منهم من أسر في ذلك اليوم وتوالى ورود الجيوش لمحاربتنا نحو التسعة دفعات كان لنا النصر والظفر عليهم فيها . »

كانت هزيمة السلطان الاولى تمهيدا للمعركة الفاصلة بين الزبير وجيش السلطان الذى قاده بنفسه . بدا السلطان تقدمه في فجر الخامس من رمضان عام ١٢٩١ « ١٦ اكتوبر ١٨٧٤ » وقد حجبت حشوده الهائلة الأفق عن أعين المدافعين وبدأت معركة داره :

« لما انتشر الرعب في قلوب الاهالى والجيوش بامرها قضت دواعي الاحوال على السلطان بالقيام لمحاربتنا بنفسه فجهز جيشا مؤلفا من مائة وخمسين الف فارس وثمانية مدافع جبلى احدهم قديم الصناعة وعزم على القيام لمحاربتنا بنفسه عندما علمنا بما عول عليه سلطان دارفور من تجهيز للجيوش واتيانه لمحاربتنا بنفسه، اخذنا في تقوية وتحصين الاستحكام وصرفنا للعساكر الذخائر والمؤونات الكفاية ولبثنا في غاية الاستعداد منتظرين قدوم السلطان بجيوشه ليلا ونهارا، وكانت جواسيسنا تأتينا بالاخبار عن المحلات التي ينزل فيها والتي يرحل منها في كل يوم، وفي اليوم الخامس من شهر رمضان ١٢٩١ الساعة الرابعة نهارا قدمت الجيوش وفى الساعة السادسة هاجمونا ونشبت الحرب بيننا لغاية الساعة الواحدة ليلا وقد قتل في ذلك اليوم من فرسانهم خلق كثيرين ورجعوا خائبين الى الخيام ونحن وعساكرنا داخل الاستحكام وفي اليوم السادس قبل طلوع الشمس هجمت جيوشهم علينا واشتد القتال حتى بلغت الساعة الرابعة نهارا فهزموا شر هزيمة واخرجوا من خط النار وقد قتل في ذلك اليوم اولاد السلطان واخيه واولاد اعمامه واولاد عماته وأغلب فرسانهم وخلق كثيرين، وبعد الظهر كروا راجعين وهجموا علينا واذ ذاك كان السلطان في جيوشه ومازالوا يحاربوننا بكل شجاعة وبسالة الى ان فصل الليل بيننا وبينهم ورزقنا النصر من قبل الله عز وجل، وفي الليلة السابعة من شهر رمضان بعد ان رجع السلطان بجيوشه الى الخيام بعث لنا رسولا يحمل خطابا منه مضمونه التهديد والذم والسب والاهانة في حقنا وزيادة التهديد وأقسم بالله العظيم ان لابد من هجوم الصباح ودخوله الاستحكام قوة واقتدارا ويؤدى صلاة الجمعة في مسجد داره داخل الاستحكام، وبعد ورود ذلك الجواب بدأنا في الاستعداد لملاقاته، وفي الساعة

الخامسة ليلا اطلقت جيوش السلطان خمس واربعون مدفعا وماكانت جيوشنا تجاوبهم مطلقا بل لبثوا فى غاية الاستعداد لدفع هجمات العدو الى ان اصبح الصباح وحين ذاك رأينا الأرض خالية من الجيوش وباقى من مهماتهم مدفعين وبعض خيام فقط ولما ان تبين لنا هروب العدو حقيقة ليس من باب الخداع خرجنا من الاستحكام ثانيا وفى اليوم الثاني عشر من رمضان « ٢٣ أكتوبر ١٨٧٤ » خرجنا مجدين السير أثر العدو وبعد الاستعداد الكافى وصرف الذخائر والمؤن للعساكر ومازلنا الى الساعة السادسة من يوم السبت ١٣ رمضان ، ولما اخذنا والعساكر الراحة لمدة ثلاث ساعات ، قمنا فى الساعة التاسعة ومازلنا نجد السير لحد الساعة الساعة التاسعة من ليلة الاحد ، فوجدت السلطان قد نزل بجيشه فى بندر يقال له منواش ومعه من العساكر نحو الثلاثون الفا و٦ مدافع وكان قد بلغه خبر حضورنا من اثره فتجهز لمحاربتنا ورتب عساكره يمنة ويسره وقلب وكان هو ومن معه من الابطال المعدودين من اقاربه ، وغيرهم والمدافع فى القلب وصاروا منتظرين حضورنا وقبل طلوع الشمس عندما وصلنا اطلقوا علينا نحو الاحدى عشر مدفعا وماكانت عساكرنا تجاوبهم بل صرنا على هيئة حربية منظمة قاصدين القلب حيث كان السلطان وجميع امرائه وأقاربه فهجمت علينا عساكره ميمنة وميسرة واشتد القتال بيننا فما مضى نحو الخمس دقائق حتى انكشفوا عنا وتقهقروا . وعندها هاجم السلطان ومن معه بالسلاح الابيض والاسلحة النارية فهزم مقدمة جيوشنا ودخل فى وسط القلعة بشجاعته وبسالته حتى خيل لمن رآه انه الاسد الضارى وبعد ما اشتد الحرب وتفاقم الكرب قتل السلطان ومن معه من الفرسان والشجعان وكان ذلك اليوم الرابع عشر من شهر رمضان ١٢٩١ وبعد شروق الشمس بنصف ساعة.»

وكان الزبير وهو يتقدم نحو دارفور قد طلب معونة من الخرطوم فقاد الحكمدار اسماعيل ايوب حملة للاشتراك معه فى الغزو ولكن الزبير تمكن من سحق جيش السلطان ودخل الفاشر قبل وصول الحكمدار فبدأ فى تنظيم سلطنة دارفور التى سميت بمديرية دارفور . بعدها نشب الخلاف بينه والحكمدار . فطلب الزبير مقابلة الخديوى ليرفع له شكواه . وعندما وصل لمصر احتجز هناك . ولما غادر الزبير السودان ترك خلفه ١٥٫٠٠٠ مقاتل مدرب كان من ضمنهم :

الزاكي طمل ، وحمدان أبو عنجة ، والنور عنقرة .

° ° ° °

بعد انتهاء سنوات بيكر الخمس تلفت الخديوى اسماعيل باحثا عن رجل تتوفر فيه نفس صفات بيكر من شهرة وصلابة وشغف بالمخاطرة ليحكم اقاليمه النائية مكملا مابدأه بيكر . فطلب مساعدة احد مشاهير ذلك العصر وهو الجنرال غردون ، ظانا ان سمعة الرجل وحدها فى حالة موافقته على العمل فى السودان لمحاربة الرق ، كفيلة بأن ترضى الدول الاوربية وممثليها فى القاهرة . وشهرة غردون كان لها وزن كبير فى ذلك الحين ، فقد كان ملوك ورؤساء العالم يتنافسون فى كسب موافقته ليخدم معهم فشهرة « قائـــد الجيش الذى لايقهر » « Leader of the ever victorious army » قد سارت بها الركبان وراء سور الصين العظيم وهو بطل حصار سباستبول فى روسيا ، والكيب تاون فى افريقيا وقاهر جزيرة موريشى ، فكان اسمه يساوى جيشا كاملا.

وقد عين غردون حاكما على مديرية خط الاستواء بصلاحيات واسعة سمحت له باختيار مساعديه من الاوربيين الذين تجمعوا فى القاهرة على أن يلحقوا به فى الخرطوم . ومن هنا بدأت ظاهرة استخدام الاوربيين كاداريين ليحلوا محل سابقيهم من المصريين وسرعان ما لمعت أسماء جسى الايطالى ، وتشالى لونج الامريكى ، وسلاطين النمساوى ومساداليه الايطالى .

واستمر غردون فى اتمام إكتشافات بيكر ومسح منطقة منابع النيل . وشهد العامان ونصف اللذان قضاهما غردون فى الاستوائية [1] نشاطا محموما امضاه بين رحلات الاستكشاف والمسح الكامل لكل المنطقة،وتعقب بقايا تجار الرقيق وانشاء الحاميات العسكرية والنقاط القوية التى كانت أكبر انجازاته ، واتخذت فى النهاية

(١) على الرغم من أننا سنتعرض لغردون وأثره فى هذه الأحداث فى مكان آخر الا انه من المرجح ان تلك الفترة التي امضاها غردون فى الاستوائية هى التى شهدت أول النوبات السوداوية التى اشتهر بها فيما بعد فمرافقة الأمريكى تشالى لونج Chalielong يتحدث عن انقطاعه منفردا داخل خيمته لايراه أحد لعدة أيام وقد وضع علما امام باب خيمته كعلامة فى أنه لا يرغب فى رؤية أحد .

Strackey, L. *Eminent Victorians* (London, 1957).
Moorehead, *The White Nile* ;London, 1962), p/69.
Nutting, A. *Gordon* (London, 1966), pp. 109, 118. 119.

شكل قرى ومستعمرات سكنية . وعندما قدم غردون استقالته عام ١٨٧٦ ترك خلفه عشرات من الحاميات والمستعمرات على طول امتداد النيل الابيض امتدت حتى روباقا عاصمة يوغنده .

وعندما غادر غردون الخرطوم كانت الامور قد وصلت دركا سحيقا . فقد اشتبكت مصر في حرب باهظة النفقات مع اثيوبيا،واضافت عبئا جديدا الى أعباء خزينة الخديوى الخاوية. فدفعت به ضائقته المالية للالتفات نحو الاقليم المتخلف الفقير . وفرض على عامله في الخرطوم مبلغ مائة وخمسون الف جنيها سنويا على ان تساهم بحر الغزال بثلاثون الف جنيه والاستوائية بعشرين الف من عوائد العاج وريش النعام. على أن هذه كانت ارقاما نظرية فقط . فكل خيرات الاقليمين امتصتها التحسينات التي أدخلها غردون في الاستوائية ، وتمويل حملة غزو دارفور التي اشتركت فيها الحكومة مع الزبير . واضاف الخديوى عبئا جديدا عندما أمر بانشاء خط سكة حديد من مصر الى الخرطوم على ان تقع اعباء نفقات بنائه على مديريتي دنقلا وبربر . وعندما فاقت تكاليفه طاقات الاقليم المحدودة أمر بتأجيل دفع مرتبات الجنود والموظفين ، وهؤلاء بدورهم لكي يتحصلوا على مايقيم أودهم ضاعفوا نشاطهم في جمع الرشاوى والضرائب. وانعكس الوضع على السكان: ضرائب لاطاقة لهم بها بدون مقابل ، لاخدمات اجتماعية ولاعدالة أو امنا مستتبا تبرر هذه الضرائب ، بل شقاء فوق شقاء وفساد وظلم . وناءت الاقاليم تحت وطأة الضائقة المالية والقهر الجماعي . فبحر الغزال وكردفان استنفدت طاقاتهما في نفقات غزو دارفور ، ودنقلا وبربر في نفقات مد السكة حديد ، وباقي الاقاليم كان عليها أن تدبر الجزية السنوية لارسالها لمصر وأن تدبر مرتبات الموظفين والجنود .

وحتى اسماعيل أحس أخيرا بالضائقة الاقتصادية التي طحنت أقليمه الجنوبي ، عندما انعكست في العائد السنوى المتضائل سنة بعد سنة ، وشعر أنه قد تورط في السودان لمدى بعيد ، وأن تلك الاراضي الشاسعة كانت أكبر من ان يتمكن من ادارتها بامكانياته المحدودة ، وأن أمله قد خاب في الخيرات المتدفقة المرجوة . ولكن الموقف في نظره لم يكن بهذا السؤ ولايزال هناك بعض الأمل ، فلازال الخديوى يحتكر تجارة سن الفيل ، وعلى الرغم من ابادة الافيال بعشرات

الالوف الا أن هناك مناطق اخرى لصيد الافيال لازالت عذراء ولم تمس ، والصمغ وريش النعام لازالا يدران عائدهما السنوى ، الأمر يحتاج فقط لرجل حازم سريع التصرف ، لاصلاح ذات البين مع الحبشة وتنظيم ادارة الاقليم والاقاليم الجديدة التى انضمت له مثل دارفور وبحر الغزال لكسر شوكة سليمان الزبير وأعوانه الذين لازالوا يعتبرون أنفسهم ملوكا منفصلين ، ثم طرد الموظفين المرتشين الذين امتصوا الجزء الاكبر من العائد السنوى وسمحوا بتسرب جزء بسيط منه للقاهرة . ومن كان الشخص الوحيد الكفيل في ذلك الحين بتنفيذ هذه السياسة غير غردون ؟ وهكذا عرض عليه الخديوى هذه المرة منصب حاكم السودان وقبل هذا المنصب بسرور . فقد كان تحديا جديدا لروحه الهائمة وراء المصاعب والمغامرات . وقد بدأ غردون بداية عملية ، ونجح في السنة الاولى فى فبراير ١٨٧٧ أن يؤمن سلاما سريعا على الحدود الاثيوبية وفي تهدئة مديرية دارفور المضطربة وتوطيد علاقات قوية مع سليمان الزبير حاكم بحر الغزال ، وأوقف العمل فى خط السكة حديد موفرا نفقات انشاؤه الباهظة . ثم أصدر منشور تحريم الرق مراعيا الظروف والواقع ، فقانونه الجديد يصفى الاسترقاق تدريجيا فى مدى عشر سنوات يعتق فيها جميع الرقيق في السودان . وعين جيكلر البلجيكى مسئولا عن تنفيذ هذا القانون .

ولكن التمهل والاتزان سرعان مافارقه بعد السنة الاولى ، وبدأ تقلبه ونزواته ونزعاته المفاجئة المشهورة فى البروز مرة أخرى ، ففى السنة الثانية استبدل سياسته الحكيمة بسياسة اكثر خشونة وأقل ادراكا للظروف المحيطة بالموقف . فبدأ اولا بالاستغناء عن خدمات اغلب الموظفين المصريين الكبار واستبدلهم بموظفين اوربيين يثق فى امانتهم ، ولكن الامانة والحزم الذى ظن انه سيحصل عليهما بتعيين الاوربيين أدت الى نتائج اكثر خطورة . ويمكننا ان نتصور نظرة السكان المسلمين عندما يتولى المسيحيون امرهم ، ووضعهم اذا هبت ثورة دينية شملت البلاد من اقصاها الى اقصاها ، كان ذلك استفزازا مابعده استفزاز سواء للموظفين أو للسكان . ثم تبع ذلك مقتل سـليمان الزبير غيلة بعد استسلامه نتيجة للوشايات الكاذبة . وبذلك فقد غردون صداقة وولاء والد سليمان الرجل المنفى القوى ، وسرعان ما احتاج اليه ، ولكن بعد فوات الأوان . كما كانت منطقة جنوب

كردفـــان ودارفور تمثل سوقا كبيرا ومركزا للامداد الرئيسى لسليمان الزبير بالاسلحة والذخيرة فى بحر الغزال ، واحس غردون ان السلطات وقفت عاجزة فى هذه البقعة ، التى اكتظت بالبحارة « تجار الشمال كما يسميهم أهل المنطقة .» فالمنطقة كبيرة والطرق وعرة للغاية ، وبقرار واحد حاسم أمر غردون البحارة واغلبهم من الدناقلة والجعليين باخلاء المنطقة التى استقروا فيها لسنين طويلة وتزاوجوا مع سكانها واصبحت وطنهم الجديد . وعندما شعر بتلكؤ موظفيه فى تنفيذ قراره هذا ذهب بنفسه وامر المشائخ بتنفيذه وحملهم المسئولية المباشرة لو عثر على أحد البحارة فى تلك المنطقة . ونفذ هؤلاء اوامره بسرور . فعلى الرغم من الروابط التجارية التى تربطهم بالبحارة إلا انهم فى قرارة انفسهم لم يكنوا لهم ودا كثيرا للاختلاف القبلى ولسيطرة هؤلاء على الاموال والتجارة والاسلحة النارية ، وعندما أتاح لهم غردون الفرصة اظهروا شماتتهم الكامنة ، فشرد التجار وصودرت ممتلكاتهم وذاع سؤ المعاملة التى قابلها الجلابة فى انحاء البلاد كلها .

ولم يكن هناك وضعا ملائما ومهيأ للثورة مثل الوضع الذى كان عليه السودان عام ١٨٨١ : حكم استبدادى فاسد ، يسنده جيش لاقيمة له . وجيش الاحتلال بلغ فى ذلك الحين ٤٠٫٠٠٠ جندى وقد قسمت هذه القوة على الحاميات حسبما موضح أدناه :

١٤٣٩٠ شرق السودان وهرر
٤١٢٠ دنقلا وبربر
٧٤٧٠ الخرطـــوم
٥٨٣٠ كردفان
٤٨٦٠ دارفور
٨٨٦ بحر الغـــزال
٢١٣١ خط الاستواء

ونصف هذا العدد كان من الجنود السودانيين الذين اما اعيدوا من مصر للسودان للخدمة فى جيش الاحتلال بعد تدريبهم ، أو كانوا من البازنجر « جنود الزبير باشا» الذين تم ضمهم لجيش الحكومة بعد مقتل سليمان الزبير على يد«جسى»

وهؤلاء كونوا النواة الاولى لجهادية ابو عنجة المشهورين .

ولكن ذلك العدد الضخم كان قليل الاثر من الناحية القتالية ، فأغلبهم كانوا من غير النظاميين « الباشبزق» و « البازنجر » وقد كان الاعتماد على حيوية الموظفين والاداريين اوضح اثرا من القوة العسكرية للجيش ، ولكن طالما كان اغلب هؤلاء من المسيحيين ، فقد أضعف ذلك موقفهم كثيرا في وجه ثورة أهم سماتها انها ثورة دينية . كما كان التدريب معدوما لان اغلب وقت الجنود كانمنصرفا الى الاعباء الادارية كجمع الضرائب وغيرها . أما روح الانضباط فقد كانت مفقودة تماما . أولا لان قادتهم لم يكونوا باى حال خير مثال يقتدى ، وثانيا لعدم انتظام دفع المرتبات كما سبق ، وقد كثرت حوادث تمرد الجنود واشهرها تمرد الجهادية بكسلا عام ١٨٦٥ ، واغلب الحاميات لم تكن محصنة تحصينا كافياً و لم تكن محصنة على الاطلاق . ثم ان توزيع القوات كما سلف كان توزيعا خاطئا فقد كان تطبيقا للمثل « ضعاف في كل مكان وأقوياء في لامكان . »

ونظرة اخرى سريعة لتوزيع قوات الاحتلال الموضح اعلاه اول مايلفت النظر فيها هو عدم تناسب حجم القوة مع كثافة السكان . ويبدو أن تركيز القوات في شرق السودان اتخذ نتيجة للتهديد الاثيوبي ولم يعاد النظر فيه بعد ذلك . كما نلاحظ ان المناطق التى اشتعلت فيها الثورة واستمدت منها قوتها في أيامها الاولى كمناطق النيل الابيض وكردفان ودارفور تسيطر عليها قوات بسيطة سواء عدديا أو من ناحية الاعداد القتالى ، ولاتتناسب مع سكان المنطقة المقاتلين بطبيعتهم والمتمرسين في استخدام الاسلحة النارية .

وان جيشا كانت هذه حالته من انعدام التدريب والاعداد والتجهيز والروح العسكرية لم يكن بالتأكيد القوة التي تستطيع ان تقف في وجه ثورة شاملة تطبق حرب العصابات تطبيقا امثل ، معتمدة على خفة حركاتها وتأييد الغالبية العظمى من السكان لها .

لقد لخص شقير أسباب اشتعال الثورة المهدية في اربعة اسباب وهي :

أ — كراهية السكان للحكومة منذ أول ايامها لبطش الدفتردار وابادته للآلاف

المواطنين .

ب ـ فساد الأداة الحكومية وثقل الضرائب على المواطنين .

ج ـ تحريم تجارة للرقيق مما تسبب فى نفور التجار الذين تركزت فى أيديهم القوة والسيطرة والاسلحة النارية .

د ـ محاباة الحكومة لبعض القبائل والطرق الدينية .

ويمكننا ان نضيف لها نزعة الاستقلال الغريزية للسكان ، فهى لايمكن أن تفارق قوما كانوا أحرارا ينضوون تحت ممالك أو زعامات وطنية . ولئن بدا أن تلك النزعة اختفت ، فلأن القوم ذهلوا بادئ الامر من الاسلحة النارية وقوة جيوش الاحتلال. ولكن عندما خبر هؤلاء قوات الاحتلال وحكومته وخدموا فى وظائفها المختلفة ، بل وعندما صاروا ضباطا وجنودا فى جيشها وعرفوا ضعفها وخورها ، سرعان ما اختفت الهيبة والهالة التى أحاطت بالحكم الأجنبى .

وما ذكر أعلاه من الاسباب والعلل لاتخلو كلها من الصحة . ولكنها لم تكن الاسباب الرئيسية ابدا ، فالصفحات التالية ستوضح الروح التى خاضت بها تلك الجماهير مئات المعارك . فلايعقل أن تكون الدوافع التى حدت بتلك الالوف للاندفاع فى وجه الموت مرارا ، بل طالبة اياه باصرار ، تكمن كلها فى الاضرار بمصالحها التجارية أو الاجتماعية ، مثل الغاء الرقيق أو زيادة الضرائب . ولعل الاجابة تكمن فى ظهور العقلية القيادية الثائرة ، ومقدرتها الفذة فى الهام والهاب الجماهير ، وشحنها بطاقات معنوية وقيم ومثل سامية مكنت هؤلاء القوم من تقديم مثال نادر فى التضحية والسمو . عقلية محمد أحمد عبد الله الذى دخل التاريخ باسم . . . . . المهـــدى .

الامـــام المقاتل

« لاجدال فى أن ذلك الرجـــل كان يستمتع باذكى عقلية وأصفى وضوح رؤيا فى المليون ميل مربع التى أصبح صاحب الكلمة العليا فيها بلا منازع .» (١)

ونجـــت

الطبيعة القاحلة المجدبة تعوض ابناءها دائما ، فكما حرمتهم خصوبة الأرض وسهولة الحـــياة، منحتهم الصلابة والصبر والشجاعة ، صفات المقاتل الكامـــل . والفراغ الطويل وقسوة الحياة تجعل السكان كثيرى التأمل فى انتظارهم الطويل للخلاص ولحياة أفضل . فاذا أضيف لذلك القهر ، والهبوط المعنوى والضعف المادى للسلطة الحاكمة أصبحت المنطقة كالهشيم الجاف لاتحتاج الا الى لهـــب صغير ، وتندلع بعدها النيران .

ومنذ قديم الزمان ، انتشرت فى العالم الاسلامى فكرة المهدى المنتظر : الذى عندما يظهر « يملأ الأرض عدلا وخيرا كما امتلأت ظلما وجورا » و « يبيد الظلم وأهله ويعز الاسلام بعد ذله ويدعو الى الله بالسيف ماكان ، فمن أبي قتل ومن نازعه خذل » .

وقد بدأت الثورة المهدية كالعاصفة الرملية : لايدرى أحد من أين تأتي أو متى تبدأ ، ولكنها تندفع فجأة وتمضى فى طريقها بسرعة ماحقة ، وهى مكتسبة قوة من داخلها ، جاذبة معها كل الرمال التى ظلت ساكنة لسنين ، لتزيد الاعصار قوة وعنفا .

ان سيرة المهدى والثورة المهدية قد وصفت عشرات المرات وفى أكثر من مجال ، ولكن مايعنينا هنا هو الأثر الذى تركته تلك العقلية التنظيمية الهائلة ، ومن سار على نهجها من الاشخاص والأحداث والمعارك ، وعلى ذلك الجيش الذى

"There is no doubt that this man had the strongest head and clearest mental vision, in the two millions square miles of which he more or less made himself master".

Wingate Pasha
Chief of Egyptian Intelligence

أذهل أعداءه بشجاعته في صباح يوم ٢ سبتمبر ١٨٩٨ عندما تدافع عشرات الالوف نحو الموت دفاعا عن دعوته . فعلى ربى كررى وقف رجال لهم خبرة قتالية جبارة ، فمنهم من ساهم في القضاء على أبو السعود وراشد والشلالى ، ومنهم من تبع هكس فى تقدمه عبر بوادى كردفان وأجهز بحرابه على جيشه الحائر ، وبعضهم خاض المياه الضحلة في خندق الخرطوم ليصل الى سرايا غردون ، أو ألهب ظهور منقذيه البريطانيين بالجراح وهم يتقهقرون شمالا ، ومنهم من تقدم سبعة وثلاثون يوما مع أبي عنجة فى حملته العبقرية عبر مضائق جبال الامهرا ومن شارك عثمان دقنة فى معاركه الثعلبية ، وأغلبهم غمس أسنة سلاحه فى دماء انجليزية وايطالية وحبشية ومصرية وتركية . ولئن حاولنا تتبع وحصر واحدة من المجالات العـــديدة التي مارست تلك العقلية نشاطها في ساحته ، وهو المجال العســكرى الاستراتيجي ، فالاعجاب ثم الذهول سيصبح هو احساسنا الطاغي .

وقد أجمع جميع من أرخوا سيرة المهدى على أنه أمضى أغلب السنوات التي سبقت مجاهرته بدعوته ومنذ صباه الباكر فى المطالعة والقراءة والتحصيل والتثقيف ، لاتقطعها الا خلوات طويلة يقضيها متأملا مفكرا ، وتلك الفترة التي أمضاها المهدى قارئا متأملا هى التى أسهمت اسهاما أكبر فى تكوين شخصيته ، فقراراته وتخطيطه وحتى خطاباته ذات الاسلوب المترف تكشف عن عقلية صقلت وتشربت بالمعرفة الغزيرة . واذا أضفنا الى ذلك الذكاء الطبيعي الوقاد ، برزت مواصفات تلك العقلية الاستراتيجية الفريدة . وتلك المعرفة الأصيلة وجدت من يكملها من الناحية العملية والتكتيكية عند انضمام قادته المشهورين وعلى رأسهم خليفته عبد الله بن السيد محمد . شخصية الثورة الدينمايكية .

والنجاح العسكرى فى أعلى مستوياته ، يكتمل عندما تتوفر له ثلاثة أركان :

(١) دوافع معنوية تستمد من المؤثرات الروحية أو البيئية .

(٢) فكر عسكرى لانتاج النظريات والمبادئ العسكرية وتطويرها .

(٣) القوة العسكرية المادية لتطبيق تلك النظريات .

ولعلنا قد تعرضنا فى الصفحات السابقة للمحات سريعة للعنصر الأول من

هذه العناصر ، والخوض في مجالاتها ليس من أهداف هذه الصفحات .

أما الركن الثاني ، فلابد للمرء أن يتساءل عن المدرسة التي اغترف منها المهدى أفكاره العسكرية التي مكنته من تحقيق تلك الانتصارات المذهلة ، وفي ذلك الزمن الوجيز . يمكن تخمين الاجابة بسهولة : ان الثقافة والاطلاع المستمر اذا أضيف اليهما الاستعداد الذهني والذكاء الطبيعي الوقاد هما أحد مكونات نجاح التخطيط الاستراتيجي الذكي . وهذا بالطبع مبدأ عام لايمس التخطيط العسكرى فقط . ومن الخطأ النظر للثقافة الوحيدة المتوفرة في ذلك العهد وفي تلك البيئة ، وهي الثقافة الدينية ، نظرة سطحية تقتصر على جوانبها الروحية والوجدانية فقط ، وبحسبانها قاصرة عن تغطية كل نواحي النشاط الانساني . ففي الأزهر الشريف ، وقبل عصر النهضة الاوربية بقرون ، كانت علوم الفلسفة والجدلية والمنطق والفقه تدرس وتهذب . وكل تلك تسربت عبر بصيص الرواق السنارى وعبر مشايخ الطرق والزوايا والخلاوى الى التلميذ والقارئ النهم ، محمد أحمد عبد الله .

ويمكننا أن نكون أكثر تحديدا ونمضي ونقول أن أحد المصادر الرئيسية التي اسهمت في نمو مقدرة المهدى العسكرية ، هي دراسته للتاريخ العسكرى الاسلامى . فسيرة الدعوة الاسلامية في أيامها الأولى ، كانت عبارة عن سرد لتاريخ عسكرى مجيد حافل . والقارئ لقصة الاسلام الأولى يقرأ أيضا ، شاء أم لم يشأ ، تاريخا عسكريا . وتأثر المهدى وتطبيقه لمبادئ الحروب الاسلامية ، تطبيقا حرفيا أحيانا واضح ولايحتاج منا لاثبات. فكما هاجر الرسول (ص) هاجر المهدى،وعندما وقف لدخول معركته الاولى معركة أبا كان عدد رجاله ثلثمائة وثلاثة عشرة «وأتمهم بصبيان الخلوة » كان ذلك نفس العدد بالضبط الذى خاض به الرسول (ص) معركته الاولى . ولعل حشده لو زاد فردا عن ذلك العدد لاقصاه ، ولو نقص فردا لأتمه . ولايمكننا أن نفرق أبدا بين الملابسات التي احاطت باحتلاله منهل البركة وبين معركة بدر . والادلة والشواهد كثيرة تدل على أن المهدى كان قارئا نهما للتاريخ الاسلامى . وان كان ذلك مسئولا عن انتصاراته الكثيرة في اغلب الاحيان ، فقد كان ايضا مسئولا عن الهزائم القليلة التي منى بها . فالاستراتيجية العبقرية التي خاض بها معارك أبا وقدير وشيكان والخرطوم غفرت واخفت في بعض الاحيان القصور

التكتيكى الشنيع الذى برز فى واقعة يوم الجمعة ٨ سبتمبر فى الابيض ، فمبادئ الاستراتيجية لاتتغير الا تغيرا طفيفا عبر القرون والاجيال ، ولكن المبادئ التكتيكية تتغير دواما كنتاج مباشر لتغير التسليح والمعـــدات.

أما الركن الثالث ، القـــوة المادية ، فقد احتضنها مـــنذ أن قرر نقل الثورة لكردفان ودارفور ، فتلك مناطق تكتظ بآلاف المحاربين الاشداء ، والقتال والفروسية من طبيعتهم وغريزتهم كما اسلفنا . ومنذ اللحظة التى قرر فيها القيام برحلته الاستكشافية الأولى لكردفان كان قد قرر امرا حاسما ، وهو نشر الدعوة بصفحة السيف لابصحيفة الورق ، وبالدم الاحمر وليس بالحبر الاسود . فهؤلاء القوم الذين توجه نحوهم لم يشتهروا أبدا بأنهم أهل فقه أو دين ، بل كانوا مقاتلين اشداء متمرسين . ولايمكن الا أن نلمح تأثير مستشاره الحربي فى ذلك الحين ــ الخليفة عبد الله المقاتل القديم الذى جاس تلك المناطق مقاتـــلا ومغامرا واسيرا .

واثناء رحلته الأولى الاستكشافية بدأ المهدى الدعوة سرا واستطاع اقناع أغلب زعماء العشائر فى كردفان وجبال النوبة بالانضمام اليه وأبدى هؤلاء حماسا فوريا لبدء الثورة الا أنه طلب منهم الانتظار الى أن يحين الوقت الملائم . وعن طريق هؤلاء تسرب الأمر الى عدوه القديم الشيخ محمد شريف الذى كان له بالمرصاد ولم يغفل عنه لحظة واحدة ، وبلغ الامر للحكمدار رؤوف باشا الذى لم يبال بالأمر كثيرا فى البدء ، ظانا انها وشاية من محمد شريف مبعثها الاحقاد القديمة . ولكن محمد شريف وضع بين يديه بعض منشورات المهدى كدليل قاطع . فكتب هذا لمحمد احمد متسائلا ، وختم خطابه منتحلا له العذر لعل بعض الوشاة زور تلك الخطابات . ورد عليه محمد احمد بان الخطابات صادرة منه وليس من غيره ، فارسل مبعوثه ابو السعود الى المهدى لاحضاره للخرطوم وتبرير موقفه امام هيئة علماء الحكومة الرسميين . فكان ذلك المشهد الذى سبق وصفه فى مطلع هذه الصفحات . وقبل أن يصل ابو السعود للخرطوم سارع المهدى وابلغ الحكمدار رسميا ببرقية ارسلها من الكوة « . . . . واما المواعظ للمؤمنين فمن لم يصدق طهره بالسيف . . . . » وبذلك القى المهدى القفاز فى وجه الحكومة .

عاد أبو السعود لرؤوف وبسط له نتائج رحلته ، فجهز هذا كتيبة حملت

على باخرة نيلية ومعها مدفع تحت قيادة ابو السعود وسارت الباخرة النيلية متوجهة جنوبا للقبض على محمد أحمد الذى تمكن من تجميع ثلثمائة وثلاثة عشرة رجلاً من القبائل المجاورة من دغيم وكنانه والعمارنه، وهي أول القبائل التى أيدته. وبينما كانت بارجة أبو السعود فى طريقها لأبا، بدأ المهدى فى الاستعداد للمعركة القادمة . وهنا بدأت النواة الأولى لتنظيم جيش المهدية الذى نما حتى أصبح أقوى جيش فى افريقيا.

من أين استمد المهدى اسس تنظيمه الاولى ؟ المصدر ببساطة هو الخلاوى والطرق الصوفية . ففى ذلك الحين كان مريدو الطرق الصوفية يتجمعون فى الموالد أو المناسبات الدينية فى مواكب شبيهة بالعرض العسكرى ، يقسم فيه الحواريون والمريدون الى رايات ومقدمين وتتقدمهم الطبول والأناشيد والادعية والتكبير . فقد قسم المهدى رجاله الى خمس (١) رايات كتب على كل منها اسم احد الاولياء . ثم قسم القوة كلها لحوالى ٣٠ جماعة جعل على رأس كل جماعة مقدم .

وفى الثلث الأخير من ليلة ١٢ اغسطس وبعد ان بايع المهدى جنوده تقدم لمقابلة العدو خارج القرية وكمن لهم فى الطريق ، فشاهدوا الجنود وسمعوا ضجتهم وهم يتقدمون خلال الحشائش العالية ، بينما اصطف هؤلاء فى صمت تام ترفرف فوق رؤوسهم الرايات الخمس .

أما أبو السعود فقد قسم جنوده الى قسمين وعقد قيادة كل منهما لضابط برتبة رائد مع الوعد بالترقية لمن يقع المهدى فى أسره أولا ، وقد كان هذا الحافز هو أحد الاسباب التى أدت الى أبادة الحملة .

رست الباخرة فى أبا فجرا ونزل منها الجنود من غير نظام ، اذ بلغ أولهم قرب الحلة وآخرهم لم يزل بالباخرة . وانفصل النصف الثاني ليطوق القرية من الشرق وتدافع القائدان يتسابقان لاسر المهدى للفوز بالترقي فوصلا فى وقت واحد للقرية . وظن القسم الايمن ان الرايات المرفرفة فوق رؤوس محاربي المهدى هى الرايات التى توضع فوق القبور عادة ، فاستمر فى التقدم الى أن اصبح على مسافة قصيرة من صفوف المهـــدى ، فحرم جنـــوده من ابراز تفوقهم النـــارى ومكن

(١) لم توضح أوراق على المهدى من كان قادة الرايات الخمس الا وائل ولكنه ذكر اسماء بعض المشاهير من الثلا ثين مقدما .

صفوف المهدى من الاقتحام والالتحام معه بدون خسائر تذكر . ولما تنبه اخيرا الى ان هذه هى صفوف العدو امر باطلاق النار . ولصعوبة الرؤيا أطلق كلا القسمين النار على الآخر . وفي وسط هذا الاضطراب ، انقض المهدى الذى كان كامنا برجاله فى هجمة واحدة على الجنود الذين غاصت اقدامهم فى الأرض الطينية ولم يستطيعوا حراكا لاتخاذ مركز ضربنار احسن . وتمكن من ابادة العدو في دقائق الا من ثلة بسيطة استطاعت السباحة لتلحق بالباخرة ، ولكن أبا السعود الذى هزته مقابلته الاولى مع المهدى أمر ربانها بالاقلاع وبالتالى لم يعد أحدهم للخرطـــوم ابدا .

وماحدث فى ذلك الاشتباك يبرز سمة تلاحظ دائما فى انتصارات المهدى الاولى ، اذ كان يستغل الارتباك والاخطاء العسكرية الشنيعة خير استغلال فكان دائما يتحين اللحظة المناسبة ليضرب ضربته القاضية ، ولحظة الضعف هذه لاتدوم طويلا كما دل الارتباك الذى حدث فى أبا ، والاهمال والاستخفاف الواضح فى حملة يوسف الشـــلالى ، حين نام جنوده ملء اجفانهم فلم يتخذوا أبســـط الاحتياطات من دوريات أو ديدبانية ، وكذلك الخلافات الدائمة بين علاء الدين وهكس وتكديس قواتهما فى ذلك المربع الذى لايخطئه رام مهما بلغ من خطأ تصويبه .

انتشرت انباء انتصار المهـــدى انتشارا كهربائيا فى كل انحـــاء القطر ، وأسرعت القبائل التى لازالت تعطى وزنا للبقية الباقية لهيبة الحكومة وأرسلت مبعوثيها الى ذلك الشيخ الذى هزم قوات الحكومة برجاله العراة الضعاف .

ولكن المهدى كان آخر من تثمله خمرة النصر ، فقد أدرك ان الحكومة لن تسكت على هزيمتها وان ابا ستصبح قفصا كبيرا لو انتظروا بها ، فهاجر لكردفان بعيدا عن مخالب الخرطوم وانضم اليه فى الطريق آلاف الرجال مبايعين المهدى بأرواحهم ، فلن يفقدوا شيئا غير القهر والضرائب والعذاب .

واختيار المهدى لتوقيت الهجرة كان اختيارا جديرا بالاعجاب . ومن تلك اللحظة بدأ ذلك الحس الاستراتيجى الصادق يلازم كل قراراته . فالسكان فى

مركز حشده الجديد كانوا قوما يهزهم الانتصار والنجاح الحربي . وعندما هاجر من ابا هاجر وهو منتصر بعد أن سحق قوات الحكومة ، ولكنه ان هاجر قبل المعركة فلن ينظر اليه خلاف النظرة الموجهة للاجئ مطارد .

وفي اكتوبر ١٨٨١ أصبح المهدى بعيدا عن قبضة الخرطوم ولكنه صار أقرب الى حامية فاشودة القوية التى لم ينتظر قائدها حتى الاذن من الخرطوم وتحرك بكل حاميته نحو حتفه المحتوم .

جمع راشد بك قوة تزيد على الف ومائتين رجلا وقد أدرك ان المفاجأة هى خير سلاح يستخدمه ضد المهدى . واتخذ كل الاحتياطات لمنع تسرب اخبار تقدمه ولكن احدى نساء قبيلة كنانه « رابحة الكنانية » رأت الجيش يتحرك ليلا بسكون ، فسارعت الى المهدى سائرة على قدميها يوما وليلة بدون توقف وأبلغته النبأ فسارع المهدى بارسال طلائع الاستكشاف من الفرسان وسلحها بسلاحه النارى القليل وجمع رجاله ولم يتجاوزوا ٨٠٠٠ رجل ، فقد فقد كثير من الرجال وقاسى الامرين من الجوع والعطش فى اشهر الجفاف . وامضى أيام الانتظار فى التدريب والاستعراضات العسكرية وحث رجاله على الاستبسال فى المعركة القادمة . ولما ترامت الانباء من الرعاة عن اقتراب راشد بك من خور مراج ، احد الخيران القريبة ، أمر المهدى بضرب النقاره. وتقدم فى ليلة ٢٨ ديسمبر باصطفاف القتال خارج القرية للاشتباك مع العدو . كان اصطفاف القتال شبيها بتكتيك المعارك الاسلامية الاولى . موجات المشاه تكونت من رجال اصطفوا كصفوف الصلاة بالضبط ، والفرسان على الجناحين . وكمن لراشد والتحم به ، كان مشهد المعركة هو المشهد المعتاد ، رجـــال لاتهزهم ابادة الموجة الاولى من صفوفهم برصاص العدو ، لو وجد هذا فرصة فى فتح نيرانه ، والنتيجة واحدة ، الاباده الكاملة لكل قوات الحكــومة .

وبعد انتصاره على راشد ازداد تدفق المؤيدين نحو قدير حتى تجاوز عشرات الالوف ، وهنا شعر انه قد حان الحين للبدء فى تنظيم الجيش فأصدر منشوره الاول لتنظيم الوحدات والقيادات قتاليا واداريا . وقد جاء فى المنشور الموجه الى كل أفراد الجيش « الى احبابه » (. . . . ورأس ذلك الامتثال للامير الذى هو مميز

الحروب . . قال صلعم « من اتبع اميرى فقد اتبعني ومن خالف أميرى فقد خالفني ، قد نبهت غير مره في موافقة الاخوان لامرائهم والامراء لخلفائهم والكل للخليفة عبد الله ، ففي ذلك راحة بالنا واقامة الدين وقد وردت سابقا حضرة ان مقاديم اهل الراية الزرقاء ينقادون ليعقوب وهم ويعقوب ينقادون للخليفة عبد الله ودغيم ومن في راية الخليفة علي ينقاد لموسى ود حلو وكنانة للبشير وعمارنه لابي بكر عامر ،والحسينات لعبد القادر ود مديح وكلهم ينقادون بالمحبة للخليفة علي . وتكون جميع هذه القبائل مع الخليفة علي كرجل واحد وكلهم ينقادون للخليفة عبد الله وكذلك راية الخليفة شريف جميع امرائها ومقاديمها يتفقوا وينقادون لعبد الرحمن النجومي وهم ينقادون للخليفة شريف المذكور وكلهم ينقادون للخليفة عبد الله . . . . .) .

وأوضح تفاصيل التنظيم الواحدات الصغرى في مناشير لاحقه ، منها منشوره المؤرخ جمادى ١٣٠٠ الموجه للشيخ محمد الحاج احمد : (. . . كونوا انصار الله ولاتكونوا انصار لنفسكم تطلعون حظوظها وتنسون حظكم من ربكم سبحانه واندرجوا تحت راية عبد الله بن النور بعد ان تختاروا أميرا على العشرة مقاديم ، والراية على اختيار عبد الله انه اختارها لكم والســـلام . . .)

وامضى الشهور التالية في شبه معسكر تدريب انتظارا لوصول الحملة الجديدة التي ترامت أخبار تقدمها نحوه ، وانضم إلى معسكره في تلك الاثناء احد مشاهير قادة المهدية ، حمدان أبو عنجة يرافقه يونس الدكيم . ثم بدأ في ارسال طلائع الاستكشاف ، ولكنه لم يكن بحاجة لعمليات الاستكشاف ، فما أن غادر الشلالى الخرطوم حتى بدأ في شن الحرب النفسية ضد المهدى مرسلا للمهدى الانذارات والمنشورات متفاخرا بتعداده وتسليحه .

وفي رد المهدى المشهور الذى أرسله للشلالى أوضح عدة أمور جوهرية . فقد سأله الشلالى كيف يرسل طلائع الاستكشاف ويدعى في نفس الوقت أنه المهدى المنتظر ورد عليه المهدى « أما قولك أن ارسال الطلائع ينافي دعوة المهدية لان علم الغيب ضرورى لها فنقول لك هذا جهل منك بسيرة الرسول (ص) فانه كان يرسل الطلائع كحذيفة اليماني وبلال والزبير بن العوام . . . . »

وعن اتهامه ان رسالته دينية فكيف يستعين بالبقارة الجهلاء :

« . . . وقلتم ما اتبعنا غير الجهلاء واراذل البقارة فاعلم ان اتباع الرسل عليهم السلام كانوا كذلك ولا بد ان يجعلك الله ومن معك غنيمة للبقارة . . . . واعلم اني منصور على كل من ناوأني . . . . وان عزرائيل ملك الموت يحمل رأية (١) سوداء أمام جيشي » .

أما حملة الشلالى التى كانت رد فعل الخرطوم على هزيمة حملة راشد ، فقد بدأت في التحشد فى الكوة منذ أول مارس . فى أواسط مايو ١٨٨٢ تحرك الشلالى بكل الحملة « ١٣ سرية مشاة و ١٥٠٠ من الباشبزق» من الكوة الى قدير عن طريق فاشودة . ومنذ تحركه من الكوه اتبع المهدى معه تكتيكا مصغرا لذلك الذى اتبعه فيما بعد مع هكس . وهو المراقبة والاستكشاف وجر العدو لاراضى قتل يسهل ابادته فيها .

وصل الشلالى جبل جرادة فى مساء ٢٨ مايو وعين المهدى الساهرة تتابعه من بعيد . واختار الجبل الحصين المرتفع لبناء استحكاماته وبدأ الجنود فى تشييد زريبة كبيرة طبقا لاوامر الشلالى ليبيتوا ليلتهم داخلها ، ولم ينتهوا من تشييدها الا بعد منتصف الليل،وراحوا فى سبات عميق اثر اليوم المنهك بالسير المتواصل وبناء الزريبة .

وكان عبد الله بنفسه فى احدى طلائع الاستكشاف ، وامضى بضع ساعات يراقب الموقف على بعد ياردات من العدو . وعاد وبلغ تقريره للمهدى . وقبل انبثاق الفجر . جمع المهدى قوته وكانت تقارب ١٥ر٠٠٠ وقسمهم الى ٤ اقسام كل قسم ليواجه ضلعا من اضلع الزريبة المربعة . وتحرك هؤلاء ليلتفوا حول الزريبة ويحوطوها من الجهات الاربع وانتظروا صابرين وقد امسكوا انفاسهم . وفى

---

(١) لعل هذا يفسر اختياره للون الأسود شعارا لجيشه . وقد ظلت الراية السوداء « الراية الزرقاء » للنهاية هى الراية الرئيسية فى جيش المهدية . اما بقية الرايات الحمراء والخضراء فليس هناك ما يفسر اختيار بقية الألوان غير الرغبة فى التمييز بين الرايات المختلفة بعد ان نظم الجيش وقسم لثلاث رايات .

الخيوط الاولى للفجر اندفع الجميع وقد اشرعوا سيوفهم (١) وهم يصيحون صيحة الحرب واستيقظ الجنود من سباتهم العميق وقد تملكهم الذعر وحاول كل منهم ان يلملم نفسه ويمسك بسلاحه، ولكن فات الاوان فقد خرق الثوار المهاجمون الزريبة وبدأت ضربات السيوف تنهال على الجنود من الخلف والامام والاجانب ، فتركوا زريبتهم الحصينة وتفرقوا ثللا صغيرة مما سهل على الثوار اقتناصها واحدة بعد الأخرى . . . . وامر عبد الله الحكيم مخالفا اوامر المهدى بجمع بنادق ومدافع العدو وعادوا الى جبل قدير .

** ** ** **

في ٢٨ يوليو ١٨٨١ بدأ المهدى الزحـــف نحو الابيض ، هدفه التالى . واختياره الابيض ليوجه اليها ضربته التالية تكشف ، ليس للمرة الاولى ولاللأخيرة عن ملكاته الاستراتيجية الاصيلة . فباحتلالها عزلت كل دارفور بضربة واحدة عن الخرطوم لتسقط غنيمة سهلة في يد مادبو زعيم الرزيقات الذى حمل لواء الثورة في دارفور . كما أصبحت كل كردفان في يده ، واوضح احتلالها انه قد اختار التقدم لهدفه الاعلى وهو الخرطوم بسلوك وتقدم غير مباشر بدلا من التقدم نحوها مباشرة وهي لازالت منيعة . ولكن الدرس الذى تعلمه المهدى فى الابيض ، كان أقيم من الوف الجهادية الذين انضموا لصفوفه ، وآلاف البنادق واطنان المؤن التى غنمها . ففيها تعلم ان الاقتحام المباشر فى وضح النهار مصيره الانكسار مهما تفوقت قوات الهجوم عدديا . وان الشجاعة ليست كل شئ . فبعد ان حاصر المدينة وصبر عليها لشهور طويلة قرر اقتحامها يوم الجمعة ٨ سبتمبر بهجوم مباشر . ولكن

(١) بينما قدم شقير عملية جراده واصفا هجوم المهدى بانه كان عملية ليلية مفاجئة سريعة ، نجد ان على المهدى يسهب في وصف معركة تكتيكية التحامية نهارية طويلة . المرجح أن وصف شقير كان أقرب للصواب فمنذ ابا اتسمت عمليات المهدى بأنها كانت دائما عمليات مفاجئة تتم فى الثلث الأخير من الليل . كما ان الخسائر القليلة نسبيا التى تكبدها المهدى وهى لا تزيد عن ٢٠٠ قتيل ترجح ان العملية كانت ليلية مفاجئة والا لتكبد المهـــدى خسائر أكبر اذا واجـــه نيران وبنادق ومدفعية ما يزيد عن ٣٠٠٠ رجـــل فى معركة نهارية طويلة . وتؤيد رواية سلاطين التى استقاها من إشتركوا فى المعركة رواية شقير .

شقير ٦٦٦ .

جهاد فى سبيل الله ٣٤ و ٣٥ .

الالوف [1] الذين راحوا ضحية ذلك الهجوم النهارى وهم يقتحمون النيران بشجاعة متناهية،أقنعوه بخطأ مواجهة النيران مباشرة وعدل خطته فعاد وانتظر حتى استسلمت المدينة وحدها دون ان تكبده أية خسائر . وتمثلت حصيلة ذلك الدرس فى التخطيط الرائع لمعركته القادمة ، شيكان ، وأهم من ذلك فى ادارته لاعظم معاركه على الاطلاق ، حصار واحتلال الخرطوم . ففى حصار الخرطوم كاد أن يصل لدرجة الكمال استراتيجيا وتكتيكيا .

ولكن شيكان كانت هى البداية الحقيقية لتطور جيش المهدية كجيش نظامى. فكما سبق ، كان التخطيط والتنفيذ لاختيار الارض والزمن المناسب لتوجيه الضربات واعداد الكمائن ممتازا وناجحا للحد الذى غفر بدائية التسليح وسؤ التنظيم، منبثا عن استراتيجية اصيلة ذكية يقابلها قصور وضعف تكتيكى شنيع . فقد كان الهجوم غالبا فى لحظة وموجة واحدة وتحت قيادة المهدى أو عبد الله وبالمقاتلين العزل خلا سيوف وحراب ، وقد سبب ذلك خسائر لامبرر لها خصوصا فى حملة الشلالى ، وراشد بك وموقعة الابيض . فان الثوار وهم يتدافعون للاشتباك بالعدو احتملوا نيرانه الكثيفة التى كانت بالتأكيد كفيلة بالقضاء عليهم ، لولا توفر عنصر المفاجأة الناجح أو الاستغلال الرائع لطبيعة الارض .

ومن الثابت ان المهدى رفض رفضا قاطعا قبل سقوط الابيض استخدام الاسلحة النارية على الرغم من توفر بعضها متجاهلا نصيحة عبد الله . وقد لاتخلو وجهة نظره فى هذا الامر من صواب ، فالبنادق البطيئة فى ذلك العهد كانت قليلة الأثر فى مثل الكمائن التى اعدت ليوسف الشلالى وراشد . وتبادل النيران بين الجانبين يؤدى الى اطالة زمن الاشتباك مما يمكن الجانب الاقوى وهو قوات الحكومة من حسم المعركة لصالحها . ولكن الانقضاض السريع المفاجئ بالسلاح الابيض واختراق مربع العدو سواء كان داخل زريبته أو خارجها للتمكن من الاشتباك بالسلاح الابيض كان أجدى وأكثر حسما . . . . وعلى كل فالنجاح هو المقياس . . . . وقد نجحوا .

---

(١) قدر شقير خسائر هجوم يوم الجمعة ٨ سبتمبر ١٨٨٢ باثنى عشر ألف قتيل وقدرها على المهدى بستة ألف قتيل .

ولكن بعد حصار الابيض واثناء الاستعداد لملاقاة حملة هكس برزت أهمية اعادة تنظيم القوة وتقسيمها لوحدات وتنظيم وتسليح مختلف : أولا لضخامة العدد الذى وصل اليه الثوار ، وثانيا لاختلاف نوعية قوات هكس عن نوعية العدو الذى واجهوه قبـلا .

وصحيح ان المهدى أصدر منشوره الاول الخاص بتنظيم الجيش في قدير تحت رايات الخلفاء الثلاث. ولكنه كان تقسيما اداريا : "Personnel & Q Organization" وكان دور الرايات الثلاث اشـبه بدور القيـادات الأم "Mother Commands" في هذه الايام فهو تقسيم اداري ينضوى تحته الافراد لتجمع من صفوفه مجموعات الوحدات القتالية .

اما التنظيم القتالى الذى وقع عليه عبء توجيه الضربات الاستراتيجية وخوض المعركة التكتيكية فقد قسم الى ثلاثة أقسام :

١ ــ قوات استطلاعية تتكون من الفرسان واجبها الاول هو قطع خطوط امداد العدو الخلفية وضمان سيولة المعلومات عن سير الحملة ، وتنفيذ عمليات صغيرة في شكل مناوشات بعيدة المدى لتسبب خسائر مبدئية للعدو وخفض روحه المعنوية وزعزعته ، وبث المنشورات ، وتعطيل تقدم العدو بدفن الآبار أو تسميمها. وقد اوكلت قيادتها الى أبي قرجه وتجاوز عددها ٣٠٠٠ فارس .

٢ ــ قوات الاقتحام الرئيسية وهى الغالبية العظمى من حاملى السلاح الابيض ومدعمة بالفرسان بقيادة ود النجومى ، تجاوز عددها خمسين الفا .

٣ ــ الجهـادية (Rife Men) وقـد تسلحوا بالبنـادق رمنجتون التى تم غنمها فى الانتصارات الاولى سواء فى ابا وقدير أو من ترسانة الابيض . وقد بلغ عددهم حوالى ٧٠٠٠ مقاتلا .

أما الجهادية ، العنصر الجديد المغذى لقوة المهدية الضاربة ، فقد أصبح بحق وحقيقة النواة الصلبة للجيش الحديث بفضل جهود وكفاءة مؤسسهم حمدان ابو عنجه . فقد بدأ تكوينهم عندما اوكل اليه الخليفة عبد الله انشاء قوة الجهادية ، بعد اقتناع المهدى باهمية الاسلحة النارية . اذ توفر للمهدى فى ذلك الحين بضعة الوف من البنادق ، كما تجمع عدد من الاسرى من الجنود السود ممن وقعوا فى

الإسر في حملات راشد والشلالى وبعد سقوط حاميات كردفان ، واغلبهم كان من حامية الابيض « كان بحامية الابيض ثلاث كتائب من الجهادية » وكان اختيار عبد الله اختيارا موفقا فالرجل ينحدر من نفس عنصرهم ويلم بطبائعهم ويحسن معاملتهم وربطت بينه وبينهم رابـــطة استمدت قوتها مـــن صفات ابو عنجة الشخصية (1) .

وقد أشرف أبو عنجة على تدريب قوة الجهادية وتنظيمها وتسليحها الى أن اصبحت ذلك السلاح القتالى الجبار ووقع عليها العبء الرئيسى فى حروب الحبشة وفى اخماد الثورات الداخلية ، مثلما لعبت من قبل دورا فعالا فى ابادة حملة هكس.

---

(1) حمدان أبو عنجة : ولد فى دار التعايشة حوالى عام ١٨٣٥ ويعود اصله إلى المنفله من قبائل السودان « المقصود بالسودان هو سكان الممالك الصغيرة غرب دارفور كالقمر والسلا والتامه أو خلافها التى اقامت فى دار التعايشة وصاروا كأبنائهم وتزاوجوا معهم » . وقد اشترك حمدان فى أغلب حملات الزبير سواء ضد الفور أو الرزيقات واسره مادبو زعيم الرزيقات . كما اشترك فى غزوات رابح الزبير فى أفريقيا الوسطى وتشاد ومنها عاد إلى دار التعايشة . وحين هبت الثورة ارسل الخليفة يستدعيه فوصل لقدير يصحبه يونس الدكيم بعد رحلة طويلة .

وأبو عنجة كان مؤسس الجهادية الأول بلا نزاع ومن كبار المساهمين فى تطور الفكر العسكرى واول ما ربط جنوده به هى الرابطة الشخصية التى استمدت من صفاته الشخصية ، فقد كان عطوفا متدينا ومحترما من الجميع على الرغم من شجاعته وبطشه. فالرجل الذى كان يصطاد الفيل منفردا بحربته بشجاعة متناهية كان بارعا فى ادارة الرجال . وقد وضحت سيطرته وتأثيره على جنوده فى ثلاث مناسبات . فعندما اقتربت حملة هكس وتحرك أبو عنجه على رأس الجهادية لمناوشتهم وقف المهدى وقال لهم « هؤلاء هم الذين خدمتم فى صفوفهم سنينا طويلة وكانوا يدفعون لكم مرتباتكم وهاهم قد حضروا لقتالنا فان شئتم فانضموا لهم » فرفضوا وبكى أغلبهم من التأثر . ولما توفى أبو عنجة فى القلابات انقلب كل المعسكر لبيت مأتم كبير وكان أولئك الرجال ينوحون ويذرفون أحر الدموع لايام عديدة . وما اشتهر به لجهادية من شراسة خلق وحب للنهب وانتزاع ما يرغبونه بالقوة لم يظهر الا بعد وفاة أبو عنجة « لا زالت عبارة اخلاق الجهادية شائعة فى بعض مناطق السودان كناية عن ضيق الخلق والشراسة » وكان الخليفة يعرف صفاتهم هذه فكانت معسكراتهم دائما خارج المدن . واخلاق الجهادية هذه وحساسية الخليفة منها ستلعب دورا كبيرا فى الملابسات التى احاطت بمعركة امدرمان ومجزرة المتمة .

وحتى سلاطين ذكر أبو عنجة بالخير ووصفه بالوداعة والكرم . ولعل اللمحة الانسانية الطريفة الوحيدة التى ذكرها سلاطين فى كتابه كانت عن زوجة أبو عنجة . فقد ذكر سلاطين انه عندما كان أبو عنجة متحفظا عليه فى الاسر حسب أوامر الخليفة كانت تصله اطايب الطعام . ولما كلف أبو عنجة بالهجوم على أمدرمان اصبحت زوجته لا ترسل له الا الذرة النيئة ولما احتج هو قالت له ضاحكة « وهل يريدنى سلاطين أن اسمنه انا هنا بينما عمك غردون يقتل رجالنا . »

فقد كان مجرد انشائها مفاجأة استراتيجية كبرى لهكس . فقد افادت آخر معلومات جمعتها مخابرات هكس قبل مغادرته الخرطوم ان قوات الثورة لاتتسلح بالاسلحة النارية اطلاقا. ولعل هذا يلقى قليلا من الضوء على كثير من العوامل التي ادت الى ابادة جيش هكس . ورجل متمرس مثل هكس لم يكن ليتقدم بمثل هذا المربع كقطعة واحدة وفى مثل تلك الارض وعبر ذلك الطريق مما بسهل احداث خسائر كبيرة فى صفوفه لولا انه توقع مواجهة عدو تختلف نوعيته كثيرا عن العدو الذى واجهه فعلا .

** ** ** **

وفى عام ١٨٨٢ اصبحت بريطانيا مسئولة رسميا عن مصر وممتلكاتها بعد موقعة التل الكبير وهزيمة عرابي التى سرح بعدها الجيش المصرى . وكانت سياسة بريطانيا فى بادئ الامر ، عدم التدخل فى السودان وعدم التعرض لاى اجراء تتخذه الحكومة المصرية نحوه ؛ ولكن عندما قررت الحكومة المصرية تجهيز حملة كبيرة لسحق الثورة واستعادة الحاميات التى سقطت وبعد ان اتضح خطورة الموقف واستيقظ رؤوف اخيرا من سباته الطويل ؛ وافقت الحكومة البريطانية على مد الحكومة المصرية بالضباط اركانحرب الحملة. وتحركت الحملة من القاهرة[1] يوم ٧ فبراير ١٨٨٣ .

اسند تجهيز الحملة فى مصر للجنرال هكس ([2]) بصفته رئيسا لاركان القوة

---

(١) لعل من اغرب الأمور فى حملة هكس ان تعدادها لم يعرف حتى الآن بالضبط ، ولا يتفق عليه مصدران . فالتقدير الذى قدمه شقير ٨٠٠٠ مقاتل اعتمد على المكاتبات الرسمية أثناء تجهيز الحملة قبل وصولها للسودان أو من الذين انسحبوا منها قبل التقدم للغرب ونجد المهدى يقدر العدد باحتراس فهو يذكر كلمة « قيل » فى خطابه الذى ارسله لعثمان دقنه مبشرا اياه بالنصر فى ٩ يناير ٨٤ « وعددهم كما قيل ٣٦ ألفا » ومن المستبعد ان يصل تعداد الحملة لهذا العدد ، ولكن تقدير شقير أبعد من الحقيقة ، فالمعروف ان عددها تضاعف بعد وصولها السودان بعد انضمام الوف كثيرة من حاميات السودان ومن الاداريين والحمالين .

شقير ٧١٧ – اوراق على المهدى – جرده هكس .

Prisoner of the Mahdi p 67

(٢) رشح جنرال فلانتين بيكر هكس للحكومة المصرية .. وتألم أشد الألم عندما علم بمصير هكس . ولعل هذا يفسر اصراره على قيادة حملة البحر الأحمر على الرغم من ظروفها السيئة .

فتولى هو تجميعها من فلول عرابي ، والاحرى انه تولى جرها جرا لساحة القتال ، فقد وصل بعضهم وهم فعلا مقيدون بالسلاسل ولم تفك عنهم الابعد أن وصلوا الخرطـــوم .

وهكس كان ضابطا متقاعدا خدم أغلب مدته في الجيش الهندى واشتهر بالكفاءة وحارب في عدة حملات في الهند ، ولكن عند وصوله السودان بدأت الخلافات منذ اللحظة الاولى بينه وبين الحاكم العام علاء الدين الذى كان هكس يعارض تدخله في الامور العسكرية ، وتضايق كثيرا من اصرار علاء الدين على مرافقة الحملة ومن ثم طلب ان توكل اليه قيادة الحملة أو يستقيل . فاجيب الى طلبه وتولى قيادة الحملة . وفى الخرطوم اقام معسكر للتدريب قبل التحرك ختمه بمناورات بالذخيرة الحية اشتركت فيها المدفعية وفى نهاية المناورات عاق عليها قائلا « لم أشهد في حياتي مثل هذه الفوضى وسؤ النظام . »

وقد بدأ الخلاف الرئيسى حول اختيار اى الطرق تتخذها الحملة للابيض ، وكان رأى هكس اختيار الطريق الاقصر طريق بارا (١٧٦ ميلا) الا انه يمر بصحراء قاحلة . واختار علاء الدين الطريق الثاني الذى يمر بخور ابو حبل والرهد وطوله ٢٦١ ميلا ، ولكنه كثير الماء والاعشاب لاطعام الجنود والحملة . ولكلا الرأيين مايبرره ، ولكن طريق بارا يتوفر فيه مجالا اوسع لتلك القوة الكبيرة لكى تناور وتتحرك وان تدافع دفاعا تتوفر فيه اراضى قتل واسعة تتناسب مع تسليحها المتفوق ، بحيث تتمكن من احداث خسائر كبيرة في الثوار سواء ان كانت مدافعة أو مهاجمة.ولو سلك هذ االطريق لاصبحت نيران جهادية ابو عنجة اقل اثرآ لعدم توفر السواتر القريبة ، ولما حققت طلائع ابو قرجه المتقدمة بفرسانها ماحققته ، ولما استطاع الهجوم الرئيسى الشامل بقيادة ود النجومي ان يبيد القوة في اربعين دقيقة (١).

(١) كتب ونجت في يومياته بعد ان زار ارض معركة شيكان بعد اثنين وعشرين عاما : لو ان محاولة استعادة الأبيض قامت بها قوة أكبر واكفاء كثيرا من قوة هكس لكانت النتيجة واحدة .. فالسلطات في ذلك العهد لم تقدر الموقف حق قدره ولم تقدر الصعوبات الناتجة عند تحريك قوة ضخمة عبر اراضى كاراضى كردفان .

"Had the efforts to return El Obied been conducted by a far more numerous and efficient force, the result would have been the same. The Government of that period neither realized the situation nor appreciated the enormous difficulties attendant on the move of a large force through such country."

Wingate, P. 88.

وبعد اكتمال التجهيزات تحركت الحملة يوم ٨ سبتمبر ١٨٨٣ جنوبا بحذاء النيل . وفى ٨ سبتمبر ١٨٨٣ وصلت الحملة الكوة وفى ٢٤ سبتمبر فارقت النيل من الدويم وانجهت غربا ، ومن هنا بدأت مسيرة هكس المنكوده التى دامت اكثر من ٦ أسابيع ، ففى ٢٩ سبتمبر وصلوا المرابيع ، ولاول مرة شاهدوا العدو . ولكنهم شاهدوه فقط ولم يتمكنوا ابدا من الالتحام معه . واصبحت تلك هى السمة الدائمة لعمليات ابو قرجه ، عدو من الفرسان يظهر دائما فجأة كالاشباح وينطلق مبتعدا بعد أن يحدق فيهم جيدا . فقد اندفع ابو قرجه شرقا من الابيض بقيادة ثلاثة الف فارس انتشروا على طول طريق الحملة وخلفها ولم يتصلوا بهكس الا بعد ان توغل غربا ، وبعدها اكثروا من المناوشات فلم يذق جنود هكس طعما للنوم الا أقله طوال مسافة الطريق . وقد سارع المهدى فأرسل المنشورات لكل اهالى المنطقة لاخلائها وتجنب الاشتباك اشتباكا حاسما مع العدو ، والاكتفاء بمناوشته من بعيد ودفن الآبار . وبدلا من أن يجد هؤلاء منطقة مكتظة باهالى محايدين أو اصدقاء وجدوا انفسهم فى منطقة قاحلة خالية من السكان . ومارس ظهور المئات من فرسان ابو قرجة يوميا وتسللهم كالماء بين الاصابع وهم يتابعون العدو خطوة بخطوة ، تأثيرا نفسيا قوياً على هكس وجنوده .

كان مخطط المهدى لمواجهة هكس . مخططا ذكيا . اعتمد على تجنب المواجهة وجره بعيدا لتمديد خطوط تموينه وازعاجه وزعزعته نفسيا الى أن يجذبه الى ارض القتل المختارة ليقضى فيها عليه قضاءا نهائيا . وسرعان مابدأت أبرز سمات أسابيع التقدم الستة فى الظهور ، وهو الخلاف الدائم بين علاء الدين وهكس ، فبعد مشاجرة اختيار الطريق الاولى ، اختلفوا فى استخدام الفرسان هل يجمعونهم داخل المربع ام خارجه لحماية الاجناب . ولما تقدمت الحملة وبدأ العطش ، العدو الجديد الرهيب ، فى النيل منهم اصبح الشجار وعدم اطاعة الاوامر يتكرر يوميا . ثم ثار الخلاف مرة أخرى حول خطوط الامداد الخلفية ، فقد اقترح علاء الدين انشاء نقاط عسكرية على طول خط الامداد للمحافظة عليه ولضمان اتصاله . ورفض هكس بحجة ان تلك النقاط ستنعزل وسيصبح من السهل ابادة جنودها .

وثار الجدل مرة أخرى عندما رفض هكس الاستماع لنصيحة الادلاء الذين

استأجرهم علاء الدين ، فلم يكن هكس يثق فيهم اطلاقا ، ولايمكن ان يلام على ذلك فقد ثبت فيما بعد ان الجنود والجمال كانوا يتساقطون بالعشرات من تأثير العطش بينما كانت موارد المياه لاتبعد أكثر من ميلين فى أغلب الاحيان (١) وفى نفس الوقت كان هكس يصر على اتباع الطرق الضيقة وسط الاشجار ظانا ان الخضرة تدل على وجود الماء . واوضحت مفكرة عباس بك هبوط الروح المعنوية واعتقاد الجنود والضباط ان هكس يقودهم لحتفهم متعمدا : (٢) هل هذه كفاءة الانجليز التى يتحدثون عنها ؟ ! ان يقودنا الجنرال فى مسيرة عمياء مخالفا نصيحة الادلاء. . . . حمدا لله انهم لم يحرقوا القش(٣) والا لكان موقفنا عصيبا . . »

واخيرا وضح ان مصير الحملة ونجاحها يدور حول محور واحد وهوالحصول على ماء الشرب ، فقد حلت أشهر الجفاف وبدأ العطش يفتك فتكا ذريعا بالحيوانات والجنود . والحصول على الماء هو الذى حدد أخيرا نهاية الحملة .

---

(١) ذكر بعض المؤرخين ان وصف تأثير العطش على حملة هكس كان وصفا مبالغاً فيه وان الزمن كان زمن خريف والأرض مترعة بالخيران والبرك . ولكن مفكرات عباس والكابتن فركهار ومن استجوبوا فيما بعد اجمعوا على أنهم قاسوا من العطش . ومعركة شيكان حدثت فى أوائل نوفمبر وهى نهاية الخريف فى تلك المنطقة وعند الاستقصاء عن كمية الأمطار فى تلك الفترة من الزمن افاد سكان المنطقة ان نهاية اكتوبر وبداية نوفمبر تشهد مطرا خفيفا يدعى البخات » ارجو الا تخدعنا الكلمة باعتبارها بشائر خير لهطول الأمطار . بل هى بشائر بنضج محصول ما » اذا فالاحتمال الأكبر هو اما ان عام ٨٣ شهد موسم الجفاف مبكرا عن عادته او ان كميات المياه لم تكن تكفى حاجة كل الحملة من بشر وحيوانات.

جهاد فى سبيل الله ص ٥٣

The Diary of Abbas Bey, pp 12, 14, 16, 17. Wingate Papers, Durham

(٢) مفكرة عباس بك هى الوثيقة الوحيدة التى تصف الايام الأخيرة لحملة هكس حتى اللحظة الأخيرة. والطريف فى أمرها انه عثر عليها مصادفة عندما كان أحد الضباط البريطانيين يفتش جثة أحد قتلى معركة أمدرمان باحثا عن تذكار يأخذه معه فعثر فى ملابسه على مفكرة جلدية وأسرع وقدمها لونجت الذى أدرك قيمتها وسارع بترجمتها للانجليزية . والنسخة التى اطلعت عليها فى اوراق ونجت هى النسخة المترجمة وليست الوثيقة الأصلية التى كتبت باللغة العربية . وهناك أشياء كثيرة غامضة عن حملة هكس لان القلة التى نجت وعاشت بعد المعركة لم تستجوب الا بعد اثنين وعشرين عاما بعد المعركة . أما مفكرات ادونوفان وفركهار فوقعت فى يد سلاطين وهو الوحيد الذى قرأها وقدم اجزاء منها من الذاكره عندما نشر كتابه .

The Diary of Abbas Bey

Wingate Paper Box 18.

Slatin, Rudolf, *Fire and Sword in the Sudan* (London, 1896), p. 241.

(٣) تطايرت الاشاعات وسط الحملة أن المهدى سيحرق القش والغابات ويقضى عليهم حرقاً - ولابد أن الذى منع المهدى من ذلك حتى بعد انذارهم هو رغبته فى الحصول على السلاح والعتادة سليماً .

The Diary of Abb Bey, Wingate Papers. Box 18.

كان المهدى يتابع تقدم هكس خطوة بخطوة ولما علم باقتراب هكس ، أقام معسكرا كبيرا للتدريب خارج الابيض توسطته رئاسته التي كان يتقبل فيها تقارير ابو قرجه ويوزع جهوده على مسرح عملياته الذى امتد لمئات الاميال . والثابت انه كان يستلم عدة تقارير يوميا عن موقف العدو وكانت كلها تقارير دقيقة مفصلة . فخلاف خيول ابو قرجة ، تطوع كثيرون للعمل وسط صفوف هكس كأدلاء أو كمقاتلين . وتحسن تصور المهدى لموقف العدو كثيراً بعد فرار احد الاوربيين وانضمامه لقوات ابو قرجه . واعتمادا على المعلومات التى قدمها هؤلاء بدأت خطته العبقرية تأخذ ملامحها أخيرا .

كان أمامه مسلكان : اما ان ينتظر ويدافع في الابيض،وينتظر قدوم عدوه المتعب المتناقص الاعداد بعد مناوشات ابو قرجه ، أو يواجهه في ارض قتل مناسبة قبل وصوله الابيض . وقد اختار الثانية . فحسب المعلومات التي قدمتها مصادره عن قلة المياه ومقاساة الحملة من العطش ادرك انه ان اراد ان يفرض ارادته على العدو ، وأن يجذبه لمسرح المعركة المختار فعليه أولا السيطرة على مورد المياه الوحيد في طريق تقدم هكس ، وهو منهل البركة ، وبالتالى يجذبه لارض القتل المختارة في كاشقيل وبالتحديد في غابة شيكان ، حيث تكفل اشجارها الكثيفة السواتر اللازمة لجهادية ابو عنجه للتقدم وصب نيرانهم على العدو ، وحيث يعوق الطريق الضيق تحركات مربع هكس الضخم ويحد من مقدرته على المناورة وتحقيق الصدمة المطلوبة ، وحيث تحرمهم الاشجار من ميدان ضربنار مكشوف يتيح لنيرانهم المتفوقة ابراز فعاليتها .

تحرك المهدى هذه المرة بكل جيشه الذى تجاوز تعداده ستون الف مقاتل من معسكره خارج الابيض الى فرتنقول ، ليصبح جيشه الرئيسي قريبا من هكس حتى يتمكن من التحرك وتوجيه الضربات السريعة،وبدأ السباق نحو منهل البركة . ولما وصل هكس لعلوبه ادرك المهدى ان هدفه هو احتلال منهل [1] البركه فأرسل

---

(١) كان المهدى واثقا من دقة تخطيطه للحد البعيد ففى المجلس الحربى الذى عقد قبل يومين من نشوب المعركة أبدى احد المتحدثين « ابراهيم الترجماوى » مخاوفه من أن هكس ربما يندفع للابيض الخالية من المقاتلين ويحتلها متخطيا منهل البركة فقيل ان المهدى قال له « .. غدا يوم الأحد يتوجه لهم وفى صبيحة الاثنين بعد ان نأمركم بمحاربتهم اذا تأخر أحدكم لا صلاح نعله لم يدركهم احياء »

محمد عبد الرحيم — النداء فى دفع الافتراء — ص ١٤٤

طليعة مكونة من الف فارس بقيادة محمود عبد القادر . فوصــل محمود منهل البركة واحتله ، وضمن بذلك السيطرة على المكان الاستراتيجى المهم ــ كما ضمن اجبار العدو على اتخاذ طريق الملبس الذى يمر بغابة شيكان . وفى يوم السبت ٢٠ نوفمبر كان هكس فى مصران أم برد أقرب لشيكان من المهدى ، ولو بدأ التحرك لتجاوزها قبل ان يتمكن المهدى من نقل جيشه الرئيسى من فرتنقول . فامر المهدى اصحاب الخيول باحداث ضجة عظيمة ليوهم هكس بان الهجوم الرئيسى على وشك الوقوع ؛ فاضطر جيش هكس للتوقف وبناء الزريبة ؛ بينما كان جيش المهدى يبعد مالايقل عن ١٥ ميلا . وبعد ان توقف هكس نفذت خيول ابو قرجة عملية نقل ضخمة لكل الجهادية ، فقد اردفوا كل جهادية ابو عنجة على ظهور خيولهم واسرعوا وانزلوهم فى بداية الغابة .

كمن الجهادية خلف الاشجار التى أحاطت بجانبى الطريق وتسلقوا اعاليها . وما ان ارخى الظلام سدوله حتى وجهوا نيرانهم الكثيفة نحو مربع هكس الضخم . وبينما كانت قوات الاقتحام المكونة من حملة السلاح الابيض والفرسان تتقدم بقيادة ود النجومى نحو كاشقيل ، كانت نيران ابو عنجه تحصد فى الدواب والجنود الذين تكدسوا وهم لايستطيعون شيئا حيال النيران التى انهالت من اعلى الاشجار ومن الاجناب ومن الخلف . وقد وصف الكابتن هيرلث اثر نيران ابو عنجة فى ليلة ٤ نوفمبر قائلا :« كان يوما سيئا فمعنوياتنا هابطة فنحن داخل غابة . لقد امر الجنرال الموسيقى بالعزف آملا ان يخفف ذلك علينا قليلا،ولكن الفرقة الموسيقية سرعان ماتوقفت عن العزف فقد انصبت النيران علينا من كل الجهات وبدأ الرجال والجمال والبغال يتساقطون بسرعة واحدا بعد الآخر ، فتجمعنا وانضمت صفوفنا فاصبحت كل طلقة تصيب مقتلا . لقد اصاب منا الارهاق والتعب مدى بعيدا واصبحنا لاندرى مانفعله فأمر الجنرال بالتوقف وبناء الزريبة » .

وفى صباح ٥ نوفمبر غادر هكس زريبته بعد ان قسم قوته الى ثلاثة مربعات فى شكل مثلث متساوى الاضلاع ووضع المدافع فى المقدمة ، وجعل الفرسان فى الاجناب لحمايتها ومضى هو فى المقدمة ومعه اركانحربه . ولم يكد يمضى على تحركه نصف ساعة حتى كان محاصرا من كل الجهات ــ ابو قرجه وقواته من الخلف ،

ود النجومي من الامام والجهادية ونيرانها في الجانبين يتبعونه خطوة بخطوة . ومن المؤكد أنه شعر بخطورة موقفه ولعله قد أمل ان يقطع هذا الوادى ذا الغابات الكثيفة بسرعة قبل أن يتعرض للهجوم ، واثقا ان موقفه سيصبح أحسن وأقوى لو خرج للعراء .

ولكن هؤلاء لم يمهلوه طويلا . فالمهدى وانصاره كانوا على بعد ١٠٠٠ متر تقريبا وعندما رأى الجيش يتقدم استل سيفه وهزه آمرا بالهجوم العام . فاندفعت كل قواته نحو المربعات الثلاث وابيدت القوة كلها في حوالى ٤٥ دقيقة (١) ماعدا ٣٠٠ رجل نجوا لاختفائهم تحت الجثث المكدسة . وكان اول القتلى هكس باشا فقد كان في المقدمة وقاوم مقاومة عنيفة .

وعاد المهدى الى الابيض وقد استغنى هذه المرة عن تحرير خطابات الدعاية أو ارسال المناشير . . . فقد عمت انباء انتصاره على أكبر قوة حشدت في تاريخ السودان كل انحاء البلاد . ولم يبق هناك شك في صدق دعوته ، وسارع زعماء العشائر المترددين والذين كانوا يقفون موقف المتفرج للانضمام اليه . وبعدها امر ببدء الزحف على الخرطوم بجيشه المتضخم بالالوف التى انضمت اليه حديثا .

* * * *

لقد كانت مسيرة المهدى من الابيض للخرطوم مسيرة شعبية هائلة دامت عدة شهور ، وأبرزت الروح الجديدة التى غمرت تلك الالوف من الرجال والنساء والاطفال الذين سارعوا للانضمام لصفوفه ولمبايعته على الموت . كما برزت اثناءها مقدرته الفذة في التعبئة المعنوية والروحية . فحتى قلم سلاطين المسموم لم يستطع اخفاء تأثره واعجابه بتلك المشاهد التى عايشها عندما احضره المهدى أسيرا بعد سقوط دارفور .

وهناك ظاهرتان تلفتان النظر في تقدم المهدى نحو الخرطوم وتبرزان كفاءة المهدى والخليفة كعقليات استراتيجية ناضجة . أولهما هو ادارة المهدى ، وهو في اقاصى كردفان ، لمسرح عمليات ضخم مساحته مئات الالوف من الاميال المربعة ، ولايمكن الا ان ننظر باعجاب الى ضرباته الاستراتيجية وتوقيتاتها الموزونة

(١) دامت المعركة ٦٣ دقيقة بالضبط أى منذ ان شاهد الجيشان بعضهما البعض إلى أن ساد السكون بعد ابادة الحملة .

وهو يضيق دائرة الحصار يوما بعد يوم حول الخرطوم . فالطريقة التى وازن بها توقيتات ارساله لابو قرجة كرأس جسر لعملية الحصار من الجنوب ، واشعال الشيخ العبيد للثورة فى ضواحى الخرطوم واحتلال الحلفاية ومحاصرة الخرطوم من الشرق ، كل ذلك لينسج خيوط دائرة الحصـــار الداخلية ليضمن انعزال الخرطوم لفترة مؤقتة عن باقى السودان ، ثم وجه جهده لاحكام دائرة الحصار الخارجية باحتلال بربر واشعال عثمان دقنة الثورة فى شرق السودان وبذلك قطع اتصال الخرطوم بباقى العالم عبر الطريق الشرقى والطريق الشمالى .

ثم عاد مركزا جهده لاحكام دائرة الحصار الداخلية حول الخرطوم عندما دفع بأبوعنجة لاحتلال ام درمان . واكمل ود النجومى الحصار جنوبا من ناحية النيل الابيض . فاصحبت الخرطوم كالثمرة الناضجة تنتظر اقتحامه لتسقط بسهولة. فهل هجم ؟ لابل فضل الانتظار اربعة اشهر كاملة الى ان سقطت المدينة بدون خسائر تقريبا . فقد وعى درس واقعة الجمعة فى الابيض جيدا .

اما الظاهرة الثانية الملفتة للنظر اثناء مسيرة المهدى للخرطوم فهى هندسة وميكانيكية عملية التقدم نفسها . فنلاحظ هنا ان المهدى لم يتقدم بالمقاتلين فقط بل تقدم بكل السكان . وتسبب ذلك فى استغراقه زمنا طويلا للوصول للخرطوم كما حدد الوثبات التى يقف فيها . وسرعان ما اتخذت هذه الوثبات هيئة مدن مؤقتة . فالوصف الذى قدمه سلاطين واوهرلدر عن الرهد ، وصف لمعسكر عظيم أشبه بمدينة صغيرة . وبالتالى كان عليه أن يوازن اثناء تقدمه بين عدة عوامل ، هى التى حددت التوقيتات والمسالك والحشود . تفاوتت هذه العوامل بين اختيار الطرق التى تمر على المناطق الغنية بالحبوب لاطعام جيشه المتضخم ، وبين قرب المسافة أو بعدها من[1] الخرطوم وبين انتظار انخفاض النيل الكفيل بعرقلة تقدم

---

(١) ليس هناك تفسير لاستغراقه كل ذلك الزمن لنقل جيشه الرئيسى من الأبيض للخرطوم « استغرق أكثر من أربعة أشهر فقد بدأ الزحف من الأبيض قبل يونيو ٨٤ ووصل الفتيحاب فى أكتوبر » خلاف رفضه الثبات لمعركة تصادمية يزج فيها بمعظم جيشه والنيل فى زمن ارتفاعه واحتمال اصطدامه بالنجده كبيراً ، ولكننا نراه يدفع باجزاء جيشه يسهل عليها الانفصال بسرعة ليعاود الكرة مرة أخرى بحشده الاعظم الذى احتفظ به على بعد مناسب من الخرطوم. ومن الخطأ تبرير تأخره كل ذلك الزمن بانشغاله بعمليات جانبية مثل عصيان سكان جبل الداير .

جيش العدو ، وقد ذكر سلاطين الذى اشترك فى التقدم ان المهدى تقدم من الرهد للخرطوم بثلاث محاور ، راعى فى اختيار كل منها اعاشة الحيوانات والمقاتلين واتباعهم . المحور الشمالى حيث يقل العشب — خصص لقبائل كردفان ودارفور التى ترعى الابل ووثباته هي خرس ، هلبه ، الترعة الخضراء . والمحور الأوسط عبر وثبات طياره وشركيلا وشات والدويم — كان هو المحور الرئيسى الذى تقدم به المهدى والخلفاء والجهادية . أما المحور الجنوبي حيث يكثر العشب والماء فقد خصص للقبائل التى تسعى الماشية « البقارة » .

وعندما كان في الرهد وصلت الانباء بوصول غردون حاكما عاما للسودان فى فبراير عام ٨٤ . وكان للنبأ أثره فى اثارة البلبلة فى صفوف المهدى . فوصول رجل كغردون لابد ان تتبعه الجيوش والامدادات ، وسيعنى ذلك اطالة الحرب ، وبدأت مجالس الحرب تتوالى للبحث فى الموقف .

ولكن الحقيقة كانت شيئا مخالفا لذلك . . . . فان غردون جاء ليخلى السودان وليس ليملأه بالجيوش والعتاد . . . . فقد استغل الرجل شهرته وبدأ يدلى بآرائه حول الوضع فى السودان لصحافة لندن التى سبق وبالغت فى ابراز انجازاته فى محاربة الرق . موضحة تصوره للطرق المثلى لقهر الثورة المهدية . واحترم [1] الرأى العام البريطاني آراءه بصفته خبيرا فى شئون السودان . وبعد وصول تفاصيل حملة هكس اصبح ايفاد غردون للسودان صرخة شعبية فى لندن ، فكان ان فرض فرضا

---

(١) بينما اجمع المؤرخون على ان ما فجر الشرارة الأولى فى قصة غردون والخرطوم هو الحديث الذى أدلى به غوردون لمحرر جريدة بول مول جازيت Pall Mall Gazette فى يوم ٨ يناير ١٨٨٤ عن رأيه فى أحداث السودان نجد ان مورهيد يخالفهم ويوضح ان الصيحة بدأت ترتفع بعد أن نشر صمويل بيكر خطابا قوى اللهجة فى التايمس فى الأول من يناير قبل أسبوع من نشر التحقيق الذى أجراه توماس ستيد مع غردون وأيد فيه آراء بيكر . على أية حال اوضح غردون فى التحقيق الصحفى جهله التام بأبعاد الثورة الجديدة . فقد ذكر ان المهدى ليس الا مخلب قط لتجار الرقيق امثال الياس ام برير ، الا ان حديثه اثار دويا هائلا خصوصا عندما تطوع احد الضباط ونشر مقالا فى نفس الصحيفة ذكر فيه ان اسم غردون وحده سيحقق المعجزات

Moorhead, Alan, *The White Nile* ;London, 1962), 216

على كرومر الذى لم يكن لــه (١) ودا كثيرا . وعندما وصل القاهرة وضح كرومر لغردون بجلاء ان مهمته الرئيسية هي سحب الحاميات (٢) المصرية بسلام ، دون الدخول في مغامرات عسكرية ، واقترح عليه كرومر أخذ الزبير معه واستخدامه كسلاح مضاد للمهدي بعد مساعدته بالاموال والسلاح .

فقد كان الزبير مسلما . وكان كرومر متفهما لأهمية هذه النقطة في ثورة دينية ، وخصوصا بعد وصول تفاصيل استسلام سلاطين ، وعندما ذهبا لمقابلة

---

(١) رفض بيرنج « لورد كرومر فيما بعد » استخدام غردون أكثر من مرة ، المرة الأولى محتجا بأن الرجل مسيحي وان الثورة ثورة دينية » وفي تلك برهن بيرنج انه يلم بالموقف أكثر من غردون » وفي المرة الثانية لم يستطع اخفاء ضيقه من شخصية غردون نفسها في أن الرجل « يستوحي قراراته من الهام نبوى » وانه لا يثق في الآراء التي تبنى على الاحساس الغيبي أو المشاعر الداخلية

"I have no confidence in opinions based on mystic feeling"

وكان ذلك عندما فاجأ غردون كرومر بتغيير رأيه فجأة في الزبير وطلب استصحابه معه وهو الذى بعث قبل أسبوع بتلغراف من الباخرة التي أقلته من مصر يطلب فيه ابعاد الزبير من مصر . وعندما سأله كرومر عن أسباب تغيير رأيه أجاب « بأن لديه احساسا داخليا يدفعه للثقة بالزبير » .

مكي شبيكة (غردون وكتشنر) ص ٩ مطبوعات جامعة الخرطوم .Moorehead, 224

ويعود نفور كرومر وغردون من بعضهما منذ أول لقاء لهما عندما أرسل لخديوى اسماعيل غردون مندوبا له لمفاوضة الدائنين الإوربيين . فقد كتب غردون عن كرومر « تفاهمنا كان مستحيلا كاستحالة مزج الزيت بالماء »

"When oil mixes with water then we will mix"

(٢) كانت أوامر غردون الرسمية التي استلمها من كرومر كالآتي :

You will bear in mind the main end to be pursued is the evacuation of the Sudan. Enclosure, Egypt No 6 C. Gordon, the *Journals of General Gordon at Khartoum.*
(edited by A. Egmont Hake), (London, 1885), p. 55, Vol II.

« ويجب أن تضع نصب عينك ان الهدف النهائي للمهمة هو اخلاء السودان » .

الزبير رفض الزبير التعاون مع غردون (١) في البداية،وعندما وافق في النهاية رفضت لندن تعيينه ، خوفا من جمعية محاربة الرق . ولكنه لم يكد يعبر حدود السودان حتى ارسل في طلب الزبير مرة أخرى . ومن هنا بدأت سلسلة البرقيات المتناقضة تنهال على كرومر . وفي بربر ارتكب غلطته الكبرى عندما أذاع منشور اخلاء السودان . وبعدها انضمت القبائل التي كانت ولازالت (٢) على ولائها للحكومة الى صف المهدى ، فقد أحست ان قضية الحكومة قضية خاسرة .

وعندما وصل للخرطوم وبدأ يحس لأول مرة بثقل ونوعية الحركة التي يجابهها عاد وغمر كرومر الصبور بالبرقيات .

اقترح اولا الاتصال بالسلطان في تركيا ليرسل بعثة من الجنود الاتراك الذين اشتهروا بالصلابة والشجاعة . . وتجاهل كرومر اقتراحه ، ثم اقترح ارسال بعض الجنود الهنود والمسلمين فهم اقدر من يواجه هذا الموقف . . . ورد عليه كرومر مذكرا اياه بمهمته الاصلية وهي سحب جنود الحاميات واخلاء السودان،ولايعقل

---

(١) أعطى بيرنج وصفا مؤثرا للمقابلة التي حضرها غردون والزبير وبيرنج ونوبار باشا « كان مشهدا دراميا ومثيراً . فعندما تواجه غردون والزبير كانت تتجاذبهما مشاعر وأحقاد عنيفة . ونمت لهجة حديثهما عن الاحاسيس التي اضطرمت داخل نفسيهما وطحنتها طحنا فقد انكر الزبير بتاتا انه حرض سليمان على التمرد على غردون ، وان ابنه قتل غيله « حقيقة يوضح شقير ان الزبير ارسل خطابا ينصح فيه ابنه سليمان بعدم مخالفة غردون ويورد الخطاب. شقير ص ٥٩٨ » . واكملت مذكرات ونجت صورة المقابلة التي حضرها بصفته سكرتير اللاجتماع : في بداية الاجتماع وبعد المقدمات مد غردون يده للزبير ليصافحه ، فرفض الزبير مصافحة غردون ووضع يده خلف ظهره وقال : « لا يمكنني ان اصافح اليد التي تلوثت بدماء ابني . فانت المسئول عن اغتيال سليمان » فاجاب غردون « لقد كنت اؤدى واجبي وعلى أية حال فالخطاب الذى ارسلته لسليمان محرضا اياه على الثورة موجود الآن . » فصاح الزبير في وجهه : « كاذب .. كاذب كاذب .. لم اكتب هذا الخطاب ابدا . ارني اياه ان كان موجودا . » وخرج من الغرفة فورا . فارسل ونجت إلى القيادة للبحث عن الخطاب في أوراق سليمان الزبير واحضاره ولكنه لم يجده . وبعد تهدئة الزبير عاودوا الاجتماع مرة أخرى في المساء وعند دخول غردون سارع واعتذر للزبير قائلا : انت محق وأنا مخطيء وانا اعتذر من كل قلبي . ارجوك قبول مصافحة يدى الممدودة » . ومد غردون يده وهنا فقط صافحه الزبير فاستمر الاجتماع . »

Wingate. p. 49 Moorheed, 225

(٢) كتب حسين باشا خليفة في ٢٢ يناير محذرا الخديوى من اعلان الجلاء . كما ذكر سلاطين ان اعلان غردون للجلاء قبل سحب الحاميات كانت احدى الأسباب الرئيسية التي عرقلت اخلاء السودان .



ارسال عدة آلاف من الهند البعيدة لانقاذ بضعة آلاف في السودان . وعاد يلح مرة اخرى في ارسال الزبير موضحا رأيه أن الاعتراض على الزبير اعتراض سخيف يتركز في شخصية الزبير كتاجر رقيق ولكن سقوط السودان في يد المهدى سيجعل السودان ، حسب رأيه ، سوق رقيق كبير .ونسى انه المسئول الاول عن خوف الحكومة من استخدام الزبير ، فقد سممت احاديثه الصحفية المهولة صورة الزبير قبلا . وعاد يتوسل مطالبا بمائتي جندى انجليزى فقط ، فهم على قلتهم كفيلون في نظره بانقاذ الموقف .

وقبل المضى في متابعة حصار الخرطوم ، لابد لنا من وقفة قصيرة مع غردون . فقد كان مقتل الرجل من الاسباب المباشرة لاتخاذ قرار اعادة فتح السودان ، وسيلاحقنا اسمه حتى السطر الاخير من هذه الصفحات . فالرأى العام البريطاني أندفع في تأييد غزو السودان لانه لم ينس الاهانة التى وجهت له بمقتل غردون . ولم يحدث في التاريخ ، منذ أن حشد الاغريق سفنهم لانقاذ هيلين ملكة طرواده المخطوفة ، ان جهزت حملة كاملة بآلاف الرجال ، لتقطع آلاف الاميال ، لانقاذ رجل واحد ، بل وسميت « حملة الانقاذ » بدون مواربة ، وكان رجالها يهتفــون عقب كل انتصار لهم في طريقهم الشاق الطويل "Gordon Remains, Let Us Press on" تقدمــوا ، فغــردون لازال حيــا . » وكانت كــل وكالات الانباء تتابع سير الحملة . . . . وعندما وصل نبأ مقتله أصيب الجميع بصدمة لمقتل بطل المسيحية في العصر الفيكتورى . وللنظر نظرة واقعية لبطل المسيحية :

كان غردون ضابطا في سلاح المهندسين ، خامل الظل والشهرة . ولمع اسمه اول مرة أثناء حصار سباستبول في حرب القرم ، وبعدها خدم في الصين وعين قائدا لجيش من المرتزقة جندهم التجار الاوربيون لحماية رؤوس اموالهم واكتسب جيشه لقب الجيش الذى لايقهــر Ever Victorious Army عنــدما اوكل اليه اخماد ثــورة « هونج – سيو – تسن » تلك الثورة التى شابهت ثورة المهدى في الكثير من خلفياتها وتطلعاتها عدا فارق بسيط . . . لقد أفلح غردون في اخماد تلك الثورة ، ولكنه فشل هنا في السودان ، فدفع دمه السكسوني في

سبيل قهرها ولم يفلح . وهنا ظهرت ابعاد شخصيته بكل نزواتها وتقلباتها وماكان بالامكان ان تتكرر . وعندما عاد لانجلترا من الصين كان قبلا قد اعتبر بطلا قوميا . فالبطل فى العصر الفكتورى كان هو ذلك الابيض الاملس الوسيم الذى يمضى وحيدا فى دهمة الليل الى معسكر المتوحشين اما لاقناعهم بضم بلادهم للامبراطورية التى لاتغرب الشمس عنها ، أو ليكون جيشا منهم لغزو اجزاء أخرى .

وقد تعرضت شخصية غردون ومكانته فى التاريخ البريطاني لتقلبات أشبه بتقلبات شخصيته هو ، ولايمكن الا ان تكون انعكاسا لها . فقد ظل أشهر(١) بطل قومى فى بريطانيا لاكثر من ثلاثين عاما . ويومياته المشهورة التى أرسلها اثناء حصار الخرطوم The Journals of General Gordon At Khartoum قرأها كل من يعرف الانجليزية تقريبا. وفجأة أزيح الستار عن حقيقة شخصيته عندما تعرض له ستراخى فى كتابه « اسماء لامعة فى العهد الفيكتورى "Eminent Victorions" وقد استمد المؤلف أغلب معلوماته من تشالى لونج الامريكى الذى رافق غردون فى مهمته الاولى . وأبرز بوضوح كل نقائص شخصيته من كذب وحالات نفسية تصل الى الجنون ، ومن سرقة وقسوة تصل الى درجة الوحشية احيانا ، وظلت شخصيته تتأرجح بين الرأيين الى أن حاول المؤرخون الحديثون تبرئته من كل تلك التهم بالنظر اليها نظرة علمية حديثة بتحليل شخصيته تحليلا نفسيا "Psychatric" . ونظرة سريعة محايدة ليومياته التى كتبها من الخرطوم ، وهو مايهمنا ، سنخرج منها بحقائق واضحة . اولها ببساطة أن الموقف ، ومن خلفه المهدى ، كان أكبر من مقدرة غردون وتصوره كثيرا . ولم يتسن له أبدا ان يقدر الثورة ويتحسس ابعادها أو يتصور دوافعها وآفاقها . فقد كان تصوره للسودان عام ٨٤ هو نفس تصوره له عام ٧٦ . وعلى الرغم من قصر الفاصل الزمني ، إلا ان الامر كان قد اختلف تماما ، فقد كان غوردون يواجه

---

(١) ليس هناك دليل على مكانة غردون فى نفس الشعب البريطانى اوضح من أن كرومر ، الذى تناوله قلم غردون بالتجريح والاساءة والسخرية فى كل يوم من يومياته ، لم يستطيع ان يخالف التيار الذى مجد غردون . وظل صامتا لأكثر من ربع قرن ولم يجرؤ على نشر حقيقة غردون أو يدافع عن نفسه الا عام ١٩٠٧ .

ثورة كاملة شاملة بدوافع روحية ومعنوية توجه طاقات ملايين من البشر وتختلف تماما عما اصطدم به من حركات صغيرة، مثل تمرد سليمان الزبير أو تهديد الجلابة وتجار الرقيق ، أو حتى ثورة شين وانج في الصين ، التي كان سحقها اكبر انجازاته العسكرية ، واقذرها . فارساله بضعة ملابس موشاة للمهدي وتعيينه سلطانا على كردفان ، ظنا منه ان المؤامرات والكذبات الصغيرة كفيلة بأن تلهي المهدي مثلما افلحت من قبل مع اتباع سليمان الزبير ، توضح انه لم يتسن له أبدا تصور الموقف على حقيقته . وان حدث هذا في اول حضوره فله العذر ، فما باله بعد سنة امضاها محاصرا يكتب في آخر فقره في يومياته بان ظهور خمسين جنديا (١) بريطانيا بملابسهم الحمراء الزاهية كفيل بأن يفرق ستون الفا من الرجال الشجعان المسلحين شذرا مذرا ، ولم يكن يعلم مافعله بضعة الوف من هؤلاء الرجال ، وفي نفس اللحظات التي سطر فيها عباراته ، عندما اصطدموا ب ٢٠٠٠ جندي بريطاني في ابو طليح .

ولو حاولنا ان ننظر نظرة موضوعية لغردون فلنبدأ بذكر المحاسن لانها اقل واندر . من الصعب القول بأن موقف غردون في السودان كان موقف مرتزق عادي همه جمع المال ، فعند تعيينه لأول مرة في السودان رفض استلام نفس المرتب الذي كان يتقاضاه بيكر وقنع بأخذ خمسه « ١٠٫٠٠٠ جنيه خفضها الى ٢٠٠٠ جنيه » والمرجح أن البحث عن الشهرة والمجد الشخصي هي أكبر دوافعه، اما شجاعته الشخصية وطاقته وكفاءته العسكرية أو تعصبه الديني الشبيه بتعصب

---

(١) من الأمور الغريبة في يوميات غردون هو تقديره لتعداد قوات الحصار من جيش المهدي. ففي الخريطة التي رسمها موضحا توزيع قوة المهدي ومدفعيته وارفقها بيومياته أوضح أن قوة المهدي لا تتجاوز تسعة عشر ألفاً .. وتاريخ رسمها هو ٢٢ نوفمبر ١٨٨٤ أي بعد وصول المهدي بأكثر من شهر وتكامل كل قوته بينما قدرها شقير بستون الفاً . أما سلاطين الذي حضر أيام الحصار فلم يذكر شيئاً عنها ولكنه ذكر أن العدد الذي اشترك في الهجوم على هكس لا يقل عن مائة الف مقاتل . ولم يتكبد المهدي خسائر تذكر في أو بعد شيكان بل زاد تعداد جيشه بعد انضمام سكان الجزيرة ماعدا أحدى عشر الفا ذكر المهدي أنه ارسلها لأبو طليح. التفسير الوحيد هو أن غردون حاول أن يقلل من شأن جيش المهدي لئلا تستغرق حملة الانقاذ زمنا أكبر في الاستعداد والحشد . وهو الأمر الذي دعاه لتضليل حملة الانقاذ عندما ذكر أن مائتي جندي فقط كفيل بتفريق هذه الحشود .

Journals p. 352
Slatin 240
٨٢٧ شقير

المسيحيين (١) المتطهرين "Puritans" فليست كلهـــا محل شك أو جدل . ولكن هذه الصفات تطغى عليها صفات اخرى من ميول استعراضية وافكار صبيانية وتصرفات خرقاء وانتهازية وتحوير للحقائق (٢) لدرجة الكذب بلا مواربة احيانا . وتعتبر مثالا حيا على مقدرة العقل على تحريف الحقائق وخداع نفسه .

والواضح ان هذه اليوميات التي اكسبته قلوب الملايين ماكتبها الا لتنشر . وكأنه احد مؤلفي قصص الاثارة ، ولايمكن ان تكون ابدا تقارير عسكرية رسمية ترفع لقيادة عليا . فقد كتب فى الخطاب المرفق :

« الاحداث فى الخرطوم ،

من ٥ نوفمبر الى ١٤ ديسمبر ١٨٨٤

« تحذف منها الآراء الشخصية اذا نشرت » وأورد فى صلب الخطاب العبارة التالية : « ويمكنك بالطبع استخراج ماتبغيه من الامور الرسمية وان تبقى آرائي الشخصية كما هي فى حالة النشر » (٣) . فهو اذا كتبها لتنشر وهذا مما يقلل قيمتها

---

(١) هذه نقطة مهمة . فقد أفلح غردون فى تصوير نفسه كقديس فكل خطاباته ويومياته تحفل بعشرات من المقتطفات من الانجيل ، والمرجح أن تلك النقطة كانت هي السبب الأول فى تأثر الأوربيين لمقتله . فقد أثر فيهم مقتل « الأبيض المسيحى » أكثر من مقتل « الجنرال » وهو أمر عادي .

(٢) من العدل ان نورد هنا وجهة نظر ونجت الذى عايش تلك الأحداث واستجوب كل من خرج حيا من حصار الخرطوم : ففى رأى ونجت ان أكبر اخطاء ومتاعب غردون وعدم مقدرته على وزن الأمور وزنا صحيحا نتجت من عدم معرفته للغة العربية حديثا أو قراءة أو كتابة . وان القارىء لليوميات اذا أعطى هذا الأمر بعض الوزن لوضحت له أمورا كثيرة .

وان المترجمين أو المستشارين ضللوا غردون كثيرا كما يعتقد ونجت ، فغردون يعلق فى اليوميات بعد استلامه خطاب النجومى .. « لم أفهم منه شيئا »

وعلى الرغم من استنتاج ونجت من أن ضعفه اللغوى منعه من استجواب الكثيرين استجوابا صحيحاً وأدى إلى اعتماده كلية على المترجمين فى فهم ما يرمى المهدى اليه بخطاباته الطويلة وانذاراته المتعددة ، الا ان هناك أمورا أخرى لا دخل فيها لمقدرته اللغوية ، ومنها ما يراه رأى العين بتلسكوبه وهو يحدق فى حشود المهدى كل النهار ، أو موقف الحكومة البريطانية منه .

Wingate, p. 69

(٣) "To be pruned down if published"

C.G.Gordon

......"You can of course make extracts of all official matter, and will naturally leave my private opinions out in the case of publication"
Covering letter, Journals.

كوثيقة تاريخية ، ومن ناحية اخرى تجعل المرء يشك احيانا كثيرة فى أن غردون أراد الموت لنفسه ، فمن الصعب ان يعرى المرء نفسه كل هذه التعرية ويتناول بالتجريح والسخرية كل المسئولين لولا انه توقع عدم مقابلتهم مرة أخرى . ولعل هذا هو التفسير الوحيد لرغبته في البقاء وحيدا فى الخرطوم ، فعلى الرغم من حاجته الماسة الى الضباط والرجال الاوربيين لمساعدته فى ادارة شئون المدينة والحامية ، الا أنه خيرهم بين البقاء والانسحاب ، بل في الواقع حثهم على مغادرة المدينة وكان بامكانه بالتأكيد استبقاء رجل كستيوارت فقد كتب فى يوم ٥ نوفمبر يقول « وأخبرت استيوارت بالذهاب فى البارجة عباس . . . أما أنا فيستحيل ذهابي عمليا وأفضل الموت هنا » .

وهذه اليوميات التى قصد منها اعطاء وصف دقيق لاحداث الخرطوم كلها بلا استثناء تبدأ بوصف سريع للموقف حسب مايراه بمنظاره المكبر من شرفة القصر ، ثم حصر عدد الدانات التى أطلقتها مدفعية المهدى على المدينة ،ووصف تحركات جيوش المهدى، ثم موقف الذخيرة وأرادب الذرة ووزن البسكويت المتبقى . ثم بعد ذلك يتناول بالسخرية والتشفى والتجريح اما بيرنج أو كتشنر أو سلاطين أو البرلمان والحكومة البريطانية . ثم وصف حالته النفسية وضيعته ويأسه ورغبته فى التخلص من هذا « الغردون » . ثم ينتقل الى مشاريعه فى المستقبل وتصرفاته عندما تصل حملة الانقاذ . ويعلق على كل هذه الأحداث تعليقات صبيانية وأغلب ماورد فيها خاطئ ومضلل كما ثبت فيما بعد ، ولكن حرارة الاسلوب وصدق العاطفة تجذب القارئ من الوهلة الأولى .

أما فى الجانب الآخر ، جانب المهدى وانصاره ، فقد اطمأنت النفوس بعد استلامهم لمنشور غردون حين اصبح معلوما ان الرجل قد جاء وحيدا وليس له من القوة الا ماتوفر فى السودان . وهو جيش طالما خبروا قتاله ورووا الارض بدماء جنوده وبدأت خطوات الزحف نحو الخرطوم تسرع قليلا .

تنحصر مدينة الخرطوم ، هدف المهدى الأكبر ، بين النيل الازرق والنيل الابيض . ويندفع مجراهما للشمال وكأنهما سيلتقيان فى زاوية حادة الا أن النيل الازرق ، وعلى مسافة تسعة اميال ، ينحرف فجأة للغرب بدلا من الشمال ،

ويندفع فى هذا الاتجاه الجديد لمسافة ستة اميال وكأنه سيصطدم فى زاوية قائمة مع النيل الابيض ، ولكنه يحول اتجاهه مرة أخرى للشمال ليتحد ممتزجا ، لا مصطدما ، فى لقاء رقيق بالنيل الابيض . وقد انحصرت المدينة فى تلك البقعة من الارض ذات الرأس الحاد المدبب . وعندما تولى عبد القادر حلمى حكمدارية السودان بدأ نشاطا محموما لتحصين المـدن وتحسين دفاعاتها ، وكانت منطقة الخرطوم الدفاعية اكبر انجازاته ، فقد حفر خندقا عميقا عرضه ١٢ متر ممتلئا بالمياه وموصلا بين النيل الابيض والأزرق ، وبذلك أحاط المدينة بالمياه من كل جانب . ثم حصن حامية ام درمان بحائط سميك تتخلله الفتحات للبنادق وابراج المدفعية فأصبحت المدينة أشبه بقلعة منيعة . وعند وصول غردون بدأ فورا فى تحسين دفاعات الخرطوم ، فبنى حائطا بارتفاع نصف متر لحماية حملة البنادق كما شيد ابراج المدفعية . ثم ابتكر زراعة الالغام التى صممها بنفسه ونثر فى قاع الخندق قطعا حديدية من ثلاثة رؤوس تبرز أسنانها الحادة لتصيب بالجروح اقدام كل من يعبر الخندق راكبا أو ماشيا لتعطيله (١) .

وقد وجه المهدى جهده فى المرحلة الاولى من الحصار الى عزل الخرطوم ، وامتد الخيط الاول من الشبكة التى بدأ المهدى ينسجها حول عنق غردون عندما قذف بمحمد ود البصير فى سنار لاذكاء نار الثورة بعد أن خمدت بعد مقتل ود المكاشفى . ولما انهزم ود البصير امام محمد صالح الملك وبدأ هذا فى تضييق الخناق عليه ، أمر المهدى ابو قرجه بالزحف لمؤازرة ود البصير فى سنار . وبدأ بعدها التقدم نحو الخرطوم . ونرى المهدى يتبع هنا طريق اقتراب غير مباشر ، فقد بدأ تقدمه لحصار الخرطوم بالتفافة واسعة لجهة الجنوب الشرقى عن طريق سنار ثم بعدها اندفع رأس الجسر الاول بقيادة أبي قرجة شمالا للخرطوم ليعسكر امام خندق غردون قاطعا اتصاله الارضى بالجزيرة من جهة الجنوب .

أما من جهة الشرق فقد ساهمت حيوية الشيخ العبيد فى تأليب سكان القرى الكائنة شرق النيل للقيام بجهد كبير فى الحصار . فقد تقدم وحط رحاله فى الحلفاية

---

(١) كانت قوات النجومى تسميها « الضريسة » وقد أعطى ود النجومى هذا الأمر اهتماما كبيرا عندما خطط لاقتحام الخرطوم . شقير ص ٧٧٤

على الضفة الشرقية وبذلك اقفل الطريق أمام الشرق . وعبر جزء من قواته النيل الأزرق وعسكر في الجريف كمقدمة لوصول أبو قرجة بعد تعيينه اميرا على البحرين والبرين « النيل الازرق والابيض » وسرعان مابدأ القائد الجديد في تعزيز رأس الجسر تمهيدا للعملية الكبرى . فبدأ ببناء الطوابي لحماية جنوده من نيران مدفعية وبنادق غردون ، فبنى طابية في برى وطابية في الجريف وبنى شونه ضخمة للغلال استعدادا لاطعام الجيش الرئيسى المتقدم بقيادة المهدى من الغرب ، وشرع في تكديس الغلال الواردة من الجزيرة .

ثم وجه المهدى جهده للخطوة التالية وهى عزل الخرطوم عن العالم الخارجى بقطع طرق اتصالها البحرية والبرية بالعالم الخارجى ، وهما طريق سواكن الذى يصلها ببقية العالم بحريا ، ثم الطريق النهرى الذى يربطها بمصر . وهنا لمع اسم عثمان دقنة ولم يخفت لخمسة عشر عاما بعدها . فقد اوكل اليه المهدى المساهمة في الحصار لقطع طريق شرق السودان ، وبدأ عثمان دقنة سلسلة من العمليات الناجحة فقطع خطوط التلغراف المؤدى للخرطوم اولا ، ثم اطبق الحصار على المدن الرئيسية الثلاث طوكر وسنكات وسواكن . وقد ادى هذا الى تشتيت الجهود البريطانية نفسها . فبعملياته هذه هدد عثمان دقنه سلامة خط القوافل البحرية في البحر الاحمر . وانجلترا لم تكن تتساهل في امر كهذا يمس سلامة البحر الاحمر ، ويضيق عنق الزجاجة في طريق قوافلها للهند وجنوب شرقى آسيا . وبدأت انجلترا تنظر للموضوع بجدية أكثر ، فغردون والخرطوم والممتلكات المصرية شئ ، وسلامة الامبراطورية نفسها عندما تهدد شرايينها الاقتصادية شئ آخر .

وأكمل محمد الخير دائرة الحصار الخارجية باحتلال بربر بسهولة ، وهنا بدأ خطأ غردون مكبرا ففي بربر اذاع غردون منشوره باخلاء السودان لاول مرة ، فأثر سقوطها تأثيرا معنويا واضحا على سكان الخرطوم .

ولكن غردون لم يكن بالرجل الذى يستكين في دفاع سلبى وبدأ في توجيه الضربات المضادة .

كان المهدى معسكرا في الرهد عندما علم بالضربة العنيفة التي وجهها غردون لابي قرجة وقتل الفا من رجاله ، ووصل الخبر لعبد الله الذى لايعرف مهادنة

المخطئين ، فعلل الهزيمة فورا بعدم كفاءة ابي قرجة . اما المهدى فاستقبل النبأ بثبات وبعث ود النجومى ، امير امراء الراية الصفراء وأشهر قادته ، قائدا لقوات الحصار . سد النجومى بعد وصوله الثغرة التى تقع بين نهاية خطوط ابي قرجة اليسرى وضفة النيل الابيض وتولى القيادة العامة . وبدأ فى قصف المدينة بنيران المدفعية (١) .

وسيظل حصار الخرطوم ابد الدهر كقطعة من التاريخ تشابه فصلا من فصول دراما احسن حبكها . جنرال ابيض هائما وحيدا فى قصره الكبير وكأنه : « هاملت » آخر وسط مدينة يربو سكانها على ٥٠٠٠٠ نسمة من ديانة وجنس يختلفان عنه. وسكان المدينة يلمحونه وهو يتعشى كل ليلة وحيدا على ضوء الشموع كأحد أشباح الاساطير . وامضى هو سنة الحصار ، وفى كل يوم من أيامها يواجه مشكلة أعصى . . . . . فهو اما يوجه ضربة من ضرباته المضادة لابي قرجة فى موردة ود جار النبي لاستخلاص بعض الحيوانات وتوزيعها على اهالى المدينة الجوعى ، أو يخطط لهجوم مضاد لخرق الحصار فى اماكنه الضعيفة فى شجرة ماحى بك ، أو فى اجتماع مع اعيان المدينة لرفع روحهم المعنوية ، بعد ترويجه الكذبات الصغيرة لتحثهم على الصمود ، أو يأمر ساتي بك بالتوجه ومقاتلة سكان القطينة أو الكلاكلة . ونراه فى كل هذا ثابتا رافضا الانسحاب وبوارجه النيلية راسية تحت سلالم قصره . ويبدو انه نسى مهمته الرئيسية وهى الانسحاب واخلاء السودان ، وهو ماتوقعه كرومر ، ومنذ ان بدأ كتابة يومياته لانلمح فيها (٢) مايشير الى انه فعل شيئا واحدا جديا فى سبيل سحب أو إخلاء الحاميات .

---

(١) الواضح فى يوميات غردون ان ود النجومى ركز اغلب نيران مدفعيته نحو القصر ، ونظرا لضآلة مدفعيته التى تكونت من ٤ مدافع فى تلك الأثناء قبل وصول الجيش الرئيسى اضطر لتجاهل اهدافا ثمينة مثل بوارج غردون وركز أغلب قصفه على القصر ، فالقصر هدف ثابت . وفى متناول مدى مدفعية الرمجتنون .

Journals, p. 867

(٢) كتب غردون فى اليوميات بعد فوات الاوان وبعد مضى ٩ أشهر على وصوله « اعلن جادا ونهائيا اننى لن انسحب من السودان حتى تتاح الفرصة « يتيحها المهدى ؟ ! » لكل من يرغب فى العودة لمصر سالما . واذا وصلتنى تعليمات بالا نسحاب منفردا فلن أطيعها وسأبقى هنا . »

Journals p. 362

وأخيرا وصل المهدى لمسرح المعركة يوم ١٠ اكتوبر ١٨٨٤ (١) بكل جيوشه، وحط رجاله فى ديم ابو سعد بالفتيحاب وبدأ الفصل الختامى فى ملحمة الخرطوم .

ولم يكن المهدى ليترك حامية ام درمان ، كالشوكة المستقرة فى جنبه طويلا . فهى تعترض خط امداده لغرب السودان وتشرف مباشرة على مركز حشده الجديد غرب النيل الابيض . فعين ابا عنجة لاقتحام امدرمان . بدأ ابو عنجة فى حصارها من كل الجهات . وسرعان ماوضحت كفاءة وحنكة تلميذ الزبير القديم . ففى اثناء الليل كان ينتهز الفرصة ويبدأ فى بناء الطوابي حول قلعة ام درمان لحماية حملة بنادقه الذين حاصروا القلعة وانحصروا بدورهم بين نارين ، بوارج غردون من النهر ونيران المدافعين من القلعة ، فاستيقظ المدافعون صباح يوم ليفاجأوا بالطوابي تحيط بهم من ناحية النهر وكلها محتلة بقوة بجهادية ومدفعية أبو عنجة ، وبذلك وضع ابو عنجة سدا منيعا بين المدافعين وبين النهر وبالتالى بينهم وبين الخرطوم — ولما عجز حملة البنادق عن التقدم لمدى قريب من المدافعين لفتح نيرانهم لوجود الالغام التى احاطت بالطابية ، ابتدع ابو عنجة فكرة استخدام البقر لازالة الالغام . فكان يدفع بمئات الابقار (٢) لتدوس على الالغام وتفجرها وخلفها يتقدم مشاته يصبون نيرانهم على المدافعين . وفى أواخر نوفمبر بدأت طابية (٣) امدرمان تعاني الحصار والجوع .

---

(١) ذكر شقير أنه وصل يوم ١٩ أكتوبر .

(٢) علق غردون فى يومياته « استطاعت الصواريخ التى اطلقت من امدرمان طرد الأبقار . انها لفكرة عبقرية » — اليوميات — يوم ٨ نوفمبر

The Rockets drove back the advance of the cows – It was an ingenious attempt. ie driving the cows with the view to their exploding the mines– editor. Journal p. 302

(٣) تبدأ يومياته منذ شهر اكتوبر بعد ان بدأ حصارها بتقرير عن الموقف فى امدرمان وأغلبها عبارة واحدة « الأمور على ما يرام فى امدرمان » .

وكان غردون كثير الاهتمام بمصير امدرمان لانها لو سقطت فتصبح بوارجه بين نارين من الضفة الشرقية والغربية فقد كتب فى يوم ٢٢ نوفمبر « اننى شديد القلق على طابية امدرمان ، واحاول قصارى جهدى ان أصرف انظار العرب عنها . » —

Journals p. 357

وعندما شعر ابو عنجة بأهمية قطع مواصلاتها السلكية مع الخرطوم ، جمع احدى سراياه واقسم انه لن ينزل من صهوة جواده ، إلا ليمضي لقبره أو يحتل مكتب التلغراف الكائن فى طرف المدينة الشرقي المطل على النيل . واندفع بفرسانه بمحاذاة شاطئ النهر غير مبال برصاص الوابورات النيلية ومدفعيتها الى أن اقتحم مكتب التلغراف وقتل موظفيه وجر كرسيا جلس عليه خارج المكتب متحديا غردون الذى شاهد تفاصيل الاشتباك بمنظاره المكبر .

وهنا استبدل المدافعون البرقيات التلغرافية بالاشارات الصوتية بواسطة الابواق ، ولكن حتى هذه توفرت لابي عنجة معرفتها بواسطة أحد الموظفين السابقين (١) .

ومنها علم ان قائد الحامية انذر غردون انه اذا لم يصله مدد من المؤونة حتى يوم الخميس فانه مضطر للتسليم . ورد عليه هذا انه سيبعث له البواخر النيلية تحمل الحبوب التي اقتطعها من افواه سكان الخرطوم الجائعين . وعين له خور ام درمان لتفرغ البواخر حمولتها فيه فى الوقت الذى تشغل فيه البواخر النيلية الانصار بنيرانها . علم ابو عنجة بخطة غردون فكمن فى الخور (٢) وهاجم النجدة وابادها وغنم الحبوب ، اما غردون فكان يراقب تلك الاحداث بمنظاره وهو لايستطيع حيالها شيئا .

وعندما لم تعد البواخر ثانيا حتى نهاية الاسبوع . طلب قائد الحامية الاذن من غردون ليستسلم ، فاذن له واستسلم فى ٥ يناير ١٨٨٥ .

ومنذ أن ترامت انباء حملة الانقاذ إلى أسماع غردون بدأ شعور التوتر يسود

---

(١) يبدو ان الليالى أثناء حصار الخرطوم كانت حافلة بالصياح والاستفزازات وليالى النقارة . وكان حملة أبواق غردون يسلون أنفسهم بعزف اشارات بالابواق استفزازا لجيوش المهدى طالبين من المحاصرين الاقتراب منهم لكى يوجهوا نحوهم نيران البنادق . وكتب غردون فى يومياته « حملة البنادق الآن يعزفون « احضروا لنا .. احضروا لنا . » وامس البارحة فوجئنا بأن أحد عازفي الأبواق يرد عليهم ساخرا من معسكر المهدى « احضروا لنا .. احضروا لنا .. » .

اليوميات – يوم ٤ ديسمبر

Journals p. 383

(٢) من هنا سمى الخور باسم القائد الشهير وليس لأن ثكنات جنود أبو عنجة كانت فى ذلك المكان .

اسطر اليوميات ، وهو يمضي اغلب يومه اما محدقا بمنظاره المكبر بلجهة الشمال عله يلمح بارقة الامل متمثلة فى طلائع حملة الانقاذ ، أو فى مراقبة تحركات جيوش المهدى ، (١) وزادت مظاهرات النساء الجائعات وقصف مدفعية المهدى المتواصلة من يأسه . اما ما دفع به لليأس حقيقة فقد كان خبر مقتل استيوارت وابادة المجموعة التى رافقته ، ولم يصدق الخبر واعتقد انها اشاعة الى أن وصله خطاب من المهدى وأنبأه بنهايتهم مرفقا معه الخطابات التى حررها غردون وعثر عليها مع استيوارت ليؤكد النبأ لغردون .

« الى غردون باشا ، هداه الله للطريق القويم . اما بعد فاعلم ان وابوركم الصغير المسمى بعباس الذى بعثتموه بقصد توصيل اخباركم لمصر بواسطة دنقلا ، المرسول فيه وكيلكم استيوارت باشا وقنصلى فرنسا والانجليز ومن معهم قد وقعوا فى القبضة باذن الله تعالى ونجا من آمن بمهديتنا وسلم الأمر الينا وهلك فيه من لم يتبع كوكيلكم المذكور والقناصل وغيرهم وعجل الله بارواحهم الى النار وبئس القرار،وصار ذلك الوابور ومافيه غنيمة للمسلمين،وقد اطلعنا على باطن مافيه من المكاتبات والتعريفات عربية وافرنجية وجغرافية،بعد فكها بواسطة من من الله تعالى عليهم ونور قلوبهم بالايمان وحسن الاتباع كما وان البوستة من طرفكم لمدير دنقلا مع ماهو مرفوق معها لاجل بعثها للجهات المصرية والاورباوية (٢) ضبطت ومافيها علم وكان مقتضى عودتها جميعا لكم لعدم لزومها انما مادام اصلها مرسوله منكم ومعلومة لطرفكم فاستنسب

---

(١) لو أخذنا ما ذكره غردون عن مدفعية المهدى مأخذ الجد ، فلا بد انها اطلقت كميات هائلة من الذخيرة . وفى نهاية نوفمبر كانت مدفعية المهدى قد بلغت ١٦ مدفعا . ظل منها سريتان « ١٠ مدافع » فى رئاسة المهدى فى الفتيجاب ضايقتا غردون كثيرا فقد كتب فى يوم ٨ ديسمبر « سمت ١٠٣٠ البوارج تشتبك مع مدفعية المهدى . للمهدى سريتى مدفعية شرستين للغاية لا يكفان عن فتح نيرانهما » وعبر عن اعجابه بتجهيزات مواقع المدفعية بمرارة . « وللمدافع مواقع مجهزة تجهيزا هندسيا رائعا ، تماما كالتصميم الأوربى . بالطبع هذه من أفكار سلاطين . » كان سلاطين مقيدا بالاغلال فى تلك اللحظة .
Journals p. 387

(٢) كانت هذه خطابات إستنجاد أرسلها غردون لملوك الدول الأوربية بعد أن يأس من الحكومة البريطانية

ان نبعث لكم البعض منها ليتأكد بطرفكم ذلك ويرسخ بذهنكم حقيقة ماهناك، رجاء ان يهديكم الله للاسلام وللتسليم وتسلموا انتم ومن معكم لتفوزوا بالنعيم السرمدى والخير الابدى . . . . »

وكما أكد خطاب المهدى مصرع ستيوارت ، فقد أكد من ناحية أخرى الممام المهدى بالموقف في الخرطوم الماما دقيقا . وقد اشتملت مراسلات المهدى وغوردون على ثمانية خطابات خلاف الخطابات التى أرسلها ود النجومى وابو قرجه . وان خاطبه المهدى بلهجة مهذبة وباسلوبه البليغ المشهور فقد كانت ردود غردون جافة حافلة بالتهديد والوعيد . وقد قدم المهدى له عرضا كريما لم يقدمه لاحد قبله وهو اطلاق سراحه ، واستثنائه عن القاعدة التى طبقت على بقية الاسرى من الاوربيين وهى الاسلام أو الموت :

« وبعد فان أراد الله سعادتك وقبلت نصحنا ودخلت في اماننا فهو المطلوب وان أردت أن تجتمع على الانجليز فنوصلك اليهم . . . » وذلك « لاننا قد سمعنا مرارا فيك الخير وللان ما أيسنا من خيرك وسعادتك ولما سمعنا من الفضل فيك سنكتب لك آية واحدة . . . . »

لقد أدرك المهدى انه يتعامل هذه المرة مع نوع مختلف له وزنه وسمعته العالمية . اما غردون فيبدو ان كلا المخرجين صعبا عليه ، فلم يستطع تخيل نفسه اسيرا للمهدى، ولم يهضم عقله ان يعود وحيدا مقهورا البريطانيا وهو الذى اسبغت عليه الصحافة لقب قائد الجيش الذى لايقهر "Leader of the ever victorious Army" وغردون الصين "Chinese Gordon" وراكب الهجين "The Camel Rider" ولنترك المهدى وغردون فى الخرطوم وننتقل شمالا :

لقد استجاب جلادستون اخيرا للرأى العام البريطاني — وأمر بالتقدم لانقاذ الخرطوم .[1] ومضت تعليمات اللورد ولزلى توضح مهمته :

« . . . ان الغرض الاساسى من الحملة هو انقاذ الجنرال غردون والكولونيل استيوارت فى الخرطوم فمتى تم هذا الغرض فلا تباشروا حركات عدائية ايا كانت ، وحكومة جلالة الملكة تأمركم بالا تتقدموا جنوبا الابقدر مايلزم للحصول على

هذا الغرض . » وتمكن ولزلى من تجميع ثلاث ألوية بريطانية تعدادها تسعة آلاف جندى والتحرك بهم نحو الخرطوم ، على أن يوزع كل الجيش المصرى بالاضافة للواء البريطاني فى نقاط على طول خط تموينه للمحافظة عليه ، وان يتقدم للخرطوم بلوائين « خمسة آلاف رجل » .

تقدمت طلائع ولزلى الى أن وصلت دنقلا وهناك تقرر التقدم عبر محورين محور يتابع النيل لاحتلال بربر ، ومحور يفارق النيل فى كورتي ويشق صحراء بيوضه ويندفع للمتمة ليستقل بوارج غردون التى بعثها لانتظارهم فى المستمة والاسراع بها للخرطوم . وفى ٤ يناير فارقت طلائع ولزلى بقيادة الكولونيل ستيوارت النيل متجهة نحو آبار جقدول . وبذلك بدأت مشيرة طابور الصحراء المشـــهورة Desert Column وكانت تلك أول مرة تطـــأ فيها القوات البريطانية السودان ولكنها لم تمكث الاقليلا . فسرعان ماترامت انباء الحملة للشيخ محمد الخير فى بربر وأسرع وطير النبأ للمهدى الذى أمره بالتحرك للمتمة فورا وأمر الراية الخضراء بقيادة موسى ود حلو بالتحرك لتعزيز محمد الخير .

وبينما كان ستيوارت يعسكر فى جقدول وهو يتأهب لمغادرتها للمتمة ، تحركت قوات محمد الخير وسارعت باحتلال آبار ابو طليح ، مورد المياه الوحيد فى تلك المنطقة ، وبذلك تحتم على استيورات ان يقتحمها ويجلى موسى ود حلو عنها ، وفى صباح اليوم التالى تقدم نحو ابو طليح حيث دارت معركتان طاحنتان هما معركة ابو طليح ، وتلتها معركة المتمة ، تكبد فيها كلا الجانبين خسائر فادحة فى الارواح وقتل كلا القائدين ستيوارت ،وموسى ود حلو . وبعدها ابحر جزء بسيط لايتجاوز عشرون جنديا بريطانيا فى بوارج غردون وسارعوا الى الخرطوم لنجدة غردون . وذلك مادفع المهدى لاتخاذ قراره اخيرا باقتحام الخرطوم .

*** *** ***

بعد تأكد وصول حملة الانقاذ أدرك المهدى أنه قد حان الوقت لاقتحام المدينة والا انحصر بين نارين . وتعاقبت مجالس الحرب . عقد المجلس الحربي الاخير ليلة ٢٤ يناير وكان اغلب (١) المتحدثين يؤيدون الهجوم فورا على الخرطوم

---

(١) ذكر شقير ان ابرز المنادين بالهجوم فورا كانوا محمد عبد الكريم ومحمد ود نوباوى وان أغلب من فى المجلس نادوا برفع الحصار والعودة لكردفان وايدت اوراق على المهدى روايته الا انها اضافت الياس ام برير للمنادين باقتحام الخرطوم فورا . (شقير ص ٨٦٠)

قبل وصول الانجليز لئلا يكتووا بنار القتال في جبهتين . وقد اتفقت أغلب المصادر على ان محمد عبد الكريم قاد الرأى المنادى بالهجوم فورا وايده محمد ودنوباوى . واثناء انعقاد المجلس ارسل لهم ود النجومى من الخطوط الامامية احد كبار الضباط الذين فروا من الخرطوم واستجوبه المهدى وعلم منه الحالة فى الخرطوم بالضبط ، وحدد له مكان نقطة الضعف الوحيدة فى خندق الخرطوم . اذ كانت تلك الاشهر اكثر شهور النيل انخفاضا ، وقد انحسر الماء عن الخندق العميق الذى يربط بين النيل الابيض والازرق . تاركا ثغرة فى دفاع غردون تجاوز عرضها ١٥٠٠ ياردة . كان المدافعون يواصلون الحفر ونزح الماء منها لايصال الخندق للنيل ، وتمكنوا من حفر ١٠٠٠ ياردة من الثغرة وبقيت حوالى ٥٠٠ ياردة كان مستوى الماء فيها ضحلا لايتجاوز ارتفاعه قدما واحدا . وقد اوضح السنجك عمر ان تلك البقعة هى الثغرة الوحيدة التى يمكنهم التسلل عبرها لداخل الخرطوم . وقر الرأى اخيرا على توجيه الهجوم الرئيسى عبر هذه الثغرة ، فأرسل المهدى لاستدعاء ود النجومى وأبلغه التعليمات النهائية بالهجوم فجرا ، ثم أمره بحشد كل قوات الهجوم وان يتحركوا لمكان الحشد سرا وسيقابلهم هناك . وفى منتصف ليلة ٢٤ يناير عبر المهدى النيل الابيض بهدؤ حيث وجد كل قوات الهجوم فى انتظاره ووقف فيهم خطيبا حاثا اياهم على الثبات . وبعد ان بايعه الجميع على الموت ، اوصاهم بان يحافظوا على غردون حيا قائلا :

« الغردون ياخواننا لاتقتلوه بل اقبضوه حيا واحضروه لنا فان هذا الرجل عظيم عند اهله جدا فلا تقتلوه لان قبضه حيا فيه فائدة عظيمة فانا نريد أن نسلمه لاهله ونفدى به رجلين عظيمين هما الزبير وعرابي ولشدة عظمته عند اهله اذا طلبنا منهم ان يفدوه ب ٢٠ رجلا لقدموهم فدية له . »

* * * * *

أرخى ظلام ليلة ٢٤ يناير ١٨٨٥ سدوله بعد ان توقفت آلات النحاس الموسيقية عن العزف ، فقد امر غردون فرقته بعزف بعض الالحان لتخفف روح اليأس والقنوط التى خيمت على المدينة . وعندما تلاشت النغمات الاخيرة اضيئت السماء بعشرات الصواريخ الملونة . ويبدو ان الجنرال احس انها ليلته الاخيرة ، فقرر ان يودع الدنيا وداعا ملوكيا . وتعشى منفردا ساهما . ومضى الى جناحه وظل

يكتب الى مابعد منتصف الليل واخيرا اطفأ ضوء الغرفة .

وفى الدقيقة الثالثة والاربعين بدأ اقتحـــام الخرطوم بقيادة عبد الرحمن النجومى بمواجهة عريضة طولها خمسة اميال . خطط للهجوم واداره عبد الرحمن النجومى من حلة الغرقان بكفاءته العسكرية المعهودة . فقد دفع بثلث قوته « ۲۰٫۰۰۰ مقاتل » بقيادة ابو قرجة لتنتشر فى مواجهة عريضة بعمق رهيف من الرجال حيث غطوا اغلب مواجهة الدفاع ، بينما احتفظ بالجزء الرئيسى « ٤٠٫۰۰۰ مقاتل » بقيادته الشخصية لاقتحام الثغرة الصغيرة . فتدافعت امواج الاقتحام الضيقة التى تجاوز عمقها عشرات الصفوف وانقضت نحو الثغرة الصغيرة التى كانت تحرسها كتيبة واحدة فاطاحت بها واندفعت لداخل المدينة .

كان تخطيط ود النجومى الذكى هو الذى تسبب فى سقوط المدينة بسرعة مذهلة . اذ انقسمت موجات الاقتحام بعد تجاوزها الخندق وخط الدفاع الاول الى قسمين ، قسم اتجه مباشرة نحو مقر غردون والقسم الاعظم التف جهة اليمين ليهاجم المدافعين فى برى والكلاكلة من الخلف ، فانهار الدفاع فى دقائق . وبعد مضى ساعة ونصف من بدء الاقتحام كان رأس غردون قد فصل عن جسده (۱) » .

---

(۱) وصفت كل المصادر الأوربية مشهد مقتل غردون المشهور بدون استثناء كالآتى :

« استيقظ الجنرال من نومه المضطرب على صيحات المهاجمين وفى ضوء الفجر الخافت اندفع بملابس النوم إلى سطح القصر . وحول رأسه بسرعة إلى البقعة الضعيفة فى دفاعه وهناك رأى آلافا من الأنصار يتدافعون نحو القصر . وكان هناك مدفع فى أعلى القصر وبالقرب منه كوم من الذخيرة فبدأ غردون فى اطلاق المدفع فى دقة رهيبة على الجموع المتدافعة مصيبا اعدادا لا يستهان بها . وعندما لم يستطع اطلاقه نظرا لاقتراب هؤلاء ولانحدار زاوية النيران ترك المدفع واندفع لغرفته وارتدى ملابسه البيضاء الرسمية كاملة وعلق سيفه وامسك بطبنجيته مدلاة بجانبه ووقف بكبرياء ووقار فى أعلى السلم . اندفع الثوار إلى ساحة السلم ووقفوا لحظات أمام الرجل الأشيب الوقور « اين محمد أحمد » انفرجت الشفاه أخيرا وران على المكان صمت ثقيل إلى أن هز أحدهم نفسه من المفاجأة وصاح قائلا « آه يا ملعون .. ها قد دنت ساعتك » وهز حربته الثقيلة وقذفها فاصابت غردون فى صدره وتدحرج على السلم وما هى الا ثوان معدودة حتى غرس فيها المئات أسنة حرابهم حتى صارت خليطا من الملابس والأوسمة واللحم والدم . وطبعت اللوحة التى تمثل هذا المشهد عشرات المرات بل لعلها كانت أشهر لوحة فى اواخر القرن الماضى .

ولكن يبدو ان تلك الصورة الرومانسية المهيبة كانت هى الصورة التى ارادتها صحافة وأدب العصر الفيكتورى ان تكون ، فالمؤرخون المصريون مثل مورهيد يتشككون فيها كثيرا . فهذا المشهد

أخذ رأس غردون الى باخرة نيلية واسرع به احمد ود سليمان امير بيت المال الى المهدى ملفوفا فى منديل وقدمه للمهدى . سأل المهدى « ماهذا » أجاب ود سليمان « هذا رأس غردون » اظلمت عينا المهدى واستشاط غضبا ، وقال « ماهذه الافعال ؟ ولماذا تخالفون اوامرى دائما ، ثم لماذا مثلتم به وقطعتم الرأس ؟ وما الفائدة من هذا كله ؟ » وأدار وجهه عنه واسرع سليمان ونحى الرأس بعيدا عنه .

من الذى قتل غردون ؟ هنالك عدة روايات واغلبها حتى الروايات السودانية تشير الى ان قاتله هو الامير ود نوباوى امير بنى جرار ولعل مبعث تلك الرواية ان المهدى كلفه امام الملأ بالمحافظة على غردون واحضاره حيا .

والمرجح ان رواية علـــى المهدى هى اقرب للصـــواب فهو الوحيد الذى استجوب احد شهود عيان الحادث فقد ذكر :

« حدثنى الشيخ ابراهيم على صابر المغربي الذى كان كاتبا لراية الامير ميرغنى سوار الدهب بان الذى قتل غردون حقيقة هو مرسال الحاج حموده وكان مرسال هذا برقدار لراية الامير ميرغنى سوار الدهب . وقال محدثى :

أغلب الظن ان مصدره « بوردينى بك » أحد تجار الخرطوم الذى استجوبه ونجت فى مصر . وبوردينى حضر حصار الخرطوم وسقوطها ولكنه لم ير هذا المشهد ولم يستجوب أى من الأنصار الذين قتلوه كما اسلفت ولعل تغييره لملا بسه هى الحادثة الثابتة الوحيدة فقد قتل مرتديا ملا بسه الرسمية كاملة .

Moorehead, Alan, *The White Nile* (London, 1962), pp. 267, 370

Slatin, Rudolf, *Fire and Sword in the Sudan* (London, 1896) pp. 343.

Ohrwalder, Father Joseph, *Ten Years Captivity in the Mahdi's Camp*

Churchill, Winston, *The River War*, Vol. I (London, 1899), p. 104.

ولعل أول من جرؤ على تقديم صورة مخالفة هو تشارلس نيوفلد فقد ذكر ان سلا طين وونجت واهرولدر قد كذبوا صراحة فى وصفهم لمقتل غردون . لأن الطريقة التى مات بها غوردون ظلت مدار الحديث سنينا طويلة فى أمدرمان وهو يتأكد مما سمعه أن غردون لم يستخدم المدفع قط .

Neufeld, Charles, *A Prisoner of the Khaleefa* (London, 1899), pp. 301, 303, 304.

« وصلت رايتنا عند الفجر وكان مرسال قريبا منى وقد رأى رجلا واقفا فى الدور الاعلى فى السراى مطلا من النافذة وهو غردون وكان مشغولا بالنظر الى جيوشه المنهزمة،ظن مرسال ان بيده سلاحا فأراد ان يبادره قبل ان يصيبه بسلاحه فقذفه برصاصة اسقطته على السلالم وهو لايعلم انه قتل غردون . وفى الحال دخل ابراهيم على صابر السراى وصعد للدور الاعلى فوجد ان المضروب هو غردون وهو فى النزع الاخير وكان يلبس بدلة تشريفة وعليها نياشينه وقد دخل ايضا عبد القادر ولد كوكو الذى كان قاضى سرية حموده وقد قتل فى واقعة فركه « قال محدثى » فسألنى عبد القادر من هذا ؟ فقلت له هذا غردون . قال وكيف عرفته ؟ قلت : اعرفه منذ ان جاءنا فى كردفان وهو يحلق شعر فكه ويترك شعر عوارضه فلما تحقق ان هذا الوصف ينطبق عليه اخرج سكينه وحز بها رأسه . ولما علم مرسال بانه قتل غردون باشا اختفى وطلب من الذين حضروا معه ان يكتموا ذلك ولهذا لم يعرف قاتل غردون الحقيقى .

عندما اخبرني الشيخ ابراهيم على صابر بذلك ، ارسلنا معه مندوبين ليتحققوا ذلك من مرسال أو من سادته فلم يجدوا مرسالا لانه قتل فى واقعة كررى ولما سألوا سيده خاف واضطرب وقال لهم : « قد سمعنا من مرسال نفسه بانه هو الذى قتل غردون خطأ ولم يكن يعرفه وقد قتل مرسال في واقعة كررى . » ثم قال لهم :« ماذا تقصدون من ذلك ؟ » فقالوا له « نريد معرفة الحقيقة فقط » .

وسواء كانت تلك الرواية أو هذه هى الصحيحة ، فهى على كل حال تثبت امرا قاطعا هو عدم رغبة المهدى القاطعة فى قتل غردون واوامره الصارمة في أخذه حيا . وهذا واضح من تخوف قاتله من معرفة امره ، اذ ظل مختفيا طوال عهد المهدى والخليفة ، واستحلافه لرفاقه الايفشوا سره .

** ** **

أصبح المهدى يسيطر على بقعة من الارض مساحتها تشارف المليون ميلا

مربعا واصبح زعيما على اول امة افريقية تولد بامكانيات ابنائها وحدهم . وهنا فقط يمكن القول ان الامة السودانية قد ولدت ، وتوفرت لها مقومات الامم من رباط روحى ووحدة هدف ، وليس هناك رباط اقوى من ذلك الرباط الذى نسجته أنهر الدم التى سالت عبر مسيرة المهدى الطويلة من أبا حتى الخرطوم فقد امتزجت فيها دماء الجعليين والبقارة والدناقلة والدينكا والبجا ، وحارب رجال الزيقات في اقصى الشرق كما قاتل جهادية ابي عنجه فى اقصى الشمال . وتحت الروح الدينية العميقة التى بثها فى رجاله اختفت كل الفوارق القبلية، وحدود المديريات الوهمية التى انشأها الحكم السابق ، ولم يعد يطلق على سكان شمال النيل « البحارة » و « الجلابة » ولم يعد هؤلاء يعتبرون قبائل الغرب قبائل متوحشة ، فالجميع وقفوا صفا واحدا في وجه رصاص العدو ، ونيران العدو التى لاتميز ، حصدت من كل القبائل دون فرز .

لقد بدأ المهدى ثورته ببضع رجال مسلحين بالحجارة والعصى والحراب ، ولكن مقدرته الفذة فى الهاب الجماهير وذهنه الشفاف تحسس نقاط الضعف فى عدوه فوجه اعنف ضرباته نحوها ، وتحسس نقاط القوة فى قومه وبلاده فنماها الى أن اصبحت سلاحا ماضيا مكنه من ابادة ثلاثون الفا من الجنود النظاميين . وعندما قارعت عقليته الماضية عقليات خمسة من جنرالات اقوى امة اوربية بينهم أشهر القادة البريطانيين في ذلك العهد تطايرت رؤوسهم واحدا بعد الآخر .

لقد استخدم المهدى الدين استخداما مثاليا مفتحا أعين الناس لحياة افضل وكرامة اوفر . ومزجه بواقـــع الحـــياة مزجا رائعا ، ووضع أسسا دينية لدولة متماسكة في القرن التاسع عشر عاشت ١٣ عاما بعد مماته . وعندما توفى المهدى بعد خمسة شهور من سقوط الخرطوم برز للوجود اسم الرجل الذى وقع على كتفيه عبء انشاء الدولة الجديدة ، ونقل الثورة من مرحلة الحروب والمعارك ، الى مرحلة الاستقرار والبناء والمجتمع الجديد .

الدعــوة .... والدولــة

« هناك جانب أهمله الكتاب والمؤلفون الذين انحصرت نظراتهم المركزة على فظائع واهوال عهد الخليفة عبدالله : ألا وهو جانب الانجازات والانشاء والتعمير . فلم يكن عهد الخليفة عبد الله يمثل فترة مخيبة للامال اعقبت فترة سني الثورة الذهبية فقط ، بل كانت ايضا فترة تنظيم وتعمير برز خلالها توازن دقيق للقوى والعوامل المختلفة ، عكست ارادة الخليفة القوية ومقدرته التنظيمية والادارية على الرغم من ضآلة الخبرات المتوفرة . واغلب الفشل الذى اصاب اجراءاته يعزى فى المكان الاول لقصور الاداة والوسائل المستخدمة . » (١)

هولـت

فى كل حديث سلاطين عن الخليفة (٢) لم تكن هناك اسطر اكثر اثارة للشجن ، وتحريكا للعاطفة من الكلمات التى وصف بها تلك الجلسة حين قال :

"There was a constructive side to his reign which has received little attention from writers whose gaze has been focussed upon picturesque horrors and atrocities which our grandfathers belived were committed only by barbarians. The years of Abdallahi's rule were not merely a period of disappointed hopes and regrets for a transitory golden age; they were a period of organization and skilful balance of forces, reflecting a strong will and an able administrative capacity working within the limits of a narrow experience, and too often failing in action through the inherent faults of the instruments employed."

Holt,

(٢) لا بد لنا من وقفة مع سلاطين ، فالى عهد قريب كان لكتابات سلاطين أثر واضح فى تكييف تصور العالم للخليفة والمهدية . فالرجل كان ضابطا واداريا وظل ثلاثة عشر عاما لا يفارق الخليفة وظن الجميع انه خير من يقيم الثورة المهدية وكان لكتابه « السيف والنار فى السودان » أثر عالمى مدوى وخصوصا فى انجلترا فقد صدم القراء من المعلومات والقصص الدموية والوحشية التى بالغ فى وصفها فكان ان تحمس العالم لحملة كتشنر باعتبارها عملية انسانية وانقاذا للامة التى اضناها طغيان الخليفة . ولكن السبب الحقيقى كان يكمن فى ان مصلحة بريطانيا حتمت اعادة الغزو كما سترى بعد قليل .

كان سلاطين يهودى الأصل ، ولكن جده الرابع كان من كبار موظفى امبراطور النمسا . فتحولت عائلته للمسيحية . ولكن عقيدتهم الدينية ظلت مهزوزة كما اعترف هو ولعل هذا يفسر عدم فهم سلاطين لاحتقار غردون له ، والجرح العميق الذى أحس به عندما رفض غردون الرد على خطاباته وعبر عن احتقاره له فى يومياته . والنظرة الحديثة لكتابات سلاطين عن الخليفة والمهدية تعتبر الآن ، حتى بين المؤرخين الأوربيين ، كنوع من الدعاية الحربية . وان خدمت كتابات غردون أهداف الامبراطورية

« كان الخليفة في اوائل عهده كثيرا مايستبقيني بعد العشاء لتجاذب اطراف الحديث . . . . وفي احدى الليالي المقمرة وقد جلسنا في فناء منزله استرخى الخليفة في عنقريبه ومضى يتحدث : « حقا كانت رحلة شاقة تلك التي قطعتها من اقاصي الغرب للجزيرة لمقابلة المهدي . . . فقد كان زادي في الحياة كلها حماري وملابسي . وحتى هذا كان احد منغصات الحياة وليس ترفا يخفف من وطأة الرحلة الشاقة . فقد كان في ظهره دبرا عظيما ولم استطع الركوب عليه فحملته مؤونتي

وقلم المخابرات كتمهيد لغزو السودان فقد خدمت أغراضه الشخصية . فالواضح ان سلاطين عندما كتب كتابه المشهور كان يقاسي من عقدتين : فعندما هرب من السودان ووصل لأوربا احس بنظرة العالم الأوربي له فكل من قرأ يوميات غردون شاركه في احتقار سلاطين ، فجماهير انجلترا التي مجدت غردون وثباته للنهاية ، كان لا بد لها ان تحس بنفس شعور غردون عندما كتب معلقا على إسلام سلاطين « الواضح ان الشجاعة ليست من صفات سلاطين ، ويجب وضعه في معزل صحي لتطهيره وتأديبه اذ تم اطلاق سراحه من الاسر . » فحاول هو من الناحية الأخرى المبالغة في وصف الأهوال التي تعرض لها تبريرا الموقف الذي اتخذه ولتبرير تغييره لديانته ، عله يصلح قليلا من سمعته التي حطمتها كتابات غردون التي اعتبرت أقرب للانجيل في ذلك الحين . اما العقدة الثانية التي جعلته يحمل كل ذلك الحقد والغل على الخليفة فقد كانت هي ختانه باوامر الخليفة . وهذا واضح جدا فبعد معركة فركة كان أول ما فعله هو احراقه جثة كاظم موسى كاظم الرجل الذي قام بعملية الختان.«هناك رواية أخرى تذكر ان اول عمل قام به سلاطين بعد دخول امدرمان هو استدعاء الرجل الذي قام بعملية ختانه وهو كاظم وامر بانتزاع شعر لحيته شعرة شعرة إنتقاما منه .. »

والواضح ان سلاطين وجد معاملة كريمة ، فقد كان في امكانه هؤلاء قتله في أي لحظة ، وطوال ثلاثة عشر عاما لم يؤذه الخليفة في شيء خلاف مراقبته بدقة . ولا يمكن ان يلام الخليفة في ذلك ، فسلاطين نفسه يورد من القصص ما يبرر شكوك الخليفة ، والخليفة ان اتبع حاسته السادسة ووضع سلاطين في السجن لاراح نفسه كثيرا ، فكثيرا ما طلب من قضاته وضعه في السجن كاحتياط لمنعه من الهروب واعترض هؤلاء بان سلاطين لم يرتكب ما يبرر وضعه في السجن فسكت الخليفة على مضض .

وكل من حضر عرضة امدرمان يذكر ان سلاطين كان من أحسن فرسان الخليفة وكان ينطلق بجواده ويرفع حربته عاليا وعندما يقترب من مكان الخليفة يصيح صيحته المشهورة التي اصبحت مثلا « انا المصيبة المعلقة بالسبيبة كان انقطعت السبيبة وقعت المصيبة » واعتبر الكثيرون عباراته هذه استفزازاً وتحذيرا للخليفة . ويقال ان الخليفة كان دائما يلتفت للقضاة قائلا لهم « الم أقل لكم » ولكن هؤلاء رفضوا محاكمته إلى ان هرب .

ومشكلة سلاطين انه حتى ان قال الحقيقة احيانا فهو لا يذكرها كاملة . ففي كتاباته ركز على تعمده ايذاء الخليفة عن طريق تقديم النصائح الخاطئة حتى لا يتهمه البريطانيون بالخيانة ، بينما يؤكد نيوفلد السجين الألماني بان سلاطين كان يعتبر في نظر أمراء الخليفة عبقرية عسكرية وانه استشير

الضئيلة المكونة من كيس حبوب . وقد استرعت لهجتي وملابسي الغريبه « ملابس أهل الغرب » كل الاهالى الذين قابلوني فى الطريق . فمنهم من سخر مني ومن لهجتي ، ومنهم من صاح فى وجهى « ماذا تفعل ايها الغريب ؟ هل جئت لتسرق؟» فقد تعرض الجلابة الذين هاجروا لارضنا لغارات قطاع الطرق وكانوا يظنونا جميعا قطاعا للطرق .

فى أمور كثيرة وكان مشورته دائما صادقة وان حملة ود النجومى خطط لها سلاطين بعد ان رسم خريطة لمصر وشرحها بالتفصيل لا مراء الخليفة .

ولم يذكر سلاطين فى كتابه شيئا عن زوجته أو عن ابنته « توفيت وهى رضيعة بعد هروبه » ويحدثنا كل من بقى من الاحياء من عشيرة الخليفة حتى من كانوا صغار السن بانهم ذاقوا الأمرين عندما عاد سلاطين مفتشا عاما لحكومة السودان بعد دولة الحكم الثنائى واصر على عدم تعليمهم خلاف التعليم المهنى ، وان أحوالهم لم تتحسن قليلا الا عند قيام الحرب العالمية الأولى ومغادرة سلاطين السودان. ولا شك ان سلاطين يجانب الحقيقة كثيرا عندما يذكر ان الخليفة احتفظ به بالقرب منه لا ذلا له وللتفاخر امام عشيرته بان مدير دارفور السابق يخدمه الآن . فمن رواياته هو وروايات الآخرين يتضح ان وضعه كان أقرب لوضع المستشار الحربى منه لوضع الخادم . فهو يذكر انه كان يشغل منصب اركانحرب الخليفة أثناء المناورات، ويذكر الهدايا الكثيرة التى قدمها له الخليفة من الجوارى بل عرض عليه تزويجه باحدى قريباته .

وثيوبولد يذكر بعد اطلاعه على التقرير الرسمى السرى الذى قدمه لونجت وهو يختلف تماما عن مادبجه فى كتابه الذى نشر واطلع عليه كل العالم :

"General Report on the Egyptian Sudan, March – 1895 from statements made by Slatin Pasha. "The manuscript is preserved in New bold library, Gordon Memorial College."

« بأن سلاطين كان أقيم الاوربيين فى نظر الخليفة وقد لقى معاملة عطوفة لحد التكريم . وأعطى منزلا وزوجات ورقيق – وبعد هروبه رد الجميل لآسريه بنشر كتاب السيف والنار فى السودان الذى ركز فيه على الأحداث الأليمة وشوه الدوافع التى حدت بالخليفة إلى اتيان معظم أفعاله ، وجلل اسمه بسواد سيلصق به إلى أجيال عديدة قادمة ، وافلح فى تصويره كطاغية متوحش متعطش للدماء »

"Slatin had been the most valued of the Europian prisoners of the Khalifa, and had been treated with kindness, almost with honour. Given his own house, wives and slaves, he had been a personal attendant to the Khalifa, and deep in his counsels. After his escape he repaid this generosity by writing a book. *Fire and Sword in the Sudan* which emphasized every unpleasant incident, distorted the motives for all the Khalifa's actions, and blackened his name for succeeding generations as a brutal and bloodthirsty tyrant with no edeeming features."

Theobald, p. 176

ــ وعندما كنت اسأل بعضهم ليدلني للمهدى ، كانت اجابتهم تلكمني في وجهي « ماذا يريد مثلك منه . انه حتى لايدنس شفاهه بذكر اسم قبيلتك ثم يتركونني في استغراب . . . . حقا كانت رحلة شاقة . . . . ولكنني احتملتها . . . وطالما ذكر لى والدى ـــ طبعا سمعت عنه ياعبد القادر . . . . لقد كان تورشين رجلا صالحا بمعنى الكلمة . . . . طالما ذكر لى انني سأشق طريقي الى المجد والقوة وحيدا على ظهر حمار . . . ولكن سيأتي اليوم الذى سأقود جيشا يباد فيه آلاف الرجال واعود كسيرا منهزما كما بدأت رحلتى الاولى . . . . على ظهر حمار . ولكن كل متاعب وآلام الرحلة اختفت في اللحظة التى رايت فيها المهدى لاول مرة . لقد تملكني احساس غريب واصبح لى كنور الحياة . . . »

وتلك كانت مأساة الخليفة . . . . وقد بلغت المأساة ذروتها في عصر يوم ١ سبتمبر ١٨٩٨ عندما اشرع رجال الجعليين الذين قاتلوا تحت قيادة ميجور ستيوارت ورثلى اسلحتهم فى وجه من كانوا يقاتلون فى صفوفهم الى عهد قريب ، وتجسمت فى الدقائق القليلة التى استغرقتها المعركة كل الظلال الثقيلة للاحداث العنيفة التى سادت فى تلك الاعوام الثلاثة عشر التى انقضت منذ وفاة المهدى والى يوم معركتنا .

انحدر عبد الله من التعايشة ، احد افخاذ قبائل (١) البقارة ، وكان الابن

---

(١) رواية عشيرة الخليفة عن أصـله جديرة بالاعتبار . فهم يذكرون ان جدهم الأكبر هو القطب الواوى التونسى الذى هاجر من تونس ، ويمكن ان تدرج تحت النقاش الكبير الذى اثاره ماكمايكل ، ولم يقطع فيه برأى محدد ، حول الطريقة التي وصل بها كل البقارة لمقرهم الحالى . فماكمايكل يورد نظرية تقول بان البقارة كانوا جزءا من جهينة وصلت لمقرها الحالى من غرب أفريقيا البعيد وليس من مصر مباشرة .

وكما ذكر ماكمايكل و كنيسون انه من الثابت ان البقارة بدأوا يزحفون شرقا من الغرب البعيد . أما النظرية المتكاملة التى تبرهن ذلك فلا يمكن القطع فيها برأى محدد لعوامل كثيرة . وتقول هذه النظرية ان جزءا من جهينه اندفع غربا بحذاء ساحل البحر المتوسط عقب غزوات عقبة بن نافع إلى ان وصلوا تونس والمغرب ، وجزء منهم ، وهم الذين اصبحوا البقارة ، ضربوا جنوبا عبر الصحراء الكبرى ثم زحفوا شرقا واستقروا حول الممالك الغربية مثل مملكة وداى ومملكة دارفور ، ثم بدأ زحفهم تدريجيا لجهة الشرق إلى أن وصلوا النيل الأبيض وتكون حزامهم الحالى وأن هناك عدة عوامل ومؤثرات ساهمت فى توجيه عملية الزحف وفى التكوين الأفقى لهذا الحزام : ←

الاكبر للسيد محمد الملقب ب «تورشين » (١) وعندما (٢) ولد عبد الله بالقرب من ترده «غدير » ابو روق فى جنوب دارفور حوالى عام ١٨٤٦ ، كان والده يحتل مركز الصدارة الروحية الدينية فى القبيلة ، فقد مثل مركز الثقل للطريقة السمانية وسط غرب السودان حيث كانت الطريقة التجانية هى الطريقة السائدة — ولكن

أولا لا يطيق البقارة ان يستقروا نهائيا بالقرب من الممالك أو أى سلطة قوية ، لنفورهم من الضرائب ، ولكنهم لا يستطيعون البعد عن المدن لحاجتهم لتصريف بضائعهم من السمن والماشية وشراء احتياجاتهم من اسواق هذة المدن . وتفسير زحفهم شرقا هو عبارة عن ردود فعل لقوة هذه الممالك أو ضعفها ، فهم يستقرون حولها عندما تكون ضعيفة ولا تستطيع اخضاعهم لسلطتها ويبتعدون عنها عندما تقوى شوكتها . ومن ثم اقاموا فترة حول مملكة وداى ولما قويت شوكتها زحفو شرقا وأصبحوا فى دائرة نفوذ مملكة الفور ولما قويت زحفوا شرقا وهكذا ..

أما امتدادهم الرأسى فقد حددته البيئة والطبيعة . فالمنطقة التى أقاموا فيها لا تصلح لرعى الا بل ، واضطروا لاستبدالها بالماشية «لم يكن العرب رعاة ماشية يوما ما» والسعى وراء المرعى هو الذى حدد رحلتهم السنوية جنوبا ثم شمالا . فموسم الجفاف يرغمهم سنويا للهجرة جنوبا حتى بحر العرب والغزال بحثا وراء الكلأ . ثم يعودون شمالا بعد هطول الأمطار هربا من الذبابة . ويستقرون فى « الدار » والدار هو مكان اقامتهم وزراعتهم لذا نجد دار الهبانية ودار التعايشة الخ .. ثم يجبرهم الجفاف على العودة جنوبا وهكذا . فانحصر حزامهم الحالى .

اذن يمكن ان نقول ان شقير لم يجانب الحقيقة عندما ذكر ان جد الخليفة وصل لدارفور من وداى ولكنه لم يصل لنهاية الحقيقة . واصله ابعد من ذلك غربا بكثير ان حاولنا ان نفسرها على ضوء زحف البقارة

McMichael, H.A., *History of the Arabs in the Sudan* (London, 1967), pp. 276, 277

Cunnison, I., *Baqqara Arabs* (Oxford, 1966), pp. 1,2,3

« شقير ص ٥٨١ — موسى المبارك ، تاريخ دارفور السياسى ، ص ٢١ و ٢٢ .

(١) لم يلقب بتورشين لقبح منظره كما ذكر شقير بل المقصود « بالتورشين » فى لهجة البقارة هو الجاموس البرى كناية عن القوة وشدة البأس وهى عبارة كثيرة التردد فى فولكلور البقارة وفى أغانى الصيد والحصاد . شقير ص ٨٥٢

(٢) تشير أغلب الروايات إلى أن السيد محمد والد الخليفة كان من علماء دارفور المشهورين الا ان الزبير لم يورد اسمه ضمن الاثنى عشر فقيها الذين استشهد بهم قبل محاربته للسلطان ابراهيم والسبب المرجح هو انحياز تورشين لجانب الرزيقات حلفاء السلطان .

مذكرات الزبير ص ١٣ — شقير ٥٨١

الخلاف سرعان مانشب بين تورشين وزعماء القبيلة (٣) فهاجر منهم شرقا واقام زاوية في دار الزيقات. وبذل الرجل عناية خاصة في تعليم ابنائه يعقوب، وهارون والسماني، ويوسف، ولكن وجد عناء اكبر مع عبد الله. فعبد الله اشتهر بانصرافه عن علوم الدين وحفظ القرآن، ولكنه كان يتشوق كثيرا ويبدى اهتماما اكبر بمشاكل الحياة واخبار الغزوات، والبطولات. وبالتأكيد توفرت المادة الحية لعشرات القصص والملاحم في دارفور المضطربة ابدا، و مسرح عمليات الزبير في ذلك الحين وطبيعة سكانها المقاتلين لم تخل يوما من انباء البطولات التى يتناقلها الشبيبة سواء في اغاني الافراح مع ايقاع الدلوكة، أو في اعياد الحصاد والصيد. ونشأ الفتى قويا صحيح الجسم طويل القامة قمحى اللون ذا انف دقيق ووجه غطته آثار الجدري الذي اصابه في صغره. واشتهر من ايامه الاولى بالبأس والشجاعة. وانضم للرزيقات في حربهم ضد الزبير باشا، ووقع اسيرا في يد الزبير الذى امر بقتله لولا ان تشفع له الفقهاء ورجال الدين. ولزم هو دار الرزيقات ولكن روحه المتعطشة للمجد رأت في الزبير، وقت ان كان اسمه يملأ الآفاق انه المهدى المنتظر، فقد كان الزبير في أوج شهرته، وككثيرين غيره في ذلك الحين نظر الى الزبير باعتباره المخلص الوحيد، فارسل اليه مبشرا انه حلم حلما رأى فيه ان الزبير هو المهدى المنتظر وانه هو عبد الله سيكون وزيره. فرد عليه هذا زاجرا وامره بعدم تكرار هذا الحديث.

بعدها قررت عائلة عبد الله الذهاب للحج فنزح معهم شرقا الى ان نزل ضيفا على ناظر الجمع، عساكر ابو كلام، وهناك توفي والده في ابوركبة، ثم تواترت الاخبار عن شيخ غريب بدأ صيته يرتفع كولى صالح يدعى محمد احمد يقيم في الجزيرة ابا، فامتطى عبد الله حماره وقطع المسافة الطويلة الى ان قابل المهدى فوجده منهمكا في بناء قبة في المسلمية فوق قبر استاذه الشيخ القرشي. وقد اثرت

(٣) يذكر محمد عبد الرحيم ان سبب هجرة جد الخليفة من دار التعايشة كانت نتيجة « لعداء نشب بين الجبارات وأولاد د سنا الذين كانت منهم رئاسة القبيلة أدى إلى حرب بينهما وهناك قبض احمد حوف ناظر التعايشة على جد الخليفة وقتله قتلا فظيعا فنشأت من هنا جفوة اضطر الفقيه محمد على كرار وأولاده إلى الهجرة إلى الكلكه بدار الهبانية. »

معجم الشخصيات، الخليفة عبدالله ص ٧٢ — ٧٥

فيه مقابلته الاولى مع المهدى تأثيرا عميقـــا . فحتى الاوربيين اعترفوا ان المهدى كان يتمتع بمغنطيسية وجاذبية شخصية تترك اثرها من اول لحظة فيمن يقابلهم .

وقد كان عبد الله هو اول من اسر المهدى اليه بسر الدعوة بعد ان اقسم على الكتمان والاخلاص . وبعد ان عاد الى ابا عاد معه ، وهناك انضم اليهم على ود حلو وآخرون من قبائل كنانة ودغيم . ومن هناك بدأت رحلته الطويلة الحافلة الى السيادة والحكم . الى ان اصبح المسيطر على تلك الامبراطورية الضخمة .

والحديث الغالب الذى اســتمد من المصـــادر الاوربية ، او ممن حتمت مصلحتهم ان يؤيدوه ، لازال اغلبه ينصب على غدره وقسوته وخبثه وتعطشه للدماء وجنونه بالسلطة ، وللاسف لم تفلح السنين في محو تلك الصورة الرهيبة عنه . وان كان هذا مفهوما في العصر الفيكتورى ، فهو ليس بالمعقول ولا المقبول الآن ، وهناك عشرات الالوف من الوثائق تغطى كل احداث عهد الخليفة ، وتحـــكى الحقيقة . فاستمرار هذه السمة حتى الآن جريمة تاريخية كبرى . وحتى الاوربيين تنبهوا لها اخيرا (١) . واقوال الثلاثي — ونجت — اورهرلدر — سلاطين —المسئولة

---

(١) لقد استغرق الأمر عشرات السنين لتحويل تلك الفكرة عن المهدية والخليفة : « وفى أوربا عامة وبالذات فى انجلترا كان الشعور العام نحو المهدية هو اعتبارها شرا مستطيرا ، تماما كذلك الشعور الذى تعرضت له بلشفية لينين فى العشرينات ، ولكن العداء نحوها كان ضارب الجذور . فلم تكن المسألة مسألة ضربة وجهت للقوة البريطانية فى العهد الفكتورى ، ولا احساس بالحق المشروع فى الكراهية النابعة من العجز للثأر للهزيمة ، بل كان الشعور نابعا من تحد دينى .

ولم تفوت جمعية محاربة الرق فى انجلترا فرصة واحدة فى نشر التقارير عن وحشية الخليفة وقسوته . كان ذلك هو الجو الذى يسود زمن الحرب . حين تمتد المبالغة والدعاية لتحور الحقائق .

وكان شبه مستحيل لاى شخصية عامة ان تتبنى وجهة نظر منفصلة ، أو تدافع عن العرب ، فلن توصم بان آرامها تحررية أو واقعية ، بل ستوصم بالخيانة . وكالعادة فى زمن الحرب ، عندما يصعب وصول الحقائق وتفرض الرقابة ضبابا كثيفا حـــول وصول المعلومات الامينة المجـــردة لكـــلا الجانبين ويصبح الجهل ارضا خصبة لنمو الخيال الجامح .

ومن المستبعد ان يتحسس رجال امثال ارهرولدر وسلاطين أى فضائل أو محاسن فى آسريهم أو انهم حتى كانوا يلمون بحقائق الأمور بالضبط ، فقد نظروا للأمور من مواقفهم كاسرى حرب . »

In Europe at this time and especially in England, there was a general disposition to regard the Mahdist state as an implacable evil as ever Lenin's Bolshevism was regarded in the nineteen-twenties.

Yet the hostility towards it in Europe ran very deep. It was not only a→

عن تلك الصورة ، والتى سطرت آلاف الصفحات لترسيخها فى الاذهان ، يجب ان تؤخذ بحذر ، فهم كانوا الخصم والحكم معاً ، ولايعقل ان تقبل رواية اعداء الخليفة كحقيقة ثابتة لاتقبل النقض . وان كان الخليفة قد عاني آلاف المتاعب في حياته كما سنرى ، فقد واجه اقساها بعد وفاته . فقد توجهت ضده آلة دعاية عصرية ضخمة عندما حتمت مصلحة الأوربيين تحطيمه ، فكان ان الصقت به كل تلك الصفات البشعة ، ولازمته هذه الصورة عشرات السنين حتى بعد وفاته . ويجب ألا ننسى انه من المؤكد لو ان الظروف جعلت أى شخص آخر مكانه ، لصور عهده وشخصيته بنفس الطريقة . وكل الاتهامات والصفات المخيفة التى لازمته عشرات السنين بعد وفاته ليست امرا جديدا . وليس هو الاول والاخير ممن يتعرض للظلم التاريخى ، فاغلب القادة والزعماء الآسيويين والافريقيين الذين وقفوا فى وجه المد الاستعمارى واجهوا نفس المصير . وقد تبدو الاسطر التالية وكأنها محاولة لتحليل شخصية الخليفة ، ولكن الامر ليس كذلك ، على الرغم من انه يستحقها ، فهو بطل روايتنا ، ولكنها محاولة سريعة لالقاء نظره موضوعية على تلك الحقبة التى وصلت قمتها ونهايتها بتلاشى اصداء انفجارات المدفعية فى كررى .

---

question of Victorian power and self-right-eousness smarting from a sense of unavenged defeat. It was felt that the Christian faith itself was defied by these murderous fanatics in Sudan, and the anti-slavery in England lost no opportunity of spreading every fresh report of the Kalifa's brutalities. This was the atmospheve of wars when all thing tend to become exaggerated and touched by propaganda. It was scarcely possible for any man, particulary if he was a public figure, to take a detached view, or argue a case for the Arabs, to have done that, would practically have meant being branded not as liberal, not as a practical, but as a traitor. As in time of war communications failed, a heavy fog of censorship prevented the impartial facts from penetrating to either side, and ignorance was a wonderful breeding-ground for imgination. Slatin and Ohrwalder as prisoners - of - war they were hardly likely to have discovered virtues in their gaolers, or to have known all that was going on.

Moorhead, Alan, *The White Nile* (London, 1962) pp. 285, 386.

عهد الخليفة عبد الله :

اولا لاشك فى ان المكانة التى احتلها الخليفة عبد الله فى تاريخ السودان الحديث كانت مكانة عظيمة ، ولاشك فى ان الحيز الذى شغله من عمر السودان كأمه كان حيزا ضخما ، ليس بحساب البعد الزمنى فقط ، بل باعتبار العمق والثقل المتخلف من عنف الاحداث وضخامة الانجازات .

فقد طغت شخصية الخليفة على الاحداث طوال ثلاثة عشر عاما من الحروب والمجاعات والثورات والمؤامرات والغزو الخارجي ، فظله واياديه الطويلة امتدت اصابعها آلاف الاميال لتحرك وتوجه اصغر الامور فى تلك الارجاء الشاسعة . فقد وجه الرجل شئون هذه القارة بكفاءة وبراعة وحسم ليس لها نظير ، وقليلون من واجهوا ظروفا وعوامل مضادة مثل التى واجهها ، واندر منهم من استطاع التغلب عليها مثله . فاليوم الواحد من سنى حكمه يحفل بعشرات القرارات الهامة السريعة . والحديث الذى يصف اى مقدرة وجه بها شئون هذه البلاد أو عن موازنته الدقيقة بين عشرات الاخطار التى حاقت بدولته ، ليس جديدا ، واتفق عليها جميع من ارخوا سيرته . ولكن كفة الميزان ترجح ضده دائما عند الحديث عن شخصيته(١) ودوافعه وارجاع كل افعاله الى الخبث المتأصل فى نفسه :

---

(١) لئن استمع كل العالم لوجهة نظر سلاطين واعطاها ذلك الوزن فلأن سلاطين كان ملازما للخليفة فلم لا نستمع لوجهة نظر سودانية من شخص كان ملازما للخليفة أيضا وهو المؤرخ محمد عبد الرحيم : « وعلى كل حال أقول أني لازمت الخليفة حينا من الدهر وسبرت اخلاقه وصليت خلفه وسمعت وعظه ورأيى كمؤرخ يزن الأمور بميزان العدل انه كان رجلا حكيما حاذقا ناسكا كريما بطلا لا يهاب المكاره ولا تأخذه فى الحق لومة لائم لا يعفو عن المسيء ويضرب على يد الظالم ولو كان من ذوى قرابته .

فقد حكم على حسين أبى داوود وحسن ابى التيمان بقطع ايديهما وجلد ٢٥ رجلا من صفوة التعايشة كل رجل ٥٠٠ كرباج فكان منهم الأمير أحمد حامد ابن خالته واحب الناس اليه فكيف يكون العدل اذاً .

ولكنه كان يدير حكومة معتلة الجوانب تسود فيها الأمية ولا يمكن ضبط النظام وتقويم أخلاق الولاة الذين كان أغلبهم من اجلاف العرب .

ولخليفة المهدى أحكام ربما فسرها الناس لجهلهم بالاسباب كقتلة الشيخ حسين ود الزهراء وغيره مع ان للاستاذ حسين قصيدة فى هجاء الخليفة لو قالها فى أى فرد لقتله فضـــلا عن رجل كان يقبض على ناصية السياسة .

وقد أمر الخليفة الجيش بحفظ القرآن الشريف فكنت تسمع للناس دوى بالجامع كدوى النحل ←

ان الحقب التاريخية العنيفة كلمهدية تحفل دائما بكثير من الاحداث الدموية والابادة الجماعية ، ولكن القضية ليست قضية كمية الدم المهدور مهما بدت مخيفة ، بل يتركز في الاهداف التي اهدر من اجلها . هل راحت الالوف التي راحت خلال المعارك الدامية أو المجاعات الرهيبة فداء لفكرة سامية ، وهي المحافظة على كيان سلطته التي تحمل مبادئ المهدية؟ أم راحت لمجرد اشباع تعطشه للسلطة والقوة؟ ولنجعل السؤال مباشرا اكثر ، هل كان الخليفة رجلا غير اخلاقي « Immoral » كما افلح في تصويره معظم المؤرخين ، اوربيين كانوا ام عربا ؟ قطعا لا . والاجابة تعززها آلاف الوثائق واحاديث كل من عاش في ايام الخليفة ، ومن مختلف القطاعات ، سواء أكانوا من كبار المسئولين أم من عامة الناس ، وتحدث ولم يجرو ليكتب مخالفا للموجة السائدة .

وكان يجدر بنا قبل الاجابة على هذا السؤال ان نوضح عدة أمور . اولها الخطأ الكبير عند مقارنة الخليفة بالمهدي ، ليس لاختلاف الشخصين فقط ، بل لاختلاف الدور الذي تحتم على كل منهما القيام به . فالمهدي كان عليه اشعال الثورة وغرسها في النفوس وشحنها بالطاقات الروحية . وبعد ان نجحت كان على الخليفة بدء تنظيم المجتمع والدولة الجديدة . . . . لقد تركز الخلاف بين الدعوة والدولة . فتلك العبارة « المهدية بقت ملك » و « المهدية بقت دولة » كانت كثيرة التردد بين معارضيه . فالرجل قاد أمة مشتتة لم تتحد الا نتيجة لخمس سنوات من

وقد حفظ القرآن اناس في العقد السادس من عمرهم . ولقد زرت يوماً محمد بك الملك « ملك أرقو » حال قدومه للخرطوم فذكرنا خليفة المهدي عرضا فقال « ان لم يكن الخليفة من عمل صالح الا انه حفظنا القرآن بعد الشيب لكفى .. »

وقال لي العلامة الاستاذ محمد البدوي رئيس مشيخة امدرمان العلمية الأسبق « دعاني خليفة المهدي ذات يوم إلى مجلس خاص وبعد ان جلسنا بين يديه اخرج بطاقة من تحت مخدته وقال لي اقرأ هذه فاذا بي أجدها بلاغا رسميا من بضعة علماء كان بعضهم أقرب الناس لي قدموه عني يقولون « ان محمد البدوي افتى بعدم الصلاة بحجة انك جاهل لا تحسن الاداء حتى كان ذلك سببا في صد الكثيرين عن حضور حضور الصلاة . » فقلت له ان الذين امضوا هذا البلاغ جميعهم عدول لا مجال للطعن في بلاغهم فاقض بما انت قاض . فاطرق براسه هنيهة ثم نظر إلى واجاب قائلا « أنا اعرف منك الثبات والشجاعة عند نزول الامر فانا لا اطفىء بيدي هذه نورا مثلك فلا تثريب عليك في شيء من هذا وانما اريد ان انصحك في الابتعاد من جوار هؤلاء الناس . »

المعارك المتصلة ، وهل كان هناك سبيل آخر للتعامل مع تلك القبائل المتنافرة المتباينة واخضاعها تحت اطار وسلطة واحدة ، وهى قبائل طالما قاومت ونفرت من كل القيود بانواعها ؟ ! وتلك القبائل توحدت عندما غرس فيها الوازع الدينى والروحى ووجدوا فيه منفسا لطبيعتهم العنيفة ، وعندما انتصرت المهدية وانحسرت موجة الحماس الاولى بوفاة المهدى ، عادوا لطبيعتهم الاولى ، وبدأت العنصرية القبلية تطل برأسها من جديد بعد ان اختفت لحين وجيز .

ولعل من اكبر انجازات الخليفة ، وفى الوقت نفسه اكثرها تعرضا للنقد والمصدر الاكبر لكثير من الاتهامات التى وجهت اليه ، هى اصراره على مركزية الحكم ونجاحه نجاحا لامثيل له في فرضه . فقد كان حكم الخليفة حكما مركزيا عسكريا لدرجة نادرة التكرار . ومن الصعب ان يتخيل المرء طريقة اخرى لانشاء الدولة الحديثة المنظمة التى صبا لانشائها من اشلاء الحكم السابق أو ماتبقى بعد سنوات الثورة العنيفة أو من لاشئ تقريبا ، فلا خدمة ادارية ، ولاتعليم أو طرق أو وسائل مواصلات أو اطباء وبدون خبرة فنية تكنيكية أو مصانع . وقد ثابر بجد وصبر لانشائها طوال تلك الاعوام . ولم يتوفر له فى البداية الا الخطوط العامة للتشريع الاسلامى ومبادئه للقضاء والزكاة التى وضعها المهدى . ولكن تطبيق تلك فى سنوات الثورة الثلاث كان شيئا ، وتطبيقها وتنفيذها فى ظروف عادية مستقرة كان شيئا آخر . وقد بذل الخليفة جهده مستندا على تلك الخطوط العامة ، وعلى الخبرة القليلة التى اكتسبها هو أو معاونوه فى الحكم السابق ، ومستفيدا لاقصى حد من خبرات القلة من الاطباء والمهندسين والاداريين ممن خدموا فى العهد السابق وسقطوا فى الاسر . وبعد عشر سنوات من بدايته تلك ورغم الحروب المتصلة . والتمرد والمجاعات ماذا نجد ؟ ! نجد دولة متماسكة تحكمها ارادة واحدة وعلى اسس لايمكن الا ان تحوز على اعجابنا اذا قارناها بالسلبيات وضآلة الامكانيات . ولم يكن رجـــال هـــذه الدولة أبدا دراويش « Dervshes » ولم يكونوا متوحشين « Savages » كمـــا اتهمهم الاوربيـــون .

فقد اسس الخليفة نظاما سليما للضرائب ، ومحاكم صغرى فى طول البلاد وعرضها للنظر فى القضايا المختلفة وعلى رأسها محكمة عليا ، مهما قيل عن خشونة

احكامها أو تحيز قضاتها فالاسس الصحيحة كانت متوفرة لها ، وتمكن من ربط تلك الارجاء الشاسعة بشبكة من البريد تشهد عملياته العسكرية بكفاءتها ، واستغل كل خبرة فنية ورثها من الحكم السابق سواء من المهندسين أو الاطباء او العمال المهرة ، كما استغل أي آلة أو ورقة للدرجة القصوى ، وتمكن من انتاج اغلب احتياجاته رغم الحصار الاقتصادى الذى ضربته الدول الاوربية والخلافة العثمانية حوله . واستطاع بناء عاصمته . وحتى هذه عندما حاول انشاءها على نمط حديث وعلى اسس صحية بتهديم البيوت التى بنيت دون نظام وانشاء الشوارع الواسعة المستقيمة آمرا السكان بتنظيف تلك الشوارع من الاوساخ ومعاقبا كل من لاينصاع لها ، نجد سلاطين يبرر كل تلك الافعال بنزوات الخليفة ورغبته فى ان ترى عيناه منظرا سارا عندما يطل على امدرمان من شرفة منزله ، متناسيا الفائدة التى تجنى من تلك التصليحات ، ومتناسيا انه افرد صفحات طويلة فى وصف قذارة امدرمان وانها مكان غير مناسب لسكنى البشــر .

اما التركيز على حوادث ومواقف معينة كما فعل الثلاثي المشهور الذى كتب عن الخليفة ، ودعم كتاباته بالرسوم واللوحات ، فهو الذى مهد لانطباع تلك الصورة عن الخليفة . ولكن كما اتضح فيما بعد ان هناك قصة تختلف تماما عن ماذكره سلاطين أو شقير سواء ان كان فى مقتل مادبو ، أو اعدام البطاحين الذى جسمه سلاطين فى اللوحة المشهورة ، أو مقتل الزاكى طمل ، أو اقصاء احمد سليمان .

والقلة التى كتبت من السودانيين أو من استجوبوا من عاصروا تلك الاحداث امثال على المهدى أو محمد عبد الرحيم تحدثوا عن رواية تختلف تماما عما رواه سلاطين واوهرولدر وونجت. فعن مقتل مادبو ، الرجل الذى حمل عبء الثورة فى دارفور فى ايامها الاولى ، تؤكد أغلب المصادر الحديثة ان الخليفة رغما عن تمرد مادبو وقيادته لثورة مسلحة ضد المهدية ، ورغما عن انذار الخليفة له مرات عديدة ، طلب من عثمان آدم ارساله سالما لامدرمان . ولما قتله ابو عنجه مخالفا امر الخليفة لاحقاد قديمة كان الامر خارج يد الخليفة (١) وصرح بانه واثق من ان

(١) يوضح موسى المبارك ان هناك أربعة أسباب أدت لعصيان مادبو ، نفوره من الهجرة لام درمان واستنكاره ان يكون الخليفة ابن القبيلة الصغيرة سيدا عليه وخوفه من الخليفة بعد ان افرط فى عدائه←

مادبو لازال بوسعه تقديم خدمات جليلة للمهدية ، ولكن مكانة ابو عنجة منعت الخليفة من اتخاذ اى اجراء ضده أو معاقبته .

وعند مقتل الزاكى طمل[1] ثبت ان الخليفة لم يعلم عنه شيئا وغضب غضبا رهيبا وانتقم ممن تسببوا فى الوشاية به وقتله .

له وان « الخليفة أسف لمقتل مادبو واسر لبطانته بان مادبو لو عاش لقدم له خدمات جليلة . ويبدو ان كلاما كهذا ترامى إلىمسامع أبى عنجة فاعتذر للخليفة لقتله مادبو دون الرجوع اليه . » أما رد الخليفة على أبو عنجة فالواضح ان الخليفة حاول فيه ان يطيب خاطر اشهر قادته وأكفاهم .

(١) حقيقة اتخذ اعدام الزاكى دائما كمثال صارخ لوحشية الخليفة وتكرانه الجميل فالزاكى كان من أخلص المخلصين للخليفة ومن اكفأ قادته كما سنرى . وعلى المهدى يذكر فى استجوابه للاحياء ممن عاصروا تلك الأحداث انهم حدثوه بالاتى :

« تواطأ الأمير أحمد على والقاضى أحمد على وعبد الله أبراهيم وعبد الرسول حنفى ومحمد فرح الجعلى على رمى الأمير الزاكى طمل بتهمة الاتفاق سرا مع الطليان لتسليمهم القضارف وماحولها والانحياز لهم . وقد حلفوا على ذلك وذكروا لخليفة المهدى ان الزاكى وابنه طه اصبحا وكأنهما ملكان ، وأنه اذا طلبهما لأمدرمان ربما لا يحضران . فارسل خليفة المهدى لطه ولد الزاكى يطلبه لامدرمان تجربة ، فحضر ، ثم طلب الزاكى نفسه فحضر ، وأمر الخليفة بتشكيل محكمة كبرى من القاضى أحمد رئيسا وجميع القضاة والخليفة على وواجهوه بهذه التهمة فدحضها وبرأته المحكمة وكان فى هذه المحكمة من المدعين عبدالله ولد ابراهيم وعبد الرسول فلم يستطيعا الاداء بحجج أقوى منه ولما بلغ الأمير أحمد على ومحمد فرح الجعلى خبر براءة الزاكى تأكد انه لا بد منتقم فقدما بلاغا آخر عن خيانته واتفاقه مع الطليان وحلف الجميع اليمين ولم تقبل المحكمة دفاعه وحكمت عليه بالسجن ورغم ذلك كان الخليفة المهدى يرى براءته واخلاصه ولكنه أرسل للسجن كما رأت المحكمة .

وبعد ان مكث فى السجن نحو ثلاثة أشهر صدر خبر من السجن أنه مات وسبب موته ان القاضى أحمد كان حاقدا عليه من مدة طويلة فأمر بسجنه سجنا مشددا ووضعه فى مكان مظلم ومنع الأكل عنه فاعتبر رئيس السجن ان هذا الأمر أمر قضائى مصدق عليه من خليفة المهدى فنفذه إلى ان مات الزاكى طمل جوعا وظلما .

ولما علم الخليفة بموته استغرب كثيرا وسأل عن سبب موته فقيل له حبس البول فارتاب فى ذلك لانه كان ينتظر ان يرفع اليه أمر مرضه عندما شعر به لانه كان كثير السؤال عنه لاعتقاده انه برىء مما ينسب اليه من الاتفاق مع الطليان . لذلك فان خليفة المهدى قبل وضعه فى السجن ليحقق ويكشف حقيقة الأمر وقد كان تحقيقه جاريا عن طريق سرى .

وأخيرا علم الحقيقة بمنع الأكل من الزاكى طمل فحكم على القاضى أحمد ان يوضع فى السجن حتى يموت جوعا كما قتل الأمير طمل . وقد اسف الخليفة على موت الأمير الزاكى وقال « هو الذى هزم جيش الطليان وقهره ، انه ليس بالرجل الهين الذى لا يؤسف على موته بهذه الصفة » .

جهاد فى سبيل الله ص ١٢٤ . ←

وابادة البطاحين والتمثيل بهم ، الذى احتل الحديث عنها مكانا بارزا فى وصف قسوة الخليفة وظلمه ، يحدثنا من عاصر تلك الفترة بانه قرر معاقبتهم ذلك العقاب الصارم لأنهم تعدوا على القوافل التى تمر بديارهم وانذرهم ولما لم يرتدعوا وجه نحوهم حملة عسكرية وعندما اسروا واحضروا لام درمان وصدر حكم القضاة باعدامهم ، قرر التمثيل بهم ليصبحوا عبرة للآخرين .

وهناك سؤال لابد ان يجول بخاطرنا عندما نتحدث عن الخليفة . ماهو السبب الذى دفع المهدى لاختيار ذلك الرجل الذى هاجر اليه وحيدا غريبا لايمت بصلة ولايشابه أيا ممن كانوا حوله من العلماء والمريدين ليجعله خليفته الاول ؟

هناك مدرسة كبيرة تعتقد ان الامر كان يختص بالدعوة نفسها وان سر مكانة الخليفة يكمن فى انه قبل زمن طويل من لقائه بالمهدى كان يبحث عن المهدى المنتظر حاثا كل من يتوسم فيه المقدرة والصفات اللازمة . وتدلل هذه المدرسة ان الخليفة ارسل للزبير قبل ثمانية سنوات من الثورة « كما ذكر الزبير نفسه » يبشره فيه بانه المهدى المنتظر وانه وجد بغيته اخيرا عندما قابل المهدى ، وأن المهدى لم يجاهر بهذا الامر الابعد لقائه بالخليفة .

بالطبع من الصعب أثبات هذه الرواية ، فهذا مادار بين الرجلين . ولكن الثابت والمؤكد ان صفات عبد الله وشخصيته من تصميم وارادة وكفاءة عسكرية وخبرة بامور الدنيا والناس وماتمثله المنطقة التى انحدر منها كانت هى الصفات التى أهلته ليحتل المكانة الثانية . فهو القائد العام « امير جيوش المهدية » فى فترة كانت الثورة فيها عبارة عن عمليات عسكرية متصلة ، وهو صاحب الحل والعقد فى كل مايمس ادارة شئون تلك الحشود وتحريكها وتوجيهها . وتلك هى بالضبط الصفات التى احتاج اليها المهدى ذو العقل الاكاديمى وهو يحرر المنشورات ويحشد

ورواية شارلس نيوفولد الأسير الألمانى ، وهو ليس صاحب أى مصلحة فى الدفاع عن الخليفة تؤيد رواية على المهدى . فقد ذكر نيوفولد عن سبب سجن القاضى أحمد المسئول عن تلفيق التهمة ضد الزاكى :

« كان تزييف النقود هى التهمة المعلنة التى من أجلها سجن القاضى أحمد ولكن السبب الحقيقى كان حنق الخليفة عليه لتسببه فى سجن الزاكى ومقتله جوعا وقد قال الخليفة « دعه ينال نفس العقاب الذى أذاقه الزاكى » .

نيوفولد ص ٢٢١

Neufeld p. 221

الناس روحيا ويدخل فى جدال فلسفى مع علماء الدين ويخطط للدولة الاسلامية اثناء حياته ، ويتفرغ للعبادة ويعتكف عن مباشرة واجباته الرسمية فى الاشهر الاخيرة من حياته . وهى بالضبط الصفات التى تحتاج اليها فترة مابعد الثورة .

وعندما نقارن بين الشخصين سرعان نكتشف ان الخليفة على الرغم من مركزية دولته لم يكن دكتاتورا ابدا ، عكس المهدى . فالمهدى كان أذكى قومه وارشدهم فكرا واغزرهم علما وكلمته كانت هى القانون الذى يسعى الكل لتنفيذه فورا . ولم يكن بينهم من يجرؤ على التطلع والسمو لآفاقه دعك من المجادلة معه وابداء المشورة . وفى كل ما روى عن المهدى سواء ماكتب أو ماقيل ، نادرا ماذكر احد ان المهدى عقد مجلس شورى ، أو طلب استشارة احد عدا المجالس الحربية . وكانت قراراته الصائبة الفورية هى القانون الذى لاينازع — عكس الخليفة فاغلب قراراته ان لم تكن جميعها خصوصا تلك التى تمس امورا لم يشتهر بالحذق فيها ، كالقضاء والشرع اتخذها اما بعد عقد مجالس شورى أو كانت احكاما اصدرها قاضى الاسلام ومن خلفه هيئته القضائية . ويخيل للمرء احيانا كثيرة لو ان الخليفة اتبع غريزته وخبرته وذكاءه بدون ان يحاول تغليف قراراته بالصبغة الشرعية القانونية لأراح نفسه كثيرا .

وهذا الامر يبدو انه هو الخيط الذى سيقودنا الى اكبر نواحى القصور فى شخصية الخليفة — وهو عدم الثقة بالنفس الناتج من قلة الثقافة . فقد وجدنفسه قائدا وخليفة لزعيم روحى ووريثا لثورة دينية ورأسا لدولة كان سبب قيامها هو اصلاح ما اعوج من تعاليم الدين الاسلامى ولم يكن هو عالما ولامتفقها ، وهذا ماجعله يلجأ الى القضاة والعلماء للشورى وكان لايكف عن ترديد عبارته المفضلة « قلد عالم تخرج سـالم » ولعل هـذا مايفسر احراز شقيقه يعقوب والعلماء ومجلس الابهات لتلك المكانة وذلك النفوذ القوى فى دولته . ولعل قراراته عندما يدير شئون الدولة شخصيا ويوازن موازنته الدقيقة كانت اغلبها قرارات صائبة ولايمكن ان يوجه اليه اتهام بصددها سواء فى صحتها أو فى عدالتها . عكس القرارات التى صدرت فى القضايا التى تولى امرها القضاة والعلماء أو مجالس الشورى .

وهناك موقفان اتخذهما الخليفة لايمكن ان نتجاهلهما ، الا وهما خلافه مع الاشراف ، ثم خلقه طبقة حاكمة « Oligarcy » من عشيرته التعايشة .

اما أهمية خلافه مع الاشراف فلم يكن لتأثيرهم أو نفوذهم، فقد كان هذا جد ضئيل ولم يظهر حتى فى حياة المهدى ، بل للنتائج التى ترتبت عليه عندما وصل الصراع قمته ، وتبلور فى المحاولة الانقلابية المسلحة التى قام بها الخليفة محمد شريف فى ام درمان عام ١٨٨٧ .

فالغاء الراية الحمراء وراية الخليفة شريف أو الراية الثالثة فى كل جيوش المهدية ، كانت هى اهم النتائج التى تمخضت عن المحاولة الفاشلة . فقد كانت راية اهل الشمال والجزيرة . وبدأ الامر وكأن الخليفة قد عزم على تجريد « اهل البحر » من السلاح . وساهم استجلابه لعشيرته واحتلالهم لكل المراكز القيادية فى الدولة فى ترسيخ ذلك الانطباع . ومن هنا بدأ جزء كبير من سكان البلاد فى سحب تأييدهم لسلطة المهدية التى مثلها الخليفة ، وبدأ الهمس المتقطع سرا وعلنا . وسرعان ما اطلت الحساسيات والعصبية القبلية القديمة من جديد بعد اختفائها اثناء حياة المهدى ، فالعناصر التى وحدت هذه الامة ، لم تنضج على نار هادئة فى فترة طويلة ، بل نضجت بسرعة على نار متأججة حامية ، ولما خفت ذلك اللهيب المتأجج فجأة ، بدأ ظهور التصدع والثغرات بسرعة مشابهة لسرعة الالتحام .

وقصة الخلاف بين الاشراف والخليفة كقصة البيضة والدجاجة الازلية ايهما كان اولا ، أو هل كان تمرد الاشراف مجرد رد فعل لاجراءات الخليفة ؟ أم فعل الخليفة مافعل كرد فعل لتآمر الاشراف ؟ والأمر الذى يمكن اثباته بالوثائق ان الخليفة بدأ فى القضاء على مراكز القوة المناوئة وتجميع خيوط القوة فى يديه قبل وفاة المهدى واثناء الفترة التى انقطع فيها المهدى عن مباشرة واجباته الرسمية . ومن المؤكد من الناحية الأخرى وما اورده اغلب المؤرخين إن المهدى تدخل فى الامر ووقف شاجبا ومتبرئا من عشيرته فى آخر خطبة له فى الجامع ، واورد الكثيرون ان الاشراف بدأوا يتهامسون عن احقية الخليفة فى الخلافة ، وجسد المهدى لازال دافئا بعد وفاته .

من الصعب ان نحكم بعد عشرات السنين على امور دار اغلبها شفاها[1] وبين الكواليس ، فالوثائق وبالذات فى تلك الظروف ، لاتحكى كل شئ . الا ان خلفيات النزاع يمكن تخمينها بسهولة الاوهى التنافس السياسى والصراع القبلى .

على اى حال بعد وفاة المهدى افلحت المبايعة الاجماعية بالاضافة لصوت على ود حلو الخليفة الثاني فى اسكات الاصوات المناوئة إلى حين . ولكن عبد الله كان قد احس بها قبلا . فقد كان بارعا فى بث عيونه وسط المتآمرين عليه .

وتلفت الخليفة الى مصادر قوته . صحيح انه كان يمثل اهل الغرب ، وهم قوة لايستهان بها ومقاتلون اشداء . ولكن اغلب قادة الجيوش ومديرى الاقاليم كانوا ينتمون للجانب الآخر . وهو يقبع وحيدا فى عاصمته التى ينتمى سكانها ايضا للجانب المعادى ، ولاسند له الا منشور المهدى فى تعيينه خليفته الاول ، ا وصية المهدى الشفهية الأخيرة وهو على فراش الموت .

فخالد زقل يسيطر سيطرة تامة على اقليم دارفور وجيشه الكبير تحت تصرفه ، ومحمد الخير فى بربر بجيش لايقل قوة عن خالد ، ومحمود عبد القادر فى كردفان ، وود النجومى قائد قوات حصار سنار واشهر القادة فى ذلك الحين على الرغم من اخلاصه وولائه الاعمى للمهدية ، لايعلم احد اين سيقف ، وكرم الله كركساوى فى بحر الغزال وتحت تصرفه جيش آخر . وكل هؤلاء من عشيرة الخليفة شريف والمرجح انهم منحازون له . ومنها بدأ الخليفة سلسلة من الاجراءات لتجريد الاشراف الذين بدأوا يستعرضون قوتهم فى شوارع امدرمان . ولكى يضعهم امام الامر الواقع طلب من الخليفة على ود حلو تسليم الجهادية والسلاح والنحاس الخاص بالراية الخضراء لئلا يبدو الامر وكأنه موجه للخليفة شريف وحده ، وعندما اذعن هذا اضطر الخليفة شريف لتسليم اسلحة وعتاد الراية الحمراء وهو مكره .

---

(1) اوراق على المهدى أحد المصادر القليلة التى استجوبت من اشتركوا أو حضروا تلك المجالس سواء منها العامة أو الخاصة أو من عايشوا تلك الأحداث عن قرب ، ترجح كفة الخليفة وتوضح انه بذل اقصى جهده لمنع التصدع وايقاف الخلاف وان الأمر يعود فى النهاية للوشايات والدسائس من بعض الاشراف . جهاد فى سبيل الله ص ١٤٧ — ١٧٧

ثم وجه جهده بعد ذلك نحو خالد زقل ، وقد طلب من خالد الحضور بجيشه لام درمان منذ ايام حصار الخرطوم ، وبدأت بينهما سلسلة من المراسلات الطويلة والاخذ والرد والمراوغة من جانب زقل ، الى ان اذعن خالد وتحرك اخيرا نحو امدرمان على رأس جيش الغرب . وفي نفس الوقت ارسل عبد الله الى أبي عنجة آمرا اياه بتجريد جيش خالد من السلاح ونفذ هذا اوامر الخليفة بدقته المعهودة . وعندما وصل خالد الى بارا وعسكر فيها في ٢ ابريل ٨٦ كانت قوته العسكرية قد ضعفت كثيرا بعد ان جرد من السلاح تدريجيا . فقد امره في البداية بتسليم جهاديته ثم تسليم البازنقر والذهب والرقيق وكل رجال الراية الزرقاء ، ثم امره بترك الذخيرة في الابيض . واخيرا وصل ابوعنجه واحاط بخالد فاضطر هذا للتسليم مكرها . ثم استدعى ود النجومي في ١٩ ابريل ٨٦ بعد سقوط سنار وامره بالتقدم نحو دنقلا والبقاء بها الى ان ينجلي خطر الغزو الشمالي بعد انسحاب بعثة الانقاذ . وبذلك ابعد ود النجومي لدنقلا . وساد الهدؤ حينا لبضع سنوات الى ان ثار الاشراف في عام ١٨٩١ في حركة يائسة بعد سجن خالد زقل ، فحوكم الخليفة شريف ووضع في السجن .

وعندما بدأ الخليفة في تقليم اظافر الاشراف ، بدأ ايضا في خلق الطبقة الجديدة الحاكمة من عشيرته التعايشة . وان كانت دوافع الخليفة واهدافه واضحة في هذا الاجراء كل الوضوح الا انها ترتبط في العادة بقضية اخرى ، ألا وهي تهجير سكان دارفور وكردفان لام درمان والجزيرة .

فتعيين حــكام المناطق فقــادة الجيوش من ابناء عشيرته ، لايمكن انكارأن المقصود منها اولا تأمين النظام ، بعد ان احس الخليفة بثقل التآمر عليه . فلم يمض على بدء حكمه ثلاثة سنوات الا كان اقاربه يحتلون كل المراكز القيادية تقريبا ، واصبح حكامه مرآة عاكسة له وخير اداة لتنفيذ تعليماته . فعثمان آدم في الغرب ، ويونس الدكيم في الشمال ، وعربي دفع الله في الجنوب ، وابو عنجة ، وهو اقرب من الاقربين ، في الشرق .

اما قضية تهجير سكان الغرب لام درمان والجزيرة فالملاحظ دائما انها تقدم كجزء مكمل لسياسة الخليفة الرامية الى تأمين وضعه وحشد عاصمته بالجنود لحماية

حكمه . الا ان حقيقة الامر لم تكن كذلك تماما ، ولم تكن بمثل هذه البساطة . فقد برهن موسى المبارك عبر سياحته التاريخية في تلك الفترة من تاريخ دارفور ، والتى استوعبت كل الوثائق التى تتحدث عن هذا الموضوع تقريبا ، بان الخليفة لم يسع الى احضار التعايشة والبقارة فقط بل سعى الى احضار كل سكان دارفور ، وما انطبق على دارفور انطبق على كل كردفان ، وكان الخليفة اكثر رغبة فى احضار من كانوا اكثر اعراضا ، وكلما زاد اعراض هؤلاء كلما زاد الحاحه . ولايعقل ان يرمى الخليفة الى تأمين حكمه باحضار قبائل الفور والزغاوة والميدوب من اهل السودان ، ولايعقل ان يعتمد على الرزيقات والزيادية والهبانية الخ . . . . وكلهم اعرضوا عنه وثاروا عليه بلا استثناء .

الواضح ان هدف الخليفة كان متشعب الجوانب ، ولم يكن بمثل تلك البساطة . فقد كان هدفه حضاريا فى المكان الاول ، وقصده كان تأليف تلك القبائل ، وهو يعلم جيدا عزوفهم عن كل طاعة وكل نظام ، ثم وضعهم تحت رقابته المباشرة فى ام درمان والجزيرة ، وليس بعيدا فى وديان وجبال دارفور ، ليتشتتوا ويهرعوا الى جبال مرة أو مستنقعات بحر الغزال كلما دعاهم داعى الجهاد أو كلما طلب منهم الزكاة والعشور المفروضة على كل افراد دولته .

اما هدفه الثاني فيمكن ادخاله ضمن مخططات استراتيجية الخليفة العليا ، وهــو انشاء مناطق حشد قريبة تكتظ بالمقــاتلين « Settlements » . وعندما نذكر ذلك يجب ان نضع فى اذهاننا ان الخليفة ، على الاقل فى السنوات المبكرة من حكمه ، لم يسع للسيطرة على السودان فقط بل كانت مصر ثم مكة هما هدفه النهائي وسنرى ذلك بعد قليل عندما يدفع بود النجومى لمصر ، عندما كانت المهدية فى ايامها الاولى قبل ان تجبره الظروف على التخلى عن الاهداف التى اعلنها المهدى ، وهى تطهير كل العالم الاسلامى . كان طبيعيا اذا أن يسعى الى حشد كل السكان ، خصوصا المقاتلين منهم ، كما حشدهم المهدى من قبل .

وقد مثلت دارفور قرحة الخليفة الدائمة . واجبرته على الاحتفاظ دائما باكبر حشد عسكرى ، باستثناء العاصمة والقلابات اثناء حروب الجبهة الشرقية ، فلم ينقص جيشه فى دارفور ابدا عن ٢٠,٠٠٠ مقاتل وزاد احيانا كثيرة عن ٣٦,٠٠٠

مقاتل . كل هذا للتغلب على عشرات من الثورات وبوادر العصيان التى تفاوتت خطورتها بين ثورات اشترك فيها عشرات الالوف كثورة أبو جميزة، أو حملاته شبه السنوية لارغام القبائل على الهجرة .

وعندما ارسل الخليفة عثمان آدم لدارفور ، كان واجبه الرئيسى هو تنظيم تهجير قبائل دارفور لامدرمان ، ولكن هؤلاء لم يكتفوا بالرفض بل قاوموا كل محاولات عثمان وثاروا عليه ، بل وتعدوا على بقية القبائل التى امتثلت وبدأت فى الهجرة . فقد ثار الرزيقات والمعاليا والهبانية عام ٨٧ بقيادة مادبو وثار الفور بقيادة السلطان يوسف ابراهيم فى نفس العام وثار الميدوب والزغاوة والماهرية والزيادية عام ٨٨ وتوجت اخيرا بثورة ابي جميزة .

وبالطبع اتجهت انظار الخليفة اول ما اتجهت الى عشيرته التعايشة وكان عثمان ينحدر من نفس القبيلة لذا لم يتوقع الخليفة اى متاعب من التعايشة . بل ظن ان هؤلاء سيهرعون فور صدور الامر اليهم الى امدرمان ، ارض النيل والخيرات والعيش الرغد مخلفين وراءهم الى الابد شظف العيش وحياة البداوة الشاقة . ولكن هؤلاء لم يكونوا بهذه البساطة ، فعيش رغد أو غيره لم يفلح فى اغرائهم بترك ارض الآباء والاجداد ، وتلكأوا فى تنفيذ اوامر الخليفة الى أن حنق عليهم حنقا مضاعفا . فقد ساءه ان تخذله عشيرته التى اراد لها الخير ، فكتب خطابه المشهور فى رجب ١٣٠٥ الى عثمان يأمره بتخريب ديارهم وحرقها واحضارهم بالقوة ان لزم الامر .

« . . . الى كافة التعايشة على وجه العموم وعربي وقلادة بيت بيت ، فرع فرع ، نفر نفر كبير وصغير ، هداهم الله الى الصواب آمين . . . . وانكم من نريد لهم الهداية والدخول فى سلك المهدية ونشفق عليهم كثيرا ونظرا لذلك فقد حررنا لكم عدة منشورات بالدعاية الى الله والدخول فى سلك المهدية فما رأيت منكم التفات لذلك ، ثم لما صار توجه عثمان آدم لجهة دارفور حررنا لكم من المذكرات مافيه الكفاية ، ثم حررنا لكم منشورات بعد وصول المذكور لدارفور وامرناكم فيها بالانضمام اليه ومؤازرته بكافة رجالكم وخيولكم وآلة حربكم وان تكونوا معه اعوانا على اقامة الدين ومع جميع ذلك ماحصل منكم اعتناء

بامر الدين ولاسمعتم للمذكرات حتى انكم الى الآن ما انضممتم عـــلى عثمان المذكور طبق الاوامر ولاكان يبلغنا من جهتكم مبلغ خير . . . .
وما علمنا السبب فى ذلك مع تكرر الاوامر اليكم فهل ذلك جحود منكم لامر المهدية ام تكذيبا لوعد الله ام اختيار العمى على الهدى ام سبب ذلك الاستكبار والحسد حتى انكم لم تسمعوا اوامرنا أتظنون انكم البينة ام خطر ببالكم محاربة المهدية فان كان ذلك لجحودكم للمهدية فقد خرجتم عن الاسلام وصرتم كفارا والعياذ بالله من حالكم، فان شاء الله تعالى يحل بكم ماحل بالمكذبين الضالين قديما وحديثا، وان كان ذلك استكبارا منكم عن اتباعنا فلابد من حلول العذاب عليكم وخراب دياركم وهلاك رجالكم وسبى نساءكم وذراريكم اسوة بالجاحدين المكذبين اعداء الدين، وان كان لكم طاقة بمحاربة المهدية فاستعدوا لذلك ولن تستطيعوه فانكم ضعاف وعاجزين عنه وقد رايتم مافعلته المهدية بمن هو اشد منكم قوة واكثر رجالاً واموالا فكيف بكم مع قلتكم وضعفكم، وعجزكم والحاصل ان المكاتبات تكررت وهذا آخر مكاتباتنا . وان كنتم معرضين عن اتباع المهدية ولستم سامعين لاوامرنا فقد خسرتم الدنيا والآخرة ووقعتم فى سخط الله وان شاء الله تعالى لابد من هلاككم ودماركم، وتشتيت شملكم حتى تكونوا عبرة لغيركم . وهذا من الجهل الشديد الذى ليس عليه مزيد ولو كان لكم عقول لما استحسنتم تلك الحالة التى انتم بها مع ان امثالكم فى القبائل دخلوا فى المهدية وقاموا فى نصرتها بنفوسهم واموالهم ورجالهم وخيولهم تصديقا لوعد الله ومهاجرين فى سبيله ونصرة الدين وصاروا على حالة عظيمة فى الاسلام .
فسارعوا الى الاجتماع على المكرم عثمان آدم وعليكم الامان فى انفسكم واولادكم وكافة ممتلكاتكم ولاتؤاخذكم بما حصل منكم فى الاعراض ولاترون الا مايسركم ويشرح صدركم، وان ركنتم الى التاخير وكانت اموالكم ودياركم احب اليكم من الله ورسوله والجهاد فى سبيله، فالله اكبر عليكم، الله اكبر عليكم، واستعدوا لحرب الله ورسوله وان شاء

الله تهلكوا اشر الهلاك ويكون مصيركم الى النار وغضب الجبار وحينما تتوجهوا من الارض فقدرة الله محيطة بكم . والعاقل تكفيه الاشارة فضلا عن طول العبارة وحاصل الامر انا ماكررنا لكم المذكرات الا من باب شفقتنا عليكم لانكم الاهل والعشيرة . واستعدوا للحرابة بما معكم من جنود الشيطان،وبحول الله وقوته يحصل لكم الهلاك والدمار وخراب الديار وسبى النساء والذرارى والاسر وسؤ الحال كما حصل على من قبلكم من الجاحدين والا فان ليس لكم طاقة بالمحاربة وانما حيلتكم الهروب والطشيش بالديار فلاتهربوا بانفسكم وتتركوا النساء والاطفال والعواجز والارامل والايتام وعديمين الحيلة حيث انكم المشائخ عليهم والرؤساء . . . . »

وامر بنشر الخطاب على اوسع نطاق وسط فروع التعايشة . وعندما مرت فترة أخرى ولم يستجيب هؤلاء جهز عثمان آدم جيشا قارب تعداده عشرة آلاف مقاتل وتوجه بها الى ديار التعايشة وبدأ فعلا فى احراق القرى . ولكن هؤلاء رأوا انهم لاقبل لهم بمحاربة جيش الخليفة فاذعنوا خاضعين . ولم يمس عثمان ايا ممن اتاه خاضعا بسؤ، بل عمل على تنظيم هجرتهم .

تحرك هؤلاء من دارفور باعداد ضخمة لاتقل عن عشرة آلاف تصحبهم عوائلهم وابقارهم . وقد اشرف الخليفة شخصيا فى الاعداد لرحلة هؤلاء وبالغ فى التجهيز لها فانشأ شون الغلال على طول الطريق وجهز حملة قوية لتحمل معداتهم وانتظرهم بالبواخر النيلية بالقرب من الدويم . وقد قصد الخليفة بذلك شيئين : اولهما بالطبع كسب ولاء عشيرته وارضاءهم واشعارهم بأى خطأ توغلوا فيه عندما رفضوا الحضور الى ام درمان . كما قصد اظهار قوة عشيرته . واستغرق اسكانهم بام درمان شهورا طويلة .

ثم امر الخليفة بيت المال بصرف الحبوب والطعام والملابس المجانية لكل المهاجرين مما انهك موارد بيت المال المحدودة انهاكا واضحا . وتضاعف الامر عندما شحت الامطار ، مصدر المياه الرئيسى لزراعة المحاصيل ، والارض المزروعة قلت مساحتها لحد بعيد لانضمام المزارعين للجهاد فى ميادين الخليفة

الحربية المختلفة . اذ كانت تلك الفترة من ٨٨-١٨٩٠ فترة حافلة بالعمليات الضخمة ، فتسبيت كل هذه العوامل فى مجاعة سنة ستة التى اطبقت على كل ارجاء السودان . وزاد تدفق السكان الجوعى نحو العاصمة ، مما زاد من سؤ الموقف . واصبحت تلك الارجاء الشاسعة اشبه بالقفار . وقدر ضحايا المجاعة بالملايين . ولما تساقطت قطرات الامطار اخيرا واخضرت الارض وبشرت سنابل الذرة والقمح بمحصول طيب يبعد شبح المجاعة ، لاحت فى الافق كارثة أخرى ، فقد غطت اسراب الجراد السماء واطبقت على المحصول الجديد واتت عليه فى بضعة أيام .

وقد ضاعفت هجرة عشيرة الخليفة بتلك الاعداد الضخمة من بروز الحساسية والعصبية القبلية القديمة ، ولم يحاول هؤلاء من ناحيتهم تخفيفها ، فقد اشتهروا بالعنجهية والشراسة ، فالاشعار الشعبية والاغاني الشعبية التى انتشرت فى تلك الفترة تصور شعور ونظرة مجتمع العاصمة للمهاجرين من ناحية ، وتوضح من ناحية أخرى ان المهاجرين اعتبروا انفسهم طبقة مختارة حاكمة .

وعندما قوى ساعد الطبقة الجديدة كانت النتيجة الحتمية ان يسيطروا على الخليفة ، ويحدثنا الثقاة ممن ألموا ببواطن الامور عن تلك الفترة ان « مجلس الا بهات» الذى تكون من كبار التعايشة والمسنين منهم كان هو الحاكم الحقيقى لهذه البلاد. فقد استطاع هذا المجلس ان يملى ارادته على الخليفة فى اغلب الاحيان . ومن الثابت ان الخليفة ضاق ذرعا بسلوك عشيرته ، فلازال الاحياء يذكرون خطبته المقذعة التى شجبهم بها امام الملأ . والمنشور الذى اورده شقير « منشور منع الظلم » واحد من عدة مناشير وجهها الخليفة لحكامه وعشيرته ليحسنوا سلوكهم وان لايتعدوا على الآخرين بدون وجه حق ، وان يبذلوا بعض الجهد لكسب قلوب الناس .

* * * *

وقد شهد عام ١٨٨٨ الخليفة فى اوج مجده وقوته فقد دانت له كل القبائل بالطاعة واستطاعت جيوشه ردع كل اعدائه من الخارج والداخل وتوجها اخيرا بانتصاره فى حروب الحبشة .

ولحروبه مع الحبشة اهمية خاصة ، فمن ناحية تعتبر قمة انتصاراته الحربية ،

ومن ناحية اخرى كانت السبب فى اضعاف قوته العسكرية لحد بعيد ، فقد تحمل خسائر تلك الحروب الهائلة التى خاضها مئات الالوف بضراوة متناهية وابيد فيها الجهاديون الاصليون الاوائل عماد جيشه القوى ، اولئك الذين تمثلت فيهم روح الجيش الحديث النظامي المدرب .

ومنذ البداية لم يكن منتظرا ان تتجاوز دولتا الخليفة والملك يوحنا بكل طبيعتها الدينية وشعوبها الملتهبة بالحروب دون ان يثور بينهما صراع مصيرى . أتخذ ذلك الصراع شكل مناوشات صغيرة فى البداية ، ثم تطور الامر الى الصدام الشامل . فقد احتمى احد الاثيوبيين الخارجين على القانون بحامية القلابات فطالب الراس عدار من الامير ود ارباب تسليمه اياه فرفض هذا . وكان رد فعل الراس عدار عنيفا ، فقد تقدم الى القلابات واحرقها واباد حاميتها وقتل اميرها ود ارباب . وبلغ الامر الخليفة فارسل يونس الدكيم على راس جيش قوى لردع المعتدين . ولكن يونس لم يستكن للدفاع بل كان ايجابيا اكثر مما طلب منه ، فهاجم القرى المتاخمة على الحدود واحرق الكنائس ونهب قوافل التجار .

احس الراس عدار والى الملك جون على مقاطعة الامهرة انه قد حان الوقت لحسم الموضوع نهائيا ، فجهز جيشا قويا لاكتساح القلابات . ويبدو ان الغرض لم يكن تأديبيا أو انتقاميا فقط ، بل كان الاحتلال والاقامة الدائمة . فلن يهدأ بال الملك يوحنا ، ويستتب السلم فى بلاده ، طالما ظلت القلابات فى ايدى الخليفة وامرائه المشاكسين ، وعلم جواسيس يونس بالخبر ونقلوه له فارسل له يونس خطابا لكسب الوقت وذر الرماد فى العيون ، وطير الخبر الى الخليفة .

ارسل الخليفة يستدعى القائد الذى توفرت له المؤهلات لقيادة الجبهة المتوترة ، حمدان ابو عنجة ، مقاتل الزبير القديم المتمرس ، مؤسس الجهادية ، بطل شيكان ، فاتح امدرمان ، قاهر جبال النوبة . . . قامع ثورات كردفان وقد كلل امجاده وكفاءته بدروس اضافية عملية فى جبال النوبة . فقد تمرس اثناء حملته الطويلة ضد النوبة على حرب الجبال الشاقة ، وقد وضحت الخبرة العملية التى استقاها فى تشكيل قوته عند عبور جبال الامهرة الوعرة فى تقدمه الذكى الجسور لمجابهة الراس عدار .

تحرك ابو عنجه من جبال النوبة لام درمان . فجهز الخليفة استقبالا رسميا يليق بمقام قائده العظيم لازالت ذكراه باقية في اذهان من شهدوه، فمنذ الصباح الباكر تقاطر آلاف المقاتلين لسهل كررى ليشتركوا في الاستعراض ، وعندما بدأ الاستعراض تماوج مائة الف مقاتل مع نغمات الطبول والنحاس ، ولمعت آلاف الاسنة في مثار النقع الذى اثاره فرسان البقارة، وعندما ظهر الخليفة امام الراية الزرقاء التي رفرفت خلفها مئات الرايات ، كان له الحق كل الحق ان يشمخ بأنفه ، فقد تواتر تحت اقدام جواده اقوى جيش افريقي . تغلب على خمسة جنرالات بريطانيين ومحق اعداءه شرقا وغربا في الداخل والخارج . وقامت على اكتافه اول دولة افريقية بنيت بسواعد ابنائها لاغير . وعندما ظهرت طلائع ابو عنجة وجحافله يتقدمهم الجهادية ، اهتزت الارض للهتافات والتكبير .

وبعد انتهاء الاستعراض تسلم ابو عنجة اوامره . وبدأ التقدم فورا بعد ان قسم جيشه لقسمين . فلم يكن من المستطاع توفير الامداد والغذاء لجيش تجاوز تعداده ستون الفا اذا تقدم كتلة واحدة . فقرر التقدم بطريق ابو حراز وطريق التلعه ، المحور الاول بقيادة الزاكي طمل ، والمحور الثاني بقيادة ابو عنجة نفسه . وفي صباح يوم ٣ اكتوبر ٨٧ بدأ التقدم العظيم ، ولم يتوقف الا عند قندر عاصمة الامبراطورية الاثيوبية القديمة .

ولمعرفة الخليفة بطبيعة يونس توقع احتكاكه وتشاحنه مع ابي عنجة فارسل معينا يونس حاكما اداريا للمنطقة ، على ان يتولى ابو عنجة القيادة الميدانية ، ولكن يونس لم يذعن لاوامر الخليفة وفصل معسكره من معسكر ابو عنجة وظل يحتفظ بجيشه كما هو رافضا وضعه تحت قيادة ابو عنجة . فسمع الخليفة بذلك وارسل يستدعي يونس . وعزله من الامارة وابقاه في امدرمان وعينه ملازميا في حرس الخليفة « ولزم الفروة » لعدة سنين .

بدأ ابو عنجة تقدمه في ٩ يناير ١٨٨٨ بعد ان خطط له تخطيطا ذكيا فقد اخترق جبال الهضبة الحبشية عبر ممر « متنك » الضيق الوعر متقدما باربعة محاور ، كل محور تقدم عليه ربع من ارباعه ، ربع احمد علي وعبد الله ابراهيم في اليمين ، وربع الزاكي طمل اقوى الارباع في الوسط ، وعربي دفع الله في اليسار . اما

ترتيب اصطفاف التقدم فقد جعل حملة البنادق فى المقدمة وخلفهم تقدم حملة السلاح الابيض ، وتدافع فرسانه فى الامام وهم يتبادلون احتلال قمم الجبال للاستكشاف البعيد . اما ابو عنجة نفسه فقد تقدم امام الاحتياطى الذى كونه ملازموه خلف ربع الزاكى . وسرعان ما ابتلعت الهضبة الاثيوبية مؤخرة جيشه الهائلة واختفى بين جبالها لسبعة وثلاثين يوما ، انتقل فيها من نصر الى نصر .

ولنترك ابو عنجة يصف معاركه بقلمه هو فى تقرير عملياته الذى رفعه للخليفة فى ٢٩ يناير ٨٨ :

ولما ترائينا مع الكفرة اعداء الله اذا هم من كثرتهم لا اول لهم يعرف ولا آخر فابتدونا ضربا بمدافعهم الاربعة بمسافة لايصلها الرمنتون لزعمهم اننا نقف مكاننا ونناوشهم مناوشة ومازالوا كذلك ونحن زاحفون زحفا عليهم حتى اطلقوا علينا ١٦ قنبلة ثم شرعوا بضرب السلاح . هذا كله والاخوان زاحفون عليهم يسبق بعضهم بعضا اقداما بلا احجام طمعا فيما ينالونه من نعمات العزيز العلام . ولم نأذن لهم بالضرب الى ان حققنا بان أفواه السلاح امتلات من اعداء الله فعند ذلك شرعنا فى ضربهم بغاية الحزم وشدة العزم مع الزحف عليهم فما كانت لهم ساعة الا وقد زلزل الله اقدامهم والحق الرعب فى قلوبهم وانكشفوا عن وجوهنا مسرعين مرتكبين عار الفرار ذاهلين عن كل ماهم من ذرارى ونساء وخيول وبغال وحمير وخدم وحشم ونحو ذلك . هذا كله والاخوان الصادقون يسمعون صوت الام بايه تضرب فى وقت اشتداد الحرب . وبعد انكشاف الاعداء اقتفينا اثرهم طعنا وضربا واسرا حتى اضطر الذين امامنا الى ان رموا بانفسهم فى النهر المذكور وكانوا يزيدون عن الف نفس من ذكر وانثى فمات اكثرهم غرقى . ومارجعنا عن مطاردتهم الابعد الساعة العاشرة من النهار ووجدنا الهالكين من اعداء الله الوفا مؤلفة لايحصى عددهم الا الذى اراد هلكهم ولم يفز بلقاء الله من الانصار الانفر قليل كما يرى فى الورقة الاخرى طيه هـــذا وجميع الغنائم مع المدافع الاربعة وبعض السلاح الذى تيسر جمعه والخيول

والبغال وغير ذلك اخذناه بفضل الله تعالى بلا منازع ولامعارض لان الكفار تركوا الديم كما هو . وقد اعلمنا نقاد راس صابون من ثقاة مسلمى الجبرته الذى شهد معهم الواقعة وسلم بالفرار ان عدد الكفار مائتين واربعين الفا بلانقصان منها خاصة اهل الحربه والدرقة والسيف مايتين الف وخاصة السلاح الرمنتون اثنا عشر الفا والاجناس ثمانية آلاف والخيول عشرون الف والمدافع الاربعة . واهل الديار التى معهم لحربنا هم قجام، واجفر، وعلفه، وطماقسه، ودمبيا، وقندر، وشقلته، وام بجاره، وارمجوه، وغيرهم من عامة الديار وقد هلك اكثر البطارقة والرؤوس ومن جملتهم الشقي دجاج كاسه قائد جميع الجيوش، بعد الشقى راس عدار الذى حصلت على يده وقعة القلابات . وهذه ثلاثة ارؤس مع رافعه وهم دجاج كاسه عقيد الحربه، وبزايه بن الشقى راس عدار وقدارعى يقرا عقيد السلاح وكان جملة من يقال له دجاج ستة عشر ومع كل دجاج خمسة عشر الف اعنى كل واحد صاحب جاه ونقاره، وما ارسلنا هذه الارؤس الثلاثة الا لشهرة اربابها ومن جملة الاسارى لدينا اولاد الشقى راس عدار ذكورا واناثا مع حرم واولاد الرؤوس المفسدين بما فيهم بعض حرم وابناء عدو الله المخذول صالح شنقى وغيره .

هذا ولما خلت الدار من الكفار واننتت راحة الديم من جيف اعداء الله ورمم بهائمهم انتقلنا على بركة الله تعالى طالبين قندر ام مدائنهم يوم السبت لسبعة جماد الاولى وقبل وصولنا اليها قابلنا اهل الديار المذكورة اعلاه راغبين الامان ورافعين الرايات البيض وفي ايدى البعض الاغصان الخضراء ثم قربنا اليها قابلنا جميع كبائرها من مسلمى الجبرته بالطاعة والاذعان طالبين الامان فامناهم وبعض المكاتبات التى قابلتنا منهم بالطريق هاهي واصلة طى هذا وجميع الكفار الساكنين بها ولوا مدبرين فدخلنا يوم الاثنين وجلنا فيها يمينا وشمالا فاعجبنا بما شاهدناه من القصور الشامخات، واحرقنا فيها ٤٥ كنيسة ماعدا الكنائس التى احرقناها بالديار المذكورة وعند مرورنا بها وهى تزيد على ٢٠٠ كنيسة فلما لم نجد بالمدينة

المذكورة الا المسلمين من الجبرته (وكانوا نحو ٢٠٠) ولم نعلم جهة للعدو ولزيادة اشتياقنا لمخاطبة السيادة لانقطاعها عنا مدة غزوتنا هذه وايفاء بوعدنا السابق للسيادة عن تعجيل الأوبة قمنا منها ومعنا جمعا من الجبرته باموالهم واولادهم مهاجرين لله والغنائم المتقدم ذكرها آنفا وسيتم وصولنا الى القلابات غدا انشاء الله تعالى ولعلمنا ان الافكار الشريفة متعلقة بنا قد بادرنا بتحرير هذا فى ١٥ جمادى الاولى سنة ١٣٠٥ هجرية (٢٩ يناير ١٨٨٨ ميلادية) .

ولكن ابا عنجة لم ينعم طويلا بانتصاره فلم تستطع قواته احتمال قسوة الجو فى الهضبة المرتفعة فعاد الى القلابات وهناك توفى متأثرا من مرض مفاجئ.(١) وقد وقع الخبر وقوع الصاعقة على الخليفة فعدا صلته الشخصية به ، ونكبته فى اكثر قادته اخلاصا ، تواترت الانباء فى ذلك الحين عن الاستعدادات الضخمة التى بدأها الملك جون لاخذ ثأر الراس عدار وجيشه المباد .

جمع النقز جيشا تجاوز ربع مليون جندى ضم كل شباب قادر على حمل السلاح وتدافع هؤلاء للانضمام لجيشه ، فقد نظروا للصراع كحرب دينية مقدسة . ويبدو ان الملك جون كان واثقا من جيشه كل الثقة فقد ارسل للزاكى طمل منبئا انه سيصل للقلابات يوم ٩ مارس ولينتظر هذا ويرى عاقبة افعاله .

لم يكن هناك زمن لتعزيز القلابات واحتار الخليفة فيمن يخلف ابو عنجة . . . فاختار مجلس شوراه قريبه احمد ود على قائدا وامتثل الخليفة على مضض لرأيهم .

ولكن ما ان تحرك جمل البوستة وغادر ام درمان حتى ندم وسارع بنقض قرار المجلس وارسل خطابا آخر يعين فيه الزاكى طمل ، اقرب القادة لابي عنجه واكفأهم واصلبهم عودا ، قائدا للجبهة الشرقية . واثبتت الاحداث صحة قراره فقد كان الزاكى جنديا من نفس مدرسة ابو عنجة ورافقه منذ ايام الشباب الاولى عبر رحلة السنين الطويلة فى حروب الزبير فى افريقيا الوسطى ثم الى القلابات وكان ساعده الايمن فى تنظيم وتدريب الجهادية واحتل مكانة نائبه الاول .

---

(١) قيل أنه أصيب بمغص فتناول بعض الاعشاب كعلاج فسممته وأدت إلى وفاته

وبدأ الزاكى فى اكمال وتحسين دفاعات القلابات فاحاط المدينة من الجهات الاربعة بزريبة سميكة وحفر خندقا لتحصينها من جميع الجهات وفى وسط الزريبة شيد سورا مربعا جمع فيه العائلات والذخائر . ثم حشد داخلها ستون الف مقاتل جندى تسلحوا ب ١٥٫٠٠٠ بندقية وقبع منتظرا العدو .

وفى صباح ٩ مارس بدت طلائع « النقس » الجبارة يتقدمها الفرسان الذين إثاروا الغبار حتى اظلمت الدنيا ، فقد بلغت مواجهة تقدمهم ستة اميال . ومضى النقس متهاديا على صهوة جواده وقد ارتدى تاجه الامبراطورى .

وقف الملك جون على تله صغيره مشرفا على المعركة بعد ان اعطى اشارة الهجوم ، فاندفع مئات الالوف فى ضراوة متناهية فى اعنف معركة شهدتها افريقيا حتى ذلك الحين . ركز الاحباش هجومهم على نقطة واحدة من خطوط دفاع الزاكى التى بلغ عرضها ١٥ ميلا وهى قطاع احمد ود على . واستماتت الفرقة الشجاعة ولكن هجوم الاحباش كان قويا ومركزا وباعداد هائلة ، فافلحوا فى اختراق الدفاع وابيدت الفرقة عن آخرها واندفعوا داخل احياء المدينة ولم يقف انتقامهم الدموى عند حد ، فقد اعملوا ذبحا فى كل كائن يتحرك امامهم الى ان وصلوا قبر ابو عنجه وبدأوا فى نبش رفاته انتقاما « للراس عدار » ووجد المدافعون انفسهم يواجهون عدوا من الامام ومن الخلف .

فوجئ الزاكى بسير المعركة . فقد بنى دفاعه متوقعا هجوما عريضا بمواجهة كاملة لا ان يرتكز على جانب واحد « الجانب الغربي من الزريبة » وعلى هذا الاساس وزع قواته ونيرانه توزيعا متساويا موزونا ولم تكن خطوطه العريضة محصنة تحصينا كاملا أو محتلة احتلالا قويا بالمدافعين .

دامت المعركة ٥ ساعات واصبحت الخطوط الامامية كلها تقريبا فى يد الاحباش فلجأت اغلب قوات الزاكى للخطوط الخلفية بعد ان امر بفتح النيران على قطاع احمد ود على مضحيا بالبقية الباقية من مقاتلى الفرقة المبادة لايقاف تدفق الاحباش ، ففتحت النيران وبدأ قصف الصديق والعدو سويا . وهنا سقط الملك جون صريعا بطلقة اصابته بجرح مميت فى صدره فى لحظة قمة انتصاره ، وبعد ان

اخذ جنوده آلافا من الاسرى وساقوهم امامهم ، ولكن عندما تسرب نبأ مقتل الملك جون اصيب جنوده بالذهول لفترة ما وتراخت قوة اندفاعهم ثم اوقفوا العمليات العدائية وقنعوا بما سددوه من انتقام وما فازوا به من اسـرى وغنائم . وحملوا جثة مليكهم القتيل وانسحبوا .

والذى حدث ان القوة التى نجحت فى اختراق الزريبة كانت تنتمى الى قبائل الامهرة ، الذين طالما اتهمهم الملك بالجبن نتيجة للهزائم السابقة . وغضب الملك عندما علم ان قبيلته « التقرى » التى عزز بها هؤلاء متفاخرا بهم عجزت عن اختراق الزريبة . فتحمس وأمر خدمه بحمله على عنقريبه الذهبى الى الخطوط الامامية ليقود جنده مخترقا الدفاع الى داخل القلابات ويبدو انه اقترب للغاية من الخط الامامى . فلاحظ رجال الزاكى ثلة كبيرة من الجنود بملابس القطيفة الزاهية تختلف عما يرتديه بقية جنود الاحباش نصف العراة فوجهوا نيرانهم نحوها . . . واصابوا الملك بطلقة اخترقت ذراعه ثم صدره . . . . واصابة الملك تلك غيرت الموقف كله .

جمع الزاكى قتلاه وفكر طويلا فاتخذ قرارا صائبا بمطاردة العدو فقد اخذ هؤلاء معهم كثيرا من السبايا ومن ضمنهم نساء قائدهم الراحل ابو عنجة فجمع البقية الباقية من جيشه وبدأ فى مطاردتهم . . . . ولكن لنترك الزاكى يصف الاحداث فى خطابه الذى ارسله لام درمان :

« وهو انه بعدما سبق العرض للسيادة عما بلغنا من حضور اعداء الله الحبشة لمحاربتنا فقد تم وصول الاعداء المذكورين يوم السبت فى ستة رجب ومعهم نقسهم الهالك الملعون يوحنا قريبا منا فكانوا على حالة عجيبة وقوة شديدة وجموع كثيرة العدد عظيمة العدد لايحصى مقدارهم الا الله تعالى حتى من شدة كثرتهم ضاقت بهم الارض وماوسعتهم الطرق فصاروا يطلقون الحرائق امامهم لتنظيفها ولقد راينا نيرانهم من مسافة ثلاثة ايام فلما قربوا من المركز مسافة ساعتين ثار الغبار من جهتهم حتى سد الافق وصار من فى ديم الانصار لاينظر من يكون بحذائه من

شدة ثوران الغبار وانتشاره وعندما شاهد الانصار ذلك اظهروا من الثبات والشهامة والاشتياق الى لقاء الله والوفاء بالعهد ماهم به حريون وبقينا متريثين ومستعدين على الحالة المعهودة ومنتظرين قدوم الاعداء الى ميدان الحرب لمناجزتهم وقطع دابرهم فحضروا الينا فى الوف مؤلفة وعدد متنوعة ومعهم من الخيول والاسلحة والبقال مالايحصى وقد ساقوا امامهم الوحوش كالجواميس والذئاب والغزلان وخلاف ذلك واحاطوا بنا من كل جانب حتى صرنا فى وسطهم كالخاتم الصغير وهم فى غاية الغرور والاعتماد على كثرتهم العارية من المعونة الالهية وكان عدد الانصار اهل الاسلحة النارية اذ ذاك سبعة عشرة الفا بخلاف الحرابه لكون الاعداء المذكورين اتونا على حين غفلة قبل التمكن من جمع جيوش الانصار المتفرقة بالجهات فى المصالح . فبعدما احاطوا بنا من كل جانب ومعهم نقسهم الملعون يوحنا يحثهم ويحرضهم على القتال ويمنيهم بحسب مايلقيه اليه الشيطان وتسول له نفسه الخبيثة من القدرة على اطفاء نور الرحمن ابتدرونا بضرب المدافع والاسلحة النارية من كل الجهات وحملوا علينة حملة ارتج لها الكون وصار لهم دوى عظيم واصوات مختلفة من ضرب الاسلحة المتنوعة والانصار فى تلك الحالة فى غاية الثبات والصبر وقوة العزم وعدم الاكتراث لكثره الاعداء وجموعهم لم يسبق لاحد مصادمة نظير هذه فيما نعلم من زمن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم وعندما ابتدرونا بالضرب عاقبناهم بضرب المدافع من كل ناحية وصبرنا لهم حتى « ملأوا افواه الاسلحة » فتوكلنا على الله وضربناهم ضربة رجل واحد واستمر اطلاق الاسلحة النارية من الجهتين وتواتر حتى ارتجت الارض من اصوات الاسلحة واسود النهار وصار كالليل المظلم من تراكم الدخان والغبار فى الجو كانما السماء اطبقت على الارض من عظيم ماحصل والانصار وقتئذ جزاهم الله خيرا مع قلتهم بالنسبة الى كثرة جموع الاعداء فى غاية الثبات والصبر والاقدام والشهامة والبسالة وشدة الوطأة على اعداء الله ضربا بالاسلحة وطعنا

بالرماح وقطعا بالسيوف استمر الحرب بيننا وبينهم نحو خمسة ساعات بحيث لم يكن من انتهائها فاصل بين الضرب بالاسلحة والالتحام مع الاعداء . وبعد ذلك انزل الله علينا نصره وانجز لنا وعده وزلزل اقدام اعدائه فولوا هاربين على اعقابهم ناكصين بعد ان اهلك الله نقسهم الملعون يوحنا وجماعة من رؤساء دولته ووزرائه واهلك من جموعه الوف مؤلفة حتى امتلأت الارض من جيفهم الخبيثة وجيف خيولهم وبقالهم . وبعد انكشافهم عن وجوهنا اخذوا نقسهم الملعون يوحنا ودخلوه في صندوق واشاعوا انه حي ولكنه مجروح جرحا خفيفا وحملوه معهم وفروا هاربين ولعار الفرار مرتكبين . بالنظر لكون الانصار جزاهم الله خيرا ما انتبهوا في حالة التحام الحرب مع الاعداء لشئ سوى مصادمتهم وقطع دابرهم ولم يشغلهم عن ذلك شهيد ولاجريح حتى كشفوهم وصدوهم على اعقابهم فنحن بعد هرب الاعداء شرعنا في دفن من اكرمه الله بالشهادة من الانصار وهم عدد يسير وتمييز المجاريح وكان ذلك يوم السبت ويوم الاحد . وثم تجهزنا بما لزم من الاستعداد واقتفينا اثر الاعداء المذكورين في صباح الاثنين وجددنا السير في طلبهم وادركناهم عشية يومنا هذا على بحر اثريه نازلين وبايتناهم هناك فطلعونا في تلك الليلة بجانب من خيولهم فحملنا على طلائعهم فانهزموا —ولما اصبحنا بيوم الثلاثاء الموافق ٩ رجب « الواقع عشرة رجب ١٢ مارس» ناجزناهم الحرب ونشب القتال بيننا وبينهم فثبت لهم الانصار ثبوت الرواسي واشتد الحرب وعظم الخطب واستمر الحال على ذلك ستة ساعات فانكشفوا عن وجوهنا منهزمين لايلوى منهم احد على احد لشدة مارأوه من سطوة انصار الدين بعد ان اهلك الله منهم كل من يقال له : راس أو دجاج من الباقين بعد الواقعة الاولى فاقتفى الانصار اثرهم ضربا وطعنا استأصلوهم عن آخرهم ولم ينج منهم الا الهارب وقد غنمنا جميع مامعهم من الاسلحة والمدافع والجباخين والخيول والبغال وبقية الامتعة — وبعد استئصال المنهزمين صار تفقد الهالكين من رؤساء الكافرين بواسطة

من لهم المعرفة التامة بهم فوجدنا عدو الله الهالك النقس يوحنا مقتولا فى الواقعة الاولى كما ذكرناه آنفا مدخلا فى صندوق مشمع ببطن خيمته وعلى صدره صليب من ذهب كان يعبده من دون الله ومعه ايضا افخر ملابسه وبعنقه العتبة التى يتخذونها وعليه انواع من الادوية لئلا يتمزق ففى الحال اخرجناه من الصندوق وحززنا رأسه ورفعناه على قناة فاستبشر الانصار بذلك وحمدوا مولاهم على تلك النعمة العظيمة ثم ارسلنا رأس الهالك يوحنا المذكور ورؤوس وزرائه كراس الوله وغيره لصوب السيادة اعلاما بتأييد الدين ودمار الكافرين ومعها تاج المملكة الذى للملعون المذكور وقيامه ونحاساته وغير ذلك من امتعته الخاصة به . »

صحيح كانت حروب الحبشة اكثر انتصارات الخليفة ودعما قويا لحكمه وامنت حدوده الشرقية لمدة طويلة وقضت على اخطر اعدائه فى ذلك الحين . ولكن الثمن كان غاليا ، فقد فقد الخليفة فى الصدام الهائل خيرة وحداته واحسن عتاده واسلحته واضطرته الحروب الى الاحتفاظ بجيش قوى فى القلابات على حساب الجبهات الأخرى .

* * * * * *

وفى قائمة الاتهامات الطويلة التى وجهت للخليفة لم تكن هناك اسطر اكثر سوادا من اتهامه بانه بعث ود النجومى لمصر متعمدا القضاء عليه . واذا كان اثر حروب الحبشة هو اضعاف قوته العسكرية ، فاثر مأساة توشكى امتد الى خارج حدود بلاده فقد اظهرت لعدوه المتربص فى الشمال ضعف جيشه وامدته بضمان ، ان لم يكن باحد الحوافز ، للاندفاع فى مغامرة استرداد السودان كما سنرى بعد قليل ، وعلا بعدها الهمس داخل البلاد وازدادت مرارة السكان الشماليين وزادت شكوكهم فى نواياه تجاههم . ومن ناحية اخرى فان آلاف الاسرى الذين سقطوا فى ايدى الجيش المصرى أمدوا ونجت ، مدير مخابرات الجيش المصرى ، بذخيرة لاتنفذ من المعلومات عن ادق دقائق الخليفة وجيشه لم يتوفر له مثلها الابعد سنوات طويلة وذلك عند هروب سلاطين .

اما ان الخليفة لم يكن يثق فى ود النجومى ولم يكن يخلص له الود ولم يعامل

الرجل بما يستحق فهذا اورده اغلب المؤرخين . فود النجومي البطل الذى قاد الهجوم الرئيسي المباشر في شيكان وامير الامراء في حصار وسقوط الخرطوم تعرض للتجاهل والاعراض من ناحية الخليفة بدون مبرر معقول . فاخلاص ود النجومي للخليفة لم يرق اليه شك ولم تظلله إلا وشايات مساعد قيدوم ، واختلاف عنصره الجعلي . وقد قابل هو التجاهل والاعراض بالصبر والطاعة التي تدل على روح الجندية الاصيلة والترفع عن الصغائر . فالقوة العسكرية التي قادها الى الشمال، والمسئولية التي اوكلت اليه لاتتناسب مع سمعته ومكانته كاحد اوائل ابطال المهدية واشهر قادتها . ولكن حتى عندما التهبت الجبهة الشمالية واصبحت الجبهة الرئيسية عند تقدم ود النجومي لمصر لم تزد قوته عن ٦٠٠٠ مقاتل بينما تقدم ابو عنجة بعشرات الالوف نحو الحبشة . ومن الصعب قبول حديث من دافعوا عن الخليفة باعتقاده بموالاة السكان المصريين وتوفر مكاتبات بينه وبين كبار المصريين من جنوب مصر الذين شجعوه على التقدم ووعدوه بانه سيجد كل تعاون من قبلهم . فهو يعلم انه سيواجه الجيش الانجليزى والجيش المصرى مجتمعين. وعندما وقع الملازم « فيني » في الاسر وارسل لام درمان وقصد الخليفة ان يبهره بقوة جيوشه ، ارسله في رحلة طويلة لرؤية جيوش ابو عنجه في القلابات وكأنما يعلم ان الضابط المذكور لن يكون فكرة صحيحة عن قوته خلال مكوثه في الجبهة الشمالية بحشدها العسكرى الضئيل . ولعل التبرير الوحيد الذى يمكن ان يقدم ليبرهن على حسن نيته عندما بعث النجومي ، كان هو استخفافه باى تهديد شمالى كما ستبرهن الاحداث بعد قليل .

هذا من الناحية الرسمية اما الاهانات الشخصية فقد اكثر منها الخليفة . فعندما احتدم الخلاف بين ود النجومي ومساعد قيدوم،توسل ود النجومي مرارا للخليفة بان يسمح له بالحضور لامدرمان لعرض قضيته ، فرد عليه هذا ببرود امرا اياه بالكف عن الخلاف وان يمتثل في النواحي الادارية وشئون بيت المال لاوامر مساعد . وعندما كثر طلب ود النجومي بالحضور لام درمان سمح له اخيرا .

وتتحدث بعض الروايات ان الخليفة اهانه امام الملأ (١) فى امدرمان ثم عزله وارسل يونس الدكيم حاكما لدنقلا مجردا ود النجومى من مسئولياته الادارية بحجة تفرغه للتقدم لمصر الذى امره به الخليفة اخيرا . ولم يرسل الخليفة التعزيزات المتوقعة ولو اقلها لود النجومى لتسانده فى زحفه على مصر . بل حتى لم يسمح له بالتقدم بكل القوة المتوفرة فى الجبهة الشمالية بل استبقى القوة الحقيقية المتمثلة فى الجهادية والاسلحة النارية والذخائر فى يد يونس فى مركز قيادته المتأخرة من دنقلا لتعزيز النجومى ان احتاج لها ؟ ! .

وعندما تحرك ود النجومى لغزو مصر ليقطع ١٥٠٠ ميل ويناطح الجيش البريطاني والمصرى كانت قوته بالضبط ٤٠٠٠ مقاتل و ٣٠٠ بندقية و ١٠ مدافع و ٧٠٠٠ من النساء والاطفال. وعندما اشتبك الاشتباك الاول والثاني والثالث ووزن قوة عدوه فى ارقين وبلانه لم يتوقف بل مضى قدما . وقد وصف حالة الضنك الذى لاقاه جيشه من العطش والجوع فى اكثر من خطاب للخليفة . فقد تبعتهم بوارج العدو النيلية خطوة بخطوة وحرمتهم مدافعها ورشاشاتها من ورود النيل لاخذ الماء أو التموين من ثمار نخيل الشاطئ وقد وصف المرحوم الشيخ بابكر بدرى مغامراته والاخطار التى كان يتعرض لها عند احضار الماء وصفا طويلا فى مذكراته. اما الجوع فكان اثره فتاكا على الجيش الشجاع ، فقد مرت فترة اعتمدوا فى غذائهم على التمر الاخضر . . . ثم طبخ نواه بعد سحقها . واخيرا كتب ود النجومى للخليفة موضحا حالة جيشه فى ١٠ يوليو ٨٩ :

« نرفع الى مكارمكم عن احوالنا واحوال الانصار الذين معنا انه قد مسهم الضرر الشديد الذى ماعليه من مزيد واشتد بهم الحال وضاق الامر جدا فان الجوع الحال بهم اضناهم واذهب قواهم فورم اجسامهم وغير احوالهم لانهم قبل دخول بلد العدو كان قوتهم التمر الاخضر المر

(١) اورد شقير هذه الرواية : ان الخليفة التفت إلى ود النجومي في بعض جلساته فى الجامع وقال : « أنت يا ود النجومي ماك هين لكن هوين » ثم التفت إلى أحد قضاته سائلا : اذا كان الرئيس هوين لكن موهين ألا يضر الجيش فقال القاضى : « يقال الف ثلعب يقودهم أسد خير من ألف اسد يقودهم ثعلب » فضحك الخليفة عاليا . وانصرف ود النجومي واجما . وتمتم لا حد اصحابه المواسين لا فائدة من العمر بعد هذا .. فاذا لقيت العدو القيت نفسى بين أنيابه ومت شهيد شقير ص ١١٠٩

ونواه وانقطع عنهم من مدة ولطول الطريق وكثرة المشقة ضعفوا فدخلوا البلد على حالة ضعيفة ولشدة الضرر جلسوا على الارض وكثيرون منهم ماتوا جوعا واما ضعفاء اليقين منهم، فلعدم صبرهم على البأساء والضراء رغبوا في الاعداء . والجهادية والعبيد والخدم لحقوا ايضا بالاعداء وارتدوا عن الدين ولم يبقى منهم الا النادر ثم ان الجهادية الذين ارسلوا معنا طوبجية للمدافع من طرف سيدى يونس كانوا ٣٥ الجميع رغبوا فى الكفرة وهربوا اليهم ولم يبقى الا ثلاثة وكذلك من انضم الينا نحو ٧٠ من الجهادية والجميع دخلوا القياقر ماعدا ستة منهم وما دعاهم لذلك الا تراكم الضرر والاضطرار الذى الجأ الناس كافة الى اكل مالايذكر من الحيوانات وغيرها ولم يبقى معنا من الانصار الا من تداركه الله بلطفه وصبر على البلاء والاختبار وله جلد على ذلك ولولا لطف الله بنا وجميل نظركم لما قدرنا على الوصول الى بلاجه « بلينه» . والحاصل ان الانصار تعبوا وضاق بهم الحال وعظم الخطب وطالما صبروا على ذلك لأنهم من عهد ما « صرفوا » بدنقله لم يجدوا « صرفا » اصلا ولم يكن معنا مانعطيهم لسد رمقهم وحفظ انفسهم وارجوا الله بجاهكم سيدى ان يتولاهم ويصلح شأنهم ويأتيهم بالفتح من عنده . وكذلك الجمال التى كانت عندهم وجمال الجبخانة والخيول والحمير ماتت من شدة المحل وطول السفر ولم يبق منها الا النادر . وان الخيل الموجودة بالجيش فهى مايتان بالكشف المعروض لسيدى يونس الدكيم فى تعداد الجيش مع انها كلها هزيلة ولاتقدر على الكر والفزع . والخيل القــوية منها لاتزيد على الخمسة عشر حصانا ولذلك فان خيل الكفره دائما تبدو بنواحى الديم وليس عندنا خيل قوية لمطاردتها غير الخمسة عشر المذكورة . وان الجبخانه الرمتون التى معنا جميعها وزعت على اهل السلاح لعدم القدرة على مشالها دفعة واحدة وكذلك جبخانة المدافع وزعت على الانصار جله جله خرطوش خرطوش لموت جمالها كافة وان من المدافع مدفعا جره الانصار اولاد العرب على اعناقهم الى مكان بعيد لعدم وجود جمل

يحمله — وكذلك بعض الجبخانة والمدافع التى كانت بسرس تركت بجهاتها لعدم وجود الجمال . وجميع الانصار كبيرهم وصغيرهم ذكرهم وانثاهم ماشون على ارجلهم حاملون على رؤوسهم كما شاهد ذلك الاخوان الهجانة الذين اتوا من سيادتكم . »

ولكنه لم يتوقف لاستلام رد الخليفة وواصل التقدم الى ان اشتبك مع العدو فى ارجين . وعلى الرغم من ضعف قوته الا انه كان البادئ بالهجوم . ففقد ٩٠٠ من رجاله و ٥٠٠ من غير المحاربين من النساء والاطفال وجرح هو نفسه .

فعقد قبل مواصلة التقدم مجلسا حربيا واستشار قادته . فاقترح اغلبهم العودة الى المحس لحين وصول امدادات تمكنهم من التقدم فهم ان تقدموا اكثر من هذا لن يلاقوا الاصحراء قاحلة لاماء فيها ولاتمر وستمر بهم ظروف اسوأ من سابقتها .

كان اقتراحا منطقيا وواقعيا . ولكن يبدو انه تذكر المهانة والتجريح الذى ينتظره من امدرمان . فختم المجلس قائلا : « لا والله لاارجعن الى الوراء الا جثة هامدة . فاذا عطشنا أو جعنا فانما نحن فى جهاد فلنتذرع بالصبر والثبات حتى نفوز بالنصر أو الشهادة » . وهز سيفه ومضى قدما فتحمس قادته وتبعوه .

ولابد ان ود النجومى قد ساورته نفس الخواطر والافكار التى وردت فى خطاب جرانفل الذى دعاه فيه للتسليم :

« انا عالم سؤ حالك انت وعالم انك فريسة لغيرة ذلك الخليفة الذى جعل ابن عمه يونس عاملا فى مكانك وجعلك تحت طاعته وارسلك انت والاعراب الذين يخشى شرهم بحجة فتح مصر وهو انما يريد هلاككم فانه يعلم ان الذى ارسلكم اليه لمستحيل عليكم بل انتم ايضا تعلمون ذلك»

ولكنه طرد تلك الافكار ورد على جرانفيل ردا عنيفا وبعث خطاب جرانفيل ورده عليه لامدرمان . ومن ثم منعه الخليفة من استلام خطابات جرانفيل أو الرد عليها .

تولى ود هاوس فى البداية قيادة قوة العدو المكونة من ثلاثة الوية مشاة ، وسريتين خيالة وسريتين مدفعية و ٣٢٠٠ مقاتل . ثم تولى جرانفيل سردار الجيش

المصرى القيادة بعد وصوله على راس التعزيزات من القاهرة .

ولكن على الرغم من تفوق جرانفيل الواضح الا ان ود النجومى كاد ان يكتسحه فى هجومه الصباحى الاول عندما تقدم من الشلال شرقا وهاجم مشاة جرانفيل . ولكن تراجع جرانفيل انقذ موقفه . . . ولو توفر لود النجومى فى تلك اللحظة بضعة فرسان بخيول قوية لتغير سير المعركة . فقد تراجع جرانفيل عندما اشتد عليه هجوم ود النجومى حتى يكسب الزمن لحين وصول تعزيزات هنتر . ولكن ضعف قوى جنود النجومى والخيل عاقه عن مطاردة جرانفيل والاشتباك معه .

ففى الساعة الحادية عشر بعد ان استنفدت قوى ود النجومى فى هجمته الشجاعة هجم عليهم جرانفل بألويته الثلاث تحت غطاء كثيف من نيران المدفعية حتى اجلوا جنود ود النجومى عن مواقعه وانسحب هؤلاء الى معسكر النساء والاطـــفال .

اندفع ود النجومى بجواده ليقف حائلا بينهم وبين الانسحاب ويلملم شملهم ويحثهم على الثبات ، فاقترب من نيران العدو الذى احتل مواقعه السابقة فاصيب بطلقة اخترقت صدره فسقط مجندلا على الارض وسيفه فى يده .

واصل جرانفل اندفاعه الى ان طوق معسكر النساء واوقعهن ومن انضم اليهن فى الأســـر .

* * * * *

ولكن السنوات الأخيرة من عهد الخليفة تميزت بالاستقرار والهدؤ النسبى وللمرة الاولى لسنوات اصبحت حياة السكان تمضى طبيعية مسالمة ، فساد الهدؤ الجبهات المتوترة وعم الرخاء النسبى كل ارجاء البلاد . فقد تميزت تلك السنوات بالامطار الوفيرة ، وتشير كل التقارير الى توفر المحاصيل والعيوش واختفى تهديد المجاعة لعدة سنوات ، وبرز احترام واضح للسلطة والقوانين من قبل السكان وابرز الخليفة وحكامه كفاءة ادارية واضحة فى ادارة شئونهم .

صحيح لقد بقيت هنا وهناك بعض الملامح للسنوات العنيفة الماضية ، فالخليفة واجه الاختيار الاقتصادى الصعب : جيش محارب قوى ام مجتمع رخاء ؟ وعلى الرغم من انه اختار الجيش القوى ، الا انه بذل اقصى جهده لتحقيق الرخاء للدرجة التى جعلته يسمح فيها باعادة فتح التجارة مع مصر على الرغم من تخوفه من ان يصبح التجار اداة طائعة فى يد استخبارات العدو (١) وبذلك فتح ثغرة فى الستار الحديدى الذى فرضه على تلك البلاد . ولم يكن الامر ابدا كما صورته الصحافة والكتب الأوربية التى اوضحت ان تلك البلاد لازالت غرقى فى الدماء وعمليات الابادة الجماعية . فقد ذكر مصطفى الامين (٢) فى الاستجواب الذى اجراه معه مدير شعبة المخابرات المصرية عام ٩٢ مايلى :

« لقد (٣) استفاد الخليفة بخبرة السنوات الماضية ، وهو يبذل قصارى جهده لتركيز دعائم حكم اكثر شعبية واقل ارهاقا للسكان . والواضح ان محاولته نجحت لحد بعيد . وهناك سياسة تنفذ ببطء وبالتدريج لاعادة السكان لحالتهم الطبيعية بعد سنوات الحروب ولفرض القوانين والنظام . ولذلك فالاحتمال كبير ان أى تفكير بغزو السودان سيقاوم ، حتى من قبل القبائل التى عارضت الخليفة فى البداية مقاومة جادة . البقارة الآن استقروا فى اوطانهم الجديدة وذابوا فى المجتمع الجديد والقبائل الأخرى تبدو راضية عن الموقف . والشعور القومى (٤) سيعتبر أى محاولة لغزو السودان من الشمال محـــاولة للنيل مـن استقلالهم . وهذا الشعور قوى جدا فى

---

(١) تبرر تقارير المخابرات من عام ٩٢ إلى عام ٩٥ مخاوفه ، فقد استجوب ونجت كل التجار الذين وصلوا من السودان تقريبا .

(٢) لم ينشر هذا الاستجواب ضمن تقارير المخابرات .

(٣) "He is profiting by former experience and is doing his utmost to establish a more lenient and popular system of government; and his efforts are not altogether unsuccessful.... thus a slow but gradual consolidation is being effected and is not unlikely that when the (Egyptian) Government does eventually decide to re-enter the Sudan, It will meet with opposition on the part of those very tribes who have been most clamorous for its return ...... The Baggara have become nationalized in their new homes, the other tribes are accepting the situation, and now there is a more or less gereral feeling that an advance on the part of the government must→

امدرمان ويخف قليلا في المناطق المتاخمة للحدود والتي ، تتعرض للتأثيرات الخارجية.»

ولكن أعداء الخليفة لم يتركوه يهنأ بالاستقرار طويلا .

---

be considered as an attempt to interfere with their independence. This feeling is strongest in Omdurman and its vicinity, and weakest among the population immediately in contact with outside influences.

Intelligence Report, 12.12.1898 quoted by Theobald p. 176.

(٤) يشير نفس التقرير إلى ان اعدادا كبيرة من القبائل الشمالية ومن المحس والدناقلة الذين هاجروا لمصر في بداية الثورة المهدية ، طلبوا من السلطات المصرية في ذلك العام السماح لهم بالعودة لأوطانهم .

لابد انها كانت اله عسكرية جبارة ، تلك التى مكنت الخليفة من ادارة عملياته ومعاركه المتصلة عبر ثلاث عشر عاما ، وبمئات الألوف من المقاتلين ، وعلى مسارح امتدت لمئات الالوف من الاميال المربعة .

تنظيم جيش الخليفة

التقسـيم القـتالى :

بعد وفاة المهدى ظل تقسيمه للقيادات الثلاث « الرايات الثلاث » سارى المفعول لفترة قصيرة . وكما سلف كانت الحملات العسكرية تتكون من وحدات تؤخذ عناصرها القتالية من الرايات وتوكل قيادة الحملة الى احد الامراء . فقد تركزت العمليات فى ثلاثة أو اربعة مسارح . ولكن بعد ان قسم الخليفة السودان الى «عمالات » أو مناطق ادارية سرعان ما اعاد تنظيم الجيش والقطر الى مناطق عسكرية . واصبح العامل هو القائد للعمالة فى نفس الوقت . وليمكن الخليفة جيشه من القيام باعبائه العسكرية والمدنية ، سواء أكانت عمليات ضد الاعداء من الخارج أو حماية الحدود أو عمليات الامن الداخلى ، فقد قسم جيشه الى عدة تقسيمات قتالية .

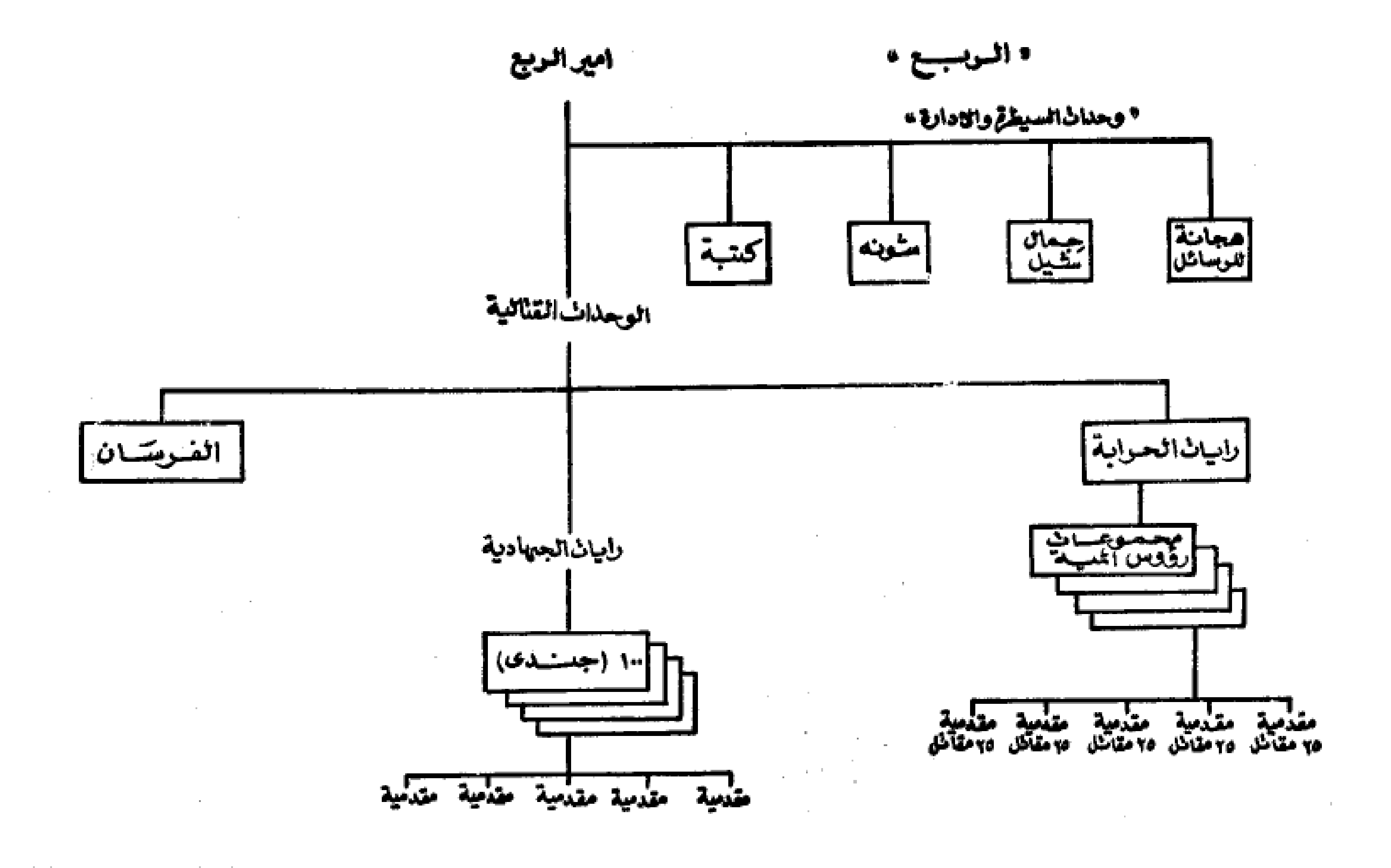
وعندما نتحدث عن تلك التقسيمات يجب ان نضع فى اذهاننا اننا لانقسم قواته المسلحة فقط ، بل نصنف كل سكان السودان من الذكور تقريبا . ففى دولة الخليفة العسكرية ، كان كل الذكور مقاتلين ، وان تفاوتت اوضاعهم بين الجنود النظاميين المستديمين ، أو المتطوعين المؤقتين فى الجيش الاحتياطى . اذ يمكننا تقسيم جيش الخليفة قتاليا الى ثلاثة اقسام :

(١) الحاميات الثابتة « العمالات » :

تتكون من جنود نظاميين مستديمين يقيمون اقامة دائمة فى ثكنات «ديم» .

(٢) المتطوعـون :

وهم كل سكان القطر من الذكور الذين توزعوا فى ارجاء القطر الواسعة وتكونوا من مختلف القبائل ومختلف المهن .



« الربع »
أمير الربع
« وحدات السيطرة والإدارة »
هجانة للوسائل
جمال ثقيل
شونه
كتبة
الوحدات القتالية
رايات الحرابة
مجموعات رؤوس المية
مقدمية ٢٥ مقاتل
مقدمية ٢٥ مقاتل
مقدمية ٢٥ مقاتل
مقدمية ٢٥ مقاتل
مقدمية ٢٥ مقاتل
رايات الجهادية
١٠٠ (جندي)
مقدمية
مقدمية
مقدمية
مقدمية
مقدمية
الفرسان

رايات الجهادية عدد من التعايشة كمدربين وللتوجيه الديني والتربية العسكرية.

وقد بدأت نواة الجهادية كما شاهدنا من جهادية الحكم السابق .وكانوا فى البداية مجموعة واحدة تحت قيادة ابي عنجة ، ولكن الخليفة سرعان مابدأ فى التوسع فى استيعابهم لتعويض خسائر حروب الحبشة التى ابادت اغلبهم من ناحية ، ولانه احسن تقييم كفاءتهم القتالية من ناحية أخرى . فقرر ان يصبحوا عنصر دعم لكل وحداته ، فتم توزيعهم على كل ارباع وحداته القتالية فى كل الجيش . والتوسع فى استخدام الجهادية دفع الخليفة الى اصدار منشورا يحرم فيه بيع « المردان » طوال القامة معتدلى الاجسام الصالحين للخدمة العسكرية فى الاسواق ، بل يباعون للدولة بسعر حدد بثلاثين ريال مجيدى . وبذلك احتكر الخليفة بيع الذكور لتغذية وحدات الجهادية . والجهادية يوسمون [1] بحرف «ج» فى يدهم اليسرى . وهى الوحدات الوحيدة التى كان جنودها يتلقون مرتبات شهرية منتظمة قدرها نصف ريال مجيدى وربع اردب ذرة . والجهادى يحمل بندقية واربعة احزمة رصاص تعلق على كتفه .

٣ ــ **الخيالة :** اغلب عناصر قوات الخليفة الراكبة كانت من البقارة ، واعتمد الخليفة على استيراد الخيول من دارفور . وقد خصص لكل ربع عدد من الفرسان انحصرت واجباتهم فى الاستطلاع الاستراتيجى البعيد أو العمليات التصادمية اثناء المعركة التكتيكية "Shock Tactics" وفى الغالب كانت همة المقاتل واستطاعته المادية لاقتناء الجواد هى التى تحدد ما اذا كان يقاتل راكبا أم راجلا (ماعدا الجهادية فكلهم مشاة) لذا كانت اعداد الخيالة غير ثابتة . ورغبة الافراد الطبيعية فى القتال من على ظهور الخيل كفت الخليفة مشقة شراء الخيول وتوزيعها على الجيش . والفارس مسلح بحربة طويلة وسيف يتقلده على جنبه الايسر . واذا كان واجبه الاستطلاع

---

(١) يبدو ان الدافع لذلك الاجراء لم يكن لتمييزهم بل لتسهيل العثور عليهم اذ كانوا كثيرى التغيب والهروب فاغلب كشوفات الجرائم العسكرية توضح ان نسبة المخالفات وهجر الصفوف كانت عالية وسط الجهادية .

فهو يحمل بندقية وسبعة احزمة ذخيرة . وكل الفرسان يلبسون عمائم حمراء وحزام احمر ؟

٤ ـ **العناصر الادارية وعناصر السيطرة للربع :** لكل امير ربع عناصر ادارية وعناصر سيطرة تتكون من الكتبة وشونة الغلال والجمال لحمل المؤن ولتوصيل الرسائل اذا كان الربع يعمل في منطقة منفصلة .

٢ ـ حامية امدرمان

تستحق حامية ام درمان وقفة قصيرة . فهي الحامية التي خاضت معركة كرري كما مثلت اكبر حشد عسكري للخليفة في الظروف العادية ، بل تجاوزت جميع حشود الخليفة العسكرية في بقية المناطق اضعافا ، فيما عدا بعض الحالات النادرة كحروب الحبشة أو سنوات عثمان جانو العنيفة في دارفور . وان برر المؤرخون اسباب ضخامتها برغبة الخليفة في تأمين عاصمته من الانقلابات المسلحة خصوصا بعد تمرد الاشراف ، الا ان هنالك اسباب لاتقل اهمية حتمت ان يتجاوز تعداد حامية امدرمان اكثر من أربعين الف مقاتل في اغلب الاحيان .

فقد مثلت حامية امدرمان احتياطي الخليفة الاستراتيجي . وجعلها موقعها الجغرافي عاصمة للخليفة وبالتالي مكان قيادته العامة ، ومركزا تجمعت فيه وحداته الادارية ، ومخازنه ، وصناعته العسكرية ، ورئاسات الرايات الثلاث ، وبالذات الراية الزرقاء ، او « مركز التجنيد للمتطوعين » . فبعد حل الراية الصفراء . اصبحت الراية الزرقاء هي الراية التي ينضوى تحت لوائها كل المقاتلون المتطوعين . حتمت كل تلك الاسباب ان تصبح حامية ام درمان مركزا لاكبر حشد عسكري . وقد انقسمت الى ثلاثة اقسام :

١ ـ وحدات الرئاسة التي تتبع للخليفة مباشرة وهي تضم حرسه الخاص والملازمين .

٢ ـ الراية الزرقـاء .

٣ ـ الراية الخضـراء .

وحدات الرئاسة والملازمين :

كان الملازمون مجرد حرس خاص للخليفة فى البداية : ولما بدأ فى التوسع وزيادة عدد الملازمين ليجعل منهم القوة الضاربة الرئيسية فى جيش المهدية ، فصل حرسه الخاص ليصبح تحت قيادته المباشرة وتولى ابنه شيخ الدين قيادة الملازمين .

حرس الخليفة الخاص : — تكون من الفى مقاتل سلحوا جميعا بالبنادق ، وقسموا لربعين بقيادة بخيت جاموس، وفضلى جانقى . والربع الاول كان ربع الامدادية وكلهم يحملون بنادق الرمنجتون.اما الربع الثاني فقد قسم لعدة اقسام وهي

الخشخشان : وهم يحملون بنادق صيد الافيال وكانت تسمى ربع مدفع . ميزتهم صديرية حمراء فوق الجبة .

المشمراتية : هم رجال طوال القامة ضخام الاجسام اختيروا بدقة وتجمعوا فى رايتين سلحوا بحراب طويلة ويلبسون جبه شمرت سراويلها الى مافوق الركبة ولايلبسون العمم بل يلبسون طاقية ضخمة ذات قرنين « ام قرينات »

البلطجيه : وهم عدة مقدميات كان افرادها يحملون بلطات ضخمة .

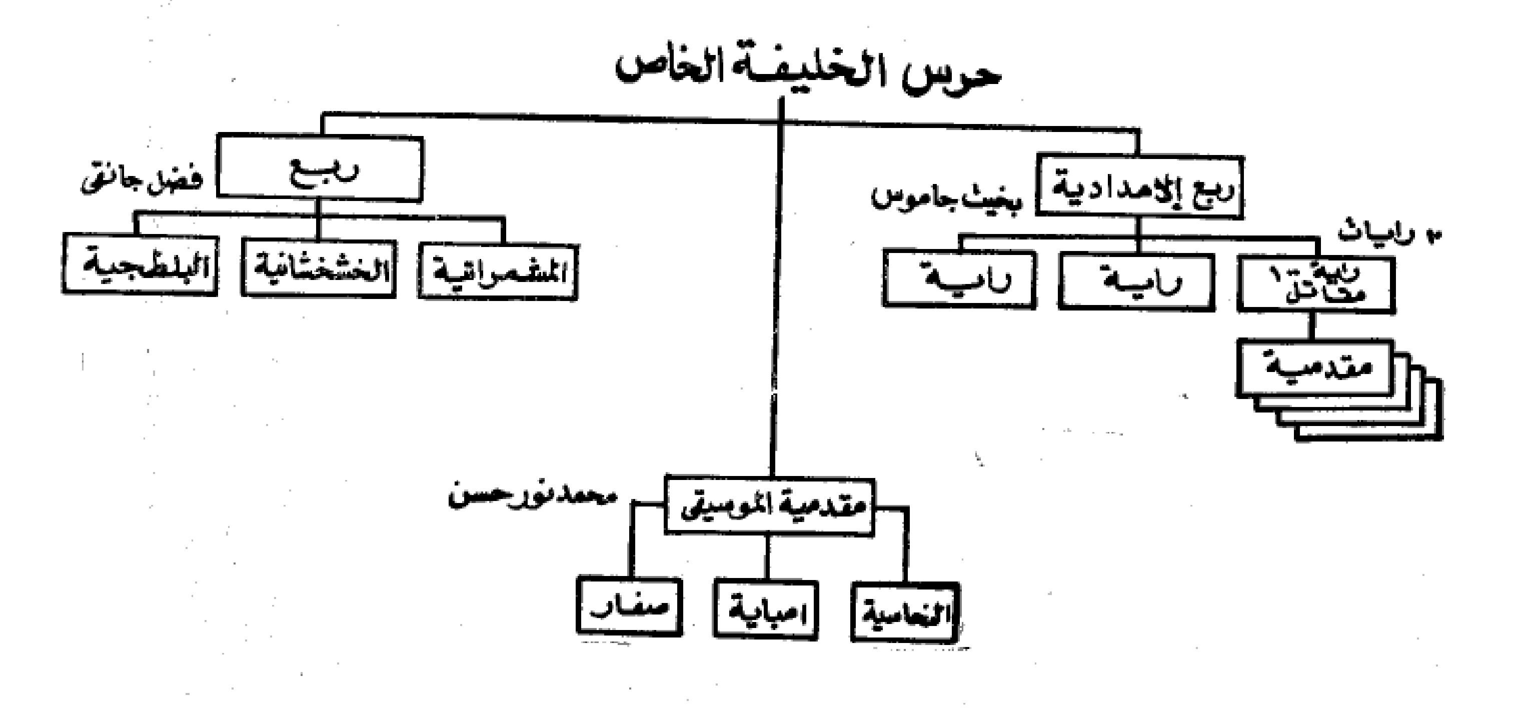
كان الخليفة يهتم بمظهر حرسه الخاص اهتماما كبيرا ويتولى تصميم ملابسه بنفسه وقد انحصرت واجبات الحرس فى حراسة منزله ومرافقته لاى مكان يتحرك اليه .

وحدات الموسيقى : حتى نغمات موسيقى الخليفة العسكرية وتكوين وحداتها كان انعكاسا صادقا للخبرات المختلفة الممتزجه فى الجيش الجديد . فقد انقسمت لثلاثة اقسام:

أ — جماعة الآلات النحاسية واغلبهم كانوا من جنود جيش الاحتلال ممن وقعوا فى الاسر .

ب— جماعة الصفارة وهم حملة الابواق والآلات المختلفة الايقاع على نمط موسيقى الفور

ج — جماعة الامباية وهم أربعة عازفين يحملون الامباية « الامباية عبارة


حرس الخليفة الخاص
ربع الإمدادية
بخيت جاموس
٢ رايات
راية ١ محاذق
راية
راية
مقدمية
ربع
فضل جانق
المشمراتية
الخشخشانية
البلطجية
مقدمية الموسيقى
محمد نور حسن
النحاسية
امباية
صفار

عن ناب فيل ضخم مجوف» وعندما ينفخ فيها يصدر صفيرا حادا عاليا يسمع لمسافات بعيدة وكانت الفرقة تعزف عند خروج الخليفة للعرضة أو لتجميع المقاتلين .

ب – الملازمين :

بعد محاولة الاشراف الانقلابية وبعد ان ابادت حروب الحبشة قوته النظامية الممثلة فى الجهادية ، بدأ الخليفة فى تجنيد نخبة ممتازة من الجنود النظاميين المستديمين بدرجة عالية من التدريب والتسليح .

وقد بدأ فى تجنيدهم من مصدرين : من ابناء زعماء القبائل والعشائر المنتخبين ومن السود الذين احتكرت الدولة شراءهم . وقد نما الملازمين الى ان اصبحوا جيشا قويا ، ثم ضم اليهم الخليفة بعض جهادية جيش الغرب واوكل قيادتهم لابنه شيخ الدين . وقد انقسم الملازمين الى قسمين :

١ – الملازمين بقيادة شيخ الدين (١)

٢ – الكاره تحت قيادة ابراهيم الخليل

تكون الملازمين من ١٦ ربعا سلحت كلها باحسن واحدث بنادق الرمنجتون يقود كل ربع امير ربع . وقسمت الارباع الى عدد من الرايات تتراوح بين ثمانية واثنى عشر راية . تكونت كل راية من ١٠٠ مقاتل كتنظيم الجهادية وعلى راس كل راية امير .

ملازمين الكارا :

وهم بقايا جهادية ابو عنجة القدامى . وقد قسموا الى ستة ارباع (٢) بنفس طريقة الملازمين .

وليتفرغ الملازمين للتدريب ولواجباتهم القتالية خصص لهم الخليفة مرتبات

---

(١) كان قائد الملازمين فى البداية هو فضل المولى صابون وعزل بعد انضمامه للاشراف

(٢) الواضح من كشوفات الأمير يعقوب ان جزءا كبيرا من الكارا كانوا قد طعنوا فى السن ولكن ظلت اسمائهم ثابتة فى الكشوفات ويصرفون المرتبات بكشوفات الكارا فالرواجع تقسمهم إلى قسمين ويكتب امام كل ربع « قادرين » و« غير قادرين » أى طعنوا فى السن .

منتظمة تبلغ نصف ريال ونصف اردب ذرة شهريا كما شيد لهم ثكنات دائمة [1] وجعل لهم بيت مال منفصل عن بيت المال العام . وقد خصصت اغلب ايرادات عمالة الجزيرة الغنية من الحبوب لتمويل بيت مال الملازمين والكارا ، وفصل سلاح الملازمين من بقية حامية امدرمان وعين له بيت امانة منفصل ، كما كانت لها وحدة موسيقية منفصلة .

الملازمين

	عدد المقاتلين	عدد الخيول	عدد البنادق
حرس عثمان شيخ الدين	٢٤٧٤	٢٧٦	١٨٠٣
ربع العريفى الربيع	١٨٥٠	٢٧٠	١٢٣٦
جابر ابو شليخات	٨٠٠		
ابراهيم جابر	١٢٣٠	١٩٠	٦٨٧
آدم اسماعيل	١٢٣٠	١٨٥	٦٥٥
احمد حامد	١١٠٠	١٥٠	٤٢٠
فضل بشارة	١٢٥٠	٨٠	٢٥٠
ابراهيم مالك	١٥٢٠	٢٣٠	٦٢٠
ابراهيم الخليل	١٦٠٠	١٣٥	٧٣٠
عثمان ادم	١٤٢٠	١٤٥	٥٥٠
جابر فضل	٢١٠٠	٢١٥	٧٥٠
عبد المجيد ابو ساق	١٣٧٠	١٨٠	٧٥٠
مسعود	١٣٥٠	١٤٥	٥٧٠
عبد الله ادم	١٩٠٠	١١٠	٩٩٠
ربع رابح الحبشى	١٩٢٠	١٩٥	٦٠٠
ربع الطاهر على	١٧٨٠	١٥٠	٥٤٠
محمد ابو سعد	٧٥٠	٩٥	١٨٠
عيسى زكريا	١٠٥٠	٦٠	٤٧٠

(١) مكان حى الملازمين الحالى .

الراية الزرقاء :

كان للراية الزرقاء وضعا مميزا فلم تكن وحدة قتالية عادية . ففى البداية كانت الراية الزرقاء هى كل جيش المهدى ، ثم اصبحت الراية الرئيسية لكل الجيش ، ولما قسم الجيش الى ثلاث رايات اصبحت تضم مقاتلى الغرب والسودان، ولما قسم الجيش قتاليا لمناطق واصبح الملازمين هم القوة الضاربة الرئيسية ، تحولت الراية الزرقاء الى شبه تجمع للجيش الاحتياطى ،الذى يستدعى كلما حتمت الظروف استدعائه . وهناك عاملان مهدا لذلك الوضع . اولهما ان اميرها ، الامير يعقوب ، كان هو القائد العام لكل الجيش وهو الذى يصدر اوامر استدعاء الاحتياطى ؛ وثانيهما كان تصفية والغاء الراية الصفراء . فقد اضيف كل مقاتليها اهل الشمال والجزيرة الى الراية الزرقاء ،فانتفت عنها صفة الاقتصار على اهل الغرب . واصبحت تضم كل العناصر غير النظامية بالاضافة لكل سكان ام درمان بغض النظر عن قبائلهم ممن لم ينضووا تحت الحاميات أو الملازمين أو الراية الخضراء . فاصبحت اشبه بمركز حشد وادارة تجنيد منها بوحدة مقاتلة . وقد تسببت كل هذه العوامل فى ان الراية الزرقاء لم تمر على الاطوار التى مرت بها بقية وحدات الخليفة . فتنظيم مجموعة الربع القتالية لم يكن هو التنظيم السائد فى حشود الراية الزرقاء واتخذ على نطاق محدود ، اما التنظيم السائد فقد كان هو تنظيم رايات القبائل وفروع القبائل بقيادة الزعماء الذين يتولون تجميعهم . ولذا تفاوتت احجام الرايات بين الالوف احيانا ، والعشرات احيانا اخرى ، حسب اعداد القبائل وحيوية زعمائها ومقدرتهم على الحشد . فالراية الزرقاء اعتمدت اذن على التحشد القبلى وليس على تنظيم قتالى . وهناك امر لايقل اهمية ساهم فى ان يتخذ تنظيم الراية الزرقاء ذلك الوضع وهو واجبها التكتيكى نفسه . فقد مثلت الراية عنصر اقتحام صرف لحامية امدرمان لانها اشتملت على الحرابة فقط . فبينما مثل الملازمون والمدفعية عنصر النيران فى حامية امدرمان مثلت الراية الزرقاء عنصر الاقتحام الرئيسى . لذا اختفت من صفوفها بقية العناصر القتالية الموجودة فى الارباع النظامية، كالجهادية والمدفعية، فقد كفلت نيران الملازمين توفير عنصر النيران لكل حامية ام درمان ، ومن ثم انحصر تنظيم الراية الزرقاء فى الرئاسة ،وانضوت تحتها ومباشرة رايات القبائل

المختلفة ، سواء كانوا مشاة أو فرسانا ثم تنقسم الرايات الى التقسيم المعهود أى الى مجموعات رؤوس ميه ثم مقدميات اذا كانت الراية كبيرة ، او تظل كما هى ان كانت راية صغيرة . ولم يكن للراية الزرقاء بيت مال أو بيت امانة أو عناصر ادارية أو كتبة أو مساعدين منفصلين ،فبحكم وضع قائدها وهو القائد العام لكل الجيش اصبحت تلك الواجبات تصرف ضمن واجبات القيادة العامة . فبيت المال للجيش العام كان هو ايضا بيت مال الراية الزرقاء ، وكتبة الامير يعقوب هم يضا كتبة الراية الزرقاء .

«الراية الزرقاء»

القيادة (الامير يعقوب) تخدم الامير يعقوب كقائد للراية الزرقاء نفس عناصر السيطرة والادارة التي تخدمه بصفته مسئولاً عن كل الجيش .

رايات كبيرة تنظمت كأرباع - ٩٠ رايات

راية كبيرة

راية كبيرة

راية كبيرة

مجموعات (رماح) رمية

فرسان

مقدمية

رايات صغرى ٤٣ راية

	عدد المقاتلين	عدد الخيول	عدد البنادق
راية الامير مسلم عيسى « الحمر »	١٦١٠	٤٢٤	—
،، آدم جابر « مسيرية »	١٣٠	٣	—
،، حسب الله عثمان المكى «محاميد»	٧٧٠	٦	—
،، عبد الرحمن احمد «بديرية»	٢٠٧	—	١١٠
،، حاج ابراهيم «برنو »	٧٢	٢	
،، بيلو الداداى «فلاته»	٩٠	—	١٢
راية ابراهيم شمس الدين «فور»	٨٠	١	٦٠
،، صالح زيدان	٥٧	١	١٠
،، الطاهر مكى «برقو »	١٦٧	٢	٦٧
،، حامد عربي «هواوير»	٦٩	—	٢٢
،، عبد الرحمن دود «تامه»	٢٨٤	٥	٢٦
،، موسى تابر «بنى فضل »	١٨		
،، عبد الله حسين «بنى عمران»	١٧		
،، حامد نواى «بازه »	٣١		
،، ابراهيم الترجماني «تراجمة »	٢٢	—	—
،، احمد ابو جديرى «برتي»	٩٨٥	١٠	٤٠٠
،، دوديه «جوامعه »	٢٢٧	٤	٦٥
،، اسطى محمد «باقرمه»	١٠٥	—	٦٠
راية حسبو محمد «زغاوه»	٩٧	١	٤٢
،، بخيت النمامامى . . «التمامات »	١٣٥		١٠٢
،، حامد جبر الدار «مسبعات »	٤٤	—	—
،، شيبو «ميدوب»		١٢	
،، عبد الرحمن انبار «نوبه »	٦٥		

	عدد المقاتلين	عدد الخيول	عدد البنادق
،، احمد حمزه «سعداب»	٦٦		
،، اولادالبلد«بقاياعكاشهوفركهوعطبره»	٨١٣	٩	
،، يوسف ابراهيم«سابقاميخائيل»«اقباط»	٧٤		
،، جابر «سابقا» «جرجس كادماين» « سوريين واغريق ويهود ـ سميت بالمسلمانيه	٤٣		
،، فضل الله فضل المولى « شنابله »	٢٤٥	٢	
،، محمد ود نوباوى «بنى جرار »	٣٢٥	٢	
،، تمساح ام بده «دارحامد »	٤٠٣		
،، محمد زروق «معاليا »	١٢٥		
،، عوض السيد قريش « كبابيش »	٦٩٧		
،، مكاوى احمد « ركابية »	١٣٠		
،، جابر الطيب «دناقله »	٢٨٧		
،، احمد جمال الدين «جعليين »	٤٣٠	٤	
راية محمد الباهي التعايشي ـ انشئت حديثا لتضم فلول فركة وعطبرة	٧٦٠	٣٤	
راية عثمان الدكيم «تعايشة»	١٣٩٦	٤٢٧	
،، محمود عبد الكريم «هبانية»	٤٨٥	٢٠١	
،، محمد حديد « حمر »	٢٤٢	١١٥	
،، يسن فضل « رزيقات »	٥٨٦	١٧٥	
،، حامد موسى «هواره »	١٦		
،، رضوان آدم « بنى هلبه »	٢٨٣		
،، جاد الله عيسى «زياديه »	٧٨٨		

الراية الخضراء :

كان وضع الراية الخضراء من حيث التسليح اقرب للراية الزرقاء . اما تنظيمها فقد توسط بين الخطوط العريضة لتنظيم الراية الزرقاء التي اعتمدت على التقسيم القبلي من الناحية التعبويه ، ولكنه اعتمد على تنظيم الملازمين « الارباع » من الناحية القتالية . وقد امكن تطبيق التنظيم القتالي الاخير على الراية الخضراء بسهولة . فعلى الرغم من انها مثلت حشدا قبليا ، الا ان انحصار عد القبائل التي ضمتها « قبائل النيل الابيض » مكن من تطبيقه بسهولة . وقد انتظمت تلك القبائل تحت ثلاث مجموعات رئيسية هي رايات دغيم وكنانة واللحويين بالاضافة لراية فرسان دغيم .

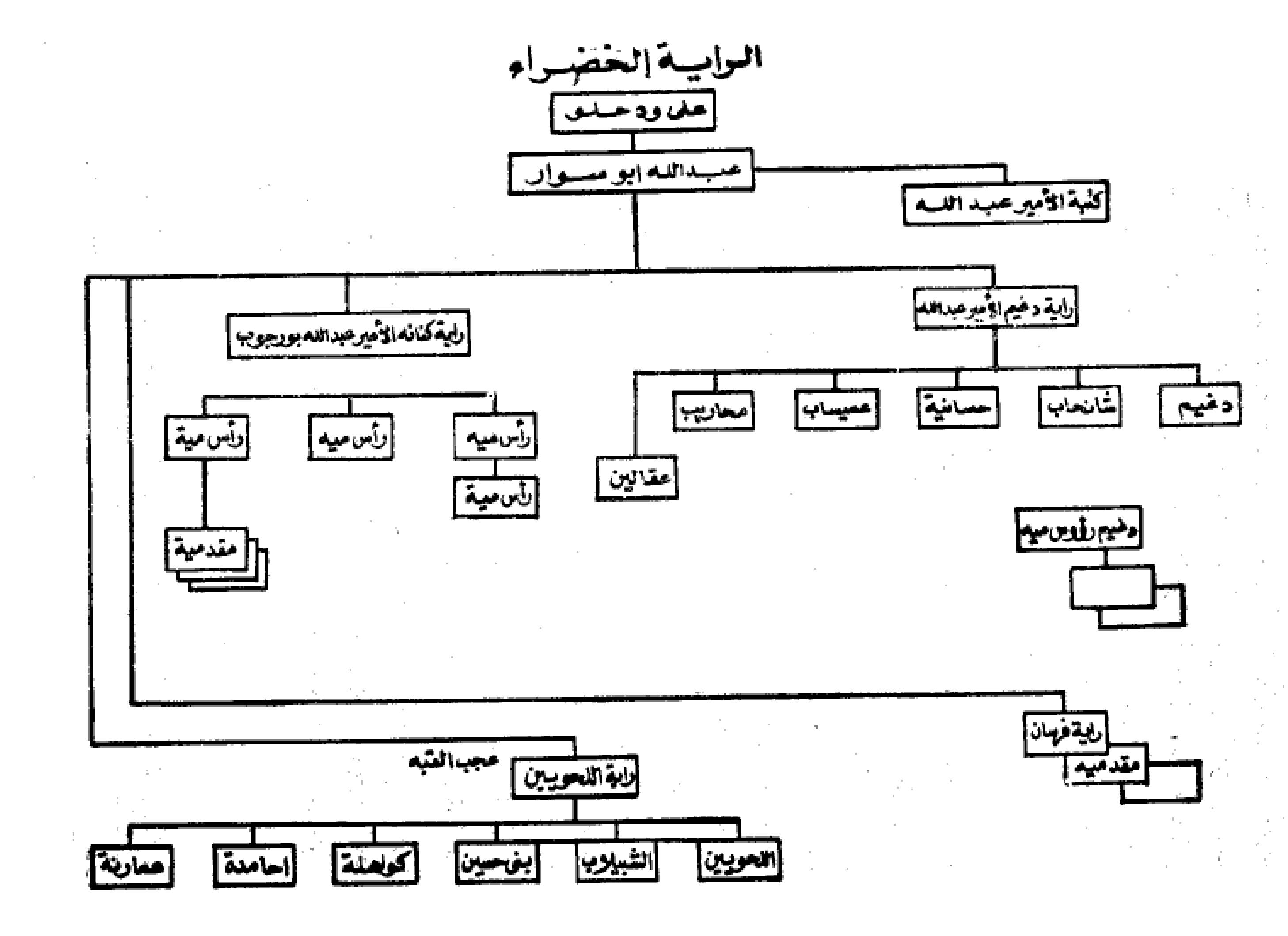
وكانت حامية امدرمان تقدم استعراضا عاما فى كل يوم جمعة يسمى بالعرضة والوصف الذى قدمه شقير للعرضة كان كالآتي :

« قالوا انه كان اذا اراد الاستعراض عندهم بالعرضة او الطرّ امر من الفجر بضرب نحاسه « المنصورة » المشهور الذى وضعه فى محل مرتفع فى بيت الامانة . فاذا سمع الناس صوت النحاس هرولوا الى الجامع فصلوا صلاة الصبح وقرأوا الراتب . ثم ذهب البيرقدارية الى بيت الامانة فأتوا بالرايات وانضم كل رجل الى رايته وساروا فرسانا ومشاة وهم يهللون ويكبرون الى محل العرضة فى ساحة فسيحة غربي المدينة تتقدمهم الراية الزرقاء فالراية الخضراء فالراية الصفراء فيقف الكل صفوفا مستقيمة من الجنوب الى الشمال متجهين نحو الشرق .

اما جهادية الكارة فانهم يأتون رأسا من كارتهم ويقفون فى الجنوب والى يسارهم الراية الزرقاء، فالراية الخضراء، فالراية الصفراء، فى اقصى الشمال ويقف الامراء على خيلهم كل عند رايته فى الصف الاول ويقف يعقوب والخليفة على ود حلو، والخليفة شريف، كل على جواده عند رايته العامة بارزين عن الصف الاول . ثم يأمر الخليفة فتضرب الامباية فيخرج جيش الملازمية ببنادقهم يتقدمهم شيخ الدين على جواده ويتبعه الارباع الستة عشر ربعا ربعا صفوفا متوالية فى كل صف من ٦ — ١٢ رجلا وامام كل

الراية الخضراء

	عدد المقاتلين	عدد الخيول	عدد البنادق
ربع الامير عبد الله احمد ابوسوار «دغيم»	١٨٤١	٥٣٢	
،، راية الشانخـــاب	٢٤٥	٣٨	
،، ،، العبيساب	١٤٣	٢٨	
،، ،، الحســـنات	٢٨٦	٢٦	
ربع راية دار محاسيب	١٢٨	٦	
،، ،، المسلمية	١٥٠	١٢	
الامير مبارك ابراهيم « راية العقالية »	١٦٦	١٧	
،، عبد الله ادريس راية المحمدية	٥٠	١٣	
،، مقبول احمد جار النبى «الاوراب»	١٣٠	٩	
،، محمد ود احمد فضل	٢٦	٣	
،، الامير عبد الله برجوب «اللحاويين»	٤٦٨	٢٤	
الشبيلات	١١٧	٧	
بنى حسين	٦٨	٣	
العركيين	٥٥	٤	
الامير محمد ود مسيعد	٢٨٩		
راية المعاشره	١٤٢		
،، العمارنة			
،، الاحامدة			
الامير بشير عجب الفيه كنانه	٦٩٢	١٥٠	
الامير ابوبكر عامر			
راية العمارنة	٦٥		
،، الكواهلة	٤٧٦		



الراية الخضراء
علي ود حلو
عبدالله ابو سوار
كلبة الأمير عبد الله
راية دغيم الأمير عبدالله
دغيم
شانحاب
حسانية
عميساب
محاريب
عقالين
دغيم رؤوس ميه
راية كنانه الأمير عبدالله بورجوب
رأس ميه
رأس مية
رأس ميه
رأس مية
مقدمية
راية فرسان
مقدميه
عجب العتبه
راية اللحويين
اللحويين
الشبلوب
بني حسين
كولهلة
احامدة
عمارنة

ربع رايته واميره وفرسانه والبورى والطرنبية . ثم يأتي وراءهم الخليفة بقلعته فيحيط به ملازموه الاخصاء بالبنادق صفوفا اربعة من الجهات الاربع امامهم البلطجية ومن ورائهم المتشمرون ثم جوق البيدو والصفار والفروع الحربية . وفى ساقة القلعة وعن جانبيها الخشخانجية وفي وسطها الخليفة على جمل أو جواد فاذا ركب الجمل قاده محمد بشير كرار العبادى وهو رجل طويل القامة كبير الهامة ومشى على جانبيه جوادان مسرجان وحمار مسرج ومن امامه جوق الامباية ومن خلفه اصحاب النفير العسكرى لتبويق الوقوف أو السير وخلف هؤلاء خدمه الخصوصيون من الاحباش وغيرهم يحملون له ركوة الوضؤ وسعن الماء وادوات التزيين وفروة الصلاة والنعال والكبس والطبائق والرمح الذى يتوكأ عليه . ويسير الموكب الى ان يصل اول جيش الملازمية عند منزل (١) الخليفة في محل العرضة فيقف صفوفا متوالية متجها نحو الشمال على زاوية قائمة مع صف الرايات ، فيمر الخليفة بقلعته من امامه الى ان يأتي المنزل فيحيط به ملازموه ثم يخرج من بينهم مع نفر قليل فيمر بالرايات مبتدئا من جيش الكارة الى ان يأتي على آخر الجيش . وقد يقف في مروره عند امير فيخاطبه قائلا السلام عليك يافلان طيبين يا الاخوان الله يوديكم البركة يا انصار الدين الله يوديكم العافية ياالاخوان هذا والامير ورجاله يؤمنون على دعائه . ثم يرجع الى منزله فيستريح قليلا ويامر الامراء فيشيعون الرايات الى بيت الامانة ثم ينصرفون الى اماكنهم ويرجع اصحاب الخيل منهم الى ساحة العرضة لتشييع الخليفة الى منزله . ثم يامر جيش الملازمية فيرجع الى السور براياته ويعود بقلعته على نحو ماجاء ووراءه الفرسان الى ان يصل منزله فيدعو لهم فيؤمنون وينصرفون » .

جيش الاحتياط :

لئن تعرضنا فى الصفحات السابقة للقسم الرئيسى من آلة الخليفة العسكرية

(١) استراحة العرضة

وهى العمالات أو المناطق العسكرية والحاميات الثابتة ، فالقسم الثاني المكمل ، وهو جيش الاحتياط ، كان يعتبر كعناصر معززة للقسم الاول ، تستدعى عند الحاجة لتعزيز وحدات المناطق العسكرية ، أو كلما شعر الخليفة بانه ترك الحبل على الغارب لمقاتلى جيشه الاحتياطى وان الروح العسكرية (الجهاد) تحتاج لبعض الشحذ فيستدعيهم(١) لام درمان ويمضون فترة من الزمن فى معسكرات للتوجيه المعنوى، يقضونها فى قراءة الراتب والاشتراك فى عرضة الجمعة الاسبوعية،ثم يعودون لاوطانهم ومراعيهم . وجيش الاحتياط تكون تقريبا من كل سكان السودان الذكور ، أو من كل من استطاعت يد الخليفة الوصول اليه فى تلك الارجاء الشاسعة . والملفت للنظر في جيش الاحتياط هو نظام التعبئة الذى كان متبعا .

فنظام استدعاء الاحتياطى كان يتم بطريقتين : الاولى طريقة مركزية حيث يتم استدعاؤهم لامدرمان وضمهم للراية الزرقاء تمهيدا لارسالهم للانضمام للحملات المختلفة . وبالطبع كانت هذه هي الطريقة المفضلة للخليفة، فهى ترضى رغبته المحمومة فى المركزية وتضع مقاتليه تحت رقابته المباشرة . ولم يمنعه منها الا إعراض المقاتلين ، أو عدم تمكنه من الوصول اليهم لاجبارهم على الهجرة . اما الطريقة الثانية فهى نوع من التعبئة المحلية يقوم بها قادة المناطق وتم فى الغالب اذا اصبحت المنطقة نفسها مسرحا للعمليات . وهى تستخدم فى عمليات الأمن الداخلى ومقاومة الثورات ، كما حدث فى دارفور، عندما جمع عثمان آدم قبائل البقارة لمواجهة عصيان ابو جميزة ، او لمواجهة بعض قبائل البقارة الأخرى التى اعرضت عن الهجرة ، بل وتعرضت لمن حاولوا الهجرة لامدرمان ، أو عندما قام محمود ود احمد بتعبئة محلية ضخمة فى دارفور وكردفان تمهيدا للتحرك ومواجهة الغزو الشمالى . وقد جرت العادة ان يكتب الخليفة تعليمات الاستدعاء بنفسه ويوجهها لامراء جيش الاحتياطى لتعزيز اوامر التعبئة الصادرة من العامل . كما حدث فى حملة ود النجومى لمصر عندما كلف امراء قبائل الشمال بالانضمام لود النجومى مباشرة .

---

(١) اثبتت كشوفات يعقوب ودراسة موسى المبارك لعمليات التهجير لسكان الغرب مثلا ان الخليفة كان يستدعى بعض وحدات جيشه الا حتياطى بين الفينة والا خرى دون ان تكون هناك نية لا ى بوادر حملة عسكرية .

اما تعليمات الاستدعاء للتعبئة المركزية بامدرمان فتصدر من الخليفة كتابة وترفق مع خطابات من الخليفة للعامل ليتولى توصيلها . وفى العادة تكتب اوامر استدعاء الاحتياطى الموجودة فى اوراق الامير يعقوب بالصيغة الآتية :

« بيان الانفار المجاهدين ومطلوب تنفيذهم واصلهم من راية — الصادر بها الاذن من سيد الجميع الى سيدنا الامام المهدى عليه السلام ومتخلفين باوطانهم ومطلوب حضورهم بوجه العجلة كالموضح ادناه . . . . »

وعند وصولهم كافراد يجرى توزيعهم على رايات الحرابه فى الارباع أو وحدات الفرسان أو يتوجهون مباشرة لتعزيز الحاميات أو ينضوون كافراد تحت رايتهم الاصلية ، التى انضوت بدورها تحت الراية الزرقاء .

التسلسل القيادى

كان التسلسل القيادى المتدرج من الفرد المقاتل فى القاعدة والى القمة التى تمثلت فى الخليفة ، يمضى بطريقة متوازنة مضمونة تمكن الخليفة من توجيه طاقاته العسكرية باحكام وضبط . وقد تدرجت الحلقات الرئيسية فى هذه السلسلة كالآتي :

(١) **الخليفة** — هو القائد الاعلى المسئول عن توجيه الطاقات العسكرية وتطويرها وعن الاستراتيجية العليا والتخطيط العام للنشاط القتالى . اما خطط العمليات العسكرية فتوضع بعد عدة مؤتمرات . اهمها المؤتمر السنوى الذى يعقده سنويا فى عيد الرجبية ويشترك فيه كل قادة الوحـــدات وقادة المناطق العسكرية وتضع فى نهايته الخطــوط العامـــة للعمليات العسكرية للســنة القادمـــة . وتتم مناقشة تفاصيل هذه العمليات فى مجالس حربية شبه يومية أو عدة مرات يوميا يشترك فيها الخلفاء ، والقضاة ، والمستشارين ، أو مؤتمرات فى فترات غير منتظمة يحدد الخليفة المشتركين فيها ، وفى العادة تحدد لامراء او زعماء منطقة بعينها ستصبح مسرحا للعمليات . وتصدر أوامرها كتابة كما حدث كما حدث عندما قرر الخليفة أن يبعث محمود ود احمد للشمال . فقد اســتدعى زعماء « الجعليين المقتضى حضورهم وتوجيههم لخليفة المهدى بالبقعة حسب طلبه واشارته . . . . »

(٢) **الخلفاء** — مثل الخليفتين حلقة ضعيفة فى السلسلة القيادية . فقد كان دورهما اسميا وشرفيا اقتصر على حضورهم المجالس الحربية المنعقدة فى امدرمان ، خصوصا بعد تجريدهما من الاسلحة والجهادية والنحاس الخاص بهما .

(٣) الامير يعقوب — « امير جيش المهدية » كان الامير يعقوب هو الموجه الفعلى والمنفذ للسياسة العسكرية والمسئول عن الادارة اليومية لشئون الجيش ، فكل ما اختص بشئون المناطق العسكرية أو الحاميات كانت تعليماتها تصدر من يعقوب . والامور العادية كانت تصدر باسمه اما الامور الهامة فكانت تصدر

باسم الخليفة وبختمه ، وكذلك الامر في المراسلات الصادرة من قادة المناطق العسكرية ، فجزء كبير منها يوجه ليعقوب مباشرة ، ويوجه الجزء الآخر للخليفة ليفوض يعقوب بالتصرف فيها . وقد حتم وضع يعقوب ، المدير الفعلي للقيادة العامة ، ان يصبح كل امناء ووكلاء الاسلحة الادارية المركزة في العاصمة والتي تخدم كل الجيش تحت قيادته الفعلية بالاضافة لبعض قادة الوحدات القتالية . ومن ابرز هـؤلاء :

أ ــ امير مدفعية الخليفة :

تجمعت اغلب مدفعية الخليفة في ام درمان وكان يعقوب يلحق المدافع للمناطق العسكرية حسب سير العمليات . وقد قسمت المدفعية الى بطاريات حسب الكشف الذي قدمه يوسف منصور (قائد ثاني المدفعية) والمسئول عن تشييد ابراج واستحكامات المدفعية للامير يعقوب (1) :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، صورة كشف محرر بمعرفة يوسف منصور بيان توزيع المدافع على بطاريات عند البطارية الاولى رئاسة محمود عبد الرحمن ومعه الطاهر احمد :

١ كروب ٦ ٢ متريوز ١ قبص كبير ٢ جبلي

البطارية الثانية رئاسة محمد عبد العالم ومعه فريحه الشويح :

١ كروب ٢ متريوز ابو عشره ١ متريوز ابو خمسة ١ شرخه كروب ٦ جــبلي .

البطارية الثالثة رئاسة ابو زيد جبر ومعه ابكر الحاج :

١ كروب ٢ متريوز ابو عشره ١ اوردي مخشخن ٦ ٢ جــبلي

البطارية الرابعة رئاسة سالم عرابي ومعه عربان يوسف الانصاري :

١ قس ١ شرحه كرولي ٣ جبلي ٦ ١ متريوز ابو خمسة

البطارية الخامسة رئاسة احمد الشورالي ومعه نجم الدين التجزاوي :

---

(1) صورة طبق الأصل .

١ كروب ١ متريوز ابو عشره ١ شرخه كرولى ١ جسى ٢٦ جبلى

البطارية السادسة رئاسة سيد احمد معه خليل احمد :

١ قسى ١ متريوز ابو خمسه ١ جسى ١ اوردى مخشخن ٢٦ جـــبلى

البطارية السابعة رئاسة سالم على ومعه طيفور جلال الدين :

١ كروب ١ متريوز ابو عشره ١ جسى كرولى ١ اوردى مخشخن ٢٦جبلى

البطارية الثامنة مقدمية احمد الغزالى ومعه عباس البرقاوى :

١ متريوز ابو عشره ٢ شرخه كرولى ٣ جبلى

البطارية التاسعة رئاسة عبد الرحمن ماحي ومعه الطاهر القروى :

١ كروب ١ متريوز ١ شرخه كرولى ٣ جـــبلى

البطارية العاشره رئاسة عبد الرحمن ومعه محمد احمد محمد أبو قرين :

١ متريوز ابو عشره ١ قسى ٤ جبلى

البطارية الثالثة عشر رئاسة على مصر ومعه ابراهيم كوكو :

١ مدفع رامنجتون ٥ جبلى

جملة المدافع :

٦ كروبات، ٨ متريوزابو عشره ارواح، ٥متريوز ابو خمسة ارواح، ٢جسى ١ رامنجتون، ٣٠ جبلى، ٢ قسى، ٣ اوردى، ٦ شرخه صغيرة كروى واحد كبـــير ٦٦ » .

ب ـ امين بيت المال العموم :

لم تكن موارد بيت المال تصرف على الجيش فقط ، بل على كل منصرفات الدولة ، ولكن الجزء الاكبر من ايراده خصص لتغطية منصرفات حامية امدرمان ووحدات القيادة العامة الادارية بامدرمان ، فلكل منطقة بيت مال منفصل كما سبق . وكان بيت المال العام يتولى صرف مرتبات الجنود، وصرف احتياجات المصانع، ومعدات الصيانة، فلم يحتفظ فيه بالنقود والحبوب فقط ، بل كان مخزنا مركزيا يضم كل الاحتياجات ماعدا السلاح والذخيرة . وقد تولى الآتية اسماؤهم وظيفة وكيل بيت المال فى فترة المهدية :

احمد سليمان . ابراهيم عدلان . النور الجريفاوى . العوض المرضى . ابراهيم رمضان . الحاج احمد يس .

ولامين بيت المال عدة مساعدين اهمهم :

امين شونة الجيش بالموردة : « محمد احمد مضوى »

« وهى خلاف الشونتين العامتين شونة بيت المال وشونة الملازمين » وهو المسئول عن تخزين الحبوب وصرفها لحامية امدرمان وتكملة نقص الحبوب فى بيوت مال المناطق العسكرية ولتمويل الحملات العسكرية المتحركة من امدرمان .

ج ـ وكيل هجانة البوستة : (كرار بشير العبادى)

كانت فصائل هجانة بريد الخليفة ويعقوب تستخدم لتصريف كل شئون الدولة ولكن شئون الجيش استأثرت بالطبع بنصيب الأسد . وقد قسمت سرية مواصلات الخليفة الى فصيلتين :

١ ـ الفصيلة الاولى ٤٠ جمل بقيادة المقدم كرار بشير كرار العبادى

٢ ـ الفصيلة الثانية ٣٠ جمل بقيادة المقدم الطيب عبد الكريم

د ـ وكيل ورش لجبخانة :

لقد قسمت مصانع الذخيرة الى ثلاث مجموعات مثلت تطور مراحل انتاجها من تنقية البارود من التربة حتى انتاجها وتخزينها فى الصناديق . وقد استغل الخليفة خبرة الدكتور المصرى حسن زكى فى الكيمياء فعينه مشرفا على صناعة الذخيرة . واشرف على المصانع الآتية :

١ ـ مصانع تنقية واستخراج البارود بادارة السيد عبد الواحد امين مخازن البارود . (صيدلى سابق) المشرف على عمليات استخراج البارود فى الحلفاية بادارة الحاج امين الفلاتى ، أو بكم بدارفور بادارة عبد القادر ابكر .

٢ ـ معمل تصفية البارود فى امدرمان : امين المصنع عبد السميع سالب « يوزباشى سابق فى جيش الاحتلال »

٣ ــ ورشة صناعة الذخيرة : مدير الورشة حسن حسنى « ملازم سابق فى جيش الاحتلال » . وامين ورشة الذخيرة الاسطى خليل خاطــر ومساعده يوسف خاطر . ورئيس عمالها ابراهيم زكى .

هـ ــ امين بيت الامانة قمر الدين عبد الجبار :

كان بيت الامانة هو الترسانة التى تحفظ فيها جميع الاسلحة النارية والمدافع والذخيرة والمواد الاولية لصنع الذخائر وقد قسمت اعمالها الى الاقسام التالية :

أ ــ المخزنجية تحت ادارة وكيل المخازن

ب ــ الكتبة

ج ــ جماعة التوفكجيه لاصلاح البنادق والمدافع وقد انقسموا لقسمين :

١ ــ جماعة اصلاح الجيش العام تحت ادارة بلوله جاد الرفيــق (توفكجى سابق فى مديرية بحر الغزال)

٢ ــ جماعة اصلاح اسلحة الملازمين بادارة السيد البرناوى .

٤ ــ قادة المناطق العسكرية « العمال » : بعد يعقوب وقادة وحدات القيادة العامة الادارية فى ام درمان يأتى قادة المناطق العسكرية . ولقب قائد المنطقة الادارى هو العامل أى محافظ أو حاكم العمالة . اما اللقب العسكرى فهو امير الامراء . والامير يدير شئون ولايته (العمالة) وشئون وحداته من عاصمتها «المركز» بواسطة الخطابات والهجانة . الا اذا دعى الداعى وتحرك هو لقيادة الحملة فالعادة تتحرك كل رئاسته معه . والافراد الذين يعملون كاركانحرب فى المركز كانوا فى العادة :

١ ــ حامل الراية « البيرقدار »

٢ ــ امير ملازمية الامير لحماية رئاسة وراية وشخص الامير

٣ ــ امين بيت المال

٤ ــ القاضى لكل العمالة

٥ ــ امير المدافع « قائد بطارية المدافع »

٦ ــ مقدم هجانة البوستة

ويتدرج التقسيم القيادى للعمالة الى قادة الارباع أو قادة حاميات صغيرة توزع فيها قوة العمالة العسكرية : امير الربع وهو مسئول بالطبع عن ادارة شئون وحداته القتالية والادارية ، أو شئون منطقته اذا كان منفصلا . ويندرج تحته امير الراية من الزعماء أو العمد أو من كبار القوم ، ثم المقدمين . ويمثل المقدمون اول درجة فى السلم القيادى . ويتضح لنا من كشوفات يعقوب وعشرات الاوراق الحافلة بمجالس التحقيق ، ان المقدم كان يتمتع بسلطات قيادية ادارية واسعة تتجاوز سلطات قائد الفصيلة العادى وهو المسئول عن الاعاشة والتدريب والقيادة فى الميدان .

المناشط

١ ــ التدريب :

كان التدريب من المناشط العسكرية التى اولاها الخليفة اهتماما كبيرا . الا ان التدريب فى جيش المهدية ، كشأنه فى أى جيش اخر ، كان يعتمد على اتاحة فرصة معقولة من فترات السلم بين الحروب . فالحروب على الرغم من انها تمثل أثمن انواع التدريب الا ان الجيوش كوحدات وافراد لابد لها من فرصة لتهضم تجاربها العملية ولتبدأ تدريبها على ضوء تلك التجارب . ولسنا بحاجة لنوضح ان جيوش المهدية لم تجد فرصة ابدا لتلتقط انفاسها منذ عصر يوم ٧ اغسطس ١٨٨١ الى ظهر يوم ٢ سبتمبر ١٨٩٨ وبالتالى لم تتح لها الافرصة ضئيلة جدا لتتلقى تدريبا فى دورات منتظمة على الرغم من حماس الخليفة للتدريب ، وارساله عشرات من المناشير لقادته العسكريين حاثا اياهم على تدريب المجاهدين (وتربية الجهادية) . ومن ناحية اخرى كان اعتماده على نسبة كبيرة من غير النظاميين وعدم تفرغ هؤلاء للخدمة العسكرية المتصلة ، وطريقة استدعائهم من مراعيهم ومزارعهم وتوجيههم مباشرة لميدان القتال ، ادى ذلك الى مضاعفة القصور فى نواحى التدريب . لذا نرى تفاوتا شاسعا بين نوعية ومعيار التدريب الذى كانت تتلقاه وحدات الخليفة المختلفة . ونلاحظ ان استمراره وفعاليته وجودته تزداد فى الوحدات التى اتيحت لها فرصة فترات استقرار سلمية كجنود حامية امدرمان ، وبالاخص الملازمين والكارا ، وتقل فى المناطق العسكرية الخارجية التى انغمست على الدوام فى عمليات متصلة ، وتكاد تنعدم فى جيش الاحتياط الذى كان ينتقل مباشرة من المراعى لمسارح الحروب .

أ ــ التدريب فى حامية امدرمان : يمكن ان يقسم التدريب الى مرحلتين : تدريب اساسى يتلقاه من ينضوون حديثا الى وحدات الخيفة كمستجدين . ثم فترات التدريب التى يتلقاها الجنود القدامى فى شبه دورات نظامية . وليس هناك اختلاف واضح بينهما الا التركيز فى فترة التدريب الاولى على نواحى التوجيه

الديني وبالذات في حالة الجهادية . فخطابات الخليفة تحفل بالكثير من النصائح في كيفية شحن الجهادية (١) واغلبهم من الوثنيين بالطاقات الدينية والروحية . ثم تدريبهم على البيادة والطوابير لخلق روح الضبط والربط . وحقيقة كل من عاش في امدرمان يذكر ان جامع الخليفة والفضاء المحيط به كان يمتلىء دائما في الفترات التي تتوسط بين اوقات الصلاة بالآلاف من الجنود المتجمعين في جماعات يرتلون القرآن والراتب تحت اشراف اساتذتهم . أو يسيرون في طوابير منتظمة(٢) ويستجيبون لنداءات القادة والمعلمين من الضباط الاسرى وقدامى الجهادية المسنين .

اما تدريب القدامى في حامية امدرمان فقد توزع بين التدريب اليومي والاسبوعي والسنوي . فالتدريب اليومي وبالذات للملازمين المتفرغين للجندية كان يشمل خلاف الطوابير وقراءة الراتب تدريبا يوميا على استخدام السلاح النارى

---

(١) خطابه لعثمان دقنة في كيفية معاملة الجهادية مثال لذلك :

« .... نعلمكم حبيبى ان الجهادية لا بد لهم من التربية التامة وبعد المشقة في مذاكراتهم والتأليف الكلى لهم أولا حتى يوافقوا على الدين وتنشرح قلوبهم وقد علمنا يقينا شأنهم مما شاهدناهم فيهم من ابتداء المهدية إلى الآن فمن ذلك اننا في محاربة اعداء الله في جزيرة ابا اسرنا بعضا من الجهادية وظهر لنا منهم الالفة والانشراح فتوجهنا بهم إلى قدير فلما غزونا القيقر هربوا منا لاعداء الدين بفاشوده ثم حضر اعداء الله جيش راشد فاسرنا منهم جهادية فهربوا ثانية إلى جهة فاشوده ثم حضرت جردة ولد الشلالى فاسرنا منهم جهادية بكثرة فاتحدوا مع الأنصار فظننا انه لا يحصل منهم مثل ما حصل من السابقين فعند حضورنا للابيض هربوا فانضموا إلى أهل قفرته حتى فتحها الله ثم بعد فتوح الأبيض وجدوا فيها جهادية بكثرة فاهتممنا بامرهم واكرمناهم وما تركنا لهم في الاكرام شيئا وبعد ذلك كله هرب بعضهم إلى جهة الخرطوم . وعند مجىء جماعة أبى قرجة لحصار الخرطوم هرب بعضا من معه وانضموا إلى القيقر وكذلك بعضا من جهادية ود النجومي انضموا إلى أهل الخرطوم وبقوا حتى وقعوا في الاسر ففر بعضهم إلى سنار حتى فتحت فمن ذلك اتضح ما ذكرناه فينبغى ان تعتنوا بالمذكورين غاية الاعتناء وتربوهم التربية التامة حتى يرسخ الايمان في قلوبهم فانهم اذا تربوا صلحوا للمساعدة في الدين ومما يساعد على تاليف المذكورين اعطائهم زوجاتهم واذا كان لهم أقارب يضمون اليهم حيث ان مصلحتهم عمومية ولو انضم اليهم غير المستقيم من اخوانهم يجره حالهم إلى الايمان والاذعان اذ الطبائع تسرق الطبائع والاروام الذكور الذين يطيقون حمل السلاح جميعهم يلحقون بالجهادية في جميع ما ذكر والدمور الموجود بمخازن كسلا أكسوا منه الجهادية ونسائهم لاجل تأليفهم . »

(٢) دخل المؤرخ محمد عبد الرحيم معسكرات التدريب هذه عدة مرات فهو يذكر قبل معركة امدرمان « كنت ضمن طائفة من الملازمين أمر القائد اسكندر بك الذى كان قمندان اورطة الأبيض بتعليمنا الحركات العسكرية كحاز دور يمين دور دون اطلاق النار على الهدف وقد استعان الخليفة ببعض الضباط الأتراك لتعليم السير كالجيوش النظامية وتحفيظهم النداءات التركية . »

في الفضاء شرق القبة لكل الملازمين والكارا . ويمكننا ان نتصور فائدته المحدودة اذا علمنا انه لم يختم بنهايته الطبيعية وهي تمارين الرماية بالذخيرة الحية، فالذخيرة لم تصرف الا للعمليات (١)

اما التدريب الاسبوعي لحامية امدرمان فقد استمر بانتظام في ايام الجمع . ويجب الا ننظر لعرضة يوم الجمعة باعتبارها عرضا عسكريا بل كانت عبارة عن يوم تدريبي اسبوعي يحفل بمئات من هجمات الفرسان التي تقوم بها الوحدات الكبرى والصغرى ، أو تحركات مجاميع المشاة والخليفة ويعقوب يأمران بتحركها والتفافها وتغييرها للمواجهات تمهيدا للمناورات الكبرى كما اوضح في منشور الحث على الجهاد « وانا بالعرضه ، اقدم الجيوش واؤخرها ، يمنة ثم يسرى».

اما المناورات الكبرى التي تحتاج لقدر كبير من الضبط والتخطيط فلم يتسنى للخليفة اجراؤها الامرتين عندما تجمع في امدرمان عدد ضخم من الجنود النظاميين ،وكان ذلك عند وصول ابو عنجه من جبال النوبة لام درمان في طريقه للجهة الشرقية ، وعند قـــدوم الزاكي بجيشه الكبير من الرجاف . والوثائق لاتحدثنا عن هــذه المناورات فيما عدا ما ذكره سلاطين عن مناورات الزاكي كمحاولة لم يكتب لها النجاح « ولما كان الزاكي طمل بام درمان قام الخليفة بعدة مناورات عسكرية تولى قيادتها بنفسه ولكن عدم النظام السائد بين الثلاثين الف عسكري جعل هذه المناورات تفشل فشلا تاما . ولكن اللوم وقع على راسي حيث كنت قائما بوظيفة اركانحرب ولما راى ماوقع فيه من الارتباك قرر بان هذا العمل كان مقصودا مني لاني عدلت في تنفيذ اوامره وبعث بالزاكي الى القلابات وطلب الى كعادته ان انفذ اوامره » .

---

(١) بالطبع فسر سلاطين أوامر الخليفة بعدم صرف الذخيرة الحية لوحدات امدرمان بخشيته على حياته أو خوفه من الانقلابات العسكرية . قد يصح هذا الأمر لحد ما ولكن الواضح ان الدافع الرئيسي كان قلة الذخيرة وخشية الخليفة من ضياعها . ويتضح لنا ذلك من الحاح قادة المناطق دائما في طلب الذخيرة وتقتيره الشديد وحذره في صرفها . ومن ناحية أخرى كان نفس التشدد في عدم صرف الذخيرة الحية يطبق على كل الحاميات وليس على امدرمان وحدها ، كما حرم الخليفة الصيد بالبنادق تحريما باتا .

٢ — **الادارة :**

أ — التعبئة : اعتمدت آلة تعبئة الخليفة على عنصرين :

١ — الامراء من زعماء العشائر والقبائل

٢ — حملات التهجير سواء طواعية أو جبرا

اما الامراء فقد كان واجبهم الاول هو التنفير (التعبئة) . ولما كانوا يتواجدون دواما مع مقاتليهم ويعرفونهم فردا فردا ويزرعون ويرعون معا فقد تمكنوا من تنفيذه بسرعة وكفاءة . ويقسم افراد كل راية وهى فى موسم الزراعة أو فى المراعى الى رؤوس مائة والى مقدميات تتبعثر فى انحاء القطر بحيث قسم كل السكان الذكور الى وحدات وقادة يعرفون سلفا الى من ينضوون وواجب كل فرد ان كان فارسا أو بيرقدارا أو كاتب الخ . ولم تكن الزعامات القبلية فقط هى التى تحدد خيوط شبكات التعبئة ، فالهمة والشهرة والبروز فى كل منطقة قد تكون الاساس .

أما السلطة التى تحدد « رفع الراية » فهى القيادة العليا . فكشوفات الرايات تتحدث عند الاستدعاء « عن بيان الانفار المجاهدين اصلهم من راية — الصادر بها الأذن من سيدنا الامام المهدى » واغاب هذه الرايات ظلت موجودة للنهاية ، ولكن بعد وفاة المهدى اصبح امر التعيين « لرفع الرايات » يصدر من الخليفة أو يفوض يعقوب وهذا بدوره يفوض عامل المنطقة . فامر التعيين فى هذه الحالة يتحدث عن « راية — التى رفعها له سيدى يعقوب » « وراية — التى رفعها له عبد الرحمن النجومى » وهؤلاء يحضرون اما للجهاد، أو متى مايترای للخليفة استدعائهم ويعودون سنويا للزراعة بعد تسجيلهم هم وعوائلهم بكشوفات تبدأ ب « بيان عوائل ارباع المتوجهين للزراعة بجهة — بجهات الجزيرة كالبيان ادناه» وتقسم الكشوفات الى محاربين وعوائل وحيوانات ، وعند استدعائهم يحضرون كوحدات مقاتلة .

اما حصاد الطريقة الثانية من المهاجرين الجدد فقد كانت العادة ان يتوجهوا بعوائلهم ومواشيهم الى العاصمة وينضمون للراية الزرقاء لمدة من الزمن اشبه

بمعسكر تدريب يتناولهم فيه الوعاظ ويحضرون العرضة الاسبوعية والصلوات الخمس ثم يعاد تقسيمهم لرايات مختلفة ترفع لاول مرة بعد فرز النخبة الممتازة منهم للانضمام للجيش النظامى فى الحاميات المختلفة . اما البقية وهم الأغلبية فيجرى توطينهم اما فى امدرمان أو الجزيرة بعد تخصيص المزارع والمراعى لهم، وسرعان ما اضحت الجزيرة بعد قليل مركز حشد ضخم اختير له الامير احمد السنى ليتولى تنفير المقاتلون وترحيلهم لامدرمان بالسرعة المطلوبة .

٣ ـ الرتب والاقدمية العسكرية :

كيف كان نظام الاقدمية العسكرية فى جيش الخليفة ؟ لقد بنيت الاقدمية على اساسين : اولا اقدمية التسلسل القيادى لقادة الوحدات . وبالطبع كان قائد الربع اقدم من قائد الراية والمقدم اقدم من المجاهد . ثم الاقدمية العامة للافراد وهى اسبقيتهم فى دخول الدعوة .(١) وهى فى العادة شرفية وتبرز عند الدعوة لحضور المجالس أو الامامة فى الصلاة أو خلافها . وتصبح فعالة فى قاعدة المقاتلين العريضة المتساوية «الانفار» لتمييزهم ، ولكن الخليفة كما شاهدنا فى كشوفات القادة والعمال سرعان ماجنح للترقيات الاستثنائية بحيث لم يمض زمن قليل الا واصبح اغلب اصحاب الرايات الاصليين فى مراكز ثانوية ، فقد تولى قيادتها امراء شبان من عشيرة الخليفة ارتفعوا للمناصب العليا (٢) .

---

(١) ضرب شقير مثلا لنظام الاقدمية فى جيش المهدية عندما روى القصة التالية :

قيل ان اللواء ابراهيم باشا فوزى قد اجتمع بالملازم يوسف افندى منصور فى بيت الحاج خالد العمرابى بعد سقوط الخرطوم فلما حضر الخادم بالقهوة قدمها إلى يوسف منصور أولا فاشار اليه هذا ان يذهب بها إلى أبراهيم باشا فالتفت الحاج خالد إلى يوسف منصور وقال «لماذا ترد القهوه وتقدمها إلى ابراهيم فوزى.» قال : «يا سيدى لا نه أكبر منى مقاما» فقال الحاج خالد «لا بل انت أكرم منه الآن لا نك اسبق إلى صحبة المهدى» وكان الخادم قد قدم القهوة إلى ابراهيم باشا فلما سمع كلام سيده أخذ الفنجان من يد ابراهيم باشا واعطاه ليوسف منصور ثم قدم لا براهيم باشا فنجانا فاعتذر عن شرابه وانصرف.

(٢) المدهش حقا هو حداثة سن قادة الخليفة العسكريين أو حكام المناطق فاغلب هؤلاء القادة العسكريين المتمرسين كانوا فى اوائل العقد الثالث من عمرهم. فعندما تولى عثمان آدم عمالة الغرب لم يتجاوز الثانية العشرين وابراهيم الخليل لم يتجاوز العشرين وشيخ الدين لم يتجاوز العشرين ومحمد بشاره لم يتجاوز السادسة والعشرين والختيم موسى وعرابى دفع الله اصغر منهم ومحمود ود أحمد كان فى السادسة والعشرين .

اما مظاهر القيادة والرتب فقد تفاوتت بين حجم الراية وحيازة النحاس والنقاره لكل امير ، كما كان كل الامراء فرسانا . وعبد الرحمن النجومي ظل يعتبر الى وفاته اقدم قادة الخليفة العسكريين ، ثم تبوأ مكانته عثمان دقنه .

٤ – **المرتبات :** خـــلاف الجهادية والملازمين الذين كانوا يتسلمون تعيينات ومرتبات نقدية كان باقي افراد الجيش يتسلمون التعيينات اثناء فترة العمليات فقط. وتصرف جماعية للوحدات من بيت المال . اما كبار الامراء فكانوا يتلقون هدايا وهبات مختلفة في شكل مال ، أوجوارى ، أو خيول ، ويقوم قادة المناطق العسكرية بتوزيع الهدايا شبه الموسمية على صغار الامراء وتظهر في حسابات بيت مال المنطقة رسميا .

٥ – **اللوائح والمخالفات :**

لقد تحكمت الشريعة الاسلامية في سلوك الجندى كانسان وفرد في المجتمع ، ولكن تطور الجيش وانشاء الوحدات النظامية المستديمة وبروز الجيش كمجتمع منفصل سرعان ما تمخض عن نوع من العرف للسلوك العسكرى اشبه باللوائح العسكرية ، ليتحكم في سلوك الجنود . ومن ثم كانت بعض المخالفات تقع تحت طائلة الشريعة والبعض الآخر يمكن اعتبارها مخالفات عسكرية . وقد انقسمت المخالفات العسكرية من حيث اجراءاتها وعقوبتها الى درجات . فالمخالفات الكبيرة ان كانت اكبر من نطاق قاضى العمالة تحال لقاضى الاسلام في ام درمان ويسبقها مجلس تحقيق قبل المحاكمة . وعندها يكتب للعامل لارسال المتهمين لامدرمان للتحقيق بهذه الصيغة (بيان الانفار الجارين الفساد وطلبتهم السيادة من جماعة . .). وقد تفاوتت الجرائم التى تحدد نوع المحاكمة حسب مكانة المتهم وخطورة التهمة . فبينما وجهت للزاكى طمل تهمة التآمر على النظام وادخل السجن انتظارا للمحاكمة ، واجه عدد من الافراد تهمة الفساد الادارى واكتفى الخليفة بمحاكمة ايجازية عزلهم بعدها من مناصبهم واستدعاهم لامدرمان «ليلزموا الفروة » ببابه كملازمين لتأديبهم. اما المخالفات البسيطة التى يرتكبها الجنود البسطاء (الانفار) فالكشوفات توضح ان أعلى نسبة كانت بين صـــفوف المتطوعين واغلبها ينحصر في الهروب وهجر الصفوف . ولكنها تفاوتت بين الجرائم الكبيرة كقطع الطريق كما توضح يومية

السائر « سجن امدرمان » « ١١ عدد مذكرين مساجين ابو البشر وجماعته قطاع طريق ومتمادين فى عصيان الاوامر . » وهؤلاء كان نصيبهم السجن ثم الاعدام، أو مخالفات بسيطة كالغياب من المعسكرات ودخول المدينة بدون اذن « بيان الانصار من جيش الغرب الذين دخلوا الباب الغربي بدون اذن » وهؤلاء كان نصيبهم الجلد . وهذه صورة من توصيات احد امراء رايات حمدان ابوعنجه لتوقيع الجزاءات على مرتكبيها :

١ — انفه ولد كنونه هربان من سرية سيدى حمدان وارتجع الجبال .

٢ — محمد النيل من الحوازمة واحواله غير مستقيمة .

٣ — التاى ولد سبت وزوجته وراد ومتردد الغياب .

٤ — محمد احمد البديرى من عيال حمد الله من جماعة احمد يحذر متردد الغياب .

٥ — حسن جهادى من سرية سيدى حمدان مرتجع واحواله غير مستقيمة .

٦ — السجلات :

ان المتبقى الآن من القوائم والكشوفات التى تتحدث عن جيش المهديةتدل على اتباع نظام دقيق للسجلات والارشيف [١] وهى عبارة عن تسجيل دقيق لمناشط قوة الخليفة لاحدث جندى ولآخر طلقة ولابسط تصرف أو مخالفة عسكرية وقد تناولت هذه السجلات :

أ — سجلات المناطق العسكرية والافراد والاسلحة

وهى تتناول الربع ويقسم الى عواميد كالاتي :

---

(١) لعل من أكبر المصاعب التى تحول دون الاستفادة القصوى من المعلومات والبيناتالتى تقدمها هذه الكشوفات والسجلات لوضع التصور الكامل لجيش المهدية ، يعود إلى أن أغلبها غير مؤرخ اطلاقا مما يجبرنا على تخمين التواريخ من اسماء الشخصيات والحوادث والأماكن الوارده . والتفسير الوحيد لهذا الأمر هو أن الارشيف أو المظاريف التى كانت هذه البينات تحفظ بداخلها كانت التواريخ موضحه عليها من الخارج .

مجاهدين	٦١٥	١٤٥	٨٦٠
رامنجتون	١٥٢	٢٧	١٧٩
بيادة	١٤٧	١	١٤٧
بروجي	١١٩	٧	١٢٦
حملة سلاح	٤١٧	٣٥	٤٥٢
خيول	٣٩	٢٥	٦١
ادرع	١٢	٤	١٦
بطاريات	٨	٢	١٠

رايات الجهادية		رايات العرب	
نفر	٩٢		٣٥
رامنجتون	٢٢		١٦
بيادة	٢٠		—
بروجي	١٦		١
حملة سلاح	٥٨		١٧
خيول	٧		٧
ادرع	١		٣
بطاريات	—		—
	بلك مرجان ابو الحسن		جماعة راية شايب عثمان

وتتبعها كشوفات بالرواجع لمحفوظات بيت المال وعماله من سروجية ، وعمال اصلاح بنادق ، ثم الزيوت والمواد والذخيرة .

ب ـ سجلات رايات المجاهدين الاحتياطيين بالرايات والمقدمين ويذكر فيها اسماء الافراد فردا فردا ـ وتتبعها كشوفات اخرى عن عوائلهم وخدمهم وابقارهم فى حالة الهجرة .

ج ـ الذخيرة : بعد تسجيل انتاج الذخيرة اليومى يسجل فى كشوفات ويتم الصرف منه للوحدات سواء الصرف المنتظم العادى أو للعمليات والطورئ وتقسم الكشوفات الى الآتي :

جبخانة لزوم المدافع الجبلية :

١ ـ الكروب صندوق

المتريوز

٢ ـ جبخانة بيادة بالصندوق

رمنجتون

ابو لفته

ارشليك

ابو روحين

على ان كشوفات المرتجع من مظاريف الذخيرة (١) الفارغة كانت اهم من كشوفات الذخيرة نفسها لصعوبة صنعها وندرة المعدن الذى تصنع منه .

رواجع الخسائر : اثناء العمليات كانت ترسل رواجع باسماء القتلى والجرحى على ورقة شبيهة بالارنيك المسطر يكتب في اعلاه « كشف باسماء المستشهدين والمجروحين من الانصار الذين كانوا فى غزوة ــــــــ حال محاربتهم اعداء الله » ثم يوضح البيان اسماء القتلى ثم الجرحى .

---

(١) كتب الخليفة منشورا للعمال ليجمع كل مقاتل الظروف الفارغة بعد إنتهاء العمليات لارسالها لامدرمان .

اما الوفاة الطبيعية الفردية فتضاف ملحوظة باسماء الموتي تحت راجعة كل راية وتذكر الاسماء ويكتب عليها «توفوا»[1]

الامـــداد :

التعيينات : كانت طريقة الامداد بالتعيينات فى جيش الخليفة تمضى على نفس الخطوط العريضة التى وضعها المهدى منذ ايام قدير واوضحها فى مناشيره المختلفة الخاصة بتنظيم الجيش . ولكن التفاصيل اختلفت لحد كبير لتتماشى مع التطـــور العسكرى . وقد انقسمت طريقة الامداد بالتعيينات الى طريقتين ، طريقة مركزية وأخرى غير مركزية .

١ — اما الطريقة المركزية فهى تتبع عادة فى حالة العمليات عند تمويل الجيوش التى تتحرك من امدرمان من بيت المال الرئيسى وفروعه الشونتين المركزيتين. وان كان العدد ضخما كحملات ابو عنجة أو حملة محمود للشمال. فبيت المال يصرف القائد الحملة نقدا شراء العيش من المتعهدين. ولكن ظل الواجب الرئيسى لبيت المال العمومى هو امداد حامية ام درمان الضخمة ، ومصدر تمويله الرئيسى كانت الجزيره .

وكان قادة الارباع يتحركون اسبوعيا بعد اخذ مناديب من الرايات لاخذ التعيينات وتجميعها ليتم الصرف للرايات اسبوعيا ، فالمقدمين فالافراد يوميا .

اما طريقة الامداد اللامركزية فقد استخدمت فى المناطق الخارجية على النحو التالى :

١ — **بيت مال العمالة**[2] — وتجمع فيه كل المواد الغذائية بالاخص الغلال

---

(١) يتضح من لون الحبر المتغير فى الحاشية التى تشير للوفيات بان عمليات شطبهم كانت مستمرة بانتظام .

(٢) ليس من الضرورى ان يظل أمين بيت المال ، المسئول الأول فى هيئة اركان العامل الادارية ، فى المراكز ، فقد يتحرك للامام لتنظيم عملية الامداد كما فعل ود بشارة عندما حشد قواته شمال دنقلا وبعث بمحمد بشير أمين بيت مال دنقلا من المركز دنقلا العرضى لصواردة : وعندما ترجم ونجت خطابات ود بشارة بعد سقوط دنقلا أورد سلسلة من الخطابات لتوضح طريقة الامداد وأغلبها تعليمات من ود بشارة لحمودة قائد الحامية « لقد بعثت لك الحبيب محمد بشير ليرعى أمر الحبوب وليرسل لى حسابات شهرية عن المنصرف والوارد .. ويجب عدم الصرف من هذه الحبوب الا حسب اللوائح فيما←

التى تخزن فى شونة المنطقة الرئيسية التى تستمد دخلها من الزكاة المفروضة على سكان المنطقة ــ ولاتصرف الحبوب للارباع الابعد انزالها فى كشوفات مختومة بختم امين بيت المال (١) .

٢ ــ **الشون الفرعية :** لكل حامية شونة غلال تبنى على مسافة بعيدة خلف الخطوط الامامية . والمصدر الغالب للحبوب كان حصاد الزراعة التى يقوم بها الجنود انفسهم أو عوائلهم . والمناطق الزراعية وخصوبتها ومقدرتها على تموين الجيش كانت ذات اثر كبير على توزيع الحشود ، بل حددت احيانا اهداف العمليات نفسها . ففى فترة معينة خلال العام تتحرك الوحدات للاماكن الخصبة وفيرة المياه لتتمكن من الزراعة والحصول على القوت . وتلك النقطة ساهمت فى تكييف اسس اقامة معسكرات الحاميات . فلكل حامية خطوط دفاعية امامية وهى تحصينات (٢) دفاعية هندسية يمتد خلفها الديم حيث يسكن المقاتلون وعوائلهم الذين يقع عليهم العبء الاكبر فى الزراعة . وخلف الديم تمتد المزارع ، وعلى مسافة تتجاوز بضعة اميال للخلف تبنى شونة غلال الحامية . وزراعة الذرة فى الشرق ، أو الدخن فى الغرب ، أو النخيل فى الشمال ، هو ما أبرز اهمية تواجد النساء والعائلات ، (٣) وبالتالى ابرز اهمية بناء «الديم» منفصلا عن الخطوط الامامية .

عدا المنصرف لطلائع المجانة والخيالة من الضرورة وبعد ان تختم راجعة المنصرف بختمك وبختم محمد بشير .

وقد بدأ ونجت مقدمة تلك الخطابات المترجمة معلقا : « هذا الخطاب اورده كمثال حى لتوضيح طريقة امداد العدو . ويوضح ان هناك قدرا كبيرا من الضبط فى صرف التعيينات . وان الاسراف والاهمال فى صرفها لم يكن له وجود فى ادارة وحكم البقارة . »

"Quoted as an intersting example of the dervish supply system, showing that amongst the many faults whish may be attributed to the Baggara Adminstration, reckless extravagance has no place."

Intelligence Report No 49 Annex O

(٢) كان تقسيم المعسكرات المذكور اعلاه مطبقا فى الحاميات المتاخمة الحدود كالشرق والشمال أو الأماكن الحافلة بالاضطرابات كدارفور حيث كان تهديد العدو متوقعا فى كل لحظة أما فى الجزيرة أو داخل القطر فلم يكن مطبقا .

(٣) الواضح من كشوفات الأمير يعقوب ان وجود النساء والخدم كان هو المبدأ العام. ونجد ان القيادة حاولت ان توفره قدر المستطاع ــ فعدد كبير من رواجع العمال عن حامياتهم ترسل فى شكل بيانات « بيان الاخوان الخالين من الخدم والحريم والجارى ارسالهم لطرفهم . »

الذخيرة : لقد تمكن مصنع ذخيرة الخليفة من انتاج ١٠٠ صندوق ذخيرة شهريا فى كل صندوق ١٤٤ طلقة . « تعبأ الجبخانة وتصرف دائما بالدستة » كل صندوق ١٢ دستة وعلى الرغم من ان الخليفة ورث كميات ذخيرة ضخمة من حاميات الاحتلال ، الا انه ادرك ان عملياته العسكرية المتصلة كفيلة باستهلاكها فى زمن وجيز ، لذا وجه اهتمامه منذ البداية لتصنيعها محليا ، ونجح نجاحا واضحا وسنتعرض هنا تعرضا سريعا لطريقة صرفها وتوزيعها (١) .

وتقدم طلبات الذخيرة من قادة المناطق العسكرية فى كشوفات مفصلة توضح احتياجات القادة من كل نوع « بالدستة » والاسس التى حددت توزيع الذخيرة بينت كالآتي :

١ — امداد بيت الامانة الذى يخزن فيه كل انتاج المصنع . وبيت الامانة بالاضافة لكونه مخزن منطقة امدرمان كان يمثل مخزن احتياطى الجيش كله .

٢ — العمالات : يقوم قادة المناطق الخارجية باستلام احتياجاتهم من الذخيرة التى بنيت على اساسين :

أ — الجزء الاحتياطى الثابت :

الاحتفاظ فى مخازن ذخيرتهم بكميات تضمن لهم الدخول فى العمليات المفاجئة الى ان يتم تعزيزهم بكميات اخرى من امدرمان .

ب — ذخيرة العمليات :

وتقدر كمياتها على حسب عدد المقاتلين وما يحمله كل من البنداقة وهو سبعة احزمة ذخيرة معلقة على الاكتاف أو فى اكياس ، وما تتمكن من حمله جمال الشيل المتقدمة ، والاحتياطى الذى يحتفظ به فى مخزن المركز . والاخير يعتمد بالطبع على عدد افراد حملة البنادق وعدد المدافع وعلى نوعية العدو المتوقع مواجهته. فابو عنجة والزاكى عند تقدمهم للقلابات وحروب الحبشة حملوا اضعافا مضاعفة تزيد عما حمله عثمان ود آدم فى نفس الوقت فى عملياته بغرب السودان .

ولئن حتمت طبيعة مصادر التعيينات قلة المركزية لاعتماد اغلبها على المصادر

(١) سنتعرض لوصفها من الناحية الفنية فى فصل « السلاح »

المحلية ، الا ان الامر كان مختلفا بالنسبة للذخيرة . فمصدر الذخيرة واحد وهو بام درمان . لذا تحتم الاعتماد على وسيلة نقل بخطوط حملة مضمونة . وقد اعتمدت خطوط حملة جيش الخليفة على طبيعة الارض ، وانقسمت لثلاثة اقسام رئيسية :

١ ـ الجمال : وكانت هي العنصر الغالب في خطوط الامداد البرية وان كان الخليفة حذرا للغاية في صرفه للذخيرة فقد كان كذلك فيما يختص بالتصرف في الجمال ـ فالواضح ان الخليفة عاني من ضيق شديد في عدد الجمال المتوفرة لنقل ذخيرته الى مسارح عملياته المختلفة (١) .

٢ ـ البوارج : بالاضافة لواجب اسطول الخليفة النهري البخاري في نقل الجنود وحمل المدافع ، كان الواجب الاهم هو جر الصنادل والاطواف التي حملت عليها صناديق الذخيرة .

والبوارج والجمال مثلت خط الحملة الاول ، فهي التي تحمل الذخيرة من امدرمان لرئاسات العمالات «المراكز» اما الخط الثاني اى من المراكز للحاميات المتفرغة ، أو خارج العمليات ، فعلى الرغم من توفر عدد محدود من الجمال لنقل الذخيرة الا ان الاعتماد كان في الغالب على البغال أو الحمالين أو المراكب الشراعية الكبيرة.

الصيانة والاصلاح : لعل هذا الجزء من نشاط الخليفة العسكري كان اضعف الاجزاء وادى ذلك الى آثار بعيدة المدى على نتيجة معركتنا . والسبب الرئيسي في ذلك التصور كان يكمن في قلة الكوادر الفنية المدربة من المهندسين والعمال . فالقلة من العمال المهرة الذين ورثهم من الحكم السابق اضطر للاحتفاظ بهم في امدرمان ، وبالتالى أدى ذلك الى مركزة واضحة في طريقة الاصلاح والنجدة ، وبالتالى لم يوزع غير جزء ضئيل جدا من هؤلاء العمال لصيانة واصلاح الاسلحة المبعثرة خارج امدرمان ، ولم تتح لهم فرصة الاشراف والصيانة الكاملة لكل الاسلحة والمعدات في تلك المناطق . فالواضح ان الالآت الميكانيكية المنحصرة في

---

(١) لعل البيئه أثرا كبيرا في ذلك الأمر فالشكرية والماهرية أهم مصادر الجمال كانوا ينظرون للابل باعتبارها مظهر عز ومفاخرة ولم يفلح الاغراء ولا التهديد ولا المصادرة في حثهم على بيعها للخليفة . أما المصدر الرئيسي للجمال ـ الكبابيش فقد كان لنفورهم وتمردهم أثرا واضحا في اضعاف خطوط حملة الخليفة .

الخرطوم أو التى يجرى اصلاحها فى ورش الخرطوم كالبوارج والمدافع نالت حظا من الصيانة والاصلاح أكبر من الذى تلقته البنادق التى تشتت فى كل انحاء القطر واوكل امر صيانتها واصلاحها لحملتها فقط .

اما البوارج فالواضح انها نالت نصيبا وافرا من العناية بدليل انه لم يتعطل منها الاباخرة واحدة طوال ثلاثة عشر عاما رغم عملها المتواصل . وقد احتفظت ورشة اصلاح الوابورات فى الخرطوم بكفاءتها ومستواها الفنى لآخر لحظة ، للدرجة التى تمكنوا فيها من تركيب باخرة نيلية كاملة وصلت اجزاءها مفككة من لندن وحصلوا عليها بعد سقوط الخرطوم . كذلك كان الامر بالنسبة للمدافع فاطقم المدافع المصريين احسنوا صيانة مدافعهم . وبيت الامانة كان زاخرا بتفكجية المدافع المهرة. وقد خصص لكل مدفع مقدار معين من الزيوت ونسبة معينة من قطع الغيار التى انتزعت من المدافع المعطلة ، وهذه صورة طبق الاصل لكشف المنصرف من معدات صيانة المدافع المجرورة بالبغال لاحدى بطاريات يوسف منصور :

١٤ صفيح لزوم الشحم والزيت والسمن
٠٨ رطل سمن لزوم المتريوز
٣٢ رطل ودك
٢٤ رطل زيت
٠١ سروجى
٠١ نجار بعدته
٠١ حداد
٠١ تفقشى
٠١ مفتاح صامولة ابروجيت
٠٤ شوال
٠٩ حبال قـــد
٠٦ لزوم ربطة البغال
٠٢ بغال

٠١ بغل مطلوب غياره

١١

بطارية عبد الرحمن :

١٢ صفيح

٢٤ رطل زيت

٢٤ رطل ودك

٠٦ غارات نقصان لزوم المدافع

٠٦ شناكل

٠٣ نواشيْ

٠١ نجار مستعد



الباب الثانى

الغــزو

الحمـــل والذئـــاب

« ان الافرنج اعداء لكم ولنا فاذا غلبونا وهزمونا لم يتركوكم ،
واذا غلبوكم وكسروكم فعلوا بنا كذلك . والآن فانا اذا حضرت
الى بلادكم واهلكت المساكين ثم جئتم انتم وهلكتم المساكين
فما الفائدة في ذلك . فالرأى الاصوب ان نتفق عليهم ونحاربهم
ونغلبهم » .

خطاب الملك يوحنا لأبي عنجه ٢٥ ديسمبر ١٨٨٨

عنـــدما افتتحت الملكـــة فكتوريا معرض اول مايو الصناعي "May Day" عام ١٨٥١ وبينما كان المدعوون يتجولون داخل القاعة البلورية وهي تسبح فى اشعة شمس الصيف الذهبية ، واصداء الانغام الموسيقية وهدير محركات الماكينات يصم آذانهم ، كان احساسهم الغالب ان ايام وترلو ومارنجو والطرف الاغر قد ولت الى الابد ، وان اوربا ودول العالم المتمدنة مقبلة على صراع من نوع جديد . ليست ميادينه هى ارض المعارك ودوى المدافع ، بل التنافس الصناعي والتجارى ، والتقدم التكنيكى والعلمى ، واخيرا حيازة المستعمرات واستثمارها . فالاخيرة كانت تعتبر احدى المنافسات السلمية « الشريفة » .

ولم يمض زمن قليل حتى ادت المنافسة السلمية الى الفترة التى سميت بالتكالب عـــلى افريقيا "Scramble for Africa" حـــين وصل الصراع الاستعمارى قمته فى ازمة فاشودة عقب معركة امدرمان ، وانفجر اخيرا فى ١٩١٤ ببداية الحرب العالمية الاولى .

فعندما دوت مدافع الثوار قبل ستين عاما مفتتة اسوار سجن الباستيل ، مؤذنة باشتعال الثورة الفرنسية ضد عصر الاقطاع ، لم يقف الامر عند هذا الحد ، بل واصلت اقدام الفلاحين الفرنسيين زحفها خلف الجنرال الشاب نابليون وهى تدك قلاع اوربا وتذل ملوكها واحدا بعد الآخر . ولعشرين عاما اشتعلت القارة الاوربية من أقصاها الى أقصاها بالحروب والمعارك المتصلة . ختمت اخيرا فى

واترلو بعد أن اصبحت الارض قفارا روتها الدماء .

ولكن الثورة الصناعية سرعان ماولدت بعد الثورة الفرنسية . فالحرية والتغيير السياسى سرعان ما اتخذ شكلا لتحول تاريخى اجتماعى اقتصادى ببروز النزعات القومية من جهة ، والثورة الصناعية التى تزعمتها بريطانيا من جهة اخرى ،وظلت رائدة لها لفترة طويلة : تغمر منتجاتها اسواق العالم ، وتصب امبراطوريتها الواسعة المواد الخام الى مصانعها ، ويكفل اسطولها الضخم حماية طرقها التجارية .

ولكن الدول الاوربية سرعان مالحقت بالركب ، وبدأت منتجاتها تغمر الاسواق منافسة لبريطانيا . وضاق السوق الاوربي بالمنتوجات المتعددة فبدأ البحث عن اسواق جديدة . وسرعان ماوضح التناقض الرأسمالى المعهود ، وكان المتنفس الطبيعى له فى الاستعمار .

فالحروب والاستعمار دائما تجدد دماء وشباب الرأسمالية ، على الرغم من أنها تعتبر مظهراً من مظاهر ضعفها وتدهورها . وحقيقة كان التنافس الحر هو المظهر العام للصراع الرأسمالى الصناعى قبل الثورة الصناعية ، ولكن تطور ونمو الرأسمالية الصناعية السريع يقودها حتما فى أقصى درجاته الى بروز ظاهرة « الاحتكار » وقمته «الاستعمار» . فهو احتكار لاسواق وخامات اقطار وقارات باكملها ، وقفل باب التنافس الحر فيها ، وجعل خاماتها واسواقها حكرا لمنتجات من مصدر معين .

فكان ان اتسم النصف الثاني من القرن التاسع عشر بالعهد الذى رمز له « بالعهد الاستعمارى الجديد » وفصلته اربعة قرون كاملة عن العهد الاستعمارى الاول — عهد اكتشاف واستعمار الامريكتين واستراليا .

كان المجال الجديد هذه المرة هو افريقيا . تدافعت الذئاب وكل ينهش فى لحم القارة العذراء وهى مستكينة كالحمل الوديع .

وعلى الرغم من أن الدوافع الاقتصادية كانت هى جرثومة الحمى الجديدة ، الا ان هنالك دوافع ومؤثرات اخرى أسهمت فى خلق ذلك الموقف الدولى المعقد الذى برز فى السنين الاخيرة من القرن التاسع عشر فى افريقيا ، كانت هذه

التيارات والمؤثرات تبدو أحيانا مجرد إنعكاس للموقف الدولى الاوربي المعقد باحلافه وخلافاته المتكررة ، أو للسياسة الداخلية للدول الاوربية (١) واحيانا أخرى كان الكبرياء القومي والعنصرى يبدو أنه هو الدافع الرئيسي. ولعل كل تلك التيارات ستوضح في موضوعنا ، السباق نحو حوض ومنابع النيل : كانت أطراف النزاع اربعة ، بريطانيا ، وفرنسا ، وبلجيكا ، وايطاليا .

ولنبدأ ببلجيكا فهى اوضح وأبسط المحاور . فالملك الاتوقراطى الطموح ليوبولد — لم يعان من تيارات السياسة الداخلية والاحزاب المتعددة ، فتمكنت بلجيكا من التفرغ بكليتها للاستغلال الجديد . وحتى مستعمرة الكونغو "Congo Free State" لم تكف لاشباع شهيته المفتوحة ابدا ، وسرعان مارنت أعينه شرقا نحو حوض النيل . وهو ، خلاف كثيرين غيره ، اوضح بلا مداراة

---

(١) يوضح ساندرسون في بحثه المنهك عن تلك الفترة ان وقوع السلطة فى يد سياسيين استعماريين ذوى كبرياء قومى فى أوربا حين كان الا ستحواذ على المستعمرات جزءا مكملا للسيادة ومبعث مفاخرة قومية أدى إلى بروز بواعث جديدة للاستعمار وهى «الكبرياء والمكانة الاستعمارية» "The Prestige of Imperialism" وأدت تلك الدوافع إلى التسبب فى خلق مواقف وازمات دون أن يكون وراءها أى دوافع اقتصادية . فهو يذكر كلمات روزبرى عندما تحدث مع مجلس العموم قائلا : « ومن صميم مسئوليتنا وتراثنا ان نتأكد اننا عندما نشكل هذا العالم ، أنه سيشكل من عجينة ذات صبغة بريطانيةوليس من أى عجينة أخرى » .

"Part of our responsibility and heritage to take care that the world, so far as it can be moulded by us, shall receive an English speaking complexion, and not that of other nations".

كما يوضح فى مقدمة بحثه ان تلك النزعة كانت من القوة للدرجة التى تغلبت فيها على وجهة نظر الملكة فكتوريا وسالسبورى رئيس الوزراء القوى . فعندما وصلت أزمة فاشودة إلى قمتها ، ووضح ان الحرب مع فرنسا لا مفر منها علقت فكتوريا « انها لا يمكن ان توافق على شن حرب من أجل تحقيق هدف بمثل هذه التفاهة » .

"Queen Victoria wrote that she could hardly bring herself to consent to a war for so miserable and small an object."

وعلق سالسبورى على الملف الذى اوضح ثروات بحر الغزال المتوقعه «كلام فارغ» 'Wretched stuff.' ولكن رغما عن هذا لم يستطيعوا ايقاف تطور الأمور إلى أن اصبحت على شفا حرب شاملة مع فرنسا .

Sanderson, G.N., *England, Europe and the Upper Nile* (Edinburgh, 1965), pp. 1, 395.

أن هدفه الرئيسى هو تأمين مستقبل بلجيكا اقتصاديا ، وتجسم طموحه بوضوح عندما جذبت استثمارات الكونغو ثلاثين مليون فرنكا من رؤوس الاموال البلجيكية ، ودرت عائدا يربو على ٢٦ مليونا فى فترة وجيزة .

فى حالة بلجيكا كان الاستغلال الاقتصادى بالاضافة لطموح الملك البلجيكى فى جعل دولته الصغيرة دولة كبرى — ولعل لعقدة المساحة أثرا كبيرا — هى الدوافع الرئيسية لاندفاع الملك نحو حوض النيل ، مما حفزه لان يتقدم لبريطانيا باقتراحات محددة لتقسيم تلك المنطقة من افريقيا . وصادفت تلك المقترحات هوى فى نفس بريطانيا . فقد اعترفت المعاهدة باعتبار منابع النيل منطقة نفوذ بريطانية ، بينما منحت بلجيكا حقا فى الاستحواز على المنطقة المتاخمة للكنغو والجزء الاعظم من بحر الغزال غرب خط طول ٣٠° . وبذلك قفل الطريق الجنوبى لمنابع النيل بالنسبة للمنافس الحقيقي وهو فرنسا. واصبح الطريق المباشر الوحيد بالنسبة لفرنسا يحتم عليها الاصطدام بالصخرة الصلبة — الخليفة — وهو فى أوج قوته العسكرية . فلامناص لفرنسيين ان ارادوا الوصول لمنابع النيل من التقدم غربا مباشرة عبر دارفور وكردفان وسحق الخليفة في امدرمان ثم الاتجاه جنوبا نحو منابع النيل . وكان ذلك شبه استحالة عسكرية وعملية .

ولكن ليوبولد سرعان ماتراجع عن تعهده مع البريطانيين عندما عجز عن مقاومة اغراء العرض الذى قدمه له الفرنسيون. وهو منحه الجزء الجنوبي من أوبانقى « افريقيا الوسطى حاليا » مقابل فتح ممر يتقدم عبره الفرنسيون لمنابع النيل بالطريق الجنوبي السهل متفادين جيوش الخليفة في الشمال . وعاد ليوبولد وعدل الاتفاقية مع بريطانيا بالفاظ أكثر مرونة تنص على « عدم تجاهل الحقوق التركية والمصرية فى السودان » ، وكان السودان رسميا لازال يعتبر ضمن الممتلكات المصرية ، فبالطبع لم تعترف الدول الاوربية بالمهدية دوليا . وكانت الحقوق التركية والمصرية تعنى ايضا الحقوق البريطانية ، ولكن لا السلطان التركي ولا الخديوى توفيق كانا يخطران ، ولو على سبيل المجاملة ، بتلك التقسيمات لمناطق النفوذ الاوربية .

* * *

أما ايطاليا التى كان موقفها المتدهور فى افريقيا هو الذريعة الرسمية التى تسببت فى الغزو ، وبالتالى فى معركة امدرمان ، فقد طعنت افريقيا فى جنبها

الأيمن من الشرق . كان الملك الايطالى حريصا كغيره على الاستحواز على قطعة من افريقيا للظهور بمظهر الدولة الكبرى . وحركته نفس عقدة بلجيكا «العقارية» بدأ الايطاليون اولا باحتلال ميناء مصوع ، وتابعوا طريق القوافل من مصوع لكسلا وهم يشيدون القلاع العسكرية الى ان وصلوا كسلا واصطدموا باحمد ود على فى معركة دامية خرجوا منها منتصرين ، وبذلك اصبحت كل اريتريا فى قبضة ايطاليا .

وليأمن الايطاليون موقفهم اتبعوا سياسة « فرق تسد » . فبدأت ايطاليا فى مؤازرة رجل اثيوبي بارز هو – الامير منليك – امير اقليم شاوا الجنوبي ضد الامبراطور . وتمكن منليك من الانتصار على الامبراطور بالاسلحة الايطالية ونصب نفسه امبراطورا على اثيوبيا ، بعد أن عقد معاهدة « اوسيالى » مع الايطاليين منحهم فيها امتيازات اقليمية فى اثيوبيا ، الى جانب حق التحدث باسمه مع جميع الدول الاوربية . واصبحت اثيوبيا محمية ايطالية . وظل الجانبان يعيشان فى وئام . ولكن فرنسا سرعان ماتدخلت من الصومال الفرنسى . ولايمكن الجزم أيهما مد يده للآخر اولا ، هل ادرك العاهل الاثيوبي امكانية ضرب الاوربيين ببعضهم البعض– أم كانت المبادرة من الفرنسيين لفتح ثغرة نحو حوض النيل عن طريق اثيوبيا ؟

ففى صبيحة احد الايام الباردة تسلل رجل غامض ابيض اللون الى بلاط الامبراطور وهمس فى اذنه موضحا له بالضبط ماهو المعنى الحقيقى لكلمة «محمية» فتهيج الامبراطور وارغى وازبد واعلن ان الايطاليين خدعوه . ولكن حقيقة الامر انه هو الذى كان يخطط لخدعة كبرى . فقد اعلن انه فهم الجزء الخاص بتفويض الايطاليين للتحدث باسمه بانه «يمكنهم» التحدث باسمه عندما «يطلب» هو ذلك .

فبعد الزيارة الثانية للرجل الابيض الغامض الذى اتضح انه مبعوث فرنسى من الصومال ، بدأ تدفق الاسلحة الفرنسية الحديثة والاموال الفرنسية على اثيوبيا مقابل منحهم حق التعدين ، وامتياز انشاء خطوط السكك الحديدية فى اثيوبيا . استخدم منليك الاموال لدفع ديون الايطاليين ، واستخدم الاسلحة فى القضاء عليهم نهائيا . ولم يضع زمنا طويلا بعد تسلمه الاسلحة الفرنسية فمزق معاهدة «اوسيالى» وبدأ التحرش بالايطاليين فى عدة معارك صغرى تمهيدا للمعركة الكبرى .

ففى صباح اول مارس ١٨٩٦ التقى الجيشان فى معركة لاتختلف عن معارك القرن التاسع عشر كثيرا . تحسم فى يوم واحد ، وتخاض فى مساحة ضيقة بعشرات الالوف وبضراوة متناهية . غطت حشود النقز الهائلة « ١٢٠,٠٠٠ » مقاتل سلحوا ببنادق «جراسي» والمدافع الفرنسية سريعة الطلقات ، ممرات وسفوح الجبال لتوقع بجيش الجنرال باراتيرى الايطالى « ١٧٠٠٠ » هزيمة منكرة .

ثبت انتصار منليك على الايطاليين بالاسلحة الفرنسية اقدام النفوذ الفرنسى فى اثيوبيا . كان واضحا ان اطماعهم البعيدة تتجه الى حوض النيل مستترة خلف الامبراطور ، ليصبح تقدمهم نحوه من الشرق والغرب .

وان كان الهدف الفرنسى الاول ، وهو التوغل فى اثيوبيا ، اقتصاديا بحتا لاستثمار الثروات والمعادن الاثيوبية ، الا ان الهدف الرئيسى وهو الزحف غربا عبر اثيوبيا والاستحواذ على منابع النيل كانت تتحكم فيه تيارات أكثر تعقيدا . فصعوبة الوصول لمنابع النيل ، تلك الاصقاع البعيدة بمستنقعاتها وسكانها الذين لازالوا يعيشون فى مستوى ماقبل التاريخ ، تجعل امكانية استغلالها كهدف اولى سريع امرا مستبعدا بالنسبة لفرنسا . وترجح ان الهدف الاساسى كان يكمن فيما تمثله منابع النيل لمصر ، ومن خلفها بريطانيا . ويمكن لمن يستحوز عليها ان يجبر بريطانيا على الجلوس معه على مائدة مفاوضات لمناقشة كل المشاكل المعلقة بينهما فيما يتعلق بتقسيم الممتلكات المصرية والتركية . فعلى الرغم من الحلف القائم فى مسرح السياسة الاوربية بين فرنسا وبريطانيا ، الا أن الاحتكاك والتشاحن بينهما كان هو السمة الغالبة على مسرح السياسة الاستعمارية فى افريقيا .

وعقدة فرنسا من بريطانيا بدأت منذ زمن طويل . ففرنسا بقيادة نابليون كانت هى النافذة الاوربية التى انفتحت عليها مصر فى العصر الحديث عندما اصطحب نابليون فى حملته مئات من العلماء والمهندسين والمؤرخين . وعندما اتجهت انظار محمد على والخديوى اسماعيل للاستفادة من المدنية الاوربية، اتجهت انظارهم اول مااتجهت لفرنسا . وديليسبس صاحب فكرة قناة السويس وخبراؤه كانوا فرنسيين ، ورأس المال الرئيسى الممول للقنال كان رأسمالا فرنسيا . وعندما رفضت فرنسا التدخل فى مصر اثناء الثورة العرابية . وتركت الاسطول البريطاني

يتصرف منفردا ، اطبقت بريطانيا بحسم على مصر وقصفت بوارج الاميرال سيمور الاسكندرية : وعندما وصل نبأ انتصار ولزلى على عرابي فى التل الكبير ووضعت بريطانيا يدها نهائيا على مصر ، لم تكن فرنسا تظن ان تلك العملية البرمائية ستولد احتلالا لعشرات السنين ، وتجعل مصر حكرا لبريطانيا . وعندما ادركت الحقيقة المرة بعد فوات الاوان ، احست انها طعنت فى كرامتها .

ان من يضع يده على منابع النيل ، تصبح مصر الزراعية تحت رحمته ، خصوصا والعالم يتابع مشاريع كرومر الانمائية في مصر وفكرة انشاء خزان اسوان تلوح فى الافق ، لذا كان الهدف الاساسى لفرنسا هو استخدام منابع النيل كأداة للضغط على بريطانيا لاعادة النظر فى استيلائها على الممتلكات المصرية والعثمانية . والاستيلاء على منابع النيل والاحتفاظ بها يحطم عرفا دوليا ترفضه فرنسا ، وهو ابوة بريطانيا المفروضة على الممتلكات المصرية والعثمانية .

فى حالة اطماع فرنسا بالنسبة لحوض النيل كان الاستثمار والاستغلال الاستعمارى جزءا ثانويا ، فحتى تحقيق الهدف الامثل وهو تخلى بريطانيا عن مصر لفرنسا كان اصحاب البنوك ورؤوس الاموال الفرنسية يتابعونه ببرود ، فقد كان كرومر البريطاني اقدر على حماية رؤوس الاموال الفرنسية وتوزيع ارباحها من اى قائد فرنسي عسكرى يتولى حكم مصر .

وعندما تولى وزارة المستعمرات الوزير القوى ديكلاسيه ، انطلق فى سياسة تحرشية واضحة متجاهلا الخط العام للسياسة الخارجية الفرنسية وحلفها مع بريطانيا ، واطلق يد عشرات من الضباط الطموحين المغامرين وهم ينطلقون نحو النيل عبر داهومى والنيجر ـ كان النجاح الساحق الذى حققه اولئك الضباط المستكشفون أمثال ديكور ، وتوتي ، وبالوت ، مخالفا للفشل الذى لاقته بعثة ليوتارد التى مثلت المجهود الرئيسى للاندفاع نحو النيل من الغرب . ولكن كل هذه البعثات واجهت نفس الإعراض والتجاهل من الممولين الفرنسيين .

إذن فى حالة الاندفاع الفرنسى نحو منابع النيل لم يكن الاستغلال الاقتصادى المباشر هو الدافع الرئيسى . ولكنه تمثل فى اهمية مصر الاستراتيجية وهى تغلف

قناة السويس ، ملتقى طرق الشرق بالغرب ، وفي الكبرياء القومي الذى طعن باحتلال بريطانيا لمصر ،

والاندفاع نحو منابع النيل لاتخلو مسبباته من دوافع رومانسية ايضا . فمنذ قديم الزمان عندما كتب ابو التاريخ هيرودوتس عبارته المشهورة « وعن مصادر ومنابع النيل لايعلم احد عنها شيئا ، فهو يأتي من مصادر بعيدة غامضة » مارس النهر العظيم سحرا غامضا على كل الفاتحين الذين غزوا مصر ، ولم يكن يوليوس قيصر اولهم ولانابليون آخرهم وازداد تشوق العالم وهو يشد انفاسه فى متابعة محاولات اكتشاف منابعه فى الخمسينات والستينات من القرن الماضى بعد توالى رحلات المستكشفين امثال ريتشارد بيرتون، وسبيك، وجرانت، وصمويل بيكر، وكانت مؤلفاتهم التى تنشر في بلادهم بعد عودتهم تلاقى رواجا منقطع النظير ، واحتلت المجادلات والمشاحنات العلمية حيزا كبيرا من صفحات الكتب والصحف، وكل من هؤلاء المستكشفين من يحاول ان يبرهن على صحة نظريته حول مكان منابع النيل الحقيقية . والجمعيات الجغرافية ومن خلفها الدول تمول الرحلات لاحراز شرف كشف الستار عن السر الابدى لمنابع النيل . . ثم امتلاكها ٭ ٭ ٭

٭ ٭ ٭

وماذا عن بريطانيا . . . الطرف الرئيسى فى المشكلة ؟

لابد للمرء ان يعجب من التحول الواضح فى السياسة البريطانية نحو السودان من تجاهل وتحاشى عام ١٨٨٣ الى الدرجة التى ارغمت فيها مصر على نفض يدها منه ، وبين ١٨٩٦ عندما أمرت السردار بالتقدم نحو دنقلا بل واشتركت اشتراكا عسكريا مباشرا . ان الدوافع التى برزت خلال هذه الاعوام متعددة ومتنوعة سواء منها المباشر أو الغير مباشر ولكنها جميعا كانت تهيئ للموقف الجديد عام ٩٦ .

عندما اقتحمت بريطانيا مصر عام ٨٢ كان هدفها وضع الامور فى نصابها داخليا فقط حتى لاتهدد الثورة العرابية مصالحها المحدودة، ثم تنفض يدها بسرعة من تلك البلاد الغارقة فى الديون والمشاكل ، ولم يكن هدفها احتلالا دائما لحماية قنال السويس وطرقها التجارية لآسيا كما يظن من الوهلة الاولى . فحسب مبدأ « بالمرستون » فان الدفاع عن قنال السويس يجب ان يكون دفاعا ارضيا ضد الدولة الوحيدة التى يمكن ان تتدفق جيوشها الارضية نحو قنال السويس — وهى روسيا .

وتركيا هي المكان الذي يجب ايقافها فيه وليس مصر . أمنت المعاهدات والاتفاقيات مع السلطان التركي ذلك الهدف . اما أي خطر بغزو بحري لقنال السويس من اوربا حيث تبرز اهمية مصر ، فكان مستبعدا . فالاسطول البريطاني في القرن التاسع عشر ، وهو يتفوق على اسطول اي دولتين اوربيتين مجتمعتين ، كان كفيلا بستحق أي تهديد .

وفي تلك الظروف وبريطانيا تتدخل تدخلا محليا في مصر بل وتطلب من فرنسا التدخل معها ، وهي لاتود التورط اكثر من ذلك في المشاكل المصرية ولافي امبراطورية اسماعيل الضخمة المفككة ، ولازالت هي الدولة الصناعية الاولى في العالم ومستعمراتها اكثر من كفايتها ، هبت الثورة المهدية . وكان الامر سيان بالنسبة لبريطانيا ، ان يقتل هكس البريطاني ويباد جيشه المصري ، أو أن يقتل غردون وتباد حامية الخرطوم . لم تكن كل تلك الاسباب كافية لاغراء بريطانيا للتورط في ذلك الاقليم السحيق . وتجاهلت الحكومة الرأي العام البريطاني وهو يصرخ مطالبا بانقاذ غردون ، ولم تتحرك لارسال حملة الانقاذ الا اخيرا وبعد شهور طويلة وتحت ضغط الرأي العام .

يمكن حصر تلك الدوافع التي أدت لتغيير ذلك الموقف في اربعة أسباب رئيسية . وفوقها جميعا يلقي الدافع الاقتصادي للمستقبل البعيد بمعادلته السهلة — المواد الخام والاسواق — ظله الثقيل عليها .

وحقيقة لاتخلو قصة استعادة السودان وبريطانيا من دوافــع ثأرية في بدأية الأمر . فبعد مقتل هكس وستيوارت . وانسحاب بعثة الانقاذ متقهقرة تجر اذيال الخيبة وجيوش المهدية تلهب ظهورها بالجراح ، وبعد صدمة نبأ مقتل غردون ، خيم شعور من الوجوم على الشعب الانجليزي. اعقبه رد فعل سريع تمثل في مئات المؤلفات التي مجدت غردون ثم تلتها فترة من الزمن اشاح فيهــا البريطانيون بوجوههم عن السودان، مقبرة الرجل الابيض ،والخجل والشعور بالعار يملأ جوانحهم . فقد كانت تلك اول هزيمة تلحق بالرجل الابيض في افريقيا . بل واصبح التجاهل المقصــود والتحاشي هو الاتجاه الغالب . ولم يعدم العسكريون البريطانيون من غمزات ولمزات من الصحافة الاوربية بين الفينة والأخرى وهي تلمح من بعيد لهزيمتهم المخجلة .

واعتبر الامر لسنين طويلة عارا قوميا . وهذا واضح من الاشعار والاغاني ورسوم الكاركتير التى سادت فى تلك الفترة .

وعندما بدأت شعبة المخابرات المصرية تتحدث فى تقاريرها الطويلة عن تضاؤل قوة الخليفة وعن الخلافات التى تمزق وحدة دولة الخليفة ، وعن ضيق السكان به ، تمكن ونجت من تهريب الاب اوهرلدر من قلب عاصمة الخليفة ونشر كتابه على العالم . والسرعة التى تم بها تأليفه وترجمته وطبعه توضح ان ايادى كثيرة كانت وراء نشره . فكتاب « عشرة سنوات فى الاعتقال » بتركيزه على القصص الدموية والابادة والمجاعات [1] بصورة مبالغ فيها كثيرا كان القصد منها واضحا ، وهو تصوير اعادة فتح السودان كعملية انسانية من واجب الامم المتحضرة . ثم تلاه كتاب سلاطين المشهور « السيف والنار فى السودان » وما امتلأت به صفحاته من حقائق أو بالاحرى أكاذيب مفزعة معروفة للجميع . أفلحت كل تلك المطبوعات فى نكأ الجرح القديم ، وأثارت حلما قديماً بالثأر ورد الكرامة ، وحلم أقدم منه بامبراطورية يربطها خط سكة حديد من القاهرة لرأس الرجاء ، وكان العسكريون على رأس هؤلاء الحالمين . وتحولت الانظار التى اشاحت بوجهها من قبل نحو السودان مرة أخرى . فباحتلال بريطانيا لكينيا اصبحت أفريقيا تقريبا من الاسكندرية وحتى رأس الرجاء الصالح تحت سيطرتها ماعدا تلك البقعة من الارض التى تمتد بين حلفا ومنابع النيل وبين كسلا ومملكة وداى — وهى امبراطورية الخليفة .

ولعل النظرة البريطانية للخليفة تتضح من تقارير كرومر المتلاحقة فقد اوضح فى تقاريره فى اواخر عام ٨٩ بانه مقتنع تماما باهمية استرداد السودان بالنسبة لسلامة مصـــر وامنها بل لبقائها ، ولكنه يؤكد منذ زمن ان الحالة الراهنة "Status Qua"

---

(١) يوضح الأستاذ قاسم بدرى فى رسالته مستعينا بالرسم البيانى ، الذى يرتفع ارتفاعا رأسياً مفاجئا شبيهاً بالمسله ، إن ما نشر عن السودان فى عام ٨٥ ورمز إليه بأدب غردون "Gordon Literature" تجاوز مائة وستون مؤلفاً وينحدر الرسم البيانى فجأة فى بقية الاعوام إلى أن يبدأ فى الصعود مرة أخرى عام ٩٨ و ٩٩ .

Kasim Badri, M.A. Thesis, A Gritical Analysis of British Historical Writing on the Mahadiya of the Sudan, Beruit, 1971 "Unpublished".

هي حـــالة مثالية طالمـــا ان الخليفـــة لايملك من القـــوة مايهدد مصـــر مباشرة ، وطالما كان هو المسيطر على منابع النيل وهو لايملك من الامكانيات الفنية والعلمية والهندسية مايمكنه من تحويل مجرى النيل،وهو حيوى لوجود مصر كلها . «واخشى مايخشاه» هو ان تدفع مشكلة السودان دفعا في وجه بريطانيا قبل الاوان ، وإن ترغم بريطانيا على التصدى لمشكلة السودان رغما عنها . اى ان يهدد الخليفة غزو خارجى من دولة اوربية تمكنها استعداداتها الفنية والهندسية من تحويل مجرى النيل . « والاوان» في نظر كرومر هو تدهور قوة الخليفة العسكرية من جهة ، واستعداد الجيش المصرى ومقدرة الميزانية المصرية على تحمل نفقات الحملة الباهظة من جهة اخرى ، فان استعادة السودان ستتم على حساب «زيادة عالية جدا في الضرائب التى اثقلت كاهل السكان قبلا لدرجة لاتتحمل أى زيادة جديدة . وعلى حساب ايقاف مشاريع التنمية » « نصف ايرادات الميزانية المصرية كان يدفع لسداد ديون الخديوى اسماعيل . »

وقصة كرومر وحساسيته لكل مايمس الميزانية المصرية مشهور وموضع تندر بين معاصريه . فقد افلح في موازنتها وقطع شوطا كبيرا في تسديد ديون البيوت المالية الاوربية على حساب المنصرفات والخدمات الضرورية ، وبعد ان اثقل كاهل السكان بالضرائب . وبعدها تولى كل المناصب الادارية والعسكرية في مصر بريطانيون . وعندها عثرت ابواق الدعاية من مؤلفين وصحفيين بريطانيين على مادة دسمة في انجازات كرومر السلمية ، لتخفف من مرارة سقوط الخرطوم، ملقية ضوءا قويا على مشاريع كرومر الاصلاحية . وبدأ كرومر ينظر للامر وكأنه انجاز ومجد شخصى له . وكان يعارض دائما في كل نمو للقوة العسكرية على حساب اقتصاد مصر النامى ، وزاد موقفه تشددا بعد عملية استرداد طوكر . حين دفعت الحملة الموجهة ضد عثمان دقنة ثمنا غاليا لايتناسب مع ضآلة قوات عثمان دقنة .

وبعد ان انتعشت الميزانية المصرية قليلا ، بدأ التفكير في اعادة بناء الجيش المصرى الحديث . كان الهدف الاساسى هو الامن الداخلى وحماية الحدود من الغزو الجنوبي — تهديد الخليفة .

ففى ديسمبر ١٨٨٢ وبقرار واحد من كرومر سرح كل الجيش المصرى

الذى اشترك فى ثورة عرابي وقاتل فى معركة التل الكبير . لم يمض زمن طويل حتى برزت ضرورة الاحتفاظ بقوة نظامية للامن الداخلى ولحماية الحدود الغربية والجنوبية من غارات عرب البدو من ليبيا ، وهجوم جيوش المهدية المتوقع بين فينة واخرى .

لم تكن حالة مصر الاقتصادية تسمح باكثر من جيش صغير . فبدأ التجنيد الاجبارى بنظام القرعة . وبعد ستة شهور استعرض الخديوى توفيق وسير (ايفلن وود) سردار الجيش المصرى ستة الف جندى كانوا نواة الجيش المصرى الحديث على رأسهم صفوة من الضباط البريطانيين الشبان بلغ عددهم ٢٦ ضابطا وثلة من ضباط الصف البريطانيين للتدريب - سرعان مالمعت اسماؤهم فى بناء الامبراطورية البريطانية - جرانفيل - وودهاوس - كتشنر - ماكدونالد - هنتر ورندل .

وبينما كان هكس يعسكر فى الخرطوم عام ٨٣ على رأس فلول عرابي المقيدة بالسلاسل وهو فى طريقه لنهايته الدموية ، ارسل للسردار وود طالبا تعزيزه باربعة كتائب من الجيش الجديد . ولكن الاقدار رحمت الجيش النامى . فاعتذر كرومر عن إرسالها وأنقذ كتائب وود هاوس من الابادة السريعة بخراب النجومى وفيران ابو عنجة .

وبعد استقالة وود عين كتشنر سردارا للجيش المصرى . وفى عهده بدأ الجيش المصرى ينمو باطراد . فعندما انضم الى صفوفه الجنود السود الاشداء - احفاد من ارسلهم الدفتردار واسماعيل لمحمد على ليستخدمهم فى بناء امبراطوريته - طعمت روحه القتالية ، وعندما استكمل كتشنر عناصره القتالية من مدفعية وفرسان ووحدات ادارية اصبح جيشا كاملا ، ووفر له تقدم ود النجومى وغارات عثمان ازرق خبرة قتالية معقولة .

وفى عام ١٨٩٦ كانت العناصر القتالية للجيش المصرى تتكون من :

المشـــاة :

١٨ كتيبة مشاة من الاولى حتى الثامنة عشر ، منهم ست كتائب سودانية ، من التاسعة حتى الرابعة عشر ، واثنى عشر كتيبة مصرية .

تكونت كل كتيبة من ٦ سرايا مشاة «قوة الكتيبة المشاة ٧٥٩ جندى» سلحت كتائب المشاة بالبندقية مارتيني هنرى .

العناصر الراكبة :

٩ سرايا فرسان كلها مصرية — كل سرية ١٠٠ فارس

سلحت بالبنادق والسيوف والحراب الطويلة .

٨ سرايا هجانة — ٤ سرايا سودانية، و ٤ سرايا مصرية كلها تحمل البنادق.

المدفعيــة :

٦ سرايا مدفعية — سلح اثنان منها بالمدافع مكسيم نور نفلدت سريعة الطلقات عيار ٩ رطل . والبقية بمدفعية الميدان عيار ١٨ رطل .

١ ســرية مدفعية خيــول "Horse Artillery" سلحت بالمدافــع كروب عيار ١٢ رطل .

الضــباط :

كل المناصب العليا — من قائد سرية وأعلا بريطانيون ماعدا الكتيبة الخامسة والسادسة فضباطها من الاتراك والشراكسة .

بلغ تعداد الجيش المصرى عند الغزو ٢٠٠٠٠ جندى بما فيهم كتائب السكك الحديد.

وبعد عام ٨٨ ، بينما كان الجيش المصرى ينمو باطراد ويكتسب ثقته بنفسه وعتاده الحديث ، كانت قوة الخليفة العسكرية تتناقص باستمرار . وبدأ الميزان العسكرى يميل فى اتجاه السردار . ثم حدثت معركة توشكى وقضت على الهالة الاسطورية التى كانت تحيط بقوة الخليفة ويعمل لها الف حساب . ثم بدأت تقارير ونجت تعزف على نغمة اضمحلال قوة الخليفة . وكان ذلك « اخشى مايخشاه » كرومر (١) وهو ان ضعف الخليفة قد يغرى العسكريين البريطانيين فى الجيش المصرى بمحاولة اعادة غزو السودان حيث تلقوا اكبر صفعة وجهت لهم اثناء بناء الامبراطورية .

---

(١) وقد سأل لورد روزبرى فى أبريل ٩٥ كرومر لاول مرة عن مشاعر المصريين هل هم مهتمون وهل لهم الرغبة فى استعادة السودان . وأجاب كرومر « ان الوزارة المصرية والعسكريين البريطانيين يتحرقون ←

* * * *

ولكن فى بداية التسعينات بدأ يلوح فى الأفق حدوث « اخشى مايخشاه » كرومر حقيقة ، وهو ظهور موقف يرغمه على مغامرة عسكرية فى السودان . فقد بدأت الانباء تتواتر عن نجاح البعثات الفرنسية فى تقدمها من الغرب واخبارها تنشر فى الصحف الفرنسية بلا مواراة . وكلما سئل السفير الفرنسى فى لندن تارة ينكر وتارة اخرى يتهرب من الاجابة . وبدأت الانباء تتأكد تدريجيا عن اطماع فرنسا البعيدة فى حوض النيل . وبدأ كرومر فى النظر للتهديد الفرنسى لمنابع النيل نظرة جدية ويؤكد للندن ان حل الموضوع لن يتم فى القاهرة بل حله حقيقة يكمن فى مواجهة شاملة مع فرنسا :

« لاثنى عشر عاما ظللنا ندور فى حلقة مفرغة (١) فيما يختص بالمسألة المصرية ونصل دائما لنفس الحلول ، اما ان نخضع للضغط الفرنسى ونحاول الوصول معهم لاحسن شروط لنا ، وهذا الموقف لن يكون فى صالحنا ، بالتأكيد « أى لايمكن ان نصل معهم لشروط توفر لنا موقفا احسن من موقفنا الحالى » أو نتخذ سياسة اكثر ايجابية تحقق مصالحنا نحن ونخاطر بنشوب النزاع بيننا وبين فرنسا . »

رغبة فى استعادة السودان قبل وقوعه فى يد الفرنسيين وان الشىء الوحيد الذى يمنعهم من التصريح بذلك هو معرفتهم لمعارضتى التامة لمثل هذا المشروع » .

وذكر رأيه :

I have always been so afraid of the soldiers getting their bit in the teeth and running away with one that I have persistently put forward, the objection to the adoption of a forward policy .... The Sudan worth a good deal to Egypt, but it is not worth bankruptcy and extremely 'oppressive taxation.

« ولطالما خشيت من جموح العسكريين وصعوبة ايقافهم اذا جنحوا لسياسة أكثر عدائية وأكثر حيوية ، ومن عدم مقدرتى على معارضتهم دائما .. ان السودان يعنى الكثير بالنسبة لمصر ولكنه لا يستحق أن ندفع فيه ثمنا غاليا مثل الافلاس أو الضرائب العالية . »

"In all Egyptian matters we have for the last twelve years been continually moving round in a circle and we always arrive to the same conclusion we must either yield to French and make the best of terms we can with them .... which must almost of necssity be very bad terms to us or if we take any decisive step on our own account, we risk a very serious quarrel with France."

وعلى الحكومة البريطانية ان تختار بين المسلكين وان توازن بينهما فالقضية ستحسمها فى النهاية القوة الحربية بين فرنسا وبريطانيا : « منذ احد عشر عاما قلت لكم ان حل المسألة المصرية (١) كلها يعتمد على التفوق البحرى بين فرنسا وبريطانيا ولم تأخذوا كلامى مأخذ الجد. وانا الآن اصر على ماقلت اكثر من قبل. »(٢)

وأدى تزايد الشكوك البريطانية فى المطامع الفرنسية الى تصريح رتشارد جراى الشهير فى مجلس العموم ردا على سؤال احد النواب عن حقيقة تلك الاشاعات :

« ان تقدم بعثة فرنسية باوامر سرية من غرب افريقيا نحو منطقة يعلم الجميع منذ زمن طويل « حقنا المشروع » فيها ، لن يكون اجراءا مفاجئا فقط ، بل يجب ان تعلم الحكومة الفرنسية اننا سنعتبره اجراءا معاديا » وتبع التصريح ماتبعه من تملص تارة وتشديد تارة أخرى من جانب الحكومة البريطانية ، ومن احتجاج وتجاهل من قبل الحكومة الفرنسية . ولكن خفقات قلب كرومر بدأت تتزايد مع تلك المخاوف وبدأ يميل تدريجياً إلى اتخاذ سياسة حربية أكثر ايجابية لحماية منابع النيل باسترجاع السودان .

وقبلا كان هناك مشروع يشغل بال كرومر ويعتبره اكبر انجازاته وهو — خزان اسوان . وفعــــلا تم تحضير كل التقديرات المالية والتجهيزات الهندسية .

---

(١) Eleven years ago, I said the ultimate solution of the Egyptian question would depend on the relative naval strength of England and France. At the time no one belived me. I hold to that opinion more strongly than ever.

(٢) يرجح مكي شبيكة تغير موقف كرومر منذ أبريل ٩٥ :

it is obvious that if any civilized power holds that matter of the upper Nile it may in the end exercise a predominating influence on the future of Egypt. I cannot therefore help thinking, that it will not be possible or desirable to maintain a purely passive attidude."

Shibeika, Mekki, *British Policy in the Sudan* (Oxford), pp. 345-346.

« وبديهى ان أى قوة دولية متمدنة اذا تمكنت من وضع يدها على منابع النيل فستتمكن فى النهاية من التأثير على كل مستقبل مصر . واميل للاعتقاد بأنه ليس من المستحسن ولا الممكن اتباع سياسة سلبية دائما .

وكرومر وهو يمضى قدما فى المشروع مشجعا جارستين وزير الرى ، كان يعلم علم اليقين بأنه ستحل لحظة يوما ما سيختار فيها بين انشاء خزان اسوان ، كعملية تنمية للميزانية المصرية التى انهكتها الديون ، وبين عملية استعادة السودان التى يستنزف فيها كل ثمار التوفير وشد الاحزمة على البطون لسنين طويلة .

فكان مكتب كرومر فى الوكالة البريطانية يشهد دائما زيارات متعاقبة منتظمة من رجلين . احدهما السردار كتشنر ليطلب تأييد وموافقة كرومر على اقناع لندن بالشروع فى الغزو ، موضحا خطورة التقدم الفرنسى البلجيكى من الشرق والغرب نحو منابع النيل ، وأنه بصفته سردارا للجيش المصرى مسئول عن حماية الممتلكات المصرية . ويعقبه بعد قليل سير ويليام جارستين وزير الرى ليطربه بموضوعه المفضل ، خزان اسوان . وفى اوائل فبراير كان السردار خارجا من مكتب كرومر ، وجارستين فى طريقه اليه فتقابلا فى الطريق وسأل المهندس الجنرال عن نتيجة مقابلته مع كرومر فحدق السردار فى وجهه غاضبا ورد ببرود «لقد هزمتنى — ستبنى خزانك» . وانطلق فى الطريق ، واسرع جارستين بالدخول لكرومر والحبور يملأ جوانحه .

ولكن فرحة جارستين لم تدم أكثر من بضعة اسابيع . ففجأة فى الثالثة صباحا من يوم ١٣ر٣ر٩٦ . وصل التلغراف الشهير للجنرال نولز — قائد قوات الاحتلال البريطانية يحمل تعليمات القيادة البريطانية باحتلال عكاشة — نقطة خالية لاقيمة لها على بعد ٣٠ ميلا جنوب صرص — واوضحت كلمات التلغراف اللاحق الذى ارسل لكرومر :

« اعادة احتلال دنقلا سيكون احسن عملية اظهار قوة وذا فائدة عظيمة لتحسين موقف الايطاليين فى كسلا بجذب انتباه الخليفة بعيدا عنهم .

كما لايمكن ان نتجاهل اثر التقدم فى تأمين الحدود المصرية الجنوبية من احتمال تقدم يقوم به الخليفة يشجعه عليه الانتصار الافريقى الاخير على الاوربيين . . . . . تبدأ العمليات بأسرع فرصة ممكنة . . . . ليس هناك ضرورة للسرية اطـــلاقا » .

وهكذا بدأ غزو السودان في يوم ١٣ر٣ر١٨٩٦ وانتهى يوم ٢ر٩ر١٨٩٨ .
فما الذى حدث في تلك الاسابيع بالضبط وأدى الى ذلك التغيير المفاجئ ؟ الاجابة هى انتصار منليك على عدوه . ومنذ هزيمة جنرال باريتارى الاولى بادر كريسبي رئيس الوزراء الايطالى بارسال تلغرافاته المهينة لقائده . وبينما كان هذا يستعد للبدء في تقدمه المنكوب نحو عدوه . كانت كواليس وزارة الخارجية في لندن تشهد نشاطا متزايدا . فقد اوضح لها السفير الايطالى ان الايطاليين مضطرون لاخلاء كسلا اذا لم يتلقوا مساعدة سريعة من بريطانيا . كان مكان المساعدة الطبيعي هو تقدم جنوبي من سواكن نحو كسلا لجذب انتباه الخليفة لئلا يتسبب تقدم المهديين في وضع حامية كسلا الايطالية فى كماشة سودانية اثيوبية . ولكن ولزلى القائد العام البريطاني اعترض بأن المنقذين سيصبحون بعد قليل فى حاجة لبعثة انقاذ «كان ولزلى قائد بعثة الانقاذ لغردون » وعلى الرغم من موافقة كرومر على تسيير البعثة ، وهو امر لم يكن متوقعاً ، الا انه خير لندن في الامر بعد أن اوضح « ان مثل هذه العملية ستضع الميزانية المصرية تحت رحمة البنوك الفرنسية ولكن لامفر منها من اجل المحافظة على علاقتنا مع ايطاليا وبالتالى المانيا » فأوربا كان يتحكم فيها حلفان كبيران احـــدهما الحلف الثـــلاثي Triple alliance (المانيا ــ النمسا ــ ايطاليا) من جهة والحلف الثنائي (روسيا ــ فرنسا) من جهة أخرى . وكانت بريطانيا مرتبطة بحلف ثنائي مع ايطاليا . وبعد طلب السفير الايطالى المساعدة كان القرار البريطاني فى البداية هـــو القيام بعملية اظهار قوة Demonstration لتخفيف الضغط المتوقع على الايطاليين من ناحية الخليفة في مدى صغير وباهداف محدودة لاتثير فرنسا بحيث تجد ذريعتها في التقدم نحو منابع النيل . ولكن كرومر اعترض على مبدأ اظهار القوة « فان الانسحاب الذى سيعقب عملية اظهار القوة » سيعتبر انتصارا للخليفة ، ليس فقط في ام درمان ، بل في كل الشرق الاوسط » .

ومضت تعليمات مكتب الحرب البريطاني للجنرال نولز « ان التقدم سيتكون من عمليتين منفصلتين : الاولى هي التقدم واحتلال عكاشة فورا ، ثم عملية اظهار قوة بالتقدم نحو ابوحمد عبر صحراء النوبة من حلفا . »

أما الى اى مدى فى اتجاه ابو حمد ، فلم توضح التعليمات ولكنها اوضحت

أن التقدم يجب ان يستمر على الاقل بعد المورات ـ مركز العبابدة حلفاء الحكومة .

ووسط هذا الاخذ والرد والافتراضات المترددة . كان كرومر خارج الصورة . فقد وصلت التعليمات لقائد قوات الاحتلال البريطاني في مصر وصرف تعليماته للسردار متخطيا كرومر ـ سرعان ما احتج كرومر بان الامور خرجت من يده وان التجهيز والصرف اذا لم يضع تحت مسئوليته فسيفلت الامر من بين يديه كلية ليصبح في يد العسكريين .

رد سالسبورى بجعل السردار مسئولا مباشرة امام كرومر . واوضح في تلغرافه المطول بتاريخ ١٣ مارس أن السر في كل هذه التناقضات هو « ان الهدف الرئيسي من هذه العملية هو معاونة الايطاليين ، لكن النيل اختير كمسرح للعملية وليس شرق السودان اولا لان ذلك افيد للمصالح المصرية وبالتالى البريطانية، وثانيا لتجنب الاصطدام بالحشود الاثيوبية في شرق السودان ـ اما حشود الخليفة فهى بعيدة في امدرمان وقواته في الشمال بسيطة . »

ولكن الايطاليين لن تكون مساعدتهم قيمة الا اذا اعتقد الخليفة ان هناك غزوا حقيقيا سيشن ضده :

« ولهذه الاسباب فان الدعاية مهمة ويجب الاهتمام بها وزيادتها لدرجة التهويل "Bluffing" وقد اخبرت انا السفراء الاوربيين هنا انك ستبدأ التقدم نحو دنقلا . » ومضى سالسبورى معتذرا بالتحرك نحو مسألة السودان قبل نضج الامور « انتعاش الميزانية المصرية » بأن :

« هزيمة الايطاليين الشنيعة وموهبتهم العجيبة في الانكسار امام الافريقيين اجبرتنا على اتخاذ هذا الاجراء قبل سنتين أو ثلاثة من اكتمال استعداداتنا في حوض النيل . ولكنك توافقنى انه ليس في صالحنا سواء من ناحية الموقف الاوربي أو الافريقى ان نقف مكتوفى الايدى بينما يسحق الافريقيون الايطاليون » .

وحقيقة منذ زمن بعيد كانت الدول الاوربية تعلم علم اليقين بتدفق الاسلحة الفرنسية لاثيوبيا . وبدأت الشكوك تتزايد بأن هناك تعاونا بين الخليفة ومنليك قبل معركة عدوه ، وازدادت الشكوك في وجود تنسيق بين الخليفة ومنليك وبالتالى

بين الفرنسيين والخليفة ، وان الفرنسيين سيتسللون لمنابع النيل ليس من الغرب مباشرة بتجنب امدرمان ، ولكنهم سيتسللون من الشرق عبر الصخرة القوية نفسها ، الخليفة . كان تصور هذا الحلف الهائل ــ الخليفة ــ ومنليك ــ والاسلحة الفرنسية فكرة مفزعة وسدا منيعا يقضي على أي احلام باسترداد السودان ، ويعني ضياع منابع النيل من بريطانيا الى الأبد .

وهكذا نرى ان الأسباب المباشرة لبداية الغزو لم تكن الحصول على منابع النيل بل احتلال دنقلا ، ولكنه كان نتيجة حتمية للصراع الدائر لاكثر من ست سنوات للاستحواذ على منابع النيل ، وانتهى الصراع عام ٩٨ بازمة فاشودة ، مفتاح منابع النيل ، بعد معركة امدرمان .

السـردار يتقـدم

« وتكلموا معى فى قيام المركز من العرضى الى جهة الدبة وعبدكم توقف عن ذلك الى ان قال من باب الارجاف ان جردة الترك هذه هى الجردة التى اشار عليها المهدى عليه السلام بوصولها لحد كررى »

خطاب ود بشارة للخليفة موضحاً حقيقة انسحابه من دنقـلا .

هل علم الخليفة بالغزو قبل بدئه ؟

تشير ظواهر الامور الى ان الاجابة كانت نعم . فالمؤرخ محمد عبد الرحيم عندما يتحدث من موقعه كجندى فى حاميات الحدود الشمالية وهو يرقب تحركات التجار بين مصر والسودان يذكر ان شبكة مخابرات الخليفة وأغلب عناصرها من التجار كانت هى الاخرى تعمل بنشاط فى مصر :

« ماكان خليفة المهدى غافلا أو جاهلا بما يطبخ له طى الخفاء بل كانت له جواسيس ومراقبين فى القاهرة يراجعون الصحف اليومية ويقطعون منها قصاصات عن تحركات الجيوش ومفاوضات السفراء وجلسات الوزراء وكل مايكون به مساس بالكلام عن استرجاع السودان وترسل له تلك القصاصات داخل مظاريف توضع بين طلبات المنافاتوره التى يصدرها تجار السودان بمصر الى السودان وبعد ان يراجعها الخليفة يكتب بذلك الى قواد جنده بالحدود ، وكفى بنا برهان على يقظته انه لما تقدمت طليعة اللورد كتشنر امر بسحب حامية عكاشة وتعزيز حامية صواردة . »

على أى حال ، منذ بداية العام بدأت تحركات الخليفة تبرر شكوك سالسبورى وكرومر فى قيام حلف بينه وبين الاثيوبيين .

ففى احتفال الرجبية فى ١٣ يناير ٩٦ عقد الخليفة كعادته مجلس حربه السنوى العام الذى يضم كبار الامراء وحكام الولايات ، وأعلن عزمه على استعادة

كسلا بتقدم بثلاثة محاور من قوات احمد فضيل ، وحامد على ، وعثمان دقنة .

وعلى الرغم من استغلاله لحرب الاحباش والايطاليين ، وضعف موقف الايطاليين ليبدأ التقدم نحو كســلا ، الا ان الوثائق اثبتت ان ذلك الحلف مع الاثيوبيين لم يقدر له ان يولد ابدا .

اما دنقلا ، مسرح الحرب الموشكة على الاندلاع ، فلم تتمتع يوما ما بأنها كانت احدى مراكز الحشد القوية للخليفة .

وفي عام ٩٦ كان محمد ود بشارة [1] حاكما لدنقلا خلفا ليونس الدكيم الذى جأر سكان دنقلا من مظالمه ، واستدعاه الخليفة « ليلزم الفروة في امدرمان » . وعندما انذر الخليفة ود بشاره باحتمال تقدم العدو نحوه ، اضطر لاجراء تعديلات رئيسية في توزيع قواته في المنطقة . ومن ارباعه الاربعة ، احتفظ بربع فى دنقلا ، وأرسل ربعا لتعزيز حمودة ادريس قائد منطقة صواردة المنطقة المتقدمة التى حشد فيها قبلا ربعين ، وهى تساوى نصف قوة ود بشارة كلها فى دنقلا .

* *   * *   * *

في يوم ١٥ مارس ١٨٩٦ ، وقبل تحرك حشود الحملة من القاهرة للجنوب ، أصدر الكولونيل هنتر قائد منطقة الحدود الجنوبية اوامره لتجريدة صغيرة مكونة من جميع العناصر القتالية بالتقدم لاحتلال عكاشة ، اول نقطة داخل حدود السودان . وقد وجدت عكاشة خالية . وعادت كل القوة الراكبة لصرص لتعود

---

(١) محمد ود بشارة والى الخليفة على دنقلا منذ أكتوبر ٩٥ وصفه سلاطين باشا فى تقرير المخابرات بانه أكفأ قادة الخليفة الشبان . من التعايشة ولد عام ١٨٦١ فى قرية بركس بالقرب من دارا بدارفور وكان قائدا ثانيا لعثمان ود آدم في حملاته الحافلة في دارفور . بعد وفاة عثمان آدم وتولى محمود ود أحمد ولاية دارفور شب النزاع بين ود بشارة ومحمود وارسل الخليفة واستدعاه لامدرمان . ولما كثرت شكاوى سكان دنقلا من يونس الدكيم وافادت تقارير عيون الخليفة عن طغيان يونس لم يجد أنسب من ود بشارة ليخلفه حاكما لدنقلا . توضح خطابات وتقارير ود بشارة وتعليماته لقادته أو تقاريره للخليفة أى مستوى من الكفاءة العسكرية كان يتمتع به ود بشارة حتى ولو قيست كفاءته بمستوانا المصرى ولم تكن شجاعته الشخصية باقل من كفاءته فتشرشل لا يذكر اسمه الا مقرونا بالشجاع « ود بشارة الشجاع » "Valiant Wad Bushara

محمد عبد الرحيم معجم الشخصيات

Hill, p 254

Churchiul pp 257, 258

بالجزء الاعظم من قوة الحدود الاصلية التى تكونت من الكتيبة السودانية الحادية عشرة والثانية عشرة بقيادة الميجر ماكدونالد وسرية مدفعية وقافلة ضخمة ضمت ٦٠٠ جمل حملت عليها اغلب مؤن حرس الحدود .

أمضى السردار الاشهر الثلاثة التى اعقبت احتلال عكاشة فى عمل دؤوب متواصل لتجميع قوات الغزو فى الحدود الجنوبية . توزع نشاطه بين استدعاء الاحتياطى ، لانشاء خط إمداد طوله ٨٢٥ ميلا من القاهرة حتى عكاشة . وصل السردار لعكاشة يوم ١ مايو ١٨٩٦ ليشرف على الترتيبات النهائية للتقدم ، وخلفه تكامل خط امداد مضمون يعمل بكفاءة عالية يضمن تدفق الكتائب والمدفعية على نقطة عكاشة ، مبرزا مقدرة السردار التنظيمية والادارية . فقد استخدم السكة حديد اساسا لنقل حشود الحملة ، كما استخدم بوارج شركة كوك السياحية لتجر وراءها مئات الصنادل لنقل صناديق الذخيرة والتعيينات ، بالاضافة لاسطول صغير من مراكب الاهالى الشراعية « القياسات » وفى نهاية مايــو اكتملت استعدادات السردار وتمكن أخيرا من حشد ٩٧٠٠ جندى توزعوا كالآتي :

السردار كتشنر : قائد الحـــملة

كولنيل هنتر قائد فرقة المشـــــاة

اللواء الأول	اللواء الثاني	اللواء الثالث
بقيادة الميجر لويس	بقيادة الميجر ماكدونالد	بقيادة الميجر ماكسويل
تكون من :	تكون من :	تكون من :
الكتيبة الثالثة «مصرية »	الكتيبة التاسعة «سودانية »	الكتيبة الثالثة «مصرية »
،، الرابعة ،،	،، الحاديةعشرة ،،	،، السابعة ،،
،، العاشرة «سودانية »	،، الثانية عشرة ،،	،، الثامنة ،،
	،، الثالثة عشرة ،،	

القوات الراكبة :

٧ سرايا فرسان

٨ سرايا هجانة

المدفعيــة :

١ سرية الخيول

٢ سرية مدفعية ميدان

١ سرية رشاشات مكسيم بريطانية « ٦ مدافع » .

كيف كانت الخطوط العامة لخطة السردار لاستعادة دنقلا ؟

حقيقة لم يجرؤ السردار فى تلك الفترة على الكشف عن مطمحه النهائي . ولكنه كان يعلم ، كما كان جميع من حوله فى الحملة يحسون ، بان الهدف النهائي هو ام درمان وليس دنقلا، وقنع فى تلك الفترة بدنقــلا كخطــوة اولى نحــو هدفه الاعظم .

وقبل اثنى عشر عاما ، بينما كان كل هم بريطانيا هواخلاء الجنود المصريين من السودان وضمان سلامة بعثة الانقاذ البريطانية وهى تسرع منسحبة للشمال ، كان الميجر كتشنر مبعوثا للمخابرات فى مركز الدبة المتقدم يقدح ذهنه فى كيفية اعادة غزو هذه البلاد . وامضى اغلب اوقاته فى مسح منطقة دنقلا ، ومراقبة تيار النيل وارتفاعه وانخفاضه . وتوصل اخيرا الى ان الحل الوحيد يكمن فى خط امداد مضمون سريع هو السكة حديد – يكفيهم مشقة الاعتماد على آلاف الجمال البطيئة ، والتحرر من حمل قرب المياه لشق الصحراء . وعاد الى مصر وهو يعزف على هذه النغمة فى أنها العلاج الامثل للتغلب على عقبة الشلالات .

فكانت خطة السردار هى التقدم بحذاء النيل وخطه الحديدى يتبعه خطوة بخطوة ، وبوارجه تتقدم مشاته للاستكشاف وتدمير تحصينات ود بشارة . على ان يكون هدفه الاول فركة ، اول موقع دفاعي قوى للعدو لاحتلالها بمشاته فقط . ثم يمد الخط الحديدى بعد الشلال الثاني لتحمل عليه قطع البوارج الكبيرة الجديدة ليتم تركيبها فى ورشة كوشة جنوب الشلال ويتم انزالها فى الماء وينتظر ارتفاع النيل ليبدأ تقدمه بالبوارج والمشاه . فالشلال الثالث كان يشكل العقبة الوحيدة بين اسطوله النهرى ودنقلا العرضى ، عاصمة منطقة دنقلا ، والمرجح ان البوارج ستتمكن من عبوره فى زمن الفيضان . كان حشده الارضى ، بالاضافة للبوارج

حاملة المدفعية ، أكثر من الحاجة لسحق قوات ود بشارة في دنقلا التى لاتتجاوز ٥٠٠٠ مقاتل و ٦ مدافع ، وبذلك تسقط كل المديرية في يده .

** ** **

أما فركة خط دفاع ود بشاره الاول ، فقد كانت احدى نقاط حمودة ادريس قائد المنطقة الشمالية فى دنقلا فى البداية ، حيث وزع قواته في المنطقة بين صواردة وفركة ، ثم حشد فيها كل قوته امتثالا لتعليمات ود بشارة . وقد بدأ احتلال فركة بقوة في اواخر مارس كما يذكر احد جنود ود بشاره — المؤرخ محمد عبد الرحيم — : « وقد انتدب منا ٢٤ جنديا ١٢ منهم من المشاة حملة البنادق و ١٢ فارسا مدججين بالرماح كنت أنا ضمن المشاة وكلفنا باحتلال فركة . وكذا سارت جماعة منا لقطع خطوط التلغراف بين كرسكو وابار المرات وقد أدت كل منهم رسالتها باحكام وضبط » .

وما أن تقدم طابور هنتر في اول مارس لاحتلال عكاشة الا وترامى الخبر لود بشارة في رئاسته بدنقلا . والواضح من مراسلات ود بشارة مع الخليفة ، ومع قائده في فركة ، ان ود بشاره تمكن من تنظيم شبكة استخبارات دقيقة افلحت دائما في تقديم تحليل صحيح للاحداث . فزيارة السردار للحدود في فبراير قبل شهر من الغزو وصل خبرها لود بشاره وأشتبه في أنها تمهيد لتقدم السردار وسارع وطير الانباء لامدرمان طالبا التعزيز ، وموضحا للخليفة انه بدأ في نشر شبكات الاستخبارات لمعرفة نوايا العدو . فقد كتب للخليفة :

« بالنظر لانقطاع الخبر عنا من جهة الاعداء فى هذه الايام ولضرورة لزوم معرفة ماهم عليه من الاحوال قد وجدنا من أهالى السكوت رجل يدعى مبارك محمد له منزل هناك وتوسمنا فيه الصدق وعينا معه نحو السبعة جمال من الانصار ليتوجهوا مابين مكركي وصواردة وينزلوا هناك ليلا على الاهالى وبواسطة مبارك المذكور يستحصل على خبر الاعداء وماهم عليه تفصيلا . »

وواقع الامر ان ود بشاره كان يعاني من عوامل مضادة عديدة . بالاخص من سلوك قادته ، فبعد تسلمه قيادة المنطقة من يونس ، وكان للاخير بالطبع

مراكز قوة كثيرة وسط الامراء ، لم ينظر اغلبهم بعين الرضى لاجراءات الحاكم الجديد الحاسمة ولا لاصلاحاته . وعلى الرغم من انه كان القائد الأعلى لكل المنطقة ، الا أن مقدرته على فرض كلمته على قادة مناطقه كانت محدودة ، لبعد المسافات من جهة ، ولمركزية حكم الخليفة في امدرمان من جهة أخرى . فيده مغلولة عند اجراء أى تغيير في القيادات أو حتى في حرية التحرك لقيادة المعركة بنفسه الا باذن الخليفة من امدرمان .

كما توضح المراسلات ان حمودة ادريس اتعب ود بشارة تعبا شديدا . وقد وصل خبر التقدم لعكاشة لود بشارة قبل ان يصل لحمودة فى فركة المتقدمة . وخطاب ود بشارة الذى ارسله لكل قادة النقاط المتقدمة فى ٢٢ مارس ليأخذوا حذرهم يوضح أنه لم يضع لحظة واحدة فى اعادة تنظيم دفاعه عن المنطقة بمجرد استلام انذار الخليفة له ، وخص حمودة قائد منطقة صواردة بالذكر .

والواضح ايضا ان ود بشارة كان يعرف صفة التواكل فى قائده المتقدم ، فحثه مرارا على اخذ المباداة والبدء فى مهاجمة السردار وعدم الاستكانة والانتظار الى ان يهاجم، ويمضى مباشرة الى ارسال منشور حماسي يقرأ على كل أفراد القوة. وعندما مر شهر ولم يحرك حمودة ساكنا اضطر ان يخطر الخليفة لكى يرسل منشورا عاما من امدرمان يقرأ على جميع المقاتلين فى منطقة دنقلا .

وقد حفل الشهران اللذان تليا احتلال السردار لعكاشة باكداس من الخطابات من ود بشارة الى حمودة ادريس ، موضحة من جهة أى كفاءة تنظيمية وادارية وملكات قيادية استمتع بها ود بشارة ، وموضحة من ناحية اخرى تقصير حمودة ادريس والمشاق التى تجشمها ود بشارة لحثه على التحرك .

فنراه فى ١٤ ابريل ٩٦ يرسل له وهو من الموقع المتأخر معلومات مفصلة عن توزيع قوات العدو ونواياه ، ونلمح فى ثنايا الخطاب انه يذكره بان هذا واجبه بصفته قائد القوة المتقدمة ويحثه على ارسال انباء مفصلة عن العدو .

وفى ١٧ ابريل يصل ود بشارة الى الدرجة التى يعرض فيها على حمودة خططا متتالية لمهاجمة العدو يخوض فيها فى تفاصيل تكتيكية كثيرة،مثل التوقيت

الليلي، وتخصيص القوات ، وواجبات محاور الهجوم، ويركز على ضرورة قطع خط امداد السردار والسكة الحديد . وفي ٢١ ابريل عبر ود بشارة لحمودة عن مخاوفه في سرعة تقدم السكة حديد وان السردار سيتقدم (١) ويحتل السكوت بعد اسابيع . ويشدد فيه على حمودة ضرورة مهاجمة السردار قبل ان يكتمل حشده .

وأخيرا تحرك حمودة . فقد هاجم قافلة السردار نفسه يوم ١ مايو وهو يتقدم لعكاشه . كان حشد حمودة مفاجئا لطلائع استكشاف السردار وكاد الهجوم ان يبيدها لينِدفع لمهاجمة السردار نفسه وهو في موقف عصيب ، اذ كان اقرب تعزيز يبعد اميالا عن مكان الاشتباك . اصر يوسف عنقرة قائد الجهادية على مواصلة الهجوم ، ولكن حمودة امره بالانسحاب والعودة (٢) . فرفض يوسف الانصياع ولكنه رضخ في نهاية الامر . وبعد العودة لفركة قل احترامه لقائد المنطقة ، وبدأ في تحديه والتحرش به جهارا ، مما اضطر حمودة للتبليغ عن سلوك قائد الجهادية لود بشارة .

كان رد ود بشارة ردا مطولا ، اوضح انه قد يئس اخيرا من حث همة قائده المتقدم ، وعلى الرغم من انه لم ينصر يوسف عنقرة على حمودة صراحة الا ان تأييده لصحة اجراء يوسف نلمحها بين ثنايا السطور . واستمر ينصح حمودة في طريقة معاملة الجهادية . وعاد محاولا تنظيم دفاعات حمودة بنفسه وهو يوضح لحمودة الطريقة المثلى في تنظيم عمليات الامداد وتوزيع الذخيرة ووضع المدفعية .

---

(١) حتى ونجت لم يستطيع اخفاء اعجابه بمخابرات ود بشاره وصدق حرسه بعد عثوره على خطابات ود بشارة في فركة وترجمتها للانجليزية .

"The God Forsaken Sirdar intends to occupy Sukkot in seven weeks time" It was occupied exactly six weeks after this letter was written".

Intelligence Report, Egypt, No 48

From 22nd May to 21 June 19 1896

« ان السردار الملعون ينوى التقدم واحتلال السكوت في خلال سبعة أسابيع » احتلت بعد ٦ أسابيع بالضبط من تاريخ الخطاب . ونجت

(١) اشترك في هذه العملية المؤرخ محمد عبد الرحيم وجرح فيها ويؤكد انهم كادوا ان يبيدوا حرس السردار لولا أوامر حمودة لهم بالانسحاب .

محمد عبد الرحيم المجلد الرابع – تاريخ المهدية – « ضرب المؤلف »

وبعد تأزم الامور بين يوسف عنقرة وحمودة ، عقد ود بشارة العزم على تولى القيادة فى المنطقة الامامية بنفسه وتنحية حمودة عن منصبه ، وكتب للخليفة فى أول ربيع أول مستأذنا فى التحرك لقيادة منطقة صواردة الامامية :
« وما حمل عبدكم على طلب الاذن للقيام مع الجيش بنفسه الا لكون ترآى لنا ان قيام الجيش بدون حضور عبدكم فيه بنفسه لايحصل منه المطلوب والاخوان مظنونين فيهم بالخير والشجاعة الا انهم فى حالة الحرابة وتدبيرها لايتأتى لهم الحزام امر الجيش وثباته الا بوجودنا فيه » .

والى ان يستكمل حشد القوات اللازمة والتعزيزات فى دنقلا العرضى ، سارع فى ارسال اكثر قادة الجبهة الشمالية ملاءمة للظروف التى تتطلب ايجابية وحسما وروحا عدائية ، وهو الامير عثمان ازرق . تحرك عثمان ازرق بربعه للانضمام لحمودة ، وسارع ود بشارة باخطار الخليفة بالتغيير الجديد طالبا موافقته . وفى ٢٧ مايو ارسل خطابا لحمودة وعثمان ازرق يحثهما فيه على التعاون ، وهو يخشى اعلان تنحية حمودة صراحة . ولكن قبل وصول خطابه لحمودة وصل رد الخليفة كافيا اياه مشقة اللف والدوران . فقد وافق الخليفة على تعيين عثمان ازرق فورا وبدون تردد .

سادت رنة الارتياح امر التعيين المرسل لعثمان ازرق من محمد بشارة بتاريخ ٢٨ مايو . بدأه ود بشاره مهنئا عثمان ازرق بالمنصب الجديد ، حامدا ربه على استجابة الخليفة لطلبه بتعيينه قائدا للمناطق الامامية ، موضحا انه عندما عزل صالح الزبير وعين حمودة مكانه ، كان يظن فيه الكفاءة ولكنه لم يؤد واجباته على الوجه الاكمل وتجاهل اوامره وتعليماته القتالية مرارا . ومضى محذرا عثمان أزرق من ان لحمودة مؤيدين كثيرين خاصة والمنطقة حافلة بكثير من التعايشة وهم كلهم يطمعون فى هذا المنصب منذ زمن ، وازرق لابد سيصبح هدفا وضحية لحسد الكثيرين . ويرجوه ان يخاف الله والايخذله فان اى فشل أو تقصير من جانبه ستكون نتيجته وبالا على رأس عثمان وعلى رأسه هو نفسه « أى بشارة » .

وأثبتت الايام صدق نبؤة ود بشارة فعلى الرغم من خطاب ود بشارة الا ان

قرائن الاحوال دلت على ان عثمان ازرق قاسى كثيرا من طاعة الامراء (1) .

وبعد انضمام عثمان ازرق كان تكوين حامية فركة كالآتي :

— عثمان ازرق قائد الحامية

المشـــاة « السلاح الابيض » :

أ — رأية الهبانية ٣٣٦ مقاتل بقيادة حمودة ادريس .

ب — راية الدناقلة (٤٤١ مقاتل) بقيادة كرم الله كركساوى

ج — راية الجعليين : تحت قيادة محمد عبد الحليم (٢٤٥ مقاتل)

الجهـــادية : تكونت من جماعتين سلحوا بالبنادق :

الجماعة الاولى : ٤٠٠ مقاتل تحت قيادة يوسف عنقرة .

الجماعة الثانية : ٢١٠ مقاتل تحت قيادة دودو بدر

الفرســـان : ٢٥٠ فارس تحت قيادة الامير جبير

الهجانة : ١١٠ حـــمال ٧٢٠ بندقية ٥٠ صندوق جبخانة .

** ** ** **

في اوائل يونيو مهد السردار لتقدمه باعـــلان الحرب الدعائية وتوزيع المنشورات ضد الخليفة :

---

(1) يخالف محمد عبد الرحيم الذى اشترك فى معركة فركة معظم المؤرخين الذين اتفقوا على ان قائد معركة فركة كان حمودة أدريس . وبينما يؤيدهم تقرير المخابرات المصرية رقم ٤٨ نجد ان تشرشل يتشكك فى هذه النقطة :

Whether Osman Azrak had actually assumed command on the sixth of June is uncertain. It seems more likely that Hammuda declined to admit this right, and that the matter rather stood still in dispute.

« لا يمكن الجزم بان عثمان ازرق كان متوليا القيادة الفعلية في يوم ٦ يونيو . ومن المرجح ان حمودة لم يتنازل عن القيادة لا زرق وان امر القيادة العليا لم يحسم وظل معلقا للنهاية » .

أما المؤرخ محمد عبد الرحيم فيحدد هذه النقطة بما لا يدع مجالا للشك :

ولقد عقد عثمان ازرق مجلسا دعا اليه الا مراء وبعد المداولة قرر المجلس لكل أمـير ناحية .. »

Intelligence Report No 48, annex 3

Churchill, Winston, *The River War*, Vol, I (London) 1899, p. 221

محمد عبد الرحيم — المهدية — المجلد الرابع — موقعة فركة .

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين اما بعد، فغير خاف على الحكومة ان الذى حملكم على شق عصا طاعتها انما هو تصديقكم دعـــوى محمد احمد المتمهدى وقد اتضح لكم الآن ان تلك الدعوى لم تكن من المهدية بشئ بل هى ثورة دموية افضت الى ملك جائر يتولاه الآن عبد الله التعايشى الذى عزل كل امير من غير اهله وولى اهله فاستبدوا بكم . ولما رأت الحكومة سؤ مصيركم ارسلت الآن جنودها الجرارة لانتشالكم من وهدة الضلال التى اوقعكم فيها المتمهدى وانقاذكم من الظلم الذى تقاسونه فى عهد خليفته التعايشى . وقد كان من مبتدعات المتمهدى وخليفته هذا منع الحج الشريف مع انه فرض وجب على كل من استطاع اليه سبيلا . ثم ان كلا منهما فسر القرآن على رأيه وهواه واستنبط احكاما شرعية كما اراد ومنعكم قراءة كتب الحديث والتفسير فضلا عما يأتيه التعايشى الآن من جمع المال، وتفريق كلمة الاسلام، وهتك الاعراض، وظلم الفقراء، وهدم البيوت الكبراء، وبعد ان كان رجلا مسكينا لايملك شروى نقيرا استأثر باموال الرعية كلها وسكن القصور المشيدة واتخذ نساء المؤمنين سرارى له واستحل وطأهن بلاعقد ولاملك يمين وهو مع ذلك يدعى بالزهد والمسكنة ويتنعم سرا بكل ماتطيب به نفسه وتقر عينه وهو ظالم غشوم ماتكلم احد بالحق الا قتله أو سجنه أو نفاه . وقد سجن الخليفة شريفا واهان الخليفة ود حلو واولاد المهدى وقتل ابراهيم عدلان واقارب المهدى مثل عبد القادر ود ساتي، ومحمد عبد الكريم واخوانهم، سجن الزاكى طمل، والقاضى احمد، والحسين الزهرة، أماتهم جوعا . وخرب مساجد المسلمين كمساجد الحسن الميرغنى واولاد نور الدائم والشيخ العبيد والشيخ حمد النيل العركى . ونفى امراء الجعليين مثل بدوى ود العريق وغيره وبذلك اسخط جميع العالم الاسلامى واصبحت مكة المشرفة وكرسى الخلافة العظمى تنظر الى عمله بعين المقت والكراهة . ولما رأى ولى النعم خديوينا المعظم عباس حلمى الثاني ان جرائم هذا الطاغية تزداد يوما بعد يوم أخذته الشفقة على المسلمين المظلومين وصمم على انقاذهم من الظلم فارسل جيوشه المظفرة لكى تهدم اركان دولة التعايشى وتقيم حكومة شرعية مؤسسة على العدل والاستقامة وتبنى المساجد وتعين على نشر الدين القويم . وقد اصدر سموه عفوه التام على جميع

ذنوبكم وامر برد املاككم . وهو يدعوكم الى استقبال جيوشه بالترحيب فاذا قبلتم الدعوة وعرفتم قيمة الانعام كنتم انتم الراجين الناجين والا فالويل لمن رفض نعمة ربه وكرم خديونا المعظم وباسمه لى الرجاء الوطيد ان اراكم قريبا طائعين ومعضدين للحكومة الخديوية والسلام . يونيو سنة ١٨٩٦ . الامضاء كتشنر قائد جيوش حملة السودان وسردار الجيش المصرى » .

وفي الرابعة مساء ٦ يونيو بدأ تقدم السردار جنوبا عبر الطريقين اللذين يقودان لفركة في الشمال وهما طريق الصحراء وطريق النيل . قرر السردار التقدم والهجوم بمحورين مستغلا كلا الطريقين . على ان تتقدم القوة الرئيسية المكونة من كل مشاته بطريق النيل مباشرة للهجوم على فركة باقتحام امامى مباشر ، بينما تتقدم كل قواته الراكبة بطريق الصحراء وتلتف التفافا واسعا حول فركة وتحتل مواقعها خلف الحامية لقفل طريق انسحابها للجنوب والغرب .

تكونت قوات محور النيل من فرقة المشاة ، سرية المدفعية الثانية والثالثة ، مدفعى مكسيم ومستشفى ميدان تحت قيادة السردار . كان ترتيب السير لمحور النيل كالآتي :

اللواء الأول في المقدمة

مدفعى مكسيم بطاريتى مدفع

اللواء الثاني

اللواء الثالث — الكتيبة الثالثة

مستشفى الميدان

الكتيبة الثالثة حرس مؤخرة

أما محور الصحراء بقيادة ميجور بيرن مردوخ فتكون من :

سرية مدفعية الخيول

٨ سرايا فرسان

٨ سرايا هجانة

الكتيبة السودانية الثانية عشرة « محملة على الجمال »

٢ مدفع مكسيم
عناصر طبية

استمر تقدم السردار ، ومشاته يتعثرون وسط الصخور حتى الساعة العاشرة والنصف مساء ، حين توقف محور المشاة في قرية ساركمتو على بعد ثلاثة اميال من فركة .

في هذه الاثناء كان طابور الصحراء الراكب يعبر الصحراء في رحلته الطويلة عبر الصخور الحادة . توقف في الساعة الثالثة صباحا على بعد ٣ أميال جنوب غرب فركة حيث تركت الجمال التي حملت كتيبة المشاة في حراسة صغيرة وبدأ التقدم نحو فركة .

* * * * *

تنحصر قرية فركة بين ثلاثة هيئات طبيعية ويوفر موقعها مزايا دفاعية واضحة . ولكن هذه المزايا كانت سلاحا ذو حدين . فهي تضمن لمن يحتلها موقعا دفاعيا منيعا ، ولكنها من الناحية الأخرى تجعل الموقع الدفاعي مصيدة للموت اذا تمكنت القوات المهاجمة من احتلال هذه الهيئات المرتفعة .

فقرية فركة تنحصر بين جبل فركه من الشمال الشرقي ، وسلسلة من الجبال المتفرقة تضغط على البيوت من جهة الجنوب الغربي ، والنيل من الغرب ، وخور الدومة يشقها من الجبال ليصب في النهر فاصلا بين جبل فركة والجبال الجنوبية . بينما امتدت منازل القرية بحذاء النيل لحوالى الميل بعمق يتجاوز ٣٠٠ ياردة .

كانت خطة عثمان ازرق هي الدفاع دفاعا حوليا متحصنا بجبل فركة من الشمال ، وسلسلة الجبال الجنوبية من الجنوب ، والنيل من الغرب . واتخذ هذا القرار بعد عقد مجلس حربي قبل ايام من المعركة كما ذكر محمد عبد الرحيم : «ولقد عقد عثمان أزرق مجلسا دعا اليه الامراء وبعد المداولة قرر المجلس لكل امير ناحية يدافع عنها عند حدوث الطوارئ . فعهد بالدفاع عن الجنوب (الجبال الجنوبية) الى كرم الله كركساوى (راية الدناقلة) والشرق (الجبال الشرقية والخور) الى يوسف عنقرة ، ودود بدر ، وحمودة ادريس (راية الجهادية والهبانية والفرسان) والشمال الى محمد عبد الحليم (راية الجعليين) لتغطية الممر الضيق بين

جبل فركة والنيل ، فاحتج الأخير قائلا انه ليس لديه عدا ٧٢ بندقية وربما جاءت جل القوات المصرية عن طريق النيل . فقال له حمودة : « اذا كان الامر كذلك فانا مستعد لانجادك » فاجاب محمد الامين عبد الحليم « لاينتظر ان يلتفت احد الى أخيه في مثل ذلك الوقت الرهيب » فامتعض حمودة وقبض بكلتا يديه على لحيته وقال له « ان لم انجدك في مثل هذا الوقت خيب الله هذه » .

ولكن ميزة موقع فركة الحصين انقلبت وبالا على المدافعين . فخطتهم اعتمدت على تحرك قواتهم من مساكنها داخل القرية واحتلالها لمواقعها المحددة بعد انذار مبكر من نقاط المراقبة ، سواء في جبل فركة أو في الجبال الشرقية . وهو امر مستطاع وطبيعي . وقد ظلت نقاط المراقبة والديدبانية تحتل تلك الجبال لسنين طويلة . وكانت قمم تلك الجبال بارتفاعها وتحكمها تمثل نقاط مراقبة مثالية . ولكن غفلة واهمال ديدبانية نقاط الملاحظة في فجر ذلك اليوم مكنت السردار من الاطباق على فركة والمدافعين في لحظات الاضطراب وهم يتدافعون لاحتلال مواقعهم الدفاعية بعد تناول اسلحتهم وذخيرتهم من مخزن الذخيرة الذى فتح ميرغني سوار الدهب « امين بيت المال » بابه على مصراعيه . ولم يتمكنوا ابدا من احتلال مواقعهم . وبذلك اصبحت فركة بعد ان احتلت رشاشات ومدفعية السردار الجبال العالية ، ووجهت نيرانها نحو القرية المنعزلة وسط الجبال ، هدفا مثاليا محصورا .

فعندما بدأ الاقتحام في الساعة الرابعة صباحا ، سرعان ماشق السكون دوى النقارة الذى وصل لآذان السردار والويته المتسللة المتلفحة بظلام الليل ، وظن ان هجومه الليلى الصامت قد انكشف ، وأمر بالتوقف على بعد ميل من جبل فركة . ولكن دوى الطبول سرعان ماتلاشى ، فقد كانت تلك نغمات النقارة التى تضرب كل يوم لتنبه المقاتلين للصلاة ، وبعد الصلاة يتجمعون بالرايات على ضفاف النهر ويجلسون جماعات لقراءة الراتب . وبتوقف دوى النقارة استأنف السردار تقدمه نحو القرية. وصل لواء لويس الى الممر الضيق المنحصر بين النيل وجبل فركةوبدأت كتائبه تتدفق عبر الممر للفضاء المتسع الذى توسطته القرية . وهنا فقط تنبهت نقطة المراقبة في قمة الجبل بعد ان تجاوزتها طلائع لويس ، واطلقت طلقة واحدة

شقت سكون الفجر . سرعان ماجاوبتها الجبال باصداء انفجارات المدفعية من بعيد — من الجنوب الشرقي — كانت تلك مدفعية الخيول — اذن نجحت العملية الهجومية ، فقد تطابق وصول محور النيل ومحور الصحراء في لحظة واحدة ، وكانت المفاجأة كاملة . احتلت مدفعية ورشاشات السردار كتف جبل فركة الايسر ووجهت نيرانا مركزة فوق رؤوس المشاة المقتحمين نحو المقاتلين والجهادية وهم يتدافعون لاحتلال مواقعهم .

اندفع الجهادية وراية الهبانية نحو سلسلة الجبال الشرقية ، وراية الجعليين والدناقلة نحو الممر الضيق لايقاف تدفق ألوية السردار ، ولكن فات الأوان ، فقد اتجه اللواء الاول بقيادة لويس لجهة النيل فى مواجهة عريضة نحو الجبال الغربية مباشرة حيث بدأ الجهادية والهبانية في التجمع . وقبل احتلالهم لدفاعاتهم المبنية على ضفاف خور الدومة ، وتحت غطاء نيران المدفعية والرشاشات ، تمكن لواء ماكدونالد من اجلائهم عن الجبال لينسحبوا نحو القرية . ولم تفلح هجمة الفرسان التى قادها حمودة ادريس ويوسف عنقره بكل خيالته فى تحطيم موجات الاقتحام بعد أن تقدم اللواء الثالث وسد الثغرة بين لواء لويس وماكدونالد . وتلاشى هجوم الخيالة بعد سقوط اغلب الفرسان وقتل حموده ويوسف عنقره . . لقد أوفى حموده بوعده لمحمد عبد الحليم بأنه سينجده مهما كانت الظروف . بعدها انثنى لواء ماكدونالد وماكسويل للداخل نحو القرية فى اتجاه النيل وانتظمت الالوية الثلاثة فى مواجهة اقتحام عريضة .

سقط جواد عثمان أزرق تحته وهو يندفع لتنظيم عملية الدفاع ، وأدرك بلمح البصر أنه يخوض معركة خاسرة يائسة . فقد وجد نفسه محصورا فى أرض منخفضة ، ويواجه عدوا متفوقا لاقبل له بمواجهته ، نتيجة لاهمال عناصر الانذار. وأدرك ان واجبه الاول هو سرعة الانفصال من العدو واستخلاص اكبر قدر من جنوده والانسحاب بهم من مصيدة الموت . وبدأت عملية الانسحاب كما وصفها محمد عبد الرحيم « ومن ثم وهنت عزيمة رجالنا وصرع ٨٠٠ منهم ووقع ٤٥٠ فى مخالب الاسر واضطر الباقون الى الهزيمة فسلكنا طريقنا بين النهر والقيف وهجمت الأرط على القيف تطلق النار علينا وهكذا اندفعنا نحن ولما وصلنا خور الدومة وجدنا

سدا منيعا من الجنود فاقتحمنا نيرانها وفتحنا فرجه بينها باشفار السيوف حتى خرجنا من محيط النار وقد نجا ٤٨٠ رجل كان منهم ٢٨٠ جرحى » .

وبينما كانت ألوية السردار تتقدم نحو القرية وجه عثمان أزرق أغلب جهده لتنظيم الانسحاب ، بدأ أولا فى ترحيل العوائل على المراكب التسعة التى ألقت مراسيها على الشاطئ خلف الديم . ثم جمع كل من بقى من الاحياء والجرحى من بقايا حامية فركة وانسحب بهم جنوبا ، وانتهز فرصة الظلام لتنظيم عبور النيل بمراكبه التسعة نحو صواردة .

ولم يعبر عثمان أزرق بنفسه الا ليلة الثامن بعد أن تأكد من عبور الجميع . فجمع قوته فى كدين — مكان صومعة غلال الحامية — وسارع فاستدعى حامية أبو فاطمة لتعززه . وبدأ فى اعادة تجميع فلوله بعد أن ارسل العوائل لدنقلا ، وبعث فرسانه للامام للاستكشاف البعيد .

افادته طلائع الفرسان بان طابورا ضخما من القوات الراكبة يتقدم نحو كدين . فأخلاها بعد ان احرق كل الغلال قبل ربع ساعة بالضبط من وصول العدو ، وانضم لود بشارة فى دنقلا .

بلغت خسائر حامية فركة ٨٠٠ قتيل وجرح ٥٠٠ واسر ٦٠٠ اغلبهم من الجهادية . اما السردار فقد فقد ٢٠ قتيلا و ٨٣ جريحا .
وقتل فى المعركة من الامراء :

الامير حمودة ادريس(١) الأمير ابو القاسم النويرى « ربع البقاره »، الامير يوسف عنقره « جهادية »، الامير الحاج عبد القادر « ربع الجعليين » .

* * *

تقبل ود بشارة انباء هزيمة فركة بثبات ورباطة جأش . ولم يضع دقيقة واحدة فى الاستعداد لمواجهة العدو فى لقاء فاصل . وامضى الشهور الثلاثة التى أعقبت

(١) تذكر مخطوطات على المهدى « وبعد نهاية المعركة جاء سلاطين باشا بهيئة اركانحرب الجيش المصرى وتفقد المقتولين فلما تبين السيد موسى كاظم لفه فى قماش ولف معه بابكر ود كوكو وصب عليهم الجاز واحرقهما » أما بابكر فهو أحد الذين اشتركوا فى قتل غردون كما اوضحنا من قبل . أما موسى الكاظم فالروايات المحلية تذكر انه هو الذى كلف بختان سلاطين بعد اسلامه .
جهاد فى سبيل الله — ص ٢٠٢

انضمام عثمان أزرق فى نشاط مستمر . توزع بين مواصلة بعث عناصر استطلاعه وهي تعمل بكفاءتها المعهودة فى تمرير المعلومات ومتابعة العدو خطوة بخطوة ، وبين استكشافه الشخصى لمئات الاميال شمالا ليختار بقعة مناسبة لمواجهة تقدم العدو ، وبين مراسلة الخليفة طالبا سرعة ارسال التعزيزات الموعودة .

تواترت خطابات الخليفة فى شهر سبتمبر لود بشارة . ففى ١١ سبتمبر اوضح الخليفة وجهة نظره فى الدفاع عن دنقلا ، وهى مواجهة العدو مواجهة فاصلة ، وحشد كل قوته فى مكان واحد ، والتخلى عن تقسيم قوته فى نقـاط متعددة . وقد أحس الخليفة بحساسية اهل الشمال واهمية جمع صفوف اهل المنطقة لمواجهة الغزو فأرسل خطابا لحسن ود النجومى امير الجعليين فى ١٣ سبتمبر حاثا اياه على الجهاد وتوحيد كلمته مع ود بشاره .

واستجابة لنداءات ود بشارة المتواصلة بطلب التعزيز بعث له الخليفة مساعد قيدوم ، خصم ود النجومى القديم ، ان كان تخلصا منه بعد هزيمة اغردات أو لمراقبة الاحداث وتبليغها له . كما ابلغه فى ١٨ اغسطس انه سيبعث له باقى النجدة بقيادة عبد الباقى عبد الوكيل .

واثناء استكشافه الشخصى المتواصل . وبعد تمحيص معلومات الاستطلاع توصل ود بشارة الى ان افضل موقع ينتظر فيه عدوه هو حفير مشو على الضفة الغربية ، كما اوضح فى خطابه للخليفة المؤرخ نهاية صفر ١٣١٤ « ٩ اغسطس ١٨٩٦ » :

« قد رأينا أننا إذا تحركنا بهم نحو الأعداد عند حصول الحركة من قبل الاختيار ومعرفة حال الرجال لايتأتي وقتها الامر نظرا لحصول الاستعجال ولذلك اتفق الحال على قيام الجيش فى واسع الوقت الى جهة الحفير المحل الذى فيه الخيول الآن بالغرب قصاد كرمة لاجل التحزب والاستعداد هناك وقد كان قيام أربعة ارباع امس تاريخه . . . . »

بعدها ارســل ود بشارة فى اواخر يونيو ربعا كامــلا كمقدمة لبناء الاستحكامات فى كرمة والحفير . وقد استقر رأيه على الدفاع شرقا فى كرمة

وغربا فى الحفير حيث يبلغ عرض النيل ٦٠٠ ياردة ، أقصى مدى لمدفعيته الموجهة نحو بوارج العدو . وبدأ فى بناء الطوابي فى همة ونشاط . كان طول كلا الموقعين حوالى نصف الميل . بنى ثلاث طوابي ليحصن فيها مدافعه الستة . وبين المدافع وحول الطوابي حفرت الخنادق لحملة البنادق ليحتموا داخلها ، بينما كفلت اشجار النخيل الغزيرة على امتداد الشاطئ وهى تحيط بالطوابي ساترا ومكمنا لبقية حملة البنادق .

ما أن اكتملت الطوابي ، حتى أمر ود بشارة عثمان أزرق بالتحرك بمعظم القوة والمدافع على أن يلحـــق بهم بمجرد وصول التعزيز من امدرمان . على أن يعبروا بعد وصوله لجهة الشرق لمواجهة مشاة العدو ، ليصبح العدو وبوارجه محصورا فى ذلك المكان الضيق بين الضفة الشرقية والغربية .

كانت الشهور التى أعقبت فركة اتعس شهور السردار . وتلك الايام وما اتسمت به من سؤ طالع مضت وكأنها كانت لتنفى الاسطورة التى انتشرت فيما بعد عن « حظ السردار » و « نجم السردار السعيد » وأنه أكثر القادة البريطانيين حظا : فقد كان الهدف الثاني للسردار هو دنقلا العرضى ، وقد عزم على التقدم نحوها باعظم قوة وبكل بوارجه المدرعة السريعة الجديدة بتسليحها القوى « طولها ١٤٠ قدما وعرضها ٣٠ قدما . » عبر الشلال الثالث بصخوره البارزة الكبيرة وحيث يضيق عرض النيل الى ٤٠ قدما . لذا كانت الوثبة الاولى نحو دنقلا هى مد خط السكة حديد الى كوشة بعد الشلال كما أسلفنا ، ثم انشاء ورشة لتركيب اجزاء البوارج التى وصلت من لندن مفككة ليتم تركيبها وانزالها للماء حيث يمكن ارتفاع النيل من عبور الشلال ، والتقدم مباشرة نحو دنقلا .

ولكن حساب السردار الدقيق الذى اشتهر به لم يضع اعتبارات عديدة طارئة. فقد كان هناك عدوا اخطر من ود بشارة ، بدأ فى الفتك بصفوفة — الكوليرا . لقد وصل الوباء عبر خطوط امداد السردار من حلفا بسرعة رهيبة لمعسكر كوشة ولم تتركهم الكوليرا الابعد أن بلغ حصادها ٧٨٨ توفى منهم ٦٤٠ جندى .

وبعد القضاء على الوباء بدأ السردار فى التقدم جنوبا نحو دنقلا مختصرا التفافة

النيل الكبيرة من كوشة الى اب سارات بتقدم عبر الصحراء — قاست فيه الوية المشاة من العطش وضربة الشمس . واشتهر ذلك التقدم الصحراوى باسم مسيرة المـــوت "Death March" ووصلت انباؤه للندن وهاجمت الصحافة البريطانية السردار متهمة اياه بالاهمال والتقصير .

ومن المعروف للملاحين فى الجزء الشمالى من السودان ، ان الرياح الجنوبية لفترة شهرين تعكس اتجاهها فجأة من الجنوب للشمال لتهب من الشمال للجنوب ، عكس تيار النيل . وقد اعتمد جزء كبير فى خطوط تموين السردار على مراكب الاهالى الشراعية . وما ان هبت نسائم الرياح الشمالية ليومين أو ثلاثة الاوعادت ، مخالفة عادتها لمئات السنين ، وهبت من الجنوب لتزيد فى ربك حسابات وتقديرات السردار .

أما الضربة الرابعة التى واجهها السردار فقد كانت موجعة حقا . فقد وضع املا كبيرا على الدور الذى ستلعبه الباخرة « الظافر » بتسليحها القوى من مدفعية ورشاشات وحمولة المشاة بالاضافة لدرعها السميك الذى يمكنها من الاقتراب لاى مدى من العدو وصب نيرانها الهائلة عليه . وكان معســـكر كوشـــه يرقب باعجاب نمو جسد الباخرة يوما بعد يوم ، الى أن تم تدشينها .

وانزلت للماء وسط التصفيق الحاد . وبدأ المتفرجون يستمعون بطرب لهدير محركها . . ولكنه صمت فجأة بعد دقائق . فقد انفجر احد مراجلها الرئيسية . وعند السؤال أفاد المهندسون أنه لابد من طلب قطع الغيار من لندن . وكان هذا يعنى ضياع فرصة ارتفاع النيل وبالتالى عدم تمكن السردار من الاستفادة من ركيزته القوية اسطوله النهرى — فى التقدم النهائي لدنقلا . فتركت الباخرة فى كوشه .

ولم يكن ود بشارة غافلا عن لحظات ضعف السردار هذه ، وادرك بحاسته الاستراتيجية الصادقة انها اكثر الفترات ملاءمة لتوجيه الضربة القاضية له فكتب للخليفة فى ١٨ صفر ١٣١٤ (٢٩ يوليو ١٨٩٦) طالبا السماح له بالتقدم شمالا :

« . . . . نعرض سيدى ان الاعداء على ماقيل صاروا فى مضايقة لكثرة

من مات منهم بالوباء وحاصل فيهم الفشل ولاسيما انهم بجهة صواردة مقيمين بدون استحكام . . . ان وافق يصدر الاذن لعبدكم بان نأخذ من معنا من الجيش ونتوجه بهم لاجل ضربتهم بجهة صواردة عسى أن نجد فيهم الفرصة . . »

ويبدو أن الخليفة امره بانتظار التعزيزات المرسلة من امدرمان ، فلم يتحرك ود بشارة للحفير الابعد ان وصلت طلائع التعزيزات .

أما السردار فقد بدأ تقدمه نحو دنقلا يوم ٣ سبتمبر . وبينما كان فرسانه ومشاته يتقدمون على ضفة النيل الشرقية ، كان اسطوله النهرى يتعثر وسط صخور الشلال الثاني . ربطت كل باخرى بحبال وجنازير حديدية امتدت الى الشاطئ حيث امسكت بها أذرع الفين من جنود السردار لجرها عبر الشلالات . استغرق عبور الاسطول اسبوعا بأكمله .

وصلت طلائع ألوية السردار الى دلقو فى الخامس من سبتمبر . وهنا بدأ التجمع النهائي — على أن يلحق بهم السردار بالاسطول النهرى يوم ١٢ سبتمبر . وبعد انضمام اللواء الرابع الذى وصل من القاهرة حديثا ، بدأ التقدم النهائي نحو كرمة حيث شاهدت مصادر الاستطلاع استحكامات ود بشارة . وصلوا الى كادرمة يوم ١٣ سبتمبر ، والغريق يوم ١٤ ، ويوم ١٥ حدث اول اتصال مع عناصر الاستطلاع من فرسان ود بشارة . وفى يوم ١٨ احتل السردار بلدة ساردك وبات ليلته على بعد ٤ اميال من كرمة ، حيث وصلت طبول ود بشارة الى آذانهم . وقبل فجر اليوم التالى بدأ تقدم السردار نحو كرمة فى تشكيل الاقتحام بمواجهة عريضة نحو طابية كرمة . . . . ولكن عند دخوله اياها وجدها . . . خالية .

* * *

اثبتت معركة الحفير وماتلاها من أحداث قبل سقوط دنقلا أن سلاطين لم يبالغ أو يبتعد عن الحقيقة كثيرا عندما وصف ود بشارة بانه أكثر قادة المهدية الشبان كفاءة . فبعد نظره الاستراتيجي وكفاءته التكتيكية وهو يدير معارك دنقلا مواجها عدوا يتفوق عليه اضعافا ، ومواجها حشدا هائلا للنيران من عدو تسلح باحدث وأقوى ما انتجته المصانع الاوربية من أسلحة الدمار ، ومتغلبا فى نفس الوقت على سلبيات قادته ، يبرزان دائما كدليل ناصع على مقدرته وكفاءته

وحتى بعد معركة فركة وانضمام فلول حموده اليه كانت كل قوة ود بشارة لاتتجاوز ٥٦٠٠ مقاتل توزعت على النحو التالى :

محمد ود بشارة ـــ قائد المنطقة

مساعد قيدوم ـــ قائد ثاني

تكونت حامية دنقلا من ٤ أرباع من حـــملة السلاح الأبيض وجهادية وملازمين وفرسان ومدفعية :

أ ـــ أرباع حملة السيوف والحراب (٢٨٠٠ مقاتل)

١ ـــ الربع الاول : ربع التعايشة :ـــ تحت قيادة الامير احمد منجي تكون من رايات القبائل المذكورة : تعايشة ، رزيقات ، اولاد حامد ، زغاوة ، مسيرية ، معاليا ، تراجمة ، كنانة ، يقودهم ٢٣ أميرا (١١٦٥ مقاتل) .

٢ ـــ الربع الثاني : ربع الهبانية ودغيم تحت قيادة حامد رقيات ـــ تحت قيادته ١٦ اميرا تكونت راياته من القبائل التالية : هبانية ، حمر ، دغيم ، بطاحين ، عمارنة (٨٧٠ مقاتل) .

٣ ـــ الربع الثالث : ربع الدناقلة تحت قيادة عثمان ازرق ، تكون من الدناقلة تحت قيادة ٧ امراء و٧ رايات مختلفة (٣٥٠ مقاتل) .

٤ ـــ الربع الرابع : ربع الجعليين والشايقية (١١٢٠ مقاتل) .

ب ـــ رايات الجهادية : ٩٠٠ مقاتل .

الربع الاول : تحت قيادة الامير مرشود ، ٣ رايات تحت قيادة ثلاثة «رأس ميه » آدم برنجى ، جوهر ، سليم .

الربع الثاني : تحت قيادة الامير جلال ، تحت قيادته ٣ رؤوس ميه ، عبد الرضى رزق الله حامد ، آدم النيل .

الربع الثالث بقيادة الامير دودو بدر ، تحت قيادته ٢ رؤوس ميه عبد الله عبد حسب الله فوراوى .

ولكل قادة الارباع رايه ، ويساعد قائد كل ربع عدد من التعايشة كمدربين وتعلمجية للجهادية .

ج ـ الملازمين ٨٠٠ مقاتل كلهم سلحوا بالبنادق ـ تكونوا من ٥ سرايا بقيادة ود بشارة المباشرة بقيادة محمد ود العميد ، محمد ود جبريل ، محمد النضيف ، محمد عبد الباقى .

د ـ المدفعية : ٦ مدافع جبلية ومدفع رشاش « نورد تلفت » تحت قيادة على ريقون « مصرى » تكونت اطقم المدافع من مصريين أوباشبزق سابقين .

هـ ـ الفرسان ٦٥٠ فارس

و ـ الهجانة : حوالى ٢٦٠ هجاني للاستكشاف والمواصلات يساعدهم عدد من الدلـــلا .

ز ـ البواخر : الباخرة الطاهرة باخرة صغيرة سلحت بمدفع جبلى . قبطان الباخرة حاج محمد ومهندسها عابدين نعيم مصرى .

ومع ارتفاع النيل وتواتر البلاغات من استخبارات ود بشارة عن اقتراب السردار قرر التحرك لقيادة المعركة بنفسه . وهو يتأهب للتقدم شمالا ، وصل الامير عبد الباقى وهو يقود تعزيز الخليفة من ام درمان المكون من ربع جهادية و ٥٠٠ من حملة السلاح الابيض . فأمرهم باللحاق به فورا ، فقد أدرك ان اللحظة الحاسمة قد دنت . وتحرك بالباخرة الطاهرة وقد حملها كل مدفعيته . وعندوصوله لنقطة الحفير ارسل واستدعى قائد المقدمة عثمان ازرق من كرمة حيث احتل الدفاعات الشرقية وعقد مجلسا لامراء الارباع . وبعد استماع المجلس لتقرير عثمان ازرق عن العدو وعن تفوقه الماحق عددا وتسليحا ، احس انه من خطل الرأى ان يدافع فى الضفة الشرقية لينحصر بين نارين ، العدو الارضى والبوارج . فأستقر رأيه اخيرا على التعامل مع قسمى العدو كل على حدة ، البوارج اولا ثم المشاة . فأمر بسحب كل نقاط الشرق فى مساء ليلة ١٩ سبتمبر . وعبرت قوات عثمان النيل تحت ستار الظلام وانضمت الى ود بشارة فى الحفير .

أمضى ود بشارة أغلب ليلته فى تنظيم دفاعاته . واوضح سير المعركة فى اليوم التالى أن كفاءته الادارية لاتقل عن كفاءته التكتيكية ، فقد استفاد من اسطوله النهرى البدائي لنقل وتكديس كمية ضخمة من ذخيرة المدفعية ، لتمكن مدفعيته الضئيلة من الصمود لساعات امام مدفعية السردار . بينما جثم اسطوله الشراعى على

الضفة الغربية محملا بالذرة والمؤن لاعاشة الجيش لاطول مدة ممكنة .

بدأ حفر الخنادق منذ حلول الظلام لحماية حملة البنادق الذين وزعهم على خنادق الضفاف وعلى المتاريس ذات الفتحات وبين طوابي المدفعية ؛ وكان جزء كبير منهم وسط اغصان النخيل لتوجيه نيرانهم لاسطح البوارج . . . . وانتظر تقدم العـــدو .

** ** ** **

بدأ السردار تقدمه في السادسة والنصف صباحا تسبقه زوارق المدفعية وهي تتقدم نحو مضيق النيل . أوقف السردار تقدم مشاته على النهر واحتلت مدفعيته مواقعها . وفتحت نيرانها على دفاعات ود بشارة ، لم تستجب مدفعية ود بشارة لمدفعية السردار الارضية . فتقدمت البوارج « دال» و« عكاشة » و « ابو طليح » و «طماى » تحت غطاء المدفعية الارضية وهي تحمل سريتي مشاة نحو المجرى الضيق حيث اخفى ود بشارة مدفعيته ، وبدأت مدافع البوارج في قصف الطوابي ، ورشاشات المكسيم في الضرب على الخنادق . وما ان حازت البوارج الطوابي في مجرى النيل الضيق حتى انهالت عليها قذائف مدفعية ود بشارة التي خبئت بذكاء ، فاصيبت الباخرة ابو طليح وطماى . وبعدها فتح حملة البنادق نيرانهم في اعالى اشجار النخيل نحو اسطح البوارج واحدثوا عدة خسائر في العدو . كان ضحيتها قائد الاسطول النهرى نفسه ، « الكابتن كلوفيل» . كانت مفاجأة للسردار فلم يتوقع ابدا ان تتمكن قوة صغيرة بدائية التسليح مثل قوة ود بشارة من الصمود امامه .

ولساعات طويلة استمر تراشق النيران ، من الفجر وحتى الرابعة مساء . كان مشهد المعركة اقرب للوحة فنية خيالية منها لمعركة حقيقية : جيش السردار وقد اصطفت الويته وكتائبه على الشاطئ الشرقي وهي تقف متفرجة على المعركة المحتدمة بين الاسطول النهرى ودفاعات ودبشارة وهي لاتستطيع حيالها شيئا ، واسطول السردار النهرى يتعثر وسط مياه النهر التي تحول سطحها المستوى ولونها الاغبر المخضب بطمى النيل الى هاويات وتلال مائية من الزبد والرذاذ وشظايا مدفعية ود بشارة الشرسة التي لم تكف عن المجادلة والمبارزة طوال ذلك اليوم .

وعلى الضفة الغربية رفرفت عشرات الاعلام فوق صفوف ود بشارة وأناشيدهم وتكبيرهم يطغى على اصوات المعركة ، بينما غطى دخان البنادق النهر في مواجهة طولها أكثر من نصف ميل لايقاطع دويها المتواصل الا سقوط احد حملة البنادق من أعلى أشجار النخيل كالثمرة الناضجة بعد اصابته برصاص البوارج أو صيحات ود بشارة الشجاع وهو يعبر خطوطه الدفاعية عشرات المرات بجواده ، ليدير نيران المعركة ، والبوارج تتقدم لتقذف بضعة قذائف نحو الشاطئ ومع السيل المنهمر من قذائف ود بشارة ، تضطر لتعود أدراجها الى احضان المشاة المأمونه في الضفة الشرقية .

أدرك السردار أن اسطوله النهري المدرع أضعف من أن يواجه مدفعية ود بشارة ودفاعاته وبنادقه العتيقة ، فقد كان اختيار الامير لمواقعه الدفاعية رائعا ، فابرزت المدفعية وبنادق المشاة اقصى فعاليتها ، وادرك السردار ان اى محاولة لعبور النهر بمشاته للضفة الغربية لمناطحة دفاعات ود بشارة في الغرب ، سيدفع فيها ثمنا فادحا . فقد اوضحت الساعات الماضية ان قوة نيران ود بشارة مؤثرة للغاية على اسطول السردار المدرع ، ولجأ السردار اخيرا لمناورة استراتيجية ، وقرر طعن ود بشارة من الخلف لاخراجه من مكمنه الحصين ، فأمر اسطوله النهري بالتقدم مباشرة نحو دنقلا متجاوزا دفاعات الحفير وبدون محاولة لاسكات مدفعية الطوابي أو الاشتباك معها . ثم نقل السردار مدفعيته الارضية جنوبا الى ان حازت مواقع ود بشارة وفتحت نيرانها لتوفر غـطاء نيران يكفل ستر اندفاع البوارج نحو دنقلا العرضي . فتجاوزت البوارج مواقع الحفير جنوبا نحو العرضي .

وكبقية قادة المهدية كان ود بشارة حساسا للغاية لخطوط مواصلاته وامداده الخلفية . وظن ان السردار سيعقب بوارجه ويتقدم شرقا ويعبر الى العرضي ويستولى على المدينة . لم يكن هناك حقيقة مبررا لمخاوف ود بشارة ، فلايمكن للسردار ان يتقدم ويترك قوة معادية كبيرة لتهدد خطوطه الخلفية .

استمر تبادل النيران حتى العصر وقبل مغيبها اصابت احدى دانات المدفعية خيمة ود بشارة وكان هو بداخلها يطلع على احدى خطابات الخليفة العاجلة فجرح كما جرح عثمان ازرق . وعندما حل الظلام سارع ود بشارة بسحب جيشه وانطلق

جنوبا نحو دنقلا وخلفه صفوفا طويلة من جرحى المعركة .

وعلى الرغم من انه كان يعلم قبلا من ان وقفته القادمة شبه ميئوس من نتيجتها ، الا انه قرر التوقف واعادة تنظيم جيشه والدفاع عن مدينة دنقلا . وعندما وصل كانت البوارج قد سبقته وبدأت فى قصف المدينة ، بدأ ود بشارة فى اعادة تنظيم دفاعه ثم تحرك لديم جرادة شمال دنقلا وحصنه استعدادا لمقابلة العدو .

وفي منتصف ليلة المعركة — ليلة ٢٢ سبتمبر — عقد ود بشارة مجلسا لامراء الارباع ليتشاور معهم فى تنظيم الدفاع . وما أن بدأ فى صرف تعليماته للامراء الاوقاطعه حسن ود النجومي وقدم اليه اقتراحا بالانسحاب كان الامراء قد اتفقوا عليه من قبل كما ذكر حسن النجومي لشقير بعد استسلامه : « عقدنا[1] نحن الامراء مجلسا دعونا اليه ود بشارة ثم قلنا له ياسيدنا اذا باشر احد الناس تجارة ثم تحقق انه خاسر لامحالة أفلا يحجم عنها قال بلى . فقلنا له اذا كان هذا شأن الانسان والاتجار

---

(١) تضاربت الروايات عن حقيقة انسحاب ود بشارة من دنقلا للدبة فأوراق على المهدى تؤكد انه لم ينسحب ولكنه ارغم بعد اختطافه :

ولما رأى امراء الجيش عزمه للثبات للعدو اتفق منهم مساعد قيدوم وعبد الباقى عبد الوكيل ومحمد جودة ومجبور شداد وأحمد الغالى وأحمد منجى على أن يأخذوا أمرهم من محمد ود بشارة عنوة ويرغموه على الهرب فيباغته أحدهم ويركب خلفه ويربطه على السرج ويحكم وثاقه ويمسك اخر عنان جواده وفعلا أتموا فعلتهم وهربو جميعا حتى سقط جواد الامير محمد بشارة مرهقا فى اوزى فجددوه بآخر سقط فى القولد فاركبوه على جمل واستمروا هاربين إلى أن دخلوا الدبة صباح الجمعة وتقدر هذه المسافة بثلاثة أيام .

جهاد فى سبيل الله ص ٢٠٤

وتؤيد الوثائق رواية على المهدى بالخطاب الذى ارسله ود بشارة للخليفة من المتمة مبلغا الخليفة تفاصيل الاحداث التى أدت لانسحابه . فود بشارة النبيل يرفض حتى هو يتعرض لاتهامه بالجبن والهروب من العدو ان يسى بالآخرين ولم يقص ما حدث للخليفة الا مضطرا وبعد الاعتذار :

« ان عبدكم بحكم ارشادكم وتربيتكم له لا ينبغى له أن يشغل بال سيده بالشكوى فى حق الاخوان بحسب ما يتأتى منهم .. وتكلموا معى فى قيام المركز من العرضى إلى جهة الدبة وعبدكم توقف عن ذلك إلى ان قال من باب الارجاف ان جردة الترك هذه هى الجردة التى اشار عليها المهدى عليه السلام بوصولها لحد كررى» .

خطاب محمد ود بشارة للخليفة المؤرخ ٣ جمادى ١٠ أكتوبر ١٨٨٦ ١٣ / ٢ / ٣٣٧ — دار الوثائق المركزية .

وقد أثر إنسحابه فى نفسيته لحد بعيد فقد إنتشرت فى أمدرمان الأغانى والأشعار التى تعاير ود بشاره لفراره من ميدان المعركة .

في المال فما قولك به والاتجار في الارواح ؟ فأنت تعلم ان جيشنا كله من فرسان ومشاه نحو ٦٢٠٠ رجل وجيش المصريين ينيف على ١٥٠٠٠ ، ثم ان عدد بنادقنا ١٨٠٠ واما هم فكل رجل منهم مسلح ببندقية . فضلا عن ان بنادقنا من نوع رمنتون وبنادقهم مارتين هنري،وعندنا من المدافع ٧ واما مدافعهم فتعد بالعشرات . ولهم جيش في البر وعمارة في البحر أفلاتظن أن قتالنا اياهم تجارة خاسرة يجب الاقلاع عنها ؟ نعم اننا اذا ثبتنا نحملهم خسائر جمة ولكن هل يمكنا الثبات الى النهاية حتى نظفر بهم ونردهم الى مصر؟ اذا فالرأى عندنا ان نأخذ عيالنا ونتقهقر بهم الى الدبة ومن هناك نطلب النجدة من امدرمان . قال ود بشارة عندي الموت خير من عار القهقرى ورأيي ان نثبت ونقاتلهم هنا حتى نظفر أو نموت مشرفين.»

° ° °

وفي صباح ٢٣ سبتمبر غطت مواجهة السردار العريضة الافق وهو يتقدم نحو دنقلا من الصحراء بينما تقدم ود بشارة ليقود جنوده للتصدى للعدو ، وهنا نفذ امراؤه ما اتفقوا عليه قبلا . فأمسكوا جواد ود بشارة واوثقوه وانسحبوا به بعد أن امروا الجيش بالانسحاب من دنقلا وانطلقوا بود بشارة الموثق وهم يبتعدون عن فرسان العدو . استغرق انسحابهم ٣ ايام الى ان وصلوا الدبة ومن هناك واصلوا سيرهم للمتمة .

ودخل السردار مدينة دنقلا بدون مقاومة واحتلها . وبذلك سقطت مديرية دنقلا رسميا . وبدأ السردار فورا في تنظيم ادارتها باعتبارها ولاية تابعة للحكومة المصرية . ثم تابع السردار تقدمه بالبوارج مستغلاً خلو النيل من الشلالات في انحناءته الكبرى . فاحتل الدبة في ٢٤ سبتمبر عام ٩٦ ومروى في ٢٦ سبتمبر .

بلغت خسائر العدو في كل حملة دنقلا ٢٦ قتيلا و١١٠ جريحا اما خسائر ود بشارة فقد تجاوزت الثمانمائة قتيلا والخمسمائة جريحا والالف اسيرا اغلبهم من الجهادية الذين اعيد تجنيدهم في الجيش المصرى .

لم تكن خسائر الخليفة العسكرية في معارك دنقلا ذات شأن ويمكن حصر الآثار المترتبة على انتصار السردار في النقاط التالية :

١ ـ أدت الى رفع معنويات الجيش الغازى لحد بعيد واستعادته لثقته بنفسه وعتاده.

وعلى الرغم من تفوقه الماحق فى السلاح والعدد الا انه دخل المعركة فى البداية بروح معنوية مهتزة نتيجة لسمعة جيوش المهدية الرهيبة وانتصاراتها الدائمة .

٢ — الظروف والملابسات التى سادت تقدم السردار اقنعت الخليفة بالتخلى عن المعارك الصغيرة واخلاء كل دنقلا ليعد لمعركة كبيرة فاصلة ، هى معركة عطبرة .

الشريان الحديدى

« ستقابل الخليفة فى أدرمان — فما أنا الا كورقة الشجرة »

(الأمير محمود للسردار) بعد أســـره

بينما كان الخط الحديدى يتابع الجيش الغازى خطوة بخطوة فى حملته النيلية ، كان السردار قبلا يخطط لاعظم انجازاته وابقاها على الاطلاق .

فحصاد حملته من الميداليات والامجاد العسكرية وعشرات الألوف من الجثث تلاشت عظامها ورميمها فى فركة ، والحفير ، وابو حمد ، وعطبرة ، وامدرمان بعد بضع سنوات ، واشعة الشمس المحرقة تنصب عليها يوما بعد يوم ، والعواصف الرملية تدفنها عاما بعد عام . اما سكة حديد الصحراء فلازالت باقية لعشرات الســنين .

وبسقوط دنقلا وبعد ان انهالت التهاني والاوسمة على السردار شعر أن مركزه قوى للدرجة التى تمكنه من الكشف عن مطمحه النهائي ، ألا وهو التقدم لامدرمان . فاستأذن لأخذ اجازة قصيرة للندن وتمكن من اقناع الحكومة والقيادة البريطانية ، وعاد الى مروى فى ديسمبر ٩٦ وهو يحمل الاذن بمواصلة التقدم لام درمان .

كانت مشكلة السردار الرئيسية هى خط امداده الطويل . ووجد نفسه امام ثلاث اختيارات : الاختيار الاول : أن يتقدم من الدبة عبر صحراء بيوضة للمتمة ثم الخرطوم سالكا نفس طريق حملة الانقاذ عام ٨٥ . وهذا كان يعنى انفصاله عن العنصر الرئيسى فى خط امداده ، البوارج ، وتركها تتعثر وسط الشلالات وهى تتبع النيل فى انحناءته الكبرى ليلتقيا فى المتمة ، على أن يعود للاعتماد على الجمال أثناء عبوره للصحراء .

أما الاختيار الثاني فكان أن يعتمد خط امداده على البحر إلى سواكن ثم على الطريق الشرقى من سواكن لبربر . اما الاختيار الثالث فهو الاعتماد كلية على

خط امداده النهرى بأن تتقدم الحملة البوارج وهي تبحر في مجرى النيل الطويل بانحناءته الطويلة ، ملقية ثقلها تارة على البوارج وتارة اخرى على الجمال عندما تعترض الشلالات الرابع والخامس طريق البوارج .

أما المسلك الرابع والذى اقتنع به السردار في قرارة نفسه ، وازداد وثوقا[1] منه بعد بروز فعالية مد السكة حديد من اسوان الى كوشة لتجنب الشلالات ، فقد كان مواصلة مد خط السكة حديد شرقا من حلفا عبر صحراء العتمور مباشرة الى أبي حمد ثم الى جنوب بربر ، ليبدأ التقدم النهائي بعشاته وبوارجه المدرعة الكبيرة مباشرة الى امدرمان بدون عائق ، وبخطوط امداد ميكانيكية مزدوجة مضمونة وسريعة : السكة حديد مباشرة من القاهرة حتى عطبرة ، ثم التقدم النهائي في زمن الفيضان بكل قوته البحرية والارضية حاملا مؤونته وذخائره على بوارج وصنادل النقل عبر الشلال السادس – شلال السبلوكة .

كانت مخاطرة عظيمة من السردار أن يمد خط سكة حديد لمائتى ميل عبر صحراء تخلو تماما من المياه ، وعبر اراض معادية .

وقد طلب السردار استشارة فنية من كبار المهندسين والعسكريين ، وقد اجاب المهندسون بالاجماع باستحالة مد الخط ، اما العسكريون فقد وصفوا الفكرة بانها مضحكة بل جنونية . ولم يكترث السردار وقرر المضي قدما في تنفيذ فكرته .

انفصل الخط الحديدى من النيل وبدأ يزحف من حلفا وقد مال شرقا ليعبر الصحراء ليلتقى بالنيل مرة اخرى في ابوحمد . كانت سرعة التقدم نصف ميل في اليوم ، وازدادت قليلا بعد ان نقل العمال والمعدات التى كانت تستخدم في خط النيل في امتداده لكرمة .

وعبر الزوابع الرملية وشمس الصحراء المحرقة ، تقدمت القاطرة خطوة خطوة وعجلاتها تلف لفة او لفتين بين فينة واخرى كلما امتدت امامها اجزاء من الخط الحديدى ، وهي تدفع امامها الفي رجل ، بعضهم يحمل الكتل الخشبية من

(١) أنظر خريطة رقم – « أ » السكه الحديديه والنهر .

القاطرة ليغرسها فى الارض وبعضهم يحمل اجزاء الخط الحديدى ، وهى تحمل على عرباتها معدات بقائها واستمرارها ، الخشب والحديد ، واسـباب حياتهم وبقائهم ، الطعام والماء .

كان الخط الحديدى الممتد خلفهم ، والقاطرة وهى تجر العربات خلفها هو كل اتصالهم بالحياة . وأى قطع أو بتر للشريان الحديدى كان يعنى نهايتهم فى الصحراء عطشا وجوعا .

اما ابو حمد الهدف النهائي للقاطرة ومن خلفها كتائب السكة حديد ، فقد اصبحت الآن تمثل حدود الخليفة الشمالية ، ولم ينظر الخليفة اليها الا كنقطة تعطيلية فقط ، فقد قرر حسم الموضوع نهائيا بجيش كبير بعد ان تأكد ان الغزو سيتقدم نحو ام درمان .

لم تزد حامية ابو حمد بقيادة الامير محمد زين عن ٨٥٠ رجل ، ٢٥٠ من الجهادية و ١٥٠ فارس و ٤٠٠ من حملة السلاح الابيض وكل تسليحهم لم يزد عن ٣٠٠ بندقية . كانت تعليمات ام درمان لمحمد زين هى الثبات للعدو اذا تقدم بمشاته فقط ، والتقهقر لبربر اذا تقدم نحوهم بالبوارج والمشاة .

وفى أواخر يوليو ٩٧ كان خط السردار الحديدى قد قطع نصف الصحراء متجها نحو ابو حمد ، ولكن محمد الزين لم يقنع بالدفاع السلبى . فقد بدأت غاراته المتقطعة التى بعثها للاشتباك مع اطواف استكشاف السردار فى الجنوب الغربي وهى تتقدم من مروى ، أو لازعاج كتائب السكة الحديد فى الشمال وهى تتقدم جنوبا . فاضطر السردار الى التقدم واحتلال ابو حمد ممهدا لوصول الخط الحديدى اليها .

وأصدر تعليماته للكولونيل هنتر قائد فرقة المشاة فى ٢٧ يوليو بالتقدم واحتلالها . تكونت تجريدة ابو حمد من العناصر التالية :

اللواء هنتر باشا قائد التجريدة

الكتيبة المصرية الثالثة

،، السودانية التاسعة

،، ،، العاشرة

،،   ،، الحادية عشر

سرية فرســـان

١ سرية مدفعية

١٤٠ من العبابدة بقيادة عبد العظيم حسين خليفة الذى انضم لهم من المورات.

تحرك هنتر من مروى يوم ٢٩ يوليو واشرف على ابو حمد فى ٦ اغسطس .

** ** ** **

تقع قرية ابو حمد على الضفة اليمنى للنيل وهو يتجه شمالا قبل انعطافته المفاجئة للجنوب الغربي . امتدت بيوت القرية الطينية المتلاصقة لمسافة ٦٠٠ ياردة بعمق ١٥٠ ياردة ، وقد اتكأ كتفها الغربي على النيل ، وأشرفت شرقا على سهل ينحدر من القرية انحناءا رقيقا لجهة الشرق لمسافة ٢٠٠ ياردة ليرتفع مرة اخرى لاكثر من ٣٠ قدما ، توزعت ثلاثة ابراج للديدبانية بنيت منذ عهد غردون على هذه التلة الصغيرة .

وعندما افادت طلائع الامير محمد زين بتقدم العدو ، وأدرك من حجمه وتسليحه انه اضعف من أن يهاجمهم ، قرر خوض معركة دفاعية يائسة فى أبو حمد نفسها (١) . فحفر خنادقه الدفاعية بين الابراج الثلاث وقد اتجه دفاعه شرقا . لم تمكنه ضآلة عدد اسلحته النارية ولا العددية من تغطية كل مواجهة الهضبة الشرقية ، وكان موقعها اهم من أن يتركه خاليا ، فلو أحتله العدو لتمكن من تدمير وكنس القرية وماعليها بمدفعيته ورشاشاته . لذا بنى محمد الزين خطته الدفاعية على مرحلتين بخطين دفاعيين : المرحلة الاولى والهدف منها احداث اكبر عدد من الخسائر فى العدو فى الهضبة الشرقية ، ثم الانسحاب لخط الدفاع الثاني فى القرية نفسها لخوض معركة قتال انفرادى يائس بين البيوت والازقة . ولكنه كان يعلم قبلا انه يخوض معركة خاسرة .

---

(١) لعل رواية شقير توضح استماتة محمد الزين فى أبو حمد .

« وقيل جاءه كتاب من امرأته فى امدرمان تستحثه على الثبات وتقول له ان نساء البقعة يقرعن ود بشارة فى غنائهن لا نهزامه فى دنقلا ويتغلمن فى ذمه الا شعار فاياك والا نهزام لا نى لا أطيق العيش معك بالذل والا هانة فصمم محمد زين على القتال حتى يموت أو ينتصر .. » شقير ص ١٢١٧ .

وفي فجر السابع من اغسطس تقدم هنتر بمواجهة عريضة نحو ابو حمد بعد التفاف واسع في الصحراء ليهاجمها من جهة الشرق : الكتيبة السودانيةالتاسعة في اليمين ثم سرية المدفعية فالكتيبة المصرية الثالثة ، فالسودانية العاشرة والحادية عشره . وفتحت بطارية المدفعية نيرانها في الساعة السادسة والنصف صباحا . امر محمد الزين جهاديته بامساك نيرانهم ، وامضوا تلك اللحظات الحرجة والعدو يتقدم نحوهم وقد امسكوا انفاسهم ونيرانهم بضبط اعصاب مثير للاعجاب . وعندما اصبح العــدو على مسافة ١٠٠ ياردة فقط امر محمد الزين بفتح النــيران : انهالت طلقات المدافعين على موجات الاقتحام في ضبط واحكام ، الا أن بنادق الرمنجتون البطيئة القليلة كانت اضعف من أن توقف موجات الهجوم العريضة المتدفقة فأمر بالانسحاب لخط الدفاع الثاني لخوض معركة الشوارع والازقة . تحصن كل من المدافعين في منزله وانتظر العدو ، سرعان ماجتازت موجات الهجوم الهضبة الى القرية وبدأت معركة (١) ضارية داخل البيوت والازقة استمرت

---

(١) يؤيد تقرير قائد العملية الجنرال هنتر وصف شقير لضراوة المعركة :

« حكى لي ضابط شهد الواقعة قال ان بقاريا يدعى كرارا لما رأى العساكر منتشرين في البلدة نثر على عتبة بابه الريالات ليشغل العساكر بها وتوارى بالحائط وصار كلما جاء عكسري وهم بالتقاط الدراهم يصرعه ويجره حتى قتل سبعة منهم فدرى به أحد الضباط الانكليز فاحاط منزله ببلك من العساكر فرماهم بالرصاص فأتى بالمدافع ودك منزله عليه ثم بحث عنه بين الانقاض فوجد مقتولا وامرأته واولاده مذبوحون بجانبه . »

فقد كتب هنتر في تقريره الذي قدمه :

The dervishes reserved their fire with great steadiness till the troops had arrived within 100 Yards or so, gave two well aimed volleys, and then retreated to the houses. A house to house fight ensued, which lasted nearly an hour and by 7–30 the whole village had been captured with the exception of one house, which was so obstinately defended that a gun had to be brought against it.

وعلى الرغم من هجومنا ، الا ان العدو امسك نيرانه بثبات وضبط عظيم ، إلى أن وصل جنودنا لمسافة ١٠٠ ياردة منهم وبعدها فتحو نيرانا مضبوطة علينا مرتين ثم انسحبوا للبيوت . وبعدها انتقلت المعركة من بيت لبيت . وفي الساعة ٣٠ر٧ تم احتلال كل القرية ماعدا منزل واحد ، كانت مقاومته مستميتة للدرجة التي اضطرتنا لاحضار أحد المدافع واستخدام نيرانه لذلك المنزل .

Intelligence Report, Egypt No 55 From 18th July to 30 Sept. 1897.

ساعتين وبعدها تمكن هنتر من احتلال القرية وبذلك انفتح الطريق امام الخط الحديدى لابو حمد .

كانت خسائر العدو ٢٠ قتيلا وستون جريحا فى معركة ابو حمد . أما المدافعين فقد ابيدوا ابادة تامة ، ٥٠٠ قتيل و ٣٠٠ جريح ، واسر قائدهم الشجاع .

تقدم بناء الخط الحديدى حتى وصل سالما لابي حمد يوم ٣١ أكتوبر ٩٧ . كان وصوله انتصارا كبيرا للسردار وهزيمة منكرة لمن افتوا باستحالة تنفيذ فكرته. بعدها بدأ الخط فى الزحف لبربر ، وبدأ السردار فى نقل جحافله للتقدم امام الخط الحديدى . وعندما علم الامير الزاكى عثمان حاكم الخليفة فى بربر بسقوط ابي حمد وتقدم السردار نحوه طلب النجدة من الخليفة في امدرمان ومن الامير محمود فى المتمة . وقبل ان يصل خطابه بدأ جنوده فى التمرد عليه ، فانسحب جنوبا وانضم لمحمود في المتمة .

* * *

ونادرا ماتعرض قائد عسكرى لمثل ماتعرض له محمود ود احمد (١) من

---

(١) محمود ود أحمد (١٨٦٥ – ١٩٠٦) ابن عم الخليفة. اشرف الخليفة على تربيته بنفسه فى منزله كاحد ابنائه . وكان يؤهله ضمن الكوادر القيادية الشابة من عشيرته أمثال شيخ الدين ، وأبراهيم الخليل والختيم موسى وود بشاره .. وعندما أختاره الخليفة ليحكم ولاية دارفور وكردفان المضطربة كان يبلغ السادسة والعشرين من العمر . وعلى الرغم من ارتباط اسمه باعنف مجازر المهدية – مجزرة المتمة ، الا ان الصورة التى يرسمها لنا موسى المبارك من خلال روايات شيوخ دارفور الذين عاصروا حكمه هى صورة ادارى كفء متمكن وشخصية رقيقة مسالمة . فقد استلم ولاية دارفور المضطربة بعد ان اضنتها الثورات والمجاعات وعمليات تهجير البقارة الاجبارية وبعد عهد عثمان جانو العنيف . وتمكن فى شهور بسيطة من اعادة الرخاء وتنشيط التجارة والزراعة حتى ان سكان دارفور وبالذات الفور سموه « محمود عسل » مقارنين عهده بعهد « عثمان بصل » الذى اخضعهم باسنة السلاح ولم يرحم أو يهادن أى بوادر للتمرد ، ويصف انه كان دائما لينا طيب المعشر . والواقع ان ملكته التكتيكية لا غبار عليها ، تشهد بذلك خطاباته للخليفة وتخطيطه لزريبة عطبرة ، الا أنه لم يكن استراتيجيا ناجحا ابدا ويبرز قصوره الاستراتيجى بوضوح اذا علمنا ان عثمان دقنه الاستراتيجى المحنك خدم تحت قيادته فى معركة عطبرة .

Hill, Richard, *Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian-Sudan* (Oxford, 1951), p. 224.

موسى المبارك – تاريخ دارفور السياسى ص ١٨١ .

أقوال الحاجة زينب بنت الأمير محمود – العباسية – فبراير ٧١ .

عوامل مضادة ، سواء من قيادته العليا ، أو من جيشه وقادته ، أو من الظروف والمنطقة المحيطة به ، وكان اقلها خطرا وازعاجا هو جيش عدوه الضخم وهو ينمو باطراد يوما بعد يوم ، والمؤن والتعزيزات تتدفق عليه عبر الخط الحديدى .

وعندما اقتنع الخليفة باخلاء كل دنقلا وقرر تجميع قوته لضرب العدو ضربة حاسمة ، وتلفت حواليه لم تكن هنا حوله قوة عسكرية جديرة بالوقوف امام العدو خلاف حامية امدرمان ، الاجيش الغرب الذى كان يمثل دائما احتياطيه الذى لاينفذ . لذا أرسل للأمير محمود فى الفاشر طالبا حضوره لامدرمان فى مهمة مستعجلة . وبعد مقابلته طلب منه العودة للفاشر وجمع كل قادر على حمل السلاح من السكان وضمه لجيشه والتحرك به لامدرمان .

عاد محمود الى الفاشر وامضى اغلب عام ١٣١٤ فى تجميع الرجال لينضموا للجهاد . كانت حصيلة محمود من التعبئة فى كردفان ودارفور حصيلة كبرى ، وأصبح الجزء الاوسط من حزام البقارة مركز حشد كبير لجيشه كما اوضح فى خطابه للخليفة وهو يصف ضخامة جيشه فى ٢٠ جمادى آخر (٢٦ نوفمبر ١٨٩٦) « اوله الآن بكردفان وآخره قريبا من دارفور هذا فى الطول ، واما العرض فان حده فى صعيد المجلد ، ومن جهة الشمال حده دار كاجه وهذه الطرق جميعها مشحونة بفضل الله تعالى خيلا ورجالا . » ولم يمنعه من التحرك لام درمان الا انتظار نهاية فصل الخريف . وعندما جفت الطرق ، تحرك بكل جيشه ووراءه جيش جرار آخر من النساء والاطفال الى الابيض حيث امره الخليفة بترك الجيش فى الابيض والحضور منفردا لامدرمان للتباحث معه فى تنظيم تحرك الجيش وتنظيم ادارة دارفور وكردفان بعد مغادرته لها . وقابل الخليفة فى ١٧ رمضان (٢٠ فبراير ١٨٩٧) وعاد مرة اخرى للابيض للتقدم بجيشه نحو امدرمان .

ومن هنا بدأت مسيرة محمود الهائلة من الفاشر حتى عطبرة . ومن هنا أيضا بدأت متاعبه . فقد لاقى مصاعب جمة فى سبيل المحافظة على جيشه ومنع افراده من التسلل والعودة لمساقط رؤوسهم وهم يتقدمون للامام ، وينظرون فوق اكتافهم للخلف تاركين خلفهم اوطانهم وعشيرتهم وعائلاتهم التى امرهم الامير محمود بتركها تتجمع حول مركز بارة . فجيشه الذى تجاوز « ١٩٠٠٠ مقاتل » كان اغلبه

من المتطوعين غير النظاميين وتكون من ٥٩ قبيلة وفرع قبيلة مختلفة . واضطر اخيرا الى اصدار اوامره للختيم موسى الذى تركه خلفه واليا على كردفان بقطع طريق العائدين . وعندما اضطر للتأخر فترة من الزمن فى الطريق لتجميعهم مرة اخرى لامه الخليفة مذكرا اياه ان الامراء الآخرين وصلوا لامدرمان منذ زمن . فاوضح له محمود سبب التأخير « بلغنا ليلة البارحة بالتواتر ان كثيرا من الانصار ارتجعوا الى جهة بارة والى مركز الابيض . »

واخيرا وصل محمود بجيشه لام درمان بعد مسيرة مئات الاميال من اقصى غرب دارفور وعبر كردفان استخدم فيها محمود كل مايمكن من اساليب الضغط والوعد والوعيد لتجميع المقاتلين والمحافظة عليهم . واستنفذ فيها جيشه الكبير وهو يعسكر فى مناطق حشده آخر طاقات غرب السودان من المؤن والحبوب .وبوصوله لامدرمان بدأت متاعبه الحقيقية ، حيث تبلورت اخيرا فى مجزرة المتمة . ولقد انصبت فى تلك الساعات القليلة التى استغرقتها موقعة المتمة خلفيات واحقاد قديمة كثيرة .

اولها الاشاعات الدائرة منذ زمن ان الخليفة مسئول عن مقتل على ود سعد عندما دس السم له فى كبده نيئة قدمت له ، وسكان المنطقة من الجعليين كانوا قبلا قد ضاقوا ذرعا بأساليب يونس الدكيم فى جمع الغلال والحيوانات من أهالى المنطقة منذ شهور من الموقعة (١) ، ومن ناحية أخرى لم يخل الخليفة من حقد على

---

(١) فترة ولاية يونس فى تلك الأيام لمنطقة المتمة قبل وصول محمود ليس هناك ما يثبتها رسميا غير رواية تشرشل وتؤيدها رواية على المهدى عندما وصف الجلسة العاصفة بين الأمراء الذين أرسلهم الخليفة لبربر وبين يونس .

« بعد ان أتموا حديثهم امتلأ الأمير يونس الدكيم غضبا وقال لهم :

« انت يا عثمان ازرق ، ويا محمد حمزه ويا ابراهيم ود عيسى ويا محمد الا مين عبد الحليم وانت يا محمد عمر خندقاوى وأنت يا عبد القادر ود حبوب وانت يا وداعة الله انا عارف كلا مكم كلكم فلا تظنونى مثل أميركم بشارة الذى جرى مطلقا ساقيه للريح ولا مثل مساعد قيدوم الذى ساقه مثل ساق الغزالة حتى تنتظرون أن أهرب وتهربوا معى بل سارسلكم أمامى إلى أبى حمد لمقابلة العدو هناك واذا كان عمركم أردب سمسم فسوف يفرغ هناك فخير لكم ان تثبتوا فى مصادمة العدو حتى تنالوا النصر أو الشهادة ولا تفكروا فى الهرب فامامكم مفازة عتمور أبو حمد فان لم تموتوا فى الجهاد فستموتون عطشا . » .

Churchill, Winston, *The River War*,
Vol I, (London, 1899), p. 313.

ود سعد وعشيرته بعد ان اشتكى له ود النجومى من تخلفهم عن الانضمام اليه وهو يتقدم لمصر عام ٨٩ .

وعندما قرر الخليفة ان يبعث جيش محمود للشمال كان ظنه الغالب ان المتمة هى مسرح الموقعة الفاصلة القادمة لموقعها الاستراتيجى – فهى ملتقى كل الطرق المؤدية لامدرمان وخصوصا الطريق الصحراوى . فقد كان اعتقاده جازما حتى ذلك الحين فى ان حملة كتشنر ، وخصوصا بعد تأخيرها كل ذلك الزمن وانتظارها بين الدبة ومروى ، ستتبع طريق حملة الانقاذ لتشـق صحراء بيوضة عـبر الطريق المؤدى للمتمة عـبر الصحراء ويمر بآبار جـقدول وآبار ابو طليح . وكان الخليفة يعلم ، كما كانت كل عاصمته تعلم عن تجربة ، طباع جيش محمود الخشنة سواء من البقارة ، أو الجهادية ، أو الفور ، وتعودهم على أخذ مايرغبون بالقوة ، وكان يعلم من الناحية الاخرى طباع الجعليين من انفة واعتزاز بالنفس ، لذا قرر اخلاء المتمة من سكانها ليعسكر بها الجيش وارسل واستدعى عبد الله ود سعد ليحضر له فى امدرمان وامره باخلاء المتمة وتحرك عبد الله ود سعد [1] عائدا

---

(١) تتفق أغلب المصادر فى الاطار العام لهذه المقابلة ولكنها تختلف عنها فى التفاصيل .

فبينما يذكر مكى شبيكة انها كانت ودية للغاية :

ازاء هذا الموقف استدعى عبد الله إلى العاصمة وسأله الخليفة عن جلية الأمر وما كان من فى مثل مكانة عبد الله من حيث النبل ان يكذب فاقر بان الجعليين يتصلون تجاريا بالجيش وما كان الخليفة الا ان يجازيه على تهاونه ولكن تدخل أهل الشورى فى المسألة ورأوا ان يولى عبد الله جهة الشرق فى شندى وان تسند المحافظة على المتمة وما جاورها لمحمود ود أحمد . وهذا يستدعى أن يرحل عبد الله وأهل المتمة للشرق ليحتلها محمود بجموعه العديدة . وكان ان رضخ الخليفة للشورى وصدر الأمر بالتولية والرحيل للشرق لعبد الله وتحرك من امدرمان وفى النفس اشياء واتى قومه وعرض عليهم الأمر .. »

شبيكة – تاريخ شعوب وادى النيل ص ٧٦٥

ونجد ان على المهدى يذكر فى تحقيقه الشخصى ممن حضر مجلس الخليفة ان المقابلة تمت كالآتى :

« .. ثم طلب خليفة المهدى من الأمير عبد الله ود سعد إخلاء المتمة إلى شرق شندى ليمر جيش محمود ود أحمد فاجابوا بالموافقة ظاهرا واضمروا العصيان وكان رأى الخليفة أن يبقى عبد الله ود سعد فى امدرمان ويرسل من ينوب عنه فى إخلاء المتمة ولكن عبد الله ود سعد طمأنه على صدق نواياه فقال له خليفة المهدى : « ان الشريعة لها بالظاهر ولا استحسن ان اقبضك بدمك دون ان يبدر منك شىء اما الذى اعلمه عنك انك تضمر السوء ولك مكاتبات جارية مع العدو ولو فتشنا جيبك لوجدنا فيه بعضها وانى انصحك ان تبقى معنا ولا تذهب للمتمة فاصر عبدالله ود سعد على الذهاب . وطلب خليفة المهدى من الشيخ محمد عمر البنا ان يقـرأ آية فى ذلك الموقف العظـيم فتلى الشيخ البنا : « ووصى بهـا

للمتمة على هذا الاساس .

وبينما كان محمود يشرف على تحريك مؤخرة جيشه للشمال ليلحق بهم اذا به يستلم خطابا فى ٢٢ محرم (٢٣ يونيو ١٨٩٧) من قادة وحداته وقع عليه ثلاثة من امراء الارباع هم على السنوسى ، والبشارى ريدة، وصلاح، وعبد القادر دليل يخطرونه فيه بعصيان عبد الله ورفضه اخلاء المتمة « قد حضر لطرفنا ادريس ود حمزة . . . وبيدهم بوسته لنا من احمد حمزه التوم السعدانى يذكر فيها — ان عبد الله ود سعد اصبح منافقا وجاهر بالعصيان » وتوالت البلاغات لمحمود وهو بام درمان عن عصيان عبد الله من بعض وكلاء أرباعه يؤكدون الانباء فى خطابهم لمحمد بشارة « بأن عبد الله ود سعد ارتد عن المهدية وجاهر بالمعصية وعرض بالمتمة وقصده محاربة المهدية » .

انزعج محمود لنبأ عصيان عبد الله ود سعد وأعطاه وزنا كبيرا . فهذا التمرد

ابراهيم لبنيه .. آيه » فقال خليفة المهدى لعبد الله ود سعد . « اذهب حيث شئت فان الله سائلك من دماء الجعليين وهذه الآية تكون شاهدا بينى وبينكم أمام الله » .

جهاد فى سبيل الله ص ٢٠٨ .

ويذكر شقير :

استدعى الخليفة عبد الله ود سعد أمير الجعليين وفرض عليه عددا معلوما من أهله يستنفرهم للجهاد وقدرا معينا من المؤونه يقدمها للجيش المنوى ارساله إلى المتمة فثقل الطلب على عبدالله ود سعد وقد طالما ارهقه الخليفة من قبل فعقد النية على عصيانه ولكنه أظهر الطاعة وعاد إلى المتمة فجمع كبار قومه .

شقير ص ١٢٢٥

على ان بعض المصادر التى استمعت لرواية بعض من حضروا المجلس ذكروا ان المقابلة لم تدم كل ذلك الزمن وان الخليفة بعد ان عقد المجلس المعتاد وضم له كل كبار الجعليين فى أمدرمان أمر بادخال عبد الله ود سعد وسأله سؤالا واحدا :

« عبد الله ود سعد أخير لك الأمير عبد الله ولا عبد الله بك » فاجابه عبد الله ان الأمير عبد الله أحمد فطلب منه الا نصراف وفض المجلس .

ونجد تشرشل وفى الغالب مصادره المخابرات المصرية يتحدث عن مجريات المقابلة كالآتى :
وثار الخليفة فى وجه عبد الله ود سعد ثورة عارمة متخليا عن ضبط النفس الذى كان يتحل به فى العادة فى المقابلا ت الرسمية وإنفجر فى ثورة طويلة من السباب ذاكرا له انه منذ زمن يشك فى ولا ئه وأنه لا يقبل اعذاره ، وانه يستحق الموت فورا ، وان قبيلته لطخة عار فى وجه الأرض ، وان محمود سيتكفل بتأديبهم وتحسين سلوكهم .

Churchill, Winston, *The River War*, Vol. I, p. 319

سيشكل خطرا كبيرا على فرق المهدية فى الشمال ويقطع خط الاتصال بها . فأمر قادة ارباعه بعدم دخول المتمة ، وألا يتصرفوا لحين وصوله . واسرع للمتمة . وازديادا فى الاحتياط بدأ يرسل فرق الكشافة وهو يتقدم ويمهد لمقابلته مع عبد الله ود سعد مما سبب تأخيرا ضايق الخليفة كثيرا ، فلم يكن الخليفة يتهاون فى امر المتمة اطلاقا . وكان رأيه هو حسم هذه الحركة الجانبية التى تقلل من شأن الجهد الموجه للعدو الرئيسى . فنراه يلوم محمود على التأخير ويأمره بسحق الحركة فورا فقد كتب فى ٢ صفر (٣ يونيو ١٨٩٧) :

فنعلمك ايها المكرم ان المبادرة الى الاخذ بالحزم فى امور الجهاد من المهمات وان المخذول عبدالله سعد قدمضت عليه مدة وهو فى عصيانه ومجاهرته بالعداوة مع قربك منه وقلة المسافة مابينك وبينه واستصحابك للجيش الكفاية المستعد لضرب الاعداء الذين هم اكثر منه عددا واقوى منه بكثير حتى كثر هنا الارجاف والاقاويل الغير لائقة بل فمن قائل انك وقفت بالهوبجى وصرت تكاتب عبدالله وتؤمنه وهو غير قابل لأمانك ومن قائل ان عبدالله قد تحصن فى بلده ولم تستطع الوصول اليه ومن قائل ان المذكور يتوعدك بالقدوم اليك وهكذا من الاقاويل والارجاف التى سببها امهالك له فبوصول امرنا هذا اليكم فاحزموا امر الجيش وعاجلوا المخذول بالحرابة . »

ولم ينتظر محمود اكثر من ذلك فبدأ تقدمه فورا نحو المتمة بكل جيشه .

عاد عبد الله ود سعد وجمع عشيرته فى المتمة واوضح لهم مادار فى مقابلته مع الخليفة وماعقد عليه العزم من رفضه لمغادرة المتمة والعصيان ومقاومة جيش محمود . وثار نزاع وجدل طويل بين مؤيد ومعارض ، استحلف المعارضين فى نهايته على المصحف بأن لايبوحوا السر وان ينسحبوا ان أرادوا (١) .

---

(١) صارت الكلمة التى قالها عبد الله ود سعد دفاعا عن رأيه فى رفضه مغادرة المتمة « حارقانى قومة نمر من شندى » مثلا شعبيا .

أى ان انسحاب الملك نمر من شندى وفراره من وجه جيش الدفتردار لا زالت تحز فى نفسه فكيف يكررها الآن .

ويوضح الاستاذ محمود عبد الله فى بحثه المفصل عن ظروف معركة المتمة ان بعضا من الرواة ذكروا له ان عبد الله قال عبارته هذه ليس قبل العصيان ولكن بعده وبعد ان قامت الحرب بينه وبين محمود وبعد ان تأكد لاصحاب عبد الله وسعد انهم هالكون واشاروا عليه بالفرار فعقد المقارنة بين فراره من وجه محمود وفرار الملك نمر من وجه الدفتردار

محمود عبد الله أبراهيم – رسالة ماجستير – حملة الأمير محمود إلى الشمال ص ٦١

ثم بدأ الاستعداد لمواجهة محمود من داخل بيوت المتمة وحشد أغلب اسلحته النارية فى الجهة الجنوبية التى كان يتوقع منها تقدم محمود على أن يوجهوا نيرانهم من داخل مزاقل اسوار المنازل . وفى صباح الخميس تقدم محمود بكل جيشه نحو بيوت المتمة (1) . وفتح عليهم المدافعون النيران من مدى مؤثر وتساقط حوالى خمسون قتيلا من موجات الهجوم فى اللحظات الاولى ، الا ان المعركة غير المتكافئة سرعان ماحسمت وتمكن محمود من اقتحام المنازل وبدأت مجزرة المتمة الاليمة . وختمت فى ربع ساعة حسب تقدير محمود نفسه .

وعندما تحرك محمود ليعسكر بجيشه على شاطئ النيل ترك خلفه الفى جثة فى مدينة المتمة .

* * *

(1) على الرغم من ان خطاب محمود للخليفة بتاريخ ٢٣ محرم ٢٤ يونيو ١٨٩٧ يصف الحالة التى حارب بها عبد الله ود سعد بأنها لم تكن مدبرة تدبيرا عسكريا « بل كان كل واحد منهم يحارب بمفرده قيل ان ذلك اتباعا لكلام احد علا يمهم حيث قال لهم بانكم اذا متّم محامين عن نسائكم وذراريكم فانتم الشهداء حقا » .

ويعترض الأستاذ محمود عبد الله فى بحثه بانه باستجوابه للشيخ عبد الكريم الفاضل من أهالى الدامر ولكنه « عرض » مع عبد الله ود سعد وحضر معه واقعة المتمة فقال انهم ابعدوا النساء بعيد عن مكان « المحاص » واستعدوا استعدادا حربيا لمقابلة جيش محمود .

وتكاملت اخيرا كل حملة محمود فى المتمة وكانت قوتها كالاتي :

الامـــراء	حملة سلاح أبيض	جهادية	رمنتون	بنادق	خـــيل
على السنوسى	١٩٤٥	١٥١٣	٨٢٠	٥٤٤	٣٤١
صلاح أبوّه	١٤٢٢	١١٢١	٤٨١	٣٦٨	٣٢٦
محمد عـــلى	١٨٠٤	٢٢٠٦	٨٩٥	٥٩٣	٤٨٦
عيسى زكريا	٠٤٩٠	٠٦٢٣	٢١٤	٢١٣	٠٨٢
البشارى ريده	١٥٨٦	٠٥٣٨	٣٤٢	٢٠٦	١٤٣
محمد فضل الله	٠٤٦١	٠٤٦٥	١٥٢	٢٥٨	١٤١
عبد القادر دليل	١٣١٤	٠٤٢٥	٢٠٨	٣٦١	١٧٩
الفضلى آدم	٠٤٤٣	٠١٤٧	١٠٢	١٥٨	٠٨١
العـــطا اصول	٠١٢٨	٠٢٤١	٠٥٨	١٤٢	٠٤٧
المجموع	٩٥٩٣	٧٢٧٩	٣٢٧٢	٢٨٤٣	١٨٢٦
فضل الحسنة	٣٨٣	٦٥٧	٦٧٢	٢٢	٩٦
عبد الله حامد	٤٧٦	٣٣٤	٥٤٥	٠٦	٥٤
محمد الزاكى عثمان	٦٦٢	٩٩٥	٧٦٧	١٢٩	٣٧١
محمد ود بشارة	٠٢٧	٠٦٠	٠٥٨	٠٢	١٨
المجموع	١١٠٩١	٩٣٢٥	٥٣١٤	٣٠٠٢	٢٣٦٥

ثم بدأت شهور الانتظار الاليمة فى المتمة وماصاحبها من مجاعة متصلة ، ومن تردد من جانب محمود وهو يعرض على الخليفه الخطة تلو الخطة ، وبوارج السردار تتقدم باستمرار من بربر لتقصفه . ولكن خطابات محمود كانت توضح انه لم يقاس من كل ذلك مثلما قاسى من جيشه نفسه . ولم يستطع هو نفسه شيئا لضبط الامور وسط جيشه الكبير ، واشتكى للخليفة فى ٢٤ صفر (٢٥ يوليو ١٨٩٧) من عدم

مقدرته على ضبط تصرفات افراد جيشه ومنعهم من التعدى على الاهالى والمبالغة فى التشفى والانتقام من الابرياء والنهب والسلب الحرام .

« سيدى ان عبدكم منذ تعيينه لهذا الجيش عام ١٣٠٨ فهو يقاسي من امور تشيب لهولها النواصي وتذيب الرواسي . . . تارة من عدم الرضا بالحكم وتارة من عدم الهمة فى انجاز الامر وتارة بعدم سماع النواهي وارتكاب مالايرضاه الله ورسوله . . . . . ومع كل هذا فاننا ساكتين وللصبر ملازمين ولمرارة عدم المساعدة والموافقة متجرعين . . والحالة هذه خشيت على نفسى حيث ان ماسبق من الموعظة لى والتذكير فى عدم رفع الاحوال اذا حصل منى السكوت وترتب عليه ادني خلل أو فشل فى الدين سأكون مسئولا عنه فى الدنيا والآخرة،وحقيقة العاقل من يسعى فى سلامة نفسه فى البدارة قبل ان تحتوشه الموبقات فى هذه الدار فلذا انجبرت وحررت هذا وانا أقدم رجلا واوخر اخرى وذلك لعدم سبوقه منى وذلك ان الذى حملنى ان هذه الجهة لم تكن كجهات الغرب لافى ارضها ولافى اهاليها وسمعنا غير مرة بل تكررت الاوامر الرسمية بتأمين اهاليها . فبعد واقعة الهالك عبد الله ود سعد أمناهم وحررنا لهم مايفيد عدم مؤاخذة أى واحد منهم الا من كان مع الهالك المذكور فتراجع اغلبهم فماكان من الاصحاب الا ـ خروجهم ثلة بعد ثلة مشاة وركبانا غربا وشرقا حتى اتوا عليها وجعلوها حصيدا وكأنها ماكانت بالامس حيث اخذوا البهائم وقتلوا ماكانت حيه وجرحوا كثيرا من الرجال واستولوا على النساء بصفات منكرة ينفر منها الطبع ويحرمها الشرع نحو اخذها لتحمل الماء على رأسها لسقاية الحصان أو حمل القلال مع ان البحر قريب ولاداعى لهذا الامر . . . » واضطر محمود اخيرا الى اعادة كل النساء لام‌درمان ببارجته الوحيدة .

وبخطاب محمود بدأت سلسلة طويلة من الشكوى من تصرفات جيشه واكثرها انصب فى التسلل المتواصل وهجر الصفوف ، تتخللها دائما الشكوى من اعداد جيشه المتناقصة . ومطالبة الخليفة بارسال التعزيزات ، والالحاح فى ارسال التعيينات والذرة لتموين جيشه الضخم فى تلك الاراضى القفار ، وحفلت خطابات محمود بالاقتراحات والخطط العديدة لمواجهة الغزو والخليفة يؤيده دائما تاركا له

حرية التصرف .

وقد ظلت فكرة تقدم العدو الصحراوى من الدبة للمتمة تسيطر على ذهن محمود ، وتلقي ظلا ثقيلا على تخطيطه ، وقيدا اثقل يكبل اقدامه ويمنعه من التحرك لشمال لمهاجمة السردار ، خشية تقدم صحراوى من جانب العدو لاحتلال المتمة وقطع خط اتصاله بام درمان .

ولايمكن ان يلام محمود فى تلك كثيرا ، فحتى الخليفة نفسه وقبل شهرين من المعركة كان يعطى هذا الاحتمال وزنا كبيرا ، فذكريات بعثة الانقاذ لم تغب بعد عن الاذهان ، كما ان قوات السردار كانت لاتزال موزعة بين الدبة ومروى وهى تطل على اقرب طريق لامدرمان ، الطريق الصحراوى .

وعندما استنجد محمد الزاكى من بربر بمحمود طالبا التعزيز أو السماح له بالانسحاب والانضمام له فى المتمة ، ارسل للخليفة فى ٢٠ يوليو طالبا رأيه ، هل يترك محمد الزاكى فى بربر وحيدا كما حدث لمحمد الزين فى أبي حمد ، واعتباره نقطة تعطيلية ، ام يأمره بالانسحاب والانضمام له فى المتمة — ام يتقدم محمود نفسه ويدافع عن بربر . واقترح محمود السماح لجيشه بالتحرك شمالا لبربر ووافقه الخليفة . ونجد الخليفة هنا لاول مرة ، وان لم تكن الاخيرة ، يتحرر من عقدة التقدم الصحراوى موضحا لمحمود اهمية بربر ، «فان سقوط بربر يعنى انفتاح النيل للسردار حتى امدرمان . ويؤكد لمحمود اهمية استغلال المضايق والشلالات التى تقع شمال بربر وتحصينها بالمدافع ، ويأمره اخيرا بالتحرك لبربر فورا ومقابلة العدو هناك ويعده بارسال التعزيزات من امدرمان . وامضى محمود الشهرين التاليين فى مد وجذب مع الخليفة مبررا تجمده فى المتمة بانتظار وصول تعزيزات الخليفة للتحرك لبربر وإلا اصبح دفاعه عن المضايق بدون المدفعية والبنادق التى طلبها غير فـعال .

وفى ٧ أغسطس سقطت ابو حمد واوضح محمد الزاكى لمحمود انه يتوقع وصول العدو لبربر فى ظرف اسبوع وان لم تصله النجدة قبل ذلك فموقفه ميئوس مـنه .

أوضح محمود للخليفة انه سيتقدم فورا لنجدة بربر ، ولكن عبور جيشه من الغرب للشرق استغرق اكثر من ١٠ ايام ، وعندما اتم العبور للشرق اخيرا واستعد للتقدم برزت معضلة اخرى ، وعاد محمود لحساسيته القديمة وخشيته من تقدم العدو الصحراوى . فقد افادت مصادره عن تواجد قوة من فرسان ومشاة العدو فى آبار جقدول، على الطريق الصحراوى وهى تتقدم نحو المتمة . وعاد طالبا رأى الخليفة . فرد عليه الخليفة فى ٢٢ اغسطس بحزم هذه المرة آمرا اياه بترك المتمة وشأنها والتحرك فورا لنجدة بربر والاكتفاء فقط بترك قوة فى المتمة لحماية ظهره . وعاد محمود يكرر بأنه تأكد اخيرا من خطة العدو وهى تقدم مزدوج ، صحراوى ارضى عبر بيوضة ، ونيلى بالبوارج . منتظرا اوامر الخليفة بان يبقى بالمتمة ، وقبل ان يصل خطابه للخليفة ارفقه بآخر فى ٣١ اغسطس يحمل انباء تمرد حامية بربر واخلائها للمدينة،واضطرار اميرها الزاكى للانسحاب جنوبا . سادت المرارة خطاب محمود للخليفة وهو يعتذر ويؤكد شعوره بان سقوط بربر كان مسئوليته هو . واضطر اخيرا للاعتراف صراحة بان جيشه لايرغب فى التحرك لبربر . رد الخليفة مطيبا خاطر قريبه الصغير مؤكدا له أنه لايشك اطلاقا فى شجاعته وولائه.

وعلى الرغم من ان سقوط بربر كان ضربة كبيرة وجهت للخليفة الا انه رضى بالأمر الواقع وبدأ يبحث عن خطة جديدة . كان البديل لبربر واضحا — شلالات السبلوكة — منطقة تستمتع بنفس مزايا مضايق بربر واقترح الخليفة على محمود التحرك نحوها واحتلالها فهى موقع دفاعى ممتاز يضمن اتقاء شر بوارج السردار ويضمن سيطرته على الضفتين . ولكن محمود اجاب فى ١٦ يناير رافضا الخطة الجديدة رفضا باتا . ففى رأيه ان اى انسحاب من المتمة نحو امدرمان سيؤثر على معنويات جيشه وسيتمخض عن تزايد نسبة تسلل وهروب جزء كبير من المقاتلين ، وهم قبلا يتسللون بنسب كبيرة .

وحقيقة تركزت معظم مشاكل محمود فى شهور الانتظار ، ودارت معظم خطابات الشكوى الطويلة للخليفة حول محورين ، تسلل المقاتلين ، والشكوى من انعدام التموين والذرة مما جعلهم فى شبه مجاعة دائمة ، وكان من ضمن الاسباب التى قدمها الخليفة وهو يرشح موقع السبلوكة لمحمود هو قربها من امدرمان لسهولة

تموين جيشه .

وأخيرا تمخضت التعزيزات الموعودة في وصول اشهر قادة المهدية الاحياء وانضمامه لمحمود ، الامير عثمان دقنه ، على رأس اربعة آلاف رجل هي كل قوته التي ظلت مشتبكة في عمليات متواصلة طوال السنين الأخيرة . وكان محمود قد طلب منه الانضمام اليه في المتمة بكل قوته . فجيشه هو الجيش الرئيسي الذي وقع عليه مواجهة السردار . ولكن عثمان دقنة لم يكلف نفسه حتى عناء الرد عليه . ولم ينضم الى محمود الا بعد ان امره الخليفة شخصيا بالانضمام له . مرة أخرى ضاعفت زيادة القوة العددية من متاعب محمود ، فقد برزت هذه المرة مشكلة ازدواجية القيادة .

والخليفة وهو يطلب من عثمان دقنة الانضمام لمحمود - كتب محذرا محمود بان يحترس في معاملة عثمان دقنة ، فالقائد الشهير لم يكن قائد قوة يعمل في خدمته فقط ، بل هو اقدم قادة الخليفة عسكريا « وهو اقدم منك في الدعوة » وقد عمل دقنه طول حياته قائدا وحاكما منفصلا واميرا على شرق السودان ولم يتعود على تلقي الاوامر الا من الخليفة أو المهدي .

واثبتت الايام صحة مخاوف الخليفة ، فسرعان مانشب النزاع بين القائد الشاب وبين المقاتل الشهير ، وتطور الامر الى ان اضطر محمود لرفعه للخليفة . فبعد بدء التقدم نحو السردار في ٢١ فبراير وهو يعسكر في عطبره التصق محمود بالنيل متحملا قذائف اسطول كتشنر طوال تقدمه للشمال ، فقد كانت خطة محمود هي التقدم تقدما مباشرا محاذيا للنيل وتسديد هجوم امامي مباشر للسردار في عطبره . اما عثمان دقنة ، الاستراتيجي المجرب ، فقد اقترح مفارقة النيل من العالياب والالتفاف التفافة واسعة ليلتقو بنهر عطبرة ويبدأوا التقدم نحو السردار . كان مسلك عثمان دقنة ينم عن تفهم غريزي لابعاد الاستراتيجية الهجومية ، فتقدمه الغير مباشر نحو جنب السردار الايسر يبتعد به عن الخطأ الاستراتيجي المميت بديهية الغرض « Obviousness of objective » ان تقدم تقدما مباشرا نحوه كما اقترح محمود ، ويحقق من ناحية اخرى اهم عناصر الاستراتيجية السليمة ، وضع العدو في موقف حرج وهو دائم الشك حائر الى أي جهة والى أي هدف سيوجه الهجوم

« Between the horns of a dilemma » فتقدمه نحو عطبرة دون النيل يجعل كلا من بربر وعطبرة في متناول يده ليضرب أيا منهما ، كما يبتعد به عن نيران ومراقبة البوارج الحاصده الراصده التى سيتعرض لها تقدم محمود النهرى . أما التموين فيمكنهم الاعتماد على اشجار الدوم التى تغطى المنطقة . اشتد النزاع حول أى المسلكين يتخذ ، واضطر محمود الى رفع الامر للخليفة ليعطى كلمته النهائية . وصل رد الخليفة مؤيدا عثمان دقنه . ومن ثم فارقوا النيل من العالياب واتجهوا شرقا نحو نهر عطبرة .

كان تقدم محمود تقدما منهكا ، وقطعة لمسافه ٤٠ ميلا فى مسيرة واحدة دامت ثلاثين ساعة يعتبر اعجازا فى تلك الايام ، فقد قاسوا خلالها الأمرين من الجوع والعطش خلال تقدمهم وهم يعبرون الصحراء . ولما اقتربوا من نهر عطبرة ، ثار النزاع مرة أخرى بين دقنة ومحمود ، فقد رأى عثمان دقنة ان تمتد التفافته الواسعة الى الشرق قليلا ليصل الى ادارمة . فمن ذلك الموقع البعيد من النيل الرئيسى سيضعوا العدو فى موقف عصيب . فالسردار لايمكن ان يتقدم جنوبا نحو امدرمان ويترك خلفه قوة كبيرة تهدد جنبه الايسر وخطوطه الخلفية ، وان تقدم بحذاء نهر عطبرة لمهاجمة محمود فان هجومه سيصبح فى صالح محمود — فسينفصل عن اسطوله النهرى ويصل لهم منهكا بعد مسيرة طويلة . الا ان محمود لم يكن ابدا استراتيجيا حصيفا ولم يستمع لدقنة ولم يترك الكلمة الاخيرة للخليفة هذه المرة بل انثنى للداخل نحو العدو ، وعندما وصل محمود للنخيلة واختار موقعه الدفاعى ، ثار النزاع مرة اخرى وتركز حول نقطتين : فقد اوضح عثمان دقنة لمحمود ان قرب الموقع من المجرى الرئيسى للنيل ومن قلعة عطبرة سيمكن السردار من مباغتة محمود بعد مسيرة ليلية واحدة طويلة . كما ان الموقع الدفاعى وسط اشجار الدوم الجافة سيجعله عرضة للاشتعال بالنيران اثر القذائف الاولى من مدفعية السردار ، وسيضطرون عاجلا أم آجلا الى اخلائه والتعرض لهجوم العدو فى العراء . كان عثمان دقنة كعادته يتحدث كأنه يعلم الغيب .

على أى حال لم يستمع محمود لنصيحة عثمان ، وبـــدأ فى تجهيز موقـــعه الدفاعى . ترك مجرى نهر عطبره الجاف ملاصقا لمؤخرة الزريبة واتجه بزريبته

للشمال الغربي . وبعد بضعة ايام اكتملت الصورة النهائية لزريبة محمود الشهيرة زريبة من الشوك تحيط ببقعة شبه دائرية من الارض قطرها الف ياردة تغطيها اشجار الدوم واكواخ القش والخيام ، وخلفها بمسافة ٥٠ ياردة حفرت الخنادق لحماية حملة بنادقه ، وأقيمت الملاجئ لاستخدام مدافعه السبعة الموزعة على دفاعه الدائري . وبدأ في تنظيف المنطقة امام الزريبة من الشجيرات لمسافة ٣٠٠ ياردة .

صحيح ان دفاعه الحولي داخل زريبته الدائرية وفر تغطية كافة الاحتمالات والاتجاهات ولكنه كان تكرارا لدفاع حمودة في فركة . فمرة اخرى انحصرت زريبة النخيلة كقرية فركة بين الاراضي المرتفعة ومجرى نهر عطبره .

نظم محمود دفاعه على الترتيب التالي : ربع عبد القادر ود اصول في مقدمة الدفاع في الناحية الشمالية من الزريبة (١) حيث كان اتجاه العدو متوقعا ويمينه مدفعان ، وفي الركن الأيمن ربع على السنوسي . اما الجهة الشرقية فقد احتلاها البشاري ريدة ومحمود فضل الله ، بينما توسط الربعين مدفعين من مدافع كروب . اما الجانب الايسر من الزريبة فقد احتله فضل الحسنه . بينما حدد احد المدافع حدود اليمين بينه وبين ربع عبد القادر اصول ، وبرج مدفع آخر حدود اليسار مع ربع عيسى زكريا في الجانب الايسر من الزريبة . أما قوس الزريبة الايسر فقد دافعت عنه ارباع الزاكي عثمان وود بشاره فصالح ابو ، وفضل آدم . . . واخيرا في مؤخرة الزريبة قبع عثمان دقنة . وليس هناك تفسير لضآلة المسئولية (٢) التي ألقيت على كاهل عثمان دقنة سوى احتمالين : اما انه رفض الاشتراك في معركة يعلم انها خاسرة ورفضت كل مقترحاته التي قدمها حول الطريقة التي تخاض بها ، أو لان محمود حدد له ذلك الواجب الثانوي للحساسيات التي نشبت بينهما .

انتهى محمود من احاطة الزريبة وحفر الخنادق وتشييد ابراج المدفعية وقبع

---

(١) أنظر الخريطة رقم ٢ معركة عطبرة .

(٢) تدور أغلب الروايات التي استقاها جاكسون ممن قاتلوا أو بالاحرى انسحبوا مع عثمان دقنة من معركة عطبرة أن عثمان دقنة لما رأى عدم استماع محمود المتواصل لنصائحه أمر رجاله قبل المعركة بالانسحاب دون التورط في المعركة اذا رأوا انها معركة خاسرة وعدم تحمل أي خسائر .
Jackson, H.C., *Osman Digna* (London, 1929), p. 101.

منتظرا عدوه ، وازدادت معاناة محمود فى اشهر الانتظار الاخيرة خصوصا بعد تقدم البوارج جنوبا وتدميرها واحتلالها لشندى حيث احتفظ بشونة غلاله .

ما ان بدأت الانباء تتواتر لاستخبارات السردار بان الخليفة يجهز جيشا ضخما فى امدرمان للتقدم نحوه الاوانزعج انزعاجا واضحا وعادت الى الاذهان هالة انتصارات المهدية ، وأحس ان انتصاراته الماضية ماكانت الاطعما لاصطياده، وجذبه جنوبا ، خصوصا والنيل فى زمن انخفاضه .

كان مخططه من البداية هو انتظار ارتفاع النيل ليبدأ تقدمه نحو امدرمان فى الفيضان القادم عام ٩٨ ، فقد فوت فرصة فيضان عام ٩٧ لان السكة حديد لم تتخط مضايق بربر بعد . ولكن هاهو الخليفة لم يتركه فى سلام واخذ المبادأة وقرر التقدم والهجوم عليه . اوضحت استخبارات ونجت حشود الجيش الضخم والاستعدادات التى تجرى فى امدرمان . واوضحت شخصية القائد الجديد ابن عم الخليفة ، ثم مجزرة المتمة ، انه هذه المرة سيواجه معركة حقيقية ، وعلى الرغم من تفوقه الواضح فى العتاد والنيران والمعدات الا ان ثقته بجيشه بدأت تهتز ، وسارع مطالبا لندن بمعونة عسكرية بريطانية ولو بلواء واحد .

وافقت الحكومة البريطانية على ارسال لواء بريطاني ، وبدأت السكة حديد فى نقل كتائبه لمركز الحشد المتقدم الجديد فى بربر .

ساد السكون كل شهر نوفمبر وديسمبر ، وقنع السردار بعد احتلال بربر بانتظار خطه الحديدى للتقدم معه . ومن ثم انشئت ورشة متقدمة فى عطبرة لتجميع اجزاء البوارج الجديدة التى وصلت استعدادا للتقدم النهائي ، مكررا تجربة كوشة الناجحة لتفادي شلالات ومضايق النهر . وبعدها بدأ يجمع حشوده فى كنور وتقدم بكل قوته نحو عطبرة . وبسرعة نمت عطبره من نقطة ادارية صغيرة ، لمعسكر ضخم اكتظ بستة عشر الف رجل . وعندما افاد استكشاف البوارج البعيد ان محمود قد غادر النيل نحو الصحراء ، واكدت مصادر ونجت ان محمود ينوى شق الصحراء لنهر عطبره ومهاجمة السردار فى عطبره أو بربر ، قرر السردار التقدم واحتلال رأس الهودى على نهر عطبرة فى نفس المكان الذى سيلتقى فيه محمود بنهر عطبره . وبدأ فى ارسال طلائع الاستكشاف للامام . ولما تأكد ان

محمود حط رجاله في النخيلة ، نقل السردار كل قوته وحشدها فى رأس الهودى . وبعدها ساد السكون والتردد كلا الجيشين ، فاتسم النصف الأخير من مارس بتردد واضح من جهة السردار وهو يستشير كرومر هل يهاجم محمود أم ينتظر هجومه ، بعد ان فشل فشلا ذريعا فى اخراج محمود من زريبته واغرائه بالهجوم عليه ، الى ان ضاق كرومر به ذرعا واوضح له اخيرا ان القرار ملكه وحده لانه خير من يحسم الموقف . فقد كتب لكرومر فى اول ابريل بعد ان انتظر تقدم محمود مدة طويلة بلا طائل :

« انني اواجه موقفا محيرا . محمود يدافع ولايرغب في الهجوم على ، على الرغم من انه يعاني نقصا فظيعا فى المؤن ، وعلى الرغم من تسلل المقاتلين المتواصل من صفوفه . ويبدو أنه ينتظر تعليمات الخليفة اما للتقدم أو للتقهقر ، ويؤكد استجواب المتسللين من صفوفه انه سيرفض فكرة الانسحاب ، فهو يخشى ان تؤخذ دلالة على خوف أو جبن ، ناقشنا الموقف انا وكاتكر « قائد اللواء الانجليزى » وهنتر امس . وحبذ كاتكر فكرة الهجوم فورا على محمود بينما اقترح هنتر الانتظار . ان تقدمه وهجومه علينا سيكون بالتأكيد فى صالحنا ولكنه لو انسحب قبل ان نهاجمه نحن فستضيع علينا فرصة عظيمة . ارجو شاكرا التكرم بابداء رأيك عن هذا الموضوع . »

وأحال كرومر الخطاب لجرانفيل قائد قوات الاحتلال البريطانية فى مصر واحاله هذا بدوره للقيادة البريطانية فى لندن .

وقبل ان يصل رد القيادة البريطانية بتأييدها وموافقتها على اى قرار يتخذه السردار مهما كانت نسبة الخسائر ، ارسل كتشنر لكرومر يبلغه ان هنتر عدل عن رأية وانجذب لرأى كاتكر واجمع الاثنان على الهجوم فورا ، فأرسل له كرومر فى ٣ ابريل يرجوه الهجوم فورا .

أجابه السردار في الرابع من ابريل أنه سيهجم ولكنه يؤكد له انه سيتخذ اقصى احتياطات لتقليل الخسائر ، فعلى الرغم من معاناته منذ الطفولة من تشاؤم مستديم من كل ايام الجمع ، الا انه زيادة فى الحرص سيهاجم زريبة محمود فى يوم الجمعة الحزينة « Good Friday » الذى يقع فى ٦ ابريل طالما ان محمود

لن يتوقع هجومه في يوم عيد مسيحي .

لم يكتف السردار بالمعلومات الدقيقة التي قدمها له ونجت عن : ربية محمود وقرر ان يقوم قادته باستكشاف شخصي نهائي قبل الهجوم بيوم واحد ، يشترك فيه الكولونيل ماكسويل قائد اللواء السوداني ، وجنرال هنتر قائد فرقة المشاة ، والكولونيل لونج قائد المدفعية على ان يقود عملية الاستكشاف بقوة الكولونيل برود وود قائد الخيالة المصرية . تكونت قوات الاستكشاف من ٨ سرايا فرسان ، سرية مدفعية الخيول ، واربعة مدافع مكسيم ، وتحركت من المعسكر في الرابعة صباحا يوم ٥ ابريل .

وعندما أبلغت عناصر الانذار محمود بتقدم قوة من فرسان العدو وضع خطة سريعة لمواجهة الفرسان ، ولم ينكشف تخطيطه الذكي لبرود وود الا بعد أن اشرف الفرسان على الزريبة . فقد اعتمدت خطة محمود على جذب الفرسان امام الزريبة لمطاردة خيالته الرئيسية حيث اختفى ربع على السنوسي داخل منخفض مفاجئ في المرتفعات امام الزريبة ، وحيث اختبأت جماعة اخرى من الفرسان خلف الزريبة ، وبذلك ينحصر فرسان العدو من كل الاتجاهات . فرسان بخيت النموري يسارهم وفرسان الزريبة عن يمينهم والمشاة امامهم . على أن يصبح واجب بخيت النموري هو الاحاطة بمؤخرة العدو بعد الالتفاف من يساره .

اشرفت طلائع الفرسان على الزريبة وشاهدوا امامهم فرسان بخيت وهم يتراجعون بانتظام امامهم . فتحت مدفعية محمود نيرانها من الزريبة في تلك الاثناء فانتهز قائد المدفعية الفرصة ليدون اماكنها بالضبط . وبينما استمروا في متابعة فرسان النموري امامهم ، وهؤلا يلتفون حول جناحهم الايسر ، برز فرسان الزريبة من يمينهم ، وعندما فتحت نيران المدفعية والرشاشات على مؤخرة فرسان بخيت النموري برز ربع على السنوسي فجأة من مكمنه وبدأت اذرع الكماشة تنطبق على فرسان السردار . ولم يتمكنوا من الخلاص والعودة لمعسكر السردار في ام ضبيع الا بعد ان فتحت كل مدفعيتهم ورشاشاتهم نيرانا متواصلة افلحت في صد هجمات الفرسان التي شنت عليهم من مختلف الاتجاهات وبعد ان فقدوا ١٠ قتلى و٧ جرحى .

كان استكشاف السردار بقوة تمهيدا للمفاجأة التي نوى تحقيقها بتقدمه الليلي في مساء نفس اليوم . فمن المستبعد دائما القيام بعمليتين كبيرتين في يوم واحد ، واذا اضيف لذلك ان اليوم كان يوم عيد المسيحيين نستطيع أن نفسر السكينة والطمأنينة التامة التي سادت زريبة محمود في ليلة ٧ ابريل .

** ** **

بدأ السردار تقدمه من معسكر ابو ضبيع في مساء ٧ ابريل . لحقت به قواته الراكبة في الثانية صباحا ، ولم يتوقف الا في التاسعة بعد ان قطع نصف المسافة ، ثم استأنف التقدم في الواحدة صباحا . وفي الثالثة صباحا توقف السردار بعد أن بدت اضواء الزريبة الخافتة تبدو عن بعد .

اتخذت ألوية السردار مواجهة الاقتحام العريضة في شكل قوس هائل طوله أكثر من ١٥٠٠ ياردة للمشاة وحدهم خلاف الفرسان الذين حموا الجانب الأيسر ، لواء ماكسويل (١) السوداني في اليمين ، لواء ماكدونالد السوداني في الوسط ، ولواء كاتكر البريطاني في اليسار .

كانت خطة اقتحام السردار بسيطة وسهلة . فبعد القصف الابتدائي بمدفعيته القوية على ذلك الهدف المنحصر ، تتقدم صفوف الاقتحام التي قسمها لقسمين : القسم الاول عبارة عن المواجهة العريضة الامامية وواجبها هو تمزيق الزريبة بالايادي معتمدة على غطاء من نيران بنادقها ونيران المدفعية لخفض رأس العدو أثناء لحظات فتح الثغرات في الزريبة لتتاح بعدها الفرصة لسرايا الاقتحام خلفها للتقدم وتنظيف داخل الزريبة بالالتحام بسناكي البنادق . تكون القسم الاول من حوالى ١٠ سرايا من كل لواء منتشرة بعمق صف واحد ، وتكتلت خلفها عناصر الاقتحام للتدفق عبر الثغرات في عمق يتجاوز ١٠ سرايا . تفاوتت نسب التقسيم : فبينما وضعت الألوية السودانية ١٠ سرايا في الخط الأمامي العريض ، وضع اللواء البريطاني ٨ سرايا حمل اغلب جنودها البطاطين لوضعها فوق شوك الزريبة ، وتراصت صفوف الالتحام في اطراف مواجهة كل لواء لعمق ٨ سرايا خلف بعضها البعض . وكتموا أنفاسهم في انتظار الفجر .

---

(١) أنظر خريطة رقم ٢ معركة عطبرة .

بينما كانت خيوط الفجر الرمادية الاولى تتسلل وسط اشجار الدوم ، كان محمود فى شغل شاغل لتنظيم دفاعه . أسرع حملة البنادق لاحتلال خنادق ضربنار ، وخلفهم حشد حملة السلاح الابيض داخل خنادقه الثلاثة . وبعد ان تأكد من اتجاه الهجوم نقل أغلب قوته لتعزيز ربع العطا أصول فى المقدمة . ثم فتحت ابواب الزريبة اليسرى وخرج فرسانه بقيادة بخيت النمورى واصطفوا بيسار الزريبة ، ثم انسحب لمركز القيادة وسط الزريبة ليشرف على المعركة .

ومع أول ضوء الفجر فتحت بطاريات السردار الخمس وكل رشاشاته نيرانها على الزريبة . واستمر القصف المدمر ساعة كاملة يقتلع الاشجار والخيام والرجال . احتمله المدافعين بصبر ، واستكانوا داخل خنادقهم الى ان بدأ العدو التقدم نحو الزريبة . وبضبط اعصاب مثير للاعجاب امسك المدافعون نيرانهم الى أن أصبح العدو على مسافة ٣٠٠ ياردة وفتحوا نيرانهم على قوات الاقتحام . واضطرت المدفعية المهاجمة لأن تتقدم مع صفوف الاقتحام لئلا يتعرض المهاجمون لنيرانها . كانت نيران المدافعين مؤثرة للغاية رغم قصف الدانات المركز الذى انصب فوق المدافعين ورصاص الرشاشات الممطر . تمكن ربع العطا اصول فى اللحظات التى استغرقتها صفوف الاقتحام لعبور الخمسين ياردة التى فصلت بين الزريبة والخنادق من اسقاط اكثر من ٤٠٠ جندى من جنود السردار . وبعدها فتحت الثغرات فى الزريبة وتدفقت حشود الاقتحام الخلفية ، وبدأ اشتباك اليد باليد ، خندقا خندقا ، كوخا فكوخا . استمر الاشتباك وقوات الهجوم تدفع المدافعين امامها وهم يتراجعون للخلف بانتظام ويطلقون نيرانهم . اما ربع العطا اصول الذى تحمل صدمة الهجوم الاولى فقد ابيدوا جميعا فى خنادقهم . دام الالتحام اكثر من ساعة فى معركة ضارية وفى دائرة لايزيد قطرها على ١٠٠٠ ياردة احتشد داخلها ١٦٠٠٠ رجل وهم يتقدمون للامام وسناكيهم مشرعة امامهم تقطر الدماء منها .

والمدافعون ؟ قبر ٧٠٠٠ فى اماكنهم دون التخلى عن شبر واحد ، وامتلأت

الخنادق عن آخرها بالجثث (١) .

أما الكتيبة الحادية عشرة التى تقدمت نحو مركز قيادة محمود فقد تساقطت صفوفها واحدا بعد الآخر امام نيران المدافعين . وعندما تمكنوا اخيرا من ابادة حرس رئاسته ، وجدوا محمود قد فرش فروته واتجه للقبلة منتظرا الموت ، فأخذ أســيرا .

دامت المعركة الضارية ساعة كاملة وبعدها وصلت قوات الاقتحام لنهر العطبرة بعد أن اجتاحت كل الزريبة ، ولم يفلت الا حوالى ٤٠٠٠ رجل أغلبهم من قوات عثمان دقنة . فقد السردار ٨٠ قتيلا و ٦٠٠ جريحا .

** ** **

والسؤال الكبير الذى يواجهنا دائما خلال حملة محمود ود أحمد للشمال هو : لماذا تقدم محمود لمواجهة السردار بجيش الغرب فقط لخوض هذه المعركة الفاصلة ولم يشرك الخليفة حامية امدرمان القوية التى تجاوزت ٣٥ر٠٠٠ مقاتل وضمت الملازمين صفوة المقاتلين الذين ساحوا بكل البنادق الحديثة وحوالى ٥٠ مدفع ؟ الاحتمالات تفاوتت بين استخفاف الخليفة بقوة العدو القادم وظنه ان جيش محمود وحده يكفى ، أو استبعاده أن تكون معركة محمود معركة فاصلة

---

(١) يقدر الأستاذ محمود عبد الله أن عدد القتلى والجرحى كان أكثر بكثير من التقدير الذى قدمه تقرير المخابرات وهو ٣٠٠٠ من القتلى وان كتشنر اخفاه متعمدا للاسباب التالية :

(١) خشيته من هجوم الصحافة عليه . ولم يرد ان تفسد مجزرة عطبرة احتفالاته وزيناته التى أقامها فى بربر وهو يذكر ثورة الرأى العام البريطانى عندما علم بقتل السلطان العثمانى لبضعة مسيحيين من الأرمن وكان يخشى الزوبعة التى سيثيرها الراديكاليون الذين يعارضون حملة السودان منذ بدايتها وما ذكره قائد المعارضة لابوسير من ان مشاعره مع الافريقيين الذين يحاربون دفاعا عن اراضيهم وليس مع الاوربيين الغزاة .

وتحديد العدد بـ ٣٠٠٠ قتيل الذى قدم للعالم بالاجماع كان مصدره السردار نفسه . وان عددا من الضباط – ضمن اركانحرب كتشنر أنفسهم – حاولوا عد القتلى ووصلوا إلى ٢٠٠٠ وتعبوا ، كما حاول ستيفنسن ذلك وبعد ان وصل لا لفين تركه .

(٢) كان الغرض الاساسى لكتشنر فى معركة عطبرة هو ابادة جيش محمود ليمنعه من العودة لامدرمان والقتال ضده مرة أخرى . كما ذكر يرى أحد المؤرخين الاوربيين ولم يكن هدفه الاستيلاء على موقع استراتيجى فقط كما حدث فى أبو حمد . »

ص ٢٣٦ – محمود عبد الله – رسالة الماجستير – حملة محمود ود أحمد للشمال

نهائية ، ولكنه هو وليس غيره الذى يحدد انها فاصلة ام لا ، بحجم القوة التى يقذف بها فى وجه عدوه . والاحتمال الثالث هو الصعوبة التى تواجه الخليفة دائما عند تموين جيش كبير يتقدم خارج ام درمان .

ويمكن حصر نتائج هزيمة عطبرة واثرها العسكرى المباشر على المعركة الرئيسية القادمة فيما يلى :

(١) نقص حشد الخليفة بما لايقل عن ١١٠٠٠ مقاتل سواء منهم من قتل أو جرح أو من تشتتوا فى ارجاء القطر الواسعة ولم يعودوا لامدرمان ، خلاف البنادق وسرية المدافع التى سقطت فى يد العدو .

(٢) زعزعة معنويات جيش الخليفة فى امدرمان ، بعد وصول فلول وبقايا جيش محمود ووصفها لاسلحة العدو خصوصا السلاح الجديد ـ الرشاش .

أما النتائج غير المباشرة للظروف التى سبقت المعركة فقد كانت ابعد اثرا واشد ضررا على جيش الخليفة :

(١) انتشرت فى طول البلاد وعرضها تفاصيل مذبحة المتمة ، وبدأ جزء كبير من جيش الخليفة يتكتل ضده ، اما أول آثار المذبحة المباشرة فقد تجسم فى تكوين فرق العربان المحاربة « Friendly Arabs » لتحارب فى صفوف السردار ، واغلبهم من الجعليين الذين تدافعوا للانضمام لهذه الفرقة سعيا وراء الثأر لعشيرتهم التى ابيدت فى المتمة .

(٢) ازداد الخليفة اقتناعا بالتخلى عن كل المنطقة شمال ام درمان اذ اصبح لايضمن ولاء سكانها من ناحية وخطابات محمود أبرزت صعوبة التموين لأى قوة كبيرة تتقدم للشمال من ناحية أخرى .

** ** **

بعد نهاية المعركة وقبل أن يقيم السردار احتفالاته المشهورة فى بربر ارسل واستدعى القائد الاسير ، واحضر الامير محمود امامه مقيدا بالسلاسل . عربي طويل وسيم دقيق الملامح ، شامخ الانف يحدق امامه مباشرة لايلتفت يمنة ولا يسرة.

سأله السردار وهو على صهوة جواده : « لماذا هاجمتنى وعثت قتلا وحرقا في هذه البلاد ؟ » .

أجاب محمود : « انا قائد مثلك تماما ، على أن اطيع الاوامر » وأجاب على بقية اسئلة السردار بهدؤ وبرود استحوذ اعجاب كل من شهد المقابلة . ولما جرّ اخيرا من امام السردار صاح في وجهه : « ستدفع ثمن كل هذا في ام درمان . فما أنا الا كورقة الشجرة بالنسبة للخليفة . » .

الباب الثالث

المعركة

القـــادة

« قـل ليعقـوب : ســيأتي اليـوم الذي تحتـــاجـون فيـه لأمـــثالي مـن الرجـــال
ولن تجـــدوهـم » . . . .

الزاكي طمل عـــلى فراش المـــوت

عثمان دقنـــة

(١٨٤١ — ١٩٢٦)

« فليكن اكرام المذكور واحترامه وحفـظ مقامه : فهـو العـون والقصد والشريك فى الهم الدينى ولم يـؤدى الاخـوان من قبـلك واجب حقـه وأنت حـرى بمعرفة حـق المذكـور فواصـله بالاجـوبة الحسنة . »

خطـــاب الخليفة عبد الله للأمـــير محمود عن عثمان دقنة . .

لم نبدأ به لأنه صاحب الشهرة المدوية العالمية . . . . فقد خلده كبلنج شاعر الامبراطورية عندما خلد رجاله من الجدندوه « Fuzzy-Wuzzy » (١) (٢) .

وليس لأنه قاد حشودا ضخمة فى ذلك اليوم . . . . فلم يزد رجاله عن سبعمائة رجل حينما قاد عثمان شيخ الدين ويعقوب عشرات الألوف . وليس لأنه صاحب أطول خدمة بين أمراء المهدية ، لم يقطعها عزل أو خلافه ، ولكن لأنه صاحب الضربة الموجعة فى ذلك اليوم ، فقد ظل عثمان دقنة للنهاية اخصائي المهدية فى وضع الكمائن الناجحة والمتصدى والخارق للمربعات البريطانية الصرفة — فهو الذى واجه الجيش البريطاني خمسة عشر عاما ، وهو الذى أرغم بريطانيا على انزال لوائين كاملين فى سواكن بعد اعلانها عدم التدخل فى شئون السودان .

وقـــد كـــانت مواجهـــة الفرســـان البريطـــانيين شـــبه إعجـــاز فـــى تـــلك الأيـــام ، ولـــكـــن هـــو لاغـــيره تصـــدى لفـــرســـان

---

(١) So here to you, Fuzzy-Wuzzy, at your home in the Sudan;
You are a poor benighted, heathen but a first class "fighting man,
And here to you Fuzzy-Wuzzy with your hayrick head of hair–
You big black bounding beggar - for you break a British Square.

(٢) "Ali Wad Hilu, with his green Flag on the far left. . . . Khalifa Sharif with his red flag on the right .... Osman Digna on the far right .... and his fame needed no flag."

Churchill

كتيبة الرماحة الحادية والعشرين برجاله الراجلين وأخنهم جراحا وتقتيلا بسيوفه ورماحه . . . . وفى مائة ثانية من الزمان .

انحدر عثمان دقنة من قبيلة الدقناب ، ذات الأصل التركى ، فقد هاجر أجدادهم الاكراد من ديار بكر لسواكن منذ قرون بعيدة عندما كانت تتبع للخلافة العثمانية مباشرة . وجعلهم فرمانا سلطانيا لفترة من الزمن سادة على سواكن. ودرس فى مقتبل حياته الفقه والتوحيد وعلوم الفالك فتفتح فكريا وتوسعت مداركه . وفى أيام شبابه الأولى مارس التجارة حرفة عائلته لفترة من الزمن ، فأصبح أحد التجار الموسرين فى سواكن ، ولكن ميوله السياسية منذ البداية رفضت الاحتلال التركى القائم . وطالما شوهد يحرض التجار علنا فى السوق ضد الحكومة ، ولم يكن هنالك مايستفز مشاعره قدر رؤيته لأحد الباشبزق أو أحد جنود الحكومة .

وبلغت كراهيته للاحتلال منتهاها عندما كان فى رحلة تجارية لدارفور ، وفى طريق عودته داهمتهم قوات الحكومة . وصادرت القافلة كلها ولكن سراح التجار اطلق فى النهاية ، وأعيدت لهم تجارتهم ، ماعدا عثمان دقنة . فقد كان خشنا فى اجاباته للمسئولين فوضع لذلك فى الحبس تمهيدا لمحاكمته . ولكنه فى نفس الليلة ، استغل الفوضى التى سادت فى المعسكر اثر هطول الأمطار الغزيرة وفر من المعسكر قاطعا كل المسافة من الطويشة للنهود بقدميه .

وعندما وقع فى يد الحكومة للمرة الثانية صودرت كل أمواله وأموال عائلته ، فأضاف ذلك دافعا شخصيا للدافع الوطنى لكراهية الاحتلال ، ومضت السنين وعوامل الكراهية المكبوتة تترسب فى أعماقه الى أن كان جالسا أحد الأيام أمام دكانه ، وبدأ أحدهم يتحدث عن المهدى وهو ينصت اليه ويستزيده فى شغف . وبانتهاء الحديث ترك دكانه مفتوحا ولم يكترث حتى بالتزود بأقل طعام أو مال بل اتجه غربا للأبيض حيث قابل المهدى فعينه أميرا على شرق السودان وسلمه راية الامارة .

ولكن إشعال الثورة فى شرق السودان لم يكن بهذه السهولة . . . . فقبائل البجة من الحاميين كانت مقسمة الولاء ، ففى الجنوب كان ولاؤها للطائفية المرغنية . . . أما فى الشمال فهى اما لم يمسسها قهر الادارة التركية ، واما أنها خاضعة لعشرات الطرق الصوفية المحرفة التى تكاد تقترب أحيانا من الوثنية . ولكن عثمان دقنة

تحرك من مركز قوة ، فقد توجه بخطاب التعيين للشيخ الطاهر المجذوب بالدامر ، صاحب النفوذ الديني الواســع في شرق السودان وأحسن هذا استقباله وبسط عليه حمايته وأمده بالتأييد اللازم فكان أن التهبت قبائل البجة بالثورة .

ان الاقتحام الناجح عملية شاقة ، ولكن الانسحاب الناجح عملية أشق وهو الاختبار الحقيقي للقادة ، فهو يتم في ظرف عصيبة . فلا ذكريات المعركة الخاسرة ، ولا الموقف أو مجرى الحوادث يساعدان على اتمامه بقوة متماسكة لم تفقد بعد مواصفاتها القتالية . . وتلك كانت عظمة عثمان دقنة . فان كان اختراقه للمربعات الانجليزية عظيما . . فقد كان انسحابه ومواصلته الكفاح في مكان آخر أعظم وأجدى . وعند استجوابه تقدم شقير وسأله في المعتقل « لماذا تترك أرض المعركة دائما ولاتقتل دون النصر ؟ »فأجاب : لأقاتل ثانيا ، ولو فعلت ما أشرت به على لأبدت جيشي في المعركة الأولى ، ولما خضت عشرين موقعة انتصرت في ثماني معارك منها وانكسرت في ثمان . ولو ظللت في الميدان للنهاية حتى بعد وثوقي من فقدان المعركة لما حققت اهدافي في المدى الطويل . »

وقد ظل هذا التصميم الفولاذي يلازمه الى آخر لحظات حياته فمجرد ذكر اسماء مواقعه يثبت ذلك . فهناك واقعة التيب الأولى والثانية والثالثة ، وواقعة طماى (١) الاولى والثانية والثالثة ، وقد شهدته هذه البقاع منتصرا بعد ابادة عدوه كما شهدته متقهقرا بعد هزائم مرة ، ولكنها لم تشهده ابدا يائسا أو متخاذلا .

والواضح ان دقنه كان مدركا لعوامل الحرب النفسية وأساليب استخدامها واستطاع ان يستغلها لاقصى درجة . فعندما كان جنوده من البجا يضيقون ذرعا من الانهاك والتعب لمعاركهم المتصلة وحركتهم الدائبة ويؤثر ذلك على معنوياتهم ، كان يشيع ان الانجليز فروا وانهزموا ــ فقد كان يعلم جيدا ان الانجليز لايستطيعون المكث طويلا في سواكن ، ومن ثم يلتهب الحماس في جنوده مرة أخرى فيعيد تنظيمهم ويعاودون القتال بروح عالية وحماس منقطع النظير .

وقد اشتهر بغرامه الشديد بالخطابة ، وحتى حينما يكون العدو امامه لم يكن يمل القاء خطبه النارية على رجاله . وقد تستمر تلك الخطب خمس او ست ساعات .

---

(١) في الواقع اشتهرت طماى بهذا الأسم ولكن اسمها المحل الا صلي هو تمانيت .

ولكنها دائما تترك رجاله وقد عاودتهم روحهم القديمة والتهبوا بالحماس مرة أخرى فكان يطبق معهم اسلوبا مثاليا للتنوير يشحذ هممهم فيقبلون على كل واجب بادراك وايمان .

وقائد كهذا شغل الأذهان خمسة عشر عاما ، لابد ان تتطاير الاساطير عنه ، فحتى شقير قال عنه « كان يستطيع العيش اياما بلا طعام ولاماء ولكنه عندما يجلس للطعام يأكل خروفا كاملا ويظل يمضغ الطعام لساعات طويلة » . اما انه كان يستمتع بقوة احتمال بدنية خارقة فهذا مارواه الكثيرون ، وهو فى معاركه المتصلة كثيرا مايظل سائرا بقدميه مئات الاميال حاملا سلاحه وسلاح من انهكهم السير . اما عن اكثاره من الطعام واحتماله للصيام الاجبارى فيبدو ان مبعث تلك الرواية كان الآتي :

قيل ان عثمان دقنه كان من شدة ايمانه بأهداف المهدية وخلقه العسكرى الاصيل يبدى طاعة حرفية لاوامر المهدى والخليفة ، ويظهر تبرما وضجرا من جدل امراء التعايشة مع قريبهم الخليفة فى الصغيرة والكبيرة ، وهو ينتظر تسلم اوامره على احر من الجمر لينصرف وينفذها فورا دون نقاش . وحرفيته فى تنفيذ الاوامر ، كانت تتجلى حتى فى ابسط الامور . فاذا وضع الطعام ودعا الخليفة الحاضرين للأكل واتم القوم طعامهم وبدأوا فى الحديث يظل عثمان يأكل ويأكل لزمن طويل الى ان ينتبه له الخليفة ويأمره ضاحكا ان يكف عن الأكل (١) .

ويقال اذا فض الخليفة مجلسه الحربي وصرف امراءه للتوجه كلا الى جهته قائلا « امشوا » اتجه عثمان شرقا مباشرة بعد خروجه من بيت الخليفة ويظل ماشيا الى ان تدركه حاشيته بالدواب بعد بحث طويل عنه وعلى مسافة أميال من امدرمان . كل هذا كان امعانا فى عكس طاعته العمياء وولائه الصادق . وليضرب مثلا لبقية الأمراء فى الطاعة الاصيلة .

---

(١) روى لى الحاج امين أحمد شرفى ان بعضا من أهله نزلوا ضيوفا على عثمان دقنه فقدم لهم بعض الثمار القريبة من علف الحيوانات وادخلوها فى أفواهم ولكنهم سرعان ما لفظوها . ومضى عثمان يلوكها ويبتلعها إلى أن سأله أحدهم « ألا تخاف الله يا شيخ عثمان . هل هذا طعام . » « فأجابه وهو ماض فى مضغ طعامه » الله قال جاهدوا ما قال اكلوا . » .

ولكن طاعته تلك لم تمنعه من ابداء رأيه عندما يرى خللا فى أوامر الخليفة . فقد اعتذر عن تولى امارة دنقلا بعد وفاة ود النجومى . فقد قدر الموقف جيدا وأدرك ان المكان ليس مكانه ولايستطيع العيش فى جو الشمال المشحون بالخلافات وهو الذى تعود أن يطيعه رجاله في الشرق طاعة عمياء. كما خشى على جبهة سواكن المتوترة من الانهيار ، فلن يستطيع احد غيره التعامل مع البجا صعاب المراس . كما تمرد صراحة على محمود ود احمد عندما طلب منه الانضمام له فى عطبره ولم ينضم اليه الا بعد ان وصلته اوامر الخليفة شخصيا . كما كان اعتزازه بنفسه ومكانته واضحا ، فلم يعترف برئاسة محمود عليه حتى اللحظة الاخيرة .

وعثمان دقنة هو صاحب مدرسة « الاختراق من مؤخرة العدو » ويعود نجاحه الى بعد نظره وخياله التكتيكى الذى فاق تصور اعدائه من الاوربيين أو غيرهم ، عندما كانوا يشكلون قوتهم فى مربعات هائلة للتقدم والدفاع . وأدرك نقاط الضعف والقوة فى ذلك التشكيل فهو يؤمن نيرانا امامية وجانبية لتكسر هجمات العدو المباشرة مهما كانت قوية . ولكن ضعف المواجهات والاضلاع سهل اختراقها . لهذا لم يعرض قواته لنيرانهم فى صفوف تغطى مواجهة العدو .

ولكن ادراكه لحقيقة أخرى كان أعظم اثرا ، وهو الضعف الكامن فى الصف الخلفى للمربع . فعندما يوجه ضربته الاولى القوية للضلع الخلفى ويخترقه ، يضع اعداءه فى موقف عصيب . فهو اولا يجعل عدوه بين نارين من الخلف والامام ، وسرعان ماتنهار الاضلاع الجانبية وتظل حائرة هل تعكس مواجهتها وتوجه نيرانها الى داخل المربع أو تسارع وتنضم الى الضلع الامامى . كما كان خرقه للمربع الخلفى اسرع طريقا لوسط المربع الذى تجتمع فيه الدواب والافراد الاداريين . فتموج الحيوانات بما عليها من أثقال وتنطلق صائحة فى كل الاتجاهات ، وهنا يفقد قائد العدو سيطرته على قوته عدا الضلع الامامى . . . الذى يوجه اليه عثمان دقنة فى اللحظات الاولى من المعركة جزءا صغيرا من قوته . . . . ويلتفت هؤلاء ليجدوا أنفسهم وحيدين فى صف لاعمق له ولاحماية لجانبه . وعند حدوث ذلك الارتباك تفقد القوة تشكيلها وترابطها المتماسك وتنقسم الى مجموعات صغيرة يلتهمها رجال عثمان دقنة واحدة بعد الأخرى .

ولكن تكتيكات عثمان دقنة كانت تتناسب مع نوع معين من الأرض ولظروف معينة . فهى مؤثرة وفعالة مع القوة المتقدمة وليس للنقاط الدفاعية التى تدافع دفاعا حوليا . وكان عثمان دقنة يختار الزمن المناسب للاقتحام اثناء تقدم العدو . فلم يكن يهجم فى زمن توقف العدو حيث جرت عادة هؤلاء ببناء زريبة حول معسكرهم بل كان يهاجم عدوه أثناء تحركه وخروجه من دفاعاته الحصينة . ثم ان طبيعة الارض كانت مثالية لتطبيقه ، فجبال البحر الأحمر الوعرة وممراتها الضيقة ، كانت تمكنه من تحقيق المفاجأة اللازمة لنجاح انقضاضه ، فقصر الزمن بين ظهور قوته ، والاشتباك مع العدو ، يحرم الأخير من تنظيم قوته أو تغيير مواجهته ، ولم يكن من السهل تنفيذ مخططاته هذه لو كانت الارض مكشوفة .

ولحساسية موقع سواكن دافع عنها دائما البريطانيون بأنفسهم . وهذا ماجعل عثمان دقنة فى مواجهة أغلب قادة العهد الفكتورى واشهر رجاله وهم جراهام، وكتشنر، وونجت، وود هاوس . وادى بالتالى الى اكتسابه خبرة قتالية مستمدة من القتال المتصل ضد هؤلاء القادة الاكفاء وجيوشهم المدربة القوية ، فكان بالتالى القائد الوحيد المتبقى فى جيش الخليفة الذى لم يعـــان من التخلف العسكرى الذى قاسى منه اغلب القادة فى كررى .

وقد عمر عثمان دقنة الى أن بلغ الخامسة والثمانين من عمره وقد قضى أغلب الجزء الأخير منه فى المعتقل واستجوبه شقير وحاول كثيرون إستجوابه لكنه رفض التحدث . وقـــد ظل محتفظا حتى لفظ أنفاسه الأخيرة بنفس الايمان بدعوة المهدية وأحرج كل كبار الزوار الذين زاروه فى المعتقل أكثر من مرة ومنهم ملك بريطانيا وخديوى مصر .

الامــــير يعقــوب

١٨٥٥ – ١٨٩٨

« يعقوب . . . . جراب الرأى »

الخليفة

« الويل كل الويل لمن يتعرض ليعقوب بسؤ » هكذا قال كل الذين عاصروا حكم الخليفة في امدرمان ، فقد كان يعقوب الرجل الثاني فى الدولة ، والقوة المحركة والمدبرة وراء الستار ، وصانع اتوقراطية التعايشة ، ولكنه كان سياسيا ناعما متزنا مكملا لشقيقه العنيف .

ففى اتوقراطية التعايشة تميز يعقوب بشيئين : محبة أهل امدرمان له عكس شعورهم نحو باقى عشيرته ، فقد كان الرجل رقيقا عطوفا مهذب اللفظ ، كما كان حاتميا في كرمه ويقال ان آلاف من الناس كانوا يتناولون طعامهم يوميا فى منزله ، وترفعه عن التعصب القبلى جعله يتدخل أكثر من مرة ليصلح ما أفسده قومه المتعجرفين ، وحــاول جهده ان يقرب الشقة بين قبائل الغرب وقبائل النيل كما تميز بأنه اكثر عشيرة عبد الله ثقافة وادراكا ، فقد احسن تورشين تعليم ابنه وكان يعده ليخلفه فى مكانته الدينية . وحتى مسئولياته الجسيمة لم تمنعه من عقد مجلسه الأدبي فى امدرمان الذى شهد رقيا فكريا وذهنيا ملموسا ، وقد وضحت كفاءته الادارية عندما تسلم منصب رئيس اركان الخليفة فقد احتفظ بسجلات كاملة لكل افراد قوته التى تجاوزت عشرات الألوف بالامراء والسرايات والافراد ، وقد سجل كميات الذخائر والاسلحة واشرف على الترسانات المختلفة ومصانع البارود بكفاءة ، وخلاف مسئوليته عن كل شئون الجيش كان امير الراية الزرقاء التى تحتاج قيادتها الى مجهود كبير .

ويعقوب هو الرجل الذى يرجع له الفضل فى تحويل جيش الثورة الى جيش نظامى . . فكما اسلفنا فقد وضع المهدى الخطوط العريضة للجيش فى الابيض وتولى الخليفة تنظيمة تنظيمة ليناسب مواجهة هكس وحصار الخرطوم . ولكن يعقوب

هو الذى حول الخطوط العريضة الى وحدات وتسليح وسجلات ومصانع ذخيرة ووحدات مدفعية .

وقد كان من اوائل الذين انضموا لشقيقه عام ١٨٨١ بعد هجرة المهدى لكردفان ، ومنها تولى منصبا رئيسيا ولعب دورا مهما فى حصار الابيض وابادة هكس ، وشارك مشاركة فعالة فى حصار الخرطوم . فقد كان نائبا لشقيقه وكان يتولى القيادة الفعلية للراية الزرقاء عندما يكون هذا مباشرا مسئوليته كقائد اعلى للجيش . وعندما اعتلى شقيقه عبد الله الحكم اصبح يعقوب قائد الجيش والرجل الثاني فى الدولة ، فهو المسئول عن الأمن الداخلي وحماية العاصمة مركز القوة من المؤامرات التى كان بارعا فى حبكها واحباطها ، ولكنه كان يحرك الاحداث بهدؤ وترو . فلم يكن يظهر أمام الاحداث ، بل حتى فى مجالس الشورى والحرب ، ومجالس القضاء ، لم يكن يعقوب يتحدث كثيرا ، بل يترك القوم كل يدلى بآرائه ويثور الجدل . . . . اذ لم يكن هذا مكانه هو . . . بل كان مكانه فى خلواته الطويلة مع شقيقه ليلا ليدبرا الامر معا ويتخذا قرارا . . . ثم يجتمع المجلس . . والقــوم يتحدثون ويعقوب اما مطرق فى صمت واما مستأذن فهو يعلم جيدا نتيجة المجلس .

والواضح ان محبة الخليفة واحترامه لشقيقه الاكبر استمدت قوتها ورباطها فى المكان الاول من ولاء يعقوب الأعمى . وكان هذا اصيلا فى اظهاره . ففى كثير من الليالى شوهد يعقوب يقف بباب الخليفة مطرقا حتى طلوع الفجر منتظرا خروج الخليفة للصلاة . وكان الجميع يعلمون السبب فى هذا الانتظار الطويل ، فالخليفة كثيرا ماكان يستدعيه بعد صلاة العشاء وينسى ان يخطر البواب بترك باب جناحه الخاص مفتوحا ، وهنا يفضل يعقوب الانتظار حتى مطلع الفجر على أن يدق الباب بعد دخول الخليفة منزله . « على الرغم من ان الزوار عندما يدخلون متحف بيت الخليفة اليوم اول مايواجههم باب صــغير يفضى الى حريم الخليفة كتب عليه « لم يكن يدخل من هــذا الباب غير الامير يعقوب . » وتكرر هذا الامر عدة مرات الى ان اكتشفه الخليفة وانب عليه يعقوب .

اما التقيم العسكرى ليعقوب كقائد فى الميدان فقد توافرت له خبرة قتالية لايستهان بها وابدى كفاءة منقطعة النظير فى شبكان والخرطوم كما ان مسئولية توليه القيادة العامة للجيش لمدة طويلة مكنته من الاحتكاك وتقيم المقدرة القتالية لجنوده .

ولكن مقدرته وكفاءته العسكرية قاست بالطبع من سوء التقدير والتخلف مثلما قاسى منه الخليفة وقادته فى كررى . وقد كانت هذه نتيجة طبيعية للستار الحديدى الذى فرضه الخليفة على البلاد أو فرض عليه طوال خمسة عشر عاما مما جعله عاجزا عن ادراك التطور الفنى فى التسليح للدول الاوربية والجيش المصرى الحديث .

لذا عاني يعقوب ، كقائد ميداني ، من قصور واضح فى تقدير قوة العدو . فقد تطورت الاسلحة وكان هو فى امدرمان بعيدا عن ميادين والحرب .

اما الواجبات الرئيسية ليعقوب فقد انحصرت فى الآتي :

١ ـــ ممارسة السلطات التنفيذية فى الدولة .

٢ ـــ الاشراف على بيت المال الرئيسي وبيت المال فى كل انحاء البلاد .

٣ ـــ الاشراف على بيت الامانة والذخيرة . « قبل ان يفصل شيخ الدين اسلحة الملازمين من بيت الامانة » .

٤ ـــ تعيين الامراء وقادة الجيوش واجراء التنقلات .

٥ ـــ تمويل وتسليح الجيوش والبعثات العسكرية .

٦ ـــ ادارة كل شئون الامن داخل وخارج العاصمة .

٧ ـــ الاشراف على ملكية الاراضي وتحرير الوثائق الخاصة بها .

ولكن آخر ايام الحكومة المهدية شهدت كسوفا جزئيا لنفوذ يعقوب مع بزوغ شمس عثمان شيخ الدين ابن الخليفة . فقد كان الخليفة يؤهل ابنه ليتولى الحكم أو على الاقل ليتولى منصبا رئيسيا بعد وفاته . وعندما عزل « مجلس الأبهات » عثمان شيخ الدين عن مجلس القضاء وتولى قيادة الملازمين بدأت المنافسة بين يعقوب وعثمان شيخ الدين « وعلى الرغم من انه صهره والد زوجته » أو بدأت المنافسة بين

الراية الزرقاء والراية الخضراء الغامقة، فقد بدأ عثمان فى انتزاع خيرة جنود الراية الزرقاء وضمهم لقوته ، وكان يتخذ هذا الاجراء اثناء « العرضة » وبدون استئذان من يعقوب معتمدا على نفوذ والده . . كما جرد الراية الزرقاء من كثير من الاسلحة النارية وضمها للملازمين . كل هذا ويعقوب صامت على مضض فلم يرضَ أن يسبب اقل حرج لاخيه وكتّم الامر ولم يبلغه اياه .

عثمـان شيـخ الدين

١٨٧٣ – ١٨٩٩

الطريقة التي رسمت لهجوم الملازمين يومئـذ دلت بوضح تام على عـدم خبرة الامير بأساليب القيادة ومكائد الحروب

« المؤرخ محمد عبدالرحيم – اشترك فى هجوم الملازمين فى معركة كررى »

شب عثمان شيخ الدين منذ طفولته في امدرمان ، ونشأ وسط حياة المدينة ، ووجد نفسه الابن الاكبر لحاكم كل هذه البلاد . ولم يعان أيا من شظف العيش فى البادية ولم تصلب عوده مشاق الحياة شأن باقى عشيرته فنشأ « ابن المدينة »، بل حتى لهجته كانت كلهجة اهالى امدرمان وسلمت من لكنة البقارة .

وقد اهتم والده بتربيته وتثقيفه اهتماما كبيرا واختار لتدريسه كبار علماء السودان – شيخ الطيب هاشم ومحمد عمر البنا ، فنشأ متشربا بمعرفة غزيرة مصقولة ندر أن تتوافر لمن كان فى سنه وفى تلك الظروف . فعندما دخل شقير منزله بعد سقوط امدرمان وجد مكتبة ضخمة يكشف اختيارها عن شخصية مثقفة ذواقة للأدب بل وجد فيها أحد مؤلفاته . وفى مقتبل عمره ادخله والده مجلس القضاء فاثبت كفاءة ونضجا فى احكامه . ويقال انه كان عادلا لايحابي احدا ولايفرق بين التعايشة أو غيرهم بل كان نصيرا للحق ، كما كان يمضى اغلب اوقاته مع أهالى امدرمان من دون عشيرته مما أغضب عليه مجلس الابهات الذى أشار بتحويله للجيش . وقد اضر هذا القرار ليس بعثمان وحده بل كان أحد الاسباب المباشرة للهزيمة الشاملة التى منى بها جيش الخليفة فى كررى .

وقد اتعب عثمان والده تعبا شديدا ، وبذل الخليفة جهده لتثقيفه وزوجه بابنة عمه يعقوب زواجا مبكرا ليحفظه من اقران السؤ . ولكن هؤلاء سرعان ماوجدوا سبيلهم اليه . وكانت سهرات عثمان شيخ الدين ومجالس طربه حديث المجتمع فى امدرمان . وعندما سمع والده بكل هذا غضب عليه وامر بحبسه فى المنزل وأمر بنقل منزله قريبا منه حتى يتسنى له مراقبته .

وفى أحد الأيام زار عثمان مطبعة المهدية وكان مسئولا عنها احد الشيوخ العلماء . فأمسك عثمان بلحيته قائلا « لم اطلتها هكذا » فصفعه الرجل . وانصرف عثمان ليشكو لوالده . ولكن عبد الله لم يكن يرحم حتى ابناءه : فاستدعى الرجل وسأله ان يقص عليه ماحدث ، وعندما انتهى قال له : « للاسف عجلت وأخذت قصاصك بنفسك ولولا ذلك والله لقطعت يده » .

وعندما سمع الخليفة بأن ابنه واقرانه يلبسون شالات زاهية ناعمة استوردت من مصر . امر بحبسه فى المنزل عقابا له للبسه ناعم الثياب حين كان الآخرون يلبسون جبة الدمور المرقعة رمز الزهد والتقشف .

ولكن عذر عثمان كان واضحا ، فقد كان فى مقتبل العمر وكل تلك الافعال كانت من طيش الشباب الطبيعى . ولكن الخطأ يقع على عاطفة الابوة الغريزية . ويبدو ان عثمان سحر الجميع بما فيهم والده بأسلوبه الجذاب وآرائه المنطقية الناضجة في مجالس القضاء والشورى . لكن مكثه الدائم في العاصمة وعدم توليه أى قيادة ميدانية أدى الى قصور خبرته العسكرية ، فلم يقد أى بعثة عسكرية أو يتولى ادارة اقاليم منفصلة كامراء آخرين فى سنه مثل ابراهيم الخليل والختيم موسى ومحمود ود احمد .

ولم يكن ذلك خطأ كبيرا في البداية اذا اعتبرنا ان الهدف الاساسى من تكوين الملازمين كان حراسة الخليفة ولأغراض الأمن الداخلى . . ولكن عندما توسعت قوتهم وضمت اغلب واحسن السلاح النارى فى جيشه ، بحيث اهلها ذلك للقيام بالواجبات الحربية ضد أى عدو خارجى ، اصبحت تحتاج الى قائد ميداني متمرس ، وليس شخصا كعثمان شيخ الدين ، كل مؤهلاته انه اقرب الناس للخليفة .

ومع ما اتصف به شيخ الدين من القصور فى النواحى العسكرية إلا أنه حاز على صفات اخرى ثمينة لم تتوافر لغيره . فثقافته العصرية ، التى ربما انفرد بها ، مكنته من الالمام بالسياسة الدولية خارج حدود بلاده ، وكان أكثر الجميع مرونة وقاد التيار الذى نادى بالاستفادة من تناقض المصالح الاستعمارية والتعاون مع فرنسا .

ابراهيم الخليل

١٨٧٤ — ١٨٩٨

« المهدية مهديتكم . لكن نصره مافى »

الامير ابراهيم الخليل بعد رفض فكرة هجوم لليل

كان الشاب الذى قاد الهجوم الاول ضد كتشنر أكفأ قائد فى الميدان باستثناء عثمان دقنة . . . على الاقل من وجهة النظر الاستراتيجية ، فابراهيم الخليل على الرغم من حداثة سنه الا ان آراءه الناضجة والتى لم تجد آذنا صاغية كانت آراء عملية قريبة للصواب فى مجالس الحرب المتعاقبة التى ترأسها الخليفة فى الاشهر الاخيرة قبل معركة امدرمان .

ولد ابراهيم الخليل فى دار الرزيقات ودخل الخلوة شأنه شأن كل الصبية فى ذلك العهد . وقبل ان يتم العاشرة من العمر ارسل اليه الخليفة واستدعاه مع اخوانه محمود ، واسماعيل ، وعبد الرحمن ليقيموا معه فى منزله . وقد اشرف على تربيتهم بنفسه وشبوا عن الطوق كأقران لابنه عثمان شيخ الدين وتلقوا نفس العناية والتثقيف اللذين تلقاهما . ولكن ذلك لم يغر ابراهيم كثيرا ، فكان اكثر امراء التعايشة تواضعا وسماحة خلق . واثرت فيه — كعثمان شيخ الدين — بيئة المدينة فنشأ متبرئا من التعصب القبلى الذى قاسى منه باقى الامراء . وكان لايخالط الا كهول القوم من العلماء . ولكنه عكس شيخ الدين وجه طاقات شبابه الى النواحي المثمرة من تدريب وحداثة واشتراك فى العمليات العسكرية ، وتثقيف لنفسه ، حتى كان ابرع وابلغ المتحدثين مما ادى الى ضمه لمجلس شورى الخليفة على الرغم من حداثة سنه .

وفى العشرين من عمره اوكل اليه الخليفة قيادة حملته المتوجهة لقمع تمرد جبال النوبة بجبل ديزى . واستطاع ان يخمد التمرد واحرز نجاحا سريعا مذهلا رغم وعورة الجبال وقوة المتمردين الذين أسر آلافا منهم وارسلهم لامدرمان . وعندما وصل استقبله الخليفة استقبالا رسميا اظهارا لسروره واعجابه بكفاءة

قريبه الصغير . ويبدو أنه في حملته تلك ترسم خطى صهره (١) العظيم ، عندما اخضع عشرات الجبال واحدة بعد الأخرى .

وبعد ان برهن الخليل على كفاءته،ولاه الخليفة قيادة جيش الكارا في المكان الذى خلا بتمرد فضل المولى صابون . وعلى الرغم من كفاءة الكارا وتمرسهم فى القتال المتواصل لمدة عشرين عاما فان ابراهيم لم يكتف بذلك بل استمر فى تدريبهم وكان يشرف عليه شخصيا .

ويبدأ يوم التدريب في جيش الكاره مباشرة بعد صلاة الصبح ويستمر الى مغيب الشمس في الميدان شرق القبة . وكثيرا ماشوهد الخليفة جالسا فى العصر على عنقريبه ممسكا بسبحته وهو يراقب تدريب جهادية ابراهيم الخليل . وكان أحيانا يستدعى ابراهيم ويبدى بعض الملاحظات فينطلق هذا وينفذها فورا مصححا الخطأ . وأغلب أوقاته كان ابراهيم يشاهد وهو يتنقل بين جماعات جيشه بحركته الوئيدة ، وقامته الطويلة ، وحدبته الخفيفة .

وكان واضحا ان النظرة العامة نحو الخليل انه شاب ذو مستقبل مرموق وأن كفاءته وذكاؤه واحترام الجميع له أهلته لاحتلال احد المناصب الكبرى فى دولة الخليفة . فكان طبيعيا أن توكل اليه قيادة الهجوم الأول .

وقد أوضح خبر استشهاده عظمة مكانته عند الخليفة ويعقوب مما أحدثه من أثر فى نفسيهما . كما ان الطريقة التى استخاصت بها جثته من بين جحيم نيران العدو المصبوبة توضح ان الخليل كان شخصا عزيزاً على الجميع .

ولكن هناك ظاهرتين تستلفتان النظر فى شخصية ابراهيم الخليل . أولاهما انه على الرغم من اتزانه وهدوئه ، كان ضيق الصدر لايطيق الغباء وعدم الموضوعية المتفشى وسط امراء الخليفة . ووضح هذا فى انسحابه من المجلس عندما نوقش الاقتراح الذى قدمه للدفاع عن السبلوقه عندما بدأ المتحدثون يسفهون رأيه ولم ينتظر للنهاية لفرض رأيه . ووضح مرة أخرى فى المشادة العنيفة التى شبت بينه وبين عثمان شيخ الدين فى ليلة المعركة عندما نوقش موضوع هجوم الليل . ولعل

---

(١) كان ابراهيم خليل متزوجاً من احدى بنات حمدان أبى عنجه .

روح اليأس [1] والغضب التى دخل بها الخليل المعركة تلقى بعض الضوء على الاداء التكتيكى الضعيف لابراهيم الخليل وجنوده اثناء المعركة . اذ كانت لاتتناسب اطلاقا مع سمعته وكفاءته في النطاق الاستراتيجى من ناحية ، ولا المستوى العالى من التدريب الذى اشتهر به جيش الكاره من ناحية أخرى ، فأغلب الآراء الصائبة التى قدمت فى مجالس الحرب الأخيرة لكيفية مواجهة العدو كان صاحبها ابراهيم الخليل .

اما الظاهرة الثانية فهى عدم الاستلطاف الذى وصل الى درجة الخصومة بينه وبين شيخ الدين على الرغم من قرابتهما ونشأتهما معا . وقد كادت تلك الخصومة أن تتسبب يوما في صدام مسلح بين الملازمين والكاره لولا تدخل يعقوب في آخر لحظة . فقد كان لود هيبة ، احد جنود ابراهيم الخليل ، جواد اصيل فشاهده شيخ الدين وأنتزعه من الرجل . وسمع ابراهيم الخليل بما حدث فعاد وانتزع الجواد واعاده لصاحبه . وبالطبع استشاط شيخ الدين غضبا وبدأ فى تجهيز قوته لاخذه . وتكهرب الموقف الى أن سمع به يعقوب فاستدعى الخليل ولامه وامره باعطاء الجواد لشيخ الدين وتعويض صاحبه بجواد آخر خوفا من تطور الأمـــور . وظل الود مفقوداً بينهما للنهاية .

---

(١) في محيط عائلة أبراهيم الخليل يتحدثون اليوم بثقة عن خطاب أرسله ابراهيم لشقيقه محمود قبل عطبرة يوضح له مرارته من سير الأمور وقال له في نهايته : « موت هناك » . هذا ولم أعثر على هذا الخطاب ضمن محفوظات محمود ود أحمد بمتاحف المملكة المتحدة ولم تجىء سيرته رسميا فى أى مكان .

عثمـان أزرق

١٨٤٥ — ١٨٩٨

« (١) وهكذا كانت نهاية ذلك المقاتل العنيد – عثمان أزرق
المراوغ – مخلصا حتى الموت »

تشـــرشل

لئن وقع عبء المحافظة على حدود الخليفة الشرقية على عثمان دقنة ،واصبح شوكة في جنب الجيش البريطاني في سواكن ، فقد كان هذا شأن عثمان ازرق في الحدود الشمالية . فان مركز قيادته المتقدم شمالا جعله على اتصال دائم بالحاميات والمدن المصرية على الحدود . وقد خصصت المخابرات المصرية صفحات وتقارير طويلة عن عثمان ازرق ، وانفقت اموالا وجهودا ضخمة لمقاومة العشرات من غاراته السريعة المفاجئة . فالفضل في المحافظة على تلك الحدود سنينا طويلة يعود الى عثمان اكثر من مساعد قيدوم أو يونس الدكيم،وخصوصا بعد كارثة توشكى ومقتل عبد الرحمن النجومي ، وسجله العسكرى في الشمال يحفل بمالايقل عن مائة غارة داخل الحدود المصرية .

ولد عثمان محمد عيسى في الابيض التى استوطنت بها عائلته الدنقلاوية من زمن بعيد . وعمل هجانا ببريد الحكومة بين الخرطوم ودارفور وجاب اغلب الارجاء الواسعة على ظهر جمله أو جواده . وفي رحلاته المتعددة بدأ يسمع عن شيخ غريب ارتفع صيته كولى صالح . وفي احدى مأمورياته توقف لتناول الطعام في احدى « القهاوى » المألوفة في جنوب كردفان،وكان اغلب الحديث يتناول سيرة هذا الشيخ . فانتهى عثمان من تناول الطعام وركب جواده وادار اتجاهه بكل بساطة جنوبا . . . نحو قدير ولم يعد الى وظيفته ابدا .

---

(١)
"So came the end of that stubborn warrier of many fights, wicked Osman Azrak, faithful unto death."

W. Churchill

وقد حتم مركز عثمان المتقدم فى الشمال ان تصبح قواته فى نشاط وحركة مستمرة ، سواء لايقاف قوافل تهريب الاسلحة والعتاد التى ترسل لاعداء الخليفة من مصر ، أو لمجابهة طوابير الجيش المصرى الذى قويت عزيمته بعد هزيمة توشكى. ولكن عثمان لم يتخذ سياسة دفاعية ابدا ، بل انتهج سياسة عدوانية مستمرة طوال عشر سنوات من الغارات والتسلل داخل الحدود المصرية .

وتكشف دراسة سريعة للسياسة التى اتبعها عثمان أزرق في ضرباته وغاراته عن فهم مبكر غريزى لاستراتيجية الاقتراب غير المباشر . فقد ادرك عثمان ازرق انها خير وسيلة لتحقيق المفاجأة . . . العنصر الحاسم فى مثل عملياته تلك . وتطبيقها هو الذى ادى الى اشتهار عثمان بالمراوغة . وقد اتسمت طريقته بالآتي :

يخرج بطابوره الراكب ويقطع اميالا طويلة يوما أو يومين فى اتجاه معاكس أو بعيد عن هدفه وعند الظلام يغير اتجاهه فجأة لهدفه الاصلى ويطبق على اعدائه المسترخيين لتوقعهم هجومه على مكان آخر . ولتحقيق ذلك الالتفاف السريع والمراوغة كان لابد له من قوات سريعة خفيفة الحركة . وهذا ماجعل عثمان دائما قائدا لقوات من الفرسان الخالصة .

ويكاد عثمان وود النجومى ان ينفردان بانهما الوحيدان من قادة المهدية اللذان ادركا خواص وامكانيات الفرسان عندما يستخدمون كمجاميع . ولايمكن ان نفصل ماضى عثمان ازرق كهجانى وفارس محترف وتأثير ذلك فى بلـــورة نظريات عملياته .

وقد بدأ فى تنفيذها مباشرة بعد تسلمه القيادة فى نقطة الحفير ، فقد تحرك من دنقلا العرضى جنوبا الى ان وصل القولد ثم غير اتجاهه غربا الى هدفه الاصلى ، واحة العقب ، لتأديب سكانها الذين رفضوا الدخول فى المهدية وهددوا أمن الحدود الشمالية . وفى التاسع عشر من يوليو ١٨٨٦ تحرك بطابور راكب من ثلاثمائة فارس وسار شمالا حتى صرص ، لذر الرماد فى العيون ، ثم انعطف للتوفيقية فباغتها وهرب سكانها على مراكبهم ونال بغيته منهم وهى الحبوب والملابس .

ثم وجه جهده طوال عام ٨٧ للواحات الغربية متفاديا النقاط القوية فى

الشمال مكررا طريقته القديمة . فقد اتجه بقوته المفضلة – ثلاثمائة فارس مسلحين ببنادق الرمنجتون – شمالا فى البداية ثم انعطف غربا فى انعطافة حادة نحو الواحات ليباغتها . ولم يعد منها جنوبا بل انعطف للشمال الشرقى ليهاجم طابية موسى بك ويقتحمها ويدمرها .

وعندما ضاق الحال بجيوش يونس من شدة المجاعة بدنقلا بعث بعثمان ازرق شمالا لنهب بلدة بريس الغنية ومده بالحبوب اللازمة لتموين جيشه . ونفذ تخطيطه بذكاء للدرجة التى وجد القرية خالية من الجنود ، فغنم ٢٥٦ بندقية وكميات وفيرة من الذهب والحبوب والماشية ، امضى ثلاثة ايام فى جمعها .

ولشهرته تلك وجه الخليفة شخصيا من امدرمان بأن يتولى عثمان ازرق قيادة حملته الانتقامية الموجهة ضد صالح بك حسين خليفة فى المورات . وكان هذا قد باغت اهالى أبو حمد وهم يؤدون صلاة الفجر ، ففتك بهم واباد اغلبهم وسمع الخليفة بما حدث فاقسم ان يقتله ، وجهز يونس الدكيم قوة من ستمائة فارس وتسلم قيادتها عثمان وبدأ فى التجهيز للتحرك ، فاخرج عدة اطواف صغيرة لايتجاوز عدد افراد كل منها خمسة فرسان تعمل خلف خطوط العدو . وتمكن احداها من اسر احد هجانة البريد وفيه خطاب من مركز المخابرات المصرى لصالح بك « تحرك عثمان ازرق بقيادة ثلاثمائة فارس – خذوا حذركم – والنجدة فى الطريق » . فغير عثمان طريقه الى أن هاجم النجدة نفسها ولم ينتصر عليها انتصارا حاسما ولكنه تمكن من الانفصال من المعركة بسرعة وتوجه الى المورات ليشتبك اشتباكا عنيفا مع صالح بك دام يوما كاملا تمكن من قتله اخيرا وعاد الى مركز قيادته .

ولتخطيط عثمان يعود الفضل الأول فى الايقاع بقافلة الاسلحة الكبيرة التى ارسلت للشيخ صالح زعيم الكبابيش لتعزيز مقاومته ضد الخليفة ، وكان ضمنها نيوفيلد الالماني . فقد ارسل حمزة الانقريابي لقطع طريقهم واستطاع اسرهم جميعا . وامر الخليفة بقتلهم ماعدا الاسير الاوربي فقد طلب ارساله لامدرمان ، للحصول منه على المعلومات التى يحتاج اليها .

ولعثمان يعود ايضا الفضل في إصابة الباخرة الوحيدة من الجيش الغازى . فعندما كان يشترك فى ادارة معركة الحفير وقف خلف احد المدافع التى صوبت نيرانها نحو البارجة «فركة» واخطأتها ثلاث مرات على الرغم من قصر المسافة .وشك فى ان المدفعجى المصرى «سليمان الدمياطى» يخطئ عامدا ، فترجل من جواده وضربه بعرض السيف فرفع هذا يده اليسرى ليحمى وجهه فضربه عثمان بحد السيف واطار نصف كفه واقسم له ان اخطأتها قذيفة اخرى سيفصل رأسه عن بدنه قبل ان تصل القذيفة مياه النيل . ورفع السيف مستعدا فأطلق المصرى القذيفة الرابعة والدماء تقطر منه فاصاب الباخرة اصابة مباشرة فى مرجلها .

والخليفة ادراكا منه لكفاءة عثمان وجرأته استثناه من القاعدة العامة فى قيادة الجيوش . فقد كانت مكانة ومجهود كل امير فى حشد المقاتلين والخيول حول رايته هى التى تحدد حجم قوته وتسليحها . وعندما وصل عثمان لامدرمان بعد انسحابه من معركة عطبرة لم يزد رجاله عن ثلاثة عشر رجلا . ولكن الخليفة اقتطع جزءا كبيرا من الملازمين بسلاحهم النارى من قيادة شيخ الدين ، ووضعهم تحت قيادة عثمان ازرق واوكل اليه محورا بعيدا عن شيخ الدين فاصبح قيادة منفصلة بحد ذاتها . ولعل الخليفة حاول ان يخفف قليلا من مضار تولية شيخ الدين المسئولية الكاملة لقيادة كل الملازمين .

ولعل الاسباب التى حرمت عثمان ان يستمتع بنفس شهرة قادة المهدية العظام تعزى لسببين :

أولهما العدد المحدود دائما الذى وضع تحت تصرفه كامير صغير ، وثانيهما ، الاهداف المتواضعة المحدودة التى حددتها له رئاسته فى دنقلا . فغالبا ماكان الهدف من ارساله للأغارة داخل الحدود المصرية هو لغنم الحبوب وفك ضائقة المجاعة بدنقلا وملء بيت مالها الخالى .

الخليفة علي ود حلو

١٨٤٢ – ١٨٩٩

ولد الخليفة على – الرجل الثاني رسمياً واسميا فى الدولة – فى بلدة اغسل على النيل الابيض . وقد امضى صباه الباكر الى طور الرجوله فى التفقه وتلقى علوم الدين، فنشأ واشتهر كرجل دين اكثر منه كرجل دولة . وقد بدأت صلته بالمهدى منذ اول وصول الاخير الى ابا قبل مجاهرته بالدعوة وقبل مقابلته للخليفة عبد الله . ويعزى اليه فضل كبير فى الانتصار الأول بأبا ، فقد كان معظم جنود المهدى من عشيرته دغيم ، ولعل ذلك كان السبب الرئيسى لتعيينه فى منصب الخليفة الثاني .

ولعل السبب الثاني يكمن فى تقواه وسمعته كرجل دين زاهد فى الدنيا ومافيها . ولعل المهدى قرر ان يضعه فى ذلك المنصب الكبير ليوازن به عبد الله المقاتل السياسى . ولكن عليا وجد نفسه مواجها كل ذكاء الخليفة الداهية الذى استطاع ان يحركه كما يشاء واقتصر دوره فى النهاية كواسطة خير للتدخل فى الخلاف بين الخليفة من جهة ، والاشراف واولاد البحر من جهة أخرى ، لاسيما ان الخليفة شريف كان يجله ويحترمه احتراما كبيرا .

ولكن مجرد احتفاظه بقوة ضخمة « خمسة آلاف » من رجال عشيرته المقاتلين فى العاصمة جعل الخليفة يعطيه وزنا كبيرا . وعلى الرغم من زهده فى السلطة الا أنه أبدى صلابة وحزما واضحا فى الامور الرئيسية . فقد اصر على محاكمة واعدام ود جار النبى عندما صار هذا يتحدث فى المنتديات عن عزل على ود حلو وتنصيب شيخ الدين عاهلا بدلا عنه .

ويقال ان الذى اغضب عليا هو مخالفة الرجل لمنشور المهدى فى الخلافة ، اكثر من تجريح الرجل الشخصى له ولمكانته فى الدولة . والواضح ان عليا لم يكن واجدا على يعقوب الذى تبوأ مكانته الرسمية فعلا ، فقد اعطاه يعقوب حقه من

الاحترام والاجلال كما اتسمت تصرفاته بالحكمة والاتزان . ولكن شيخ الدين بتهوره واهتمامه بالمظاهر هو الذى سبب الامتعاض لعلى ود حلو .

وقد استطاع على ان يحافظ على سمعته للنهاية كاكثر الرجال اخلاصا لدعوة المهدية بغض النظر عن احداثها السياسية . فقد ظل حاملا لواءها منذ ان امتشق حسامه فى أبا عام ١٨٨١ الى ان وجدت جثته فى امدبيكرات مباشرة على يمين جثة الخليفة عبد الله .

الخليفة محمد شريف

١٨٦٨ - ١٩٠١

« فنظرا لما حصل منه من نقض العهد اقتضى نظر اصحاب المهدى تطبيق الوجه الشرعي ووضعه بالسجن . ولولا اظهاره التوبه لكان جزاؤه اعظم من السجن . »

حيثيات محكمة الخليفة محمد شريف

كان الخليفة شريف عم المهدى وزعيم الاشراف — ولعل هذا يكفى ليوضح نوع المتاعب المتوقعة بينه وبين اتوقراطية التعايشة . فسرعان ماجعله عنصره الدنقلاوى وقرابته للمهدى مغناطيسا يجتذب حوله عناصر المعارضة العنصرية من الجعليين ، والدناقلة ، واولاد البحر ، وعناصر المعارضة الروحية والدينية التى لم تهضم فكرة المهدية كدولة لا كدعوة . الى ان تطور الامر فى النهاية وقاد الخليفة شريف محاولته الانقلابية المسلحة لتسلم السلطة فى امدرمان عام ١٨٨٨ .

ولكن يجب ألا ننسى ان الخليفة شريف كان صغير السن فقد كان فى الثانية والعشرين من عمره آنذاك . وادرك اخيرا وصرح انه فى قرارة نفسه لم يكن يرغب في تطور الامور لهذه الدرجة . ولكن فات الاوان ولاسبيل للتراجع . وكانت النتيجة ان الخليفة الثالث ، وعم المهدى صانع كل هذه الامجاد ، امضى عده سنوات من مدة المهدية . . . فى السجن .

ولد الخليفة شريف فى جزيرة لبب ، وقد سار على قدميه وهو صبى صغير لم يختن بعد قاطعا كل المسافة من دنقلا الى ابا لينضم الى المهدى . واحتضن المهدى قريبه الصغير وبدأ فى الاشراف على تعليمه ، ولكنه لم يتفرغ له لانشغاله بأمور اعظم فاوكل امر تثقيفه الى الآخرين ، على أن الاحداث العنيفة التى تلت لم تمكن هؤلاء من اتمام تثقيفه على الوجه الاكمل . فنشأ شبه أمي . ولكن لعل التصاقه بود النجومى الذى كان راعيا واستاذا له لفترة من الزمن هو الذى ابرز كفاءته العسكرية . وتلك لايشك فيها اطلاقا . فقد كان القائد الاعلى لقوات الحصار فى الخرطوم وادار

المعارك الأخيرة بكفاءة . وآراؤه فى مجالس الخليفة الأخيرة كانت آراء صائبة رغم تقديمه لها بطريقة لم تعجب الخليفة وكثيرا ماعرضته للتجريح . كما ان اعظم قادة المهدية كانوا تحت قيادته « الراية الصفراء» ولايمكن لرجل عادى ان يقود رجالا امثال ود النجومى وابي قرجه وأحمد عبد الكريم .

قــادة العــدو

« كتشــــنر »

أمضى الصبى هارولد فترة صباه فى ضيعة والده الكولونيل المتقاعد كتشنر ، وكان من الطبيعى ان تطبع بيئة كتشنر الاولى بصماتها عليه الى آخر حياته ، فالكولونيل المتقاعد ادار منزله وكأنه يدير كتيبة ، فالواجبات كانت كالطوابير العسكرية ، حتى النزهة كانت تحسب بالامتار والدقائق . كما كانت العائلةالانجليزية بوجه عام تشعر بترفع عن الاهالى الايرلنديين ،ولم يسمح للصبى باللعب كثيرا مع اقرانه . وكانت نتيجة ذلك ان كتشنر شب وابرز ما اتصف به هو التعالى على الآخرين والمقدرة على اخفاء مشاعره ، والبرود العملى الذى كان من مظاهره ان اندفع بجواده وسط مذبحة امدرمان وكل الذى حرك مشاعره هو استمرار الجنود فى اطلاق بنادقهم بعد ان صد الهجوم ولم يجد تعليقا امام آلاف الجثث المكدسة غير « يا إلهى لم هــذا الاسراف فى الذخــيرة ! Oh god, what a waste of ammunition » واذا اضيف الى ذلك سنوات الخدمة العسكرية الطويلة ، نجد انفسنا امام قائد ذى كفاءة ميكانيكية يسندها عقل حسابى دقيق ، وضابط محترف متفرغ لحرفته بدون هوايات أو حياة خاصة تقريبا .

وعندما أمضى كتشنر احدى اجازاته فى فرنسا ، وكان طالبا حربيا ، اصر على الاشتراك فى احدى المعارك وابدى رباطة جأش منقطعة النظير وسط مذبحة سيدان الهائلة . وعلى الرغم من التقريع المؤلم الذى وجهه اليه القائد العام لاشتراكه بدون اذن فى تلك الموقعة ، فانه لم يستطع اخفاء سروره لاغتنامه تلك الفرصة الذهبية للمفاخرة وسط اقرانه كمقاتل محترف . . . . وتخرج كتشنر فى ساندهرست بأقدمية متوسطة وانضم لسلاح المهندسين الملكى .

وعند انضمام كتشنر للجيش المصرى كان ضابطا مغمورا وليس هناك مايميزه عن زملائه غير اتقانه للغة العربية ووسامته المفرطة . وقد رشحته معرفته للغة العربية لانشاء مركز متقدم فى الدبة اثناء حصار الخرطوم . وبدأ اسمه يلمع

مع اتجاه الانظار نحو غردون في الخرطوم . فقد كان دوره هو همزة الوصل بين غردون وبين بيرنج في القاهرة ، وبذل مجهودا ضخما مخاطرا بحياته خلف خطوط العدو ولكن كل ذلك لم يعفه من قلم غردون الجارح . فقد فشل في ايصال أغلب الرسائل لغردون في حين تمكن من تسلم كل رسائله كاملة وارسلها للقاهرة . ولكن السبب كان واضحا : فالجميع كانوا يرغبون في مغادرة الخرطوم ، ولكن لم يكن هناك احد يرغب بمحض اختياره في دخول المدينة المحاصرة .

ولم يكن كتشنر اثناء توليه لقيادة الجيش المصرى محبوبا . ويعزى هذا الى ترفعه عن الاندماج دائما مع المرؤسين ، كما انه لم يزر أيا من الضباط البريطانيين في منزله قط وكان يفضل تمضية اوقاته مع اثرياء المصريين واليهود . ظاناً أن الاندماج مع مرؤسيه يقلل من هيبته ، ولكن كل هذا التعالى تبخر في لحظة واحدة ولم يمنعه من الكذب بلا مداراة عندما تعرض لغضب الملكة فكتوريا وانكر صلته تماما بموضوع معاملة الأسرى والجرحى والموتى .

ولم يحدث طوال السنين التى إستغرقتها الحملة أن كشف مخاوفه لاى من ضباطه حتى ونجت ، ولكنه كان يوضحها لبيرنج ، وحتى مع بيرنج كان حذرا كل الحذر . وقد اضطر ونجت مرارا الى احراج نفسه بتقديم النصيحة أو المعلومات اللازمة لتساعد كتشنر في التخطيط لانه يعلم ان كتشنر لن يطلبها منه مهما كانت حاجته ماسة اليها .

وقد بقيت خدمة كتشنر القصيره في سلاح المهندسين عالقة بالأذهان ولم تستطع حتى خدماته الممتازة كضابط مخابرات في السودان أو كحاكم لسواكن أو كسردار للجيش المصرى ان تجعل الناس ينسونها ، فخلفية حرفته العسكرية كضابط مهندس ابرزت الجانب الاداري « Q Side » لكفاءته العسكرية ، وهذا الجانب من سمعته اهله لقيادة حملة كان الجميع يعتقدون ان الناحية الادارية والامداد بالمياه وطول خطوط المواصلات هى اهم النواحى فيها .

ولم يخيب امل قيادته فأدار تقدمه من ناحية ادارية بامتياز ولاشئ غير هذا الامتياز الادارى . ولقد مجدته الصحافة البريطانية التى هاجت وماجت في ولسون

لتأخره ثلاثة أيام في المتمة وعللت سقوط الخرطوم بتأخره ، نفس هذه الصحافة مجدت كتشنر الذى استغرق سنتين ليقطع نفس المسافة التى قطعها ولسون وستيوارت في أسابيع .

ولذلك لم تتردد القيادة البريطانية طويلا ، واختارت كتشنر قائدا للحملة ولم ترسل لندن احد جنرالاتها لقيادتها خلافا لما حدث من قبل عندما ارسل ولزلى من لندن لقيادة حملة الانقاذ دون ان تسند قيادتها لوودهارس سردار الجيش المصرى .

ولكن ثقة كرومر بكتشنر رشحته لتولى منصب السردار فقفز قفزة سريعة جعلته اصغر جنرال في الجيش البريطاني . وقد بررت ترقيته حين أحسن أداء واجبه طوال سنوات التجهيز الطويلة في اعادة تنظيم الجيش المصرى ، كما قضى على الفساد والرشاوى المتفشية فيه ونجح في ان يقدم في معركة كررى جيشا يختلف جنوده تماما عن جنود هكس وفالانتين بيكر .

ولعل اللحظة الوحيدة في معركة امدرمان التي اظهر فيها ملكته القيادية كانت عندما التفت فجأة للخلف وكان كل جيشه في طريقه لامدرمان واكتشف موقف ماكدونالد الحرج ، فبعثر الويته الستة لمواجهة الموقف وكأنه يبعثر فصائل صغيرة . ونجح في تدارك الخطر وانقذ ماكدونالد من الابادة .

وقد تدرج كتشنر في الجيش البريطاني الى ان وصل لمنصب وزيرالحرب اثناء الحرب العالمية الاولى ولكن انعزاله وتعاليه لم يفارقاه ، فتكتل ضده أغلب الوزراء المدنيين .

وظلت النظرة العامة لكتشنر وسط صفوف الضباط — على الرغم من الخدمات الجليلة التي قدمها للامبراطورية — انه يمثل مدرسة قديمة لم تستوعب النظريات العسكرية الحديثة خصوصا انه لم يجلس لفرقة الاكاديمية الحرب بكامبرلى التى كانت « المؤذة » في ذلك العهد . كما ساعد على ذلك مظهر كتشنر وشجاعته الشخصية التى اشتهر بها . وتلك لم تكن محل شك اطلاقا . فقد كان دائما في مقدمة جيشه . وعندما كان قائدا الحامية سواكن وفي احدى مطارداته لعثمان دقنه سقط جيشه في كمين معد وكاد ان يسقط في الاسر . واصيب برصاصة استقرت في

حلقه وسدته . وبدأ يختنق . وامضى لحظات فى ألم ممض . فقرر ابتلاع الرصاصة ليتمكن من التنفس ، وابتلعها بقوة ارادة رهيبة .

أما أبرز نواحي القصور في شخصية كتشنر كقائد عسكرى فقد كان تردده عند اتخاذ القرارات . فقد كشف ونجت فيما بعد أن كتشنر كان يعانى معاناة طويلة عندما يتحتم عليه إتخاذ قرار هام أو حاسم ، ويمضى أياما عديدة في ألم نفسى ممضى وهو يتخذ قراراً ثم يلغيه بعد ساعات ويتخذ قراراً آخر . إلى أن يفتح الله عليه بالحل أخيرا وتشرق اساريره وينزاح عن كاهله عبئا ثقيلا .

وقد قيم معظم المؤرخين ادارته لمعركة امدرمان بانها كانت اقل من المتوسط لسببين . أولا لتفوقه الساحق فى النيران وثانيا لأن أوامره التى ارسلها في اللحظات الحاسمة كانت اوامر خاطئة . ولكن لحسن حظه رفض قادته تنفيذها . فقد رفض برود وود الانسحاب امام شيخ الدين والعودة لداخل الزريبة وقرر ان يتجه شمالا جارا خلفه كل جيش شيخ الدين وكان اجراؤه صحيحا . كما رفض ماكدونالد العودة للزريبة وفضل ان يثبت ويواجه هجمة يعقوب وشيخ الدين ، ولو استمع لاوامر كتشنر لكانت العاقبة وخيمة .

ونجـــت

كان ونجت هو العقل المفكر الحقيقى للحملة ، وكانت اصابعه تلمح حتى وراء اتفه الامور — اذ كان خلف الاحداث منذ البداية للنهاية .

وكان ونجت طرازا فريدا من ضباط المخابرات ، فهو لايكتفى فقط بتحليل الاحداث وكتابة التقارير عنها ، بل هو يمهد لها ويحركها حسبما يرى ، ولم تمتد اصابعه الى حملة السودان والحكومة المصرية التى يخدم تحتها فحسب ، بل استطاع بطريقة غير مباشرة أن يمدها الى سياسة الامبراطورية العليا التى ترسم فى لندن . وقد مكنه من ذلك سعة افق وذكاء وسعة اطلاع لم تكتف باستيعاب الاهتمامات العسكرية لوظيفته نحسب ، بل امتدت الى كل ألوان المعرفة . ولقد برز خلاف شهرته كضابط مخابرات ، كمؤرخ ، وعالم اجتماع ، واداري من الطراز الاول .

وقد طلب ونجت عندما كان ضابطا صغيرا ان ينقل للخدمة خارج انجلترا ، لان احواله المادية واصله المتواضع لم يؤهلاه اجتماعيا للمظهر الذى يتطلبه مركزه مرافقا لاحد كبار القادة .

ومنذ اول لحظة تسلم فيها مهام منصبه ادرك اى طريق وضعته فيه الاقدار ، ولم يتخل لحظة واحدة عن هذا الطريق وتخصص للنهاية فى شئون السودان ، تلك البلاد التى الهبت خياله واثارت اعجابه وجند كل مايمكن تجنيده للوصول لغاياته « والتى فى نظره طبعا هى مصلحة الامبراطورية نفسها » وتجلى ذلك فى استخدام محبة كرومر له ، الى تأليف مئات الصفحات فى كتابه الضخم ، الى ترجمة كتابي سلاطين والأب اورهلدر بكل ماجاء فيهما من أكاذيب مفزعة . . . مقدما فيهما من المعلومات والقصص مايخدم اهدافه مخفيا مالايلائمها .

ولم يساعده مظهره العادى على الظهور — عكس كتشنر بقامته الطويلة وشواربه الخالدة . ولم يكن هو يحب ذلك كثيرا . فقد قنع ان يحرك الاحداث من خلف الستار ومن رتبته المتواضعة — ميجـــور ونجت — المخـــابرات المصرية ولكنه استطاع بذكاء وحنكة ان يفرض آراءه على رئيسيه كرومر وكتشنر .

وكما سلف ، لم يكن كرومر يؤيد التدخل فى السودان اطلاقا خوفا من النفقات المادية ، ولكن ونجت وضعه امام الامر الواقع عن طريق نشر ثلاث كتب استطاع عن طريقها كسب الرأى العام البريطاني الى جانبه ، وعن طريق تقارير المخابرات التى كان يرسلها شهرياً للقيادة العليا فى لندن — تلك التقارير التى وجهت بذكاء الى اقناع ذوى الشأن بآرائه فى عدم التخلى عن السودان . وعندما انتبه كرومر للفخ الذى أوقعه فيه ونجت كان قد فات الاوان واصبحت الاذهان مهيأة لاعادة فتح السودان . . فجارى كرومر الاحداث واعطى النور الاخضر لبداية الغزو .

والمتصفح لالآف الصفحات من التقارير التى أعدها ونجت وبعث بها الى لندن طوال اثنى عشر عاما ، يلاحظ تخطيطه الذكى على المدى الطويل . فهو فى اوائل ايامه يتنبأ بتدهور قوة الخليفة . ورويدا رويدا بدأ فى ازالة مخاوف البريطانيين عن قوة الخليفة الاسطورية ، والتى كانوا يخشونها ويحسبون لها الف حساب . واخيرا اوضح بالارقام التى توافرت من استجواب سلاطين ، أوضح ضعف قوة الخليفة الحربية وسهولة تحطيمها . كل هذا فى خط مواز مع نشر كتابي سلاطين واورهلدر . ومع بداية عهد التكالب على افريقيا وتهديد منابع حوض النيل بواسطة الدول الاوربية .

ولم يكن باستطاعة ونجت تدبيج تقاريره الدقيقة تلك الا بعد ان تمكن من تهريب اورهلدر — وقد كان تدبيره بارعا للغاية . واعجب به كل العالم . فقد كان هروب اورهلدر شبيها باحدى قصص الاثارة ، خصوصا وقد توافر فيها العنصر النسائي . واكتسب ونجت شهرة عالمية عندما نشر كتاب اورهلدر وأبان فيه الدور الذى لعبه فى احداثه .

ولكن هروب سلاطين كان هو اكبر انتصاراته على الاطلاق فالفضل كله يعود الى ونجت .

وهذه المرة ادهش الجميع فعلا بدقة تخطيطه . وقد اثمر هروب سلاطين كتابه المسمى « السيف والنار فى السودان » كما اثمر صداقة طويلة مع سلاطين امتدت حتى نهاية العمر .

والمدهش حقا هو التفاصيل والدقة النسبية التي وردت في كتابه « Mahdism in the Egyptian Sudan » وذلك اذا نظرنا للزمن المبكر الذي طبع فيه وهو عام ١٨٩١ وقبل هروب سلاطين . على ان المعلومات الغزيرة الدقيقة — على الرغم من الاخطاء الطفيفة هنا وهناك — توضح اى شبكة مخابرات رهيبة انشأها هذا الرجل داخل عاصمة الخليفة بل داخل بيته احيانا .

وقد بدت كفاءة ونجت ظاهرة للعيان عندما استطاع تجنيد اعداد هائلة من السودانيين لخدمة قلم مخابراته ، وقد استغل هو ظروفا معينة استغلالا ذكيا ناجحا . فقد ادرك واحس حتى قبل وصول سلاطين أين هو الوتر الحساس الذي يمكن ان يعزف عليه . وهو استغلال الخلاف بين الاشراف واولاد البحر والخليفة وعشيرته . فان الخطاب الذي وجهه جرانفل لود النجومي عام ١٨٨٩ ، والذي يكشف عن المام تام بمجريات السياسة في السودان والذي حاول فيه ان يشكك ود النجومي في القصد الحقيقي وراء ارساله لمصر ، ذلك الخطاب وضعه ونجت .

ومع تقدم الحملة ازداد عدد عملائه . أما بعد واقعة المتمة فقد انقلب التآمر الى عداوة بلغت حد اشهار السلاح . وتمكن هو من تجسيم واستغلال رغبة الجعليين الطبيعية في الثأر الى ابعد مدى .

وفي الثلاثي البريطاني الذي تدور حوله قصة المهدية — كرومر — كتشنر — ونجت ، كان ونجت على الاقل فيما يختص بشئون السودان — هو الركن الاساسى . فهو الذي يحدد ويقرر أي المعلومات ينبغي ان تصل لكرومر وللقيادة العليا ولوزارة المستعمرات والخارجية وادى هذا الى اصطدامه اكثر من مرة مع كلا الرجلين . اما مع كرومر فلم يحس بخطورة ونجت الا في اواخر ايامه وبعد ان وقع فريسة لتخطيط دقيق من مخابرات ونجت ولكنه لم ينبس ببنت شفه . ولم يحرك ساكنا . بل ابتلع الهزيمة في صمت وظلت علاقته الابوية الودية مع ونجت الى آخر أيامهما .

اما كتشنر فقد تجاوب طموحه مع افكار ونجت في بادى الأمر وايد الغزو بشدة فقد رأى فيه نصرا ومجدا جديدا ، ولكنه بدأ يضيق ذرعا عندما كان يحس انه خارج الصورة ، وتأزمت الامور بينهما عندما استغل ونجت غياب كتشنر

في انجلترا وجهز حملة ام دبيكرات الموجهة لشخص الخليفة عبد الله الرمز الوحيد الباقي للمهدية . وبقتل الخليفة كسب الجولة الأخيرة ضد كتشنر وغضب هذا ولكن لم تكن له مبررات رسمية لاتخاذ اجراءات أو حتى شكوى ونجت . وهكذا سرق ونجت الاضواء من كتشنر في اللحظة الأخيرة .

أما يومه العادي أثناء السنوات التي إستغرقتها الحملة ، فقد كان يمضيه في خيمته وعشرات الاشخاص يدخلون ويخرجون واغلبهم من الاسرى والعملاء : وفي المساء ينصرف الجميع ويبقى هو وحيدا لتمحيص المعلومات وتقديم تقريره النهائي ، وحوالى منتصف الليل يحمل اوراقه ويدخل على كتشنر ويظلان معا لساعة متأخرة .

وقد كانت حملته الموجهة للخليفة في امدبيكرات هي اول خدمة ميدانية يتولى فيها مسئولية قيادية واستطاع اتمام مهمته بنجاح اطار صيته في كل أنحاء الامبراطورية . وعلى الرغم من براعته وتخطيطه الذكي الجرئ فان الفضل في تمكنه من الخليفة لايعود كله اليه ، بل يعزى الى قرار الخليفة القدري بانتظار نهايته في ام دبيكرات .

ماكدونالد

كانت معارك القرن التاسع عشر تعتمد على هندسة اصطفاف الوحدات كالقطع الهندسية ، لتقدم خطا صلبا من النيران أو الاسنة البيضاء . لذلك نجد أن الالفاظ التكتيكية الشائعة هى الفاظ « هندسية» مثل المربع « Square » واصطفاف المعركة « In Line » واصطفاف التقدم « In colum » ومن ثم كان تدريب الجيوش يقاس لحد بعيد بالناحية الهندسية والمقدرة فى تغيير الاصطفاف لاصطفاف آخر . ولذلك كان الاهتمام مركزا نحو البيادة والطوابير « Drill » كبيرا .

وقد ظلت مناورة ماكدونالد السريعة التى نفذها فى معركة امدرمان لتغيير مواجهة لواء مشاة كامل لاتجاه ١٢٠° فى حوالى ٢٥ دقيقة تحت نيران العدو ليواجه هجومين من اتجاهين متعاكسين . ظلت هذه المناورة مثالا مفضلا يدرس لسنين طويلة فى مدرسة الاركانحرب بكامبرلى .

وقد ترقى ماكدونالد من الصف — وتدرج من رتبة جندى حتى وصل لرتبة اللواء نتيجة لمثابرته ورباطة جأشه ، وانحصار اهتمامه فى حرفته العسكرية . وكان يمضى كل وقته مع جنوده فى ساحات التدريب . وعندما دخل معركة امدرمان كان يقود اللواء الثاني الذى اشرف على تجنيد جنوده السودانيين ،وأشرف على تدريبهم بنفسه لسنوات طويلة .

ولعل ماكدونالد ولواءه السودانى كانوا أكثر الجميع خبرة بحرب السودان فقد أمضى سنيناً طويلة وهو يقود كتائبه فى حلفا وفى حاميات الحدود الجنوبية وفى اشتباك مستمر مع قوات المهدية . وأشترك فى أغلب المعارك الكبيرة التى تخللت حرب السنتين وتحمل الجزء الأعظم خلال معارك فركه وعطبره .

وقد كان ماكدونالد احد الاعمدة التى اعتمد عليها السردار فى اعادة تنظيم الجيش المصرى . وظهر نجاحه في أنه أفلح فى تقديم وحدة نادرا ماوجد مثلها في التدريب العالى والانضباط فى أحلك الأوقات .

الجنــود

« (١) لايمكن لجنـود بيض تحمل ذلك الموت المصبوب ولـو لدقائـق
معدودة : ولكنهم واصلوا التقدم في وجهه باصرار . »

ستيفنسون

ان الصفة الأساسية المطلوب توافرها في الجنود ، هي أن يكونوا مقاتلين قبل أن يكونوا جنودا . والمقاتل هو تلك الأداة المشحونة بجرعة معنوية قوية تمكنها من التغاضي ونسيان غريزة البقاء مخاطرة بحياتها بحيث تعتبر القفز نحو الموت في نظرها امرا هينا . ولكي تستطيع تلك الأداة القيام بواجبها لابد لها من صفات أخرى غير الصفات المعنوية . . . لابد لها من الصلابة الجسدية والمقدرة على تحمل المشاق ، والادراك الغريزي لأفضل الطرق لقتل العدو . وهنا يكمن دور البيئة ومقدرتها في تقديم أعيرة مختلفة من المقاتلين .

أما الجنود فهم مقاتلون مروا بفترة صقل من التدريب والتطبع في المجتمع العسكري ليضفي ذلك نوعا من الواقعية العملية لأفضل الطرق لاستخدام طاقاتهم المعنوية والجسدية في أرض المعركة .

ولو طبقنا هذا التقييم على قوات الخليفة في امدرمان ، سنجد أنهم أفلحوا في أن يقدموا للتاريخ أحسن مثال للمقاتلين ، وهذا بشهادة أعدائهم ، وبشهادة راجعة الخسائر التي تجاوزت أكثر من ستين في المائة في خمس ساعات . وهنا ظاهرة تلفت النظر ، وهي أنه اذا كان مقياس المقاتل هو الشجاعة التي لاتعرف حدودا ولاتبالي بالموت ، نجد أن مقاتلي الخليفة لم يبالوا بالموت فحسب ، بل تمنوه ، وكان شيئا مستحبا لديهم . اذن فهم كمقاتلين تجاوزوا حد الكمال . أهلهم لذلك حافز قوي . . . . الجنة . . . . وجرعة معنوية قوية . . . دعوة المهدية . . . . وصفات طبيعية غذتها بيئتهم وزمانهم .

---

(١) No white troops could sustain such torrent of death for five minutes, yet they kept coming

"Stevenson"

ومن السهل الوصول لتلك الحقيقة بالاستماع لأقوال أغلب من اشتركوا فى المعركة وخرجوا احياء أو للاقوال الأخيرة — حتى للقادة — لمن سقطوا فى أرض المعركة . فعباره « مشيت داير الشهادة » تقال برنة صدق لارياء فيها ولاتكلف . قد نستمع احيانا لرنة من اليأس الانتحارى « درنا الموت محافظة على بيعتنا للمهدى » ولكن تلك الرنة تسمع ممن كانوا أكثر الجميع مرارة ، سواء من الوضع عامة أو من الطريقة التى قررت القيادة أن تخوض بها معركتها الفاصلة ، وتلك كانت القلة . لقد كانت تلك الظاهرة — الاصرار على الموت — متفشية وسط مقاتلى الخليفة للدرجة التى أسهمت فى ابادة جيشه ، أو على الأقل مكنت العدو من دفع ثمن رخيص للغاية لانتصاره . فان عشرات الصفوف اندفعت واحدا وراء الآخر لتباد فى نفس المكان وبنفس الطريقة . ولو توقفوا عند استحالة مواصلة اقتحام ناجح لخطوط العدو وعادوا أدراجهم لمعاودة الهجوم بطريقة أخرى ومن مسلك آخر لكان بامكانهم بالتأكيد حرمان العدو من ذلك الانتصار السهل .

قد تكون القيادة وتهورها أحد الأسباب ، فابراهيم الخليل ، ويعقوب ، وعثمان ازرق ، جعلهم مركز قيادتهم المتقدم دائما أول الضحايا لنيران العدو . . بحيث لم تتح لهم الفرصة فى ايقاف اندفاع جنودهم نحو الموت المؤكد . ولكن احد الاسباب الرئيسية يكمن فى الجنود أنفسهم . . . وهو رغبتهم الأكيدة فى المـــوت .

وأثر البيئة الاصلية — حتى قبل أن يشحنوا بالجرعة المعنوية كان واضحا . فالنظرة العامة للرجل هى أنه «مقاتل» قبل كل شئ . ويبدو هذا جليا — حتى اليوم — فى الفنون الشعبية « Folklore » وفى الحكايات والاساطير « Mythology » .

والشخص المميز ، لم يكن يميز بغناه أو بنجاحه ، بل بشجاعته ، فلــم يكن ذلك مجتمعا اقطاعيا أو بورجوازيا بل كان مجتمعا لم تزل سماته القبلية هى الغالبة . وقدود الفتيات والعذارى عندما تتمايل على الدقات والاهازيج المنغمة ، سواء أكان ذلك فى أعياد الحصاد ، أم فى ليالى الأعراس ، كانت تتمايل على الأغانى التى تمجد الشجاعة والبطولة الفردية . حتى المرثيات و « المناحات » لم تكن

تصف الحزن واللوعة بعبارات تقطع نياط القلوب ، بل كانت تتحدث عن صفات المفقود من شجاعة واقدام وقوة تحمل .

وكيفما كان تقييم مقاتلى الخليفة كجنود ، فسنجد ان هناك تفاوتا واختلافا كبيرين فى مستوياتهم ، اذ أن مستوى جنود الراية الزرقاء الذين حشدوا من قبائل الغرب مثلا ، يختلف اختلافا كبيرا عن مستوى جيش الكارا أو الملازمين .

وهذا الاختلاف تكمن اسبابه فى مجرى احداث سته عشر عاماً منذ أن خاض المهدى معركته الأولى . فاذا كان التحول والترقى من مقاتل الى جندى يكمن فى مدى توافر قدر معين من التدريب والسلوك النظاميين ، نجد أن بعضهم لم يتوافر له ذلك اطلاقا ، والبعض الآخر نجده تلقى أثمن وأرقى أنواع التدريب . . التدريب العملى فى ارض المعركة الحقيقية . تلك التى لاتدانيها فرصة أقيم . ولنستعرض جنود الخليفة بسرعة لتقييم المقدرة القتالية لهم كأفراد .

أما وحدة الملازمين فكان أفرادها أحسن الجميع معيارا للجندية . أولا لأنهم ضموا جيش الكاره ــ جهادية أبي عنجة القدامى الذين تلقوا تدريبا عاديا فى زمن الاحتلال وتدريبا عمليا عبر عشرات المعارك مع قادتهم الاكفاء . وثانيا لأنها الوحدة الوحيدة من وحدات الخليفة التى ثبت انها كانت تتلقى تدريبا منتظما متواصلا . وعملوا كجنود نظاميين وكانوا يتسلمون مرتبات منتظمة وتصرف لهم التعيينات يوميا ــ كما كانوا جنودا محترفين متفرغين للجندية عكس باقى الرايات التى اكتفت بغير النظاميين الذين مكثوا أغلب اوقاتهم فى مناطقهم ولم يخدموا فى الجندية الاعند استدعائهم للحرب .

أما الراية الخضراء من قبائل النيل الابيض فعلى الرغم من انهم أقدم جنود المهدى واول من انضموا اليه وشاركوه فى معاركه الأولى وتوافر لهم التدريب العملى منذ البداية ، إلا أنهم ، بعد سقوط الخرطوم ، لم يشتركوا فى عمليات الخليفة الكبيرة فى جهات السودان المتعددة . فدخلوا المعركة تقريبا بنفس المستوى الذى خاضوا به وخاض به آباؤهم معارك المهدى الأولى . ولئن كان نجاح المعارك الاولى ساحقا ، فلأن طبيعة العملية والارض والعدو تختلف عن كررى .

أما الراية الزرقاء ، فقد تمثل فيها الجنود الغير نظاميين الذين كانوا مقاتلين وحسب . فأغلبهم حضروا للاشتراك فى المعركة مباشرة من المراعى . كما كان أغلبهم من الجيل الجديد « مقاتلين وليسوا جنودا » . لأن المتمرسين القدامى منهم من مناطق التكثف السكاني : كردفان ودارفور وبالذات الرزيقات، كانت الحروب المتصلة قد استهلكتهم قبلاً ثم استنفدت معركة عطبرة البقية الباقية منهم . هذا وقد أكمل سكان امدرمان، من جميع الحرف وجميع القبائل، تكوين الراية الزرقاء فضمت حوالى اثنان وخمسون قبيلة وفرع قبيلة . ولكن اغلبها كما ذكرت حشد من عرب البقارة أو من قبائل غرب السودان . واولئك قوم كانت الحرب والصيد هى شغلهم الشاغل وليس لديهم حرفة أخرى غيرها . فان الحرف والعمل اليدوى كانت ومازالت تعتبر من واجب النساء . أما الرجال فهم للحرب والصيد والقتال . وهم ان لم يجدوا سببا للقتال اختلقوه . فهم يقاتلون من اجل القتال . واذا اضيف اخيرا توافر « الدافع » القوى نجد ان اندفاعهم نحو الموت كان شيئا طبيعيا .

ولكن كانت هناك عينة أخرى مختلفة تماما . . وهم رجال عثمان دقنة من البجا عامة والهدندوة خاصة فهم يختلفون من حيث الأرض والبيئة . والملاحظ ان قبائل الشرق ، حتى في خصامهم وقتالهم الفردى ، يعتمدون على المباغتة الخاطفة وهذا حتم عليهم توجيه ضرباتهم احيانا كثيرة من الخلف ، كما جعلهم فى منتهى البراعة فى سرعة الانفصال من العدو . ومن الصعب تصور طريقة اخرى يحقق بها هؤلاء اهدافهم اذا اعتبرنا العوامل المضادة التى واجهوها ألا وهى قلتهم العددية ونوعية العدو الذى واجهوه ، والاهوال التى قاسوها سنينا طويلة من القتال المشتعل، والحركة الدائبة والخسائر الكبيرة . وقوة الشرق هذه كانت أكثر الجميع خبرة واتصالا بالجيش البريطاني لمدة طويلة ، ومن ثم كانت أعلم الناس بأساليبه وتكتيكاته وتسليحه المتفوق .

ومن الصعب تحديد ايهما أثر فى الآخر : هل كانت طبيعة الهدندوة هى التى حددت وميزت طبيعة عمليات عثمان دقنة الخاطفة ؟ أم كان التصاقهم به كل تلك السنين الطويلة وتطبيقهم لنظرياته هى التى جعلتهم يشتهرون بالكمائن الناجحة والضربات الخاطفة ؟

ولعل احد الاهداف الرئيسية من سنين التدريب الشاقة فى كل الجيوش هي تهيئة المقاتلين ليصبحوا أداة طيعة في يد قادتهم الاصاغر ، وغرس صفات الطاعة الميكانيكية الغريزية لتنفيذ الاوامر السريعة فى أرض المعركة . ودور العلاقة بين القائد وجنوده يلعب دورا كبيرا فى هذه الناحية . ونظرة سريعة الى كشوفات رايات الخليفة توضح ان اغلب الامراء الاصاغر ورؤس المائة – حتى المقدمين كانوا من زعماء القبائل وفروع القبائل ، فضمن ذلك طاعة اصيلة قديمة من الجنود لقادتهم . وتلك ناحية اخرى تثبت بعد نظر يعقوب الذى تولى تنظيم وحدات جيش الخليفة وتعيين القادة .

أما من ناحية اللياقة البدنية فالواضح انها كانت عالية ، جنودا كانوا أو مقاتلين . ووضح هذا فى يوم المعركة عندما تجاوزت سرعة مشاتهم سرعة هجانة وخيالة برود وود وسط احجار كررى الوعرة ، وعندما طاردوها ثلاثة أميال شمالا واستمروا يركضون بسرعة تكاد تقترب من سرعة الخيل ثم عادوا مرة أخرى قاطعين نفس المسافة ليلحقوا بنهاية المعركة التى كادت أن تفوتهم . ساعدهم على ذلك اجسامهم النحيلة ، وعضلاتهم الخفيفة ، وتعودهم على مشاق الحياة وانعدام الترف ، وتجهيزاتهم الخفيفة .

والغريب ان تلك اللياقة البدنية العالية وقوة التحمل الجسماني لم يغذيها من الطعام الا أقله واتفهه . اذ قورنت بتعيينات الجيوش النظامية التى واجهوها . فتعيينات جيوش الخليفة كانت تقريبا من الذرة . وعلى الرغم من التنويع والتفنن فى صنعه فان العنصر الغالب المكون للطعام كان من الذرة . وقد تفاوتت طريقة تقديمه وبين تقديمه مسلوقا كبليلة أو كعصيدة أو «كآبريه» -- والآبرى كان يستخدم بكثرة لسهولة حملة ويقدم مع الشطة والملح مبلولا كأكل وليس كشراب ، ونادرا ماكان يقدم اللحم . ولعل الترف الوحيد تمثل فى الشاى وكان هذا ماتوفر للقلة من سكان امدرمان ، وحملوا معدات اعداده معهم لأرض المعركة .

كيف بدا جنود الخليفة ؟ لقد كان اللبس العادى الجندى من جيش الخليفة يتكون من جبة مرقعة قصيرة تصل الى ماتحت الركبة بقليل وســراويل وصندل « بعضهم كانوا حفاة » كما كانت تلبس العمامة فوق الرأس . وفى العادة كان

كل منهم يحمل سيفا وأربع حراب قصيرة « الا الملازمين فهم يحملون بنادقهم» وكان الواحد يحمل زكوة بها ماء الوضؤ « الركوة هي ابريق من الجلد » . وقد كان الاثرياء وخصوصا من سكان امدرمان ، يأخذون عبيدهم معهم لحمل ابريق الوضؤ والطعام وأدوات الشاي .

كما كان أغلب الامراء والقادة يحملون أكفانهم معهم وهي عبارة عن قطعة من الدبلان توضع ملفوفة في مخلاة الجواد ، وكان ذلك دليلا على أنه ذاهب للمعركة ليموت . ولوحظ أن عددا قليلا من أثرياء الامراء يرتدى دروعا منسوجة من الحلقات الحديدية (زردا) شبيها بتلك التي كان يرتديها فرسان الصليبين ، ويبدو انها كانت تصل لام درمان مهربة من موانئ البحر الاحمر .

** ** ** **

والعـــدو ؟ :

أما الجندى البريطاني فهو سيد معـارك القرن التاسع عشر وليس هنا مجالا لتقييمه ، ولكن في امدرمان تحمل جزءا هينا من المعركة . وقد مكنه تدريبه العالى وتجهيزاته واسلحته المتفوقة من التصرف بميكانيكية وبرود ، فقد واجهت الفرقة الانجليزية الهجوم الاول واستمر مشاتها فى ضرب جيش المهدية من بنادقهم وكأنهم كانوا فى مرمى ضربنار وليس فى معركة حقيقية . وعندما استنجد بهم ماكدونالد لمواجهة هجمتين متعاقبتين تحركوا ركضا وشكلوا مواجهة سريعة وبدأوا فى ضرب الجماعات (بالارشاق) « Volleys » بضبط ودقة .

اما الجندى المصرى فهو صورة طبق الاصل للفلاح المصرى ببنائه المتين وفراهته الجسدية . واوضح أداؤه فى ذلك اليوم مـدى التحسن الذى صار اليه امره . كما وضح الفرق الكبير بين هؤلاء الجنود وجنود هكس وتوفيق بك حسين الذين كان فارس البقارة يدفع امامه منهم المئات فى ذعر وفوضى . فالضبط والربط العالى ، والتدريب ، والمعاملة الكريمة واهم من ذلك . المرتبات المنتظمة اثمرت جنودا ممتازين .

وأما جنود الكتائب السودانية « فى جيش العدو » فقد كانوا هم ، وليس غيرهم ابطال ذلك اليوم . فلواء ماكدونالد الذى انقذ الموقف وتحمل هجوم ثلثى

جيش الخليفة من محورين متعاكسين ، وبفاصل نصف ساعة بين الهجومين ، كان اغلب جنوده من السودانيين ، « ثلاث كتائب سودانية وكتيبه مصرية » . ولقد صبر هؤلاء بشجاعة بل تحملوا بسرور هجمات يعقوب ثم شيخ الدين وعبد الله أبو سوار واستمروا فى اطلاق بنادقهم ولم يتزحزح احد منهم خطوة واحدة . ولو حاولوا التقهقر امام صدمة الهجوم الكاسح لكان الموقف قد تغير تغييرا كبيرا ، ولعل وصف تشرشل للواحد منهم كان أمينا لحد بعيد حينما ذكر عنه :

« (١) الاخلاص والولاء يدعمهما قلب كقلوب الأسود ، وأهم خصائصه هما حبه لضابطه ، وعدم معرفته للخوف اطلاقا » .

---

(١)
To the faithful loyalty, he added the heart of a lion, he loved his officer and feared nothing in the world."

Churchill

الســـلاح

« (١) المدفعيـة كانت ســيدة اليـوم »

ستيفنســون

لقد كان تسليح جيش الخليفة أكبر دليل على انعزال الدولة الفتية عن بقية العالم وهو يطل على القرن العشرين ، والثورة التكنيكية قد بدأت في الانطلاق . ويمكن أن نقسم تسليحه الى الاقسام الرئيسية التالية :

١ ــ الســلاح الأبيض :

تسلح أكثر من نصف جيش الخليفة بالسيوف والحراب ، وكانت صناعة السيوف رائجة جدا في امدرمان وتخصص فيها الكثيرون فالحديد الخردة «خصوصا بقايا قضبان السكة الحديدية في الشمال» كان يصهر في سوق الحدادين .

كان كل مقاتل يحمل ٤ حراب قصيرة ، وحربة رئيسية طويلة يتراوح طولها بين ثمانية وعشرة اقدام ، وكانت هذه الحربة هي سلاح الاقتحام الرئيسي . أما الحراب الصغيرة فكانت تقذف من مسافات قصيرة قبل الاقتحام بالحربة الرئيسية .

٢ ــ الأسلحة الصغيرة :

دخل الخليفة المعركة بحوالى ١٥٫٠٠٠ بندقية تفاوتت أنواعها بين أبو لفته والرمنجتون ومارتيني هنري .

أ ــ البنادق أبو لفته : كانت تمثل الغالبية العظمى .

الطول : خمسة اقدام وبوصتين

نوع الماسورة : ملساء

أقصى مدى للطلقة : ٦٠٠ ياردة

طريقة الاستخدام : توضع الطلقة في فوهة الماسورة ثم تدفع داخل

---

(١) "Artillery was the hero of the day."
R. Stevenson

الماسورة بسيخ حديدى الى أن تصل لقاع الماسورة وبعدها ترفع فى الكتف وتطلق ، لذا لم يزد حجم نيرانها عن طلقة فى الدقيقة فى أحسن الاحوال .

ب - البندقية الخشخشان : بندقية صيد الافيال :

عيار الماسوره : ٧٠٠ر٠ بوصه

الوزن : متفاوت

الطول : خمسة أقدام

أقصى مدى للطلقة : ٤٠٠ ياردة

ج - البندقية رمنجتون :

عيار الماسورة : ٤٣٣ر٠ بوصة .

الوزن : تسعة ارطال ونصف رطل .

الطول : اربعة اقدام وبوصتان

اقصى مدى الطلقة : ٨٠٠ ياردة .

المدى المؤثر : ٣٠٠ يارده

وزن الطلقة : ستمائة وستة وخمسون جزئيا « Grain »

نسبة وزن شحن البارود للطلقة : ١ : ٣٣ر٥٠

طريقة الاستخدام : تعبأ واحدة بعد الاخرى ، بعد جر الترباس للخلف . ثم تطلق الطلقة ويعاد تعميرها بنفس الطريقة . ولذلك فكمية النيران المتوقع ضربها فى الدقيقة حتى بدون تصويب كانت لاتتجاوز ثلاث طلقات فى الدقيقة . وتعتبر الرمنجتون بندقية حديثة بالنسبة للقرن التاسع عشر فماسورتها مخشخشه من ناحية ، كما ان تعميرها يتم من الخلف وليس من الماسورة مما سهل استخدامها .

ج - البندقية مارتينى هنرى « Martini Henri » :

حــوالى ٢٠٠٠ بندقية

عيار الماسورة : ٤٥ وبوصة .

الوزن : تسعة ارطال .

الطول : اربعة اقدام وبوصة ونصف بوصة .

اقصى مدى للطلقة : الف ومائتا ياردة .

المدى المؤثر : ٤٠٠ ياردة

وزن الطلقة : سبعمائة وثمانية وخمسون جزيئا « Grain »

نسبة وزن شحنة البارود الى الوزن الكلى للطلقة : ١ : ٦

طريقة الاستخدام : نفس طريقة الرمنجتون وبالتالى نفس الناتج من كمية النيران .

هذا وقد مثلت البنادق الجزء الرئيسى من قوة نيران جيش الخليفة . فمدفعيته لم تكن ذات شأن كبير في المعركة . ولكن الخواص التى ذكرت اعلاه تمثل أداء السلاح فى احسن حالاته وهو بحالة جيدة من الصيانة ، وبذخيرة مصممة بدقة لتناسب السلاح . ولكن بنادق الخليفة ، بل فى الواقع كل اسلحته ، قاست من قصور يمكن تقسيمه الى قصور من ناحية اداء السلاح ، أى من ناحية النيران ، وقصور تكتيكى يكمن فى استخدامه الانفرادى والجماعى .

أما من ناحية أداء السلاح أو ناحية النيران فقد كمن القصور فى البنادق والذخيرة . فمن المعروف ان جنود الخليفة لم يصونوا (١) بنادقهم على الاطلاق « على الرغم من حاجتها لقدر مضاعف من الصيانة لرداءة البارود» وتلك البنادق والتى غنم جزء كبير منها من جنود هكس والملك جون أو من الخرطوم اغلبها لم تشملها صيانة لسنوات طويلة . فلم تزيت لحمايتها من الرطوبة ، أو لازالة بقايا الطلقات المتجمعة فى الماسورة ، ولذا فقدت كثيرا من ضبطها . كما ان الاتربة والاوساخ المتراكمة فوق ابر ضربنار جعلتها كثيرة الموانع والاعطال مما قلل كثيرا من حجم النيران . واغلب البنادق كانت من الانواع المستخدمة فى اوائل ومنتصف القرن ، اى ملساء الماسورة .

ثم ان أغلب الجنود كانوا ينشرون (٢) مواسير بنادقهم ليسهل حملها ،

---

(١) من العدل أن نستثنى ود بشارة من ذلك القصور . فقد أوضحت خطاباته لقادته إهتمامه بصيانة الأسلحة وكان يحث دائماً القادة على مراقبه تنظيف وصيانة الأسلحة بل حتى قبل أيام من معركة فركه أرسل خطابا لحموده وحاشيته « مرفق لكم ١٢ رطل زيت بنادق » .

(٢) اثبت الفحص السريع لاكثر من اربعمائة بندقية اخذت من أرض المعركة محفوظة الا ن بمتحف الخليفة ان مواسيرها نشرت جميعا بدون استثناء .

فقد كانت بنادق ذلك العهد ثقيلة وطويلة . ويمكن تصور أثر ذلك على دقة ومدى طلقات البنادق . وهذه نقطة ملفتة للنظر . ولايدرى أحد كيف فاتت خطورة هذا الأمر على قادة الخليفة خصوصا من كانوا ضباطا وجنودا فى جيش الاحتلال السابق .

ومن الثابت ان احد اسباب انتصارات ابي عنجة والزاكى على الاحباش كان هو تفوق اسلحتهم النارية على بنادق الاحباش ، بالاضافة الى مداها البعيد ونيرانها المضبوطة . مما يوضح انها كانت بحالة حسنة حتى ذلك العهد . ولكن كان ذلك فى ١٨٨٨ ، ولابد ان عشر سنوات من الاهمال وعدم الصيانة قد تركت اثرها فى تلك الاسلحة .

اما الذخيرة فمجرد صنعها محليا على رداءتها [١] ، فهو انجاز ضخم من جانب الخليفة . ولكنها عندما تقارن بنوع ذخيرة العدو الذى واجهوه يتضح لنا الأثر الفتاك لذلك الانتاج .

بالطبع لكى تنتج الذخيرة لابد من مراعاة مواصفات دقيقة معينة . والمطلوب هو توفير سير مسطح بقدر الامكان للطلقة فى الهواء . فان عوامل جاذبية الارض ومقاومة الهواء التى تباشر اثرها طوال سير الطلقة يجعل سير الطلقة يميل دائما الى الانحدار نحو الارض . ولكى يتم التغلب على تلك المؤثرات التى تقلل من ضبط ومدى الطلقة يجب توفير اكبر قدر من السرعة للطلقة بعد ان تخرج من الماسورة للوصول لهدفها بتأثير قليل للعوامل المضادة . والسرعة تكسب بقوة ضغط الانفجار الاولى . فالسرعة تضمن من ناحية قوة الضربة على الهدف ، كما تضمن السير المسطح للطلقة الذى يوفر دقة اكثر ، ومسافة خطره اطول — بالطبع اذا تجاهلنا أثر رفع الماسورة الذى لايفيد كثيرا اذا كان المدى قصيرا لتدخل كل تلك العوامل . وسنجد اننا يجب ان نوازن بين عدة عوامل :

---

(١) لو أخذنا بضع طلقات أخذت من أرض المعركة — وهى محفوظة بمتحف بيت الخليفة الآن — كعينة نجد ان شكلها الهندسى لم يكن اسطوانيا منتظما . فالظروف يوجد به كثير من النتوءات . كما ان تدبيب الطلقة لم يكن منتظما واحجامها غير متساوية والرصاصة لحمت مع الظرف بطريقة بدائية وهذا يوضح ان العمال الذين تم انتاجها على ايديهم لم تتوافر لهم المهارة اليدوية اللازمة فضلا عن ادوات الصنع نفسها وتخلفها النسبى .

١ – زيادة نسبة شحنة البارود بالنسبة للوزن الكلى للطلقة حتى توفر الانفجار القوى اللازم لزيادة سرعة الطلقة ، ولكن خطورة ذلك تكمن فى ازدياد الصدمة الخلفية للضارب .

٢ – تقليل وزن الرصاصة نفسها مع الاحتفاظ بنفس نسبة البارود ولكن ذلك يجعل وزن الطلقة الخفيف قليل الاثر والاختراق للمسافات البعيدة .

الواضح ان مصانع ذخيرة الخليفة لم تتقيد كثيرا بتلك المواصفات (١) .فلم يكن هناك مهندسون مؤهلون ليشرفوا على الانتاج الدقيق لكميات البارود والتصميم الحسابي لكل طلقة . بل كان اغلبهم (٢) فى الاصل رؤساء عمال « Fore Men » فى عهد التركية وكانت نسب التعبئة لكل طلقة تتم اما من الذاكرة واما بالتقدير النظرى .

كما ان المعدن الأولى فى صناعة البارود « Saltpetre » لم تكن تتم تنقيته تماما لينتج بارودا جيدا ، بل كانت تتعلق به الشوائب من غبار ومواد دخيله . وفى البداية عندما اعيد تشغيل مصنع الذخيرة – امدرمان – توتي ، كان الانتاج دقيقا لخبرة العمال ، ولكن بمضى الزمن وتغيير رؤساء المصانع والعمال ووفاتهم بدأت النسب الدقيقة فى الاختلال .

ويبدو أن المهديةورثت كميات كبيرة من الموادالأليه (٣)لصناعة الذخيرةولكن الحروب المتصلة كادت ان تستنفدها. وقد ادرك يعقوب أخطار هذا الامر فاحتفظ

---

(١) حتى الجنود البسطاء لم يكونوا مقتنعين بمستوى تسليحهم تمام الاقتناع . فعندما احضر بعض الجهادية القدامى الذين تعودوا على استخدام البنادق الرمنجتون والمارتينى الحديثة نسبيا ، وسلحوا بابو لفته والبنادق العتيقة التى تعبأ من فوهة الماسورة بادخال الرصاصة بواسطة عصا رفيعة من الحديد انتشر المثل الساخر وسط الجنود « الشكو حجرى وقع » .

(٢) حتى الدكتور حسن زكى ، أكثر موظفى يعقوب خبره بالعلوم الكيمائية ، لم يكن متخصصاً فى الذخيرة . فنيوفلد ، الأسير الألمانى ، يذكر أن حسن زكى استشاره عدة مرات فى صناعة الذخيرة . ونيوفلد لم يكن الا تاجرا تلقى تعليما عاديا .

(٣) وجدت الكميات الآتية فى بيت الامانة بامدرمان وكلها مواد خام لصنع الذخيرة :

١٥ر٠٠٠ أقية رصاص .

٢٠ر٨٠٠ أقية نترات البوتاسيوم .

٦ر٠٠٠ كبريت .

٢ر٥٣٣ أقية قصدير .

٤٢٠ أقية حامض الكبريت .

كل هذه المواد مواد أولية لصنع البارود .

بقدر كبير منها وامر بعدم التصرف فيها خشية أن تجد الامور ويلتفت فيجد نفسه بدون ذخيرة . ثم بدأ التفكير فى انتاجها محليا ونجح فى استخراج بارود واستخلص من جبال دارفور ونجحت التجارب الأولية . واستطاعوا انتاج نوع جيد من البارود وبكميات وافرة . ولكن بعد المسافة لدارفور جعل يعقوب يفكر فى البحث عن المواد الخام فى منطقة قريبة من المصانع بامدرمان ، واخيرا نجح الشيخ مكى وعشيرته من الفلاته في استخلاص البارود من تربة حلفاية المــلوك ، ولم يكن هؤلاء دقيقين فى استخراجه كما ان المعدات اللازمة لم تتوافر لهم . وكان البارود يورد من مناطق انتاجه المختلفة الى المصانع في توتي والكاملين وامدرمان . ثم تحضر العينات لامدرمان لاختبارها (١) ، وبعــد ذلك يوافــق يعقوب على استخدامها ، غير ان هذا البارود لم يكن بنفس جودة بارود دارفور وبالطبع كان اقل كثيرا فى جودته من البارود الاصلى المصنوع من الخامات التى ورثت من الحكم السابق . واذن فعدم التقيد بالدقة فى النسب الحسابية لتعبئة كل طلقة ، بالاضافة الى التفاوت (٢) فى جودة الخامات ، كل ذلك يوضح لنا العوامل التى تسببت في اضعاف اثر نيران الخليفة فى كررى .

اما الاستخدام التكتيكى فى مستوى الفرد والجماعات لبنادق الخليفة فقد تركز فى عدة نقاط . أهمها ان قلة بسيطة جدا من حملة بنادق الخليفة كانت تهتم بالتصويب الدقيق — أو التصويب على الاطلاق . وان عزى هذا الى عدم التدريب فهناك اسباب لاتقل أهمية : ألا وهو النظرة التكتيكية لنيران البنادق التى اكتسبت عبر عشرات المعارك ، وهى ان البنادق والأسلحة الصغيرة لم تكن تعتبر أداة لقتل العدو واحداث الخسائر به ، بل كانت تستخدم كأداة لخفض رأسه لتمكن الجزء الرئيسى من حملة السلاح الأبيض الذين مثلوا عنصر الاقتحام من التقدم والاشتباك

---

(١) بواسطة الدكتور حسن زكى .

(٢) وضح هذا فى يوم المعركة فان بعض الطلقات كانت تمضى لمسافات بعيدة فوق رءوس جنود كتشنر داخل الزريبة والبعض الآخر كان يسقط أمام الزريبة عاجزا عن الوصول اليها على الرغم من انها اطلقت بنفس البنادق ومن نفس المكان . ولا بد أن الخبرة أوضحت للقادة ان الذخيرة التى غنمت من زمن الاحتلال اجود كثيرا على قدمها من الذخيرة الحديثة المحلية . فلكى يوضح يوسف ميخائيل استئثار شيخ الدين بكل المعدات الحربية الجيدة ذكر أنه « أخذ كل السلاح الجيد والجبخانة القديمة . »

مع العدو . والتمسك بهذه النظرية[1] جعل المهم فى نظارهم هو اطلاق اكبر قدر من النيران ، وكانت دائما تطلق من الوسط وليس الكتف . وادى ذلك الى استخدامهم للبنادق وهم وقوفا ، ولم يشاهد أى منهم وهو راقد على الارض ليجد فرصة احسن لاستخدام سلاحه أو البحث عن ساتر أو مركز ضربنار جيد يقيه من نيران العدو ويمكنه من التصويب الدقيق . وكان هذا معقولا فى حالة التقدم للهجوم على شريطة ان يأخذ مكانه على مسافة قليلة من العدو وليس على بعد آلاف الامتار . ولعل من الاسباب المباشرة التى أدت لذلك الاستخدام الخاطئ هى الفكرة السائدة بالاندفاع والاستشهاد دونما اعتبار لأى عوامل أخرى ، وحتى لايعيّر الواحد منهم بالجبن والخوف أن إنبطح على الارض ليجد فرصة أحسن فى تصويب سلاحه .

ويتضح مما ذكرنا أن البنادق شكلت عنصر النيران الرئيسي فى جيش الخليفة وكان الواجب تنسيق نيرانها الجماعية لتصبح فعالة ومؤثرة . وأحسن طريقة جرى استخدامها فى ذلك العهـــد كانت هى طريقة الضرب الجماعى « Volleys » . ولضمان تنفيذها لابد من فصل حملة البنادق وتنظيمهم داخل وحدات ، لا ان يذوبوا افرادا داخل كتل حملة السلاح الابيض ، فتداخلهم مع هؤلاء كان يحرمهم فرصة استخدام سلاحهم بفاعلية من ناحية ، ومن ناحية اخرى حرم أغلبهم من الوجود فى الصف الامامى لاستخدام بنادقهم دون اصابة باقى الجنود من حملة السلاح الابيض .

١ — الرشـــاشـــات

المدافع مترّاليـــوز Mitlraleuse

الوزن : طـــنان

اقصى مدى للطلقة : ألف وثمانمائة متر .

المسافة المؤثرة : سبعمائة متر .

حجم النـــيران : اربعمائة واربعة واربعين جزئيا Grain

---

(١) هناك نقطة ملفتة للنظر وهى عدم استخدام السناكى مع البنادق . فلم تشاهد جيوش المهدى فى كل حروبها حتى فى الاقتحام وهى تستخدم السونكى . ولعل هذا يوضح نظرتهم إلى ان البنادقهو اداة نيران أولا وأخيرا وليست عنصر اقتحام .

وقد كانت المدافع المترّاليوز من اوائل المدافع الرشاشة التى أدخلت فى الجيوش الاوربية . وكان الواحد منها يتكون من سبع وثلاثين ماسورة بندقية وضعت ملتصقة داخل ماسورة المدفع الكبيرة وتم تعبئة المواسير بالطلقات بادارة طاره تدفع بالطلقات داخل الماسورة وتطلقها فى نفس الوقت من جميع المواسير فى أقل من ثانية . والجندى المدرب يستطيع تكرار هذه العملية اثنتى عشرة مرة فى الدقيقة . وعليه فناتج الضرب يكون اربعمائة واربعا واربعين طلقة فى الدقيقة . والرشاش مترّاليوز هو الرشاش الوحيد الذى استخدمه جيش الخليفة فى المعركة على الرغم من توافر رشاشات خلافه ، نظرا لأن الطقم الاصلى الذى استخدمه مع هكس لم بباد فى المعركة كما ان الذخيرة الاصلية التى احضرت معه من مصر كانت متوافرة .

اما الرشـــاشات الأخرى جاتلنج (Gatling) وجـــاردنر (Gardner) ونوردنـدفلـــدت (Nordendfeldt) فقـــد حفظت فى بيت الامـــانة ولم تستخدم لافى كررى ولافى اى معركة من معارك المهدية . والسبب هو تعقيد استخدامها من ناحية ، كما لم يمكن العثور على طقم يستطيع إستخدامها ، فقد ابيد هؤلاء اثناء غنمها . كما ان انعدام ذخيرتها ، وصعوبة انتاجها محليا ، بالاضافة الى ان عيارها مختلف عن ذخيرة الاسلحة الصغيرة ، كل ذلك جعل استخدامها مستحيلا . وهى لم تختلف كثيرا فى طرق استخدامها وحجم نيرانها عن المترّاليوز اذ أن التفاوت بينها يكمن فى عدد المواسير ، فللرشاش نوردندفلدت ست مواسير متوازية متلاصقة وللجاتلنج خمس مواسير .

المدفعـــية

أ ـــ المدفع الجبـــلى Mountain Gun

تكونت اغلب مدفعية الخليفة من المدافع الجبلية « ٣٥ مدفع جبلى »

الوزن : مائتا رطل وهو اقصى حمولة البغل .

العيـار : ٤ بوصة

اقصى مدى للطلقة : ٢٠٠٠ ياردة

وزن الدانة : ٦ ارطـــال

انواع الطلقات : طلقات الشظايا — ذخيرة نجوميه

كان المدفع الجبلي هو العنصر الغالب للمدفعية الخفيفة في القرن التاسع عشر ، وخفة وزنه جعلت جره بواسطة بغل واحد امرا ميسورا كما ان زاوية الضرب المرتفعة نسبيا عن باقي المدفعية ، « اربع عشرة درجة » اهلته لان يتقدم مع المشاة ويكفل لهم غطاء من نيرانه في أي نوع من انواع المناطق ، حتى المناطق الجبلية . وقد تحصل الخليفة على أغلب مدفعيته من حملة هكس وبعد سقوط الخرطوم واثناء حروبه مع الحبشه .

ب — المدفع كروب : « ٨ مدافع »

الوزن : ٣ أطـــنان (١)

المدى : ٣٥٠٠ ياردة

انواع الطلقات : شـــظايا

العيار : ١٢٠مم

وكما رأينا فقد كانت أغلب مدفعية الخليفة تتكون من انواع متعددة عتيقة . فكلها ، ماعدا الكروب ، كانت ذات ماسورة ملساء وتعبأ من الفوهة مما جعل نيرانها غير مضبوطة . ولكن من الثابت كما أسلفنا أن حظ المدافع من العناية والصيانة كان أكثر من حظ البنادق . فقد تكونت اغلب اطقم المدافع وقادة البطاريات من المصريين جنود الاحتلال السابقين ومن المؤكد انهم احسنوا صيانتها ، فهم جنود مدربون قدامى وظلوا كجنود محترفين حتى في فترة المهدية . ولكن العيب الاساسي في مدفعية الخليفة كمن في ذخيرتها ، فهي ايضا تصنع محليا (٢) فقد كانت الصناعة المحلية تشمل ذخيرة المدافع الجبلية . ولكن مدافع كروب الحديثة لم تتمكن ترسانة الخليفة من صنع ذخيرتها . واستمروا في استخدام الذخيرة التي تم غنمها من هكس وغردون . ولما رأى يعقوب انها كادت ان تنفد امر بايقاف استخدام مدافع كروب ولكن العدد المتبقي من الدانات كان ضئيلا .

---

(١) يوجد مدفع كروب الآن أمام ضبطية امدرمان ، أخذ من معركة امدرمان . وماسورته مخشخشة الا ان وزنه وحجمه يدل على أن جره وتحريكه بالاضافة لحمل ذخائره استلزم عدداً كبيراً من الجمال والبغال .

(٢) وجدت ٧٥ طلقة لمدافع كروب في بيت الامانة .

وقد تمكنت ترسانة الخليفة من انتاج نوع واحد فقط من ذخيرة المدفعية ألا وهو الشديد الانفجار « HE» ولكن جسم الطلقة كان يصنع محليا[1] من النحاس قليل السمك مما جعل له دويا كبيرا وقوة انفجار بدون اثر لشظايا قاتلة وسط تجمعات العدو .

ولكن تفسير ذلك الأمر يكمن في نظرية استخدام المدفعية في ذلك الزمن ، واذا وضعنا في ذهننا أن قيادة جيش الخليفة اقتبست نظرية استخدامها من جيش الاحتلال ، نجد انها هي نفس الفكرة التي كانت سائدة في اوائل ومنتصف القرن التاسع عشر . وهي ان المدفعية خصصت [2] للاختراق سواء للحصون أو خلافها ، ولم ينظر اليها كعنصر نيران موجه لقتل مشاة العدو بانتاج كمية كبيرة كثيفة من الشظايا الصغيرة . وقد املت هذه النظرية بالطبع تصميم المدافع من ناحية وناتج النيران من ناحية اخرى . فالشظايا لم تتجاوز اكثر من شظيتين أو ثلاث عند الانفجار . وهذا اهلها للاختراق اكثر من قتل مشاة العدو .

ولكن في سنة ١٨٩٨تغير الموقف كثيرا بالنسبة للجيوش الحديثة فبدئ في انتاج نوع من البارود الذي يفجر كمية كثيفة من الشظايا وجهت اساسا لقتل مشاة العدو ، مما مكن مدفعية الاسطول البريطاني ، ومدفعية البريطانيين من احراز ذلك الأثر الفتاك في موقعة كرري . ولكن بالطبع كان جيش الخليفة متأخرا كثيرا في انتاج هذا النوع من الذخيرة ، وفي معرفته . ولاننسى أن اغلب مدفعيته غنمت من جيش هكس عام ١٨٨٢ ومن الخرطوم والاحباش ، كما أن الطوابي كانت تعمل بالتصميم القديم للمدفعية . وقد رأينا كيف كانت مدفعية هكس وغردون والرأس عدار ضعيفة معدومة الأثر على مشاة المهدية المقتحمين ، مما يؤكد قلة تأثير نيرانها ضد المشاة

---

(١) يوضح شقير أن الحرب الاقتصادية التي شنت على الخليفة أدى إلى ردامة ذخيرة المدفعية وذخيرة الاسلحة الصغيرة « أما الذخيرة فقد كان عند الخليفة منها مقادير وافره إلا أنه كان محاطا بالاعداء من كل جهة وكان في حرب دائمة معهم وقد منعوا عنه الاسلحة والذخائر منعاً صارما بل منعوا كل ما يساعد على عملها كالرصاص والنحاس والذخائر وملح البارود والكبريت . ولذلك . جمع كل ما أمكن جمعه من آنية النحاس في البلاد فصنع منها الظروف . » شقير ص ١٢٥٥

(٢) ينطبق اعلاه على ذخيرة المدفعية التي تطلق لمدى أكثر من الف ياردة أي المدى ابعد من مدى الكانستر الذي لم يتجاوز خمسمائة ياردة في ذلك العهد .

من ناحية ، ومن ناحية أخرى يبرر قلة اعتماد قادة المهدية على نيرانها في هجماتهم لاعتقادهم ان عنصر النيران المهم هو نيران البنادق اولا واخيرا ، ولذا أخذت لأرض المعركة خمسة مدافع فقط .

وهذا يوضح لحد بعيد ان الخليفة كان استخدامه من ناحية المبدأ صحيحا للغاية . فقد وضع أغلبها في الطوابي كعناصر اختراق لحصون العدو التي تمثلت في بوارجه المدرعة ، والتي مثلت أغلب مدفعيته المتحركة . وحرم بذلك هجوم مشاته وفرسانه من غطاء قوى من النيران .

اما الضعف الرئيسي في الذخيرة فقد تركز في عبوتها المتفجرة التي استخدم في صنعها نفس البارود المحلي الذي استخدم لأنتاج رصاص البنادق وذلك ما جعل اغلب الدانات التي وجهت نحو كتشنر عاجزة عن الوصول لبوارجه النيلية . والدانات التي وجهت نحو زريبة كتشنر ، على قلتها ، كغطاء لهجمة (١) ابراهيم الخليل وعثمان ازرق انفجرت امام الزريبة وعجزت عن الوصول اليها . وذلك يوضح اثر عبوة الطلقة في تغيير مدى مدفعية الخليفة . كما ان جسم الطلقة المصنوع من النحاس مع رقته أوضح قلة انتاجه من الشظايا من ناحية، وضعف أثره في اختراق البوارج من ناحية أخرى .

** ** ** **

والعدو ؟ :

لقد كانت النيران والمدفعية التي قصمت ظهر الخليفة أكبر حشد للنيران شهدته افريقيا حتى ذلك الحين . وتسليح كتشنر من البنادق حتى مدفعية بوارجه المدرعة ، أوضح التطور الهائل في صناعة الحرب في العشرين عاما الأخيرة من القرن التاسع عشر . فأسلحة كتشنر هي نفس الاسلحة التي شهدتها ميادين

---

(١) وذلك هو الرأى السائد عند المؤرخين ولكن اذا تذكرنا ما قاله سلاطين أثناء اقامته في السودان من ان دانات مدفعية الخليفة لم يتجاوز مداها أكثر من ستمائة ياردة، اذن فالاحتمال الأقوى ان يعقوب الحكيم استخدم الدانات الاصلية القديمة التي غنمت من جيش الاحتلال والتي حرم استخدامها احتفاظا بها لهذا اليوم الفصل. واذا اعتبرنا ان أغلب داناته وجهت من خلف جبل سركاب أو من اطوار الهجوم الأولى لعثمان ازرق نجد أنها استطاعت ان تصل لمسافة أبعد من اثنين ألف وخمسمائة ياردة فقد سقطت على بعد ٥٠٠ ياردة . اذن السبب الرئيسي في تقصير المدى أو عدم ضبطه يكمن في المدافع نفسها فمواسيرها القديمة قللت كثيرا من ضبطها وكان هذا امرا طبيعيا حتى وسط الجيوش الأوربية التي استخدمتها .

قتال الحرب العالمية الاولى والرشاش الجديد « المكسيم » هو بطل الحرب العالمية الاولى بدون شـــك .

البنـــــادق

أ ـ البندقية لى متفورد ماركة «٢» Lee Metford MK 2

كانت هذه البندقية من أحدث البنادق التى أخرجتها مصانع اوربا وادخلت فى الجيش البريطاني عام ١٨٩٥ . واستطاعت بعد التعديل والتحسين المستمــر أن تعمر أكثر من نصف قرن ، فشهدت حربيين عالميتين . وأهم خواصها التى تؤثر أثرا تكتيكيا مباشرا هى :

١ ـ ادخال الترباس للتعمير وتزويدها بخزنة تسع ثماني طلقات بحيث ضمنت انتاج كمية كبيرة من النيران بدلا من البنادق القديمة التى تعبأ من الماسورة أو تعبأ واحدة واحدة من الخلف .

٢ ـ خشخشة أكثر للماسوره مما ضمن دقة وضبطا أكثر للطلقة باكتسابها حلزونيه تساعدها على شق طريقها فى الهواء .

٣ ـ رصاصة أصغر عيار ٣٠٣ر٠ وعبوة ١٧٥ درهم من الكوردايت بدلا عن البـــارود الـ (Saltpetre) ودخانه الأســـود الكثيف . ممـــا ضمن لها سرعة تتجاوز اثنين الف قدم فى الثانية ممكنا الطلقات من الوصول الى اكثر من اثنين الف وخمسمائة ياردة ، وعليه فاحتمال اصابة الجندى لأى هدف يستطيع رؤيته بعينه المجردة أصبح احتمالا كبيرا .

٤ ـ تخفيف وزن الذخيرة مكن الجنود من حمل كمية اكبر لمجابهة شهية بنادقهم المفتوحة لالتهامها .

زاد ادخال هذه البندقية من قيمة المشاة القتالية لحد بعيد ، وخصوصا فى الدفاع . فزادت من فاعلية نيران المشاة المحتمين وراء دفاعاتهم ، وقللت لحد بعيد من فاعلية حشود المشاة والفرسان فى الهجوم . وبادخالها زادت نسبة القوات المهاجمة للمدافعة الى ثلاثة لواحد لضمان نجاح الهجوم . كما ان حجم النيران الكبير لبنادق المشاة جعـــل ضرب الجماعات بالارشـــاق (Volleys) ممكنا ومؤثرا ومتواصلا

فان الفصيلة مثلا عندما تؤمر بضرب الجماعات ، تبدأ الجماعة الاولى منها بضرب بنادقها كلها في لحظة واحدة بعد اخذ تصويب دقيق ، وبعدها تعطى الاوامر للجماعة الثانية ثم الثالثة وهنا تجد الجماعة الأولى الفرصة فى اعادة التعمير والتصويب الدقيق والضرب مرة اخرى ، كل هذا يحدث بفواصل قصيرة للغاية . فتوافر بذلك تجمع وتكثف من النيران مؤثر للغاية ضد تجمعات مشاة وفرسان العدو المتقدمة .

الرشـــاشـــات

المكســـيم :

عندما قدم هنرى مكسيم مدفعه لامبراطور المانيا ، واعتذر الأخير عن شرائه ببرود ، لم يكن مكسيم يحلم ان مدفعه سيكون مسئولا عن ابادة عشرات الالوف فى بضع ساعات . ولكن دولا أخرى سارعت بتبنى الفكرة الجديدة « للرشاش ذى الماسورة الواحدة » فهو قد ضمن نفس مزايا الرشاش القديم ذى المواسير المتعددة الذى امتاز بحجم النيران الضخم ، وفى نفس الوقت استطاع المكسيم التخلص من عيوبها . فهو يمكن طاقمه من التصويب الدقيق المستمر طوال الوقت ولم يكن هذا ممكنا فى الرشاشات القديمة . كما جعل امر الضرب المنتشر على صفوف افقيه للقوات الهاجمة امرا مستطاعا ولم يكن هذا امرا ميسورا ، فقد كانت كل مجموعة الرشاشات القديمة تسقط فى مكان واحد الى ان يعاد تحريك الماسورة لاتجاه آخر . كما وفر مدى أبعد (١) (٢) .

---

(١) يعزى التحسن الرئيسى الذى أدخله مكسيم فى الرشاشات إلى طريقة التعبئة الا توماتيكية مستغلا قوة انفجار الغاز المحبوس داخل وعاء مغلق إلى دفع الا جزاء للخلف والا مام لتعمير الماسورة بدلا عن استخدام الطارة التى تدار باليد . وخواص انفجار البارود الجديد الأبيض Cordite مكنت تنفيذ ذلك لحد بعيد بحيث أمكن الطاقم من توجيه جهده لتصويب المدافع وتحريكها افقيا بدلا من توجيه جهدهم لعملية التعبئة .

(٢) كانت أغلب ذخيرة الأسلحة الصغيرة التى استخدمت فى كررى من نوع دم Dumdum سواء التى استخدمت بواسطة البنادق أو الرشاشات . ودم دم هى رصاصة عادية شق رأسها المدبب فى شكل صليب ويؤدى ذلك لتفتيت العظام والاحشاء والتسبب فى جروح كبيرة فترى الطلقة عند دخولها فى الجسم البشرى تسبب خرقا صغيرا فى الامام ولكن عند خروجها من الظهر يمتد حجم الجرح إلى دائرة يصل قطرها أحيانا لقدم .ولعل ذلك يفسر كمية الدماء الغزيرة التى سالت من جيش الخليفة . ولا أقصد بالدماء ←

واذا أضفنا قوة النيران المضبوطة الهائلة للرشاشات الى قوة نيران المشاة أصبحت قوة نيران القـــوات المدافعة المتخندقة كفيلة بشل أى هجوم مباشـــر واصبحت فرصة الهجوم تكمن فى أحد المخرجين : أما شن الهجوم تحت غطاء قـــوى وتفـــوق عال مـــن النـــيران واما . . . . الهجوم ليـــلا .

أما الخواص المهمة للرشاش المكســـيم فهى :

المـــدى : ثلاثة آلاف يارده .

حجم النيران : ســـتمائة طلقة فى الدقيقة .

المرونة : يستطيع الضرب منتشرا فى محور يبلغ مائة وثمانين درجه .

الـــــوزن : ٢٥٠ رطل

ولاكتمال فعالية الرشاشات تم تنظيمها فى شكل بطاريات تتكون كل بطارية من ستة مدافع لتغطية مواجهات واسعة بتأثير قوى .

وعلى الرغم من الخفة النسبية لوزن الرشاش المكسيم الجديد ، فان أحد عيوبه الرئيسية كانت حجمه ووزنه ، مما جعله سلاحا دفاعيا ثابتا . فلم يكن من الممكن أن يحمل بواسطة المشاه أو الفرسان ، فأصبح عاجزا عن التدخل السريع كقوة نيران حاسمة حسب تطور المعركة ، ولقد تغلب كتشنر على تلك الصعوبة بتركيب جزء كبير منها على بوارجه النيلية السريعة .

المدفـــعـــية

مدفعـــية الميـــدان :

١ — المدفع ١٥ رطلا :

لقد مضى تطور المدفعية فى الجزء الاخير من القرن التاسع عشر بنفس السرعة

← الغزيرة هنا استخداما بلاغيا، بل اقصد فعلاً كميات السائل الأحمر التى نزفت من الجرحى والقتلى. وقد منع استخدام رصاص دم دم دوليا بعد معركة أمدرمان حتى فى صيد الحيوانات . وكان استخدامها أحد فظائع المعركة الكثيرة كما سنرى . وفيها هاجمت الصحافة كتشنر إلى أن طالبته الملكه بتقديم ايضاح عن طريق الماركيز سالسبورى رئيس الوزراء . واعتذر هو ووافقه الكثيرون — بأن جرحى الخليفة كانوا يقاومون مقاومة مستميتة . فلا بد من اصابتهم بجروح تعطلهم نهائيا . . أو تقتلهم فى الحال .

موقعة كررى — ٢٥ .

وفى نفس الخطوط العريضة التى شملت تطور الأسلحة الصغيرة وهذا التطور شمل المدافع نفسها ، إلا أن تطور الذخيرة كان أكبر أثرا .

فالمدافع فى ذلك الحين اصبحت كلها حلزونية الماسورة (Rifling) فوفرت دقة للدانات . وبادخال اليايات استطاعت تحمل الصدمة الخلفية للمدفع : بحيث تعود الماسورة الى مكانها الاول بدون حاجة الى اعادة التصويب . اما المدافع القديمة ، فالمدفع يتحرك للخلف على عجلات منزلقا عدة ياردات مما يحتم اعادته للمكان الاول واعادة التصويب مرة أخرى . وقد أدى ادخال ذلك التحسين الى تمكن الاطقم من اطلاق مدافعهم دون حاجة الى اعادة الضبط والتصويب ، كما امكن انتاج كميات مضاعفة من نيران المدفعية . بل استغلت هذه الميزة الى أبعد مدى لانتاج المدفعية السريعة الرمى (Quick firing Guns) طالما كان العائق الوحيد لسرعة اطلاق المدافع ، هو الزمن الذى يستغرقه الطاقم فى تعبئة الذخيرة واطلاقها من ثم فقد انتجت جبخانة صغيرة نسبيا «٦ أرطال و٣ أرطال» لانتاج كمية أكبر من النيران فى زمن وجيز . كما وفرت التحسينات العديدة فى استخدام آلة ايجاد المسافة الجديدة ضمانا أكبر لدقة النيران .

ولكن التطور الذى جعل المدفعية سلاحا مؤثرا حقا كان هو التطور الذى شمل الذخيرة . فكما ذكرنا قبلا كان أثر المدفعية خصوصا فى المسافات البعيدة — أى اكثر من اربعمائة ياردة وهو اقصى مدى لاستخدام الـ (Case shot) — كان هذا الاثر ضعيفا على تجمعات العدو وكانت اغلب الاصابات على قلتها تحدث نتيجة لقوة الانفجار وضغط الهواء . اما الشظايا فكانت معدومة الاثر لأنها لم تتجاوز اكثر من شظيتين أو ثلاث نظرا لضعف قوة انفجار البارود الاسود المستخدم . ولكن باستخدام البارود شديد الانفجار (Cordite) استطاعت الدانة الواحدة ان تنتج كمية وفيرة من الشظايا كفيلة باحداث اثر قاتل على تجمعات المشاة وذلك خلاف اثر قوة الانفجار . وهنا بدأ دور المدفعية فى البروز ليتساوى مع اثر نيران البنادق والرشاشات ، ويتفوق عليها فى المسافات التى يزيد بعدها عن ثلاثمائة ياردة .

ولقد انقسمت ذخيرة المدفعية التى اطلقت يوم ٢ سبتمبر الى اربعة اقسام :

١ — ذخيرة الكانستر أو الـ (Case shot) وهى عبارة عن علبة من الصفيح

ملئت بقطع من الرصاص تنفجر بفيوز زمني أو بالاصطدام . واقصى مدى لاستخدامها كان خمسمائة ياردة ، ولكن بالطبع كان اثرها ماحقا على تجمعات المشاة . فهي في الواقع « تكنس » الارض من مشاة العدو في المسافات القريبة . ونادرا ماكانت تستخدم لقصر مداها .

٢ — الدانات شديدة الانفجار HE وهي الطلقات شديدة الانفجار وأكثر أنواع المدفعية استخداما لأنها تصل لمسافات بعيدة وتوفر قدرا أكبر من الشظايا وقوة الانفجار وبذلك يمكن توجيهها نحو المشاة أو دفاعات وحصون العدو .

٣ — الدانات الشارنبل (Sharpnel) (قذيفــة المنشار) وهي بنفس نظريــة الـ (Case shot) ولما كانت تطلق في خــط سير عال ، وليس في خط مستقيم كالاخيرة ، فقد مكنها ذلك من الضرب على تجمعات مشاة العدو من مسافات بعيدة حيث تنفجر فوق رؤوس الجنود وقبل الاصطدام بالارض وتنطلق منها مئات الشظايا الى اسفل نحــو تجمعات المشاة في شكل رذاذ كثيف (Shower » يغطي مساحة شاسعة ، واذن فهي عديمة الأثر من ناحية قوة الانفجار والصدمة والضغط ، وتصلح لقتل الافراد فقط .

« المدفــع ١٥ رطــل »

اهم الخواص للمدفعية ١٥ رطل هي :

المدى : ٣٥٠٠ ياردة

الوزن : ٤٥٠ رطلا

وزن الدانة : ١٥ رطلا

طريقة الجر : بالبغال وأغلبها حمل على البوارج في معركة ام درمان .

المدفع الهاوترز ٥ر٥ بوصة :

مثل المدفع الهاوترز مدفعية كتشنر الثقيلة . ويمكنه بالطبع استخدام كل الذخيرة المذكورة اعلاه ولكن الواجب الرئيسي الذى احضر من اجله هذا المدفع كان هو قصف مدينة امدرمان لو ظل الخليفة داخلها وقرر أن يخوض معركته داخل شوارعها . وهذا الواجب أهله له مداه البعيد وداناته الثقيلة . فقد زودت مدفعية الهاوترز بذخــيرة اليدايت (Lyddite) لاول مرة وهي مواد متفجرة، قوة انفجارها أعلى بكثير من الذخيرة ش . ف. العادية. واذا اجتمع ثقل دانتها مع

ضغط إنفجارها العالى اصبحت مـثالية للضرب على الحصون والمباني . ومدفعية الهاوترز هى التى وجهت نيرانها من الضفة الشرقية للنيل نحو حائط امدرمـان وقبة المهدى .

المدى : ٥٨٠٠ ياردة

الوزن : ٤ طـن

وزن الدانة : ٥٠ رطلا

طريقة التحميل : يحمل على عجلات تجرها الخيول أو البغال وحملت كلها على البارجة ملك .

** ** ** **

كان ذلك حشدا هائلا للنيران . ولكن استغلاله يستلزم نقل كميات ضخمة من الذخيرة لالآف الاميال : وهنا تجلت انجازات كتشنر وكفاءته الادارية فقد تمكن من نقلها على عربات السكة حديد ثم بالبوارج .

البـــوارج

لم تكن الناحية الادارية هى أعظم انجازات اسطول كتشنر النهرى . . بل كان اثر نيرانها القتالى والتكتيكى واضحا للغاية اثناء الساعات الحاسمة فى يوم ٢ سبتمبر . فقد كان اثر البوارج المحملة بقطع المدفعية والرشاشات فى المعركة هو تقريبا نفس اثر المدفعية ذاتية الحركة « Self Proppelled » فى هذه الايام . فمدفعية البوارج كانت هى المدفعية الوحيدة التى حملت بأداة نقل تتحرك آلياوبسرعة عالية مما جعلها سريعة التدخل ، ووفر لها مرونة عالية فى حشد النيران لمجابهة أى موقف. خصوصا وقد كانت أغلب البوارج التى اشتركت فى المعركة بوارج مدرعة

ولاشك فى أنه انجاز ضخم من جانب الاسطول البريطاني ان يتمكن من ايصال قطع بحرية الى مسافة الف ميل بعيدا عن ساحل البحر ، وفى البداية أبحر اسطوله النهرى متعثرا وسط الشلالات ، ثم توصلوا الى فكرة انشاء ورشة لتجميع وتركيب قطع البوارج التى حملت على خط السكة الحديد وبذلك أمكن تفادى الشلالات ، التى أصبح عبورها شبه مستحيل خصوصا بعـد وصـول البوارج المدرعة الضخمة السريعة .

وقد انحصرت الواجبات التي قام بتنفيذها اسطول كتشنر النهري حتى نهاية المعركة في الآتي :

١ ـ انشاء مناطق حشد ومناطق ادارية في اماكن عدة آخرها وأكبرها في ود حامد استعدادا للمعركة الأخيرة الفاصلة .

٢ ـ نقل جزء رئيسي من الجيش باسلحته وذخيرته من عطبرة حتى ود حامد .

٣ ـ حمل كل ذخيرة الجيش يوميا من معسكر الى آخر اثناء التقدم النهائي لام درمـــان .

٤ ـ استكشاف مبكر للمعركة .

٥ ـ الاشتراك بمدفعية البوارج في المعركة سواء في عمليات أول سبتمبر ضد مدفعية الخليفة في الطوابي ، أو في قصف امدرمان أو ضد هجمات الخليفة يوم ٢ سبتمبر .

اذن كانت البوارج احدى ركائز كتشنر القوية ولولاها لما تمكن من حشد هذه القوة الساحقة في يوم المعركة . وقد ارتبطت البوارج النيلية بتلك الحقبة من تاريخنا ارتباطا قويا . فقد كان غردون هو اول من تنبه لفاعليتها في مهمته الأولى في السودان كحاكم للاستوائية ، وبذل مجهودا كبيرا في دراسة أحوال النهر والتيار والسدود لتساعد تلك المعلومات في تحديد المواصفات اللازمة عند تصميم البوارج الأربع التي تعاقد على صنعها في لندن .

ولم يندم غردون كثيرا على مجهوده الضخم . فالبوارج أسهمت اثناء حصار الخرطوم اسهاما فعالا في عملياته الهجومية والدفاعية . كما اعتمدت عليها حملة ولزلي اعتمادا كبيرا . وقد كان هذا الاسطول النهري الذي اشترك مع حملة انقاذ غردون عام ١٨٨٤ هو المحك الاول . وبناء على الدروس التي استخلصت من استخدامها في تقدم ستيوارت السريع نحو الخرطوم ادخلت عليها كثيرا من التعديلات والتحسينات ، خصوصا في البدالات مما اكسبها سرعة اكبر ومقدرة على مقاومة تيار النهر السريع المعاكس .

ضم اسطول كتشنر النهري عددا من البوارج من نفس الانواع التي اشتركت

فى حملة الانقاذ ، كما ضمت الطراز الحديث الذى بنى فى لندن فى اواخر التسعينات .

أما تسليح الاسطول النهرى فقد تكون من القطع الآتية :

— عشر بوارج مقاتلة سلحت بالمدفعية والرشاشات .

— خمس بوارج للنقل .

أما البوارج المقاتلة فكان تسليحها كالآتي :

البارجة المدرعة طراز ١٨٩٨ : ٢ — مدفع نوردنفلد
١ — مدفع ١٢ رطلا سريع الطلقـــات .
« ســــودان »

البارجة « ملك » } كل منها سلحت بالآتي : ١ — مدفع هاوترز ٥ بوصة
البارجة «شيخ » ٤ — رشاشات مكســيم

البارجة المدرعة طراز ١٨٩٦ : ١ — مدفع ١٢ رطلا ســريع الطلقــات
« الفاتح » كـــل منها
« الناصر » سلحت بالآتي : ٢ — مدفع ٦ ارطال
« الظافر » ٤ — رشاشات مكســيم .

البارجة طراز ٨٥ :
« طمــاى » ١ — مدفع ١٢ رطلا
« حفـــير » كل منها سلحت
« ابو طليح » بالآتي : ٢ — مدفع مكسيم نوردفيلدت
« المتمة »

تكونت أطقم البوارج من الآتي :

الطراز الحديث ٩٦—١٨٩٨	الطراز القديم
القائد — ضابط من البحرية البريطانية	القائد — ضابط من البحرية البريطانية
اثنان من المهندسين من البحرية البريطانية	اثنان من المهندسين من البحرية البريطانية
اثنان من الرقباء من البحرية البريطانية	اثنان من الرقباء من البحرية البريطانية
٢٣ مدفعجـــيا	١١ مدفعجـــيا
فصيلة مشـــاة	فصيلة مشـــاة

الحشـــد

وصلت أنباء هزيمة محمود ود أحمد الى الخليفة بام درمـــان ، وبدأ في الاستعداد للمعركة الفاصلة مع ذلك العـــدو الذى كان ينتقل من نصر الى نصر ، وهو ماض في تقدمه ، وقد بدأ من تصميمه واصراره على مد السكة الحديدية انه عدو غزا ليبقى ، وانه واصل لامدرمان لامحالة .

وقد قدر الخليفة ان تقدم العدو النهائي نحو امدرمان سيتم فى الفترة بين منتصف اغسطس واوائل اكتوبر خلال زمن ارتفاع النيل ، حتى يتمكن اسطوله النهرى من التقدم . فقد وافت الخليفة بأخباره طلائعه المتقدمة بقيادة الامير عبد الباقى الوكيل فى تقرير له بتاريخ السابع من صفر عام الف وثلاثمائة وستة عشر ورد فيه .

« الطوابي جارين اعمالها تحت فى البحر وصار الشروع فيها وهى فى المرصد الممكن لوابورات الكفرة وفى المضيق . وقد جرى الاستعداد والتحزب والتشمير التام فى المرصد المذكور والمنشور المحرر من سيد الجميع تلوناه للصحاب ولبوه بالسمع . ونحن موجهين النظر نحو اعداء الله وعملنا المراصد اللازمة . نسأل الله أن يهلكهم ويجعل كيدهم فى نحرهم اما اخبارهم حسب الوارد أنهم بجهة بربر الداخله وشندى قيل بها اورطه واحدة فقط وامس حضر واحد من اولاد المكرم محمود احمد ود مرجان كان بجهة ابي حمد ومن جملة ماقيل ان وابور البر وصل الداخلة وكافة جيوش الكفرة بجهة عطبرة والداخلة . ولهذا لزم تحريره لسيدى بقيامنا من السبلوقه وترك النقطة اللازمة لكشف خبر اعداء الله » .

وقد وجد الخليفة نفسه أمام ثلاثة مسالك لمواجهة العدو وخوض معركته الفاصلة :

الأول : اما ان يواجهه فى المنطقة بين امدرمان وعطبره .

الثاني : أو يواجهه فى امدرمان نفسها .

الثالث : أو ينسحب غربا الى كردفان ودارفور .

ولم يكن الرأى الأخير يخلو من وجاهة ، فسيترتب عليه حرمان كتشنر من مساعدة البوارج ، وجذبه الى غرب السودان بعيدا عن النيل الذى تعتمد عليه خطوط مواصلاته النهرية أو البرية ، دعك من قوة نيران البوارج .

وتلك كانت نقطة مهمة للغاية ، فحتى هذه اللحظة افلح كتشنر فى استغلال النهر لتأمين خطوط مواصلات تضمن له تدفقا مستمرا من العتاد والمؤن والذخيرة . وتقدم قواته بحذاء النيل ، كفاه شر اضخم المشاكل التى قاسى منها هكس وستيوارت . . مشكلة العطش . ولو انسحب الخليفة غربا لتجشم السردار مشقات جمة فى تدبير الجمال والحملة اللازمة لحمل المدافع والطعام والمياه وكان ذلك يعنى أن تتكرر شيكان أخرى ، وعلى نطاق اوسع .

ولكن ذلك المسلك كان يعنى عدة أشياء : اولها التضحية بامدرمان وبكل مايحمل ذلك من عواقب وحساسيات . والخليفة شأنه شأن أى عاهل آخر يمنعه كبرياؤه من ترك عاصمته لتسقط فى يد الأعداء . فالعاصمة هى الرمز الاكبر لأى دولة وسقوطها يعنى سقوط تلك الدولة رسميا . وكان ذلك يعنى أيضا سقوط قبر المهدى ، ذلك الرمز الذى اعتمد الخليفة عليه كثيرا فى توطيد حكمه ، والذى ظل شعاعا يجذب الوف المحاربين دفاعا عنه ، وعما يمثله من دعوة ومبادئ .

ولايمكن أن ننسى الصعوبات العملية الناشئة من اتخاذ ذلك المسلك أيضا : فاخلاء امدرمان يعنى التضحية بالترسانات والمصانع وتنفيذ عملية نقل ضخمة لمخازن الذخيرة والمؤن والأثاثات والعائلات .

ولم يكن من السهل على الخليفة أن يترك خلفه كل سكان عاصمته ـ بعد أن ينسحب غربا فى هجرة بعيدة ليصبحوا خامات لاتنفد فى يد استخبارات العدو ، وهم الذين عاشوا معه واطلعوا على أسرار دولته سنين طويلة .

ثم ان مبدأ الانسحاب غربا كان سلاحا ذا حدين ، فان الصعوبات التى سيواجهها كتشنر فى تقدمه سيواجه الخليفة جزءا منها فى انسحابه . ولن يكون طريق انسحابه مفروشا بالورود . فمن المحال اعاشة هذا الجيش الضخم سواء

في تحركه أو في اقامته بدار الغرب الجرداء الحالية ، لاسيما بعد تقدم الأمير محمود عبر دارفور وكردفان الذى امتص آخر مافى الديار من اياد عاملة ، وآخر حبة ذرة .

ولكن حتى ذلك الاقتراح عندما قدم الخليفة في مجلسه لم يقدم تقديما ذكيا منطقيا ، يذكر محاسنه العملية . بل قدم للخليفة بطريقة مهينة . ويقال ان يعقوب كان هو المتبنى له وصاحب الرأى الاصلى ، لكنه دفع بالأمير الزاكى عثمان . بصفته أحد الذين خبروا قتال العدو في الشمال ليقترحه على الخليفة . وقد قدم الاقتراح فى أحد مجالس الخليفة في الاسبوع الاخير من ابريل . والواضح ان المجلس كان مجلسا عائليا أو شبه عائلى . ولم يكن شأنه شأن مجالس الخليفة الرسمية ، فالنقاش الذى دار والاقتراحات والافكار التى قدمت بها لايمكن ان تناقش فى مجلس كبير يضم اشتاتا من عناصر مختلفة .

فقد قدم الزاكى اقتراحه مستندا الى قوة العدو حسب ماقدرها ، موضحا انه لاطاقة للخليفة بمقاتلته في امدرمان « ثم ان امدرمان ليست وطننا فى الاصل حتى ندافع عنها بل ننسحب منها غربا الى الابيض فاذا لحق بنا نتحرك لشاكا ونقف هناك وقفتنا الاخيرة لنموت فى ديارنا وفى تربتنا » .

ونسى الزاكى ان الخليفة لم يكن ينظر لنفسه كزعيم قبيلة لرعاية البقارة واهل الغرب فحسب ، بل هو خليفة المهدى ، والمسئول عن كل تلك البلاد وحامل لواء المهدية والمدافع عن عقيدته . لذا كان رد فعل الخليفة للاقتراح عنيفا . فقد اجاب « ألا تخجل من نفسك يارجل . . . . لقد وقف عبد الله ود سعد ببضع مئات من الرجال فى وجه جيوش محمود الجرارة ورفض الفرار والتخلى عن حلة واحدة . . . وتريد منى وتحت يدى كل جيوش المهدية أن أجبن وافر واترك امدرمان والبلاد كلها فى ايدى الكفار . . . سأحارب حتى انتصر أو يقتل جيشى كله فأجلس اذ ذاك على فروتي عند قبة المهدى واسلم امرى الى الله » وامر بوضع الزاكى فى السجن وتكبيله بقيود الحديد . ونكس جميع من فى المجلس رؤسهم

ولم يجرؤ أحد على ذكر هذا الأمر مرة أخرى (١) .

** ** ** **

والخليفة وهو يحشد قواه الداخلية للمعركة الفاصلة كان لابد له من التحرك والاتجاه نحو سياسة خارجية اكثر مرونة مبتعدا قليلا عن سياسته التقليدية المتصلبة التي اتسمت بالعزلة والعداء نحو كل الدول التي لم تؤمن بالمهدية . فلم يحاول الخليفة أبدا ــ عكس حكام افريقيين آخرين مثل منليك ــ استغلال تضارب مصالح الدول الاوربية ومطامحها الاستعمارية في افريقيا . فكل من لم يؤمن بالمهدية كان عدوا في نظره . الانجليز اعداء محاربون ، والفرنسيون أعداء متوددون .

عندما ارسل منليك ملك الحبشة خطابا للخليفة يخبره بانتصاره الساحق على الايطاليين في عدوه ومجددا عرضه بالصلح وعقد معاهدة للتعاون على الوقوف في وجه الاوربيين ، رد الخليفة بالموافقة بعد ان وضع شروطا قاسية . كانت شروط الصلح الاولى هي ان يحذو منليك حــذوه وان يمتنع عن اى صلات أو علاقات تجارية مع الاوربيين « ليس بيننا وبينهم الا الحرب » . وكان هذا بالطبع كثيرا على منليك الذي استفاد للحد الاقصى من علاقاته مع الفرنسيين في مده بالسلاح . فكان ان عاد سفير الخليفة المتجول ــ محمد عثمان خالد ــ حاملا رد منليك بالرفض ولكنه حبذ استمرار الاتصالات وتعاقب وصول السفراء المتداولين في العاصمتين ام درمان واديس ابابا . وتمت آخر زيارة للوفد الاثيوبي في ابريل ٩٨ في فترة الحشد والاستعداد .

وقد اعد الخليفة برنامجا حافلا للزياره وعين ابراهيم رمضان امين بيت المال السابق ليكون مسئولا عن راحة الضيوف . وقد قصد الخليفة ان يبهر ضيوفه بعظمة دولته . ومن اجل ذلك تراخت قوانين المهدية الدينية والاجتماعية المتصلبه لحد بعيد . فقدمت الخمور وعرقي البلح للضيوف ونظمت الترسانة احتفالا كبيرا بالالعاب النارية .

---

(١) وفي رواية شقير انه قال لمن كان عن يمين الزاكي ويساره « شيلة ام اضان » أي اصفعه على وجهه فصفعاه وبعدها وضع في السجن بعد تكبيله بالحديد . ومن الثابت ان الزاكي أمضى فتره في السجن إلى ان شفع له شيخ الدين فأفرج منه .

وعندما تمت المقابلة المقفولة اخيرا بين الخليفة والوفد الحبشي ، قدم اليه الوفد علما فرنسيا لوضعه في حدود دولته ، وبذلك تصبح دولته دولة مستقلة ، ولكنها تحت الحماية الفرنسية . فشكرهم الخليفة واخفى العلم . والمرجح انه فكر في استخدامه جديا قبل معركة كررى بعد اصرار وتشجيع شيخ الدين ولكن يعقوب عارض معارضة متصلبة فلم يستخدم العلم .

** ** ** **

عندما قرر الخليفة خوض معركته النهائية على ضفاف النيل سواء في امدرمان أو شمالها وقرر حشد كل طاقاته للقاء النهائي ، كان جزء كبير من جيشه مبعثرا في ارجاء امبراطوريته الواسعة . وخلاف حاميات الشمال التى تبدد شملها كان للخليفة ثلاثة جيوش كاملة .

١ ـ جيش الامير احمد فضيل في شرق السودان ورئاسته القضارف « ٨٠٠٠ مقاتل » .

٢ ـ جيش الامير عربي دفع الله في جنوب السودان ورئاسته الرجاف « ٤٠٠٠ مقاتل »

٣ ـ حامية الختيم موسى في كردفان ورئاسته الابيض .

وكان على الخليفة ، وهو يحشد طاقاته لمعركته المصيرية ، ان يوازن بين عدة عوامل عاقته اغلبها من حشد كل طاقاته البشرية والنارية في امدرمان واهم تلك العوامل :

١ ـ الايطاليون في الشرق يتحفزون للوثوب عليه بعد التدخل البريطاني .

٢ ـ في بحر الغزال تواترت الانباء من عربي دفع الله عن كفرة آخرين حمر الوجوه يتقدمون نحوه « البلجيكيون » .

٣ ـ في دارفور عادت القبائل الى طبيعة التمرد مرة أخرى فقد ثار الهبانية وبنو هلبة واخيرا سقطت سلطة المهدية نهائيا عندما استغل ابو كوده ضعف حامية الفاشر الصغيرة التى تركها محمود خلفه بقيادة ام بدى الرضي واستطاع هزيمته وبذلك انفصلت دارفور نهائيا .

وفى كردفان كان الكبابيش يتصلون بوضوح مع العدو ، وبدأ الحمر فى النهود فى الاغارة على الاهالى وتحدى السلطة .

واذن لم يكن الخليفة برغب اطلاقا فى مواجهة كتشنر بكل قواته والا انهارت وتمزقت اوصال دولته . فكان لابد له من ترك بعض هذه الجيوش أو كلها للمحافظة على حدوده من الغزو الخارجي ولحفظ الامن من عبث اعدائه الداخليين الذين اشتدت عزيمتهم بعد سماعهم بانباء انتصارات عدوه المتواصلة .

وعندما قرر الخليفة استدعاء احمد فضيل بأغاب جيشه من شرق السودان لحماية الضفة الشرقية للنيل لم يكن يعلم بتقدم العربان المواليه (Friendly Arabs) كما دعاهم شقير ، من رجال الجعليين والشايقية بقيادة ميجور ورثلى . ولكن غريزته ، ثم تقارير الباقي ، نبهته الى خطورة ترك جناحه الايمن مكشوفا .

فطلب من احمد فضيل ان يتحرك لامدرمان بكل جيشه . وبدأ فضيل فى تجميع كل قواته فى القضارف ، وكانت خطته فى البداية هى نقل كل جيشه الى امدرمان تدريجيا وفى وحدات صغيرة منفصلة، لصعوبة اعاشة جيش ضخم يتجاوز عدده ثمانية آلاف جندى اذا تقدم مجتمعا ، وليتجنب الاضطرابات والعدوان الخارجى الذى قد يحدث اذا تم الاخلاء الكامل لكل المنطقة مرة واحدة ، وعليه رفع التقرير فى ١٥ محرم ١٣١٦ (١٥ يونيو ١٨٩٨)

« كان حضور الهجانة يوم الخميس الموافق الحادى عشر منه وبيوم صدور الاشارة الكريمة طلبنا الاعوان الرؤوس وتليت عليهم الاشارة وافهمناهم بأن يجمعوا كافة الاخوان جهادية واولاد عرب والخروج بهم لمحل العرضه لاجل تلاوة المنشورات الكريمة عليهم وقد كان بيوم الجمعة باجتماع الاخوان المذكورين استبشروا وفرحوا بالمنشورات ومذاكرات الخير والاصلاح . ثم تأهبوا للسفر بيوم الاثنين الموافق الخامس عشر من الجارى صار قيامهم من هنا ظهرا على بركة الله . واما الاولاد الذين كانوا مع المكرم محمود احمد فعلى حسب الاشارة كان اجتماعهم واقامتهم محلا واحدا مع رؤوس ميات ربع الامداد هنا والمذكورين اختاروا لهم اثنين مقاديم كانوا فى رأسهم

في الطريق وكل مقدم منهم اخذ في تجميع وتحزيب ماهم تابعين اليه .
وبالحالة هذه لدى قيام السرية صاروا رفاقهم مع المكرم بخيت التموري
. . . . . . »

ثم بدأ في ارسال وحداته كاجزاء صغيرة ، ولكنه عاد وتنبه الى خطورة ترك القضارف خالية بدون قوات على الاطلاق ولابد من الاحتفاظ بجزء كبير من قوته لحماية الحدود والمحافظة على أمن المنطقة فكتب للخليفة برأيه هذا . ووافقه الخليفة على ترك احد ارباعه الاربعة للمحافظة على المنطقة ، وترك له حرية الاختيار في ان يجمع ربعا كاملا أو يجمع ربعا بأخذ بضع رايات من الارباع كلها . وعليه فقد كتب الخليفة لاحمد فضيل ١٧ ربيع أول (٥ اغسطس ٩٨)

« نعلمك ايها المكرم انه قد أسبقنا لك القول بأن تحضر بالارباع الثلاثة التي هي ربع فضل حسنه وربع عبد الرحيم وربع سعد الله وتؤخر عبد الله حامد بربعه في المركز وذلك حسبما بدأ لنا في المصلحة لحفظ الجهة وسد المفازات بعد حضوركم وحيث انك الشاهد وترى وجه المصلحة في ذلك فانظر فيما ذكرنا فان رأيت المصلحة في حضور الارباع الثلاثة المذكورة وتأخير المكرم عبد الله حامد بربعه فافعل وان رأيت المصلحة في حضور الارباع الاربعة معك وتعيين وكلاء معتمدين منها بحيث كل ربع يوكل له وكيلا معتمدا يقوم بحفظ الجهة وتعين وكيلا عموميا حازما مثل عمر نحاس أو خلافه على حسب ماتراه — انما القصد ان ترى مافيه وجه المصلحة والحزم والحفظ التام للجهة والنقط . »

ولحساسية الموقف شدد الخليفة على ضرورة المحافظة على النقاط الخارجية للحدود واحتلالها بالقوات . واجاب عليه احمد فضيل بأنه لم ينس هذا الأمر بخطابه بتاريخ ٨ ربيع الآخر « ٢٦ اغسطس » الذى جاء فيه :

« . . . . بعد ان تقدم الرفع بالايضاح بتأهب الجيش للقيام طبقا لاشارة الطلب الكريمة صار الاخذ في تنبيه الاخوان جماعة الربع الفاضل قيادة المكرم سعد الله عزالدين وكيل المركز وتعيين الاخوان اللازمين الكفاية منه لكل نقطة من النقط المواجهة لطرق بحر اتبره من الرؤس

الانصار اهل تمبول والسلاح وحضور من بالنقط من جماعة الارباع المسافرة وضمهم الى ارباعهم وكذا تعيين مالزم لكلا من جهتي امات، رميله، والقلعه، من الرؤس والانصار وتحبيبه لفئة الانصار العواجز الفاضلين بالمركز من كل ربع وتعيين الوكلاء اللازمين وهم اعوام الموضح اسماؤهم اعلاه وارفقوا مع المكرم سعد الله عز الدين وكيل المركز العمومي لمؤازرته وشد عضده في امر الدين وكذا تحرر للاعوان النور صلاح، وعبد القادر البشير، عمال رباطي القلابات والتومات بما اقتضى تحول الاعلام وبقيام الجيش طبقا للاشارة الكريمة ان يكونوا بجموعهم الاعوان والانصار على غاية اليقظة والتحزب والاستعداد وكشف الاحوال ورفعها اولا باول للمكرم سعد الله ويرفعها هذا لوسيلة الاسلام في كل قليل من الايام كما تقرر بذلك مع مرور الدوريات في المراكز وفي اهل النقط لغاية بحر اتبره بجميع الطرق والمجالات دون قصور اواهمال. وبعون الله تعالى بيوم الاثنين الموافق ٤ الجاري صار تقديم الثلاثة ارباع قيادات المكرمين فضل الحسنه وعبد الرحيم البرجول وعبد الله حامد دفعة واحدة ونزلوا بام قلجي والانصار التابعين لهم متحزبين تحت الرايات بالخيول والسلاح وبيوم الخميس الموافق ٧ منه قاموا من ام قلجي صباحا على بركة الله. وبعد فالامر مفوض لسيدي والسلام.»

ولم ينس الخليفة وهو يحشد القوة البشرية ان يحشد ايضا الكفاءات. فسأل عن أحد القادة الاكفاء القلائل الذين تبقوا له من جيل الاسماء العظيمة وهو النور عنقره[1] وقد كان عند ذاك مريضا ملازما للفراش بمنزله في القضارف.. طلب

---

(١) تركنا النور عنقره بعد ان لمع اسمه في حرب الزبير ولكن النور انطبق عليه القول: خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام: فلم تكن الكفاءة والبطولة التي أبرزها في المهدية باقل من كفاءته أثناء حرب الزبير.

فبعد سقوط دارفور وتمرد سليمان الزبير، انضم للحكومة ومنح لقب بك وقاد الحملة الموجه ضد السلطان هارون المطالب بعرش دارفور وقتله. وكان صديقا شخصيا لغردون كما يذكر في مذكراته. ثم حارب ضد المهدي عندما حاصر باره وبعدها استسلم وعين أميرا واشترك في أغلب حروب المهدية واشهرها، معركة أبو طليح ومعركة القلابات تحت قيادة أبو عنجة وأخيرا معركة كسلا +

الخليفة من أحمد فضيل الاحتفاظ به فى القضارف فهو خير من يستطيع المحافظة على الجبهة المتوترة فى غياب احمد فضيل . وعليه ارسل احمد فضيل خطابه بتاريخ ٢٩ ربيع أول (١٧ أغسطس ٩٨) يقول فيه :

. . . نرفع سيدى ان المكرم النور عنقره محمد منذ أيام حاصل له عيا وملازم الفراش ولايستطيع السفر الآن بالحالة التى هو عليها وكذلك صار ايصاله الاشاره الكريمة بمنزله الصادرة له بأمر الفضول مع الوكيل بالمركز لموازرته .

وأما الأحباب جعفر احمد ابو سن، وعوض الكريم عيسى زايد، كماهو مطلوب لهم من الخير بمقابلة وسيلة الاسلام ورغبتهم فى تسليم لهم الاشارات الكريمة الخاصة بهم وصاروا على حالة السفر وبذا لزم الايضاح لسـيدى . . . »

ثم أرسل مع خطابه خطابا خاصا من النور عنقره للخليفة تضمن الآتي :

« ان كريم الخطاب الرقيم ١٧ ربيع اول الجارى ورد وتشرفت به غاية الشرف وحمدت الله على ذلك ومنوها فيه بفضول عبدكم بالمركز لموازرة من يعينه المكرم احمد فضيل للمركز وبمشيئة الله سبحانه وتعالى ونفوس السيادة العظمى ورضا سيد الجميع على عبده اكون كما المظنون والمأمول فينا ولايكون لعبدكم قصور ولافتور فيما اشار به عصمة الاسلام واسأل الله ان يمتنى على رضاه فالذى يصير تعيينه بمعرفة المشار اليه سأكون له اطوع الطايع واقف معه يدا واحدة وعونا واحدا لويكون عبدا حبشيا مملوكا لاكتساب الرضا التام من لدن الخليفة وقبل هذا منذ

+ ضد الايطاليين تحت قيادة أحمد ود على وأصيب فيها بجروح كثيرة، وقد قيل كثير من الشعر القومى مدحا فى شجاعة النور .

والخليفة فى تقديره للكفاءات تغاضى كثيرا عن سلوك النور الشخصى . وكان من المعروف ان النور يحتسى الخمور علانية ويدخن . وهناك قول مشهور للخليفة عن النور عنقره ، فعندما يستشير الخليفة شخصين ويشعر من أقوالهما ان احدهما ينافقه خوفا منه والاخر يقول الصدق بغض النظر عن الاضرار المترتبة عليه يلتفت اليهما ويقول قوله المشهور : « انت بتخاف منى وما بتخاف من الله .. وانت بتخاف من الله وما بتخاف منى .. والنور عنقره لا بخاف منى .. لا بخاف من الله »

الا ان النور تعرض لشكوك الخليفة فى آخر أيام المهدية واكتفى بالاحتفاظ به بعيدا عن امدرمان . وقد عمر النور حتى بعد نهاية المهدية وتوفى عام ١٩٢٠ م .. « مذكرات النور عنقره بخط اليد — مجموعة وثائق السيد عبد الله الأمير » .

Hill P 297

ايام كان عبدكم عيان وتحسن الآن حاله ولاسيما عند ورود هذا الخطاب الكريم حصل لى استكمال الشفاء ببركته . . . »

* ** ** *

اما جيش عربي دفع الله فلم يحاول الخليفة مسه ، لانه كان بالكاد يكفى لمقاومة الغزو الغربي ، ولبعد مسافته من امدرمان . وتلفت الخليفة للمناطق الأخرى : غرب السودان والجزيرة . وقد قرر بعد تواتر الاخبار ببدء تمرد القبائل ألايستدعى وحدات كاملة كما حدث مع احمد فضيل بل يكتفى بالمتطوعين للجهاد لينضموا تحت رايات امدرمان فرادى .

أما فى الغرب فقد أمر الخليفة حاكمه الامير الختيم موسى بارسال أى فرد قادر على حمل السلاح لامدرمان والاحتفاظ فقط بالقوة الضرورية اللازمة لحفظ الأمن فى منطقته الواسعة التى اشتملت على مديريتى كردفان ودارفور . ولم يتوافر له بالطبع حشد كبير هذه المرة . اولا لأن تعبئة جيش محمود ود احمد المباد استهلكت معظم القوة البشرية التى كان من اهم مصادرها البقارة فى الشمال ، والجانكى فى الجنوب . . وثانيا لان القوة الباقية للختيم موسى كانت لاتكاد تكفى لقمع بوادر التمرد وسط عشرات القبائل على طول وعرض مئات الالوف من الاميال المربعة . وها هو ذا الختيم يبلغ الخليفة تعاون الكبابيش الواضح مع العدو حيث يقول حين كتب للخليفة فى ١٩ محرم ١٣١٦ (٩ يونيو ٩٨) :

« . . . . . أنه قد بلغنا ان المخذولين الكبابيش الذين اخذوا الجمال من البادية حضروا لجهة كجمر وقد قابلهم واحد رجل من الجعليين يسمى ولد ابو جدرى كان مكسوا له خديم ولاجل ذلك توجه لهم وقابل جموعهم فوجدهم كبابيش وشايقية وجعليين ريسهم واحد من مواليد الترك الزرق وسألوه عن الاحوال بجهة كردفان فعرفهم بما هو موجود . . . . »

ولم تكن حال دارفور بأحسن من كردفان . فهاهم بنو هلبه عادوا للاغارة على الاهالى ، وهاهم الهبانية قد اغاروا مرة اخرى على مركز النهود . وقد اضطر

الختيم للقيام برحلة تفقدية واسعة شملت كل ارجاء مقاطعته ليحقق غرضين ، قمع مظاهر التمرد التي بدأت في الانتشار من جهة ، واعتصار آخر عناصر القوة البشرية في غرب السودان . ويبدو ان رحلته لم تحقق نجاحا يذكر كما وضح هو في تقريره بتاريخ ١٧ محرم :

« انه لحال مرورنا في جهة كردفان لانجد فيها عمارة بالطريق غير حلتين حلة اولاد ابو سليمان فيها عبارة عن عشرون منزل واهلها الموجودين فيها عادمين بالكليه من عدم المعاش والثانية حلة محمد ادم البحرية بالمثل لانجد فيها زيادة عن خمسة أو ستة رجال واثقين واما مركز بارا فيه بعض ناس عادمين ومعهم محمد احمد عدله كنا عيناه لمحافظة المركز قبل قيامنا اما جهة ود حامد قد بلغنا اكيد ان عمر محمد قش قد خابر عربان الكبابيش واتحد معهم وقاصد ادخالهم في جهته وحميه بهم ويشنوا الغارات ودليلا على ذلك انه بحضورنا لمركز بارا خابرناه ليقابلنا ببارا وانتظرناه اياما لاكان يحضر لنا وان المرسولين منا حضروا لنا منه بدون افاده وبالنظر لما تبالغ لنا من المضايقه الحاصله بالمركز وخشيتنا عليه قد تركنا عمر المذكور وتوجهنا . وايضا تحرر منا الى الشامي هباني وعبد القادر رحمه ليقابلونا في الابيض للنظر ماهم عليه وعليما قيل ان الشامي هباني وعبد القادر بينهم منافسة وبعد حضورهم افيدكم بالحالة » .

ولم يكتب للختيم النجاح الا في منطقة المسيرية حيث ارسلهم واغلبهم من صغار السن أو كبارها . اما في شمال دارفور ، فقد أفلح في تجميع بضع مئات وارسلهم للخليفة وابلغه بخطابه المؤرخ آخر محرم ٢٠ يونيو ٩٨» :« ونرفع لمقامكم ان كافة الجليدات البعض منهم توجه النهود والبعض اخذهم مقدمهم ايدام ولد جوده وتوجه بهم إلى البقعة المنورة . . . . »

أما الجزيرة ، فعلى الرغم من ان الخليفة كان يعتبرها منطقة لتصدير المحاصيل والحبوب ، وليس لتصدير المقاتلين ، وحاول طيلة سنين حروبه المتصلة ان يترك بها عددا كافيا لزراعة الارض التي اعتمد على محصولها في تموين جيوشه واهالي

عاصمته، الا انه اضطر الى ضم كل السواعد التى حملت المناجل من قبل الى حمل السيوف هذه المرة .

وقد قرر الخليفة منذ هزيمة محمود ضم الضفة الشرقية للنيل الازرق وضم مسئولياتها الادارية لاكثر حكامه كفاءة . . . . الامير احمد السنى . فطلب منه ترحيل كل أهالى الضفة الشرقية الى داخل الجزيرة . أولا لتجميعهم وارسالهم لامدرمان وثانيا لوضع مانع طبيعي ، النيل الازرق ، بينهم وبين العدو الذى اصبح طريقه مكشوفا للوصول اليهم . وقد بدأ احمد السنى بنشاطه وهمته المعهودة فى تنفيذ اوامر الخليفة . ثم حرر بتاريخ ٣ ربيع أول ١٣١٦ « ٢٢ يوليو ٩٨ » خطابه التالى :

« طبقا للامر الكريم الصادر لى من سيدى بتفقدى للاهالى فى حلال الشرق التابعين راية المكرم العباس محمد بدر فتفقدناهم فوجدنا اهالى السبعة عشر حلة الموضحين بالكشف مرفوقه قطعوا من الشرق هم وعوائلهم وجميع ارزاقهم ولم يبقى منهم أحد بالشرق واقاموا بالهوى بالمحلات الموضحة بالكشف واخلوا محلاتهم الشرقية بالكلية وهذه الجهة من العيلفون لغاية الهلالية وذات الهلالية مقيمين بها أهلها للان لم يعدوا ومازلنا متفقدين جهات الشرق المذكورة اذا وجدنا أحد منهم لم يعدى نقيف على حقيقته ونجرى تعديته ونرفع امره للمسامع الكريمـــة . . . . »

الكشف المرفق طى الخطاب عاليه بأهالى الحلال الذين نزلوا برفاعة ونواحيها « ٢٣١ » : ١ — حلة بريده ٢ — حلة ابوشام ٣ — حلة الطنطب ٤ — حلة زرق ٥ — حلة كربوت ٦ — حلة غريقانه ٧ — حلة الحوا ٨ — حلة عد الحاج ٩ — حلة الهيال ١٠ — حلة العبودات ١١ — حلة تنبول ١٢ — حلة النجاضه .

وعندما اصدر الخليفة امره النهائي بترحيل اى شخص قادر على حمل السلاح حتى وكلاء جمع العيش صارفا النظر عن الاضرار الاقتصادية المترتبة على اوامره تلك ، طلب احمد السنى ابقاء اثنى عشر مساعدا فقط لمساعدته فى تأدية واجبه بخطابه بتاريخ ٢٩ ربيع اول عام ١٣١٦ (١٧ اغسطس ٩٨) — اذ جاء فيه :

« انه بعدما فرقنا الخمسة آلاف اردب جديده ومجتهدين فى نزولها ومنظور خلاصها فى مسافة قريبة . وتفقدت محلات وجود العيش فما كان من المكرم محمد الطيب البصير امس تاريخه نبه كافة الاهالى بأنه صدر اليه امر كريم من السيادة بحضور كافة المجاهدين بدون ترك أحد منهم بما فيهم متعهدين العيش ومنبه بأن السيادة نبه اليه بحضورهم سريعا وبذلك ابطئ حركة التحصيل بالكلية واني لم اريد ان اعارضه في اهالى الجزيرة انما لضرورة لزوم العيش ومصلحة الدين اليها وقتئذ اريد تخليص اثنى عشر رجل فقط الموضحين بالكشف مرفوقه هؤلاء اكتفى بهم فى عموم الجزيرة واجرى مصلحة العيش بهم ان كان يوافق يتحرر لولد البصير بتركهم لنا والا فالامر مفوض لسيدى . »

ثم تحرك السنى فى جولة اخرى تفقدية للتأكد من تنفيذ اوامره ، محررا بتاريخ ٧ ربيع آخر عام ١٣١٦ (٢٥ أغسطس) تقريره الآتي :

« فما نرفعه للمسامع الكريمة من احوال الشرق سيدى ادام الله بقاك ان الامطار بجهة الشرق قد تواتر نزولها واتسع الحريف بها والعيوش المزروعة بها صارت بليغه وتحتها المياه الكفاية وجهة الشرق البحرى من الهلالية لحد العيلفون جميع اهاليها عدو للجزيرة ولم يتأخر احدا منهم بالشرق وحلالهم جميعها صارت خالية وتفقدناها بالمرار العديدة فلم نجد بها احد ولازالوا جماعتنا مقيمين بتلك الجهة ليتفقدوا احـوالها وليعلمونا بها لنرفعها للمسامع الكريمة واما فى الهلالية وصعيد حتى الشريف يعقوب فهؤلاء مقيمين فى محلاتهم وللآن لم يعدى منهم احد للجزيرة وايضا الاخوان جماعتنا مقيمين معهم بالمراكز مثل رفاعة وابو حراز والشريف يعقوب وافهمناهم بتفقد الاحوال ويعلمونا بها لنرفعها للمسامع الكريمة والمكرم عبد الرحيم ابو دقل قد ابتدأ القطوع بمن معه من الانصار بقصاد حلة البطاحين المقابلة لرفاعة بالهوى ولغاية ثاني يوم من تاريخه مأمول تكامل قطوع الجيش الذى معه للهوى .»

واما منطقة ... فقد ارسل الخليفة لعاهله عثمان الدكيم بالامراع

واخلاء المنطقة والحضور بنفسه وكل القوة التى لديه وأجاب عثمان الدكيم بالبدء فى تنفيذ الاوامر بخطابه بتاريخ ٢٠ محرم ١٣١٦ (١٠ يونيو ٩٨) وفيه يقول : « . . . نعرض سيدى انه بعد تحرير البوستة لسيادتكم مرقومة وقيامها للسفر فى يوم تاريخ وردت لنا مكاتبة من المكرم يعقوب محمد بجمع كافة الاخوان الذين معنا والحضور بهم دفعة واحدة وعمل به بوقته ارسلنا مخاصيص لجمعهم وقريبا نحضر انشاء الله تعالى » .

** ** ** **

وقد جرت عادة الخليفة فى اهمال حشد الخيول واستجلابها من مناطق السودان المختلفة ، لانه اعتمد على رغبة الافراد الطبيعية فى ان يقاتلوا على ظهور الجياد وليسوا مشاة . وذلك الحافز الشخصى كفى الخليفة مجهود تجميع الخيول أو شرائها وترك امرها لهمة الافراد واستطاعتهم المادية فى شراء الخيول . ولكنه هذه المرة لم يكتف بذلك ، بل امر يعقوب بشراء اكبر كمية من الخيول من بيت المال . أو انتزاعها بالقوة ان لزم الأمر . وكان عدلان محمد سرور عامله فى منطقة الفونج احد الذين اصدر لهم الخليفة هذا الامر ورد عليه عدلان شاكيا من مراوغة موردى الخيول فى تسليمها بخطابه بتاريخ ٨ محرم ١٣١٦ (٢٩ مايو ٩٨) القائل :

« سبق التعريف بمقدار الاثنا عشر حصان التى تحصلنا عليها من بعد توجه الخمسين التى ارسلت وعند حضور جماعتنا الذين ارسلناهم للجبال الفوقانيه فما يأتونا به من الخيول نفيد بمقداره وبيومين من تاريخه، حضر لنا عبد من مواليدنا القدام اخذ عوايله من نساء واولاد وهرب لجهة الدينكا بالبحر الابيض اذ انه فى الاصل دينكاوى وقد عرفنا به اخواننا واولاد عمنا خاصة بما فيهم ادهم اونسه واحمد حسن وخليل الضو ومن معهم على ستة خيول من ضمن الخيل الذى عرفنا عنها ولما وصلوا البحر الابيض وافوا حضورهم احمد محمود هناك وعلى حسب ميلان قلوب الانصار على بعضها ما امكنهم النزول بالدينكا ولابعرب الجهة بل اتوا اخوانهم الانصار فما كان من احمد محمود المذكور الاوقد هجم على جماعتنا وجرى ضبط خيولهم دون وجهه حق وما امكنه ان

يسلمها لهـــم وعندما بلغنا حصول ذلك حررنا له خطـــاب وعينا له مخصوصين وبيدهم الاوامر الكريمة المنوره بحضور الخيل فمن بعد مطالعته الخطاب ماسلم الخيول بل تحيل بمقاله ان الخيول وبما فيها للسيادة غير ما يأتينى فيها امر لم اسلمها وهاهو رد خطابه طى هذا وماكان هذا منه الا بوجه التعديه فقط نخابر السيادة بأن خيرلنا وجماعتنا بطرفه لغاية الآن وان احمد محمود المذكور والاخى ادريس ولد رجب قد شغلوا افكارنا بتعدياتهم وامس حضرت لنا مخابرة جماعتنا متضررين من ادريس المذكور مورين عدم راحتهم منه بتعديه عليهم بواسطة جماعة عبد القادر محمد الخليل وخلافه وهاهى مخابرتهم طى هذا والآن منتظرين من عال الجناب صدور الاوامر الكريمة منها لاحمد محمود لتسليمنا خيولنا ولادريس ولد رجب بحفظه طرفهم وكف يد جماعته . ثم والامر الكريم الذى تحرر برسم خوجلى الحسن قد ارسل له وقتيا وكذا عبد الرحمن خوجلى قد تحرر له حسب ماتنوه وقد ارسل له وقتيا عبد الرحمن خوجلى من طرفنا بواسطة الحبيب محمد محمود حميدى اذ ان خطابه السابق ورد لنا بواسطة المذكور وبعد حضور الرد منه نفيد عنه السيادة وجزى الله الحبيب محمود محمد حميدى خيرا لازالت افعاله مرضيه ولو يوافق يحرر له امر كريم لاستجلاب خاطره زياده وفيما ابدينا الامر مفوض » .

وعندما نجح عدلان فى الحصول على الخيول المطلوبة على قلتها كتب للخليفة بتاريخ ١٩ صفر ١٣١٦ (٩ يوليو ٩٨) مانصه :

« سيدى كان سبق التعريف بمقدار الاثنا عشر حصان التى تحصلنا عليها بما فيها الستة التى اجرى مسكها احمد ولد محمود وبحمد الله الان قد حضروا جماعتنا من الجبال الفوقانيه فصارت تمة الموجود تحت اليد اربعة وعشرون حصان بخلاف التى بيدى احمد ولد محمود والجميع بيدى الاخوان الانصار جماعتنا القايمين معنا بأمر المساعده فى مصالح الدين ولازلنا بازلين الجهد بتحصيل هذا الصنف وكلما يتحصل شئ نفيد

عنه وكذا سيدى كان عرفنا بمقدار العشرة بنادق والتى تحصلنا عليها لحمية نفوسنا بها من الاعداء المنافقين بواسطة الحبيب خوجلى الحسن وبالنظر للخشية الحاصلة من الاعداء حسب المسموع قد تبصرنا ايضا على استحصال احدى عشر بندق آخر بواسطة الحبيب خوجلى المذكور جميعها رمنجطون بواقع الواحد وقية ذهب وقد صارت التتمة واحد وعشرين بما فيهم واحد ابو روحين وانشاء الله قدر مانتحصل على شئ نفيد المقام العالى وجميع هذا القدر بيد الاخوان » .

ولم ينس الخليفة فى حشده للكفاءات والرجال امر عثمان دقنة . وقد خرج عثمان دقنه بقوته سليما من معركة عطبره ولم يبذل ادني جهد فى معركة علم قبلا انها معركة خاسرة .

وبعد المعركة تشتتت رجاله فى انحاء الشرق وعاد هو الى ادارما ومكث فيها قليلا . ثم تحرك منها الى أبي دليق فالقضارف ، وهناك ارسل له الخليفة ، وعاد مرة أخرى فى رحلة طويلة لجمع رجاله وشق طريقه الى امدرمان بعد رحلة شاقة عاني فيها رجاله كثيرا من الجوع والعطش الى ان وصل الى البر الشرقى للعاصمة . ولقد اعد الخليفة استقبالا يليق بقائده الشهير ليزيل قليلا من مرارته . فأرسل احدى البوارج لتنقله من الضفة الشرقية الى امدرمان ، وتقدم الخليفة مباشرة بعد عرضه الجمعة متقدما حشود العرضة الضخمة ووقف على صهوة جواده الى ان نزل عثمان دقنه من الباخرة يتبعه رجاله فترجل الخليفة واحتضنه ومضيا سويا الى صلاة الجمعة. ووقف عثمان دقنة مباشرة خلفه اثناء الصلاة .

لم يخطب الخليفة ذلك اليوم بعد الصلاة كعادته وانما صعد عثمان الى المنبر وخطب فى الجموع خطبة ملتهبة واصفا ظروف الهزيمة فى معركة عطبره قائلا : « لاتحزنوا ان سقط الامير محمود اسيرا فى ايدى الكفره . . . صحيح انه ابن عم الخليفة . . ولكن كان الزبير بن العوام خيرا عشرين الف مرة من محمود ولكنه اسر ايضا . ولايمكن ان ننتصر دائما . بل يجب ان نتقبل الهزيمة ونحولها لنصر . . » ولقد استمرت خطبته من صلاة الظهر الى مغيب الشمس واغمى على البعض من حرارة الشمس كل هذا ودقنه يتحدث دون انقطاع .

أما الراية الثالثة التي إنضوى تحتها سكان الشمال والجزيرة في العادة ، وهي «الراية الحمراء» التي ألغيت وتمت تصفيتها اثر تمرد الخليفة محمد شريف وسجنه، فقد أحس الخليفة بأنه قد حان الحين لاعادتها لتساعد في عملية التعبئة. فأمر باعادتها في احتفال رسمي ودعا الخليفة علي ود حلو ومجلس قضاته وكبار الامراء لحضور المراسيم ثم تحدث الخليفة وذكر للحاضرين انه يرغب في اعادة « الراية الحمراء » الاصلية التي كان اميرها ود النجومي الى الخليفة محمد شريف . ووافق المجلس. وتناول الخليفة الراية من عنقريب وضعت فيه وسلمها للخليفة شريف . وناولها هذا لاحمد عبد الكريم الذى اختير وكيلا لها في مكان ود النجومي القديم والبست الراية في قناتها في احتفال كبير حضره كبار الامراء والأعيان . وبدأ أنصارها القدامى ينضوون تحتها مرة أخرى (١) .

* * *

كم بلغ الحشد النهائي للخليفة وماهو تعداد القوه التي دخل بها معركة أم درمان يوم ٢ سبتمبر ؟ أخشى ان حاولنا الاجابة عن هذا السؤال أن نجد أنفسنا أمام مغالطة تاريخية كبرى (٢) .

---

(١) لم يكن بالضبط التحقق من تاريخ هذا الاحتفال الذى تمت فيه اعادة الرايه الصفراء ، على ان علي المهدى لا يوضح التاريخ ولكن من مجرى الأحداث يتضح انه تم في عام ٩٧ . فالمصادر التي استشرتها حاولت ان تبرهن ان اعادة الراية تم عام ٩٧ بقرنها باحتفال آخر تم في نفس المناسبة وهو تزويج ابنة الخليفة « الرضيه » مطلقة ابن المهدى الأكبر محمد من شقيقة الأصغر البشرى كمحاوله لتصفية آخر مظاهر الانشقاق . ونذكر هنا ان ابن البشرى من ابنة الخليفة كان مولودا رضيعا عندما نشبت معركة كررى .

(٢) كان أول ما اثار شكوكي هو قصيدة معركة امدرمان Battle of Omdurman المشهوره التي نشرت مباشرة بعد المعركة بناء على وصف المراسلين الحربيين الذى ارسل برقيا. وقد جاء من أبيات القصيدة :

With fierce and fnenzied cry,
From many a camp and ken,
The proud Khalifa came,
With thrice ten thousands men.

وظننت في مبدأ الأمر أن وزن وقافية القصيدة حتمت على الشاعر أن يقول ثلاثين الفا Thrice ten thousands بدلا من ان يقول خمسين الفا . ولم أعر الأمر التفاتا إلى ان بدأت الاحظ ان تقدير قوات الخليفة بثلاثين الفا تظهر في أكثر من مصدر . واثبت التحقيق السريع ذلك الفارق الشاسع بين الحقيقة وبينما ظهر في تقارير المخابرات .

كل من شاهد تقدم الخليفة يوم ١ سبتمبر قدر القوه بثلاثين ألف مقاتل ، سواء من المراسلين الحربيين أم قادة الفرق وظهر ذلك التقدير فى عدة مصادر وتقارير . وفجأة اختفى ليبرز التعداد الذى قدمه كتشنر — ومن خلفه ونجت — فى تقاريره الرسمية سواء لكرومر أو للقيادة البريطانية وهو « ٥٢٠٠٠ مقاتل » وقد قبله جميع المؤرخين بدون استثناء كحقيقة بديهية .

فقد ذكر الجنرال هنتر ، قائد الفرقه المصرية ، فى تقريره الذى رفعه لرئيس الاركان بعد المعركة بأيام — وهذا التقرير لم ينشر ضمن تقرير المخابرات — ذكر فيه بالحرف الواحد : « تقدر قوة العدو الذى شاهد السردار تقدمه نحونا من مسافة ٥ أميل بثلاثين الفا »(١) .

ثم ذكر المراسل الصحفى لجريدة « الديلى تلغراف » بنيت بارلى تقديره لقوة الخليفة كالآتى : « لقد قدرت قوة العدو ، وأنا أحاول عدها بأكثر دقة ممكنة ، بثلاثين ألف مقاتل ، وربما وصلت لخمسة وثلاثين الف مقاتل (٢) » .

ولايمكن الا ان نلمح سؤ النيه ، لاحسنها ، وراء هذا الخطأ التاريخى الكبير من جانب كتشنر ونجت ، وذلك أولا : لأنه بعد معارك الشمال والتى كانت عمليات أبادة أكثر منها معارك ، وبلغت نسبة الخسائر فيها أحيانا ٨٠٪ . هاجمت الصحافة(١) كتشنر واتهمته بوحشية لامبرر لها . ويبدو أنه حاول أن يتفادى مثل ذلك الهجوم فى معركة أمدرمان ، فذكر ان عدد مقاتلى الخليفة « ٥٢٠٠٠» وبذلك قدرت نسبة خسائر الخليفة ب ٥٠٪ بدلا من ٧٠٪ أو ٧٥٪ اذا علمنا أن عدد الخسائر من قتلى وجرحى بلغ ٢٦٫٠٠٠ من صفوف الخليفة البالغة ٣٥٫٠٠٠ أو ٤٠٫٠٠٠ . ولم يتمكن هذه المرة من أخفاء عدد القتلى كما حدث فى عطبرة ، فمعركة امدرمان شهدها كل المراسلين ، وممثلى القيادات العسكرية الاوربية وكل من كان داخل زريبة السردار شاهد تطور المعركة بوضوح .

"the enemy estimated at 30,000 was seen by the Sirdar to be advancing on us from a distance of 5 miles"
Egyptini DIV CO Report Cairint 1/60/320

"Counting as carefully as I could, I estimated the enemy who were to be seen at least numbering 30,000 and perhaps 35,000"
Burleigh," Bennet, Khartoum camp aign, London, Chapman and Hall, 1899, p. 131.

ثانيا : رغبة كتشنر الطبيعية كأى قائد فى رفع شأن انجازه وانتصاره عن طريق رفع شأن العدو الذى انتصر عليه . خصوصا اذا علمنا انه بعد أن اتضحت تفاصيل المعركة وصفها كثير من المعلقين العسكريين لاسيما الالمان بأنها نزهة عسكرية .

ولكن كان ونجت وشعبة المخابرات – ومن ضمنها شقير – اذكى من أن تطفر تقديراتهم هذه الطفرة الكبيرة دون أن تعززها أسانيد تاريخية . وقد وجدوا بغيتهم فى أوراق الأمـــير يعقـــوب .

والواضح أن هـــذه الكشوفات لم تكن حـــديثة عهد « Up to date » بل هى كشوفات لحامية أم درمان قبل سنين من المعركة ، وهى بالتأكيد قبل معركة عطبره وقبل ابادة عدد كبير من هؤلاء فى المعركة . ولاشك أن الأمير يعقوب وكتبته انشغلوا بامور أعظم والعدو على الأبواب ، ففاتهم تعديل كشوفاتهم . وكل هذه الكشوفات كما سلف غير مؤرخة إطلاقا فيما عدا القلة من الاوراق ، ولاتدل ابدا على أن هذا هو حشد الخليفة فى سبتمبر ٩٨ .

ولو أخذنا الوحدات كما شوهدت حقيقة فى المعركة وقورنت بالكشف الذى قدم فى تقرير المعركة ضمن تقرير المخابرات رقم ٦٠ سنجد الفرق شاسعا . ولنا أن نقارن هنا كشوفات تقرير المخابرات الأساسى الذى اعتمد عليه معظم المؤرخين وبينهم تشرشل (١) الذى اعتبر بدوره كمرجع أخير ، وبين كشوفات الطيب ود الحسين التى قدمها لونجت قبل أربعة ايام من المعركة ، وهذه الكشوفات دقيقة ويؤيدها معظم الأحياء ممن اشتركوا فى المعركة ، فهم يذكرون أمراء الأرباع الذين شوهدوا فى المعركة . وقد تركز الخلاف أساسا حول الملازمين وقوة عثمان دقنه وجيش الكارا .

---

(١) نجد أن تقدير تشرشل دقيق وينطبق تماما مع المصادر المحلية بما فيها كشوفات الطيب الحسن عندما يصف الاشتباكات التى شاهدها بنفسه ، مثل هجوم أبراهيم الخليل أو عثمان ازرق أو الاشتباكات الرماحه ، أما هجوم الملازمين أو هجوم الراية الزرقاء فقد كان بعيدا عندما حدث ونجده ينجذب لأرقام ونجت بل يفصل الاعداد ليكمل العدد لـ (٥٢٠٠٠) .

فقد قدم تقرير المخابرات الملازمين بالكشوفات الآتية :ـ

الكشف الأول

	عدد المقاتلين	عدد الخيول	عدد البنادق
حرس عثمان شيخ الدين	٢٤٧٤	٢٧٦	١٨٠٣
ربع العريف الربيع	١٨٥٠	٢٧٠	١٢٣٦
،، ابراهيم جابر	١٤٢٠	١٩٠	٦٨٧
،، ادم اسماعيل	١٣٣٠	١٨٥	٦٥٥
،، احمد حامـــد	١١٠٠	١٥٠	٤٢٠
،، فضل بشـــاره	١٢٥٠	٨٠	٢٥٠
،، ابراهيم مالك	١٥٢٠	٢٣٠	٦٢٠
،، ابراهيم الخليل	١٦٠٠	١٣٥	٧٣٠
،، عثمان ادم	١٤٢٠	١٤٥	٥٥٠
،، جابر فضـــل	٢١٠٠	٢١٥	٧٥٠
،، عبد المجيد ابوساق	١٣٧٠	١٨٠	٧٥٠
،، مســـعود	١٣٥٠	١٤٥	٥٧٠
،، عبد الله ادم	١٩٠٠	١١٠	٩٩٠
،، رابح الحبشي	١٩٢٠	١٩٥	٦٠٠
،، الطاهر عــلى	١٧٨٠	١٥٠	٥٤٠
،، محمد ابوســعد	٧٥٠	٩٥	١٨٠
،، عيسى زكريا	١٠٥٠	٦٠٠	٤٧٠

وهذه القوه (٢٩٫٠٠٠) مقاتل وزعت فى المعركة حسب تقرير المخابرات كالآتي :

١٥٠٠٠ هجوم الملازمين بقيادة شيخ الدين (بينما قدرها الكولونيل(١) برود وود الذى اشتبك معها ب ١٠٫٠٠٠ فقط ويؤيده المؤرخ محمد عبد الرحيم الذى اشترك فى الهجوم فى صفوف الملازمين)

(١) The force attacking us was some 10,000 men and advanced on us with great rapidity ;col, Broadwood Report 1/60/320)

٨٠٠٠ هجوم عثمان أزرق

٦٠٠٠ هجوم ابراهيم الخليل (قدرها المراسلون الحربيون ب ٤٠٠٠ فقط)

أما كشــوفات الطيب الحسين والتى قدمها لونجت بدقة متناهية موضحا الأسلحة والخيول والأفراد ، وقبل ثلاثة أيام من المعركة ، تنطبق تماما مع ماذكره الأحياء عندما شاهدوا أمراء أرباع الملازمين أثناء التقدم لكررى ، وأثناء المعركة نفسها ، وهذا هو كشف الطيب الحسين :—

أفـــراد	خيـــول	
		كل الملازمين أغلبهم من السود وممثلين لمعظم القبائل وهم تحت قيادة شيخ الدين وقد قســموا لارباع .
٢٠٠٠	٧٠	حرس شيخ الدين الخاص
٣٥٠٠	٧٠	العريفى الربيــع « تعايشى »
١٢٠٠	٣٠	جابر ابو شليخات
١٠٠٠	١٠	رابح « حبشى »
٨٠٠	١٠	مســعود « حبشى »
٨٠٠	١٠	الطاهر عــلى
٨٠٠	١٠	عبد المجيد ابو ســاق
١٠٠٠	٢٠	ابراهيم مالك
٨٠٠	٢٥	عثمان ادم
٧٠٠	١٠	فضل بشــاره « تعايشى »
١١٠٠	٣٠	محمد ساغه (بدل ابراهيم الخليل الذى غضب عليه الخليفة)
٨٠٠	١٥	محمـــد ود ابو ســـعد
٨٠٠	٥	عبـــد الله ادم

ونلاحظ هنا اختلافه مع تقرير المخابرات الذى آعتمد على الأوراق القديمة

في وجود جابر ابو شليخات كقائد لربع كبير ، وهو ما أكده كل من اشترك في الهجوم من الملازمين من الأحياء بل قاد الهجوم الفعلى لفترة ما ، كما اختفت في كشوفاته اسماء امراء الارباع ، ادم اسماعيل ، وأحمد حامد ، وعيسى ذكريا وعدم وجود اسم الاخير دليل واضح على ان كشوفاته جديدة ومطابقة للواقع . فبينما قدم اسمه فى تقرير المخابرات ضمن قوة الملازمين نجد ان الطيب خدفه . فهو قد انفصل من حامية امدرمان قبل اسابيع ليدافع فى الضفة الشرقية كما اتفقت جميع المصـــادر .

كما نرى اسم ابراهيم الخليل مستبعدا فى كشوفات الطيب عن الملازمين ووضع كقائد لفرقة منفصلة « جيش الكارا » ، حسب مايعلم جميع سكان ام درمان منذ سنين وما أكده سلاطين ، وما أوضحه تقرير المخابرات مناقضا نفسه عندما قدم خسائر جيش الكارا كفرقة منفصلة .

أما تعداد جيش عثمان دقنة فدليل صارخ على المبالغة ، فالثابت قطعا من جميع المصادر الأجنبية وتقرير كتيبة الرماحة الذى اشتبك معها ان تعداده لم يزد عن ٧٠٠ مقاتل و ٥٠ بندقيه فقط . بينما نجد ان قوته فى كشف المخابرات ٣٧٠٠ رجل و ٣٦٠ بندقيه ، مع العلم أن بنادق عثمان دقنه لم تزد عن ٥٠ بندقيه وضآلة عدد البنادق هو الذى حدد واجبه أخيرا فلم يخصص له واجب هجومى . أما الـ « ٣٧٠٠ » فهى قوته الأصلية قبل معركة عطبره وقبل أن يتشتت رجاله ، وهو أعظم عدد دخل به عثمان دقنه المعارك فى تاريخه الطويل .

وبمجرد أن أصبح معلوما أن عثمان دقنه الشهير اشترك فيها سارع رجال المخابرات واضافوا كل قواته للكشف حسب كشوفات يعقوب القديمة لكل حامية الشرق. وأول اسم يقابلنا فى قوات عثمان دقنه هو ربع محمد موسى على دقنه بينما تثبت تقارير المخابرات فى تقارير لاحقه أن محمد على موسى على دقنه لم يشترك لاهو ولاربعه فى المعركة وأنه استسلم بكل ربعه بالقرب من رفاعه .

وما انطبق على الأفرادانطبق على الخيول ، فبينما أوضح ونجت ان عدد الخيول التى دخل بها الخليفة كانت « ٥٥٠٠» جواد . نجد أن تشرشل ، وهو من سلاح

الفرسان ، يذكر « كان (١) العدو ضعيفا من ناحية الفرسان ولم تزد قوة فرسانه عن ٢٠٠٠ جواد أغلبها خيول خاصة للأفراد » . وما انطبق على الملازمين والكاره وقوات عثمان دقنه انطبق على باقى الفرق ، الراية الخضراء والراية الزرقاء ، فقد ذكر تقرير المخابرات أن عدد أفراد الراية الخضراء هو ٥٠٠٠ مقاتل ، بينما قدم كشف الطيب العدد ٢٨٠٠ . ولكن سنتعامل هنا بتقرير المخابرات طالما لم يؤيد كشوفات الطيب مصدر آخر .

ولكى يكون تقديرنا أكثر دقة يجب أن نعطى وزنا لشهود العيان من قادة كتشنر الذين اشتبكوا أثناء المعركة وقاتلوا . فعلا ضد وحدات الخليفه واحدة أثر الأخرى .

الهجوم	العدد	
هجوم الملازمين	١٠٠٠٠	« تقدير الكولونيل برود وود الذى اشتبك معها ويؤيده المؤرخ محمد عبد الرحيم الذى اشترك فى القتال ضمن صفوفهم »
،، عثمان أزرق	٨٠٠٠	« تقدير تشرشل الذى ظهر بعد نشر تقرير المخابرات » .
،، جيش الكارا	٤٠٠٠	« كل المصادر ماعدا تشرشل »
،، الراية الخضرا	٤٠٠٠	« تقرير المخابرات وبالتالى كل المصادر الاوربية . يخالفهم الطيب الحسين الذى ذكر ان عددها لم يتجاوز ٢٤٠٠ » .
الراية الزرقاء	١٢٠٠٠	« تقرير جنرال كاتكر قائد الفرقة الانجليزية التى اشتبكت معها . عدا تقرير المخابرات الذى ذكر انهم كانوا ١٤٠٠٠ مقاتل »
عثمان دقنه	٧٠٠	« كل المصادر ماعدا تقرير المخابرات الذى ذكر انها ٣٧٠٠ مقاتل والطيب الحسين الذى ذكر انهم ٤٠٠ مقاتل فقط »
حرس الخليفة	١٠٠٠	« كل المصادر »
المجموع	٣٩٧٠٠	

(١) "The devirshes were weak in cavalary, and had scarcely 2000 horsemen in the field, mostly the person al retainers of vari ous Emirs"
Churchil, Winston, The River War, VOL II P.

* * *

وفى الأشهر التى سبقت المعركة برزت فى امدرمان مدرستان عسكريتان تحملان رأيين فى الإستراتيجية التى تخاض بها المعركة . مدرسة تحبذ التحرك شمالا ومواجهة العدو فى منطقة مناسبة ، وبالتحديد فى السبلوقة ، وقد مثلت هذه المدرسة وجهة نظر قبائل النيل . وتزعمها من كبار الامراء شيخ الدين وابراهيم الخليل والخليفة محمد شريف . اما المدرسة الثانية والتى مثلت وجهة نظر قبائل الغرب ومجلس الابهات بزعامة يعقوب ، فبعد تجربة الزاكى عثمان الدرامية ، قنعت بخوض المعركة فى امدرمان بعد رفض الخليفة التحرك غربا .

وعلى الرغم من ان اقوال يوسف ميخائيل يجب ان تؤخذ بحذر فهى فى أغلب الأحيان تمثل الشائعات المتداولة وسط المجالس إلا أنه ليس هناك مايمنعنا من أخذ هذه الرواية الآتية بعين الاعتبار :

«وذات يوم حضر شيخ الدين عند والده كما بلغنى من الملازمين سليمان الحبشى . حصل عتاب شديد مابينه وبين والده وقال له انا مطلع على تواريخ وكتب كثيرة واعلم جيدا ان الانجليز لهم سياسة كبيرة وامور عجيبة ولهم خبره فى امور الحرب كما ظهر لى من التواريخ والآن ظهر لى من الانجليز ماكنت أحذر منه . والحمد لله انت سمعت مايقوله لك جماعة محمود ويحضروا عندك والامر امرك . انما ليس عندكم انسان يحارب دون خصوص اولاد البلد انت واخوك يعقوب لم تتركوا لهم ناس بل قتلتوا كافة رؤوس القبائل لا أحد منهم يحارب . والعربان ليسوا أهل حرب واخوك يعقوب لايقبل النصيحة بل يقصد ضياع الملك وعجبته نفسه بكثرة العربان وبئس تدبيره يقول لى تدخل تحت طاعة النصارى هل فى دولة خالية من النصارى ؟ والله يموت هو واولاد عمه والانجليز ياخدوا تارهم منكم وانا ماشايف ليكم نصره بهذه الصنعة والامر لله ياوالدى» .

شيخ الدين يتظلم ووالده يسمع مايقوله . بعد ذلك قال الخليفة « الامر لله والكائن من الله يكون وانا سأعمل كل تدبير » وقام منه . وكان سليمان الحبشى قرب الباب كمثل عادته ويسمع كل شئ . ووجدني سليمان على باب يعقوب وعرفنى بحضور شيخ الدين وكلامه .

وبعد عشرة ايام لما الخبر وصل شيخ الدين بنزول المدافع (١) والنقطة زعل زعل شديد جدا وقام دخل بيت الامانة بنفسه واحضر ملازميته واخذ كافة السلاح الحديد والجبخانة القديمة . . . »

** ** ** **

لم يبق للخليفة الا مسلكان لمقابلة العدو بعد رد فعله العنيف على اقتراح الانسحاب غربا واخلاء امدرمان . ويبدو ان الخليفة ارهق نفسه بالتفكير فى تلك الأيام . فقد ذكر ملازموه انهم لاحظوا انه اصبح كثير الاطراق بعد الصلاة وهو ينظر بعيدا ساهما ، واقر اخيرا عقد مجلس للتشاور في الامر كعادته . والملاحظ ان للخليفة نوعين من المجالس ، مجلس شورى يضم الخلفاء ويعقوب وكبار امراء التعايشة ووكلاء الرايات الرئيسية . ومجلسا آخر يضم القضاة والعلماء . اما فى الميدان فيندمج المجلسان فى مجلس واحد ويبرز المجلس الثاني لحيز الوجود . وهو مجلس مكون من قادة التشكيلات وغالبا مايكون القصد منه استشارة سريعة ثم صرف الاوامر .

وقد انعقد مجلسه في الاسبوع الاول من مـــايو وكان هـــؤلاء بعضا ممن حـــضروه :

الخليفة عـــلى ود حـــلو
الخليفة محمد شـــريف
الامـــير يعقوب
عثمان شيخ الـــدين
عثمان دقـــنه
ابراهـــيم الخـــليل
احمد عبد الكريم (وكيل الراية الصفراء)
عبد الله ابو سوار (وكيل الراية الخضراء)
يعقوب ابو زينب
عثمان ازرق
محمد بشـــارة

---

(١) من السبلوقه

وقد بسط الخليفة امامهم آخر معلومات وصلته من طلائع الاستكشاف ، وهى ان العدو قد امضى الشهور الماضية فى التحشد فى عطبرة للتحرك عند ارتفاع النيل . وبدأ الحديث الخليفة محمد شريف قائلا : « قد اخبرني المهدى ان الترك ان تجاوزوا وادى سيدنا جنوبا فهم منصورون علينا . والواجب اذن التحرك واللحاق بهم وان كان لابد من ترك جزء من الجيش فى امدرمان فاقترح وضع احد ارباع شيخ الدين القوية تحت قيادتي والتحرك بها شمالا لاحتلال السبلوقة » .

كان اقتراح الخليفة شريف منطقيا ، ولكن طريقة تقديمه سببت امتعاضا للخليفة . فقد رد محتدا « احنا كلما نناديكم نسائلكم رأيكم تردوا علينا بالمغيبات والكشف . الكلام دا خليه ، الدين دين الله والله مخير فيه ينصره ولايخليه . »

ولكن ابراهيم الخليل وعثمان دقنه تداركا الموقف بسرعة . فبدأ ابراهيم الخليل الحديث مقدما آراء عملية وخطة كاملة لمواجهة الموقف . وتتلخص وجهة نظره فى التحرك شمالا والاشتباك مع العدو فى السبلوقه على ان تبنى طوابي على جانبى مجرى النيل الضيق تنقل اليها كل المدفعية (٥٠ مدفع) ويظل جزء من الجيش يحميها ، ويردم مجرى النيل فى الشلالات وهو ضيق نسبيا ، مع تشييد الموانع من كتل الاحجار الكبيرة فى الشلال صفوفا بعضها وراء بعض .
وقد علل ابراهيم رأيه بالآتي :

١ ـ ستكفل تلك الخطة اتقاء شر البوارج وقد رأى كل من قاتل هذا العـــدو الجديد اثرها . فان ضيق المجرى سيجعل البوارج هدفا قريبا ، كما ان الموانع ستمنعها من التحرك أو على الاقل سيستغرق قطعها زمنا طويلا ، وبطؤها أو وقوفها سيجعلها هدفا سهلا دعك من استطاعة مشاة الخليفة خوض المياه الضحلة والوصول اليها .

٢ ـ ضيق المجرى وطبيعة الجبال الوعرة العالية التى تطل مباشرة على النيل ستمكن اى قوة بالبنادق مهما كانت بسيطة ان تصبح ذات فاعلية من ذلك الموقع لشل حركة البوارج . اما الجزء الاكبر من الجيش فيصبح واجبه مجابهة كتشنر الذى يصبح أمام امرين اما ان يحاول الالتفاف حول مرتفعات

السبلوقة للتقدم نحو امدرمان ويحاول اقتحام مواقع المشاة ليتقدم نحو القوة الرئيسية وهنا تسهل مواجهته بالجيش الرئيسي وقد انفصلت عنه اهم مكوناته وهى البوارج ومدفعيتها ، واما أن يقف كتشنر فى مكانه متسمرا حول بوارجه المشلولة وليس اسهل هنا من مصادمته « الغريب ان ابراهيم الخليل لم يشاهد تلك المنطقة فى حياته وتمكنه من تقديم تلك الخطة التى اعتمدت على ادراك واستغلال رائع لطبيعة المنطقة يوضح انه كان ينقل آراء عثمان دقنه الذى اقام مدة من الزمن فى تلك المنطقة ، والملاحظ دائما ان آراء عثمان دقنة والخليل متوافقة ومكملة لبعضها بعضا مما يقوى الاحتمال بأنهما كانا ينسقانها قبل دخول المجالس » .

لقد كانت خطة الخليل خطة دفاعية صرفة وتدور حول محور جذب جيش كتشنر بعيدا عن البوارج. اذن فهو قد ترك المبادأة للعدو . ولعل هذا ما اضعف موقفه لحد بعيد . فالجميع اجتمعوا تظللهم فكرة واحدة . وهى ان النصر ظل دائما فى جانبهم منذ حروب المهدى الأولى طالما كانوا هم البادئين بالهجوم، وان الفشل الأخير فى مواجهة العدو الشمالى يعزى لانتظارهم له فى اماكنهم كما حدث فى فركة والحفير واخيرا فى زريبة محمود فى النخيلة.

وعندما تحدث عثمان دقنه ايد رأى ابراهيم الخليل . وتحدث كعادته حديثا طويلا عن تلك المنطقة وعن طبيعة حرب الانجليز . الا انه اختلف مع الخليل فى انه فضل الهجوم بدلا من اتباع سياسة دفاعية . فهو يرى بعد تحصين الموقع بالمدفعية والموانع أن يهجم كل جيش الخليفة على كتشنر فى توقيت معين تحدده نتائج طلائع الاستكشاف . وقد اصبح الاتجاه العام فى المجلس هو الموافقة على مبدأ القتال فى السبلوقة – فقد تولى الحديث ابراهيم الخليل ودقنه وعثمان ازرق : بدأ الخليل بحديثه الهادئ الرصين ، ودقنه الذى غمر المجتمعين بالحديث بلا مداراة بلكنة الهدندوة . ولكن الجدل اخذ يطول والمواضيع تتشعب والخليل وعثمان ازرق يوجهان دفة النقاش للنقطة الاصلية كلما انحرف عنها الحوار – وطال الاجتماع إلى أن تحدث أب جكه (١)مذكرا المجتمعين بنبؤة المهدى بأن جيشا

(١) أب جكه هو أحد ملازمى الخليفة وكان يسير بالقرب منه دائما كملازم شخصى . وقد إشتهر بولائه الأعمى للخليفة وبقوته البدنية الخارقه وواجبه هو مساعدة الخليفة فى الركوب والنزول من الخيل فكان يرفع الخليفة كالطفل الصغير ويضعه على ظهر جواده .

عظيما للكفار سيباد على ربي كررى .

وهنا ضاق الخليل ذرعا والتفت لمن كان قريبا منه قائلا : « كان الرأى بقى عند اب جكه احسن احنا نسكت . » ولكن المجلس انفض وقد اتخذ القرار بخوض المعركة النهائية فى السبلوقة .

وبدأ الخليفة يعمل بنشاط وهمة فى تنفيذ قرار المجلس ، وامر يعقوب بالبدء فى جمع العيش اللازم لتموين الجيش . شرع يعقوب فى شراء وتجميع الذرة من امدرمان وارسل عدة مناديب لشرائها من الجزيرة وللحصول على الجمال اللازمة لترحيل مؤونة الجيش .

وتجربة الخليفة فى موقعة عطبرة جعلته يميل للأخذ برأى عثمان دقنه . وهو التحرك والهجوم عند اقتراب العدو ووصوله السبلوقه وليس احتلالها قبله . فقد ادرك الضنك الذى سيقاسى منه جيشه الضخم فى تلك المنطقة الجرداء اذا تحرك وعسكر بها شهورا طويلة . وقد ادرك الخليفة ان مثل تلك المعركة سيحددها تحرك وتوقيت مضبوط مبنى على تحرك العدو . وذلك يستلزم توافر عنصر استطلاع وانذار ومخابرات قوية تتمكن من ارسال تقارير وانذار مبكر عن ذلك التحرك . فعين احد كبار قادته الامير يونس الدكيم لاقامة مركز إستطلاع على طريق الدبة وفى اواخر مايو أنشأ الامير يونس مركزه المتقدم فى آبار جبره على الطريق الصحراوى بين الدبة والمتمة . ولعل هذا يوضح ضعف استخبارات الخليفة فى ذلك الحين . فقد كان يظن حتى فى ذلك الزمن المتأخر ان العدو سيتقدم بمحورين كما فعلت بعثة الانقاذ ، هما : طريق النيل ، وطريق صحراوى يخترق صحراء بيوضه من الدبة للمتمة .

لقد كانت فكرة الدفاع فى السبلوقة فكرة عملية وهى فى الأصل فكرة قديمة تعود الى ايام تقدم محمود الى الشمال . والدفاع فى السبلوقة ، كما ذكر الخليل ،

يشطر بضربة واحدة نصف نيران كتشنر ويبعد البوارج وهى الجزء الوحيد المتحرك بآلات تمكنه من التدخل السريع ، كما كانت الضمان الأخير لخط رجعة

كتشنر — فالبوارج تمثل خط الحملة الرئيسي الذى يضمن لكتشنر انفصالا من عدوه لو قرر الانسحاب والعودة شمالا . وطبيعة المنطقة الجبلية الوعرة التى تحيط بالشلالات تخدم غرضين لقوات الخليفة فهى تقلل لحد بعيد من نيران كتشنر كمدافع ، وتقوى موقف المهاجم امام تلك النيران وتمكن من يحتلها من السيطرة بمجهود بسيط على المنطقة ، كما تمكنه من سد النهر — شريان مواصلات كتشنر الى الابد ، وتجعل السردار فى موقف عصيب ، فتقدمه يكون مشلولا وهجومه فى منطقة النيل بين سلاسل الجبال لن يمكن قوته من خوض المعركة كقطعة واحدة واتخاذ التشكيل المناسب لها . وكل ذلك من شأنه أن يسهل التعامل معها وهى فاقدة لقوة صدمتها ونيرانها .

كما ان الاحتفاظ بجزء كبير من الجيش فى تلك الجبال يجعل السردار يدفع ثمنا غاليا سواء قرر الدفاع أو الهجوم أو الالتفاف حول الجبال متقدما نحو امدرمان ، فخلاف حرمانه من مواصلاته النهرية ، فلن يمكنه أيضاً التقدم جنوبا وترك قوة كبيرة للعدو خلفه لتهدد خطوطه الخلفية .

صحيح ان جيوش المهدية لم تسجل فى تاريخها نجاحا وهى مدافعة ، عدا إنتصار الزاكى فى القلابات ، ولكن كان ذاك عدوا مختلفا فى نوعه وتسليحه عن هذا العدو الجديد. فقلة النيران وضعف المدفعية جعلت جيوش المهدية من الناحية الدفاعية فى غاية الضعف تكتيكيا . واعتمادها على السلاح الابيض وعلى التفوق العددى والحماس وخفة الحركة جعلتها دائما قوة هجومية مثالية فى مثل تلك المنطقة اذا تم تجميد نيران العدو . ولكن الخليفة لم يحبذ احتلال السبلوقة مباشرة فى ذلك الوقت المبكر بكل جيشه بل قرر إحتلالها بجزء بسيط منه . على ان يكون الجزء الاكبر من جيشه مهيأ للانقضاض على العدو سواء قرر هذا العدو ان يتقدم بمحاذاة النيل الضيق أو يتقدم ملتفا الى جهة الغرب مبتعدا عن شريانه الرئيسى النيل .

وقد ادرك الخليفة ومستشاروه ان من يحتل السبلوقة اولا يستطيع التحكم فى النهر وعليه قرر اتخاذ عدة خطوات بالترتيب الزمنى الآتى :

أولا احتلال شلالات السبلوقة بجزء صغير من جيشه لحرمان العدو من

استغلالها بالنسبة لمواصلاته ، ولاستغلال مميزات السبلوقة الطبيعية الى اقصى حد ، اما ادني حد فهو بالطبع تحييد اثر الاسطول .

ثانيا : نقل كل مدفعيته للسبلوقة لتكون تحت حراسة المشاة الذين سبقوها وفي معاونتهم ايضا .

ثالثا : الجزء الاكبر من جيشه والذى كان لايزال في فترة التجمع يكون مهيأ للانقضاض على العدو بعد انذار مبكر ، سواء قرر هذا العدو ان يتقدم عبر المضيق أو يتقدم ملتفا التفافة واسعة الى جهة الغرب مبتعدا عن النهر . ولتنفيذ هذا الطور الأخير من مناورته الضخمة كان الخليفه يعتمد اولا واخيرا على تقارير دقيقة من عناصر المخابرات .

** ** ** **

يندفع نهر النيل لالآف الأميال شمالا في انطلاقته المسترخية لايقف امامه عائق الى ان يصطدم فجأة بسلسلة جبال تقف حائلا منيعا في طريقه ، سلسلة جبال السبلوقة . وهي صخور بركانية ترتفع احيانا لأكثر من اربعمائة قدم تضغط على الجانب الغربي للنيل لامتداد اكثر من سبعة أميال شمالا ، ولاكثر من تسعة اميال غربا . فيحاول ان ينعطف شرقا لتفاديها ليصطدم بصخور سلسلة جبال العقبة التى تمتد لاكثر من عشرة اميال لجهة الشمال وثلاثة اميال لجهة الشرق . فيلملم النهر المنطلق نفسه راضيا بالامر الواقع ومجراه الضيق ويندفع للأمام ، ليجد المجرى نفسه مسدودا بمجموعة من الجزر اكبرها جزيرة مسكيت .

تحف تلك الجبال بمجرى النيل ويتراوح بعدها عنه بين خمس ياردات ومائتين وخمسين ياردة . ومن النظرة الأولى لتلك الهيئة الطبيعية الضخمة يكشف المرء أي مانع دفاعي يمكن استغلاله اذا اعتبر النيل منطقة « حيويه » للمدافع .

وقد استدعى الأمير يعقوب يوسف منصور المسئول عن إستحكامات المدفعية الذى اشتهر بالكفاءة الهندسية »[1] واوضح له ضرورة تشييد الدفاعات على

(١) ذكر لى الشيخ ابراهيم الحجاز أحد كبار السن فى المنطقة وكان لا يزال صبيا عندما وصل يوسف منصور وهو « رجل احمر الوجه كث اللحية » وكانوا هم يخدمونه . ذكر ان يوسف بدأ فى صنع جنزير ضخم ليربط بين الشاطئين ضمن خطة وضع الموانع فى مجرى النيل .

السبلوقة لتمكين نيران المدفعية والبنادق من التصدى للبوارج .

وبدأ يوسف منصور فى الاستعداد للتحرك فخصص له يعقوب مائتين من الملازمين لاتمام عملية البناء . وقدم يوسف ليعقوب (١) رسما توضيحيا للطوابي . على أن يكون نصف قطر كل طابية أربعين ياردة ، وسمك الحائط عشرا ، وبكل طابية ثلاث فتحات لاطلاق المدافع ، لتتمكن من استيعاب ثلاثة مدافع وفصيلة من حملة البنادق . وافق يعقوب على التصميم وبعدها تحرك يوسف فى الخامس عشر من ابريل لاتمام عملية البناء . وبينما كان يوسف منصور يجمع معداته اللازمة ويقلب التصميمات المناسبة لدفاعات السبلوقة ، تحركت قوة من المشاة (٢) لاحتلال موقع السبلوقه على ان يلحق بها قائد المنطقة الشمالية التى وضعت تحت قيادته .

* * * *

وبعد ان أفاق الخليفة من صدمة هزيمة عطبرة تنبه الى ضرورة السيطرة على الأرض الحرام التى فصلت بينه وبين عدوه . واستنادا الى اعتقاده الخاطئ بتقدم جيش آخر عن طريق الصحراء بعث بالأمير يونس الدكيم كما رأينا فى أواخر مايو لينشئ نقطة قوية فى آبار جبره على الطريق الصحراوى لمده بأخبار العدو ولمراقبة اهالى صحراء بيوضه :

اما عن محور التقدم الرئيسى للعدو بمحاذاة النيل فقد عين له الامير عبد الباقى عبدالوكيل قائدا لكل المنطقة من امدرمان شمالا . ووضع تحت تصرفه ثلاثمائة فارس سلحوا بالبنادق . وكان واجبه الرئيسى هو ارسال تقارير يومية عن العدو ، وتسلم اوامر صريحة بعدم الاشتباك مع العدو وبالانسحاب جنوبا كلما تقدم . وقد قسم الامير عبد الباقي قوته الى ثلاثة اقسام .

١ — القسم الاكبر احتفظ به فى رئاسته لمواجهة كافة الاحتمالات .

٢ — القسم الثاني يتكون من مائة فارس للعمل فى المقدمة للاتصال مع العدو

---

(٢) عثر على رسومات يوسف ضمن أوراق الأمير يعقوب . ولم اتمكن من العثور عليها ضمن اوراقه المحفوظة بدار الوثائق والوصف المذكور اعلاه أخذته من بقايا الطوابى التى لا زالت آثارها باقية حتى الآن فى السبلوقة .

(٢) لم يمكن العثور على حجم هذه القوى بالضبط ولكن اشارة الامير عبد الباقى اليها بقوله « وقد جمعنا أمراء الا رباع والرايات » توضح انها لا تقل عن الفى جندى .

وجمع الاخبار عنه أو لارسال الاطواف المحاربة للاغارة أو للحصول على الاسرى لاستجوابهم .

٣ ـ اما القسم الثالث فقد كان عنصر مواصلات للخلف لاغير . وتكون من حوالى عشرين فارسا فى محطات بريد تستبدل فيها الجياد المنهكة بأخرى نشطة لايصال المعلومات للخليفة وليعقوب فى امدرمان .

وقد استطاع الامير عبد الباقى تنظيم قواته لتؤدى واجبها بكفاءة وسرعة . ففرسانه المتقدمون يبعثون له المعلومات الشفهية من الامام ليمحصها ، أو يرسلون له الاسرى ، وعلى ضوء استجوابهم يحرر تقريره اليومى ويرسله لام درمان مشفوعا فى بعض الاحيان ببعض الاسرى اذا استصوب استجواب الخليفة أو يعقوب لهم .

ولم ينس الامير عبد الباقى وهو فى طريقه لرئاسته « بوادى بشاره » ان يتوقف وقفة قصيرة ليباشر واجبه الثانوى كقائد لكل قوات المنطقة الشمالية . فبدأ فى تفقد قوات السبلوقة ، ولم ير غبارا فى نشاط يوسف منصور ودأبه السريع فى عملية البناء . الا ان ما أثار ضيقه هو قوة المشاة . وقد مكث هؤلاء مدة طويلة فى منطقة السبلوقة القاحلة وذاقوا الامرين فى تصيد الطعام فتركوا قوة رمزية هناك للمراقبة ومساعدة يوسف منصور ورحلوا الى نفيسه حيث توافرت سبل العيش . وقد هال عبد الباقى عدم الانضباط ومخالفة الاوامر الصريحة . فجمع امراء الارباع ووبخهم وامرهم بالعودة فورا لاحتلال السبلوقة حسب الاوامر — ولكن هؤلاء ردوا عليه بتقديم عريضة للخليفة رأسا فى امدرمان فأرسل عبد الباقى العريضة بتاريخ ٩ محرم ١٣١٦ (٣٠ مايو ٩٨) مع خطاب يوضح فيه سير الامور . ويطلب من الخليفة ارسال توجيه شخصى لامراء الرايات للامتثال لاوامره وقد ورد فى خطابه :

« أبدى الى المقـام الكريم وتعلم سيدى ان هـذه البوغاز معلوم فانه محصن بالرجال الكفاية وبه ارباع معتمدة من القبائل ومستعدة بخيولها ورجالها وانهم قايمين فيه بحسبما اقتضت اليه المصلحة وحيث عند قيامنا من البقعة ووصلنا بمركز الجيش والتفقد الى الاحوال فوجدنا الرايات خالية من الانصار ولم يفضل منهم الا اليسير من القدر ولذلك قد جمعنا امراء الارباع والرايات وتذاكرنا معهم وتكلمنا فى الاسباب الذى اوجبت لغياب الانصار وعدم اقامتهم فى البغاز فلم

نرى منهم اجابة سديدة واخيرا قد اتضح لنا منهم ان نيتهم صارت مصروفة من هنا وتعلقت بالدخول الى جهة نفيسه هم ومامعهم من الانصار الباقين تحت راياتهم فلم نوافقهم الى ذلك الى ان صدرت لنا الاشارة الكريمة من سيد الجميع فاحضرناهم وافهمناهم بما صدرت به الاشارة ولما تراءى لنا من عدم موافقتهم الى مارغبوه من الدخول الى جهة نفيسه بدون اشاره كريمة فيوم تاريخه اجتمعوا واحضروا لنا هذه المكاتبة طيه الواصلة الى سيد الجميع . وحيث قد علم لنا من المكاتبه المذكوره ماهم منطوين عليه وكون لايمكن السكوت على هذه الحاله مع خلو الرايات من الانصار وقد طلب منهم كشوفه بمقدار الانصار الموجوده والخيول وارسل لسيدى يعقوب للاطلاع عليه . تعلم سيدى مما اوضحناه نؤمل مع الموافقة تحرير مذاكره الى الامراء الاصحاب بزيادة الهمة في الدين وجمع ناسهم والاستعداد في المحل الذى توافق عليه الاشارة الكريمة . »

وقرر عبد الباقي الانتظار بالسبلوقة مدة من الزمن الى أن يصل رد الخليفة بحسم الموضوع قبل أن يتحرك لوادى بشاره . وبدأ في ارسال اطواف الاستكشاف للشمال من السبلوقة . وعندما عادت طلائع الاستكشاف ارسل المعلومات التى تحصلت عليها للخليفة بتقريره المؤرخ ١٦ من محرم ١٣١٦ (٦ يونيو ١٨٩٨)

« أما عن حركات اعداء الله ففى هذه الايام لم نرى لهم حركة وانهم من جهة الغرب خالين ماعندهم فيها نقطة لغاية المتمة لامن كفره ولامن الاهالى كما اتضح لنا ذلك عند كشف الاخبار الا انه حركتهم من جهة المغاوير ولغاية قبالة بربر واما الشرق فعملوا لهم نقطة بجهة شندى وشارعين فى بناها واما كامل جيشهم المخذول واستعداده الآن هو بالداخله وقد بلغنا ان المكرم محمود احمد احضروه بالداخله المذكوره واما ان سألتم سيدى من احوال الشرق فان اهاليه متصلين مع أعداء الله ومما ذكرناه فانا نوجه فكرنا الى حركتهم وربما هذه السكته تكون مكيده ومتى تلاحظ لنا شئ منهم اول باول نرفعه الى سيد الجميع . . . . »

ولكنه عاد وخشى مغبة انتظاره كل ذلك الزمن فى السبلوقة متجاهلا واجبه الرئيسى . فتحرك لرئاسته فى وادى بشاره ليشرف بنفسه على عمليات الاستكشاف وقد قرر أن يصبح اكثر عداء وايجابية فى عملياته . فقد كتب للخليفة فى تقريره

المؤرخ ٢١ محرم ١٣١٦ (٦ يونيو ٩٨)

« ثم ارفع الى المسامع الكريمة على حسبما هو مشاع ان اعداء الله قد تجمعوا وحضروا بجهة الحوش وشندى وكونه من الضرورى الوقوف على حقيقة هذا الخبر فلدى وصولنا ندبنا المكرم حماد رقيعات وعينا معه مائة حصان من الخيل الموجوده وعليها من الاصحاب الصادقين وتقدم عليها واحد من الاخوان اهل الهمة ، خيل كنانه عليها عمر ولد مصون ، وخيل دغيم عليها على ولد ابو شمه وخيل الحمر التليب العريض وخيل بنى هلبه محمد حامد وخيل ابو الخليل عليها احمد محمد والجميع ذكرناهم بالحزم والامتثال للمكرم حماد رقيعات وصار قطوعهم بالشرق بعد أن زودناهم مع الاصحاب بالفاتحة والدعوة الصالحة وتوجهوا منا على بركة الله بيوم الثلاثاء وبيوم الاربعاء نص النهار شنوا الغاره على الحوش فلم يجدوا فيه شئ ومنه شنوا الغاره على شندى فلم يجدوا فيها سوى نقطة اهل الوابور وهجمت الخيل على النقطة الى ان ضربوا فيهم بالسلاح ووجدوا احد اولاد عم المخذول عبد الله ولد سعد ومعه نفر آخر من الجعليين مساعدين لاهل الوابور فى بناء الطوابي فصادف الخيل عند هجومها على حلة شندى ونقطة المخذولين فقتلتهم واعداء الله انحازوا على الوابور ودخلوا فيه وتوسطوا لجة البحر وجالت الاصحاب بخيلها فى حلة شندى ميمنة وميسرة فلم تجد شئ فعند ذاك نزلوا بالحلة المذكورة واخذوا راحتهم لغاية العصر قاموا منها وعند رجوعهم ووصولهم بالحوش وجدوا واحد شخص يسمى على ولد سريره خرج من البقعة وقاصد جهة الاعداء فقبضوا عليه وحضرت الاصحاب يوم تاريخه لم يصبهم شئ بل ادخلوا الرعبة فى اعداء الله وكشفوا حقيقة الجهة واحضروا راس ابن عم المخذول عبد الله ولد سعد ورفيقه الذى وجدوهم بنقطة شندى والرباطابي الذى كان متوجه لجهة الاعداء ولدى وصوله طرفنا وكونه من المرتدين اهل الفساد صار قطع راسه وتطهير الارض منه وحيث قد اتضح سيدى ان اعداء الله ليس لهم حركة بالبر الشرقى لغاية شندى ماعدا نقطة الوابور وكذلك بالقرب لغاية المتمة عدا ان حركة وابوراتهم تدل على مكرهم وخداعهم وان كل يوم مره بالجزاير لغاية ام جركى وسلامته وحجر العسل لحرق القشوش وتنظيف بطن الجزاير من البيوت والمسموع انهم يرحلوا جيوشهم بداخل الجزاير المذكوره

بحاله خفية لانتهازهم فرصة البغاز والوصول اليه كون بالهم صار مصروف نحوه وفي يومين تاريخه حضر واحد جهادي من ضمن الجهادية المأسورين التابعين ربع المكرم محمد الزاكي عرف بأنه كان وجهده مع المكرم محمود احمد لغايتما وصلوا جهة اسنا ومن هناك رجع مع المخذولين وترك المكرم محمد احمد في محله » .

ولكن ركود العدو لم يستمر طويلا . فسرعان مادب النشاط في اوصاله ، وبدأت طلائعه في الظهور . فقد ابلغت مصادر مخابرات عبد الباقي ان السردار نفسه تقدم من بربر على رأس اربع بواخر للاستكشاف ولقياس صلاحية النيل لابحار اسطوله وهنا سطر عبدالباقي تقريره المؤرخ اول صفر ١٣١٦ (٢١ يونيو ٩٨) : وقد ورد فيه الآتي :

« ثم اعلم سيدي ان اعــداء الله لازال احــوالهم حسبما هو سابق رفعه انهم بجهات الداخله ولكن مجتهدين في عمليات اســتعدادهم وشــارعين في الترحيلات شئ في شئ بجهة شندي وان هذه السكته منهم ماهي الا مكايد وحيل قاتلهم الله ويومين تاريخه حضر واحد شايقي من ربع المكرم الشهيد العطا أصول كان اسر بواقعة الطويل في الحوش ولغاية ماوصل دنقلا واخيرا حضر بربر ومنها الى هنا فالمذكور عرف ان عدو الله عنتر (١) حضر بجهة شندي ومعه اربعة بابورات رست فيها وشارعين في نظافتها وفي المتمة وانهم عينوا الف وخمسمائة جمل من الاهالي بقصد ان تهجم على جهات ام ضبان وحواليها وتأخذ مابها من الاموال ـ وكذلك حضر واحد من الجعليين باولاده وعرف كمقالة الشايقي ، وسيرسل المذكورين خلف هذه البوستة اما وابورهم المستعد طليعه لكشف اخبار البحر شرق وغرب وقياس فلازال متواتره حضوره لغايه مشرع وادي بشارة ونحن لازلنا واقفين في كشف احوالهم . »

وفي الأسبوع الاول من صفر وصل خطاب الخليفة مستجيبا للعريضة المطلبية التي تقدم بها امراء حامية السبلوقه حيث وافق على سحب الجزء الاعظم من قوة المشاه لنفيسه وابقاء القوة التي تكفي فقط لاتمام عملية البناء . واضطر عبد الباقي للعودة جنوبا من رئاسته للسبلوقه لتنظيم نقل القوة لنفيسه ، وكله إستياء ، لعدم استجابة الخليفة لمطلبه أوضحه في تقريره الجــاف بتاريخ ٧ من صفر ١٣١٦ « ثم

(١) يقصد بعنتر السردار كتشنر .

اعلم سيدى على حسب الامر الكريم الصادر الى عبدكم الحقير بترحيل الجيش الذى ببغاز السبلوكه لجهة نفيسة بناء على ماعرض منا شرحا تقدم لنا من الاصحاب بالنظر لما رأوه من المصلحة فى الدين فى هـــذه الجهة من نحو اتساع الاعـــمال والمساعدة لهم فى جمع الانصار والتحزب تحت الرايات واعمال المراصد اللازمة والطوابي المستعدة لاغاظة اعداء الله قد صار قيام الجيش بغاية الحزم وتم وصولنا بجهة نفيسه وتركنا ستين حصان تحت قيادة المكرم المد الغالى بجهة السبلوكه لكشف الاخبار ورفعها لنا اول بأول وعملنا تلك النقطة بعد ان تشاورنا مع الاخوان واتفقوا على تعيينها من الخيل وبعد ان وصلنا نفيسه صار نزولنا فوق الحله .»

اما عملية البناء فقد استمرت بهمة حسب تقرير عبد الباقي المحرر بتاريخ ٨ من صفر ١٣١٦ (٢٨ يونيو ٩٨) :

« والطوابي جارى عملها تحت فى البحر وصار الشروع فيها وهى فى المرصد الممكن لوابورات الكفره وفي المضيق وقد جرى الاستعداد والتحزب والتشمير التام فى المرصد المذكور والمنشور المحرر من سيد الجميع تلوناه للصحاب فاجابوا بالسمع والطاعة ونحن موجهين الانظار لاعداء الله وعملنا المراصد اللازمة . »

وقد بعث يعقوب قائد المدفعية الامير سيد جمعه تصحبه بطاريتان لتنظيم وضع المدافع من جهة وللتفتيش على الطوابي من جهة أخرى واعطاء تقرير عنها .

وفجأة ، بعد ان انتهى التشييد والانجاز الضخم ، وبعد ان فتشها سيد جمعه وعاد لاحضار بقية مدافعه فى الاسبوع الاول من يونيو امر الخليفة باخلاء موقع السبلوقه واعادة المقدمة التى احتلتها . وقد تفاوتت الاقوال فى الاسباب التى دفعت الخليفة لاتخاذ ذلك القرار :

فقد شهدت امدرمان نشاطا متزايدا من مخابرات ونجت وعملائه مع اقتراب كتشنر . وكما ذكر بابكر بدرى لم يخلو مجلس تلك الايام من قصص شخص ضبطت معه اوراق أو خصص له مرتب من قبل ونجت .

وعلم ونجت بنية الخليفة بنقل مدفعيته إلى السبلوكه والدفاع عنها فأوعز الى عملائه ان يعرقلوا تنفيذ هذه الفكرة ما استطاعوا الى ذلك سبيلا . وعندما عقد

الخليفة مجلس القضاة للاستشارة الأخيرة في الامر كان عدد لايستهان به من القضاة انفسهم من « اصحاب المرتبات » . وكانوا قبلا يعلمون بنية الخليفة وحاولوا حتى قبل استشارتهم الرسمية بواسطة الخليفة تسفيه هذا الرأى فى احاديثهم الخاصة مع امراء الجيش . بدأ الخليفة مجلسه بعد ان تفرس فيهم جيدا وذكر انه تحت يده فى الوقت الحالى ٣٥ مدفع جبلى و ١٠ مدافع متراليوز و ٥ كروب وقد قرر وضعها فى السبلوكة فما رأيهم . واول من تحدث كان الشيخ (٢) النذير خالد واندفع قائلا : « كانت تلك المدافع فى يد الترك واخذناها بالسيف والرمح . وقد قال المهدى « ستقتل هذه الجرده ، ونعود نصلى الجمعة بالجامع » فقال الخليفة « من منكم سمع هذا الحديث من المهدى » فسكتوا جميعا فأدرك عدم موافقتنا وصرف المجلس .

وكان تأثر الخليفة بآراء مجلس شوراه من القضاة واضحا للدرجة التى جعلته يرسل من يسألون سرا فى امدرمان ليتحقق ممن سمع هذه النبؤة . . . . نبؤة ابادة الاعداء فى كررى ، من فم المهدى . والواضح ان رسله اجروا استطلاعا واسعا كما ذكر الشيخ بابكر بدرى « جدت فكرة فى تلك الايام وهى ان المهدى قال ان الترك يقتلوا فى كررى وصار الخليفة يسأل باحثا عمن سمعوها من المهدى ليستأنس وقد جاءنا من سألنا عنها فاجبناه سلبا » .

وهذا يوضح ان الخليفة يبحث كالعادة لتبرير قرار رأى من قبل اتخاذه . فان الاسباب الرئيسية التى جعلت الخليفة يتخلى عن السبلوقة تتركز فى الآتى :

١ ــ الصعوبات الادارية التى تكتنف ترحيل واعاشة مثل هذا الجيش الضخم وقد رأى قبلا المشاق التى واجهها محمود . وازدادت تلك الفكرة انطباعا فى ذهنه بعد وصول عريضة حامية السبلوقة التى قاست على قلتها من شظف العيش هناك ، وهى تلك القوة البسيطة ، فكيف حال جيشه الضخم ، واين امكانات جر المدافع وحمل المؤن والذخائر .

---

(٢) روى هذه القصة الشيخ النذير خالد للمؤرخ محمد عبد الرحيم ــ مجلد المهدية الرابع ــ الأستاذ محمد عبد الرحيم ص ٧٣ .

٢ — كرهه لمغادرة عاصمته شمالا . فمن الثابت ان اقصى مكان وصله الخليفة شمالا فى حياته هو هجرة ود البصير ثم زار كررى ثلاث مرات لاستقبال قادته . ومن ثم اذا تحرك شمالا فهو سيقاتل فى أرض لايعرف طبيعتها ولم يرها فى حياته . وهذا شعور طبيعي وغريزى عند القادة ؛ فمن منا لايفضل القتال فى ارض شاهدها وخبرها ؟ .

ولو اضطر الخليفة للتحرك شمالا فسيوكل امر القيادة العامة لاحد قادته . ولو اعتبرنا رغبته فى ان يقود هذه المعركة بنفسه ، فمنطقة امدرمان هى انسب منطقة شمالا لمواجهة الجيش الفاتح .

هذا ويجدر ان نتذكر أن الخليفة لابد أن تكون قد اثرت فيه نتيجة معركة عطبره التى أخذت مكانها شمالا بالاضافة الى مالابسها من ظروف واحداث اليمة . وقد تأكد له من قبل ان كل سكان المناطق الشمالية اعداء لايركن إليهم — ان لم يكونوا اعداء ظاهرين مثل عبد الله ود سعد، فهم اعداء مستترون لايطمئن على اسرار جيشه منهم . لذلك قرر أن يركز جهده فى معركة فى منطقة امدرمان، وعلى هذا الاساس شرع فى تجهيز دفاعاته . ويمكننا أن نلمح اصابع يعقوب فى هذا القرار ؛ فقد انتصر رأيه اخيرا .

** ** ** **

صدر امر الخليفة ببناء الطوابي والتحصينات وتشييد مواقع منيعة للمدفعية فى امدرمان وكانت وجهة نظره تتلخص فى توجيه الجزء الاكبر من نيران المدفعية لاسكات واغراق البوارج النيلية وخصص احد الأرباع من الملازمين المكون من اثنا الف مسلحين بالبنادق لحماية بطاريات المدفعية على النيل وتكثيف نيرانها . وقد كانت فكرته الاولى وضعها كلها فى الضفة الغربية لسهولة حمايتها بواسطة الجيش وخوفا من اضاعتها وانعزالها لو وضع جزء منها فى الضفة الشرقية بعيدا عن القوة الرئيسية، ولكنه بعد ان استمع لوجهة النظر السليمة التى قدمها المدفعجية المصريون — فهم خير من يعلم المدى المؤثر لمدافعهم والذى لايتجاوز سبعمائة ياردة رأى أنه ينبغى الحرص على هذا المدى بوضعها على الضفتين حتى لاتتمكن بوارج

العدو من الانحياز للشاطى الشرقى وتصبح خارج مدى مدفعية الضفة الغربية ، وقد أيد ابراهيم الخليل وجهة نظرهم هذه ووافق عليها الخليفة .

وعليه اصدر اوامره ببناء الطوابي وتوزيع المدفعية فى الضفة الشرقية والغربية وجزيرة توتي والمقرن على ان تخصص ثلث المدفعية لأرض المعركة لتغطية تحركات ومناورة جيشه اذا كان مهاجما ، أو القصف البعيد لقوات العدو المتقدمة اذا كان مدافعا .

وعلى ذلك فقد وزع مدفعيته على هذا الأساس :

الموقع	قائد الموقع	قائد المدفعية	التسليح	المشاة	طواقم المدفعية
طابية بيت الامانه	محمد عبد الله « تعايشي »	سالم علي « مصري »	٢ مدفع جبلي	٨٠ مسلحون بالبنادق	٥ مدفعجية
طابية السجن	ادريس الساير	محمد عبد الملك « مصري »	١ مدفع كروب ١ مدفع اوردي ١ مدفع متراليوز		٨ مدفعجية
طابية بوابة عبد القيوم	عبد القيوم	عبد الجواد « مصري »	١ مدفع جبلي ١ مدفع كروب		٥ مدفعجية
طابية الباب الكبير	الطريفي ربيع « تعايشي »	سيد أحمد ريش « مصري »	٢ مدفع جبلي		٥ مدفعجية
طابية سوق الصمغ	الطريفي ربيع « تعايشي »	سيد أحمد ريش « مصري »	١ مدفع كروب ١ مدفع حبشي		٦ مدفعجية
طابية المواليد	الشريف حميدان « تعايشي	أبو سعيد جابر « مصري »	٢ مدفع جبلي		٥ مدفعجية
طابية الشقير	حاج علي الدغيمي « دغيم »	ابراهيم الفخراوي « مصري »			٥ مدفعجية
طابية خور شمبات	البدر رجب « دغيم »	السيد سلا مه « مصري »			٥ مدفعجية
طابية السرايا	الرشيد كرومه « هباني »	ابراهيم التحشوانجي	١ مدفع جبلي		٢ مدفعجية
طابية المقرن			١ مدفع شركيبا		٢ مدفعجية
طابية توتي الشمالية	علي عبد الجابر	جمعه علي العمراني	١ مدفع جبلي		٢ مدفعجية
طابية توتي الجنوبية			١ مدفع جبلي		
طابية شمبات	محمد فايت جوده «تعايشي»	محمد فرج « مصري »	١ مدفع جبلي		٣ مدفعجية
طابية الصبابي	عيسى زكريا « تعايشي » قائد لكل الضفة الشرقية	محمد فرج « مصري »	١ مدفع جبلي		٢ مدفعجية

اضاع الخليفة فرصته الأخيرة عندما أخلى موقع السبلوقة اتقاء شر بوارج كتشنر ، ولكنه لم ينس امرها بتاتا . وعندما تقدم احد المساجين ويدعى الحاج منور المغربي للخليفة وذكر انه يستطيع تدمير البوارج وهي على الشاطئ بواسطة الغام مائية تنفجر بمجرد ملامسة البوارج لها ، امر الخليفة يعقوب بتسهيل مهمته وتنفيذ كل طلباته على أن يظل سجينا مقيدا بالقيود الحديدية .

واحضر الامير يعقوب السجين واجرى امامه تجربة فى وعاء صغير ملئ بالبارود وادخل فيه « فيوز » ودل حجم الانفجار على نجاح التجربة . وبدأ الحاج منور فى تصميم (١) اللغم الاصلي وتحصل على مرجل ضخم لاحدى البوارج المعطلة وملأه بأنابيب ملئت بالبارود الاسود ، والزئبق ، والكبريت ، والحديد ، بحيث بلغ الوزن النهائي للغم مائتى قنطار من المتفجرات . ثم وضع فوق صندل اخذته البارجه الاسماعيلية وجرته شمالا الى شمبات لوضعه فى النيل . كانت الفكرة هي اغراق الصنادل التى تحتوى على الالغام على ان تبرز « الفيوزات » خارج سطح الماء وتربط بالاسلاك على الشاطئ وتنفجر الالغام بمجرد اصطدام السلك ببوارج العدو . ولكن التيار السريع ادى الى دفع الصندل الى ان حاذى الباخرة والتفت الاسلاك حول بدالات البارجة فشدتها مما فجر « الفيوز » وادى الى انفجار البارجة بجوار حى البادغين قبل أن تصل الى هدفها .

كان الانفجار قويا وعنيفا للدرجة التى ادت الى الاطاحة بأكثر من نصف الباخرة الاسماعيلية التى جرته وأدى الى مقتل جميع من فيها وكانوا حوالى عشرين شخصا بما فيهم المخترع المغربي الذى عثر على أجزاء من جسده وكانت السلاسل مازالت عالقة بها . لم يهتم الخليفة كثيرا بالكارثة طالما ثبتت فعالية اللغم فأمر بالاسراع فى صنع الغام أخرى .

** ** ** **

كيف سارت الامور فى عاصمة الخليفة فى الاسابيع الأخيرة التى سبقت

---

(١) رواية تشرشل وتقرير المخابرات تختلف قليلا ، فهو يصف تصميم اللغم بأنه كان عبارة عن وعاء من البارود وفى داخله مسدس مربوط بسلك لينجذب السلك فينطلق المسدس وينفجر اللغم . ولكن الرواية المذكورة اعلاه هى رواية الاسطى عبد الله أحد الذين اشتركوا فى تصميمه ، واستجوب وأقواله مثبته فى سجلات مصلحة الوابورات تحت ملف الباخرة الاسماعيلية .

المعركة ؟ ؟ أما أثناء النهار فقد مضت الحياة عادية فى أسواق ومطاعم المدينة المتضخمة بالسكان بعد انضمام التعزيزات من خارجها ، وكالعاده كان كل سكان امدرمان يجتمعون لاداء الصلوات الخمس فى الجامع الكبير والخليفة يؤمهم كعادته ، ولم يتخلف الامرتين أو ثلاثة ، الا انه لم يخطب الا قليلا عكس عادته السابقة ، فكان يسرع بعد الصلاة مباشرة لمنزله لحضور المجالس العسكرية التى لم يتوقف إنقطاعها تقريبا .

وفى الأيام القليلة التى سبقت المعركة بدأت نذر المعركة القادمة فى الظهور فقد توقفت الحياة تقريبا فى امدرمان فترة الصباح ، فكل السكان كانوا يجتمعون فى مكان العرضه تحت راياتهم المختلفة وتجرى كل رايه احصاء لمقاتليها وينصرفون الى منازلهم بعد الظهر .

أما الملازمين فقد ادخلوا معسكر تدريب ضخم يبدأ العمل فيه منذ شروق الشمس ويستمر حتى مغيبها ولم ينضموا لبقية السرايا فى العرضـــة . وقد استمر تدريبهم الذى أشرف عليه أسكندر بك وكانت أصداء النداءات العسكرية لطوابير البيادة تسمع طوال اليوم .

ويبدو أن فكرة الخليفة واسكندر كانت ان يبدأوا بطوابير البيادة ثم يمضى التدريب الى ان يختم ختامه الطبيعى بمناوره يتدربون فيها على تحركات وتكتيكات المجاميع .

كان هذا ظاهر الأمر فى المدينة أما باطنه فقد اختلف قليلا ، خصوصا فى الفترات التى تلت انصراف السكان من مكان العرضه الى منازلهم ، فقد أصبحت المدينة أرضا خصبة للشائعات التى تنتشر بسرعة البرق والجميع فى لهفة لسماعها ونشرها ، وأشار الشيخ بابكر بدرى الى تلك الفترة ساخرا عندما روى انه كان يستضيف بعض اصدقائه فى المنزل وغاب عنهم لمدة أقل من دقيقه ليستدعى خادمه ولما عاد سألوه بلهفة « هل من خبر جديد » وأراد هو مداعبتهم فاختلق خبرا عن تقدم العدو ، وبعد يومين سمع هو نفسه الخبر من أفواه الآخرين .

العـــدو

« مما ذكرناه فان السبلوكة وملزم العقبات الشرقية والغربية هو الرباط ومرصد ممكن من أعداء الله وخاذلهم انشاء الله فان كان ترأى الى النظر الشريف مسك فم بغازهم والاستعداد لهم شرق و غرب بالجيوش الكفاية فذلك من باب المكيدة لهم . »

تقرير الأمير عبد الباقي للخليفة

أمضى السردار اغلب شهور انخفاض النيل فى عطبرة فى الاحتشاد انتظارا لبقية التعزيزات التي وعدته بها القيادة البريطانية ، استعدادا للمرحلة الأخيرة من الحملة التي استغرقت خمسة وعشرون شهرا حتى الآن . واقتصر نشاطه على ارسال البوارج جنوبا الى أقصى مدى يسمح به ارتفاع النيل للملاحة ، الى جزيرة نسرى ، محققة هدفين ، الاستكشاف ، وجمع أكداس الحطب التى كدستها على الضفاف اربعة كتائب سودانية ارسلت لقطع الاشجار وانتشرت على طول شاطئ النيل من عطبره حتى المتمة .

كانت أغلب تقارير قباطنة البوارج تفيد بعدم رؤية أى عدو . الى يوم ٣٠ ابريل . حيث تمكنوا من مشاهدة فرسان استكشاف عبد الباقي . فارسل قبطان الباخرة « الظافر » التقرير التالى :

« سعت ٠٩٠٠ ابحرت جنوبا وفي سعت ١٢٣٠ عندما اقتربت من جزيرة نسري تمكنت لأول مرة من رؤية ٤٠ فارسا يتحركون للشمال »

« يوم ٨ مايو سعت ١٢٣٠ ابحرت جنوبا وعندما وصلت وادى حبشى ـ رأيت ٣ فرسان في الجبال العالية . الواضح انهم كانوا يراقبون البوارج . اطلقت عليهم مدافع المكسيم الا انهم كانوا خارج المدى . »

وفى ١٤ يوليو وصل الخط الحديدى ـ عطبره . وبعدها بدأت التعزيزات واطنان المؤن تنهال على السردار . وصل اللواء الثاني البريطاني ، فكتيبة فرسان الرماحة الحادية والعشرون ، سرية فرسان مصرية ، سريتى مدفعية من سلاح

المدفعية البريطاني « احدهما سرية الهاوترز ٥ بوصة » .

أما الكولونيل ونجت فقد امضى وقته فى بث شبكات الجواسيس حتى عاصمة الخليفة ، وفى التخطيط لأعظم انجازاته على الاطلاق ـ العربان الموالين ـ « Friendly Arabs » وهى قـــوة مختلطة من الجعليين والعبابدة والبطاحـــين . استطاع تجميعهم حتى بلغوا أكثر من اربعة آلاف مقاتل أوكل امر قيادتهم للميجور ستيوارت ورثلى بمساعدة الشيخ فرح ، وعبد العظيم بك حسين خليفة ، وميسرة الزبير باشا .

وعندما أوصلت السكة الحديدية المؤن اللازمة ، انشأ السردار نقطتين متقدمتين فى شندى والمتمة كوثبات اولى، كما اقيمت قاعدة ادارية متقدمة فى جزيرة نسرى ، آخر نقطة تستطيع البوارج الوصول اليها « ١٢ ميلا شمال السبلوكة (١) » ، ليرسل اليها المؤن التى حملتها صنادل البوارج المحملة بمؤن ثلاثة أشهر للفرقة الانجليزية ، وشهرين للفرقة المصرية .

* ** ** *

سرعان ما تأقلم الأمير عبد الباقى على واجباته الجديدة فاستطاع تصريفها بيسر وسهولة أكثر ، للدرجة التى تمكن فيها من ارسال تقارير يومية حافلة باخبار العدو ، وتمكن أحيانا من ارسال ثلاثة تقارير فى اليوم الواحد . مكنه من ذلك تقسيمه المتوازن لفرسانه بين الواجبات المختلفة ، وضابط اطوافه النشط ــ المد الغالى ــ الذى لايعرف الكلل ولا الملل . ولم يكن عبد الباقى غافلا عن نشاط العدو . ولاعن تكوين العربان الموالية ومسرح نشاطهم شرق النيل .

فقد أرسل للخليفة بتقريره المفصل الدقيق بتاريخ ٤ ربيع أول (٢٣ يوليو) :
. . . . أرفع الى المقام الكريم انه فى الاخبار الواردة عن لسان اهل الخيول الذى جارى طلوعهم لكشف اخبار أعداء الله ورفع الاحوال الينا فقد حضرت منهم طائفة أمس تاريخه من السبلوكه وعرفوا ان اعداء الله عملوا لهم . بحرية بجزيرة نسرى بواسطة اهل الوابورات وان كافة اهل الجزيرة

---

(١) أنظر الخريطة رقم ٣ « العدو »

الذى كانت بالخلا ومن ياتي من جهة البقعة دخلوا جزايرهم لان البحر احتوى على الخيران والجزاير وامنوا على أنفسهم من جهة البر واخرجوا ماعندهم من المعاشات واقاموا فيها شارعين فى التنظيف والخدمة فى نسرى وام جركي وجزيرة سلامته ومرنات وكجوج والوابورات جاعله عليهم دورية لحفظهم من الطوارق البرية والخيول لازالت واقفة معاهم وواردة ومترددة لنا بذلك واما جيوشهم المخذولة فهى لازالت بالداخلة وبربر ولهم نقطة خفيفة بشندى والمتمة ولم بسمع لهم بتحريك قدم ازال الله اقدامهم ونكس اعلامهم الا انه بلغنا بأنهم عددوا لهم جمال ركب نحو الاربعة آلاف من الجعليين والحسانية والبطاحين وغيره من القبائل قيل انهم قاصدين جهة رفاعة . فى هذا الشهر فان وافق يصير التنبيه الى النقط الشرقية بأخذ الحذر لئلا يأتوا عليهم بغتة ونحن هنا ومن معنا من الاصحاب واقفين ومتحزبين ولازالت الخيول واقفة على جهاتهم لتأتينا بحركاتهم وانشاء الله لن تحصل غفلة بل جميع مايحدث يصير رفعه اول بأول الى الجناب الشريف ولهذا لزم تحريره لمعلومية سيدى بما توضح والسلام . »

« حاشـــية :

مما اوضحنا اعلاه يوم تاريخه عند ساعة الضحى نسمع ضرب مدافع ثقيلة على جهة السبلوقه واظنها وابورات الكفره خيول الاصحاب باينتها وصارت تضرب فيهم وللآن لم يأتينا منها خبر فعند حضورها وتعريفنا بها نجرى رفع احوالها ولاجل المعلومية لزم الحاقه . »

ولكن الخليفة كعادته — وضع عينا لترصد عينه الراصدة ، وتبلغه عن أى اهمال من قبل عبد الباقى فى تأدية واجباته . فقد ترامى لسمع الخليفة انباء متواترة من مصادره الكثيرة ان العدو قد وصل لجهة المتمة . فارسل بشير كرار العبادى لعبد الباقى طالبا ايضاحا عن تقصير عبد الباقى فى تبليغه هذه المعلومات الهامة . ورد عليه عبد الباقى بلهجته الحازمة المؤدبة نافيا تلك الأنباء مؤكدا ان عينه لاتغفل لحظة واحدة عن العـــدو :

« ثم ارفع الى المقام الكريم فقد تشرفنا بالامر الشريف الرقيم ١٢ الجارى بيد

المكرم كرار بشير المنوه فيه بأنه قد تبالغ الى المسامع الشريفة بأن اعداء الله المخذولين تحركوا بثقيلتهم ووصلوا الى جهة المتمة وشندى ومرغوبا منى متى يكون عندنا خبر نجرى تفصيله ومداومة كشف الاخبار ورفعها اول بأول الى آخر ماحواه الأمر الكريم علمناه وتبركنا بتلاوته والحال سيدى فانه بالنظر لتأكيد الخبر والوقوف على حقيقة الاعداء المخذولين كان سبق اعلنا سيد الجميع خليفة المهدى عليه السلام بالبوسطة المحررة فيها عوايل الشايقية المظبوطين فى المركب ومرسولين بأنه عزمنا بتعيين خيل مخصوصة تكشف لنا الاحوال لغاية المتمة وتأتينا بالاكيده وقد كان وسبق تعيينها تحت قيادة المكرم المد الغالى ووصلت لغاية المتمة وكشفت حقيقتها ووجدت بعض من الاهالى ومعهم اغنام فقتلوهم واحضروا منهم بندقية ومأوجدوه من الاغنام والمتمة خالية من الكفره ويوم تاريخه حضروا مصحوبين السلامة ومعهم واحد من الجعليين السعداب يدعى محمد كان ببربر وحضر منها وصادفوه اهل الخيول اجروا عليه القبض بجهة الهوبجى وقد اخبر المكرم المد الغالى ومامعه من الاصحاب ان اعـــداء الله شارعين فى الدخول بالوابورات والمراكب الى جزيرة نسرى واتخذوها لهم مركز الى جيوشهم المخذوله وقد شاهدوا ورؤا فيها الخيام منصوبة وان الكفرة مجتهدين فى الترحيلات والتنقيلات عليها وهم فى حركة مهمه واما السعدابي الـــذى قبضوا عليه واحضروه اخبر بأن الكفره واقفين على التحريك وقد انفصلوا على ثلاثة طوايف وكل طايفة مقيمة فى مركز فاولاد الريف جميعهم بالداخلة والانجليز بحلة ولد العجمى بالقرب الى الداخله والسودان فى بربر وقد تعين فى تشهيلاتهم المخذول عدو الله عثر شيئا فى شئ فى نقطة الى نقطة والجميع مركزهم نسرى واما كافة خيولهم وجمالهم جرى قطوعها على الغرب والتلغراف اوصلوه لغاية المغاوير بالغرب وعزمهم وصوله نسرى وهذه الجمال والخيول تعينت لذمه منع المغارات وتعطيل عمله واما شندى فلازالت نقطتها القديمة فيها وكذلك عملوا نقطة بالشرق بحلة ولد سلفاب

موازيه الى جزيرة سلوه وان الوابورات القديمة فهي خمسة وقد استجد عليهم اثنين هنا في بربر احضروا آلاتهم بالسكة الحديد الجمله سبق وكذلك الامراء الذين اسروا بواقعة الشهيد عبد الرحمن النجومي ادخلوهم معهم في الخدامات ورجعوهم الى حلفه والمكرم محمود احمد اوصلوه مصر ومنها صار رجوعه الى حلفه مع المكرم محمد الامين ورتبوا له صرف وان في عزمهم ونيتهم الخبيثة التحرك والقدوم في آخر الشهر القابل فهذا ما أخبر به السعدابي وذلك بحضور المكرم كرار بشير وهاهو واصل معه وحيث هذه الاحوال التي استجدت علينا من جهة الكفره من نحو تحريكهم واجعال جزيرة نسري نقطة مستعدة لتكامل جيوشهم المخذوله فيها كما تراءى الى الاصحاب الخيام والحركة بداخلها وما اخبر به الرجل المأسور لزم تحريره لسيدي بيد المكرم كرار بشير للمعلومية ولازلنا واقفين على الاقدام لكشف الاحوال ومتى ما استجد خبر يصير رفعه أول بأول الى المسامع الشريفة ونسأل الله الرضاء والتوفيق الى مراضي الخير سيدي . »

** ** ** **

وأخيرا تكاملت قوة السردار وتجاوزت ٢٤٠٠٠ جندى ، منهم ٨٢٠٠ بريطاني والبقية من المصريين والسودانيين توزعوا كالآتي :

القائد : جنرال هارولد كتشنر « Kitchner »

رئيس الأركان : ميجور جنرال رنـــدل « Rundle »

المشـــاة :

الفرقة البريطانية : ميجور جنرال جاتكر « Gatcre »

اللواء الاول : بريجادير ووشوب « ٤ كتائب مشاه » « Woshope »

اللواء الثاني : بريجادير ليتلتون « ٤ كتائب مشاه » « Lyttltone »

الفرقة المصرية : ميجور جنرال هنتر « Hunter »

اللواء الأول : كولونيل ماكـــدونالـــد "Mcdonald" « كتيبة مصرية ٣ كتائب سودانية »

اللواء الثاني : كولونيل ماكسويل "Maxwell" « كتيبة مصرية ــ ٣ كتائب سودانية »

اللواء الثالث : كولونيل لويس "Lewis" « ٤ كتائب مصرية »

اللواء الرابع : كولونيل كولنسون "Collinson" « كتيبة مصرية ــ ثلاث كتائب مختلطة مصرية ــ سودانية »

القوات الراكبة :

كتيبة الرماحة الحادية والعشرون « ٤ سرايا راكبة »

كتائب الهجانة « ٨ سرايا »

كتائب الفرسان المصرية « ٩ سرايا »

المدفعية : كولونيل لونج "Longe"

٢ سرية رشاشات بريطانية : « ١٠ مدافع مكسيم »

١ سرية مدفعية بريطانية : « ٨ مدافع ٤٠ رطل »

١ سرية مدفعية بريطانية : « ٦ مدافع هاوترز عيار ٥ بوصة »

١ سرية مدفعية خيول « ٦ مدافع كروب »

٤ سرايا رشاشات مصرية : « ٢٤ مدفع مكسيم »

عنصر مهندسين من سلاح المهندسين البريطاني .

الأسطول النهرى : « كومودور كيبل » "Keppel"

١ ــ البارجة المدرعة طراز ١٨٩٨ « السودان »

٢ ــ البارجة المدرعة طراز ١٨٩٨ « ملك »

٣ ــ البارجة المدرعة طراز ١٨٩٨ « الشيخ »

٤ ــ البارجة المدرعة طراز ١٨٩٦ « فاتح »

٥ ــ البارجة المدرعة طراز ١٨٩٦ « ناصر »

٦ ــ البارجة المدرعة طراز ١٨٩٦ « ظافر »

البارجة : « طماى »

البارجة : « حفير »

البارجة : « ابو طليح »
البارجة : « المتمة »

بوارج الترحيل :

البارجة : « دال »
البارجة : « عكاشة »
البارجة : « الطاهره » (١)
البارجة : « اوكما »
البارجة : « خيبر »

في يوم ١٤ يوليو بعد ان تأكد السردار من تكديس المؤن في جزيرة نسرى، اصدر امره ببدء التقدم . على ان تحمل الفرقة الانجليزية بالبوارج ، وان تتقدم الفرقة المصرية بالارجل لواء بعد الآخر ، في صحبة الفرسان البريطانيين والمصريين.

ولما كان السردار مدركا من قبل ان العدو قد اخلى مركز السبلوكة فقد استطاع التقدم تقدما غير تكتيكي مريح ، طالما ان ليس هناك مايهدده . ومضت ألويته تمر واحدة بعد الأخرى على وثبات المتمة ، والمغاوير والتراجمة . في طريقهم لمركز الحشد الجديد ــ في ود حامد ١٢ ميلا جنوب جزيرة نسرى . وبذلك انتهت وظيفة عطبره كمركز للحشد فقد انتقلت كل المؤن الى نسرى ، وبدأ معسكر ود حامد مركز التجمع الجديد في الاتساع يوما اثر آخر ، بوصول كل لواء من ألوية الفرقة المصرية وهي تفسح مجالا للفرقة البريطانية المتقدمة عبر النيل . كما أوضح تقرير عبد الباقي المؤرخ ١٧ ربيع الأول « ١٥ اغسطس » :

« . . . ثم نعلم سيدى انه وان كان امس تاريخه فصلت الى سيدى اخبار الكفرة وتحريكهم وتجريد جيوشهم المخذولة لجهة نسرى واجعالها مركز مع قطوع جمالهم وخيولهم بالغرب بجهة المغاوير ووصول تلغرافهم ايضا بالجهة

---

(١) كانت الطاهره هي باخرة ود بشاره التي غنمها العدو في الحفير واعاد اصلاحها . وسماها الخليفة « الطاهره » لا نه لم يدنسها قدم « كافر » عكس كل بوارجه . فقد طلبها غردون من لندن ووصلت كاجزاء قبل سقوط الخرطوم وتم تركيبها ودشنت بعد سقوط الخرطوم . فلم يبحر على ظهرها غير مسلم .

المذكورة والنقط التي جعلوها بحلة سلفاب الموازية جزيرة نسرى من الشرق وارسل بيد المكرم كرار بشير فيوم تاريخه حضر محمد ولد كوكو الانصارى المعلوم عند سيدي واخبر ايضا ان المخذولين تحركوا وجيوشهم متجردة على نسرى بالوابورات والمراكب وآخرها الان بالداخلة لأنها تخلصت من بربر وتلغرافهم وصل بالمتمة والتجاريد المذكورة بطريق البحر على الوابورات والمراكب ولم يمسكوا طريق البر الشرقى ولا الغربي وهاهو ولد كوكو ذاته واصل صحبة الهجانة رافعين هذا لاجل متى لزم الحال لزيادة خبر منه يعلم به كما وفي تاريخه رفعنا تلك الخبر الى سيد الجميع خليفة المهدى عليه السلام وعلمنا جنابه الشريف بارساله صحبة الهجانة اما نحن بفضل الله تعالى مادام ان الكفره صاروا بالقرب لنا وليس بيننا وبينهم سوى مسافة قليلة فان شاء الله تعالى لانغفل من حركاتهم واخبارهم ليلا ونهارا برا وبحرا وكلما حدث شئ نجرى رفعه اول بأول نسأل سيدى الدعوة الصالحة الخ . . . . »

بعدها اضطر عبد الباقي للانسحاب من موقعه بوادى بشاره . فقد كادت عناصر العدو المتقدمة ان تجتاح رئاسته . واضطر للتحرك غربا عن مجرى النيل مضحيا بابتعاده عن مصدر مياه الشرب ليظل على قرب من العدو لرصد تحركاته بدلا من الانسحاب جنوبا تاركا كل جبال السبلوكه بينه وبين العدو .

الا أن عبد الباقي استمر في عملياته العدائية كما اوضح في تقريره المؤرخ ١٩ ربيع اول « ٧ اغسطس »

« ثم ارفع الى الجناب الشريف ان طليعة الخيل المعينة من طرفنا من الاهل دغيم تحت قيادة مقدمها جبارة لكشف اخبار اعداء الله حضرت واخبرتنا ان اعداء الله المخذولين اولهم نزل بحلة ولد حامد وتقابل مع الخيالة المذكوره ومن الجملة خمسة خيل من الاصحاب هجموا على بعض من الكفره وجدتهم منفردين فقتلوا منهم اثنين والكفره ضربوا فيهم فقد اراد الله الى ثلاثة منهم بالشهادة وهم آدم عليان ، وعلى ولد طاهر ، وعبد الواحد الجزولى ، وخيولهم اثنين قبلوا وواحد عاد دخل في وسط الكفره مسكوه وبقية الاصحاب

حضروا مصحوبين السلامة بخير وفى خلفهم وجهنا الخيل لتقف معهم ولاتفارقهم » .

وفى ذلك اليوم ارتفعت كفاءة عبد الباقى عندما تمكن من التوصل لمصدر معلومات يعمل فى معسكر العدو واستطاع ان يحصل منه على معلومات أدق عن موقف العـــدو :

« وبخلاف طليعة الخيل الذى اخبرت بوصول طليعة اعداء الله بولدها حامد حضروا نفرين جهادية احدهم يدعى قادم من اولاد ابو جنون الذين كانوا مع المكرم محمود أحمد وسعد من ربع البرنجيه اسروا بواقعة الجيش واحضروهم لخدمة الحطب لوابورات الكفره وقد تخلصوا وفروا هاربين ويوم تاريخه وصلوا بطرفنا عرفوا ان اعداء الله جميع متقلاتهم وآلـــة استعدادهم شهلوها بجزيرة نسرى وهم تحركوا باكلهم وتجردوا الى السفر وغالبهم وصل بجزيرة نسرى وتقدموا منهم اورطتين سودان نزلوا بحلة ولد حامد وهى التى صادفتها الخيل الطليعة ومهتمين بالقيام فى هذين اليومين وليس عندهم نية فى التأخير كون تخلصوا من بربر وآخرهم بالداخلةواولهم بولد حامد والجزيرة نسرى وهم على قدوم واما وابوراتهم اخبروا انها اول كانت سبعة وقد استجد عليهم ثلاثة كبار الجملة عشره وحيث ان اعداء الله المخذولين شارعين فى القدوم ولازالت خيولنا معهم ليلا ونهارا واولهم صار بولد حامد فقد حررنا هذا بالمعلومية . »

وقبل وصول تقريره للخليفة بامدرمان ، استطاع ان يحرز تقدما أكبر فى أداء مهمته عندما استطاع التغلغل فى صفوف العدو فعلا عندما توصل الى جمع معلومات من جندى نظامى يعمل فى جيش العدو . والواضح ان تصور عبد الباقى ارتفع كثيرا ووضحت له امور كثيره . فاسلوبه تغير وأصبح يتحدث عن العدو بدقة وتحديد اكثر ، فهو هنا يتحدث عن الوحدات « الاورط » ، وبتفصيل اكثر عن موقف العدو وتحركاته .

« بكـــثير الشـــوق ومزيـــد الغرام الى الطلعـــة النورانية والآثـــار المحمدية ثم تعلم ســـيدى من بعـــد تحرير البوسطة المرسولة بخبر وصـــول اعداء

الله بحلة ولد حامد واستشهاد الثلاثة اخوان من الاهل دغيم ناس الخيل وقد احضروا ناس الخيول الذى تعينت خلف المذكورين لكشف اخبار الكفره واحد جهادى يدعى عبدالله من ربع المكرم محمد الزاكى عثمان أسر بواقعة الجيش وادخلوه التعليم وحضر ضمن جيشهم المخذول فر منهم هاربا بالمغرب وصادف طليعة الخيل المعينة منا بالسبلوقة صباحا أمس تاريخه واحضروه ولدى سؤاله عرف ان اعداء الله حضروا بحلة مديسيسه وهم ستة اورط سودان والحلة المذكورة هى بالقرب الى وادى بشاره مركزنا سابقا وفى رأسهم عدو الله عنتر والوابورات رجعت لحضور الانجليز ومزاحمين فى تتابع جيوشهم وجد السير الى القدوم هنا خذلهم الله وكافة ركايبهم من خيول وجمال وبغال بكره أو بعده تحضر طرفهم وبعد تكامل جيوشهم المخذولة وحضور رأس الضلال السردار يقوموا ، وتركهم على هذه الحالة وحضر منهم وحيث ان المخذولين سوّل لهم الشيطان اعمالهم وعزموا الى المجئ فقد صار توجيه الخيول من طرفنا لتكون معهم الخ » .

والواضح ان عبد الباقى ادرك ، شأنه شأن كل من شاهد منطقة السبلوكة وعلم مدى اعتماد السردار على بوارجه ، اى مزايا تكتيكية تكمن فى تلك الهيئة . ونراه يحاول جهده ان يقنع الخليفة باعادة النظر فى قراره باخلاء السبلوكه وينصحه بأن يتحرك بجيوشه ويقف وقفته الاخيرة فى جبال السبلوكه وان لايتخلى عن هذا الموقع الحصين :

« ومتى وافق يتأكد على اهل الطوابي شرق وغرب بالتيقظ والاستعداد وعدم الغفلة حيث نيتهم السؤ قادتهم الى الهلاك . ومما ذكرناه فان ملزم العقبات الشرقية والغربية هو الرباط ومرصد ممكن من اعداء الله وخاذلهم انشاء الله فان كان تراءى الى النظر الشريف مسك فم بغازهم والاستعداد لهم شرق وغرب بالجيوش الكفاية فذلك من باب المكيدة لهم والا فما يتراءى فى مصلحة الدين لجهاد اعداء الله الكافرين فهو الامر مفوض فيه الى سيد الجميع . . . . » .

** ** ** **

لم يحدث فى عمر النهر الطويل ان شهد مثل هذا الحشد . فقد امتزجت مياهه

الارجوانية المخضبة بطمى الفيضان ، وهو فى انطلاقه العاصف للشمال ، باللون الكاكى الغالب على القطع البحرية من كل الانواع ، بوارج مدرعة ، بوارج ترحيل ، مئات الصنادل ، وغابات من صوارى المراكب الخشبية « القياسات » اكتظت كلها باللون الكاكى ، آلافا من الجنود فى الاسقف وعلى أرضية البوارج وعلى الصنادل . ملأ صياحهم وضجيجهم الضفاف التى ظلت ساكنة لقـــرون . كان ذلك تقدم الفرقة الانجليزية وهى تحمل على البوارج فى رحلة واحدة بدون توقف من عطبرة الى معسكر ود حامد . وزاد الضجيج والصخب بارتفاع الغبار المتصاعد من الضفة الغربية من عشرات الفرسان ، بينما استمرت ألوية الفرقة المصرية فى تقدمها عبر وثبات طويلة منهكة يتقدمها الخيالة ويرافقها المراسلون الحربيون والجمال . لم يتوقف التقدم الأرضى الا فى المتمة حيث شاهدوا آثار مذبحة المتمة وهى لازالت ظاهرة للعيان ، وآثار الخنادق التى حفرتها بعثة ولزلى لانقاذ غردون قبل ثلاثة عشر عاما .

أما معسكر ود حامد ، نهاية الوثبة فقد إمتد طوله لاكثر من ميلين على امتداد النيل الذى وفر حماية ضلعه الشرقى ، اما الجنوب الغربي فقد حددت أطراف المعسكر زريبة كثيفة امتدت الى ان تلاحمت مع الخور الذى حمى جنبه الأيمن . تلاصقت فى نصفها الجنوبي خيام الفرقة البريطانية ، اما النصف الشمالى للمعسكر فقد ازدحم بأكواخ القش التى أوت الفرقة المصرية . وبرزت خيمة السردار البيضاء الكبيرة على هيئة مرتفعة قليلا يرفرف أمامها العلم المصرى . كانت أوامر السردار أن تتجمع كل القوة قبل يوم ١٦ أغسطس .

** ** ** **

اضطر عبد الباقى بعد تكامل انشاء معسكر ود حامد وبعد أن أصبحت كل المنطقة المكشوفة غرب النيل أرضا محرمة عليه ، لأن ينقل رئاسته جنوبا الى الرويان ، جاعلا كل جبال السبلوكه فاصلا بينه وبين عدوه . ولكن مصادر فرسانه المتقدمة استطاعت تصوير الموقف تصويرا جيدا ، سواء كان ذلك فيما يتعلق بعدد البوارج المقاتلة بالضبط ، أم بوصف معسكر ود حامد ، أم كشف أمور أخرى كانت غامضة . إذ أنه وجد الاجابة الصحيحة لسؤال الخليفة المتردد عن

صديقه اللدود «سلاطين» . فقد أوضح فى تقريره المؤرخ ٢١ ربيع الأول (٩ أغسطس) :

« نعلم جنابه الشريف انه بخلاف الجهادية الثلاثة المحضرين من اعداء الله السابق رفع خبرهم يوم تاريخه حضروا ثلاثة منهم اثنين اسماهم زيد وزايد صادفتهم دورية الخيل وارسلتهم ،والثالث يدعى مرجان قام من اعداء الله المغرب وصادفوه الاخوان عند الصباح بقرب الديم احضروه لنا وقد اخبر أن اعداء الله المخذولين استعدوا وكافة آلاتهم وخيولهم وجمالهم وماهو متأخر من جيوشهم المخذولة تكامل عليهم بجهة مديسيسه الكاينة بالقرب وادى بشاره وان عدو الله السردار حضر وتركهم فى حالة القيام والقدوم لينالوا منا جهنم التى اعدها الله لهم وعزمهم ونيتهم السيئة القدوم الى مدينة المهدى عليه السلام وليس عندهم ترداد ولاتأخير وتركوا كافة ماونهم وزوادتهم ومتقلاتهم واوقفوا عليها القفر وعملوا لها زريبة بجهة ولد حامد ومعهم من الوابورات الحربية عشره تمر بالبحر وهم يمروا بالبر الغربي وحيث سيدى ان اعداء الله خذلهم الله صاروا قايمين علينا وربما باكر صباحا أو بعده نتقابل معهم ونجاهدهم فقد حررنا هذا الى المقام الكريم لاجل المعلومية وان وافق ينبه على الطوابي البحرية بالاستعداد وعدم الغفلة وكذلك يتأكد بجمع الاصحاب وعدم غياب واحد حيث الملعونين حضروا وما قادهم الله الا الى هلاكهم واما عدو الله عبد القادر شواطين فهو الان ببربر »

سرعان ماعاود الحنين جنود الخليفة الذين اسروا فى المعارك السابقة واعاد العدو تجنيدهم ، وبدأوا فى هجر صفوفه والانضمام لعبد الباقى بمجرد ان علموا ان هناك اخوة حملوا معهم السلاح سابقا يتواجدون بالقرب من معسكر السردار . جرت العادة أن يعرض هؤلاء انفسهم لطلائع عبد الباقى وينضموا لها ويتولى عبد الباقى ارسالهم لامدرمان . فارتقى مستوى تحليله للمعلومات للدرجة التى بدأ يلم فيها ببنية العدو ، وان يضع تحديدا دقيقا للزمن المحدد لبدء تقدمه لامدرمان . كما ارسل كعادته الأسرى المهمين لامدرمان ليستجوبهم الخليفة بنفسه كما اوضح تقريره المؤرخ ٢٣ ربيع أول (١١ أغسطس) :

« ثم نعلم المسامع الشريفة فان السبعة جهادية الواضحة اسماهم وارباعهم حضروا من الكفره فارين منهم وصادفتهم دورية الخيل احضرت طرفنا ولدى الوقوف منهم عن احوال الكفره عرفوا انهم قايمين وقاصدين النزول بالسبلوقة وان عدو الله عنتر حضر بالوابور وتطلعها ورجع لقيام جيشهم المخذول كونه تكامل عليهم ولم عندهم تأخير وصار مابيننا وبينهم الا عقبة السبلوقة فقط وحيث الامر كذلك وان خيولنا لازالت معهم ليلا ونهارا فقد حررنا هذا الى الجناب الشريفة لاجل المعلومية وان استعداد اعداء الله المخذولين كونهم صاروا قادمين والجهادية المذكورين واصلين صحبة رافعة سراج الدين جميع الامل بعد وصولهم يكرم على عبدكم بالافادة .»

الا أن عبد الباقي وموقعه البعيد في النقاط الامامية عن مؤتمرات ومؤامرات امدرمان تعجب من تخلي الخليفة عن منطقة السبلوكه بهذه البساطة . ولم يستطع ايضا ان يهضم أوامر الخليفة بترك العـــدو فى سلام طوال تقدمه نحـــو امدرمان وراح يستجدى الخليفة فى أن يسمح له بازعاج العدو ومناوشته . وعندما وصلت تعليمات الخليفة القاطعة بعدم التعرض للعدو استسلم على مضض وهو يحاول محاولة أخيرة باقناع الخليفة بفائدة المناوشات لادخال الرعب فيهم :

« ثم نعلم الجناب الشريف حظينا بأمركم الكريم المشير لنا فيه بالتيقظ والانتباه ليلا مع نهارا وكشف اخبار الكفره ومتى زحفوا علينا فلاتحصل منا مناوشة بل ننحاز نحو جنابكم الشريف الى آخر مابالامر الكريم احطناه وتبركنا بتلاوته والحال سيدى فان خيرنا وزيادة ديننا هو تنفيذ الاشارة والعمل بموجبها وانشاء الله تعالى نعمل بها لكنى مع الموافقة الى سيد الجميع فاذا كان اتتنا الخيول لنحاربهم بها ولو فى الشيخ الطيب لادخال الرعبة فيهم فذالك لاجل كيدهم والافالخير فيما يراه سيد الجميع فى ذلك . . . . »

** ** ** **

ساد الموقف بعض الركود . فقد استمر السردار فى انتظار تكامل وحداته . بينما امضى عبد الباقى تلك الايام فى مراقبة العدو ، واستقبال مصادره الثمينة الجديدة ـــ الهاربين من صفوف العدو وتنظيم ارسالهم لامدرمان ، ووجد بعض

الوقت للتفرغ لواجباته الثانوية وأهمها ضبط الهاربين من صفوف الخليفة لصفوف العدو :

« أمس تاريخه صار ضبط مركب محضره من وجهة البقعة قاصدة جهة الاعداء عليها نحو السبعة وستين عايلة حريمات وعيالهم ومعهم رجال شيبه والرجال وقعوا في البحر وعاموا وهم ثمانية والعوايل مابين شايقيه وجعليين وسيصير ارسالهم بكره انشاء الله وللمعلومية لزم . »

. . . . .

في يوم ٢٥ أغسطس إستأنف العدو التقدم . فقد أمر السردار الفرقة المصرية بالتقدم بالتفاف واسع لجهة الغرب لتفادى جبال السبلوكه ، كمقدمة لتقدم الحملة الى ان تتكامل مرة أخرى في الرويان على النيل وتبدأ الوثبة النهائية حيث لايفصلهم عن امدرمان برا الاجبال كررى ، وحيث يسمح النيل بالملاحة الى منبعه بدون عائق خلاف جبال السبلوكة .

« وعرفنا ان اعداء الله المخذولين قاموا من وادى بشاره وتحركوا بكامل جيوشهم المخذوله ونزلوا برأس العقبة الموصله الى الرويان وتركوا بعض طلائع الخيل معهم وحضر نفر منهم اخبروا بذلك وحيث ان المخذولين قاموا متحركين لهلاكهم فقد حررنا هذا الى المسامع الكريمة وفي تاريخه وجهنا خيل زياده على السابق لتكون معها وتواترنا باخبارهم لاجل رفعها» .

كانت عادة السردار في تقدمه لوثبة ود حامد ــ الرويان ، أن يبعث بقواته الراكبة للتوغل في الامام لعدة أميال . واضطر عبد الباقى تحت ضغط الخيالة للانسحاب جنوبا الى السروراب في اول ربيع ثاني (١٩ اغسطس)حتى لايتعرض فرسانه للاسر :

« نعلم سيدى ان طلائع الخيول حضرت واخبرت ان أعداء الله المخذولين قاموا من اول العقبه ودخلوا العقبة الموصلة الى الرويان وحلة الكوداب وقبل ان يتزلوا بالرويان فصار حضور بعض الخيل المذكورة وعرفتنا بهذا الخبر ولذلك عينا ثلاثين جواد ووجهناها الى الخيل التى واقفه معهم ونحن ومن معنا من الاصحاب صار قيامنا من الجميعاب ونزلنا بأول السروراب الكاين مابين قبة الشيخ الطيب والفقيه الأمين كونه مرتع للخيل وفيه القشوش .

وعلى صرفهم الذى صرف مدة اقامتنا يتقون للجهاد وانشاء الله هذا المحل يكون لنا مرصد لغاية حضور اعداء الله المخذولين ودخولهم العقبه وقصدهم هو الرويان وجهة الكوداب الكاينة بالقرب الى نفيسه ووقوف الخيل معهم لكشف احوالهم . »

ونرى عبد الباقى ينصح الخليفة بأن يؤخر خروجه من امدرمان قليلا ان كان يريد ملاقاة العدو فى المكان المحدد للمعركة – جبال كررى . فقد قدر عبد الباقى وصول العدو لكررى بعدة ايام :

« أما نحن ومامعنا من الاصحاب صار قيامنا من الجميعاب ونزلنا فى أول السروراب الموالية جهة الشيخ الطيب من صعيد كونه محل مرتع الى الخيول وفيه القشوش الكفاية لرشد الخيل وانشاء الله تعالى تكون لنا مركز الى ان اعداء الله المخذولين يصلوا جهة الجميعاب ويقصدوا الشيخ الطيب حتى يصير تحوزنا امامهم حسب الاشارة الكريمة اما فى هذين اليومين مادام ان اعداء الله قصدوا جهة الكوداب ونفيسه وعلى حسب عوايدهم الفاسدة يقيموا لهم ثلاثة اربعة ايام حتى يقدموا فان وافق وتحسن برأى سيد الجميع يتأخر عن الخروج للهجره واول مايتحركوا من نفيسه أو الكوداب حالا نرفع خبرهم ويكون لهم الخروج والاستعداد الكلى اذ ان طلايع الخيل معهم وكذالك عينا ثلاثين جوادا اخره ووجهناها زياده على الاول لتكون لهم بالمرصاد . »

سرعان ما أقام عبد الباقى رئاسته بسرعته المعهوده . فقد اصبحت اقامة المعسكرات والرئاسات ، وحرقها تستغرق منه ساعات بسيطة . كان عبد الباقى عادة يختار رئاسته على شاطئ النيل حيث يتمكن من رؤية ابحار بوارج العدو ، وحيث تزداد كثافة وارتفاع الاشجار على ضفاف الجيران كلما انحدرت نحو النيل وحيث يمكن أن تخفى رئاسته المزدحمة بنشاط الفرسان وهم فى طريقهم للخروج للاستكشاف ضاربين غربا لتفادى اصطدامهم المباشر مع العدو . وهم عائدون ليقدموا تقاريرهم ولتناول وجبات الطعام ، واستلام اقلام البوص المجهزة قبلا ودوايات الحبر من خيمة عبد الباقى ، والتى كان يوزعها بنفسه . وفى كل

المعسكرات التى أقامها لم توجد غير خيمة واحدة هى مسكنه الخاص ومكتبه الذى يستجوب داخله الاسرى والهاربين ويجمّع المعلومات من فرسانه العائدين أو يوجه غاراته الخاطفة قبل أن يمنعه الخليفة من شنها ، وحولها تناثرت البروش للفرسان ، والعناقريب للمقدمين . أدار عبد الباقى قوته الصغيرة « ٣٠٠ فارس — ٥٠ بندقية » بمستوى عال من الانضباط . فلم تكتشف رئاسته قبل اخلائها الا مرة واحدة .

* * * * * * * *

فى يوم ٢٥ تقدم جيش السردار فى كتلتين بشريتين طويلتين ، تكونت مقدمتها من لوائين فى الامام ، ووشوب البريطاني فى اليسار ملاصقا للنهر ،ويمينه لواء لويس المصرى فى الجانب البعيد من النهر نحو الصحراء ، وكلا اللوائين فى صف واحد عريض . وخلفهما اخذت باقى الالوية مكانها فى ذلك التشكيل المزدوج . وعن يسارهما انساب اسطول السردار النهرى ببطء على النهر مبحرا بنفس سرعة المشاة للاستكشاف وحماية الجانب الأيسر .

وكل ذلك المكعب البشرى الضخم اختفى وسط عاصفة الغبار التى أثارتها قوات السردار الراكبة التى انطلقت فجرا متقدمة الجميع نحو الصحراء فى انعطاف حاد عن مجرى النهر لتلافى جبال السبلوكة . وعندما اجتازت مشاة السردار اقصى امتداد غربي لجبال السبلوكه ، أمر السردار بايقاف التقدم وعسكرت القوة فى الفضاء وامضت يومى الخامس والسادس والعشرين فى معسكرها الضخم وراء زريبة سميكة .

فى تلك الاثناء كان اسطول السردار النهرى يتعثر ببطء وصعوبة وسط مجرى النهر الضيق فى شلال السبلوكة . لقد كان الاسطول وحيدا ولم يبعث معه السردار ايا من قواته الارضية لحمايته . . . فقد علم منذ مدة أن الخليفة سحب حامية السبلوكة . ورأى هؤلاء أى خطر مميت كان من الممكن أن يتعرضوا له عندما اجتازوا الطوابي الخمسة التى بناها الخليفة وتركها خالية . . . فبضعة مدافع فى تلك الطوابي التى بدت غاية فى المناعة من جانب النهر ، كانت كفيلة باغلاق النهر فى وجه اسطول السردار .

* * * * * * * *

راقب عبدالباقي عبور البوارج دقيقة بدقيقة :

« ثم ارفع الى المقام الكريم انه يوم تاريخه حضرت الينا طلائع الخيل واعلمتنا ان أعداء الله المخذولين صاروا يجردوا جيشهم المخذول بالبحر بواسطة الوابورات وماذاك الا خوفهم من العقبة وعدم اطمئنان عقلهم من جيوش الاسلام كون حضرت اربعة وابورات بجهة الكوداب ومعها ستة مراكب وركزت بالبر الشرقى واخرجت مابها من الكفره في محل هناك متسع الفضا وبعد ذالك حضر وابور خامس كبير وقف قصاد حلة الكوداب المذكورة بالبر الغربي وضرب البورى الى الوابورات الاربعة فصار رجوعها وفضل الوابور المذكور واقف وطلائع الخيل مناظره الى حركتهم ولغاية العصر ، كذالك رؤى دخان ثلاثة وابورات خرج من جهة الرويان وقاصد محل الوابور الاول وهناك دخل بينهم الليل وصار وقوف بعض الخيل والبعض حضروا واخبروا بذالك والمتراء لطلائع الخيل انه بعد ان يستكملوا مناقلة جيشهم المخذول بالجهة المذكورة ويتخلصوا من العقبة بواسطة الوابورات يخرجوا بجهة البر الغربي وبالنظر لذالك في تاريخه وجهنا خيول اخره واكدنا عليهم ان يقفوا على حقيقتهم بالوجه الاتم ويأتون بها سوى مسوكهم الى الشرق أو قطوعهم بالغربي ولايغفلوا . »

** ** ** **

اوقف السردار تقدمه في الرويان بعد أن عادت قوته مرة أخرى الى شاطئ النهر ، ليجد اسطوله في انتظاره ، وشيد زريبته المعهودة وامضى يومه . وفي الساعة الرابعة مساء يوم ٢٨ اغسطس أمر السردار ببدء التحرك نحو الوثبة التالية ، وادى العبيد ، بتشكيل شبه قتالى منتشر هذه المرة ، فقد سمحت له طبيعة الأرض المكشوفة بأن ينشر في الصحراء الواسعة ثلاثة من ألويته في مواجهة ميلين . وأوقف قوته بعد مسيرة ٦ أميال ، فقد أنذرتهم السحب المتجمعة بليلة عاصفة ممطرة .

تقدم فرسان كتيبة الرماحة واحتلوا جبل الشيخ الطيب الذى استخدم بواسطة قوات الخليفة المتقدمة كنقطة ملاحظة ، واخليت بعد أن أتمت واجبها بالتبليغ عن

تقدم العدو . ومضى فرسان كتيبة الرماحة فى استكشافهم البعيد . وأحيانا قد يصادفهم أحد أفراد أطواف الخليفة ويندفعون للحاق به ولكن الفارس السريع يخف مبتعدا .

وهنا وهناك كثيرا ماصادفتهم القرى الطينية الصغيرة ولكنهم لم يلتفتوا اليها . فلم تكن تلك مهمتهم بل كانت العثور على الجيش الضخم الذى انتظرهم به الخليفة . ولكن عند احدى القرى بالقرب من النهر وحسب تعليمات ونجت أحاط الفرسان بالقرية واخرجوا الأهالى من بيوتهم وبدأوا فى استجوابهم عندما برز أحد (١) الرجال مرتديا الجبة المرقعة وتم أسره وأعيد للخلف بعد أن قدم اليه جوادا

---

(١) هو الطيب الحسين . جاسوس ونجت الذهبى حقيقة ، وتوضح رنة الارتياح التى سادت يومية المخابرات يوم ٢٨ قيمة المعلومات التى قدمها الطيب ، والمتصفح لتلك الصفحات يصاب بالذهول من اللحظة الأولى. فدقة وكمية المعلومات توضح أى عقل فوتوغرافى تمتع به صاحبنا . وقد استهل ونجت اليومية فى ذلك اليوم بمقدمة طويلة عن المكانة الرفيعة التى يحتلها جاسوسه فى دولة الخليفة وفى الثناء على مقدرته وكفاءته :

الطيب الحسين . تحرك من امدرمان يوم الجمعة الماضى – كان أمين بيت المال لخالد زقل فى دنقلا – وبعدها تولى أمين بيت المال ليونس الدكيم سجنه يونس فى دنقلا بتهمة « كلمة غير واضحة » قدم التماسا للخليفة الذى أمر باطلاق سراحه.واعاد تعيينه امين بيت المال لمحمد ود بشاره وعادمع ودبشاره لامدرمان وبعث مع محمود للشمال ومكث معه ٤ أشهر وعاد بعدها . جعله الخليفة أحد ملازميه المقربين وكان يثق فيه – وهو رجل على درجة عالية من الكفاءة والذكاء ويلم بالموقف فى امدرمان جيدا . »

بعدها صور الطيب الموقف تصويرا دقيقا موضحا كل استعدادات الخليفة ، ثم قدم اليه كشوفات مطولة عن وحدات الخليفة وتعداد كل منها من المقاتلين والاسلحة النارية والخيول – سواء منها ما بداخل امدرمان أو بخارجها . وأخيرا أوضح لونجت خطة الخليفة بمواجهة الغزو « الملحق ب » ورسمها ونجت على كروكى استنادا على معلومات الطيب – ويوضح تقديمه للخطة انه تمكن فعلا من التغلغل لداخل مجالس الخليفة – دار الوثائق المركزية

Field Intelligence Diary – 1/60/321 – p 26, 23, 24, 25, 22. "In Pencil"

ولعله من الطرافة أن تعلم تقدير الموقف الذى قدمه لونجت عن المعركة المرتقبة :

الخليفة سيقاتل حتى الموت . وسيقاتل معه هؤلاء للنهاية :

أ – الخليفة على ود حلو والراية الخضراء .

ب – الخليفة شريف ورجاله .

ج – الملازمين .

د – كل من يوضع تحت قيادة عثمان أزرق أو عثمان دقنه ولكن كل الرايات المستقلة فى امدرمان والراية الزرقاء ورجال المدفعية – باستثناء يوسف منصور المتطرف فى ايمانه بالمهدية – كل هؤلاء يمكن زعزعتهم بالنيران الشديدة وسينسحبون عندها .

سريعا وحرس .

لقد كان الرجل الذى أثار دهشة كل المعسكر بتجرؤه دخول المعسكر مرتديا جبة الانصار أحد عملاء ونجت السريين (١) ووضحت المعلومات التى بلغها لكتشنر ان الخليفة قرر ان يهاجم عدوه بالقرب من كررى بجيش لايقل تعداده عن أربعين الف مقاتل . وأوضح له تفاصيل القوة ومواقعها ومدفعيتها . بعدها عقد ونجت اجتماعا مع كتشنر استمر لساعة متأخرة من الليل .

أما الفرسان والهجانة فقد عادوا حوالى الساعة التاسعة واقفلت الزريبة ومنع ايقاد النيران فاستسلم المعسكر الى صمت تام لايقطعه الابعض الطلقات البعيدة

---

(١) بمقارنة يومية المخابرات مع كتاب تشرشل يتضح أن الطيب أسر بواسطة تشرشل شخصيا أو بالأحرى ظن أنه اسره – وبالتالى انقذ حياته وقدم خدمة جليلة لونجت .

"and while thus waiting I saw a dervish in orthodox Jibba and advanced towards the nearest vedette – who of – course continued to look in the opposite direction. On my shouting, the soldier turned swiftly, saw the dervish and thrust at him with his lance-the native avoided the thrust with great agility, and made no attempt to attack the lancer. I arrived and invited him to lay his arms. this he did making friendly gestures. Had he been seen in the thick bush instead of an open space, he would assumedly been shot at and perhaps been hit.

Churchill, Winston, *The River War,* Vol II 1899. London, p. 69

« وبينما كنت أقف منتظرا رأيت أحد افراد العدو يرتدى جبة مرقعة متقدما نحو أقرب الفرسان اليه وكان هذا يحدق في الا تجاه المعاكس . وصحت فيه منبها فالتفت مسرعا وعندها شاهد العدو اندفع نحوه بحربته ، الا ان الرجل تمكن من تفادي الحربة بخفة ومهارة ، ولم يحاول مهاجمة فارس الرماحة وعندها وصلت لهم امرته بأن يضع سلاحه ففعل وهو يشير بيده اشارات ودية . واخذته الخلف متفاخرا باسيرى . ولو كان قد شوهد وسط الأشجار الكثيفة لتعرض بالتأكيد للنيران ولربما اصيب . »

"I too was proud of my prisoner until we reached the army. Then it appeared that the dervish was no ordinary dervish. He was a most important individual in the employment of the Intelligence Department who had been spying in Omdurman and came to tell his news, news which he might have never lived to tell

« كنت فخورا بأسيرى إلى أن عدت إلى المعسكر . وبعدها اتضح ان الأسير لم يكن اسيرا عاديا بل كان عميلا مهما للغاية يعمل مع شعبة الاستخبارات وكان يتجسس فى امدرمان ليبلغ معلوماته . تلك المعلومات التى لم يكن ليقدر له ايصالها ابدا لولا انقاذى لحياته .

The River War, p. 69, 73, Vol. II.

وظلال النيران الخافتة من نقاط مراقبة الخليفة على الجبال البعيدة .

° ° ° °

ازداد معدل تقارير عبد الباقي الى ثلاثة تقارير يومية :

« ثم ارفع الى المقام الكريم أمس تاريخه حضر جندى هربان من الكفرة يدعى موسى وعرف ان المخذولين جميعهم تكاملوا فى وادى العبيد وتفيسه وان عزمهم الفاسد بعد ان يصلوا قبة الشيخ الطيب يقدموا الوابورات لتحارب البقعة الشريفة خذلهم الله كما وطلائع الخيل ايضا حضرت واخبرت بأن وابوراتهم جميعها حضرت وهم فى حالة حركة واستعداد كونها جميعها مولعة نيرانها وراسية ولم كان ترجع الى خلفها ولاقدمت نحونا والخيل تركتهم بهذه الصفة وحضروا واعلموا بذالك وبقية الخيل واقف ملاحظ الى احوالهم حيث هذا منا يجب رفعه للمسامع الشريفة والجهدى المذكور واصل صحبة رافعه اباشايب . مما اوضحناه سيدى فان الكفره لاهم حركة بالشرق مطلقا بل جميعهم صاروا بالغرب وعولوا عليه ولأجل المعلومية لزم . »

ولكن عبد الباقي لم يستطع أن يكبح جماح فرسانه ومنعهم من الاتصال بالعدو ، ولعله هو نفسه لم يستطع مقاومة اغراء مناوشة العدو . فقد أوضح الهجوم المنفرد الذى قام به أحد فرسانه ويدعى الطاهر (١) ضد فرقتين ، الاثر الكبير الذى يمكن ان تتركه العمليات الازعاجية فى ظلام الليل — واسرع عبدالباقى ورفع تقريره

وصف تشرشل تلك العملية المنفرده :

« وعلى الرغم من انشاء الزريبة — الا أن أحد فرسان العدو تمكن عند حلول الظلام من اختراق الزريبة ومحاورة كتيبة يوركشير وقذف بحربته ذات الرأس العريض فى وجوههم متحدياً . وأثارت العملية الجريئة المفاجئة الدهشة والاضطراب للدرجة التى تمكن خلالها الفارس الشجاع من الانسحاب دون أن يصاب بخدشة واحدة . »

But a single dervish horseman managed to evade these, and just as the light faded, rode up to the War-wickshire Regiment, and flung his broad-bladed spear in token of defiance. So great was the astonishment which this unepected apparition created, that the Bold man actually made good his escape uninjured.

Churchil, *The River War*, Vol. II, p. 121.

للخليفة موضحا اسم الفارس الشجاع فى تقريره المؤرخ ١٠ ربيع آخر (٢٧ اغسطس)

« ثم نرفع الى مقامه الكريم فان احد الاخوان المسمى الطاهر من الاهل الحمر ابن اخت المكرم ابو شامه الطاهر كان تعين ضمن الخيول الطلائع المعدة لكشف احوال الكفرة انفرد بنفسه وجواده وقصد محل الكفره واقامتهم هو وادى العبيد وكمن الى ان دخل الليل بينه وبينهم وتربص الى ان اقترب منهم وهجم على طايفة منهم بالزريبة فى ظلام الليل وطعن فيهم واحد وصرخوا وهاجوا فى بعضهم وقد نجاه الله ولم يصبه سؤ منهم وحضر يوم تاريخه اخبرنا بذالك والدم على حربته وترك اعداء الله فى محلهم المذكور وحيث هذا من الفعال الحميدة الذى يفعلها اهل الهمم والعزايم الصادقة فقد حررنا هذا لسيد الجميع خليفة المهدى عليه السلام بما حصل منه من التوكل والانفراد بنفسه فى طاعة مولاه سيدى والسلام . »

امضى السر دار ليلة التاسع والعشرين فى الشيخ الطيب :

« ثم ارفع الى المقام الكريم ساعة تاريخه حضرت لنا بعض من طلائع الخيل واعلمتنا ان اعداء الله الكفرة المخذولين حضروا بالشيخ الطيب هم ووابوراتهم وبقية الخيل واقف معهم وحيث هذا منا يجب رفعه الى مسامع سيد الجميع خليفة المهدى عليه السلام لاجل المعلومية . . . »

** ** ** **

اشرقت شمس الحادى والثلاثين من اغسطس وبدأت الحياة تدب ببطء فى المعسكر الضخم . وعندما بدأت الآلاف تفرك عينيها وتنفض اثر النعاس عنها ، فتحت ابواب الزريبة وانطلقت كل القوات الراكبة فى الفضاء العريض مغطية مواجهة زادت عن عشرة اميال ، تفصلها عشرة أميال أخرى عن القوة التى انتظمت فى تشكيل القتال هذه المرة . . . . فلم يفصلهم عن امدرمان اكثر من عشرين ميلا . امتطى السردار جواده يرفرف فوقه العلم المصرى وحوله اركانحربه والجميع فى انتظار فارس مسرع ينطلق عائدا حاملا خبر جيش الخليفة .

وكالعادة انسابت البوارج النيلية متقدمة الجميع حتى الفرسان والهجانة . وهي التي اشتبكت الاشتباك الاول مع قوات الخليفة المتقدمة بقيادة يونس بعد انضمام عبد الباقي له، بعد تجميعها استعدادا للتقهقر والانضمام للقوة الرئيسية في الخلف . وقد استطاعت البوارج فتح نيرانها على قوات يونس وعبد الباقي التي انتشرت في ثلاث مجموعات كثيفة متجهة شمالا ، وأمتد طرفها الايمن الى مسافة ميلين من النيل . أما هجانة برود وود ففي أثناء استطلاعها المتقدم الى عمق الصحراء ، تمكنت من تبادل بعض الطلقات مع الطرف الأيسر من قوات عبد الباقي . وسرعان مانشطت اعلام الاشارة الصغيرة الملونة في خفقاتها السريعة لتنبئ رئاسة السردار بأخر اخبار العدو .

لم تقطع قوات السردار أكثر من ثمانية أميال في ذلك اليوم . ومنذ الظهيرة امر السردار بالتوقف في قرية السروراب ولم يسمح بالتقدم أكثر من ذلك، فقد أراد أن يوفر زمنا كافيا لاقامـــة حصن يقضي فيه ليلته حتى لايباغته الظـــلام ، ووراءه العدو ، وهو في العراء . لم تمض ساعات قليلة حتى امتلأ السفح بمئات الخيام البيضاء التي نبتت فوق سطح الارض كالاشجار الصغيرة .

ومن تلك المسافة التي تجاوزت العشرين ميلا تمكنت عناصر استكشاف فرقة الرماحة من رؤية امدرمان وملتقى النيلين بالمنظار المكبر . ولكن السماء كانت مليئة بالسحب فلم يميزوا المعالم جيدا . وبدت قطعة الأرض الضخمة التي تفصلهم عن امدرمان خالية الا من بعض فرسان الخليفة كالنقط السوداء الصغيرة هنا وهناك . الا ان عامودا من الدخان يشق الأفق البعيد اوضح ان نقاط مراقبة الخليفة تمارس واجبها بنشاط . وبعدها بدقائق اندفع عامود آخر خلفه عاليا هذه المرة من جبل كرري ، أعلى هيئة طبيعية في تلك المنطقة ، وبعدها انطلقت بضعة نيران صغيرة اللهب في خط شبه منتظم جنوبا نحو امدرمان .

أقام السردار زريبة سميكة هذه المرة، يتناسب سمكها مع المسافة الضيقة التي تفصله عن عدوه العظيم . وللمرة الثانية في هذا الأسبوع كتب على جيشه أن يمضي ليلة مزعجة . فمنذ الظهيرة تجمعت السحب منبئة عن ليلة ممطرة ، ولم يطل الانتظار حتى فتحت السماء أبوابها وابواقها قبل منتصف الليل، فبللت المياه الخيام واصمت

العواصف الرعدية آذان الجيش الغازى .

جلس السردار داخل خيمته وهو يغالب الأفكار التى تضطرم فى رأسه . فما الذى يمنع الخليفة من الهجوم الآن ولاتفصله عنه الا بضعة أميال ؟ فذلك الليل المظلم وتلك الضوضاء كفيلة باخفاء ضجة آلاف الجنود المتقدمين .

صحيح انه اتخذ كل الاحتياطات ، فقد شيد زريبته المعهودة واقفلت كل مداخلها منذ مغيب الشمس . وبعثر عشرات الاطواف خارج الزريبة وفى كل الاتجاهات ولعدة أميال جنوبا لتوفر انذار مبكر فى حالة مباغتة العدو له . وانطلق « اصدقاء سلاطين » فى دهمة الليل ليختفوا فى الظلام للانصات . ولكن الرؤيا كانت محدودة والسمع كان معدوما . وصحيح انه أمر كل الرتب بالنوم بملابسهم كاملة وفى صفوف منتظمة واسلحتهم فى متناول اليد . . . ولكن كل ذلك لم يكن كافيا . . . . ولايجدى فتيلا امام هجوم مباغت من العدو يختلط فيه الحابل بالنابل وتحصد رشاشات ومدفعية السردار العدو والصديق على السواء .

ولكن الليلة مرت بسلام . وعندما بدأ ضوء الفجر الخافت يتسلل وسط خيام المعسكر الهائل . . . . تنفس كتشنر ونجت الصعداء بانتهاء ليلتهم المسهدة . . . فهاهى كررى أمامهم . . . على بعد خطوات . ولابد أن جيش الخليفة فى انتظارهم فى الزمن المحدد والمكان المفضل . . . كررى .

** ** ** **

أوضحت اللهفة التى سادت لهجة عبد الباقى فى تقريره الأخير يوم ٣١ أغسطس أن العدو أصبح على الأبواب . وسارع هو بعد تحريره الى الانضمام ليونس فى جبل كررى ، ومنها انطلق لامدرمان لمقابلة الخليفة :

« ثم تعلم جنابه الشريف ان اعداء الله الكفره المخذولين حضروا وترائينا معهم رأى العين ومافضل بيننا وبينهم الا الحرابه والحالة هذه نحن ومن معنا من الاصحاب اجتمعنا مع المكرم يونس الدكيم وعيننا فيهم وهم مناظرين الينا وحيث هذا منا يجب اعلام سيد الجميع خليفة المهدى عليه السلام بالاسراع وخروج الجيش والرايات فقد رفعنا هذا الى مقامه الكريم فالمقصود

سرعة حضور جيش الاسلام اذ ان ساعة تاريخه نحن وهم فى مسافة اللقاء
وانشاء الله مخذولين واينما يتوجهوا مهلوكين سيدى والسلام . »

*** ** * ** ***

التقـــدم

« القبـة بنيناهـا مـن طـين . . . . . .
وسنبنيها مـن طـين »

الخليفة عبـد الله

استيقظ سكان امدرمان فجر الاربعاء ٣١ اغسطس ، على دوى النحاس وصفير الامبايه معلنة بداية تقدم آخر جيوش المهدية نحو ميدان القتال . احتشدت الفرق المختلفة منذ طلوع الفجر بالجامع الكبير وفى القضاء شرق القبة . وفى تمام الساعة السادسة بدأ تحرك الجنود بالارباع لميدان العرضة في صفوف منتظمة ، كل صف مكون من اربعة جنود ، وامام كل ربع ركب امير الربع شاهرا سيفه ، بدأ التقدم بخطوات منتظمة على توقيع الموسيقى وعلى اناشيد عشرات الالوف « لا اله الا الله . . . . . . لا اله الا الله . . . . . جودوا الكفار فى شأن الله . » .

كانت تعليمات قادة الارباع هى التقدم الى ميدان العرضة والتجمع هناك الى حين وصول الخليفة . وقد بدأ الباب الغربي للجامع الكبير يقذف الى شارع العرضة بأفواج البشر المسلحين منذ الفجر حتى الرابعة مساء . وفى منتصف الرابعة كانت الرايات قد اصطفت والامراء امامها انتظارا لوصول الخليفة .

خرج الخليفة من محراب القبة بعد الظهر ، واتجه نحو باب منزله حيث امتطى جمله الابيض وادار عنانه غربا . وسرعان ماوجد نفسه داخل المربع المعهود الذى شكله حرسه الخاص . تدلت ذوائب عمامته الطويلة وارتكز حد سيفه الطويل على كتفه ، فقد حمله هذه المرة بنفسه ولم يكل أمر حمله لغلامه الحبشي . واخيرا وصل موكبه الى جيشه المصطف فى هيئة الاستعراض . مماثلا لاصطفافه العادى كل يوم جمعة .

بدأ الخليفة جولته المعهودة امام جيشه واستقبله امراء ومقاتلو كل راية بالهتاف المعهود « ابشر بالخير » ورد هو على كل منهم بتلويح سيفه عاليا . فهاهو المقاتل

القديم يعود مرة اخرى الى ميادينه ، بعد طول ابتعاد جاوز ثلاثة عشر عاما . فقد شهدته قواته آخر مرة لها في حصار الخرطوم . بدت آثار السنوات الطويلة من المشغوليات والهموم والمسئوليات والاحداث العنيفة واضحة للأعين . فقد ترهل جسده وثقلت حركته قليلا ، وتخللت الشعيرات البيضاء لحيته . . . وغمرت بشاشة وجهه القديمة مسحة من الانقباض وعلته تقطيبة دائمة .

لقد كان ترتيب جيش الخليفة نفس ترتيبه فى ايام العرضة عدا اختلافين بسيطين ، اعادة الراية الحمراء « راية الخليفة شريف » الى مكانها القديم . وانضمام قوات عثمان دقنه . اتخذ الخليفة علي ود حلو اقصي اليمين « مكان محطة اللاسلكى الآن جنوب المنطقة الصناعية » ورفرفت خلفه الراية الخضراء . وازدحمت صفوفه بقبائل النيل الابيض دغيم وكنانه . . . محاربي المهدى الاوائل والذين لم يفارقوه منذ تجريدة ابو السعود بالجزيرة ابا عندما قهروا عدوهم فجرا بالسيوف والعصى والحجارة . وقد امتدت صفوفهم في مواجهة احتلت اكثر من نصف ميل . وعن يساره رفرفت الراية الخضراء الغامقة الضخمة فوق عثمان شيخ الدين وقد غمره الزهو . . . . فقد كان قائدا لاكبر قوة فى الميدان . وتجمع فى مربعه الضخم اغلب السلاح النارى الذى غنمته المهدية فى حروبها الدامية طوال خمسة عشر عاما . بنادق الشلالى ، وهكس ، وراشد ، ويوحنا ، وغردون . كما تكونت صفوفه من زهرة جيوش المهدية ، الجهادية السود والملازمين ابناء زعماء القبائل العربية . وعن يسار شيخ الدين وقف الخليفة شريف والراية الحمراء تعلوه مرفرفة فوق الجعليين والدناقلة حارسيها . واخيرا فى اقصى اليسار تجمع رجال عثمان دقنة الذين قطعوا آلاف الاميال للادلاء بدلوهم فى اليوم الحاسم ، كان دقنه راجلا ولم تكن هنالك راية تميز رجال الهدندوه الذين كانوا اول من وصل للميدان من ديم عثمان دقنه البعيد فى طرف امدرمان الشمالى . وخلف الجميع رفرفت الراية الزرقاء كجيش قائم بذاته ولكن لم يكن اميرها يعقوب بالقرب منها . فقد تقدم يعقوب منذ رؤية موكب الخليفة واستقبله وكان اول من حياه « وبشره بالخير » وركب يمينه ومضى معه لاستعراض جيشه العظيم .

وبعدها اقتربت الصفوف حول الخليفة الذى توسطهم والقى خطبة نارية

حاثا جنوده على الاستبسال فذلكم هو اليوم الفصل .

وقبل مغيب الشمس بقليل انتهى الخليفة من خطبته وامر الامراء بتجميع مقاتليهم والمبيت في ميدان العرضه استعدادا للتحرك صباحا . ومضى هو الى خيمته التي اعدت وسط المعسكر . كانت خيمة الخليفة هي نفس الخيمة التي تقدم بها الملك يوحنا نحو القلابات غازيا قبل عشر سنوات ، كثيرة الزخارف ، الا ان الصلبان المطرزة ازيلت وحلت محلها الآيات القرانية .

تناثرت خيام كبار الامراء حولها حسب مراكزهم . اما بقية الجيش فقد توزع في الخيام في شكل نصف دائري هائل اتجه قوسه شمالا . ولم تسع الخيام كل الجيش فاختل الشكل المنتظم قليلا بعد ان تبعثر الآف المقاتلين في فضاء ميدان العرضة للاحتماء من النسمات الباردة التي هبت منذرة بهطول مياه الامطار التي غمرت امدرمان في التاسعة مساء .

وانتشرت هنا وهناك النيران التي اوقدها الجيش المحارب لطبخ عشائه . فقد احضر كل منهم زاده من منزله ، عدا الملازمين وجنود الراية الزرقاء فقد صرفت لهم الذرة كمجموعة منذ الصباح الباكر وجلسوا جماعات وشلل صغيرة يتحدثون في انتظار العشاء .

امضى الخليفة الجزء الأول من ليلته تلك لم يقطع خلوته احد خلاف الامير عبد الباقي الذي ادخل عليه بعد وصوله مباشرة من كرري بعد ان انسحبت آخر نقاط ملاحظته . وجده منفردا فقدم اليه تقريره الأخير عن العدو . وانصرف عبد الباقي ودخل عليه يعقوب وظلا سويا الى ساعة متأخرة من الليل . وبعدها امر فادخل عليه مجلس شوراه وبسط امامهم اخر معلومات عن تقدم العدو .

* * * * * * * *

كان السردار يعلم ان جيش الخليفة ظل داخل امدرمان حتى تلك اللحظة . وكان في رأيه ان اعظم الاخطار تحيق بجيشه اذا وقف الخليفة وقفته الأخيرة داخل امدرمان، فبالتأكيد سترتفع نسبة الخسائر اذا خاض معركته داخل شوارع امدرمان الضيقة ، وفي ميادين قتال لاتتجاوز بضعة امتار موفرة للعدو فرصة مثالية للالتحام

والاشتباك يدا بيد في الدقائق الاولى من معركة يلعب فيها التفوق العددى والشجاعة العمياء الدور الاكبر — وبالتالى يقل تأثير اسلحته وتفوق نيرانها كثيرا ، وتنعدم الفرصة امام جيشه المدرب لاظهار كفاءته القتالية التى امضى سنوات مضنية من التدريب يعدهم فيها لهذا اليوم .

صحيح ان كتشنر كان يعلم انه يستطيع دك امدرمان بمدفعيته فى قصف تمهيدى يقذف فيه كل الذخيرة التى توفرت له . . . . ولكنه كان يعلم انه نادرا ماكسبت معركة بنيران المدفعية . وحتى لو إستطاع ذلك فلم يكن فى مقدوره تجنب معركة التحامية فى النهاية . ثم ان امدرمان بضخامتها وانتشارها كان من الصعب تغطيتها كلها بنيران المدفعية . واخيرا لم يكن ذلك ماتمناه كتشنر فقد امل حسب آخر معلومات قدمها جاسوس ونجت الغامض فى الليلة الماضية ان العدو سينتظره على ربي كررى وبالقرب من النيل وفى ارض فضاء تتوفر فيها ارض قتل مثالية لاحدث ما انتجته مصانع بريطانيا ووفرته مدافع الاسطول من اسلحة التدمير .

فقد ذكر تقرير المخابرات رقم ٦٠ :

« لما كانت مصلحتنا تتمثل فى خوض المعركة فى ارض فضاء فقد ارسلت شعبة المخابرات بعض العملاء لاقناع الخليفة بأن فرصته الوحيدة فى الانتصار كانت فى التقدم واخذ المبادأة . وان يضربوا على نغمة ان العدو كان منتصرا دائما كماحدث فى فركة ودنقلا وابو حمد واتبره طالما كان الانصار هم المدافعين . ولتذكيره بنبوءة قديمة للمهدى ان جيشا ضخما للكفار سيباد على ربي كررى .»(١)

ولكن الخليفة لم يكن بحاجة لمن يحثه ، فقد قرر قبلا التقدم لكررى ، وقد

As it was to our interest to fight the Khalifa in the open, special agents were sent by the intelligence department to Emirs who were known to be well disposed to the Government to cause them to convince the Khalifa that his only chance of victory lay in his taking the initiative. They pointed out that when ever the government troops had attacked as at Firket, Dongola Abu Hamad and Atbara they had been successful, they reminded him also of an old prophecy of the Mahdi that an advancing force would be attacked and defeated near Kerreri.

Sudan Intelligence Report 60-p 2

عسكر بقوته خارج المدينة استعدادا للتقدم . وعندما اجتمع مع مجلسه للتباحث الأخير اندفع اغلب من فى المجلس فى تأييده بالتقدم لكررى . لم يدم اجتماع المجلس طويلا فقد انفرط عقده قبل منتصف الليل . ولكن ظلت خيمة الخليفة مضاءة حتى الساعات الاولى من الصباح .

والواقع انه لو كان امام الخليفة فى تلك اللحظة طريقان لاثالث لهما ، وهما القتال داخل شوارع امدرمان الذى خشاه كتشنر ، أو الخروج لمقابلته فى العراء فالواضح ان الخليفة كان سيختار الأخير . فجيوش المهدية لم تكن ابدا تلك الجيوش التى تقبع ساكنة داخل الازقة والبيوت فى انتظار عدوها . وطبيعتها وتسليحها حتم عليها ان تصبح قـــوة هجومية ، حتى دفاعها كان دفاعاً هجوميا . فهـــو جيش استمد خبرته وامجاده من الحركة . وحتى معاركه الساكنة ظاهريا ، كعمليات الحصار الكبيرة مثل حصار الخرطوم والابيض ، أو الكمائن ، كانت تنتهى دائما بالهجوم والتقدم . وجيش هذه شيمته ، يقارب اربعين الفا لابد له من ارض واسعة تمكنه من المناورة وتحقيق الصدمة الهجومية المطلوبة . والواضح ان الخيال العسكرى لخوض المعارك فى نظر قادة هذا الجيش الذى خاض مايزيد على الخمسين معركة كبيرة فى اقل من عشرين عاما كان لايتعدى الهجوم أو الكمائن الانقضاضية المفاجئة ، والانتظار فى امدرمان لايمكن ان يحقق كمينا مفاجئا .

وتغيير تلك الفكرة تغييرا جوهريا كان يستلزم الماما وتصورا كافيين لطبيعة تسليح هذا العدو الجديد . والواضح انه عندما قرر الدفاع فى السبلوكه كان قد بدأ فى تكوين الفكرة الصحيحة عن ذلك العدو . وخصوصا خطورة البوارج التى كان يخشى شرها للحد البعيد ، وما اضطر الى إخلا السبلوكه الا مكرها . ولكن كان الدفاع فى السبلوكة شيئا مختلف تماما عن الدفاع داخل امدرمان . فطبيعة القتال فى السبلوكة تناسب تسليحه وطبيعة جيشه .

** ** ** **

كيف كان مخطط الخليفة بالضبط لمواجـــهة عـــدوه عندما قرر التقـــدم والاصطدام به فى كررى ؟ لقد قرر خوض معركته الهجومية الكبيرة على طراز

شيكان واوضح هذا الرأى وشرحه واتفق عليه مع قادته .

وعليه(١) قرر تقسيم قوته الى قسمين . قسم نيران كونه ملازمية شيخ الدين هذه المرة كما مثله جهادية ابو عنجة من قبل فى شيكان . وقسم اقتحام كونت الجزء الاكبر منه الراية الزرقاء كما مثله ود النجومى من قبل . على ان ينتظر الخليفة العدو فى طريقه لامدرمان وقد قسم جيشه الى محورين يهجمان فى اتجاهين مختلفين : يتقدم الملازمون شمالا نحو العدو الى ان يصلوا الى المدى المؤثر لبنادقهم مع العدو ويفتحون النيران . اما القسم الثاني قسم الاقتحام من المشاه والفرسان والذى شكل زاوية قائمة مع القسم الاول فينقض فجاة تحت ساتر النيران ومن اتجاه الغرب على العدو وهو متقدم نحو امدرمان .

ولكن طبيعة الارض فى شيكان غيرها فى امدرمان ، فان حشائش واشجار كردفان كفلت ساترا لنيران جهادية ابو عنجة للتقدم وصب نيرانهم من اقرب مكان من العدو . كما ان جيش هكس كان جيشا يختلف تماما عن جيش كتشنر تسليحا وعتادا وتصميما ، فكيف يتمكن من تنفيذ خطته وايصال عنصر نيرانه الى مكان قريب حتى تصبح نيرانه مؤثرة . . . الظلام يسدل استاره فيحجب الرؤيا ، وهو نفس الحل الذى وجده المهدى عندما هاجم ارض الخرطوم المكشوفة ، فقد هاجم فى الثلث الاخير من الليل . وحسب معلومات عبد الباقي الوكيل قدر الخليفة الزمن الذى يشتبك فيه مع العدو . على ان يبدأ الملازمون فتح نيرانهم طول الليل . وقبل طلوع الفجر مباشرة تنقض الراية الزرقاء والفرسان على العدو من اتجاه مختلف تماما عن اتجاه نيران الملازمين . كانت تلك الخطة مماثلة تماما لمعركة شيكان — الجهادية بالجوانب يصبون نيرانهم من وراء ساتر الحشائش والاشجار الى ان مكنوا عنصر الاقتحام بالسلاح الابيض من الاندفاع نحو العدو وابادته . وتنفيذ ذلك المخطط حتم على الخليفة توقيت تحركه من ام درمان كما حتم عليه التقدم باصطفاف معين .

فقد قرر ان لايلتحم مع العدو قبل حلول الثلث الاخير من ليلة الخميس

---

(١) الملحق (ب) The Khalifa Plan of Attack

وذلك القرار املى على الجيش توقيت التحرك واتجاه التقدم، واخيرا أملى عليه ايقاف تقدمه على بعد خمسة أميال من العدو .

اما التكتيك الذى قرر خوض المعركة به فقد املى عليه اصطفاف تشكيل التقدم . والواضح ان الخليفة اذا اعتمد على نيران الملازمين كعنصر نيران يكفل لعنصر الاقتحام « الراية الزرقاء » غطاء وساترا كافيا للتقدم والانقضاض على العدو، كان لابد له ان يفصلهما عن بعضهما البعض ليتمكن عنصر الاقتحام من التقدم والانقضاض من اتجاه مختلف يكفل لهم مسافة امان معقولة وغطاء نيران لاقرب مكان من العدو ويضمن عدم تداخلهم وتعرضهم لنيران الملازمين .

قد يبدو ظاهريا ان شيكان قد حسمت فى اقل من خمسة دقائق ولكن لم تكن تلك الدقائق الخمس هى كل شئ ، بل كانت اسابيع المناوشات واقلاق مضجع العدو وخسائره المتواصلة اثناء تقدمه المتعثر هى التى حسمت تلك النهاية السريعة ، خيول أبو قرجة فى تعقبها وملازمتها للعدو كظله لمئات الاميال . . . نيران ابو عنجة ليلا ونهارا . . . . عشرات الافراد من جيش العدو الذين هجروا صفوفه وانضموا للمهدى سواء من المصريين أو الاوربيين حيث اعتصر منهم المهدى معلومات مفصلة طازجة عن أدق دقائق العدو .

لماذا لم يتبع الخليفة ذلك التكتيك مع العدو وظل ساكنا فى امدرمان ولم يظهر أى نوع من العدائية نحو العدو خلاف عناصر عبد الباقى ؟ هل لأن طبيعة المنطقة من عطبرة الى امدرمان لم تسمح بذلك ؟ أم لطبيعه تقدم العدو حين كان يقذف بستاره من قواته الراكبة لعشرات الاميال للاستكشاف البعيد ؟ أم لأنه لم يحبذ تجزئة جيشه وقرر الاحتفاظ به كله فى امدرمان ليخوض به معركته النهائية، وخشى ان دفع ببعض منه لمناوشة العدو ، أن يباد وتلحق به هزيمة نكراء تضاف الى قائمة هزائم جيشه الطويلة منذ ان بدأ هذا العدو الجديد فى التقدم قبل سنتين ؟ وخشى بالتالى اثرها على روح جيشه المعنوية وعزيمته ؟ وقد رأى بعينه منظر فلول محمود المقزره وهى تعود لامدرمان . واحس بأثرها فى معنويات جيشه . لقد كانت تلك أحدى الفرص المفتوحة أمامه ، مناوشة العدو ، كل ليلة أثناء تقدمه الطويل من عطبره حتى كررى كما نصحه عبد الباقى .

ولكن كان ذلك عدوا ذكيا لم يتقدم مجموعة واحدة كما فعل هكس ، بل كان يدفع امامه وغربه بقوات راكبه لاكثر من عشرة اميال للاستطلاع ، وبالتالى وفر عنصر انذار مبكر لجيشه ليحتاط وليستعد لكل خطر كل ليلة عند المبيت . وطبيعة المنطقة المكشوفة لعشرات الاميال غربا وجنوبا ستحرم أى قوة اكبر من قوة عبد الباقى من ان تناور وتباغت وتناوش كما فعل ابو قرجه مع هكس . وفوق كل هذا وذاك اصبح الخليفة حساسا بعد الهزائم المتواصلة من ناحية كفاءة قادته، وفى داخل نفسه لم يكن يثق الا فى نفسه لقيادة كل جيشه لمعركته القادمة .

** ** ** **

فى صباح الخميس الاول من سبتمبر وقف كل الجيش لتأدية صلاة الفجر وأمهم الخليفة وتماوجت عشرات الالوف فى حركة منتظمة وهى تركع . . . وتسجد وتقف . أما التكبير فقد طغى على صوت الانفجارات البعيدة الصادرة من شاطئ النهر ، فقد بدأت معركة المدفعية بين الطوابي واسطول السردار النهرى . ولم يقف الخليفة خطيبا كعادته بعد الصلاة فلم يبق مايقال . فالمدافع ستتكلم . وبعد الصلاة تجمع امراء الرايات حوله لاستلام اوامرهم الأخيرة قبل التحرك . ومن ثم انطلق كل منهم عائدا لقواته . وفى الحادية عشر وخمس دقائق خطا جواد الخليفة،متبخترا، خطوته الاولى ، وعلى دقات النحاس ووسط التهليل والزغاريد تقدم جيش الخليفة نحو كررى .

وقد وزع ذلك الفيضان البشرى الذى قاربت مواجهته اربعة اميال وعمقه اكثر من ميل على النحو التالى :

بفاصل تجاوز الميلين من التجمع الرئيسى تبعثر اثنا عشر طوفا راكبا فى مواجهة غطت اكثر من خمسة اميال ، من الفرسان الذين سلحوا بالبنادق وكانت قوة كل طوف تتراوح بين خمسة وعشرة فرسان .

وفى أقصى اليسار رفرفت الراية الخضراء . . . راية الخليفة ود حلو.وخلفها تجمع أربعة الف مقاتل فى اربعة صفوف بلغت مواجهتها نصف ميل . اما اكثف كتلة بشرية واعرضها مواجهة فقد كونتها القوة الضاربة الرئيسية للجيش . . .

الملازمون، وخلفها مباشرة تقدم قائدها شيخ الدين امام المربع الذى شكله حرسه الخاص .

أما الجناح الايمن فقد احتلته راية الخليفة شريف وتقدمت قليلا امام القوة الرئيسية . فلم يستطع الخليفة محمد شريف كبح حماسه فهو من اهل المهدى . . . فقد ربطته رابطة الدم بالثأر العظيم الذى تجسدت دعوته فى كل ذلك الجيش الضخم . بلغت مواجهة رابع الخلفاء ، واصغرهم سنا ، ستمائة متر فى تشكيل غير منتظم ادى الى امتزاج صفوفه مع القوة الصغيرة التى قدر لها ان تبرز صفاتا قتالية اخرى لجيش المهدية بجانب الشجاعة والتضحية والايمان المطلق بالهدف . . . . صفات العقل العسكرى المدبر الذكى . . . . تلك كانت قوة عثمان دقنة . . . ولم يكن موقعها فى اقصى اليمين بمحض الصدفة . فمنذ الليلة الماضية لفت عثمان نظر الخليفة الى خطورة ترك جناحه الايمن — جهة النيل — مكشوفا والطريق نحو امدرمان الحالية مفتوحا بدون حماية . فكان ان وضعت قواته لحماية طريق انسحابه وايقاف اى محاولة من جانب العدو للالتفاف حوله واحتلال امدرمان وطعنه من الخلف . وقد ظل ذلك واجبه حتى نهاية المعركة . وفى تلك النقطة برهن دقنة عن بعد نظر استراتيجى منقطع النظير . وكأنه كان يقرأ تفاصيل المعركة المقبلة فى كتاب مفتوح . فقبل مضى يوم وعندما وصل الرماحة الى خور أبو سنط . . . ، وجدوا الثعلب القديم فى انتظارهم .

اما رئاسة كل ذلك الجيش فقد تكونت من موكب الخليفة وحرسه الخاص من الملازمين الذين بلغ عددهم الف رجل مسلح بالبنادق ، فقد اخذت مكانها مباشرة خلف مربع الملازمين . يليها احتياطى القوة بقيادة يعقوب وهم جنود الراية الزرقاء ممثلين لثلاثة واربعين قبيلة من قبائل غرب السودان سلح أغلبهم بالاسلحة البيضاء . كان واجب يعقوب هو تعزيز وتقوية أى ضعف يظهر فى مواجهات الهجوم الامامية . كما كان واجب على ود حلو هو حماية الجهة الغربية أو جناح الجيش الايسر وحرمان كتشنر من ممارسة التطويق والقيام بحركة التفاف حول ميسرة الجيش. وكان الخليفة حساسا من هذه الناحية ،فتقارير الوكيل أوضحت اكثر من مرة القوة الراكبة الضخمة المعادية التى كانت تتقدم دائما من جهة الغرب

وبدت من وجهة نظر الوكيل ، وبالتالى من وجهة نظر الخليفة ، وكأنها هى القوة الراكبة الرئيسية للعـــدو . فقـــد تركزت أغلب قوات كتشنر الراكبة « سبعة عشر سرية راكبة هجانة وخيالة برود وود » فى الجناح الأيمن بعيدا عن النهر . وتوقع الخليفة أن يتبع العدو تكتيكا قديما طالما مارسته القوات الاوربية ، وهو هجوم الفرسان على اجنحة الجيش واختراقها وتحطيمها ممهدة لهجوم المشاة على وسط العدو . لذلك خصص واجب حماية الجناح الايسر لعلى ود حلو ووفر له عنصرا راكبا قويا بلغ اربعمائة فارس لحماية الجانب الايسر للجيش من فرسان العدو . وهى قوة الفرسان الوحيدة التى شوهدت ككتلة واحدة .

وضع الخليفة قوات الراية الحمراء بقيادة الخليفة شريف وعززتها قوات عثمان دقنة لحماية الجناح الايمن ، واحتفظ عثمان دقنة اثناء تقدمه وهو فى اقصى اليمين بفاصل يكفل له مسافة امان معقولة من رشاشات العدو ومدفعية البوارج .

وفر تشكيل التقدم مجابهة كافة الاحتمالات . لكن لعل هناك خطأ عاما مميتا برز فى كل صفوف الخليفة سواء فى الاجناب أو المقدمة أو الوسط أو الاحتياطى ، وهو عدم الاحتفاظ بفاصل ، ولو بضعة ياردات ، بين كل فرد وآخر ليقلل ذلك من اثر نيران العدو ، بل مضى الجميع وكتف كل مقاتل يكاد ان يلاصق كتف جاره . وبذلك وفرت المجموعات المتحركة اهدافا مثالية لأى نيران كثيفة من اسلحة ورشاشات العدو ولأى قصف مركز من مدفعيته ، اهدافا لايحلم بها اى قائد فى أية ظروف . ولكن من الناحية الأخرى كان توسيع الفواصل بين قوات الخليفة يعنى انتشار جيشه الضخم فى مواجهة تتجاوز عشرات الاميال بحيث تصعب سيطرته عليها . والخليفة اعتمد حتى الآن على حيوية على الجله ورسله الآخرين كعنصر المواصلات الوحيد للسيطرة على كل تلك الآلاف . وقد برزت تلك الصعوبة ، صعوبة السيطرة على وحداته المنتشرة اثناء المعركة ، وادت الى نتائج وخيمة .

ولكن كل تلك القوة التى توفرت لها كل العناصر لمعركة ضخمة فى القرن التاسع عشر كان لابد لها للقيام بأى واجب . . . . هجوميا كان أم دفاعيا ، من غطاء نيران قوى من مدى بعيد . . . . اين اذن كانت مدفعية الخليفة ؟

لقد خصص ثلث مدفعيته « ١٩ مدفعا » لميدان القتال للمعركة الارضية . ولكن اغلب مدفعيته اتخـذت مواقعها داخـل الطوابي فى الضفة الشرقية للنيل وفي توتي والمقرن وبعضها وضع على الضفة الغربية في امدرمان لمواجهة اسطول كتشنر النهرى . اذن فواجب المدفعية الاول هو اسـكات مدفعية العدو . . . ومدفعية كتشنر تركزت فى اسطوله النهرى .

تجمعت مدفعية الخليفة التى الحقها بجيشه المتقدم كمجموعة واحدة يمين رئاسة الخليفة . حيث كانت تفاصيلها كالآتي :

أ ـ ثلاثة عشر مدفع جبلى

ب ـ مدفع كروب

ج ـ ثلاثة مدافع متراليوز

د ـ مدفع رمنجتون

ه ـ مدفع فرنسى

كانت المدافع تجر بواسطة الخيل والجمال وخلف كل مدفع تجمع عدد من الجمال لحمل الذخيرة التى وضعت داخل الجوالات واكياس سميكة من قماش الخيام .

** ** ** **

فتحت ابواب زريبة كتشنر بالسرورابِ فى الساعة الخامسة صباحا يوم ١ سبتمبر وانطلقت كل قواته الراكبة فى المقدمة . وكالعادة انتشرت كتيبة الرماحة في جهة اليسار ، جهة النهر ، بينما انطلقت اغلبية القوات الراكبة ، الفرسان والهجانة المصرية يمينا ضاربة فى عرض الصحراء ، ولم يمض زمن قليل حتى انتشرت فى شكل هلالى لحماية مقدمة وميمنة الجيش .

قطعت القوات الراكبة اكثر من ثمانية اميال قبل ان يتخذ مشاة كتشنر

التشكيل النهائي للتقدم . وعندما تحرك الثعبان البشرى الهائل اخيرا . . . كانت القوات الراكبة بعيدة عن نظره واوامرها واضحة : استكشاف امدرمان وجيوش الخليفة . بينما انساب اسطول كتشنر النهرى بفواصل اقصر قليلا من سابقتها واوامره واضحة ايضا . . . تدمير امدرمان وتحصيناتها واسكات مدفعية طوابيها على شاطئ النهر . الا ان ذلك كان يستدعى احتلال راس جسر لمدفعية الهاوزر الثقيلة بعيدة المدى . . . وانسب راس جسر كان يمكن احتلاله هو الضفة الشرقية . لذلك امر الميجور ورثلى « قائد العربان الموالية » بالتعاون مع مدفعية البوارج لاحتلال الضفة الشرقية وتنظيفها ليمكن المدفعية من احتلال مواقعها والبدء فى قصف امدرمـــان .

ما ان تسلق الرماحة القمة اليسرى لجبال كررى حتى ظهرت قبة المهدى فى الافق البعيد ، وامتدت امدرمان فى بقعة واسعة من الارض غربا وجنوبا . حجب جبل سركاب بقعة الأرض غرب امدرمان . ولكن خيالة برود وود التى انطلقت غرب الرماحة استطاعت ان ترى المنظر كاملا . خيام معسكر الخليفة التى تناثرت كالبقع البيضاء هنا وهناك . . . الفرسان يتناوبون سقاء خيولهم من برك المياه المتخلفة من أمطار الليلة الماضية . . . التحركات الاولى لجيش الخليفة لينتظم فى تشكيل التقدم نحو كررى واطواف الفرسان المتقدمة التى فصلتهم عنهامسافة لاتزيد عن ميلين . ولما لم يتمكن ضباط الخيالة المصرية من رؤية تفاصيل جيش الخليفة تقدموا ميلا آخر واحتلوا قمة احد جبال المرخيات على بعد أربعة اميال من شاطئ النهر . ولكنهم سريعا ما اصبحوا على وشك الاشتباك مع اطواف فرسان الخليفة المتقدمة . ترجلوا عن جيادهم وبدأوا فى اطلاق نيران بنادقهم من مسافة ثمانمائة ياردة . وتمكنوا من اصابة فارسين من فرسان الخليفة ــ وترجل باقى الطوف وحمل احد المصابين وعاد ببطء نحو القوة الرئيسية . اوضح ذلك بجلاء جهل فرسان الخليفة بالمدى البعيد للبنادق الجديدة .

* * *

فى الساعة الحادية عشر والنصف طلب الكولونيل مارتن قائد كتيبة الرماحة من مركزه المتقدم فى قمة جبل سركاب من أحد قادة السرايا ارسال ضابط بجواد نشط . فارسل له قائد السرية الملازم ثاني ونستون تشرشل . وعند مقابلة قائد الكتيبة

طلب منه هذا دراسة الموقف جيدا والعودة والتبليغ للسردار مباشرة فى الخلف . حدق الضابط الصغير جيدا الى ان انطبع المنظر فى ذهنه وعاد مسرعا ليقطع الأميال الستة التى فصلت الرماحة عن رئاسة السردار وسط المشاة . لم يكن الملازم سعيدا بالمهمة . فقد كان الود مفقودا بينه وبين السردار . فقد رفض السردار انضمامه للحملة رغم عشرات الوساطات ، الى أن تدخل رئيس الوزراء شخصيا . فالسردار لا يطيق رؤية هذا الضابط الصغير الذى يؤلف الكتب وينقد الجنرالات. ولكنه اسلم أمره لله وتقدم باحثا عن السردار . كان السردار مطرقا برأسه يرفرف فوقه العلمان المصرى والانجليزى ، عندما تقدم الملازم وحاذى جواده قائلا «سيدى الجنرال ، القوة الرئيسية للعدو على بعد سبعة أميال من هنا . . . وقد بدأ تحركه بعد الحادية عشر بقليل . . . » صمت السردار طويلا ثم سأل الملازم « انت تقول ان الخليفة يتقدم . . . كم من الزمن فى رأيك تبقى لى ؟ » فأجاب الملازم مسرعا « ساعة ونصف على الأكثر » فصرفه السردار والتفت مناديا الجنرال رندل رئيس الاركان .

عمليات الضفة الشرقية :

كان الامير عيسى زكريا يعلم منذ يومين ان اللحظة الحاسمة قد دنت . فقد افادته طلائع الفرسان المتقدمة بقرية الجعلى عن قوة كبيرة من الاعراب تتقدم بسرعة نحوه . كان موقفه حرجا — ففى البداية عين الامير احمد فضيل بكل جيشه للدفاع عن الضفة الشرقية ، وبدلا من جيش فضيل البالغ عدده ثمانية آلاف مقاتل مسلحين كلهم بالبنادق ، وجد عيسى نفسه مسئولا عن كل ذلك القطاع وعليه ان يدافع عنه بالف وعشرين رجلا وثلاثمائة بندقية ومدفعين فقط . وقد ارسل فى البداية ليشرف على الطوابي على ان يتبع لاحمد فضيل عند وصوله . ولكن عندما طال انتظاره لاحمد فضيل عبر النهر لمقابلة يعقوب وبسط مشكلته امامه موضحا مسئولياته المتضخمة :

أ — فهو اولا سيواجه قوة ارضية تزيد عن الثلاثة آلاف مقاتل .

ب — عليه ادارة معركة المدفعية ضد اسطول العدو النهرى بالاضافة لقيادته لطابيتي توتي .

ج – واخيرا كان عليه ان يقطع خط اتصال العدو بقبائل البطانة والنيل الأزرق .

وقد اقنعه يعقوب بان قوة العدو المتقدمة من الشرق ليست كبيرة وأغلبها مسلح بالسيوف ، اما العدو الرئيسى الذى اوشك على الاقتراب فهو العدو المتقدم غرب النيل – على اية حال سيهرع يعقوب الى مساعدته بمجرد الانتهاء من امر هذا العدو ثم ان احمد فضيل سيصل قبل المعركة بالتأكيد .

عاد الامير عيسى وبدأ يخطط لانشاء دفاعه ليناسب تحقيق واجباته المختلفة . وقد وجد عيسى امامه طريقين لخوض معركته الدفاعية . فهو ان دافع على النيل وفى الطوابي فسيجمع قوته ويصبح الدفاع سهلا ومتماسكا . ولكنه سيجد نفسه بين نارين ، العدو الارضي من جهة ، والبوارج من جهة أخرى ، وقد استمع مثل كثيرين غيره لاقاصيص من نجوا من معركة عطبرة عن النيران الهائلة التى تقذفها هذه البوارج وعن « المكنه » و « القله الحديده » التى تقذف بالرصاص ليكنس الأرض وماعليها . فخير تشبيه وصف به جيش الخليفة طقطقة رشاش المكسيم هو صوت القله ذات الفوهة الضيقة عندما ينسكب الماء منها . وان حاول تجنب البوارج وانحاز بعيدا عنها ودافع من رئاسته الحالية فى قرية الصبابي التى لاتزيد عن بضعة بيوت ، فهو معرض لخطر التفاف العدو حوله من جهة النيل وقطع الاتصال بينه وبين الطوابي .

واختار الامير عيسى اهون الشرين وقرر ان يدافع بفرسانه ومشاته فى قرية الصبابي وان يعزز الطوابي بجزء من قواته المسلحة بالبنادق . وعليه وزع قوته كالآتي :

أ – الحق عشرين مقاتلا تحت قيادة ود فايت قائد طابية شمبات

ب – وضع عشرين مقاتلا تحت قيادة جوده قائد طابية الصبابي .

ج – تحصنت القوة الباقية من المشاة داخل منازل قرية الصبابي .

د – وضع ثلاثين فارسا فى الفضاء جنوب القرية وسط الاشجار .

وأمر قادة الطوابي بالانسحاب والانضمام اليه اذا وجه الهجوم نحوهم .

تقدمت البوارج المدرعة « السلطان ، الناصر ، الملك ، الفاتح ، الشيخ ، وطماى » منذ الفجر لتدعم تقدم الميجور ستيوارت ورثلي بنيرانها . وبعد مقابلة قصيرة بين الميجور استيوارت والكمدور كيبل على شاطئ النهر نسقا خلالها العملية المقبلة ، عاد استيوارت لرجاله وشرح لهم خطته بناء على المعلومات التى تحصل عليها من استجواب الجهادية الذين اسروا فى قرية الجعلى قبل يومين ، على أن يتم الهجوم على الاغراض الاربعة بثلاثة محاور :

المحور الأول بقيادة الشيخ ابراهيم ود فرح « ٨٣٠ مقاتل » بحذاء النيل لمهاجمة الطوابي من الخلف تساعده نيران الاسطول .

المحور الثاني « ٦٠٠ رجل » لمهاجمة قرية الصبابي هجوما مباشرا حيث تجمع أغلب رجال الامير عيسى .

أما المحور (١) الثالث فقد وضع تحت قيادة ميسرة الزبير باشا للتقدم بعيدا عن النيل والالتفاف حول الامير عيسى ليقطع طريق انسحابه .

بدأت المعركة سعت ٧٤٠ . فقد اصبحت البوارج النيلية فى مرمى نيران مدفعية عيسى . فامر الطوابي بفتح نيران المدفعية عليها واغراقها . اما طابية شمبات ، فقبل ان تتمكن من اطلاق قذيفة واحدة ، انهالت عليها ست قذائف من البارجة المتقدمة اصابت اغلب اطقم المدافع ودمرت المدافع نفسها . وبعدها انهمرت عليهم نيران الرشاشات فى ضرب منتشر على مواقع البنداقه على اجناب الطابية . وبينما كانت البارجة المتقدمة فى لحظات الاشتباك الاخير مع طابية شمبات ولازالت رشاشـاتها تسلط نيرانها على مشـاة الطابية ، فتحت طابية الصبابي نيرانها ، واستطاع مدفعها الوحيد في الدقائق السبعة الاولى اطلاق ثمانية قذائف سقطت كلها في النيل حول البارجة . وبعدها تمكنت البارجة من تحويل مدافعها نحو طابية الصبابي واستطاعت تدميرها بعد إطلاق خمس طلقات ، فقد كان التصويب مضبوطا والهدف قريبا ، وطواقم المدفعية من رجال الاسطول البريطاني المدرب .

تقدم الشيخ فرح بحذاء النيل واحاط بقرية شمبات ووجدها خالية . فانعطف غربا نحو الطابية التى كانت تبعد ميلا واحـدا عن القرية ، ولكن اميرها ود

فايت ومن بقي معه من الرجال « ثمانية رجال والبقية أما اصيبت اثناء القصف أو انضمت لعيسى فى بلدة الصبابي » سلموا للشيخ ابراهيم فقد كان قريباً له ثم تقدم رجاله نحو طابية الصبابي .

اما غالى جودة قائد الطابية فقد جمع رجاله بعد تدمير الطابية والمدفع واتخذوا ساترا طبيعيا خلف بقايا واحجار الطابية المتناثرة وبدأوا فى اطلاق بنادقهم على رجال الشيخ فرح المتقدمين . دارت معركة عنيفة استمرت لعشر دقائق قرر بعدها غالى جودة الانسحاب والانضمام لعيسى حسب الاوامر . فجمع رجاله وحاول التسلل مستترا ببضع شجيرات ولكن الشيخ فرح شعر بهم فلحقهم وتمت ابادتهم.

° ° ° °

وزع الامير عيسى رجاله داخل خمسة منازل فى القرية بواقع مائة رجل فى كل منزل . ووضع مئتى مقاتل تحت قيادته فى اكبر المنازل وتسلق بعضهم اسطح المنازل أو اتخذوا مواقعهم خلف السور . اما من كانوا داخل الغرف فقد ثقبوا فى الجدار ثغرات (مزاغل) واسعة ليتمكنوا من اطلاق بنادقهم . اما الفرسان فقد شهروا رماحهم ووقفوا على استعداد خلف المنازل .

فى التاسعة صباحا شوهدت طلائع المحور الأوسط بقيادة الميجور ستيوارت تتقدم نحوه . وضع عيسى خطة سريعة لمجابهة الهجوم . وهى ان يمسك نيرانه وعند اقترابهم منه يدفع نحوهم بالفرسان ، وبعدها يفتح نيرانه المفاجئة من جنوده المستترين داخل المنازل على العدو بعد ان تزعزعهم هجمة الفرسان . وعندما اصبح الميجور ورثلى على بعد اربعمائة ياردة ، اشار الامير عيسى بيده من النافذة الخلفية للغرفة التى وضع بها رئاسته لقائد الفرسان ، فاندفع الفرسان من داخل القرية فى هجمة يائسة وشجاعة نحو العدو . افلحت هجمة الفرسان فى اللحظة الاولى فى اختراق صفوف الميجور ورثلى . وتمكنت من طعن ثلاثة افراد من قوته وتشتت قوته فسحبها فى غير نظام . انتشر الفرسان لتعقب العدو المنسحب . لكن الشيخ ابراهيم ظهر من النيل يقود رجاله مسرعا لنجدة استيوارت بعد ان اباد قوة طابية الصبابي . فتنبه قائد الفرسان الى موقفه الحرج فهو بين نارين ، الشيخ ابراهيم من جهة النيل ، ورجال ستيوارت الذين لملموا انفسهم واشتدت عزيمتهم مرة اخرى بعد رؤية النجدة . فجمع فرسانه وكر عائدا الى القرية لينضم الى الامير عيسى .

واخيرا تقدمت المحاور الثلاثة نحو القرية — ابراهيم ود فرح من الغرب — ورثلى من الوسط — وميسرة الزبير من الشرق . ومن مسافة مائة وخمسين ياردة فتح عيسى نيرانه على العدو المتقدم ودارت معركة عنيفة بنيران البنادق تمكنت فيها نيران عيسى من ايقاف تقدم العدو لاكثر من اربعين دقيقة ، فقد كانت نيرانه كثيفة مضبوطة والمدى قريبا فتسمر الهجوم . وبعدها التف رجال الشيخ ابراهيم حول القرية وتسلقوا اسطح المنازل بعد اشتباك سريع مع المدافعين فوق السقوف وتمكنوا من اجلائهم عنها وثقبوا سقوف المنازل ووجهوا نيرانها من اعلا الى داخل الغرف مما ادى الى تزايد خسائر المدافعين واضطراب نيرانهم الموجهة نحو العدو المتقدم ، فقد كانوا يواجهون رصاصا مصبوبا من اعلا ونيرانهم لاتستطيع الوصول الى مصدره . كما لم يستطيعوا الخروج من مكمنهم الحصين لتنظيف السقوف . انتهز الميجور ورثلى غطاء النيران الجديد فدفع برجاله نحو المنازل وتمكنوا من اقتحامها ودارت معركة غير متكافئة بالسلاح الابيض فقد فيها الامير عيسى اكثر من مائتى مقاتل وتم اسره .

أخذ الامير عيسى الى احد البوارج لتنقله تحت الحراسة لتسليمه لادارة المخابرات لاستجوابه — ولكن احد حراسه اخرج مديته وطعنه طعنة قاتلة (١) فانفعل الملازم ستيوارت لفقد هذا المصدر الثمين للمعلومات وقضى برصاص طبنجته على قاتل الامير عيسى . وانتهت بذلك عمليات الضفة الشرقية .

****　　****　　****　　***

اشتملت مسئولية سيد جمعة على قطاع كبير ، فبالاضافة لمسئوليته كقائد لاغلب مدفعية الخليفة على الضفة الغربية « ٢٦ مدفع » كان مسئولا عن قطاع يبلغ

---

(١) ذكر شقير ان عيسى قتل أثناء المعركة كما ذكر ذلك فى تقرير الميجور ورثلى Cairo/int 1/61/322 بدار الوثائق . ولكن بسؤال الشيخ أحمد النور أحد الذين اشتركوا فى المعركة وخرجوا أحياء تؤيد المذكور أعلاه ، أى أنه قتل فى الباخرة بعد استسلامه وبدليل ان جثته سلمت لعائلته فى امدرمان وتم دفنها فى امدرمان. ويؤيد ذلك تقرير طانيوس شحاده موظف المخابرات الموافق الميجور ورثلى Sudan intelligence App.7 الا انه لم يذكر الجزء الخاص بقتل حارسه على يد الملازم ستيوارت .

شقير ١٠٩١

Intelligence Report N. 60 A 6

استجواب الشيخ أحمد النور — العباسية ١٢ يونيو ٧١ .

طوله ٦ اميال . وضع تحت قيادته الفي مقاتل مسلحين بالبنادق . وقد مر في الصباح الباكر مرورا سريعا على ظهر جواده للتأكد من ان كل شئ على مايرام . وعاد مسرورا فقد وجد اوامره قد نفذت حرفيا . فوهات المدافع تبرز من الفتحات داخل الطوابي ، اكداس الذخيرة في متناول يد الاطقم ، الرجال وقفوا خلف التحصينات وبنادقهم مصوبة نحو النيل .

وعند ظهور بارجة العدو المتقدمة « السلطان » فتحت طابية شمبات الغربية ، اقرب الطوابي ، مدفعيتها على البارجة . سقطت اربع قذائف على مسافة خمسين ياردة من البارجة ، واطلقت نيران البنادق ولكن اغلب الطلقات سقطت بعيدا عن البارجة التى اجابت بفتح المدفعية سريعة الطلقات . لم تسبب نيران البوارج ضررا كبيرا فقد اطلقت نيرانها على عجل وكان الغرض منها تمكين البارجة الفاتح من التقدم جنوبا تحت ستار النيران لتدمير اهدافها .

وحسب الاوامر التى صرفها الكمدور كبيل كان ترتيب الاهداف من حيث العجلة والاهمية كالآتي : أ ـ تدمير قبة المهدى ب ـ تدمير حائط ام درمان كتمهيد للقصف المركز على مدينة امدرمان اذا قرر الخليفة التحصن بها ، وبالتالى اجبر السردار علـى اقتحام تحت غطاء كثيف وقصف عـام لكل المنطقة ج ـ اسكات طوبي الخليفة .

حددت اوامر السردار ، حسب نصيحة شعبة الاستخبارات ، تلك الاسبقيات ـ فالكولونيل سلاطين كان يلح دائما على اعطاء قبة المهدى الاسبقية الاولى في التدمير . فقد سلخ ثلاثة عشر عاما من عمره على بعد امتار منها . وشاهد ملايين السكان الذين قطعوا مئات الاميال ليحجوا اليها . وادرك قدسيتها والهالة التى تحاط بها واصر على أن تصبح اول هدف . وقد رسم مخططا كروكيا لكل مدينة امدرمان ، موضحا كل الأماكن الحيوية لتقصف بعد القبة . بيت المال ـ بيت الامانة حيث تكدست الذخائر والمواد الناسفة المتفجرة ـ ثكنات (١) الملازمين ـ بيت الخليفة . . . الخ ـ وبناء على معلوماته تلك اعد اركانحرب السردار خطة

(١) أنظر الخريطة رقم ٤ « عمليات الضفة الشرقية » .

كاملة لقصف امدرمان قصفا تمهيديا لاقتحام المدينة . وبناء عليها ارسلت بطارية الهاوترز الثقيلة مزودة بذخيرة تستخدم لاول مرة صممت خصيصا لتدمير الاستحكامات والمباني ، وكل افرادها من سلاح المدفعية البريطاني . وحتّم ذلك الواجب ــ قصف مدينة ام درمان ــ وضع الاسبقية التالية وهي تدمير أو احداث ثغرات كبيرة في حائط المدينة العالى الذى حجب المدينة وعشرات الالوف من المدافعين خلفه . وعليه كان واجب الكمدور كيبل الرئيسى بالتعاون مع الميجور ورثلى هو احتلال بقعة من الارض وتأمينها ليتّم انزال بطارية الهاوترز .

وما ان فتحت الطابية الاولى نيران مدفعيتها على البارجة المتقدمة حتى اصدر يوسف جمعة اوامره لكل مدفعية الشاطئْ بفتح نيرانها . فقد شاهد كل قطع الاسطول تحاول التسلل وتجاوزه بعيدا نحو الجنوب لجهة الخرطوم ، عدا بارجتين توقفتا بعيدا ووجهتا نيرانهما على الطوابي واطلقتا بضعة دانات لتصحيح المسافة . سرعان ماغطى دخان المدفعية كل ضفة النيل لامتداد اربعة اميال واشتبك كل قطاع سيد جمعة في مبارزة عنيفة بنيران المدفعية . اصيب اغلب اسطول كيبل بشظايا مدفعية الخليفة ، ولكنها لم تسبب ضررا يذكر ، ماعدا قذيفة واحدة اختّرقت درع البارجة « الفاتح » في اصابة مباشرة .

بلغ عرض النيل الفا واربعمائة ياردة ، مما اعطى مجالا اوسع للاسطول لتنفيذ عملية الضرب مع الحركة المائية . فقد تسللت البارجة التى حملت بطارية الهاوترز جنوبا تحت غطاء من نيران البوارج المتقدمة . وفى الفتّرة التى إستغرقها إنزال البطارية والهاوترز على الضفة الشرقية بحذاء توتي ، كانت معركة المدفعية قد بلغت قمتها . واشتبكت بطاريات سيد جمعة في معركة غير متكافئة مع بوارج الاسطول. وعبثا حاول سيد جمعة ايصال داناته الى البوارج التى استغلت عرض النيل والقت مراسيها بالقرب من الشاطئْ الشرقي ، وبذلك اصبحت خارج مدى مدفعية الخليفة الذى لم يتجاوز الف ياردة في احسن الاحوال .

ولكن مدفعية البوارج لم تترك اثرا يذكر ، فالمدفعية سريعة الطلقات ومدفعية ١٥ رطل على الرغم من دقتها لم تصب الطوابي السميكة المنيعة الابتدمير جزئي ولم تتمكن من اسكاتها وتدميرها تدميرا كاملا ، الا بعد ان تم انزال بطارية

الهاوترز . وقد ظلت مدفعية الخليفة مسيطرة على طول الشاطئ حتى الساعة الثالثة ظهرا . وبعد ان تم تأمين الضفة الشرقية تقدم الكمدور كيبل واحتلها وتم انزال بطارية الهاوترز فى راس جزيرة توتي الشمالى حسب المخطط القديم ، ولكن الاسطول والمدفعية وجدت نفسها في متناول مدفعية الخليفة التى وجهت نيرانها نحو الجزيرة مما اضطر كيبل الى انزال البطارية فى الضفة الشرقية وقد وجد انه لازال فى المدى المؤثر للقبة . وقد ظلت نيران سيد جمعة كثيفة وبدون توقف لاكثر من ثلاث ساعات مما اوضح انه وفر لبطارياته كميات ضخمة من الذخيرة ، وهو الأمر الذى ادى الى تطور المعركة لغير صالحه فى النهاية .

فشراسة مدفعية سيد جمعة ونشاطها المحموم أجبرت قائد بطارية الهاوترز على اجراء تغيير رئيسى فى اسبقيات اهداف بطاريته ، فلم يكن من الممكن ابدا البدء فى قصف القبة والسور ، وبطاريته تحت وابل من نيران الطوابي . وبمجرد ان احتلت المدافع مواقعها ، وجهت نيرانها على طوابي الشاطئ الغربي . كان المدى ٢٥٠٠ ياردة والتصحيح ممكن ومؤثر فبدأ اسكات الطوابي واحدة بعد الأخرى . ولايعزى الاسكات والتدمير فى المكان الاول الى قدرة دانات الليدايت شديدة الانفجار بقدر مايعزى الى حقيقة أخرى . فحرص سيد جمعة على توفير اكبر قدر من الذخيرة فى متناول يد طواقم المدافع لضمان استمرار المعركة ، ارغمته على وضع ذخيرته كلها داخل الطوابي ولم يوزعها على نقاط امداد متتالية بعيدة عن متناول نيران العدو لتضمن له امدادا متواصلا بالذخيرة ، وفى نفس الوقت تجنبه تعريض ذخيرته ، وبالتالى حياة اطقم مدفعيته لانفجار الذخيرة . وهذا ما ادى فى النهاية الى سلسلة من الانفجارات داخل الطوابي وسط ذخيرته نفسها ادت الى ان اصبحت الطوابي نفسها مصيدة للموت . فقد تطايرت قطع الاحجار والاعضاء البشرية (١) واجزاء المدافع عاليا فى الهواء فى اربعة طوابي . وعندما مالت الشمس

---

(١) لاحظ الكابتن ملنCapt Milne قائد ثانى بطارية الهاوتزر ذلك بعد ان تفقد أثر القصف فى امدرمان بعد المعركة . وقد طلبت القيادة العليا البريطانية تقريرا مفصلا عن أثر دانات الخمسين رطل من الليدايت Lyddite على المبانى وعلى الأفراد . فقد كانت تلك أول مرة تستخدم فيها فى المعركة وكان استخدامها كاختبار للدانات نفسها . وعند زيارة الطوابى لاحظ أن أثر دانات سيد جمعة التى انفجرت داخل الطوابى أثناء المعركة كان أكبر أثرا من دانات الليدايت .

Cairo/int 1/61/322 دار الوثائق .
Arty Report.

غربا كان نشاط مدفعية الخليفة قد خف كثيرا الا من بعض الانفجارات هـــنا وهـــناك .

** ** ** **

تسلق أغلب صبية امدرمان اسطح منازلهم فى صبيحة ذلك اليوم ، كان بينهم الصبية ، عبد الله عبد القادر ، وامين احمد شرفى ، وموسى يعقوب . فقد صرفهم استاذهم مبكرا ليعودوا الى منازلهم للاحتماء داخلها . ولكن مشاهدة المعركة كانت أكثر اغراءا . ومن مكانهم ذلك تمكنوا من رؤية تفاصيل معركة الضفة الشرقية بين الامير عيسى « والكفار » بوضوح . وعلى أية حال فمنازلهم قريبة ويمكن الجرى سريعا والاحتماء بداخلها . ولذلك لم ينصرفوا بعد الدرس لحفظ الالواح بل تأبطوها معهم . وعندما تعالى صوت الانفجارات وازداد عنف المعركة سرعان مانسوا امرها

اما فضاء الجامع فقد بدأ يكتظ بالكثير من النساء والاطفال الذين اخلوا المنازل القريبة من الشاطئ بعد أن هددتها نيران المدفعية . انضمت لهم فلول المدفعجية الذين انسحبوا بعد تدمير مدافعهم . واكتظ صحن الجامع نفسه بمائة وثمانيه عشر شخصا (١) .

اما القبة ، الهدف الرئيسى لبطارية الهاوترز ، فقد ارتفع رأسها شامخا فى سماء امدرمان لاكثر من مائة قدم . وذلك الارتفاع عززته قاعدة مربعة احاطت بقبر المهدى . بلغ سمك الحائط ثلاثة اقدام . اما سمك القبة نفسها فقد تجاوز القدمين والنصف . وقد اتخذت القبة كنقطة شهيرة وهدف فى نفس الوقت . وفى

---

(١) بينما قدر المرحوم محمد عبد الرحيم عدد من كانوا بالقبة أو حولها بألف شخص . نجد أن نيوفيلد الأسير الألمانى ذكر للكابتن ملن عندما تفحص القبة بعد تدميرها ان عددهم كان ١١٨ شخصا داخل الجامع — توفى منهم ١١٢ نتيجة للدانة الثانية . ولا يدرى أحد كيف تمكن نيوفيلد من تقديم هذا الاحصاء الدقيق فى تلك اللحظات الحرجة الا أن يكون قد تمكن من احصاء من خرجوا من الأحياء ساعة اندفاعهم وهم قلة واضافها لعدد الجثث. «على الرغم من أن نيوفيلد كان داخل السجن إلى أن انتهت المعركة ولم يكن السجن محاطا بسور .. بل كان بضعة أكواخ طينية محاطة بزريبة». أو الاحتمال الثانى ان يعقوب أبو زينب ، محافظ امدرمان أثناء المعركة ، قد أجرى تماما لقوته داخل الجامع فى الصباح — فقد كان الجامع مقرا لرئاسته .

الساعة الثالثة وعشر دقائق انطلق صفير الدانة الاولى زنة خمسين رطلا تشق النيل الى هدفها الاول . وعندما دوى صوت الانفجار الهائل بعد اصطدامها بالارض ، خـيم السكون لثوان قصيرة . وبعـدها انطلقت الصيحات من الجموع المتدافعة للخروج من مصيدة الموت . وعندما انفجرت الدانة الثانية داخل الجامع انفجرت بالضبط وسط التجمع البشري . وفى اقل من ثانية اصبح مائة وثمانية عشر شخصا كتلة من الدماء والاذرع والعظام ، ولم يخرج منهم حيا سوى ستة اشخاص فقط ، اما البقية الباقية ، فلم تنقل جثثهم الا بعد ايام من الحادث ، وبعد قصف الجامع اختفى الصبية من اسطح المنازل واتجهوا غربا بعيدا عن الموت المصبوب .

ثم توالت القذائف على القبة نفسها وفى عشر دقائق تمكنت القذائف السبعة من احداث ثغرة رأسية كبيرة طولها اكثر من عشرين قدما وعرضها اثنى عشر قدما وبلغ قطرها اكثر من ثلاثة اقدام . أما القذيفة الحادية عشر فقد اطاحت بسبعة اقدام من طرف القبة المدبب فاصبحت مسطحة ، وتمكن جيش كتشنر ، والخليفة على السواء ، من رؤية اثر التدمير من بعد اكثر من سبعة اميال .

** ** ** **

لقد كان تقدم جيش الخليفة منتظما . . . عدا الراية الصفراء التى تقدمت قليلا عن باقى القوة . . . اما احسنها نظاما فقد كانت المقدمة التى تمكن كتشنر من رؤيتها من قمة جبل سركاب . . . كان ذلك ربع ابراهيم الخليل . قد غطت الاعلام التى دلت على السرايا والارباع والكتائب الصفوف الامامية . وفى الساعة الثانية عشر والنصف عاد الطوف الذى أشتبك مع خيالة برود وود يحمل جرحاه ومثل قائده امام الخليفة الذى استجوبه استجوابا سريعا .

تقدم جيش الخليفة بنفس الترتيب الى ان تجاوز خور شمبات . وفى الساعة الثانية وخمس دقائق امر الخليفة بايقاف التقدم . توقف الجيش وبصيحة واحدة هتفوا مكبرين وافرغوا بنادقهم فى الهواء ، وفى لحظة واحدة غطى دخان البنادق اربعة اميال من مواجهة الجيش المنتشر .

وبعد الساعة الثانية بقليل امر الخليفة امراء الرايات بالمثول امامه . ووقف

وسطهم على صهوة جواده ووصف لهم باشارة من يده موقع كل راية واتجاهها . وانصرفوا على ان يتوقعوا إستلام اوامرهم منه بعد قليل ، وعلى ان يظل جنودهم في استعداد تام وفي نفس التشكيل القتالى . انطلق الامراء كل عائد الى جنوده . . وبعد قليل ماج السهل الفسيح بتحركات الجيش الضخمة لاتخاذ المواقع النهائية .

اتخذ الخليفة رئاسته — داخل خور شمبات نفسه وانتظر عثمان دقنه برجاله داخل منخفض الخور بعيدا عن الاعين . اما الراية الحمراء فقد تقدمت قليلا امام رجال عثمان دقنة . واختار الخليفة شريف شجرة ظليلة غرس رايته امامها . اما عثمان شيخ الدين فاتخذ موقعه جنوب غرب جبل سركاب يسار الخليفة في مواجهة امتدت لمسافة لم يتمكن الجبل من تغطيتها عن انظار زريبة كتشنر ، فبدت فرقة شيخ الدين الضخمة واضحة للاعين . ولكنه غير من تشكيل المربع الى تشكيل منتشر حيث اصطفت قواته في اربعة صفوف بفاصل مائة ياردة بين كل صف .

اما على ود حلو فقد اتجه شرقا مباشرة في اتجاه زريبة كتشنر إلا ان ثنايا وتعرجات الارض اخفت رايته عن عيني السردار . كان طرف جناحه الايسر يبعد خمسمائة ياردة من نهاية جبل سركاب الغربية وامتد تشكيله شمالا في مواجهة بلغت ميلا . وضع الخليفة ثلاثة من مدافعه في السفح الشمالى للجبل « لم يصل معه الى ارض المعركة الا خمس قطع فقط اما البقية فقد تركت أو قرر الخليفة اعادتها لامدرمان ». اما المدفعان الباقيان فقد تركا في الخلف مع الراية الزرقاء .

لماذا امر الخليفة جيشه بالتوقف على بعد ستة اميال من العدو ؟ لقد قرر وقف تقدمه لأن التوقيت الذى حدده لم يحن بعد . وليس هناك تفسير آخر . فلو كان يرغب في معركة نهارية لكان في امكانه خوضها ، فلا زالت هناك اربع ساعات متبقية قبل مغيب الشمس ويمكن خوضها في ظروف مناسبة للغاية له . فالعدو متحرك وليس مدافعا أو متحصنا خلف زريبة عالية أو خنادق عميقة . وان لم يتحرك فهو لازال في لحظات الارتباك التى تحيط دائما بانشاء الدفاعات وحفر الخنادق . ولو كان هدفه الانتظار لصباح اليوم التالى لما شهدت تلك الليلة عدة مجالس كما سنرى ولما اتخذ ذلك التشكيل — فلم يكن تشكيل مبيت ، بل تشكيل اقتحام .

كانت الالوف قد استقرت اخيرا على الارض الرطبة المبتلة . وعلى الرغم من الاوامر المشددة بأن يظل كل شخص فى مكانه لم يستطع المقاتلون السيطرة على فضولهم وبدأت الجماعات تتحرك لمرتفعات جبل سركاب لمشاهدة معركة المدفعية. وعندما ظهر الشرخ الطويل في القبة فى البداية بدأت الاصوات تخفت قليلا قليلا . ثم ارتفع الدوى المكتوم لاصوات الانفجارات البعيدة . . . ثم غطى الغبار والدخان القبة لدقائق بدت دهرا . . . . ثم انجلى الغبار وظهرت القبة مرة اخرى . . ولكن رأسها المدبب بدى مسطحا فقد اطيح برأسها . عندها خيم الصمت الثقيل على الالوف « وحدث خجل وسكات طبيعي وسط الجيش » كما ذكر يوسف ميخائيل.

لقد شاهد الخليفة المنظر من رئاسته وهتف قائلا « لاحول ولاقوة الا بالله . . هدموا القبة ولم يخافوا الله » : ولكنه تمالك نفسه بسرعة وعندما بدأت أصوات الاضطراب والهلع ترتفع زجرهم قائلا :« القبة بنيناها من طين وسنبنيها من طين» .

ليــلاً . . . أم نهاراً ؟

« الكفار أنا طالعتهم . . . . كان
اديتوني اربـاع شيخ الدين . . . . . .
اسلمكم جنائزهم الصباح . »

الأمير ابراهيم الخليل فى مجلس
الحـــرب الأخـــير . .

فى بداية الأمر لم تكن الاجابة المتوقعة على هذا السؤال التاريخى ، والتى اثبتت الاحداث انها قررت وحسمت مجرى المعركة ، لم تكن الاجابة أبدا ليلا ، أم نهارا. بل كانت الليل المبكر أى الآن ، أم الليل المتأخر أى قبل فجر الغد . ولكن سير الأمور والمجالس التى انعقدت فى ذلك اليوم العاصف هى التى حتمت أن يكون السؤال هو : الليل . . أم وضح النهار .

ولعلنا نذكر ان توقيت تقدم الخليفة من امدرمان وخطته التى شرحها لقادته ، واخيرا توقف جيشه عند خور شمبات ، كانت كلها اجراءات اتخذت لتمكن جيشه من خوض معركته الليلية .

وقد دعا الخليفة مجلسه الاستشارى للانعقاد فى عصر يوم الخميس للاستشارة الأخيرة قبل صرف الأوامر بالهجوم . وعقد الاجتماع فى رئاسته بخور شمبات وهؤلاء كانوا بعض ممن حضروه :

الخليفة على ود حلو ــ الخليفة محمد شريف ــ الامير يعقوب ــ الامير يونس الدكيم ــ الامير احمد عبد الكريم ــ الامير جابر الطيب ــ السيد المكى ــ الطيب العربي ــ عبد القادر ود ام مريوم ــ كركساوى ــ عبد الله ابو سوار .

وكان اول المتحدثين بعد أن اذن لهم الخليفة بالحديث هو الامير جابر الطيب احد امراء الدناقلة المسنين « على مابلغنا ياسيدى ان الجماعة ديل خايفين . واحسن تدبير الحرب أسى دى بالليل ومانرجى الفجر ونناوشهم بالليل . ان ربنا ناصر دينه

بينتصر . » والتفت الخليفة متسائلا فوافق عليه وايده احمد عبد الكريم ويعقوب وبعدها حدثت شبه موافقة اجماعية على مبدأ الهجوم الليلى المبكر بتعديل طفيف في الخـــطة الرئيسية «.... ســـمح ... كلكم متجامعين عليه ؟». . . فاجابوا بالايجاب . فوافق عليه وأرسل لاستدعاء شيخ الدين والامراء قادة التشكيلات

** ** ** **

في ليلة الثلاثاء ٣٠ اغسطس تقدم الشيخ خوجلي ومحمد احمد عبد الله ود سره الى مقدمهم بطلب اذن غياب لمدة يومين للذهاب لقريتهم العجيجة واخلائها والعودة بالعوائل لامدرمان — فاستشار المقدم رأس الميه ، ورفع هذا الامر الى وكيل الراية الذى وافق على الاذن بالغياب على أن يعودوا مسرعين . فحتى ذلك الحين لم تشتم نية صرف اوامر نهائية بالتجمع والتقدم ولازال الوقت متسعا . ولكنه منعهم من اخذ أى خيول أو جمال لتنقل الامتعة بل يتركون الخيول ويذهبون للعجيجة ليعودوا بعوائلهم راجلين . فعلى أى حال المسافة قريبة وهو مستعد لتحمل مسئولية غيابهم ، ولكن غياب الجمال والخيول مسئولية خطيرة — وبعد مشى متلكئ وصلوا القرية وامضوا ليلة الاربعاء مع عوائلهم . وأصبحوا الصباح وامضوا يومهم في التسكع وتجميع ماخف حمله من الاثاث والاخشاب التى سيبنوا بها رواكيب مؤقتة لايواء عوائلهم في امدرمان لحين نهاية المعركة . وعندما انتهوا وتأهبوا للتحرك جنوبا لامدرمان تعالت الانفجارات فجأة وسط القرية . مزقت احداها بقرة الكباشي عرفو . وعندها تجمعوا بسرعة للتحرك بعيدا عن جهة النيل، ولكنهم وجدوا أنفسهم محاطين بخيالة الرماحة الذين اسرعوا واسروهم واخذوهم لمقابلة رئيس شعبة المخابرات ونائبه الكولنيل سلاطين .

** ** ** **

لقد تقدم السردار مسرعا نحو عدوه منذ الصباح الباكر وقد قرر أن يصل امدرمان ويحسم المعركة قبل حلول الظلام ، وطفحت نفسه سرورا عندما شاهد العدو يتقدم نحوه وأمل في معركة سريعة في وضح النهار وبالقرب من النيل حيث تمدد اسطوله الضخم . وقد سار مجرى الاحداث حتى هذه اللحظة سيرا حسنا

واصبحت مخاوف رئيس مخابراته في الايام الماضية بدون مبرر . فمنذ ثلاثة أيام أوضحت له شعبة المخابرات ان خطة الخليفة تدور حول محور مهاجمته ليلا ، مما دفع به الى اتخاذ احتياطات عديده طوال الليالى السابقة . ولكنه شاهد بعينيه تقدم الخليفة وعاد مسرعا لتنظيم دفاعه منتظرا هجوم العدو فى ظروف لم يكن ليحلم بأحسن منها .

ولكن هاهى المخاوف تتجدد ، فقد ابلغته كتيبة الرماحة عن توقف العدو على بعد خمسة أميال . وبذلك تأكدت نية الخليفة بالهجوم ليلا. فقد ذكر تقرير المخابرات (١) :

«لقد كان توقف جيش الخليفة على بعد خمسة اميال فى عصر الاول من سبتمبر تأكيدا قويا للانباء التى بلغت للسردار بأن الخليفة قرر أن يهجم ليلا . »

عقد ونجت اجتماعا سريعا مع كتشنر وسلاطين لبحث الامر . ووضحت على الفور الاخطار التى سيتعرض لها جيش كتشنر اذا قرر الخليفة الهجوم ليلا أو على الأقل مع بداية حلول الظلام . فان تفوق نيران اسلحة كتشنر التى وضح تأثيرها فى عمليات الصباح ضد مدفعية ومشاة الخليفة على شاطئ النيل سيقل كثيرا ان لم ينعدم فى معركة لايتجاوز فيها مدى الرؤية لرشاشات ونيران المشاة أكثر من اربعمائة ياردة . بالطبع كان بامكان السردار استخدام الانوار الكاشفة للوابورات لتلقى اضواءها القوية امام الزريبة طول الليل ، وان يأمر فصيلة المهندسين باطلاق الطلقات المضيئة . . . ولكن كل هذا لن يجدى فتيلا مع أربعين الف مقاتل اشتهروا بالشجاعة والاستماتة، وساتر الظلام سيتيح لهم الفرصة للتقدم وراء الجبال الى اقرب مدى . . . الى بضع مئات من الزريبة الرهيفة ، والى دفاعاته التى لم يكتمل تجهيزها حتى هذه اللحظة . ولم يكن من المتوقع ان تتمكن اسلحته ونيرانها من ابادة اربعين الف مقاتل صفا وراء الآخر فى بضع دقائق وتحت ضوء الوابورات

"It was again reported to the Sirdar on the lst. September that the Khalifa contemplated attacking the expeditionary force by night, and the fact that the dervishes halted early in the afternoon within 5 miles of our Zeriba seemed to render this eventuality extremely probable."

الخافت بين ظلال الجبال . ولقد قلب الامر كثيرا فى كيفية التصرف فى جيشه الضخم اثناء الظلام . هل يجمعهم فى مربعات صلبة متماسكة يصعب اختراقها ؟ أم يتركهم فى ذلك التشكيل النصف دائرى لانتاج أكبر كمية من النيران الامامية فى جميع المواجهات ؟ كان هذا هو الطريق الذى قرر اتخاذه اخيرا . . . وانتهى به واجبه كقائد للقوة . وبدأ واجب ونجت وسلاطين كرجال للمخابرات ، وها قد دنت اللحظة التى يمكن ان تعوض مئات الالوف من الجنيهات التى صرفها قلم المخابرات .

فقد كان واجب ونجت هذه المرة اكثر تعقيدا واشد حساسية بالنسبة للنجاح النهائي للحملة . فالمجال ضيق ، فليست هناك مئات الأميال ، أو عشرات الطرق المهجورة لتسمح بحرب المخابرات ، أو الأخذ والرد مع العملاء ، وأخيرا كان هناك عامل الزمن ، ذلك البعد الحاسم وهو يمضى مسرعا نحو الليل ، وما قد يحمل فى طياته من قصة ابادة جيش النيل مع صيحات الوف المحاربين وأسنتهم الباترة وهى تعمل يمينا ويسارا وتتكرر رواية شيكان والخرطوم . لقد أصبحوا جميعا تحت رحمة قرار واحد من ذلك الرجل الملتحى الذى وقف على رأس جيشه لايفصلهم عنه الا خمسة أميال .

ويبدو ان سلاطين كان هو المخطط للخدعة الكبرى . وتنفيذها كان يستلزم اتصالا مع الخليفة وبأى وسيلة . بدأ البحث عن شخص يمكن أن ينفذها ، فكان ان امرت كتيبة الرماحة فى المقدمة بالحصول على اى اسير مهما كان الثمن .

* * * * * * * *

تقدم رجل اوربي يرتدى بذلة كولونيل من محمد احمد عبد الله والكباشى عرفو وحياهم بلسان عربي طلق . وسرعان ماتعرفوا عليه ، عبد القادر ملازم الخليفة والذى كان يسير دائما بالقرب من جواد الخليفة . سألهم سلاطين عن مكان الخليفة فأجابوه ان الخليفة خلف الجبل مع جيشه فطلب منهم الذهاب الى الخليفة وتبليغه الآتي : « ان يستعد جيدا وان لايترك ميدان القتال ويفر فان السردار سيتقدم اليه غداقبل الفجر بجيوش لاطاقة له بها. وان تقدم هو فالسردار مستعد له كل

الاستعداد . » ثم اطلق سراح محمد احمد عبد الله والكباشي وتركهما يذهبان الى معسكر الخليفة واخذا لمقابلة يعقوب الذى سألهم بعض الاسئلة ثم اخذهم للخليفة وكرروا له ماقاله سلاطين وسألهم عن العدو واستعداده . واوضحوا له مكانه بالضبط ووصفوا الغبار المتصاعد من جراء عملية حفر خنادق الفرقة المصرية . فامرهما بالعودة وجمع معلومات اكثر والتسلل واخباره بها . وعاد الرجلان الى معسكر السردار ولكنهما قيدا وارسلا تحت الحراسة لاحدى البوارج (١) .

---

(١) هناك أربعة روايات عن تلك الحادثة تلتقى احيانا وتتناقض أحيانا أخرى . هناك أولا رواية أبطال القصة أهالى العجيجة أنفسهم وهى ما ذكرت أعلاه ، وتطابق لحد كبير رواية « عبد الله » غلام الخليفة الذى استجوبه هـ . جاكسون فى بربر يوم ٩ أبريل ١٨٩٩ . ثم هناك رواية ونجت فى تقرير المخابرات رقم « ٦٠ ص ٥ » واخيرا رواية جاكسون فى كتاب Osman Digna لقد ذكر عبد الله عند استجوابه .

"During the night two men came in, stating that the turks had dug a very deep trench hoping that the Khalifa will attack them, fall in and be slaughtered, that if the Khalifa did not attack, the turks intended attacking the Khalifa before down".

« فى ليلة المعركة قابل رجلا ن الخليفة وابلغاه ان العدو قد حفر خندقا عميقا حتى اذا هاجمه الخليفة سقط جنوده فى الخندق وتمت ابادتهم . اما اذا لم يهجم هوفسيهجم السردار قبل الفجر »

كما ترى تكاد هذه الرواية تطابق رواية ود سره وكباشي عرفو .

أما رواية ونجت فى تقرير المخابرات الرسمى فكانت كالآتى :

"An attack by the Khalifa at night, when the superiority of our weapons will be to a great extent nullified was to be avoided if possible and with this object natives of the neighbourhood of Omdurman were sent into the Khalifa camp to report to him that the Government treeps had received orders to advance and attack him during the night. This had the desired effect, for on the receive of the news the Khalifa assembled all his relatives and Emirs to consult them on the subject. At this meeting which took place during the lst September it was decided not to make a night attack."

« ان تفوق أسلحتنا سيخفف لحد بعيد اذا هجم الخليفة ليلا . ولذا كان يجب علينا منع الخليفة من تنفيذ ذلك القرار بأى ثمن ومن ثم أرسلنا بعض أهالى القرى المجاورة لامدرمان ليبلغوه ان جيش السردار قرر التقدم والهجوم عليه أثناء الليل . وكان لهذا الا جراء الأثر المنشود ، فبمجرد ان بلغه سارع وعقد مجلسا ضم كبار الا مراء وبعض اقربائه . وقد تقرر فى ذلك الا جتماع الذى عقد فى عصر يوم الخميس الغاء هجوم الليل والا نتظار حتى صباح اليوم التالى . » ←

* * * * * * * *

قبل مغيب الشمس وبعد ان وثق الخليل من توزيع أرباعه تسلق قمة جبل سركاب وشاهد زريبة كتشنر أثناء لحظات النشاط الاخيرة التى سبقت حلول الظلام . . . الديدبانية ازواجا ازواجا امام الزريبة . . . الغبار المتصاعد من حفر الخنادق . . . الفرقة الانجليزية وهى تكدس الشجيرات الشوكية امامها . وعندما كسا الظلام المنطقة انحدر الخليل شرقا يرافقه اثنان من الجهادية ومكث مدة طويلة الى ان بدأت الضجة الصادرة من الزريبة تخفت تدريجيا ومن ثم كر عائدا الى مواقع جنوده فى خور شمبات حيث اخطر ان الخليفة يسأل عنه ، ومضى من هناك لمجلس الخليفة .

* * * * * * * *

انعقـــد مجـــلس الخليفة لقـــادة التشكيلات وحضره كـــل من :-

---

يلاحظ أولا الاختلاف الواضح فى توقيت عقد المجلس فبينما ذكر عبد الله ان الرجلين قابلا الخليفة أثناء الليل فيستحيل ان ينعقد المجلس فى العصر أى ان الاجتماع الذى حدث نتيجة لمعلومات الاهالى عقد قبل وصول هذه المعلومات .

ثم ان المنطق يسند رواية غلام الخليفة . فلو كان هناك أثر لخديعة ونجحت على الخليفة ومجلسه فقد كان الجزء الخاص « بحفر الخندق العميق » أكبر اثرا من « تقدم العدو » فهو بالطبع يخشى الهجوم على نقطة تدافع دفاعا قويا أكثر من الهجوم على قوة تتقدم فى العراء وفى الليل وقد رأينا قبلا ان خطته بنيت على الهجوم على العدو وهو متقدم وهذه النقطة لم يتطرق اليها تقرير المخابرات اطلاقا . وتقرير المخابرات المذكور أعلاه نشر وطبع بعد المعركة . ولكن يومية المخابرات لم تنشر قط .

أما رواية جاكسون وغالبا استقاها من سلاطين فهى « تقدم سلاطين وذكر للاهالى انه تقديرا لحسن خدماتهم التى أدوها لجيش الحكومة قرر ان يخبرهم بسر على أن لا يبوحوا به لأحد وهو ان السردار قرر التقدم ليلا والهجوم على امدرمان وتدميرها ونصحهم بالاسراع واخراج العوائل من امدرمان وتحذير كل من يستطيعوا الوصول اليه من جيش الخليفة ليحذوا حذوهم على أن لا يخبروا أحدا غير ذويهم . »

ان عبارة « تقديرا منا لخدماتكم لجيش الحكومة » توضح بأن الرجلين كانا قبلا فى « خدمة جيش الحكومة » ويتفق لحد ما مع التقرير الرسمى الذى يشى بأن الاهالى ارسلوا ، وهذا يخالف قول ود سره والكباشى من انهما وقعا فى الاسر قبل ارسالهما وعند عودتهما وضعا تحت الحراسة مرة أخرى .

ومن الثابت ان كل المنطقة شمال امدرمان اخليت من الاهالى الذكور وكان اخلاؤها احد واجبات الأمير عبد الباقى . ومن الثابت أيضا ان أى شخص قادر على حمل السلاح كان من ضمن الجيش خارج أمدرمان ، تعرض لسؤال عسير من رجال عبد الباقى ولما هو اسواء كما رأينا فى تقاريره .

الامير يعقوب ـ الامير عثمان دقنه ـ الامير احمد عبد الكريم ـ الامير عبد الله ابو سوار ـ الامير شيخ الدين ـ الامير ابراهيم الخليل ـ الامير يونس الدكيم ـ الامير عثمان ازرق ـ عثمان الدكيم ـ ومحمد ود بشاره .

ولايمكن الجزم كيف افتتح الخليفة مجلسه ، ولا إلى أى مدى اثرت فيه معلومات « ود السره والكباشي » عندما اتخذ القرار النهائي . وهل بسط المعلومات كعادته منتظرا تبلور النقاش نحو رأى محدد ، أم اوضح منذ البداية ميله إلى ترك هجوم الليل ـ المرجح ان الاحتمال الأول صحيح والا لما استغرق المجلس زمنا طويلا . على انه من الثابت ان ابراهيم الخليل كان اول المتحدثين،وقاد الاتجاه المنادى بالهجوم فورا أى في الليل المبكر . وعارضه شيخ الدين منذ البداية وقد تفجرت الحساسيات بينهما ، واذكت نارها الخلافات القديمة .

فقد قال الخليل :« الكفار انا طالعتهم . . . كان اديتوني ارباع شيخ الدين اسلمكم جنائزهم مع الصباح » ـ وهو يقصد ان يبدأ الهجوم بنيران الملازمين تحت قيادته في حوالى منتصف الليل،وتستمر العملية إلى ماقبل الفجر حيث يقتحم باقي الجيش زريبة السردار . والواقع ان ابراهيم الخليل لم يقتصر على تقديم الاجابة لسؤال الساعة ليلا ام نهارا فقط ، بل قدم خطة متكاملة . وهي نفس الخطة القديمة مع تعديل يناسب الوضع الراهن ، وهو توقف وانشاء العدو لدفاعه وحفر خنادقه . وذلك ما اضعف موقف ابراهيم في المجلس لحد بعيد، واثار حفيظة شيخ الدين، فهو اولا سيتولى قيادة العملية وليس شيخ الدين ، وثانيا سيضع تحت قيادته بنادق شيخ الدين . ثالثا ضرب ابراهيم على نغمة تفوق العدو الساحق من حيث قوة النيران بحيث يستحيل مهاجمته نهارا ، وركز على نيران البوارج التى رأوا اثرها المدمر اليوم في الطوابي والقبة .

ثم التفت الخليفة لباقى المجتمعين فتحدث عثمان دقنة حديثا طويلا ختمه مؤيدا هجوم الليل « والله الانجليز انا اعرفهم خمسة عشر عاما والراى النجيض نداوسهم بالليل . غير حرب الخدعة مافي شي ينفع معاهم » وجلس عثمان والمجتمعون ينظرون اليه باعجاب . . . فالرجل لايتحدث عن هوى ، بل عن خبرة استمدت عبر سنوات طويلة من القتال المرير ضد حامية سواكن ومع مربعات

جراهام الذائعة الصيت .

والخليفة حتى ذلك الحين لم يشاهد ولا جنديا انجليزيا واحدا عدا جثة هكس ورأس غردون . وكان لايفرق كثيرا بين الدول فالجميع بيض الوجوه «ترك» . وكان اكثر الجميع انبهارا بحديث عثمان دقنه واستمع اليه مبتسما . ثم تحدث عثمان ازرق مؤيدا رأى الخليل ودقنة . والتفت الخليفة الى شيخ الدين الذى كان عن يمينه ، وعندها تحدث شيخ الدين حديثا طويلا فى شبه خطبة حماسية بدأها « ارباعى انا مابديها » ثم عـــلل وجهة نظره بعـــدة نقاط « البمسك العرب ديل فى الليل منو ؟ » يقصد اهل الغرب من الراية الزرقاء ورد عليه الخليل محتـــدا « انا بمســـكهم » وتجاهله شيخ الدين واستمر فى تفنيد هجـــوم الليل مركزا على النقـــاط التالية : (١)

سيقل اثر السلاح النارى فى مثل هذه الرؤية . » وكان هو يعتد بالطبع بنيران الملازمين ورغبته الطبيعية فى أن تلعب وحدته « الملازمين » الدور الرئيسى فى هزيمة العدو وان يعود فخر النصر اليهم . والظلام لن يمكنهم من تحقيق ذلك » .

---

(١) لم اتمكن بالطبع من أخذ أقوال أى ممن حضر المجلس فقد توفوا كلهم . ولكنى اعتمدت على أقوال الشيخ أمين أحمد شرفى الذى استمع لها من خاله أحمد عبد الكريم أمير أمراء الراية الصفراء الذى اشترك فى المجلس . وإلى رواية السيد موسى يعقوب بن الامير يعقوب الذى استمع لها من الامير يونس الدكيم والأمير اسماعيل أحمد الذى اشترك فى المجلس أيضا . تكاد الروايتان تنطبقان حتى فى الالفاظ التى ذكرت أعلاه . هناك عشرات من الروايات السماعية التى تتحدث عن ما دار فى هذا المجلس . وهى تورد عبارات وأقوال متفاوتة ولكنها تتفق اجماعيا على الخلاف العنيف بين شيخ الدين والخليل داخل المجلس وبعد انفضاضه . على ان العبارة التى قالها أبراهيم الخليل غاضبا يائسا وهو ينفض جلبابه « الخير فيما اختاره الله لكن نصره ما فى » ذكر الكثيرون انه قال « المهدية مهديتكم لكن الحنا قدنا بنسده . » أى الامر لكم لكنى ساؤدى واجبى . كما تؤيد رواية الأمير عيسى ود الزين الذى استجوب فيما بعد الرواية المذكورة اعلاه جزئيا :

"I arrived in Omdurman on Tuesday before the battle of Kerreri which was fought on Friday.

I had an interview with Khalifa on the night before the battle, it was raning hard, and the Khalifa after greeting me, said that my men were to fight under Yaccub and the black flag. We had a council of war. Khalil Ahmed, Mohamed's brother urged a night attack, but Shekh El Din said that it was not the custom of Mahdiya to make surprise attack.

« وسنهجم صباحا بعد صلاة الفجر وان نكون مثل الفيران والثعالب تدخل اجحارها بالنهار وتمرق بالليل . »

والواضح ان شيخ الدين كان يقدر قوته النارية اكثر من حقيقتها . وكان يرغب في معركة صباحية لنفس أسباب كتشنر . وهى الرؤية الجيدة لاسلحته النارية التى ظنها العنصر الحاسم في نجاح المعركة أو فشلها . وبدأ النقاش يطول حتى تطور الى مشادة كلامية بين (١) الخليل وشيخ الدين انتشر اثرها فى كل الصفوف وتناقلها الجنود حتى ادني الرتب . صمت الخليفة طويلا ثم قال : « الخير فيما اختاره الله . . نداوس الصباح بعد الصلاة . »

انفض المجلس ونفض الخليل جلبابه فقد كانوا جلوسا على الأرض ، وقال للمجتمعين وهم يتفرقون عائدون إلى مواقعهم « الخير فيما اختاره الله . . . لكن نصره مافى . » .

* * * *

وقبل ان نتحدث عن الاسباب التى دفعت الخليفة لاتخاذ قراره التاريخى ، لابد لنا هنا ان نعيد تقييم كفاءته العسكرية ومقدرته القيادية بالنسبة لخصومه ، وبالنسبة لزمن المعركة ــ نهاية القرن التاسع عشر ــ ومطلع القرن العشرين .

والواضح ان ملكة الخليفة الاستراتيجية كانت حتى تلك اللحظة اقل ما توصف به انها . . . . سليمة وعملية . . . . فعلى الرغم من الاخطاء الشنيعة التى

J.A.Reid
Acting Governor of White Nile Province.
Interrogation of Isa Wad El Zein, Wakil of Kordofan.
Sudan Notes & Records, VOL IX, No. 2 (1926)

« وصلت امدرمان يوم الثلاثاء قبل المعركة التى حدثت يوم الجمعة . وكانت السماء تمطر بشدة وقابلت الخليفة الذى أمرنى بالقتال فى صفوف الراية الزرقاء بقيادة يعقوب . عقدنا مجلس حرب . وكان الخليل أحمد يلح فى الهجوم ليلا ، ولكن شيخ الدين اعترض قائلا ان الهجوم المفاجىء ليس من عادة المهدية .

(١) حتى الشيخ بابكر بدرى الذى اشترك كجندى عادى فى الراية الزرقاء وصلت اليه أنباء الخلاف بين شيخ الدين والخليل فكما ذكر « جاءتنا بالليل أوصاف ترتيب الجيش . وقالوا هجوم الليل بطل بسبب الخلاف بين الخليل وشيخ الدين . »

وقع فيها برفضه الدفاع عن السبلوكة . . . واخيرا الهجوم نهارا الا اننا نلمح هنا وهناك كثيرا من المنطق والمبررات . ولكن المهم هنا هي خلفية الخليفة العسكرية منذ المعركة الاولى التي خاضها عام ١٨٨١ ، حتى مساء يوم ١ سبتمبر . فكيف اثرت تلك الاحداث طوال العشرين عاما في مقدرته كقائد قوة في الميدان "Field Commander" وهو أمر يختلف اختلافا كبيرا عن تقييمه كمصمم ومنفذ لاستراتيجية عظمى "Grand Strategy" .

الغريب ان الاثر السلبي لتلك الفترة ، كان اعظم وقعا من الاثر الايجابي . بمعنى ان مالم يفعله أو يراه الخليفة يبدو اكبر اثرا مما شاهده . فعدم قيادته لاى قوة طوال فترة حكمه حرمت حرفته العسكرية من ادراك الكثير عن تطور الاسلحة والتكتيكات . فقد كان آخر عهده ببنادق هكس البطيئة والمدافع الجبلية . . . . . وهي كلها تقريبا قصيرة المدى . كما لم تتح له الفرصة لتقييم أثر رشاشات المكسيم وحجم نيرانها الهائل . . وهي تكنس الارض يمينا وشمالا . . . ولا البوارج المدرعة واطقم مدفعيتها الذين اختيروا من صفوة مدفعية الاسطول البريطاني المتفوقة على مدفعية اقوى الدول الاوربية — دعك من مدفعية الخليفة . ولم تتح له الفرصة لتقدير اثر دانات المتار "Sharphel" على المشاة وشظاياها الكثيفة تنهمر فوق رؤوس المشاة لتختفي بعدها صفوفهم من وجه الأرض — بل كان آخر عهده بالمدفعية ذات المدى القصير والدوى الهائل وبضعة شظايا تقتل بضعة جنود . ولم يعرف ذخيرة الـ Case Shot « خرطوشة شظايا » ذات الاثر الماحق الفعال على تجمعات المشاة والفرسان في المدى القصير . واخيرا لم يكن يعلم ان الهجوم المباشر في وضح النهار وبدون غطاء نيران قوى اصبح شبه مستحيلا بعد ادخال بنادق « لى متفورد » ومقدرتها على انتاج كمية كبيرة من النيران المصوبة . ثم ان العدو الذى اختبره قبلا كان يختلف عن العدو الذى يواجهه الآن . . . فالجيش المصرى الحديث كان يختلف عن جنود هكس خائرى العزيمة الذين لايجيدون شيئا غير القاء اسلحتهم واستجداء الرحمة من اعدائهم . . . فهذا جيل جديد لم تمسه حساسيات شعور النفي والانتحار الاجبارى ، طعم بنخبة ممتازة من اقوى جيش في العالم في ذلك الحين وانتظم في صفوفه المقاتلين السود الاشداء .

ومن الناحية الاخرى كان الخليفة حساسا من ناحية مقدرته على السيطرة على قواته ، مصرا على ادارة الهجوم بنفسه وتحت عينيه . وكان يعلم اثر شخصيته وأن مجرد وجوده بين الجنود كفيل بتحقيق الكثير بحيث يتمكن من ادارة المعركة بالطريقة التي يرغب في سيرها . والظلام كفيل بحرمانه من تلك الميزات . ولابد ان تقييمه لقادته الحاليين كان له وزن كبير ، فلم يكن يثق في مقدرتهم على تنفيذ اوامره بالطريقة التي يريدها . ومن الصعب ترك مصير المعركة بين أيادي قادته كلية وهو ماسيفرضه عليه الظلام . . . وهم قادة غير مجربين . فعثمان شيخ الدين ليس ابو عنجه الذي ترك بين يديه جيشا ضعف جيشه الحالي ليختفي به وراء جبال الحبشة . . . وعثمان ازرق ليس ود النجومي . . . لقد مضى زمن القادة الذين برهنوا على كفاءتهم واستاذيتهم في قيادة وتحريك المجاميع الكبيرة .

والجنود أنفسهم ليسوا احسن حالا من القادة . فجهادية شيخ الدين على الرغم من تدريبهم ونظامهم إلا انهم اختلفوا كل الاختلاف عن جهادية ابو عنجة المتمرسين . واغلب صفوف الراية الزرقاء اكتظت بالقبائل الغربية التي على الرغم من انه لايشك في شجاعتهم وولائهم اطلاقا ، الا انه يشك كثيرا في امكانية ضبط تصرفاتهم ودخولهم المعركة كجيش نظامي . وله مبرر في ذلك ، فمحمود ود احمد لاقى الويل واشتكى كثيرا من عدم خضوع هؤلاء لأى نظام أو قوانين . لذلك قبل ان تكون المعركة تحت عينه وبصره وتوجيهه المباشر ، وهو لاشك يعلم ارتفاع نسبة الخسائر في تلك المعركة ، لكنه رغب في معركة كبيرة حاسمة ينتهي فيها الى الابد — مهما كان الثمن غاليا — من هؤلاء الغزاة الذين دقوا باب عاصمته اخيرا . وآخر ماكان يرغب فيه هو معركة يتيح فيها للعدو فرصة الانسحاب واعادة تنظيم قوته وبالتالي اعادة ازعاجه مرة اخرى . . . فقد كان غرضه الابادة الكاملة ولم يكن غرضه تحقيق نجاح وقتي او احتلال زريبة فارغة ، وهو ما سيحققه هجوم الليل على احسن الفروض في نظره . فها هو العدو داخل زريبته ، وخلفه مباشرة البوارج النيلية لتنقله في انسحاب سريع ، لايدرى احد الى اين ، المهم سيظل شوكة في جانبه . فكل البوارج ، المقاتلة منها وبوارج النقل ، القت مراسيها خلف الزريبة مباشرة ومدت الكبارى بينها وبين الشاطئ . . . جاهزة للتحرك بجيش

العدو في اى لحظة وانوارها الكاشفة ضربت بعيدا في الصحراء امام الزريبة . . . وهي الاخرى كانت مصدر ازعاج بالغ للخليفة . . . .

فهاهنا زريبة تختلف عن زرائب هكس والشلالي او دفاعات الخرطوم . . . فالظلام ليس كاملا ليمكن من الاقتراب من العدو بل الاضاءة توفرت امام الزريبة لمدى بعيد . . . ولو هجم على الزريبة فهو سيهجم على عدو يراه جيدا . . . . ولكنه لايستطيع رؤيته ، وهذا مابدا واضحا من رئاسته في خورشمبات . . . فان الزريبة بدت غير ظاهرة المعالم بينما كسا الضؤ الباهر الارض امامها .

ولكن يجب ان لانغمط الخليفة حقه فهو في قرارة نفسه رأى فرصته الحقيقية في الهجوم ليلا . . . فقد كان هذا رأيه الاول وعلى هذا الاساس شكل جيشه في تشكيل منتشر نهائي للهجوم في الساعة الثالثة والنصف ظهرا . وكان هذا رأيه الاخير قبل عقد الاجتماع ، حتى انه تسرب لونجت .

فهو احس انه فقد معركة المدفعية صباح ذلك اليوم وان مدفعيته لن تستطيع الوقوف امام مدفعية « الكفرة » . وبدأ يعيد تقيم قواته من جديد بناء على نتيجة المعركة الصباحية التي لم يعلم تفاصيل نتيجتها حتى تلك اللحظة . وقرر مواصلة التقدم والاشتباك النهائي مع العدو بحيث تبدأ المعركة الرئيسية غالبا في الثلث الاول من ليلة ١ سبتمبر . ولكن المجلس الذى عقده بعد ذلك هو الذى حدد موقفه .

لقد تمت اغلب انتصارات المهدية لاعتمادها على حرب العصابات ، وعدم المواجهة الا في ظروف مناسبة . فقد احجموا عن الهجوم مرة ثانية على الابيض وفضلوا حصارها أربعة اشهر . واحجموا عن الهجوم على الخرطوم وحاصروها سنة كاملة ، ورفضوا مواجهة هكس مباشرة الى ان جذبوه مئات الاميال لارض القتل المناسبة . تلك هي مبادئ حرب العصابات . الهجوم على العدو في لحظة ضعفه وتجنبه في لحظة قوته . ولكن مضى عهد حرب العصابات واصبح جيش المهدية جيشا نظاميا متكاملا . هل اصبح قادته وعلى رأسهم الخليفة « جنرالات نظاميين » يتجنبون بطبعهم معارك حرب العصابات الليلية غير النظامية وفضلوا المعارك النظامية النهارية التي يتوفر فيها ضبط الافراد والنيران،ويمارس فيها القادة قيادة وتوجيه

وحداتهم وافرادها ؟ خصوصا اذا كانوا معتدين بقوتهم النارية والعددية ؟ !

ولايمكن التنبؤ بالضبط بثقل الأثر الحقيقي لمعلومات اهالى العجيجة عندما اتخذ قراره ، وقد عزا معظم المؤرخين قرار الخليفة بترك الهجوم ليلا لتأثير تلك المعلومات عليه ، وبالطبع كان لها بعض الأثر وقد تكون هي السبب المباشر أو على الاقل ساعدت في جذبه لآراء شيخ الدين . وعن تلك الحادثة . المرجح ان الجزء الخاص « بحفر الخندق العميق وانشاء العدو لدفاعاته » كان اكثر اثرا من الجزء الخاص ب « سيهجمون ليلا » . والجزء الأخير ماذكره تقرير المخابرات الرسمي وماذكره من وصفوا المعركة . والاول مالم يذكره وتجاهله ونجت والمؤرخون . فليس هناك سبب ليمنع الخليفة من دخول المعركة مع العدو أثناء تحركة ، وهي انسب كثيرا . وسيجد نفسه في وضع مريح ان هاجم العدو وهو متحرك وهو مايعرفه جيدا وما بني عليه خطته القديمة ، وهي احد الاركان الرئيسية التي اعتمدت عليها خطته الجديدة كما سنرى .

ولابد ان معلومات اهالى العجيجة عن الحفر والخندق العميق قد طافت بذهنه في لمحات خاطفة اثناء فترة صمته الطويل واردف تلك المعلومات والموقف الجديد الذى اخل بمخططه ، بمنطق شيخ الدين وبعدها اصدر قراره بالهجوم صباحا .

تلك كانت وجهة نظر الخليفة للموقف بكل ماصاحبها من قصور من جانبه في ادراك اثر بعض العوامل الهامة ، وتجسيم لاخطار لاوجود لها اطلاقا. اما الموقف حقيقة بالنسبة لذلك السؤال ، ليلا ام نهارا ، فهو يختلف بالطبع عن تصوره .

لاداعي لتكرار اثر نيران كتشنر الهائل ، فهو الذى اعتمد عليه كتشنر اولا واخيرا . ولكن اضاءة البوارج أو القذائف المضيئة أو غيرها لن تمكن نيرانهم المؤثرة لا كثر من ثلاثمائة ياردة . والقصف البعيد بالمدفعية الذى تعرضت له هجمات الخليفة الاولى في صباح اليوم التالى لم يكن ليؤثر في ظلام الليل ، فلا المدفعية ستتمكن من تصحيح نيرانها لتصبح مؤثرة فعالة ، ولا البوارج كانت ستتمكن من التدخل الحاسم بسرعتها ونيرانها كما فعلت صباح اليوم التالى . وبالتالى كان جيش الخليفة سيجد فرصته في اشتباك قريب والتحام مباشر مع العدو ، وقد

وضحت نتيجة ذلك عندما اتيحت الفرصة للوحدة الوحيدة من جيشه التى تمكنت من الاشتباك القريب مع كتيبة الرماحة فى خور ابو سنط .

لقد بنى كتشنر دفاعه المؤقت على اساس انتشار كل القوة لتـ فير اكبر قدر من النيران فى الامام . . . وكان من السهل على الخليفة الاندفاع وخرق الزريبة ثم ضرب صفوف الجنود والانتشار فى كل الاتجاهات نحو لواء كولنسون فى الخلف ونحو آلاف الحيوانات . والضرب على العدو من كل الاتجاهات من الامام والخلف والاجناب . وقد يتعرض الانصار لخسائر ثقيلة ، الا ان قوتهم العددية كانت كفيلة باحتمالها ولايمكن مقارنتها بخسائر الهجوم النهارى،وهجوم كذلك الهجوم مهما كان مرتجلا ومهما كان فاقدا لعنصر الضبط والسيطرة اللذين اعطى له الخليفة وزنا كبيرا كان كفيلا بتحقيق اعظم النتائج باعتبار شجاعتهم المشهورة .

اما الانسحاب الناجح والذى اعطاه الخليفة بعض الوزن فقد كان استحالة عملية لكتشنر . ولابد ان كتشنر قد فكر فيه ولكنه فى تلك الليلة وفى ذلك الموقف لم يكن بتلك السهولة ، فالبوارج لم تكن كلها بوارج نقل ولم تكن بمستطيعه نقل كل جيشه ومدفعيته ، وحيواناته ، كما ان انحصار ارض المعركة لم يكن ليوفر الزمن اللازم لاتمام هذا الانسحاب .

الليـلة الاخـــيرة

مضت الساعات مسرعة نحو الظلام ، وبدأ قرص الشمس فى الانحدار سريعا ليختفى وراء الجبال الغربية . . . وكلما تقـــدم الليل كلما زاد ضوء القمر ، الذى أسرع شاقا كبد السماء مشفقا على نفسه أن تفوته معركة القرن فى افريقيا . وسرعان ماكشف عن جيشين هائلين تكدس فى صفوفهما عشرات الألوف ، جلس جنودهما أفرادا يتبادلون الحديث فى انتظار قادتهم . ومرت فترة الظهيرة بدون حوادث تقريبا . ولم يكـــدر السكون فى الفضاء الواســـع غـــير ثلاث اشتباكات بين أطواف الخليفة وفرسانه ، وبين اطواف كتيبة الرماحة التى تقدمت حتى اجتازت امتداد جبل سركاب نحو النهر – نتج عن تلك الاشتباكات اصابة ثمانية من جيش الخليفة وبضعة جرحى من الأطواف .

وللمرة الأولى منذ ثلاثة عشر عاما لم يسمع سكان امدرمان صوت الآذان من جامع القبة . وجلس الآلاف ينظرون فى ذهول الى القبة الصامتة وقد اختفى رأسها المدبب وظهر شرخ واسع يشق جانبها الشمالى . تبعثر مقاتلو الخليفة أفرادا وجماعات فى خور شمبات وفى الفضاء العريض الذى فصله من جبل سركاب . وقد بدأوا فى التجهيز لوجبة العشاء . وبدأت النيران تشتعل هنا وهناك ، وأغلبها كان لاعداد القهوة والشاى ، وهؤلاء كانوا بالطبع من أهالى امدرمان . بينما تجمع فى منخفض خور شمبات الأفراد الاداريون من خدم وعبيد وجمال بعض الاثرياء الذين حملوا زادهم وطعامهم مطبوخا من امدرمان .

أما جنود الراية الزرقاء خلف الجبل فقد كانوا أكثر المجموعة تبعثرا فى الفضاء الواسع . ومضوا يتسامرون ويتحققون من الاشاعات التى تطايرت فى كل المعسكر وهم ينظرون بين فينة وأخرى لصاحبهم الذى أوقد النار تحت قدور الذرة والعصيدة فى انتظار نضوجها ليتناول كل منهم نصيبه من البليلة والبلح والعصيدة . أما الآبرى فقد وضع جافا فى قدور ضخمة وبجانب كل قدر آنية وضعت فيها الشطة والملح . . بالطبع تناولت الأحاديث اشاعات اليوم . . . بعضها يتحدث عن ان الهجوم سيكون ليلا . . . والآخرون يتحدثون عن الخلاف بين الخليل وشيخ

الدين ، فكما ذكر الشيخ بابكر بدرى « فمن قائل ان سلاح النار قام فعلا ليهجم على جيش الترك في مكان خدعة ،ومن قائل ان الخيالة يكونون معه ومن قائل ان شيخ الدين والخليل اختلفا وباختلافهما بطل هجوم الليل . . . » . ولكن اجمع رأى الجميع تقريبا انه من الاصوب خوض المعركة بعيدا عن النيل . . . فهذه القطع السابحة فى الماء والتى تقذف حمما ورصاصا ، الخير كل الخير فى الابتعاد عنها . وبعد صلاة العشاء ساد السكون التام خطوط الخليفة . فقد طلب من قادته أن يلزموا السكون التام حتى الحيوانات التى صدرت منها أصواتا عالية داخل الخور أمر بتكميم أفواهها ، وعندما بدأ الجمل الذى حمل عليه الامير يوسف ميخائيل فى الرغاء انتهره الأمير يعقوب آمرا صاحبه بتكميم فاه الجمل .

* * * *

تمدد عبد الرحمن على أرض خور شمبات المبتلة وقد تشتت افكاره بعيدا . وعندما احضر الطعام ابتلع بضع لقيمات فى صمت . لقد أصر على الحضور مع الجيش للاشتراك فى المعركة على الرغم من معارضة الأمير يعقوب واصراره على أن يبقى عبد الرحمن بالقرب من عمه يعقوب ابو زينب . كان يعقوب رقيقا كعادته وركز على أن الحاجة اليه فى امدرمان اكثر منها فى ميدان القتال،ولكن السبب الحقيقى كان واضحا . واضطر اخيرا الى توسيط شقيقه الاكبر الامير ابراهيم الخليل . وعارض هذا فى البداية ولكنه رضخ فى النهاية لرغبة أخيه ، فقد كان الاخوان يتبادلان اخلاصا ومودة . واصر الخليل على أن يقيم شقيقه معه فى المنزل حتى بعد زواجه . وعندما انتهى عبد الرحمن من تناول الطعام مد يده الى خادمه ليأخذه لغسل يده وبعدها قدم اليه الغلام عصاته وامسك يده وقاده الى مكان المبيت . فقد كان عبد الرحمن أحمد . . ضريرا .

* * * *

أما الفضاء العريض بين جبل سركاب وكررى والنيل الذى مثل الأرض الحرام بين الجيشين فقد تبعثرت فيه أطواف استكشاف الخليفة . وقد شق أحد الأطواف طريقه بهدؤ وصمت أمام الزريبة متجنبا ضوء البوارج الذى اضاء المنطقة وتجاوزها الى أن اقترب من جبل كررى ومكث مدة من الزمن وبعدها قفل راجعا

ليقدم تقريره للخليفة . لم يشارك العدو أطواف الخليفة فى نشاطها العدائي فخلاف الديدبانية امر السردار كل القوة مشاة وفرسانا بالدخول لداخل الزريبة .

* * * *

أمضى على دينار — أحد أحفاد السلطان ابراهيم ، آخر سلاطين دارفور ، والوريث الشرعى للمملكة التى أسقطها الزبير ، أغلب ليلته فى الحديث الهامس الخافت مع قمر الدين عبد الجبار أمين بيت الأمانة ومع مادبو زعيم الرزيقات . فقد دنت اللحظة الحاسمة التى انتظرها طويلا .

لقد بعث به الأمير محمود ود أحمد عندما تولى أمارة دارفور لامدرمان ليوضع تحت الرقابة . فلم يكن محمود يثق فيه اطلاقا . وطيلة وجوده فى أمدرمان وضع تحت الرقابة المشددة ، كملازم للخليفة فى البداية ، ليصبح طول الوقت تحت رقابته المباشرة ، ثم ألحق بجيش الكاره بقيادة ابراهيم الخليل ، واشترك فى عمليات ابراهيم الناجحة فى جبال النوبة . وأثناء اقامته فى امدرمان كملازم للخليفة تمت صداقة متينة بينه وبين السجين الشهير « سلاطين » . وها هوذا يسمع أن صديقه على بعد أميال قليلة منه ، ولكنه فى الجانب الآخر . وقد حانت اللحظة الحاسمة أخيرا ، وستحدد هذه المعركة ، على الأكثر فى الغد مصير حياته ، فان انتصر العدو وانهارت دولة المهدية فسيهرع عائدا فى اندفاعة سريعة لموطنه لاستعادة عرش آبائه . ولقد أعد عدته جيدا وكان يعلم أن حامية الفاشر بقيادة الأمير أمبدة حامية صغيرة بعد أن أخذ محمود ود أحمد معظم قواته وأسلحته معه عندما تحرك لامدرمان وترك ام بده قائدا لحامية صغيرة لحفظ النظام ، ولو سارت الامور سيرا حسنا فسيتمكن من هزيمة امبده بسهولة والاستيلاء على مملكة دارفور بالقوة . ولو اعترض الختيم موسى فى الابيض طريقه ، فلم يكن الختيم بأحسن حالا من أمبده ويمكن سحقه هو الآخر . لم يكن وحيدا . فقد اشترك آخرون فى التآمر معه ، موسى مادبو ابن زعيم الرزيقات الشهير الذى امتلأت نفسه مرارة ، فوالده الذى قدم خدمات جليلة للثورة فى أيامها الأولى ، كان جزاءه الاعدام (١) .

---

(١) تفاوتت الأقوال فى حجم القوة التى انفصلت مع على دينار . ولا زالت تتضارب فى تحديد اللحظة التى غادر فيها أرض المعركة . هل غادرها ليلة المعركة .. أم اثنائها .. أم بعد انتهائها .

أما ما يؤيد مغادرته للمعركة فى ليلة الخميس . فخطاب السردار الذى أرسله لعلى دينار فى الفاشر : ←

بعد انفضاض المجلس الأخير عاد بعض كبار الأمراء والتفوا حول عنقريب الخليفة وجلسوا على الأرض . كان آخر من وصل الأمير يعقوب ، وبعدها أحضر عشاء الخليفة ووضع على الأرض ودعى الأمراء لتناول العشاء . . . وأرسل لاستدعاء عثمان دقنة الذى اختفى وسط رجاله داخل خور شمبات . وبدأ الجميع فى تناول العشاء ولكنهم لم يصيبوا من الطعام الا قليلا ، حتى عثمان دقنة بشهيته الجبارة لم يأكل كثيرا . وأخيرا مد الخليفة يده وتناول بضعة لقيمات وهو يحدق ساهما فى الظلام . . وبعدها عاد الى عنقريبه واضطجع عليه متكئا بمرفقه مسندا رأسه بيده . وقد ظل فى ذلك الوضع حتى صباح اليوم التالى ، وهو يبدل يدا متعبة ،

→ You are well known to us through Slatin Pasha, who is your friend and we know that you are a decendant of the old Sultan of Darfur, and that Mahmoud brought you against your will and that you escaped from Omdurman with all your men one day before the battle and did not fight against us.

« لقد حدثنا عنك صديقك سلاطين باشا ونحن نعلم أنك أحد أحفاد سلطان دارفور السابق . وان الأمـير محمود أحضرك لامدرمان رغما عنك . ونعلـم جيدا انك لم تشترك فى القتال ضـدنا وانك غادرت امدرمان قبل يوم من المعركة .

Appendix 96 – Sudan Intelligence Report Cairofint 334/1/64

كذلك برقية ماكـويل لونجت – دار الوثائق

Theobald, *Ali Dinar Last Sultan of Darfur p. /*

على أن أغلب ابنائه أكدوا تواجد والدهم فى المعركة وانه غادر أرض المعركة بعد انتهائها .

ولسبب أو لآخر لم يشترك على دينار فى المعركة تحت قيادة أبراهيم الخليل بل دخلها ضمن ملازمى شيخ الدين . والمرجح أنه غادر أرض المعركة أثناء القتال فى لحظات مطاردة شيخ الدين لبرودوود . بل يقال أنه هدده واقتلع جنوده بالقوة . على أن أغلب المصادر التى استشرتها من الأحياء أو ممن شاهدوا على دينار بعد مغادرة المعركة تؤكد ذلك . فقد ذكر العمدة آدم يوسف أنه يذكر جيدا أنه شاهد على دينار ضمن ملازمى شيخ الدين فى صلاة الفجر صباح المعركة . وذكر الفكى حامد الزملو « وكان فى الثالثة عشر » أنه قابل على دينار فى اليوم الثانى للمعركة غرب أمدرمان أثناء محاولتهم اللحاق بالخليفة . وان على دينار وقف بعيدا بجواده . وبعث لهم مادبو الذى حاول اقناعهم بالعودة لدارفور «فان المهدية قد انتهت وسنعيش فى وئام التعايشة تعايشة والرزيقات رزيقات . » ولكن والده رفض. وأجاب بأنه سيلحق بالخليفة ولم يتعرض لهم على دينار بأذى .

أما القوة فأقل تقدير لها هوثلثمائة – « تاريخ دارفور السياسى – الأستاذ موسى المبارك . » وهناك مصادر زادتها على الألف . الا أن الجميع اتفقوا على أنها كانت من أحسن الخيول والبنادق فى الملازمين .

بيد أكثر تعبا ، متحدثا بين الفينة والأخرى مع عثمان أزرق الذى لم يفارقه طيلة تلك الليلة . ولابد أنه سأله كثيرا عن هذا العدو وعن تلك القبيلة التى اقتحمت أرضه ، ليتمكن على ضوء اجابات عثمان من وضع خطته التى بدأت صورتها النهائية تكتمل فى رأسه .

هل ياترى حل أخيرا الزمن الذى يتحقق فيه الجزء الأخير من نبؤة «تورشين» . . . هل تباد الآلا ف ويعود هو كما بدأ رحلة المجد الطويلة . . . على ظهرحمار .

كان هناك شيئان ضايقاه كثيرا أولهما بالطبع ضرب القبة وتدميرها ، ليس لأنه بذل جهدا طائلا فى سبيل بنائها ، فقد نقل مواد البناء طوبة طوبة وحجرا حجرا من أنقاض الخرطوم ، وسخر لبنائها كل سكان امدرمان ، واشرف على النواحى الهندسية أحسن مهندس وجد فى عاصمته . . . لم يكن ذلك هو الامر الذى ضايقه . ففى قرارة نفسه لم يكن يحفل كثيرا بالأضرحة والقباب . فعندما طلب منه كبار أمراء التعايشة بناء قبة فوق قبر والده تورشين بأبي ركبه ، سفه رأيهم وأجاب انه لو ترك له الخيار شخصيا لما بنى حتى قبة المهدى . وان بناء قبة عالية ليست كل شئ لتخليد المهدى . ولكن معرفته بنفسية سكان عاصمته ورعاياه وماتعودوا عليه من تعظيم الأبنية لتخليد علماؤهم وفقهائهم دفعه لبناء ذلك الصرح الشامخ ، لم يضايقه تدمير القبة فى حد ذاتها، ولكن ماتمثله القبة وداخلها وقبر المهدى الذى اعتمد الخليفة على اسمه وتعاليمه طوال ثلاثة عشر عاما ، وقد احس هو بأثر منظر القبة المدمرة على معنويات جيشه ، فقد أصيب كل جيشه بهزة عنيفة وكان هو خير من يعلم أثر ذلك على الآلا ف الذين قطعوا مئات الأميال للدفاع عن دعوة صاحب القبة .

أما ماضايقه حقيقة فقد كان ضوء البوارج الذى أضاء سهل كررى . . . وهو ماحرمه من النوم طول الليل. فقد جعله يتوقع تقدم العدو بين الفينة والأخرى، واخيرا أجبره على الوقوف على قدميه عندما دوى صوت إنفجار عنيف تلاه وهج ضوء ساطع انطلق فى السماء ثم غمر كل الأرض . . . ومضى متنقلا بين الجبال والخيران والسهول ليحيل ظلمة الليل الى نهار واضح . لم يصل الضوء موقعه ذاك ولكن عند اقترابه تحرك عثمان أزرق مسرعا وركل الخيمة البيضاء بقدميه الى أن

انهارت على الأرض . . . ففى مثل ذلك الضؤ كانت الخيمة البيضاء هدفا لاتخطئه عـــين .

لم يعد الخليفة لعنقريبه الا بعد مدة . . . وظل واقفا فقد شك فى أن الضؤ الساطع ذلك كان مقدمة لقذائف رهيبة من سلاح جديد يقذفها هذا العدو الذى يأتي كل لحظة بجديد .

بعد منتصف الليل استدعى الخليفة امراء الرايات الثلاث يعقوب — وعبد الله ابو سوار — واحمد عبد الكريم . ووجدوا معه عثمان أزرق جالسا بالقرب من عنقريبه . وسأل الخليفة الأمير يعقوب قائلا « يعقوب . . . اوصيت بعدك منو فى امارة الراية الزرقاء ؟ » فاجاب الامير يعقوب « سيدى خليفة المهدى ، مخير وان كان لابد المقدم جديد او الامير يعقوب ابو زينب والرأى لك» فوافق الخليفة على الاثنين ، والتفت الى عبد الله أبو سوار « امير امراء الراية الخضراء» سائلا اياه عمن سيخلفه فى قيادة الراية ان استشهد . فرشح عبد الله ود برجوب احد امراء دغيم أو احمد عبد الجليل بن عم الخليفة على ود الحلو . أو البشير عجب الفيه » فوافق الخليفة على الاول . واجاب احمد عبد الكريم بأنه رشح عبد الصمد حاج شرفى فوافق الخليفة . ثم سألهم عن أحد الامراء وأجاب أحمد عبد الكريم انه اخذ اذن غياب من الخليفة شريف . ويبدو انه كان كثير الغياب فى اللحظات الحرجة على الرغم من كونه من كبار الامراء ، فعلق الخليفة غاضبا « كلما نكوسه فى امر نلتفت نلقاه غايب ؟ » وامر بعدها الامراء بالعودة الى مواقعهم .

وبعد منتصف الليل عـــاد احد عناصر الاستكشاف من استطلاعه البعيد واوضح للخليفة مواقع العدو وتوزيع قواته بالتقريب . فلم يتمكن الطوف من جمع معلومات دقيقة عن توزيع اسلحة العدو وقواته لعدم إستطاعتهم من الاقتراب من الزريبة لانتشار الضوء الساطع والديدبانية الذين امر يعقوب بعدم الاشتباك معهم أو فتح النيران عليهم بل وتجنب لفت انظارهم . اوضح ذلك التقرير (١) للخليفة

(١) يمكن تقدير الزمن الذى قابل فيه قائد الطوف الخليفة بين الثالثة والرابعة والنصف. وقد وصل هذا الطوف إلى أقصى مدى وصلته عناصر استكشاف الخليفة شمالا . وحسب رواية الغلام عبدالله الذى كان يجلس تحت عنقريب الخليفة فان قائد الطوف افاده عن تحرك المصريين إلى جبل كررى. وخياله برود وود المصرية لم تتحرك لتحتل كررى الا قبل الساعة الرابعة بقليل .

ان « الانجليز على البحر . . . ولكن المصريين يتحركون نحو جبال كررى . »

** ** ** **

تجاوزت الساعة منتصف الليل عندما غادر ونجت خيمة السردار تاركا اياه وحيدا يغالب افكاره ومخاوفه . وهاهى ليلة أخرى متوترة يقضيها داخل خيمته مرهفا آذانه لكل حركة . . ففى أى لحظة قد يندفع احد ضباطه حاملا النبأ المزعج : تقدم جيش الخليفة بين ظلال الجبال نحو زريبته للمعركة الفاصلة .

لقد ظل هو صاحب المبادأة لعدة سنين . . . وقطع الف وسبعمائة ميل وهو يهاجم دائما . . . وكفل له تكوين قوته أن يخوض معارك ذات نغمة ووتيرة واحدة : قصف تمهيدى قوى يقصم ظهر العدو ، ومدافع وبوارج تفتت دفاعاتهم وطوابيهم الطينية وتمزق صفوفهم تتبعه الرشاشات لتحصدهم وتكنس الأرض من فلولهم . . . ثم المشاة والفرسان ليلتهموا ماتبقى من ثلل العدو . وقد مكنته الاقدار وضابط مخابراته الساحر دائما من نيل بغيته وهو ما اراده هذه المرة ايضا ، معركة على نفس النمط وفى نفس ظروف فركة والحفير وعطبره . فالسردار ليس ستيوارت وليس ولسون الجسور الذى تقدم بحملة الانقاذ بجيش بلغ تعداده اقل من عشر تعداد جيشه ، ضاربا عرض الصحراء فى تقدم سريع لم يسمع به القرن التاسع عشر لانقاذ رجل واحد . . . وليس ويلسون الذى واصل التقدم فى ظرف أسوأ ومع هـذا لم ترحمه الصحافة ولا الرأى العام وذاب اسمه فى ظلال النسيان عندما لم يتمكن من انقاذ غردون . لقـد حسب السردار كل العوامل حسابا دقيقا من مد خطوط السكة حديد ، وماوفرته من أطنان الذخيرة والعتاد طنا طنا ، ولكن هذا الموقف الجديد الذى وجد نفسه يواجهه كان يمكن أن يقلب كل حسابه رأسا على عقب .

لقد شد العالم أنفاسه كلها فى انتظار نتيجة المعركة واكتظت شعبة المخابرات بعشرات من المراسلين الحربيين مثلوا اكثر من عشر صحف ومجلات ، واستجابت لندن لطلب هيئة الاركان حرب الالمانية لتبعث مندوبا للاستفادة من الدروس التى تبرزها الحملة ونقلها لهيئة الأركان الالمانية . والمندوب الالماني — البارون فون ثيدمان — لايفتأ يكرر عبارته المفضلة التى لمح كتشنر فى ثناياها سخرية خفيفة :

The first of September .... your great day and
our great day ...... SUDAN AND SEDAN

« أول سبتمبر ، يومك العظيم ويومنا العظيم ، السودان وســـيدان » .

الخـــطة

« كانت خطة الخليفة خطة عبقرية معقده »

تشرشـــل

كانت الخطوط العريضة لخطة الخليفة هى الهجوم بمرحلتين ، كل مرحلة تتكون من إقتحام بمحورين . على أن المرحلة الثانية مثلت المرحلة الرئيسية التى احتفظ لها بالجزء الأكبر من طاقاته البشرية والنارية .

١ ـ مناطق التشكيل :

أ ـ خطوط التشكيل للمرحلة الأولى :

١ ـ جيش الكاره تحت قيادة ابراهيم الخليل « ٤٠٠٠ مقاتل »
خط تشكيله السفح الجنوبي لامتداد جبل سركاب .

٢ ـ قوات عثمان أزرق « ٨٠٠٠ مقاتل » اقتطعت هذه من الملازمين بالاضافة لعناصر معززة ، خط تشكيلها جنوب غرب جبل سركاب . مع الراية الزرقاء والصفراء .

ب ـ خطوط التشكيل للمرحلة الثانية :

١ ـ قوات شيخ الدين «عشرة آلاف مقاتل» أى الملازمين ناقص قوات عثمان ازرق ، تعبر السهل بين كررى وسركاب بعيدا عن نيران الزريبة ثم تنعطف انعطافا واسعا لتنقض على جبل ابو زريبة وتحتل خط تشكيلها لحين حلول زمن اشتراكها فى المرحلة الثانية . ولما كانت منطقة كررى محتلة بواســطة العدو من قبل لذا مثلت « غرضا » بالنســبة للمرحلة الأولى « وخط تشكيل » بالنسبة للمرحلة الثانية .

٢ ـ الراية الخضراء « أربعة آلاف مقاتل » تحت قيادة عبد الله ابو سوار

"The Khalifa's plan appears to have been ingenions and complex"
Churchill

يعبرون السهل بين سركاب وكررى امام وبعيدا عن الزريبة ويتخذون خطوط التشكيل وراء جبال كررى « ابو زريبه » بعد تنظيفه بواسطة الملازمين .

٣ — الراية الزرقاء « اثنا عشر الفا مقاتل » بقيادة يعقوب ، تحتل خط التشكيل غرب جبل سركاب .

ج — قوات عثمان دقنة «سبعمائة مقاتل» تحتل خور ابو سنط ولم يكن ذلك يعتبر خط تشكيل فلم يكن الاشتراك فى الهجوم من ضمن واجبات هذه القوة بل كان واجبها الرئيسى هو حماية طريق امدرمان ومنع العدو من القيام بحركة التفاف لتطويق جيش الخليفة » .

د — المدفعية : فى جبل سركاب « الحق مدفعين لعثمان ازرق ليشتركا معه فى الاقتحام » .

٢ — **المراحل والواجبات : (١)**

المرحلة الاولى :

التوقيت : بعد صلاة الصبح . تتكون المرحلة الأولى من هجوم يشن على محورين :

المحور الأول : عثمان ازرق « ملازمين » التقدم الى جهة الشمال الشرقى لجبل سركاب ويتجاوز شمالا لينعطف شرقا مباشرة نحو النيل لتسديد هجوم مباشر على وسط الزريبة "Frontal Attack"

المحور الثاني : ابراهيم الخليل « الكارا » التقدم لجهة الشمال الشرقى ثم الانعطاف شمالا شرق جبل سركاب بين النيل والجبل لتسديد هجوم جانبى للجانب الأيسر من الزريبة .

كان لازما ان يشن الهجوم من المحورين فى وقت واحد وتحت غطاء من نيران مدفعين الحقا لعثمان ازرق .

---

(١) أنظر خريطة رقم ٥ « الخطة » .

وعلى الرغم من ان القوة النارية التى ستشترك فى هذا الهجوم كانت حوالى ثلث قوة الخليفة التى دخل بها المعركة وكانت صغيرة نسبيا « اثنا عشر الفا مقاتل » الا انها ضمت جيش الكارا ، وقاد الهجوم اثنان من اكثر قادته كفاءة ، كما توفرت لها قوة نارية كبيرة « اربعة آلاف بندقية » .

اما باقي القوة فقد كان واجبها اثناء المرحلة الأولى كالآتي«١» : الملازمون

---

(١) من هنا نرى ان تقديم تشرشل لخطة الخليفة كان أقرب تقديم للحقيقة . ويطابق لحد بعيد الحقائق التى استخلصتها سواء من سير المعركة أو ما اوردته المصادر المحلية عن ردود فعل الخليفة عندما تعثرت الخطة. وقد تمكن تشرشل من الحصول على المعلومات اللازمة بما شاهده من التحركات فى بداية المعركةأو ما تمكن من جمعه بعد سنة من المعركة عندما زار القاهرة لجمع معلومات لكتابه"The River War" وأمده ونجت ورجال المخابرات باحدث معلومات تمكنوا من الحصول عليها بعد استجواب كبار الأمراء الذين خرجوا أحياء بعد ام دبيكرات .

الا أن نقطة الخلاف لا زالت تحوم حول واجب الملازمين بقيادة شيخ الدين. فقد تساءل تشرشل عن واجب شيخ الدين :

His real intentions are still a matter of conjecture, whether he had been ordered to attack the Egyptian Brigade, or to drive back the cavalary, or to disappear behind the Kerreri Hills in conformity with Ali Wad Hilu is impossible to pronounce.

فهو يتساءل ولا يجد الاجابة الصحيحة عن واجب شيخ الدين فى الخطة . هل واجبه هومهاجمة ميمنة الزريبة ، أم تنظيف جبال كررى من الخيالة المصرية ، أم الانتظار بعيدا مع على ود حلو خلف جبال كررى للاشتباك فى المرحلة الثانية .

والواقع ان الاجابة كانت نعم للسؤالين الاخرين ولا للسؤال الأول . وأصبح من الممكن الاجابة بسهولة على تلك الاسئلة عندما تقارن بأقوال عبد الله غلام الخليفة بعد استجوابه بستة أشهر من المعركة فقد أوضح عبد الله أن الخليفة كان يعلم بوجود قوة من العدو فى جبل كررى .

"The Khalifa Scouts brought news during the night that the English were on the river but the Egyptians were moving behind Jebel Kerreri".

لقد بلغت الاطواف الاستكشافية ان الانجليز يدافعون على النيل وان المصريين يتحركون نحو جبال كررى . »

اذن لكى يتمكن شيخ الدين من تنفيذ واجبه الرئيسى وهو الاشتراك فى المرحلة الثانية من خط تشكيله كان لا بد له من الاشتباك مع المصريين واجلائهم لاحتلال خط تشكيله . اذن فالواجب الاول هو احتلال خط تشكيله الذى يمكنه من تسديد هجوم المرحلة الثانية ولكن الاسبقية الزمنية حتمت وضع الواجب الثانوى أولا وهو الاشتباك مع الخيالة واجلائها عن جبال كررى . ويجب ان نذكر ان عناصر الاستكشاف ظنت ان العدو الذى احتل كررى هو عدو من المشاة احتل الجبل احتلالا نهائيا وليس خيالة وهجانة برود وود. التى احتلتهاموقتا«احتلال القوات الراكبة» كما أن تقرير المخابرات←

بقيادة شيخ الدين تتقدم منتهزة انشغال العدو اثناء تطور هجمات المرحلة الاولى لتتجاوز مبتعدة عن مدى نيرانه المؤثر لاحتلال جبال كررى والانتظار بها .

الراية الخضراء : تتحرك خلف الملازمين وتحتل خط تشكيلها شمال جبل ابو زريبه والانتظار به .

الراية الزرقاء : تمثل احتياطى للمرحلة الأولى بحيث اذا احرزت هجمات المرحلة الاولى نجاحا عليها ان تتقدم وتجهز على العدو .

وبذلك خدمت هجمات المرحلة الأولى غرضين ، اما ان يكتب لها النجاح وتحقق خسائر كبيرة في العدو ويبقى واجب الاحتياطى فى القضاء النهائي على العدو . أو تحقق نجاحا جزئيا بالحاق بعض الخسائر بالعدو ويتمكن من صدها وهنا

← ٦٠ يؤكد هذه الحقيقة على الرغم من عدم تمكنه من التعرف على تلك القوة .

The Khalifa Wad Hilu had received orders to proceed via the Kerreri Ridge and fall upon the fugitives from the Zeriba .... and soon became hotly engaged with our mounted forces.

« لقد كانت أوامر على ود حلو هى التقدم نحو جبال كررى ومهاجمة الهاربين من الزريبة أثر الهجوم الأول .. » اذن فواجبه هنا هو عنصر « توقيف » أى قطع خط أى انسحاب من الزريبة وليس اقتحام الزريبة . الا ان التقرير اخطأ فى التعرف علـى هذه القوة فلم تكن تلك قوة على ود حلو « الراية الخضراء » بل كانت قوة شيخ الدين « الراية الخضراء الغامقة » ولتقارب الألوان نشأ الا لتباس بينها وبين الراية الخضراء . فمن الثابت ان الراية الخضراء لم تشتبك مع الخيالة اطلاقا طوال المعركة ، وظلت بعيدة عن الخيالة ووصلت إلى كررى بعد انسحاب برود وود من كررى بعد اشتباكه مع شيخ الدين .

ولعل ماربك تشرشل لحد ما فى طبيعة واجب شيخ الدين . هل هو الهجوم على الزريبه أم الإنتظار والا ختفاء خلف كررى كان هو طبيعة تشكيل وتقدم الملا زمين فهو يصف تقدم شيخ الدين :

"The tempestvous advance of Osman soon brought him in contact with the mounted forces."

« سرعان ما حتّم تقدم شيخ الدين العاصف إشتباكه مع الخيالة. »

فلقد كان تقدم شيخ الدين تقدما مسرعا وبتشكيل منتشر ، وتشكيل اقتحام ، عكس تقدم عبدالله أبو سوار لاحتلال خط تشكيله وراء أبو زريبة فقد كان شكيل تقدم عادى Column formation وكانذلك وضع طبيعيا فشيخ الدين سيتخذ خط تشكيله فى أرض محتله اذن لابد له من اتخاذ تشكيل اقتحام.

وعلى الرغم من ان هناك احتمالا بأن تشرشل لم يطلع على نتيجة استجواب عبد الله او على تفاصيل خطة الخليفة المبدئية التى وضعها فى امدرمان واوضح فيها نظريته فى استخدام الملا زمين وأدى هذا إلى ارتباكه؛ لكننا سرعان ما نجده قد عاد إلى الخط الصحيح..فيواصل تقديم الخطةواصفا المرحلة الثانية. ←

يكمن واجبها الرئيسى كطعم لجذب السردار خارج زريبته . وتبدأ المرحلة الثانية والتى من أجل تنفيذها احتفظ بالراية الخضراء والزرقاء والملازمين وأغلبية قوته النارية بعيدا عن مسرح عمليات المرحلة الأولى .

وعليه لم تتقيد هذه المرحلة – المرحلة الثانية – بزمن معين حتى مكان تنفيذها حدد بالتقريب . فقد اعتمد تحديد توقيتها ومكانها على رد فعل من العدو . أى الهجوم بالفرسان والمشاة على جيش السردار حين يبدأ التقدم نحو امدرمان وهو في موقف اضعف . . . مكشوفا خارج دفاعاته وزريبته العالية وخنادقه العميقة ، وبوارجه غير مستطيعة تقديم نفس المساعدة ، ومدفعيته غير ثابتة على الأرض وعاجزه عن تقديم نفس المساعدة التي تقدمها له وهو متحصن داخل زريبته ، واخيرا بعد مواجهته لصدمة الهجوم الأول حين يصيبه الضعف نتيجة لتحمله وقعها وبغض النظر عن النتيجة الختامية لهذا الهجوم .

٢ – **المرحلة الثانية :** التوقيت بمجرد مغادرة العدو الزريبة متجها لامدرمان

أ – المحور الأول : هجوم من جهة الجنوب الغربي تقوم به الراية الزرقاء بقيادة يعقوب « اثنا عشر الفا » من غرب جبل سركاب متجهة شرقا مباشرة نحو جنب قوات كتشنر المتجه جنوبا ، للالتحام معها فى هجوم تصادمى تحت غطاء من نيران المحور الثاني « نيران الملازمين » ونيران الامدادية من قمة جبل سركاب

→"The Enemies of God exulting in their easy victory...... Then while they were yet dispersed in the plain, with no Zeriba to protect them, then the chosen warriers of the true religion will abandon all concealment and the Khalifa with 15000 falling upon them from Surgham: Ali Wad Hilu and all that remained of Osmans army assailing from Kerreri...."

« وعندما يتقدم العدو نحو أمدرمان مختالا بانتصاره السهل ، وهو فى العراء بدون حماية من الزريبة ، ينقض عليه جنود الله المختارين من كل اتجاه – يعقوب من خلف سركاب وعلى ود حلو و كل ما تبقى من جيش شيخ الدين من كررى : » وهو يقصد عبد الله أبو سوار وليس على ود حلو كقائد لقوة الراية الخضراء . » أما قوله كل ما تبقى من جيش شيخ الدين فليس المقصود بها المتبقى بعدالا شتباك مع الزريبة ، بل المتبقي بعد إنفصال قوات المرحلة الأولى وازرق والخليل . فكما ذكر على جله ان الخليفة فى لحظات حنقه على شيخ الدين عندما تخلى عن واجبه فى الخطة الا صلية واخل بخط تشكيله المحدد واندفع فى مطاردة الخيالة شمالا ، ان الخليفة ارسله لشيخ الدين آمرا اياه بالعودة والا نتظار بخط تشكيله حسب الخطة الا صلية . »

بقيادة الامير خير السيد .

ب – المحور الثاني : هجوم تصادمي تشنه الراية الخضراء « اربعة آلاف » منهم أربعمائة فارس بقيادة الامير عبد الله ابو سوار من مواقعها من ابي زريبة لجهة الجنوب الغربي ليسدد هجوما نحو مؤخرة العدو وهو متجه لام درمان بالاشتراك معه ، وتحت غطاء من نيران الملازمين « عشرة آلاف » اغلبهم مسلحون بالبنادق . كان لزاما لهذين الهجومين ان يتما فى لحظة واحدة . وقد وفر لهما الخليفة أغلبية حشده البشرى والنارى المكون من :

الراية الزرقاء « اثنا عشر الف » التى حشدت من اهل الغرب اكثر العناصر اخلاصا له ومثلت قوة الاقتحام الرئيسية بالسلاح الابيض وقادها اقرب الاقربين اليه ، الامير يعقوب .

الملازمون : مثلوا قوة النيران الرئيسية وصفوة جيش المهدية من ابناء القبائل المختارين « عشرة الف بندقية » بقيادة أبنه شيخ الدين .

ويجب ان نلاحظ ان اختيار خطوط التشكيل للمرحلة الثانية وهى بعيدة عن نظر ونيران العدو مكنتها من ان تمثل مناطق اعادة تجميع لفلول هجمات المرحلة الاولى . "Reassembly area" كالآتى :

الراية الزرقاء : خلف جبل سركاب لتنضم اليها بقايا المرحلة الأولى من الاحياء والجرحى ليعاد انتظامهم فى صفوف الراية .

الراية الخضراء : مختفية وراء جبال كررى لينضم اليها ملازمية شيخ الدين لو تعثر هجومها على قوات العدو فى الجبال ليعاد تنظيمها من جديد استعدادا للمرحلة الرئيسية . ولذلك كان المتوقع ان يتوفر لهذه المرحلة عند الهجوم حشدا أكبر من الحشد المخصص لها أصلا . بالاضافة الى الحاق قوة من الفرسان الخالصة « فرسان دغيم » .

والواقع ان الفرصة المتوفرة لهذا الهجوم كانت فرصة اكبر فى تحقيق النصر النهائي لو تم فى الظروف التى تخيلها الخليفة. فسيوجه نحو خلف وجنب العدو ، تحت غطاء نيران قوى « ضم اغلب أسلحته النارية » نحو قوة غير مستترة ، ومدفعيتها غير ثابتة على الارض .

اما عثمان دقنة فقد كان واجبه طوال فترة المرحلتين هو حفظ خط انسحاب الجيش لامدرمان . واتفاق الخليفة مع عثمان دقنة على أهمية وضع قوة مدافعه بمثابة الحراسة لطرق انسحابه تؤكد نيته على خوض معركة ثانية داخل امدرمان حتى لو فشل فى تنفيذ معركته المعقدة ذات المراحل المتعددة . . . وتؤكد احساسه بفعالية معركة الشوارع والازقة داخل امدرمان كأمل نهائي .

اما استخدامه للقوة الراكبة في جيشه فقد وزعت توزيعا متساويا فى كل المراحل وكل المحاور ، ولعل طبيعة الخطة املت عليه ذلك . . فلا احد يدرى بالضبط أى الهجمات والمحاور ستحسم المعركة ، هل هى المرحلة الأولى ام الثانية ولذلك لم يحاول القاء ثقل قوته الراكبة مع أى من فرقه بالاضافه إلى قوتها الراكبة الاصلية .

اما عنصر المواصلات الوحيد الذى توفر للخليفة لضمان تماشي تخطيطه مع المواقف التكتيكية التى لابد ان تجد عند تنفيذ خطة معقدة كخطته تلك ، فقد تمثل فى « على الجلة » (١) بساقية اللذين يسابقان الريح . . وجواده السريع . بالطبع كان هناك عشرات الفرسان على أهبة الاستعداد للانطلاق لنقل رسائله من رئاسته خلف جبل سركاب ولكنه لم يكن يثق بمقدرة أى منهم ، مثل ثقته بعلى ، فى تبليغ رسائله كما يريدها ان تصل لقادته .

* * *

لاشك ان الخطة التى وضعها الخليفة كانت خطة مرنة كفيلة بمواجهة كافة المواقف والاحتمالات . بالطبع اذا غضضنا الطرف عن الاخطاء البديهية التى وقع فيها لجهله التام بعدوه ــ بينما كان العدو يعرف الكثير عن قوات الخليفة وتجهيزها .

كما كانت خطة الخليفة متوازنة ، وخصوصا الميزان الدقيق للتوزيع النسبى

---

(١) على الجلة كان مراسلة ميدان الخليفة الرسمى وكانت مقدرته عجيبة فى البقاء حيا رغم انه أكثر من تعرض لرصاص العدو أثناء توصيلة لرسائل الخليفة الشفهية داخل المعركة .. ولم يصب على الجلة بسوء فى معركة كررى .. وخرج حيا من معركة ام دبيكرات . وكان صديقا لسلاطين منذ أيام الاحتلال وتصب ناظر المسيرية فى أيام الحكم الثنائى . إلا أن على الجلة كان شخصاً مهما فى قبيلة المسيرية قبل ذلك . فكنيسون يذكر نقلا عن هندرسون أن على الجله كان هو رسول على مسير للمهدى عندما كان هذا فى قدير . وقبل ذلك إستخدمه غردون دليلا أثناء رحلاته فى كردفان .

Cunnison, I., *Baggara Arabs* ;Oxford, 1966), p. 135.

Hill P 18

للطاقات البشرية والنارية على المراحل حسب طبيعة كل مرحلة ونسبة نجاحها ونتائجها . فنحن نرى انه يقذف بثلث قوته البشرية وثلث قوته النارية فى مرحلة ذات نسبة نجاح اقل ، صحيح انها موجهة نحو عدو فى مركز اقوى ، ولكنه لايقذف بها فى واجب انتحارى بدون هدف ، بل يوفر لها كل احتياطيه لوبرهنت على فعالية ، ويوفر لها مجهرد جزئي مؤقت من قوته النارية ، وذلك مامثله هجوم شيخ الدين على جبال كررى ذى الهدف المحدود المؤقت . فالعملية التى كان على شيخ الدين تنفيذها كانت ستؤدى بطريقة أو أخرى ، الى انشغال جزء من العدو عن هجمات المرحلة الأولى .

أما فى المرحلة الثانية ، عندما يخرج العدو من زريبة ويصبح فى موقف أضعف فإننا نرى ان الخليفة يقذف نحوه بكل طاقاته ، وتلك النظرة لايمكن الا أن تحوز الاعجاب ، لان أساسها هو الضرب بقوة فى لحظة ضعف العدو . وفى تلك ابرز الخليفة خبرته القتالية الطويلة ، خبرته التى استمدها من عشرات الكمائن الناجحة . فان المرحلة الثانية خططت لتحقيق أكبر قدر من المفاجأة لتفقد العدو قدراته وتوازنه "Taking enemy off balance". فالواقع كانت عملية كمين على مستوى ضخم ، أكثر منها عملية اقتحام عادية .

ولعل ذلك ينفى لحد ما أن القيادة قذفت بعشرات الألوف نحو الموت المؤكد فى مجزرة من أكبر مجازر التاريخ . فالتفسير الوحيد لبقاء الراية الزرقاء كاملة لمدة ثلاثة ساعات وهى ساكنة مختفية وراء سركاب ، تؤكد ان العملية كلها كانت تخطيطا لكمين على مستوى كبير ، وليس هناك تفسير غير ذلك لبقاء الراية الزقاء والخضراء وراء كررى منذ السابعة حتى العاشرة والربع والمعركة تحتدم تحتهما فى ضراوة متناهية ، وأخيرا كان ذلك هو التفسير المقنع لالتفاف شيخ الدين البعيد متجنبا الزريبة ونيرانها ليصل لكررى .

أما الطريقة التى قرر أن يناور بها الخليفة بجيشه فلم يبتعد تشرشل بعقله اللماح كثيرا عندما وصفها بالعبقرية مخالفا الكثيرين . ونلاحظ أن كلا المرحلتين كانتا على شكل كماشتين هائلتين تطبقان على العدو من اتجاهات مختلفة ، وهو استغلال ذكى لقوته البشرية . فتلك الطريقة تضمن ارتباك وتشتت جهود العدو عند مواجهته

لمحاور متعددة. وهي أجدى كثيرا من خطته البسيطة الأولى حين صب كل قوته البشرية في لحظة واحدة من اتجاه ، وصب نيرانه من اتجاه آخر . وهنا يجب أن لاننسى أن توقيت تنفيذ خطته الأولى كان ليلا ، والخطط البسيطة ذات المرحلة الواحدة ، هي أضمن وأحسن في العمليات الليلية الكبيرة .

وقد يبدو من الوهلة الأولى أن فكرة الخليفة الملحة في الفصل التام بين قوته النارية « الملازمين » وقوات الاقتحام بالسلاح الابيض،هي التي مدت جناحي الكماشة الهائلين ، وقد ينطبق هذا على المرحلة الأولى ، ولكن عند النظرة المدققة لكل الخطة عندما توضع على الأرض ، سرعان يكتشف المرء أن منطقة كرري نفسها كانت مفصلة على الخطة ، بحيث كفل وجود الهيئتين الطبيعتين البارزتين جبال كرري،وجبل سركاب، منبعا لتفجر هجمتي المرحلة الثانية، بحيث يمتد منها ذراعا الكماشة ليطبقا على خناق العدو في اللحظة المناسبة . ونظرة سريعة لخريطة منطقة شاطئ النيل أو محور تقدم العدو من امدرمان حتى السبلوكة تجعل المرء يشك أحيانا أن الطبيعة نفسها ساهمت في التخطيط لهذه المعركة ، بروز مفاجئ لهيئتين طبيعتين بهذا الوضع تسمحان باخفاء قوات كبيرة خلفهما ، مسافة مثالية بينهما أربعة أميال ، سهل ينحدر انحدارا رقيقا نحو النهر حيث انحصر العدو في المرحلة الأولى ، وحيث سيسقط في الفخ عند تقدمه في المرحلة الثانية .

ومن الخطأ نقد خطته تلك بأثر « تقدمي » . أي باعتبار ماحدث فعلا في اليوم التالي بل من خلال امكانياته والمعلومات المتوفرة لديه عن العدو . . . وحسب خلفيات كثيرة للمعركة . . . ولكن حتى من خلال تلك لا أظننا نستطيع أن نقول ان كرري كانت ألمع أيام الخليفة كقائد ميداني .

ولعل أول سؤال يقفز إلى ذهن المتفحص لتلك الخطة هو ، اذا كان الخليفة يعلم ان لحظة الضعف في موقف العدو تكمن عند خروجه من دفاعاته متقدما نحو امدرمان . اذن لماذا لم ينتظر لحظة الضعف هذه منذ البداية ، ويوفر على نفسه مشقة الهجوم على عدو في مركز قوة متكبدا خسائر لامبرر لها ، ليحافظ على جيشه سليما للحظة الحاسمة ؟ هل رغب في خداع العدو حين دفع أعدادا ضخمة ونيرانا كثيفة بينما اختبأ جزء كبير آخر خلف الجبال ليقنع العدو أن هذا هو كل جيشه

حتى يسقط في الفخ ؟ . . . أم لأنه خشي ان ترك المبادأة للعدو أن يسبقه هذا لامدرمان ؟ لقد ترك ذلك العدو متقدما نحوه لالآف الأميال ولسنين متخذا المبادأة والمبادرة دائما فلماذا لم يسمح له بأخذ هذه المبادأة الأخيرة التى ستمكنه هو من ابادته الى الأبد ؟ .

ليس لأن الهجوم وأخذ المبادأة كان خاطئا في تلك الظروف ، فتلك نقطة أوضحناها من قبل ، بل لأن الأصح دائما هو توجيه الثقل الرئيسى ضد العدو عندما يكون في موقف ضعف . أخشى أن تكون الاجابة مرة أخرى هي عدم التقدير الصحيح لقوة نيران العدو .

وهناك امر جدير بالملاحظة وهو أن خطوط التشكيل ، وهي في الواقع خطوط ابتداء ، كانت بعيدة عن الأغراض . ولو رضخنا للأمر الواقع ، واعتبرنا ان الهجوم كان يجب أن يتم بعد صلاة الصبح ، « انتهى الجيش من صلاة الصبح وبدأ التقدم في الخامسة والخمسين دقيقة » . ألم يكن من الممكن أن يبدأ التقدم — وسمى مكان بدايته ماشئت خط تشكيل أو ابتداء — من مكان أقرب للعدو قليلا شرق وشمال سركاب ، على الأقل بالنسبة لقوات المرحلة الأولى . بحيث تصبح المسافة للغرض بين ميل وميلين . ويتم قطع المسافة الحرجة في لحظات بزوغ الفجر — بدلا من الأميال الطويلة التى تحتم على قوات المرحلة الأولى قطعها وضوء الفجر يزداد وضوحا بين كل دقيقة وأخرى . فقد كان على شيخ الدين أن يعبر عشرة أميال كاملة لغرضه ، وعلى الخليل وأزرق أن يعبرا سبعة أميال .

أما توزيعه لقواته الراكبة « الفي فارس » على المراحل والمحاور المختلفة دون استخدامها ككتلة واحدة كما فعل مع فرسان دغيم ، فلم يكن حكيما على الاطلاق . فلو جمعها أو على الأقل خصص جزء أكبر منها لأى المراحل لكان ذلك أجدى كثيرا . فسرعة الفرسان كانت كفيلة بايصال اندفاع هجومهم حتى زريبة كتشنر على الرغم من النيران المركزة القوية ، فانحدار الأرض نحو النيل وتعرجها هنا وهناك كان سيجعل خسائرهم قليلة نسبيا ؛ اذ يقلل فترة تعرضهم لرشاشات ودانات العدو عكس المشاة بسرعتهم البطيئة وصفوفهم المتراصة التى تمثل أهدافا مثالية للرشاشات في ضربها المنتشر من اليمين للشمال ، ولنيران المدفعية

لكى تجد الفرصة وتصحح نيرانها فى ضربها المؤثر على صفوفهم . ثم ان قوة صدمة الفرسان ضد مشاة العدو داخل الزريبة كانت كفيلة باختراقها .

ولكن في جميع معارك المهدية لم يبرز أبدا استخدامهم للفرسان فى مجاميع « تشكيلات خيالة منفصلة » تسبق هجوم المشاة وتمهد لها بقوة صدمتها الهائلة ، فيما عدا معارك ود النجومى فهو الوحيد الذى كان يستخدم فرسانه وهو على رأسهم فى مجاميع كبيرة مسددأ هجوما راكبا يسبق هجوم مشاته .

وفى تلك النقطة لايمكن إلا أن نلمح خطأ يعقوب كمسئول عن تنظيم وتسليح الجيش . فمعظم الخيل التى دخلت المعركة « حوالى ٢٠٠٠ جوادا » كانت ملكا خاصا للأمراء والمقدمين والأثرياء وكان تجميعها فى كتلة واحدة يعنى حرمان الجيش من كل مستويات القيادة العليا والصغرى .

وأخيرا التوقيت ، فهناك ضوء الشمس التى تلقى أشعتها فى مواجهة جنوده المتقدمين لمواجهة عدو كانت الشمس خلفه . مما قلل من قدرة رؤيتهم للعدو والشمس تسطع فى وجوههم ، وزادت من وضوحهم كأهداف بارزة لمدفعية العدو ورشاشاته ونيران أسلحته الصغيرة . . . صحيح ان مشاة الخليفة لم يكن من عادتهم الاكتراث كثيرا بالتصويب الدقيق واتخاذ مراكز ضربنار قبل الضرب ، ولكن كان لذلك العامل أثرا كبيرا .

أول مايلفت النظر فى خطة الخليفة انها بنيت على معلومات لم يتوفر فيها من التفاصيل عن العدو غير موقعه بالتقريب . . . أما تفاصيل ترتيب العدو وفرسانه ومدفعيته فلم يثبت أن الخليفة استلم غير تقرير واحد عنها طوال تلك الليلة ، ولعل ضوء البوارج حرم عناصر استكشافه من الاقتراب من الزريبة ، وهـــو نفس السبب الذى حرم ونجت للمرة الأولى من معرفة نوايا الخليفة بالضبط .

* * * * * * * *

قبل ظهور فجر ٢ سبتمبر بساعة تحرك الخليفة من مكان مبيته نحو وسط جيشه لتأدية صلاة الصبح . أخذ الخليفة مكانه أمام الجيش فى تبه عالية خلف الراية الزرقاء التى أحضرت من الخلف وغرست أمامه ، ووقف خلفه مباشرة

الخلفاء، ثم شيخ الدين وكبار الأمراء . . . إمتد الجيش أمامه بجناحيه الهائلين وعمقه المكثف بمقاتلى الراية الزرقاء .

واهتزت الجبال وهي تردد هتاف الألوف بالأدعية خلف قائدها ،وتماوجت الصفوف وهي تسجد وتركع وتقف فى حركة واحدة . ومن تلك الآلاف ، كان مايزيد عن عشرة آلاف رجل يؤدون صلاتهم الأخيرة .

انهى الخليفة صلاته وقرأ الفاتحة ، وقرأها أربعون ألف مقاتل خلفه . . ثم جرد سيفه وهزه ثلاثا فى اتجاه النهر . . . نحو العدو . . وكبر ثلاث مرات . . وأعاد سيفه لغمده وتقدم نحو العدو يتبعه جيشه .

ما أن تقدم الخليفة حتى تجمع قادة الرايات حوله لاستلام أوامرهم – عبد الله أبو سوار – عثمان دقنة – شيخ الدين – ابراهيم الخليل – عثمان أزرق . ويعقوب. ترجل الأمراء من ظهور جيادهم وتقدموا نحو الخليفة الا أنه لم يترجل ووقف وسطهم على صهوة جواده وشرح لهم خطته مستعينا باشارات من يده الى المواقع والجبال المختلفة . موضحا واجب كل منهم بادئا بعثمان أزرق ثم ابراهيم الخليل ، فعبد الله وشيخ الدين ، ثم صرفهم وهو يدعو لهم بالخير وترجل عن صهوة جواده .

** ** ** **

فى الساعة الثالثة والأربعون دقيقة امتلأت ضفاف النهر بأصوات عازفى الأبواق داخل زريبة السردار . . . ولملم كل من فى داخل الزريبة نفسه وتمطى ليزيل أثر الرقاد المتعب على الأرض الرطبة . فقد أمر السردار كل الرتب بالنوم بملابسها كاملة وأيديها على أسلحتها ، تجمع الجنود لتناول وجبة الافطار وأجبر كل منهم نفسه على تناول أكثر من طاقته من الأكل . فأمامهم يوم طويل حافل بالقتال ، ولايدرى أحد متى تسنح الفرصة بتناول الوجبة التالية .

أما السردار فقد هنأ نفسه . فها قد مضى الليل بمخاوفه وتوتره وأصبح الصباح ، وهاهي آفاق المجد والشهرة قد فتحت أبوابها أمامه . . فقط لو قبل الخليفة المعركة في هذا الصباح . سواء مدافعا أو مهاجما . . بالطبع لو هجم الخليفة فهذا ماكان يتمناه ، ولكنه استبعد ذلك الخاطر فلم يكن هناك قائد يفكر فى شن

هجوم فى هذا السهل الفسيح مواجها أسلحة دمار الامبراطورية التى فغرت أفواهها لتناول وليمتها الدامية . . لذلك أمر بأن تتحرك كل قواته بالتقدم واستكشاف نوايا العدو ، فلو ظل العدو فى مكانه فسيبدأ هو بالهجوم ، ولكنه كان يرغب فى معركة سريعة يتقدم بعدها لامدرمان لتفادى الالتحام مع العدو بداخل المدينة وقبل أن يثبت أقدامه بها .

لذا فتحت أبواب الزريبة فى الخامسة صباحا لتخرج من يسارها كتيبة الرماحة . . أما بقية قواته الراكبة ، أى خيالة وهجانة برود وود ، بالاضافة لمدفعية الخيول المصرية فقد تحركت للشمال الغربي واحتلت جبال كررى منذ الثالثة صباحا ، نظـــم برود وود هجـــانته متجها للجنوب الغربي ووضع مدفعية الخيالة يسارهم . . . أما كتيبة الرماحة فقد تقدموا بسريتين فى الامام . . . وسريتين فى الخلف . . وتوقفت كل الكتيبة لتدفع بأربعة أطواف راكبة كل منها بقيادة ضابط ، لتسلق جبل سركاب وارسال تقرير للسردار فى الزريبة عن موقف ونوايا العدو . تسلقت أطواف فرسان الرماحة قمة جبل سركاب . . . لينفجر المشهد العظيم أمامهم . . . فقد امتدت تحت أقدامهم وعلى مسافة لاتتجاوز ميلا فى مواجهة زادت عن أربعة أميال كتلة بشرية هائلة رددت الوديان هتافاتها التى سمعت من ذلك الارتفاع كهدير البحر . . . أسرعت الأطواف بالنزول من الجبل وأبلغت قائد السرية . . . « العدو يتقدم نحو الزريبة » . . . مرر قائد السرية البلاغ لقائد الكتيبة ، وأسرع هذا بابلاغها للسردار ، وسرعان ما سرى الخبر سريان النار فى الهشيم ، . . « العدو يتقدم » .

** ** ** **

رفرفت الراية الزرقاء عاليا فوق الخليفة ، . . كانت أبرز راية وسط مئات الرايات وهى التى أوضحت مكانه وسط حرسه الخاص . وانفرج قسمى الجيش خلفه ليتمكن من تخطى حرس الخليفة . ومن مسافة ميلين من جبل سركاب بدأ جيشه فى اتخاذ التشكيل الذى سيمكنهم من إحتلال مناطق التشكيل والتقدم حسب اسبقيتهم فى تنفيذ الخطة : عبد الله أبو سوار فى أقصى اليسار ، يليه ومحاذيا له عثمان شيخ الدين ، فى كتلة بشرية مثلت البقية الباقية من قوته بعد انفصال قوات

ابراهيم الخليل وعثمان أزرق .

أمام قلب الجيش ، تقدمت منه القوة التى أوكل اليها تسديد الهجوم المباشر فى المرحلة الأولى . . . مجموعة عثمان أزرق . أما الجناح الأيمن للتقدم فقد إحتله ابراهيم الخليل ، ليتمكن من تسديد هجوم من الجنب اليمين . وخلفه اختفت راية الخليفة شريف وامتزجت صفوفه مع صفوف عثمان دقنة . . فقد كان واجبه الانعطاف يمينا فى اتجاه النهر لحماية طريق امدرمان .

وخلف النسق الأول المكون من عبدالله، وشيخ الدين، وازرق، والخليل ، ومحاذيا لشيخ الدين تقدم الخليفة وسط حرسه الخاص ليتمكن من احتلال رئاسته التى اختارها جنوب غرب جبل سركاب .

وراء الجميع تقدم يعقوب — بدون الراية الزرقاء هذه المرة — فقد كانت ترفرف فوق رأس الخليفة . تحرك يعقوب فى الخلف ليتمكن من احتلال المكان الذى يمكنه من تأدية واجباته كاحتياطى للهجوم الأول لو قرر الخليفة ذلك . . . ولتأدية واجبه المتأخر فى المرحلة الثانية . أما أصاغر الأمراء فقد انبثوا هنا وهناك بعضهم يركض ، وبعضهم يتقدم بنفس خطوة المشاة على صهوات جيادهم .

تقدمت صفوة جيش المهدية وآخر حشود عسكرية لأول أمة افريقية قامت على أكتاف بنيها وحدهم وبثمن دمائهم وحدهم نحو المعركة . . . وسارعت الجبال لتنقل أصداء أناشيدهم وتكبيرهم المنغم « لا اله الا الله . . . » لم يطغ على الهتافات إلا ضربات النحاس وهى تنظم خطوة الجيش المسرعة . . . ولم تقاطع تلك الا صفير إلامباية العالى . . . وحق للنحاس أن يدوى . . . وحق للامباية أن تصم الآذان فقد كان ذلك آخر ايامها .

فى الساعة الخامسة وعشرون دقيقة وعلى بعد ميلين من جبل سركاب، بدأ جيش الخليفة فى الانقسام ليتوجه كل منهم إلى الموضع المعين — فانفصل الجناح الايسر والاوسط ، الراية الخضراء وقوة شيخ الدين ، واتجــه شمالا . . نحو كررى . . عبر السهل الواسع الذى فصل بينها وبين جبل سركاب ، وعلى مسافة اربعة أميال من زريبة كتشنر . ومضى الخليفة وسط حرسه الخاص ووراءه الراية

الزرقاء مباشرة فى اتجاه جبل سركاب . . . أما مؤخرة اليمين عثمان دقنة . . فقد انعطفت يمينا نحو النهر .

أما الصفوف الامامية التى تقدمت الجميع ، صفوف عثمان أزرق ، فقد التفت حول جبل سركاب من جهة الشمال ، لتنعطف شرقا مباشرة أمام مقدمة زريبة العـــدو .

أما جيش الكارا بقيادة ابراهيم الخليل فقد إنعطف شرقا ليختفى خلف المنخفض فى طريقه ليصعد امتداد جبل سركاب متوجها نحو الجنب الأيمن لزريبة العدو . وهكذا بدأت معركة ام درمـــان .

** ** ** **

المرحلة الاولى

«(١)تلك عظمة الرجوله الصامده . . كانوا أشجع من مشى على وجه الارض، دمروا ولم يقهروا بقوة الآله . »

تشرشـــل

الأمير أبراهيم الخليل سعت ٦٥٠

في الساعة السادسة والنصف كانت كل قوة السردار قد انتظمت ووجهت نيرانها لجهة الغرب . ومع انحناء الزريبة الدائرى ، كدس السردار كل قوته الراجلة ومدفعيته فى قطعة من الأرض على شكل قوس ، بلغ طول قاعدته حوالى الميل ، وقطره ألف وثلاثمائة ياردة . ومن اليسار لليمين ، أى من الجنوب للشمال ومع الانحناء الرقيق للزريبة ، اصطفت كل ألوية السردار حسب الاصطفاف التالى :

فى أقصى الجنوب وعلى بقعة من الأرض الصخرية المتعرجة احتلت ثلاث سرايا مشاة من الفرقة الانجليزية مواقعها لتسد الثغرة بين نهاية الزريبة والنيل . ويمينها ، وقبل بداية الزريبة احتلت ثلاث من سرايا المدفعيه مواقعها السرية ٣٢ « ١٥ رطل »من سلاح المدفعية البريطانى وسريتان مكسيم نورد فلدت « ١٢ رطل » وستة مدافع مكسيم . وضعت ذخيرة المدافع وأشرطة الرشاشات بجانبها فى متناول يد الاطقم . يلى المدافع كل لواء ليتلتون . وفى الثغرة القصيرة ، بين لوائى الفرقة الانجليزية ليتلتون ووشوب ، وضع مدفعان رشاشان « مكسيم » . كما وضع مدفعان آخران وسريتى مدفعية كروب « عيار ٦ سم » مجرورة على البغال بين الفرقة الانجليزية والفرقة المصرية ، وتوسطت سرية من مدافع المكسيم لوائى الفرقة المصرية ماكسويل وماكدونالد . وبين كتائب ماكدونالد احتلت بطارية من المكسيم نورد فلدت مواقعها .

شكل السردار كل قوته البشرية على خطى دفاع بشريين . الخط الأول

---

(١) The dingnity of unconquerable manhood, yet these were as brave men as ever walked the earth, destroyed, not conquered by machinery.

Churchil

تكون من صفين مثلوا الخط الأول مباشرة خلف أشجار الزريبة . والخط الثاني على بعد ثلاثين ياردة خلفه لتناوب البنادق وتمرير الذخيرة للأمام ونقل الجرحى للخلف .

أما الفناء الذى انحصر بين قوس الزريبة والنيل . فقد تكدست فيه مهمات القوة والمستشفى وأطنان الذخيرة وحوالى ثلاثة آلاف جمل كانت فى حراسة لواء كولنسون المصرى . وعلى طرف الزريبة جثم أسطول السردار : فى الطرف الأيسر القت أقوى بوارج الأسطول المدرعة تسليحا « ملك والسلطان ، والظافر » مراسيها ، بينما مضت بقية البوارج تذرع النيل جيئة وذهابا كالحيتان الضخمة وهى فى إنتظار وليمتها الدموية . لقد وضع السردار كل مصادر نيرانه البعيدة المدى ، وبالذات رشاشات المكسيم ، فى الخط الأمامى . موفرا أكبر كمية من النيران للاشتراك فى المعركة من الوهلة الأولى . وتركز ثقل قوته النارية فى ميسرة الزريبة حيث كان اتجاه صدمة الهجوم الأولى متوقعا . ثلاثة سرايا مدفعية من سلاح المدفعية الملكى ونيران الفرقة الانجليزية ببنادقها الحديثة بعيدة المدى .

وفى مواجهة حشد النيران الهائل .. أكثر من مائة مدفع ، وثلاثين رشاشا ، ونيران فرقتين ونصف .... وجه أبراهيم الخليل وعثمان أزرق هجومهما .. فى وضح النهار .... وفى أراضى مكشوفة لأكثر من ثلاثة آلاف ياردة ....

بدأت بطاريات الهاوتزر المعركة فى تمام الساعة الخامسة والثلث معاودة قصف امدرمان وقصف مقدمة قوات عثمان دقنه وهى تتوجه نحو النهر لاحتلال مكانها فى خور أبو سنط .

** ** **

تقدم جيش الكاره بقيادة أبراهيم الخليل محاذيا الشكل الدائرى لجنوب جبل سركاب فى طريقهم لتسلق امتداد الجبل الشرقى الذى حجب العدو عن انظارهم . كان الخليل فى الصف الأول على صهوة جواده ، ويتبعه خادمه يقود جوادا ثانيا . وكعادة أصحاب الخيول فى تسمية جيادهم . كان الخليل يدخل المعارك دائما بجوادين ، يمتطى أحدهما والآخر يتركه مسرجا خاليا خلفه ويسميها دائما « الغاية » و « النهاية » .... كان الخليل فى تلك اللحظة على ظهر « الغايه » تقدمت صفوف ارباعه فى مكعب بشرى مواجهته ثمانمائة ياردة وعمقها عشرة

صفوف محـــاذية لبعضها البعض وفي خطوة منتظمة . .... سيطر الخليل (١) سيطرة كاملة على قوته .... والاعلام الكثيفة « أكثر من خمسمائة راية » التي كادت تغطي مواجهته كانت تدل على أماكن ضباطه وقادة وحدات جيش الكاره. تركز أكبر عدد من تلك الاعـــلام حول منتصف المواجهة ، حيث تقـــدم ابراهيم وخلفه حامل رايته وعن يمينه وكيل الراية ، وبعدها المئات وكل ربعين في صف واحـــد وأمام كل مائة مقـــاتل ركب قادة الرايات . أوضح تجمع المقاتلين في تلك المساحة الصغيرة ان كتف كل مقاتل كاد أن يلاصق جاره بل ان التدافع والتلاحم كانت ظاهرة ملحوظة هنا وهناك في صفوف القوة ، حتى وصل الصف الأول المنحدر الخلفي لامتداد جبل سركاب الشرقي . توقف الخليل على المنحدر والتفت لاعادة تنظيم قوته لتصطف في اصطفاف اقتحام . اطرق الخليل برأسه ولم ينبس بكلمة واحدة أثناء تحرك قادة الأرباع لاتخاذ مواقعهم . كان محمد اسحق التعايشي قائدا لأكبر ربع . اصطف كل ربعه في المقدمة . تلاه ربع حامد صابون قائدا للصف الثاني . ثم الأمير حسب الدائم . وبعدها توالت الصفوف الستة الباقية ، ازدحمت صفوف الكاره أخيرا في كتلة عريضة سميكة بلغ عرضها الف ياردة وعمقها ثمانية صفوف . استدار الأمير ابراهيم الخليل أخيرا ليتقدم نحو العدو يتبعه جيش الكاره .

* * * * * *

حاذى عثمان أزرق وهو متجه نحو الشمال الشرقي نهاية جبال سركاب ومنها حول اتجاهه لجهة الشرق .... مباشرة نحو زريبة كتشنر . امتدت صفوف عثمان في شكل هلالي (٢) أو تشكيل شبيه بزاوية منفرجة . فقد برز جناحان هائلان عن يمين ويسار قلب التشكيل الكثيف الذى امتد عمقه لأكثر من ثلاثمائة ياردة للخلف . انتظم فيها أحد عشر صفا . ومع طرفي القلب امتد للامام جناحان

---

(١) رمز تشرشل ومن بعده كثير من المؤرخين الأوربيين لفرقة ابراهيم « بأصحاب الراية البيضاء » "The while flag" ولكنها لم تكن بيضاء في الواقع بل كجزء من الملازمين كان لون الراية الرئيسية أخضر غامقاً ، أما الرايات الصغرى الكثيرة التي تدل على اصاغر الامراء فلونها كان أيضا طرزت على قماشه الآيات القرآنية .

(٢) أنظر الخريطة رقم ٦ « المرحلة الأولى سمت ٦٤٠ »

فى تشكيل أقل كثافة عمقه ثلاثة صفوف .

غطت مواجهة عثمان أزرق ميلين من السهل الذى يقع بين جبل سركاب وكررى ، بحيث كان نهاية تشكيله أو الطرف الأيسر للهلال محاذيا لزريبة كتشنر . وعندما تداخل الطرف الأيمن مع قوات ابراهيم الخليل وهى فى صعودها لامتداد جبل سركاب ، امتدت كل مواجهة الهجوم الأول لميلين ونصف بالضبط . كتلة كثيفة فى اليمين ــ جيش الكاره ــ ربطتهم خيوط رقيقة تكونت من ثلاثة صفوف متقدمة عن قلب عثمان أزرق الكثيف ، ثم قلت الكثافة قليلا فى جناحه الأيسر . لم ينظم عثمان أزرق وحدات الهجوم بالارباع خلف بعضها البعض كالخليل بل امتدت كلها فى المقدمة فى خط واحد ــ ربع مسعود فى أقصى اليمين يليه عبد الله آدم ثم ربع عبد الباقى . توسط الاصطاف ربع ابراهيم جابر الذى مثل العمود الفقرى للهجوم . أما الجناح الأيسر فقد أحتله عبد المجيد أبو ساق، ثم يساره محمد ود أبو سعد .

كان تقدمه أقل إنتظاما فقد كانت الفواصل بين كل فرد والآخر أكبر كثيرا من مثيلاتها فى كتلة ابراهيم البشرية المتقدمة يمينها .

وعندما أكمل الجناح الأيمن حركة تمدد صفوفه المتقدمة عن قلب التشكيل لجهة اليمين ، بدأت أطواف فرسان الرماحة فى اطلاق النيران عليها . تحرك أمير الراية التى كانت فى أقصى اليمين على رأس عشرين من فرسانه لاجلائهم عن جبل سركاب. ولكن عثمان أزرق أرسل فارسا سريعا ليأمر قائده بتركهم وشأنهم، فالعدو الرئيسى أصبح على مسافة أقل من ميلين أمامهم .

لم يجعل عثمان فرسانه فى المقدمة لقيادة الهجوم بل توزعوا هنا وهناك داخل الصفوف .. وكانت مدفعيته بقيادة محمد عبد الرحمن وعلى المصرى . جرت بواسطة الجمال والخيول . تقدمت بسرعة أقل من سرعة التشكيل المتقدم وهى تتعثر ببطء فى منتصفه . اتجهت مواسيرها شرقا نحو العدو . وعندما انثنى التشكيل لجهة الشرق متجها نحو الزريبة ، أوقف عثمان التقدم ليمكن المدفعية من التقدم وأخذ مكانها فى الصفوف الأمامية .

وفي سعت ٦٣٥ ، وعلى بعد ٣٠٠٠ ياردة من العدو رفع عثمان أزرق يده اشارة لفتح نيران المدفعية ، أوقفت المدافع وتعالت أوامر الضرب ... ثم انطلقت قذيفتان لم تتمكنا من الوصول لأهدافها فسقطت احداهما على بعد خمسين ،والثانية عـــلى بعد مائة ياردة من الزريبة الا أن المدفعيـــة استمرت في القصف وتمكنت من اطلاق بضعة قذائف لم تصل واحدة منها إلى زريبة العدو . ما أن انطلقت القديفة الأولى من صفوف أزرق ، إلا وأمر السردار الذى تقدم للخطوط الأمامية كل مدفعية الفرق الأمامية فى يسار الزريبة بفتح نيرانها على صفوف عثمان أزرق التى بدت كهدف مثالى للمدفعية من مسافة ٣٠٠٠ ياردة ، وفى مواجهة تكدس فيها الرجال زادت عن الميلين والنصف .

** ** **

وصل الصف الأول من جيش الكارا الذى توسطه الخليل ربع ابراهيم الخليل إلى قمة امتداد جبل سركاب فى ســعت ٦٤٠ . وعندما وصل الصف الأخير إلى القمة ، كان جواد الخليل قد اجتاز الانحدار ووصل إلى الأرض المنبسطة . إكتملت الصفوف تحت إنحدار جبل سركاب وتمكنوا من رؤية الزريبة وقد وقف العدو وراءها صفوفا . كانت المسافة من العدو ٢٨٠٠ ياردة، وما أن وقعت أعينهم عليه حتى كبروا بصوت واحد وأسرعوا خطواتهم نحوه واطلقوا بنادقهم . انتشرت فقاقيع دخان البنادق الأبيض هنا وهناك فى صفوف الخليل . فقد أصبح فى مدى أقرب من قـــوات عثمان أزرق التى حاذت جبل سركاب . اطلقت النار من الوسط وبدون تصويب وبدون توقف ولم يحاول أحد أن يقف أو يتخذ ساترا أو مركز ضربنار بل مضوا يطلقون نيرانهم بحماس وهم يتقدمون فى خطواتهم السريعة . لذا كان سقوط الطلقات أما عاليا فوق رؤوس الفرقة الانجليزية ، أو واطئا أمام الزريبة .

ومن مسافة ٢٨٠٠ ياردة فتحت سرية المدفعية ٣٢ وسريتا المكسيم ومدفعية البارجتين « ملك والفاتح » نيرانهما عليهم . سقطت عشرون دانة فى الدقيقة الأولى وسط صفوفهم وفى وجوههم بالضبط ــ كان أثرها ماحقا ، فقد كانت المسافة لجبل سركاب وامتداده ، حيث كان اتجاه الهجوم متوقعا ، محكمة منذ الليلة

الماضية . هز ارتجاف الأرض وأصوات الانفجار العنيف كل صفوفهم واضطرب نظام الصفوف المتقدمة بخطوة كانت منتظمة ثابتة حتى تلك اللحظة .

وعندما تلاشى الدخان والغبار أثر مجموعة الدانات الأولى ، وضح أثرها على الفور في الصفوف المقتحمة ، فقد ظهرت الفجوات الواسعة هنا وهناك وسط الصفوف . وبدأت الاشكال الهندسية للصفوف وتشكيلات الجنود تختل قليلا وسط تدافع المقاتلين أثر الصدمة القوية من مدفعية العدو .. وبدأ الأمر وكأن الدهشة قد غمرتهم قليلا ، إلا أنه حتى ذلك الوقت لم تكن خسائرهم كبيرة ، فقد كان معدل تأثير كل دانة عشرة أشخاص تقريبا ، ولكن شعور الدهشة والصدمة لم يدم إلا قليلا ، بل أمد تقدمهم بحيوية دفعتهم إلى التصرف السريع ورد الفعل الفورى . فقد ارتفعت أصوات الأمراء والمقاتلين وسط دوى الانفجارات : « سدوا الفرقه .... سدوا الفرقه .... » فما هى الا لحظات حتى انضمت الصفوف مرة أخرى وبدأوا فى اطلاق النار على الزريبة .. ولكن قبل أن يستعدوا لاعادة تعمير البنادق لضرب الطلقة الثانية بدأت الدانات تنفجر فى وسطهم مرة أخرى .. بمعدل أسرع ونيران اكثف ، غطت كل مواجهتهم وعمقهم للخلف. لقد استطاعت المدافع أن تصحح المدى وأن تجد المسافة الصحيحة ، فكانت داناتها مؤثرة للغاية . وكان أثر الدانات التى انفجرت فى الهواء فوق رؤوسهم أوضح من تلك التى انفجرت وسط صفوفهم ، فقد كانت تلك دانات « الشاربنيل » من البطارية ٣٢ . تساقط رذاذ المعدن الساخن فوق رؤوسهم لتختفى صفوفا بأكملها .. وحتى الدانات التى أخطأت هدفها كانت تجد أهدافا أخرى فى عمق التشكيل للخلف . أما نيران المدفع عيار ١٥ رطل من البوارج فكانت مضبوطة للغاية من قوس نيرانها المسطح .

اشترك فى قصف مشاة ابراهيم اثنان وثلاثون مدفعا ، وجهت نيرانها من الجزء الأيسر من الزريبة . من مدفعية الفرقة البريطانية القوية . كان الخليل فى الصف الامامى كابحا جماح جواده لتمضى خطواته فى نفس سرعة مشاته ، وبالتالى ظلت قوته متماسكة حتى تلك اللحظة رغم الفجوات الواسعة التى بدأت تظهر فى صفوفه . وبعد أن عبر الجواد ربع المسافة بين الجبل والزريبة تهاوى الجواد وراكبه فجأة على الأرض . ووسط الاضطراب الذى شمل الصفوف لمقتل القائد ، نهض

ابراهيم الخليل من الأرض سليما . فقد اصابت شظية كبيرة عنق الجواد فسقط بالخليل على الأرض . وأسرع خادمه من الخلف بالجواد الاحتياطى فامتطاه الخليل . سقط « الغاية » وامتطى الخليل « النهاية » . دام ذلك الاضطراب لحظات قصيرة وبعدها استمر الخليل فى التقدم مع قواته التى قطعت ۸۰۰ ياردة من جبل سركاب . ولكن اعدادها بدأت تتناقص بسرعة بعد السيل المنهمر من الدانات فى وسطها . كانت الدانات تنفجر بالعشرات وتتطاير الشظايا وقطع اللحم والبنادق عاليا فى الهواء .. ثم سادت لحظات سكون قصيرة لملم الرجال فيها أنفسهم وبعدها يبدأ التقدم، ولكن فى اعداد أقل وفى كتل مبعثرة . ومع اقتراب صفوفهم من العدو بدأت طلقات البنادق تجد مقتلا وسط الجنود السردار الذين وقفوا على اقدامهم وارتكزوا على الأرض .. ولكن قليلا ما كانت الفرصة تسنح لرجال الخليل باعادة تعمير بنادقهم أو الضغط على التتك ، دعك من التصويب ورفع البنادق على الكتف .

ظلت أطواف الرماحة التى منع عثمان أزرق فرسانه من الاشتباك معها محتلة لجبل سركاب حتى تلك اللحظة . وفى السابعة والخمس دقائق وصلت اشارة من السردار للاطواف بالعودة فورا لداخل الزريبة اذ أن الرشاشات والمشاة على وشك فتح نيرانها .

على مسافة ۱۰۰۰ ياردة أحس الخليل بالأثر الساحق لمدفعية العدو .... فقد امتلاء السهل بالآف الجثث .. وغطت بقع الدماء التى نزفت من الجروح الكبيرة نتيجة للشظايا الملابس والأرض .... كل ذلك ولم يمض على رؤية العدو نصف ساعة بعد. وقد شعر بتناقص قوته أمام جحيم المدفعية التى انصبت عليها ـ وعلى مسافة ۸۰۰ ياردة قرر أن ينحرف لليمين قليلا ليتمكن من دخول أحد الخيران [1] علّه يستطيع تفادى المدفعية ليتمكن من تجميع قوته واعادة تنظيمها والاستمرار فى التقدم ، فلم يبق له إلا ۱۲۰۰ ياردة من الزريبة ، فأشار لجنوده ليتبعوه إلى جهة اليمين .. وفى هذه اللحظة سعت ۷۰۵ ، أصيب الخليل بأربعة طلقات فى صدره ورأسه

(۱) الخور الصغير الذى حاول الخليل دخوله ليس له اسم ولا يتصل بالنيل – الخريطة رقم ٦ « المرحلة الأولى سعت ٦٤٠ » .

وتهاوى مع جواده على الأرض. ولم ينهض « النهاية » ، وأصيب هو الآخر، فقد بدأت رشاشات المكسيم فى اطلاق نيرانها وكان أول ضحاياها الخليل قائد جيش الكارة . ولكن مجرد بقائه حيا حتى تلك اللحظة كان معجزة . فقد ظل طوال قصف المدفعية فى الصف الأول . اثرت اصابة الخليل على اندفاع هجوم رايته فهو من أكفأ قادة الخليفة، ودائما وسط جنوده. ترجل أربعة فرسان من جيادهم وحملوا الخليل وسط الرصاص المنهمر وعادوا به للخلف. أصبح أثر الرشاشات قاتلا ومدمرا على جيش الكارة للدرجة التى شلت حركتهم ومنعتهم من محاولة الانعطاف لجهة اليمين للاحتماء بالخور — فحتى تلك اللحظة كان أثر معركة المدفعية واضحا على الصفوف، كتل بشرية متراصة، تتناقص إلى جماعات قريبة من بعضها البعض، تتلاشى إلى ثلل متفرقة . ولكنها حتى الآن وعلى الرغم من القصف المروع استمرت فى التقدم ، فكانت الدانات تتساقط وتنفجر وسط الصفوف وتتلقى الحشود صدمتها فيسقط من يسقط، ويجرح من يجرح، ويرقد الجميع على الأرض لكى ينهضوا مرة أخرى بأعداد أقل ، وصفوف مختلة ، ولكن بتصميم وعزم أقوى . وفى اللحظات التى كانت تسنح لهم فيها الفرص كانوا يطلقون رصاصهم. أما الرشاشات فقد كانت شيئا مختلفا ، خصوصا عند انضمام نيران البنادق لها، فهنا نيران مصوبة مضبوطة والمدى أقرب والأهداف أوضح وأكبر وأكثر إنحصارا، فقد اشترك فى ذلك المدى ١٢٠٠ ياردة أو أقل ، رشـــاشات البوارج الثلاثة واثنا عشر رشاشا وأخـــيرا انضمت لهم النيران الأمامية لمشــــاة فرقة كاملة ، « ٢٧ سرية مشاة منها عشرون سرية فى الصف الأمامى خلاف النيران الصادره من داخل الزريبة»، وكانت نيران المشاة مصوبة ومضبوطة . وبالاخص ضرب الجماعات "Volleys" بفواصل قصيرة منتظمة منغمة كما وصفها الشيخ بابكر بدرى وهو على بعد أميال منها « وضربوا بطلق متقطع فرماهم الجيش بطلقة متخذ صوته رن .. رن » .

تمكنت النيران المصوبة من شل حركتهم وهم يحاولون الانثناء لجهة اليمين للوصول للخور — قاد محاولة الانعطاف لجهة اليمين الأمير محمد اسحق وهو يقطع الأرض مسرعا بجواده أمام الثلل لتجميعها مشيرا بيده إلى الاتجاه الجديد للتقدم، ولكن سرعان ما سقط صريعا على الأرض بعد اصابته بمجموعة من الرشاشات

.. وكانت الأرض فضاء وليس ثمة ساتر واحد يتخذه مقاتل لكى يصوب منه نيرانا مركزة عدا بضعة شجيرات هنا وهناك . ولكن عند اقترابهم منها سرعان ما تصبح هدفا لنيران كثيفة من الرشاشات ، لتقتلعهم والأشجار سويا .

وفى الساعة ٧٢٠ ، امتلأ السهل بالجثث والجرحى والثلل الصغيرة من الرجال تتقدم إلى جهة اليمين أو اليسار للتفادى النيران المصبوبة وتلاحقهم تلك ، ولكن تقدمهم كان دائما للأمام .. ليس من بينهم من نكص على عقبيه بشهادة العدو ، ماعدا أولئك الذين حملوا رفاقهم الجرحى للخلف .. وحتى وسط اللهيب لم يحملوا جرحاهم ويطلقوا سيقانهم للريح . وتلك كانت من أهم النقاط التى قللت كثيرا من العدد المقاتل فى المعركة .. وهو تفرغ جزء كبير من المقاتلين لحمل زملائهم الجرحى .. وكان التقليد أن يحمل المجروح بواسطة من كان على يمينه ومن كان على يساره . وفى بعض الحالات كان كل جريح يحمله ثلاثة أشخاص للابتعاد به بعيدا عن أرض المعركة . ولكن يجب أن لا يلاموا الا قليلا فقد كانوا أقرباء بعض .. وكل راية تمثل عائلة أو عشيرة واحدة ومن الصعب أن يتركوا اشقاءهم .

لم يبق هنالك صف أمامى ولا خلفى بل مجموعة من الثلل تجمعت فى مجموعتين : مجموعة انتظمت فى صف واحد .. وأغلبها من حملة السيوف والحراب .. وتقدمت فى هجمة يائسة نحو الزريبة . وعندما أصبحت على بعد ٥٠٠ ياردة أبيدت جميعا ولم يبق منها ولا مقاتل واحد . أما المجموعة الثانية فقد انعطفت إلى جهة اليسار لتنضم إلى صفوف عثمان أزرق شمال جبل سركاب والتى وصلت معركتها قمة العنف فى تلك اللحظة .

** ** **

تقدم الخليفة وسط ملازميه فى اتجاه الشمال الشرقى مباشرة لجبل سركاب . وعلى مسافة ٢٨٠٠ ياردة جنوب غرب سركاب أوقف ملازميه وأقام رئاسته فى سهل منبسط مغطى بالحجارة وجعل جبل سركاب يقف ساترا بينه وبين النيل والعدو . جلس حرس الخليفة الخاص « الامدادية » حول رئاسته بقيادة الأمير خير السيد صفوفا خلف بعضهم البعض . وضعت بضعة عناقريب ، لكن الخليفة

لم يجلس عليها بل فرش فروة جلس عليها ، والتف حوله الخلفاء والمستشارون وكبار أمراء الحرس الخاص . وهؤلاء بعض ممن كانوا فى رئاسته فى تلك اللحظة :

١ — الخليفة على ود حلو (١) .
٢ — الخليفة محمد شريف .
٣ — السيد مكى .
٤ — محمد عمر البنا .
٥ — عبد القادر ود أم مريوم .
٦ — المدثر الحجاز « حامل اختام الخليفة » .
٧ — الطيب هاشم .
٨ — السيد البدوى .
٩ — أب جكه « ملازم الخليفة الخاص » .
١٠ — على الجلة « راكب مستعدا لتوصيل رسائل الخليفة للقادة » .
١١ — يونس الدكيم .

توقــف الخليفة ولكن يعقوب إستمر فى التقــدم تتبعه كــل حشود الراية الزرقاء ، سلم الخليفة الراية لأحد الفرسان وأسرع هذا واعادها ليعقوب أما صفوف الراية الزرقاء فاستمرت فى التقدم إلي أن توقفت خلف يعقوب ، وبذلك اتيحت لها الفرصة لاعادة تنظيم صفوفها لتقف مستعدة للتدخل فى المعركة بعيدا عن نظر العدو ونيرانه . والتفت بعدها إلى قوته التى تكدست بدون نظام فاستدعى

---

(١) خلافا لما ذكره كل المؤرخين ، نرى هنا أن الخليفة على ود حلو لم يشترك فى هجوم الراية الخضراء ولم يغادر رئاسة الخليفة بصفته الرجل الثانى . وقد نشأ الاعتقاد بأنه اشترك فى الهجوم أولا لأن الراية الخضراء رايته اشتركت فى الهجوم وظن الجميع أنه قادها وثانيا لأنه جرح فى المعركة فى فخذه . ولكنه لم يجرح مع الراية الخضراء بعيدا فى جبال كررى بل جرح بشظية اصابته وهو فى رئاسة الخليفة . أكد لى هذا الشيخ عبد الله محمد نور ملازم الخليفة على ود حلو والذى لم يبرح الرئاسة طوال فترة المعركة « قل ٢٩ / ٦ / ٧١ » وتأكدت من تلك النقطة وثبوتها بما لا يدع مجالا للشك . وفى الواقع لم يكن الخلفاء بعد معركة قدير يشتركون فى المعارك . كان لكل راية أمير امراء — مثلا ود النجومى أمير امراء الراية الصفراء ، يعقوب أمير أمراء الراية الزرقاء ، عبد الله أبو سوار أمير الراية الخضراء وهو الذى يقود الهجوم .

أمراء الارباع وأمرهم بالتجمع في صفوف العرضة المعهودة . وبدأ السهل يموج بالتحركات التي استلزمها تشكيل رايته . امتدت صفوفه في مواجهة بلغ طولها ٢٠٠٠ ياردة متجهة جهة الشمال الشرقي الا أن جبل سركاب أخفاها وعزلها عن بقية المعركة .

وضع مدفعان أمام الخليفة . وبعد قليل سمعت من بعيد أصوات الطلقات المتقطعة بعد بداية هجوم ابراهيم الخليل . فارسل على الجلة لتسلق جبل سركاب وتبليغه عن الموقف وتطور الهجوم الأول .. وهل يحتاج ابراهيم لتعزيز من الخلف ؟ عاد على الجلة وأعطى تقريرا مفصلا عن هجوم الخليل فعلق الخليفة قائلا « ده محروق على ود أمه » (١) ثم أمر الأمير خير السيد باحتلال قمة سركاب وتحرك هذا متسلقا الجبل وخلفه مائة مقاتل من الحرس وضعهم في القمة وكر عائدا لرئاسة الخليفة .

أما شيخ الدين وعبد الله أبو سوار فقد إنفصلا عن التجمع الرئيسي للجيش على بعد ميلين في نفس اللحظة التي انفصلت فيها قوات المرحلة الأولى — شيخ الدين في المقدمة وخلفه أبو سوار . كان محور تقدم شيخ الدين لجهة الشمال الشرقي ، بحيث أصبحت سلسلة قمم أبو زريبة تعترض طريقه مباشرة .

شكل شيخ الدين قوته في مستطيل كثيف بلغت مواجهته ١٢٠٠ ياردة أما عمقه فقد كونته أرباع الملازمين المتراصة خلف بعضها البعض ، ربع العريفي الربيع في المقدمة — وكله مسلح بالبنادق — شكلت راياته الأربع الصف الأمامي وتجاوزها ربع عثمان قليلا من جهة اليسار . تلاه ربع جابر أبو شليخات ثم آدم اسماعيل ثم فضل بشارة ثم ربع ابراهيم مالك فربع الطاهر على في المؤخرة . كان تشكيل شيخ الدين تشكيل اقتحام والخطوة مسرعة مع انحدار الأرض نحو البروز المفاجيء (لابو زريبة) .

خلف الشكل المنتظم لمستطيل شيخ الدين انتظمت على مسافة ٢٠٠ ياردة قوة أخرى يقدر عددها بالالفين في شكل مربع ضخم . كان ذلك حرس شيخ

---

(١) يقصد أن ابراهيم الخليل له ثأر شخصي مع العدو فقد أخذوا شقيقه محمود ود أحمد أسيرا .

الدين بقيادة رابح الحبشي وهو علي جواده في الوسط . كان شيخ الدين على مسافة بعيدة من صفوف الاقتحام الأمامية اذ حجب عنها بالوف من البشر . لم يكن شيخ الدين من مركز قيادته ذلك بعيدا فى الخلف متمكنا مى ابراز أي تأثير قيادى على قوته المسرعة . وفي الواقع تعزى تصرفات قوة الملازمين منذ بداية التحرك إلى حيوية قائد موجه الاقتحام الأولى ، الأمير العريفى الربيع الذى أسرع بجواده جارا وراء كل قوة الملازمين (١) .

أما الراية الخضراء بقيادة عبد الله أبو سوار فقد تقدمت باصطفاف العرضه العادى . أبو سوار فى المقدمة وخلفه أرباع الراية فى صفوف تكون كل منها من مائة مقاتل فى كل صف ، حسب القوة العددية لفروع قبائل النيل الأبيض . وخلف عبد الله أبو سوار تقدم ربعه الأصلى ثم ربع عبد الله برجوب ثم محمد المساعد ثم البشير عجب الفيه . بينما تقدم فرسان دغيم بحذاء التشكيل لحماية جناحه الايسر . إنعدمت الأسلحة النارية تماما من صفوف الراية الخضراء .

فى البداية تقدمت الراية الخضراء ككتلة واحدة مع الملازمين . ولكن الفاصل سرعان ما بدأ يتسع بينهما عندما مال الملازمون لجهة الشرق قليلا ليتمكنوا من تغطية أبو زريبة والانقضاض عليه . كان أبو زريبة محتلاً فى تلك اللحظة بكل خيالة وهجانة برود وود وبكل مدفعية الخيالة .

** ** ** **

انطلقت القذائف الأولى من وسط صفوف عثمان أزرق ـ كان ارتفاع انفجار الدانات ممتازا دلى على الضبط الدقيق للفيوز الزمنى .. الا أن الغلاف النحاسى الذى وضعت داخله العبوة المتفجرة كان رهيفا للغاية مما جعل أثر الشظايا ضعيفا ، كما كانت المسافة بعيدة ، فسقطت أغلب الدانات على بعد مئات الياردات

(١) يتضح مما ذكره المرحوم المؤرخ محمد عبد الرحيم أن شيخ الدين كان بعيدا عن موجات الهجوم الأولى ولم يشترك فى ادارته . فبعد أن اشترك فى اشتباك الملازمين مع الخيالة وعبر كل منطقة كررى وتعرض للنيران وجرح ، وهنا فقط ظهر شيخ الدين وسط حرسه « .... فجرحت أنا جرحا بليغا فى فخذى الايمن من الامام وبعد أن صرعت على الأرض هنيهه وثبت قائما وصرت أتوكا على عمود رمح وأنا عائد للخلف ظهر أمام جيش يتكون من الفرسان التى هى الحرس الخاص بالامير شيخ الدين وما كاد يرانى .. » محمد عبد الرحيم – معجم الشخصيات – شيخ الدين .

من طرف زريبة العدو . أمر عثمان أزرق المدفعية بأن تتحرك يمينا لجبل سركاب وتتخذ مواقعها في قمته وان تساعد الهجوم من ذلك الموقع الحاكم .

بدأ جناحا عثمان أزرق في الانتشار يمينا ويسارا وهم يقصرون المسافة بينهم وبين عدوهم بسرعة . إلا ان الشكل الهلالى بدأ يختل قليلا . فأوامره للاجنحة بالانتشار لكسب الأرض يمينا ويسارا للاحاطة بزريبة العـــدو جعلت سرعة تقدم الوسط أسرع قليلا للامام . وبدأت الأحجار والأشجار تختفى كلما وصلها الطوفان البشرى فى تدفقه السريع . لم يجمع عثمان البنداقه فى مكان واحد أو مجموعة واحدة بل تبعثروا فرادى هنا وهناك وسط حاملى السلاح الأبيض . .. لذا حرم تقدمه منذ الوهلة الأولى من الاستفادة من مجموعة مؤثرة من النيران وعنـــدما رفـــع بندقيته فى الهـــواء وضرب الطـــلقة الأولى ايذانا للبندقجية بفتح النيران ولحـــاملى الســـلاح الأبيض بالاندفاع نحـــو العـــدو . . ظهـــر دخان البنادق كفقاقيع صغيرة من الدخان هنا وهناك وسط المواجهة الواسعة ، لذا لم تثر كثيرا من الاهتمام فى زريبة العدو .

كان ذلك سعت ٦٥٥ وهـــو على مسافة ٢٨٠٠ ياردة من العدو . ردت عليهم مدفعية العدو على الفور . فقد كان عثمان أزرق بتقدمه مواجها لكل نيران الزريبة تقريبا .. ومباشرة أمامها .. وقد وضـــع كتشنر بطـــارية كاملة من رشاشات المكسيم « ٦ مدافع » فى منتصف الزريبة بالضبط . كما وضع سرية من المدافع « ١٥ رطل » ذات التصويب الدقيق فى وسط الزريبة .

وعندها أمر السردار بفتح النيران ، وليس من المدفعية وحدها ، بل المدفعية والرشاشات وكل مشاة الزريبة التى مكنها موقعها من تصويب نيران أمامية مباشرة. اشترك فى الضرب على صفوف عثمان أزرق ٦ مدافع رشاشه و١٢ مدفع ١٥ رطل ونيران البنادق لـ ١٢٠٠٠ من المشاة . كانت موجه النيران الأولى قليلة الأثر على التجمع . فقد كانت المسافة بعيدة نسبيا ، والسهل بين سركاب وكررى مغطى بالشجيرات وحشائش الخريف إلى مسافة ١٠٠٠ ياردة من النهر ، حيث تقل كثافتها ويبدأ السهل المنبسط المغطى بالحصى حتى النهر .

أما النيران التى فتحت من الجنب الأيمن من الزريبة الذى احتلته الالوية

المصرية فلم تؤثر في صفوف الاقتحام على الاطلاق ، فقد سلحوا بالبنادق « مارتين هنرى » وكان مداها أقل كثيرا من بنادق « متفورد » التي فتحت نيرانها من جانب الزريبة الأيسر ،جانب الفرقة البريطانية ،ولكن أغلب كتائب الفرقة الانجليزية كانت مشغولة في تلك اللحظة في صد هجوم ابراهيم الخليل .

كان رد فعل عثمان أزرق أن أبطأ سرعته قليلا وأشار بيده إلى الأجنحة لتزداد انتشارا إلى أن تلامست مع الطرف الأيمن لابراهيم الخليل .. ولكن مدفعية العدو سرعان ما وجدت المدى الصحيح من مسافة ٣٠٠٠ ياردة في عمق صفوف الهجوم وبدأ فتكها في صفوفهم الخلفية . ولكن صفوف أزرق الأمامية تمكنت من التوقف والبدء في اطلاق النار فاستطاعت مئات الطلقات أن تجد طريقها داخل زريبة العدو . خصوصا وسط الفرقة الانجليزية حيث كان هؤلاء وقوفا على أرجلهم ، وإليهم وجه عثمان أغلب نيرانه ، فالالوية المصرية لم تكن أهدافا ظاهرة فلم تظهر الا رؤوسهم ، فقد كفلت لهم الخنادق التي احتموا داخلها ساترا جيدا من طلقات عثمان أزرق . وعلى الرغم من أن نيران عثمان كان أغلبها طائشا — فقد كان الضرب من مسافة تتراوح بين ٢٠٠٠ و١٦٠٠ ياردة — الا أن بعض طلقاته وجدت مقتلا داخل الزريبة ، وسرعان ما بدأ جنود الفرقة الانجليزية يتساقطون حتى بلغت خسائرهم اربعين ما بين قتيل وجريح .

أوقف السردار جواده خلف لواء ووشوب ، وعندها لاحظ الحركة الدائبة لحملة النقالات ، فأمر بتعزيز وسط الزريبة بمدفعين من اليسار — حيث بدأ هجوم ابراهيم يخف قليــلا . وفي تمام الساعة السابعة احضر المدفعــان وأشتركا في المعركة ، كما تم سحب ٤ مدافع مكسيم من جبال كررى حيث كانت تعزز قوات برود وود الراكبة .

كانت الموجة الثانية من دانات المدفعية أكبر تأثيراً . فقد انفجرت وسط الصفوف الأمامية ، كما حصدت الرشاشات الأجنحة وقلب التشكيل وبدأت الفجوات تظهر هنا وهناك وتساقط مئات . بل شوهدت رايات بأكملها تختفى بالفعل ، ويسقط رجالها مبعثرين بين قتلى وجرحى .. وعندما تلاشت الموجة الثانية وتبعتها الموجة الثالثة وضح أثر صدمة المدفعية وفعالية الرشاشات في اضطراب الصفوف

.. وفى اختفاء نصف الجناح الأيمن وجزء كبير من قلب التشكيل . كما أن طلقات البنادق انقطعت ، وعلى افتراض انها فتحت نيرانها ، فلم تشاهد على الاطلاق وسط الغبار والحصى والشظايا المتطايرة .

وبتحركات أملتها الغريزة بدأت الصفوف تنضم إلى الوسط . وهنا كانت الفرصة أكبر للمدفعية والرشاشات ، فحتى الآن استطاع عثمان شق طريقه للامام على الرغم من جحيم النيران واهتزاز الأرض بدانات المدفعية .. نظرا لأن كثيرا من طلقات العدو لم تجد مقتلا للفواصل الواسعة بين الأفراد والرايات . ولكن فى تلك اللحظة ، بعد أن أصبحت مجموعة الهجوم كتلة واحدة ، فقد بدأ حصاد الموت . فقد انصبت كل نيران العدو الثقيلة والصغيرة على تلك الكتلة البشرية . وحتى نيران البنادق وجدت ضحاياها من ذلك المدى البعيد وسط الآلاف المتراصه ، فقد كانت المسافة أقل من ١٢٠٠ ياردة عن زريبة السردار .

وعبثا حاول عثمان اعادة تشكيل قوته واعادة انتشارها .. فكل الذى أفلح فيه صياحه واشارات يده أن زادت من اندفاع الآلاف للامام .

لاحظ عثمان أن النيران التى فتكت بنصف قوته تنصب من جهة اليمين ولكى يتفاداها قرر أن يحول اتجاهه لجهة اليسار حيث الالوية المصرية ببنادقها ذات المدى القصير نسبيا ، وحيث خف ثقل نيران مدفعية العدو كثيرا . وعلى الرغم من أن العدو لم يكن يبعد منه إلا ميلا واحدا أو أقل ، الا أن الواضح أن قطعة تلك المسافة ، وبتلك السرعة كان كفيلا بأن يستهلك جزءا كبيرا من صفوفه ، لذا قرر شن هجمة سريعة بالفرسان ليصل الزريبة ويخرقها لتتمكن الجموع المتكدسة أن تصل الزريبة والخنادق وتشتبك مع العدو .

أمر الأمير جابر التعايشى بالتحرك برايته والهجوم مباشرة على الزريبـــة واستطاع هو أن يستخلص خمسين فارسا ومائة من المشاة وأطلق لجواده العنان وعلق بندقيته على كتفه واستل سيفه واندفع فى اتجاه مائل قليلا لجهة اليسار ، يتبعه حامل رايته ثم بقية فرسانه .. وانطلقت كل الراية خلفه فى ركض سريع نحو العدو .

كان اقتحامه مباشرة أمام سرية رشاشات المكسيم فى منتصف الزريبة التى فتحت كل نيرانها بدون توقف . بدأ الفرسان يتساقطون حول عثمان أزرق وهو فى اندفاعه نحو الزريبة والمسافة تقصر قليلا قليلا بينه وبين العدو .. إلى أن اصابته طلقة فى فخذه ولكن اندفاع الجواد حمله مئات الياردات للامام وبعدها انهالت الطلقات عليه فسقط من جواده على الأرض على مسافة ٥٠٠ ياردة من الزريبة .. الا أن الرشاشات لاحقته وهو على الأرض .

ولكن حامل الراية وخمس فرسان آخرين كانوا هم المتبقين من الخمسين استمرو فى اندفاعهم السريع نحو الزريبة، ولكن النيران حصدتهم واحدا بعد الآخر ولم يبق إلا حامل الراية، رجل مسن فى العقد السادس من عمره، واصل الاندفاع وحيدا نحو الزريبة إلى أن جندلته هو الآخر مجموعة من الرشاشات وسقط يتلوى على بعد ١٥٠ ياردة من الزريبة .كان ذلك أقصى مدى وصله هجوم عثمان أزرق فى الساعة ٧٫٣٥ .

كانت المجموعة الثانية التى أمرت باختراق الزريبة بقيادة ابراهيم جابر أوفر حظا وأثرها أكثر وقعا على العدو فقد استطاع ابراهيم جابر أن يشق طريقه بالرغم من نيران رشاشات ومشاة الفرقة الانجليزية . ولكنه عندما أحس بكثافة النيران التى وجهت عليه استحسن أن يكون هدفه — فى تلك المرحلة على الأقل — احتلال موقع قوى يتمكن منه من توجيه نيران بنادقه نحو العدو ليتمكن السلاح الأبيض من الوصول للزريبة .. وفى تلك اللحظة لم تكن المرتفعات هى المواقع المثلى لتوجيه النيران .. بل كانت منخفضات الأرض وتعاريجها .. ولذلك اندفع مباشرة ووراءه ثلاثمائة مقاتل تسلحوا بالبنادق نحو منخفض من الأرض الرملية على مسافة ٥٠٠ ياردة أمام لواء ووشوب . حماهم المنخفض من الدانات التى وجهت نحوهم ، وتساقطت يمينا ويسارا ، الا أنها لم تصب أحدا . كما أن قوس النيران المسطح لم يمكن كل المدفعية التى وجهت نحوهم من نيل بغيتها منهم . فرقدوا على الأرض وبدأوا فى توجيه نيرانهم على الزريبة وأهدافها الواضحة التى تمثلت فى الالوية الانجليزية وهى تقف على قدميها ، وبدأوا فى اصطياد العدو من ساترهم الرملى . وفى العشرة دقائق الأولى تساقط خمسة من العدو ثم ارتفع

العدد إلى عشرة ، إلى عشرين ، إلى خمسين . ولكن المدفعية رفعت نيرانها عنهم لمواجهة الكتل البشرية التي استطاعت على الرغم من ابادة نصفها ، وعلى الرغم من عاصفة المعدن الساخن التي انطلقت في وجوههم ، ان تصل إلى مسافة ٢٠٠ ياردة من الزريبة . فقد استمر التقدم ، ولكن بصعوبة وتعثر ، واستمرت المدافع العشرين والرشاشات في الضرب على الكتلة المتقدمة بمعدل تجاوز ٦٠ دانه في الدقيقة . وعلى الرغم من أن الرشاشات كان أثرها حسابيا ، فقد تساقطت الصفوف واحدا بعد الآخر نتيجة لضربها المنتشر ، الا ان رمى المدفعية كان أكبر اثرا على تقدم المجموعة فالرشاشات تأخذ من كان على يمين ويسار كل مقاتل بدون أثر ، ان لم تصبه هو .. أما المدفعية ، فالدوى العالى والغبار المتصاعد استطاع ان يشل عقول واقدام الكثيرين وان يبطىء لحد بعيد من سرعة تقدمهم ، ليوفر فرصة أوسع للرشاشات وآلاف البنادق لترفع في الاكتف وتنطلق بعد تصويب طويل دقيق .

وفى سعت ٧٤٠ ، كانت شوكة الهجوم قد كسرت تقريباً .. وانقسمت موجاته إلى جماعات لم تكن الرايات ، ولا رؤوس المائة رابطا بينها ، بل ثلل كبيرة هنا وهناك سرعان ما ذابت في مجموعات صغيرة مكونة من ثلاثة أو أربعة رجال لحمل الجرحى والعودة بهم للخلف . وبعدها بدأت مدفعية العدو فى تنظيف السهل الواسع . وعلى كل ثلة وجهت نيران المدفعية لتسقط وسطهم . لينبطحوا على الأرض إلى أن يزول الدوى وينهضوا للتقدم وهم أقل عددا وهنا تتناول الرشاشات نفس التجمع .. لينبطحوا على الأرض .. ثم توجه نحوهم نيران المدفعية لينهضوا وتنصب عليهم نيران الرشاشات إلى أن امتلاء السهل بالجثث والجرحى ولم يبق من الأحياء الا حاملى الجرحى فى تقهقرهم البطىء للخلف ، وراية ابراهيم جابر التي لازالت متمسكة بمكمنها الحصين باصرار ، وهى توجه نحو العدو نيرانا حامية .

وفى الواقع يعزى استمرار المعركة لنصف الساعة الأخيرة لرجال جابر . لم تكن نيران جابر موجهة بالجماعات بل كان الضرب منفردا ، كلما سنحت الفرصة لاحد المقاتلين أثناء فترة السكون القصيرة بين كل انفجار وآخر ، وبعد مرور مجموعات الرشاشات فوق رؤوسهم ، ليرفع بندقيته ببطء ، ويحدد هدفه

وبسرعة يطلق عده أعيرة نارية ويخفى رأسه مرة أخرى ، فالهدف واضح وكبير تكون من آلاف الجنود من الفرقة الانجليزية وقد وقفوا على اقدامهم . وعلى الرغم من أن المسافة بينهم وبين العدو كانت أبعد من المدى المؤثر لنيران بنادقهم ، وعلى الرغم من عدم توفر الفرصة للتصويب الدقيق ، وعدم توفر الذخيرة ، الا أن الراية الباسلة استطاعت الصمود فى مكانها ساعة كاملة والمعركة دائرة بينها وبين الالوية الستة على هذا المنوال إلى أن فكر ووشوب جديا فى طلب المساعدة من الفرسان لاجلائهم عن موقعهم . وتعود أغلب خسائر الفرقة الانجليزية فى المرحلة الأولى « ٥ ضباط و ١٥٥ جندى » إلى نيران راية جابر .

كانت الساعة ٧٥٥ عندما أوشك القصف التفتيشى للعدو على الانتهاء من مهمته ولذا وجهت نيران البطارية « ١٥ » رطل فى يسار الزريبة إلى المنخفض الرملى لاسكات بنـــادق على جابر التى وقفت الرشاشات عاجزة حيالها ، فبدأت الداناات تتساقط حول موقع الراية إلى أن سقطت دانة وسط موقعهم بالضبط واسكتت نيرانهم لحين وبعدها وجدت مدافع البطارية المدى والارتفاع الصحيح فبدأت الدانات تتساقط داخل المنخفض . وجد على جابر أن مكمنه الحصين أصبح مصيدة موت فأمر جنوده بالخروج والتقدم نحو الزريبة حيث تلقفتهم نيران الرشاشات والبنادق فأبيدوا عن آخرهم ، عدا جابر فقد أصيب فى معدته وحمل للخلف على مسافة خمسمائة ياردة من العدو .

وبذلك انتهت المرحلة الأولى . بلغت خسائرها ٧٤٠٠ بين قتيل وجريح « ٢٩٠٠ قتيل ٤٥٠٠ جريح » كما توفى الامراء الآتين :

١ — جيش الكارة « كل أمراء الأرباع »
الأمير أبراهيم الخليل

٢ — مجموعة عثمان أزرق (١)
عثمان أزرق
الأمير مسعود

(١) بنى هذا التقدير على عدد الجماجم التى أحصاها كابتن بيرجز فى فبراير ١٨٩٩ وبعد خمسة أشهر فى المعركة وقد أحصى عدد الجماجم فوجدوه ٢٣٠٠ فى مسرح المرحلة الأولى من المعركة فاذا اضيف لذلك الرقم نسبة ٢٥٪ دفنوا فى ارض المعركة أو فى امدرمان كما لاحظ هو ذلك اصبح عدد القتلى حوالى ٢٩٠٠ واذا اضيف لذلك العدد ١٥٠٪ وهى نسبة الجرحى من الخسائر يصبح الرقم النهائى حوالى ٧٥٠٠ .

الأمير محمد اسحق	الأمير فضل بشار
الأمير حامد صابون	
الأمير حسب الدائم محمد	كما جرح الأمير عبدالباقي
	والأمير ابراهيم جابر

الأمير اسماعيل ود صالح
الأمير عبد اللطيف محمد
أما العدو فقد فقد ٥ ضباط و ١٥٥ بين قتيل وجريح .

* * * *

إنتهى الهجوم الأول كمذبحة لم يشاهد التاريخ مثلها الا قليلا ، وفي عرض لافضل خصال البشر عندما يتجردون من كل ضعف وخور وتبرز صفات الشجاعة التي لا تعرف حدودا ، والتضحية التي لا تطلب الا تقديم المزيد ، وفي أعنف اختبار يؤديه البشر ، ونادرا ما اجتازته أمة بمثل النجاح الذي برز يوم الثاني من سبتمبر . ومن الألوف التي اقتحمت النار ، كانت المسيرة الدموية لكل واحد منهم تكون مادة دسمة لقصة كاملة .

كانت تلك كلمات العدو :

« والعدو ؟! لقد حاز هو شرف اليوم . لقد وصل رجالنا درجه الكمال ، ولكنهم هم فاقوا حد الكمال ، لقد كان ذلك أعظم وأشجع جيش خاض حربا ضدنا ، وأبيد وقتل جنوده بشجاعة جديرة بالامبراطورية الهائلة التي أقاموها والتي حافظوا عليها طويلا .
حملة بنادقهم يحوط بهم الموت والفناء من كل جهة ، وهم يجاهدون عبثا لاطلاق ذخيرتهم القديمة الردئية عديمة الأثر في وجه أقوى وأحدث أسلحة التدمير .. » .

والفضل ما شهدت به الأعداء(١).

* * * *

شنت هجمات المرحلة الأولى على عدو يختلف وضعه عن العدو الذي واجه

(١) Stevenson P 211

هجمات الخليفة في المراحل التالية، عدو متحكم داخل دفاعاته وأقدامه ثابتة على الأرض ، وشنت هجمتي عثمان والخليل بتكتيك جديد لم يلاحظ من قبل في جيوش المهدية . أما الجديد فيه فهو انعدام أي أسس تكتيكية على الاطلاق — فكل الذي شوهد ببساطة هو آلاف من المقاتلين يندفعون نحو الموت . ولأن نسبة الخسائر في هذا الهجوم كانت أعلى نسبة ، ولأنه يختلف كثيرا عن باقي الهجمات ، فيستحسن أن نتعرض له الآن وقبل أن نتوه في مراحل وتفاصيل المعركة اللاحقة .

لقد بدأت الأخطاء منذ المراحل التحضيرية للهجوم . وأقصد بذلك الاستطلاع ، سواء من عثمان أو الخليل . واعتقد انه لا بد لنا هنا من العودة مرة أخرى إلى مرقف القادة ووضعهم . وبالذات ابراهيم الخليل . فاقتحام ابراهيم الخليل وهو يمضي مباشرة نحو العدو متجاهلا طرق اقتراب مستورة كثيرة ، تكاد تعلن أن الخليل قاد هجومه وهو لا يعلم عن عدوه وعن مسرح معركته إلا موقع العدو، ولكن الثابت عكس ذلك . فالخليل، كان أحد القلائل الذين خرجوا للاستطلاع في عصر الخميس ، ولم يكن العثور على طرق الاقتراب بحاجة إلى تخصيص زمن مثل الزمن الذي خصصه له الخليل،فهناك خور أبو سنط في اليمين وعشرات من ثنيات الأرض وتعاريجها وسواترها كانت تقود لزريبة السردار . هل أهمل الخليل دراسة الأرض دراسة وافيه على اعتبار أن الرأى الذي توصل اليه ، الهجوم ليلا، سيأخذ به بداهة، وان ساتر الظلام كفيل بتقليل أهمية اختيار طرق الاقتراب؟

ويجب أن نوضح هنا أن عملية الاستكشاف نفسها لم تكن جديدة على جيوش المهدية . ولا أقصد الاستطلاع الاستراتيجي البعيد الذي خصص له ٣٠٠٠ فارس كما حدث في شيكان ود براسين ، بل أقصد الاستكشاف الشخصي للقادة قبل الدخول في المعركة مباشرة . وهو ما كان يحدث دائما بأوامر المهدى والخليفة حتى في الحروب الأولى. بل ان عبدالله نفسه كثيرا ما قاد مجموعات الاستكشاف.

قد يقول قائل ان هجمات الخليل وأزرق شقت طريقها وسط أرض فضاء متشابه ، كما وصفها معظم من تحدثوا عن المعركة فيما بعد ، ولكن هذا ليس صحيحا . فالسهل أمام ويمين زريبة كتشنر لا تنقصه التعاريج وثنيات الأرض هنا وهناك . وقد أوضح ذلك بجلاء موقف راية ابراهيم جابر عندما استغلت منخفضا

من الأرض لا يزيد طوله عن ١٥٠ ياردة حيث مكنها من الصمود ساعة كاملة أمام نيران أربعة الوية مشاة ومدفعية ضخمة، ووضح الأثر الكبير لابسط استغلال لطبيعة الأرض سواء فى نسبة الخسائر فى صفوف العدو أو من ناحية الاقتصاد فى الأرواح .

لا يستطيع أحد أن يجزم بأنما ذكر أعلاه هو التفسير الحقيقى لسلوك الخليل وقيادته المتهورة لذلك الهجوم ، وقد كان أكثر القادة حماسا للهجوم الليلى ، وبالتالى أكثر الناس احساسا بأهمية السواتر لتقى من نيران العدو وتفوقها . ولكن يكاد المرء يميل للرأى القائل بأن الخليل هجم ليموت ، وليس ليحقق انتصارا: امتلأ نفسه غضبا من تسفيه شيخ الدين لرأيه ، الالفاظ التى تفوه بها بعد المجلس، واطراقه وصمته وهو يقود الهجوم حتى مقتله .

كما لم تراع أبسط أوليات التشكيل لقوة الاقتحام الفواصل بين كل فرد وآخر وبالذات فى هجوم ابراهيم الخليل — صحيح أن حروب المهدية لم تكترث لهذا الأمر كثيرا منذ بدايتها ولم يكونوا أبدا حريصين على تطبيقه ، ولكن التخطيط الاستراتيجى الذى كثيرا ما كفل تخفيف أثر هذا العيب فى الحروب الأولى كان مفقودا هذه المرة منذ اللحظة التى قرر الخليفة فيها خوض المعركة فى كررى ومع تلاشى الظلال الأخيرة لليلة الأول من سبتمبر .

كان ذلك موقف الخليل وموقف جيش الكارا . ماذا عن الهجوم المباشر. ان الذى يتابع محور الاقتحام المباشر اليوم ، وفى نفس الفصل ، والخريف فى أوجه ، يلاحظ أن طبيعة السهل المنحصر بين جبال كررى وسركاب ليس كما وصفت بأنهـــا أرض منبسطة جرداء ، بل تغطيها الشجـــيرات الصغيرة إلى مسافة ٢٠٠٠ ياردة من النيل . وبعدها تبدأ مساحة كبيرة من الأرض الجرداء مغطاة بالحصى حتى النهر . لقد بدأ انكسار الهجوم الحقيقى من مسافة ١٢٠٠ وحتى من مسافة ٥٠٠ ياردة. اذن كيف تسنى ايقاف الهجوم فى زمن تعرضه القصير ذاك؟ هناك عاملان رئيسيان وضحا فى سير الهجوم . يكمن الأول فى اختيار محوره، والثانى فى تشكيل الاقتحام .

فأولا كان هجوم عثمان أزرق هجوما مباشرا "Frontal Attack" — وفى

الواقع منذ ادخال البنادق Metford التي تعمر بواسطة الترباس وتغذى نيرانها بخزنة مثبتة عليها ، ومنذ استخدام الكوردايت الذى يوفر مدى أبعد وضبطا أكثر ، أصبح أى هجوم مباشر فى وضح النهار وبدون غطاء نيران متفوق مقضيا عليه بالفشل . واذا اضيف لقوة بنادق المشاة "Musketry" السلاح الرهيب الجديد ، الرشاشات ، قلت فرصة الهجمات المباشرة فى تحقيق النجاح . وقد احتاج العسكريين لعشرين عاما ، وحربا عالمية دامت أربعة سنوات لاستيعاب هذا الدرس .

كان هناك عامل آخر ساهم فى سرعة شل الهجوم ، ألا وهو المواجهة العريضة من دون توفر العمق الكافى لتحقيق الانسياب الذى يضمن اقتحام الألوف بالسلاح الأبيض والاطاحة بزريبة العدو وخنادقه . لقد بلغت مواجهة عثمان أزرق عندما امتدت صفوفه للاقتحام لأكثر من ميلين . وقدر من كان فى الزريبة أن عمق الهجوم كان ثلاثة صفوف فى كل المواجهة تقريبا ، عدا بعد التكثف هنا وهناك .

ان العمليات العسكرية ما هى الا تطبيق لخيال ونظريات ناجحة . ويجب دائما تصور الاقتحام فى صورة سيل من الرجال المسلحين ينساب مسرعا هادرا نحو هدفه للالتحام معه والاطاحة به . بحيث تشكل نقطة ابتداء الهجوم منبعا لتوليد سيل المقاتلين ، وان تمثل سرعة اقدام الجنود أو مركباتهم تيار هذا السيل المندفع إلى الغرض ، كمياه الأنهار المنحصرة ، وهى دائمة البحث عن المجرى الملائم وعن النقاط الضعيفة فى الأرض سواء من التربة الناعمة أو منخفضات الأرض. وأين تمثل ذلك فى زريبة السردار ؟ تمثلت فى ميمنة الزريبة التى احتلتها الفرقة المصرية . ومن الخطأ دائما نشر مواجهة الاقتحام فى مواجهة عريضة لتغطية كل الهدف . اذ أن ذلك يؤدى لتقليل العمق .. القوة الدافعة الرئيسية للسيل البشرى المنساب . ان المواجهة الضيقة المندفعة بسرعة فى خط طويل نحو نقطة العدو الضيقة بانسيابيتها واستمراريتها هى التى تعطى الاقتحام تلك الخاصة السيالة الانسيابية . وعكس ذلك هو انتشار قوات الاقتحام فى مواجهة عريضة كحائط بشرى . فذلك يجعل من عاصفة الهجوم الساخنة لفحة أو لفحتين ، ويجعل سيل الهجوم المستمر ، موجة واحدة حائرة سهلة الانكسار والتلاشى .

ولم يكن تشبيه الهجوم بمياه الأنهار والجداول من وحي الخيال ، بل الواقع أنه أول ما يخطر ببال من يشاهد المنطقة التي عبرها اقتحام عثمان أزرق . فأول ما يلفت النظر في تلك المنطقة بين سركاب وكررى هي شبكة من مجارى الخيران تدل عليها الأشجار ، وتزداد خضرتها وكثافتها كلما اتجهت شرقا نحو النيل ، لتتجمع أخيرا في خور كبير عميق كثيف الأشجار هو خور عمر . وهو ينحدر مباشرة ليشق زريبة السردار في أضعف أماكنها عند مواقع ألوية الفرقة المصرية — ماكسويل ولويس ، كانت الطبيعة نفسها تشير إلى محور الهجوم المثالى لزريبة السردار ، ان كان ليلا أم نهارا .

حقيقة ان تحقيق ذلك الهجوم المثالى لا يتم إلا بعد أن تمثل نقطة بداية الهجوم خزانا "Reservoir" لتوليد المقاتلين ليندفعوا نحو هدفهم ،ويستلزم ذلك حشد آلاف الرجال لضمان استمرار تدفق موجات الهجوم . وفى ذلك لا يمكن أن يلام الخليل أو أزرق ، فقد كان تخصيص قوات المراحل من شأن القيادة العليا ، وقد أوضحنا أن نظرة القيادة العليا للهجوم الأول « كطعم » لجذب السردار كان أكثر من نظرتها له كضربة حاسمة .

لقد صب ود النجومى ما يزيد عن ٤٠ ألف مقاتل عبر فتحة ضيقة لا يتجاوز عرضها أكثر من ٥٠٠ ياردة فى دفاعات الخرطوم القوية . بينما كان جزء لايزيد عن عشرين ألفا منتشرين فى أميال بطول مواجهة دفاعات الخرطوم . وحينما وصل هؤلاء وبدأوا فى الالتحام مع القوات الأمامية خلف الخندق ، كانت الموجات الأولى لعناصر الاختراق قد وصلت لسراية غردون . وقد ذكر الشيخ بابكر بدرى « حينما دخلنا الخندق وجدناه ملىء طين مائعا . فغصت إلى ما بعد ركبتى وجعل كل من جاء من الأنصار يمسكنى فى كتفى ويقفز أمامى فبعضهم يمسكه الطين والخفيف منهم يخرج إلى اليابس حتى جاء والدى مصطفى فلما وضع يده .. » يعنى بذلك بوضوح أن الراوى وهو فى موضعه ذلك داخل الخندق مرت به عشرات من صفوف الاقتحام ، واستمرت عشرات أخرى من الصفوف فى الاقتحام السريع حتى بعد خروجه من الخندق .

وكان ذلك التكتيك هو التكتيك الذى اتبعه عثمان دقنة عشرات المرات

مع مربعات العدو بنيرانها القوية ، ولم يحدث أبدا أن ضحى بقوة تيار الهجوم وتدفقه "Affluence" بنشر صفوفه في مواجهة واسعة لتغطية مربع العدو. فقد كان هدفه دائما اختراق صفوف العدو ونجح فى ذلك دائما . وكانت تلك السمة واضحة فى أغلب معارك المهدية حتى المعارك الأولى . ولكن مواجهة عثمان أزرق العريضة فى مواجهة نيران الزريبة بدت وكأنها قطاعات خصصت واحدة واحدة كأهداف مقسمة بالتساوى على نيران وحدات العدو .

أما عثمان أزرق ، بطل الحدود الشمالية طيلة عشر سنوات بلا منازع ، فلا يستطيع أحد التشكك فى كفاءته ومقدرته طيلة المعارك التى خاضها . واشتهاره بالمراوغة ، واتباعه دائما لطريق اقتراب غير مباشر ، وتأييده لهجوم الليل فى ليلة المعركة ، لا يتناسب مع هجومه المباشر ولا مع تجاهله لمسلك اقتراب مثالى مثل خور عمر ولا مع تخيله ونسيانه التام لواجباته القيادية أثناء الهجوم وإنحصار همه كله فى شن هجمة شبه انفرادية أمام نيران فرقتين .

أما تشكيل قوات الخليل وعثمان فلعل العوامل التى أدت لتلك المجزرة التى لم يشهد لها التاريخ مثيلا الا نادرا تكمن كلها فيه .. وتحتاج منا للعودة للوراء قليلا.

صحيح ان المقارن بين حروب المهدية فى ٨٤ و ٨٥ و ١٨٨٩ ومعركتها فى سبتمبر ١٨٩٨ يلاحظ ان الشجاعة الخارقة هى أظهر ما توفر فى كلا العهدين ، ولكن خلاف ذلك لاوجه للشبه بينهما اطلاقا . والمؤلم ان التخطيط والذكاء واتباع مبادىء تكتيكية معينة سليمة توفر فى الأولى ، لا فى الأخيرة .

فمنذ حروب نابليون وإلى عهد قريب ظلت فكرة هجوم المشاة الرئيسية هى إيصال صفوف الاقتحام التى يقع عليها عبء الالتحام بالسلاح الأبيض أو خلافه — إلى أقرب مسافة ممكنة من مواقع العدو . ويتم تحقيق ذلك الهدف الجوهرى بصب أكبر كمية من النيران من مدى بعيد على العدو المدافع ، تمثلت هذه النيران فى ذلك الحين فى البنادق والمدافع وتطورت بالطبع إلى وسائل أخرى . والغرض من هذه النيران هو خفض رأس العدو وحرمانه من رفع رأسه خارج خنادقه أو زريبته ليتمكن من التصويب الدقيق ، وانتاج النيران المؤثرة . وبينما تنطلق

نيران العدو الطائشة الغير مصوبة ، يبدأ التقدم . ويسبق حشود الاقتحام المسلحة بالسلاح الأبيض صف طويل سلح بالبنادق يفتح نيرانه وهى متقدمة على العدو المستحكم . بالطبع سيتعرض صف الأسلحة النارية فى المقدمة إلى خسائر كبيرة من نيران المدافعين .. ولكن نيرانهم المستمرة اذا اضيفت لها حركتهم الدائبة ستحرم العدو من توجيه نيران مركزة عليهم .. وبذلك تتوفر الفرصة لعناصر الاقتحام بالسلاح الأبيض — بعد أن مكنتها نيران البنادق أمامها من قطع أغلب المسافة فى أمان ، للوثوب بعد قطع مسافة قصيرة والاشتباك مع العدو .

فى عام ١٨٨٤ — ١٨٨٥ كان من الواضح أن قادة المهدية وجيوشها من ورائهم قد ألموا بأوليات هذه النظريات واحسنوا تطبيقها حتى فاقوا أعداءهم المنظمين المدربين فى الابتداع والتفنن فى تنفيذها . نفذها ود النجومى بنجاح فى شيكان حين مثل جهادية أبو عنجة « عنصر النيران » وود النجومى « عنصر الاقتحام » بالسلاح الأبيض .. ونفذها بذكاء واحكام أبو عنجة فى الهجوم على امدرمان وابتدع فكرة اقامة الطوابى لرماة البنادق ، فلم يطق حتى تحمل الخسائر الطبيعية فى صفوفهم .. ونفـذها النور عنقرة فى أبو طليح ضـد بعثة الانقاذ الانجليزية ... بنفس الحرفية المذكورة أعلاه: صف طويل من حملة البنادق يتقدم وهو يطلـق نيرانه من مسافة ٨٠٠ ياردة ويطوق مربع العـدو بالتدريج محققا هدفين : خفض رأس العدو وجذب نيرانه وانتباهه لتتمكن القوة الرئيسية للاقتحام من تحين اللحظة المناسبة والوثوب عليه من مسافة قصيرة . وحتى عام ١٨٨٨ تمكن أبو عنجة من تطبيقها بنجاح فى دبراسين ضد قوات تتفوق عليه عددا وسلاحا حين وضع كل البنداقه فى الصفوف الأمامية وظل يتقدم غير مبال بالقصف البعيد لمدفعية العدو حتى أصبح على مسافة يتمكن فيها حاملو البنادق من اطلاق نيران مؤثرة مكنتهم هم وحملة السلاح الأبيض خلفهم إلى الوصول لبضع مئات من الياردات من العدو ، وهجم هؤلاء « ٥٠٠٠٠ » على العدو واجهزوا عليه فى ساعات ، وكان ذلك هو نفس التكتيك الذى إتبعه السردار عندما أقتحم زريبة محمود فى عطبرة .

من كان صاحب هذه المدرسة التكتيكية المتقدمة ؟ فقادة المهدية لم يدخلوا

مدارس عسكرية ولم يتلقوا أي نوع من التدريب العسكرى . بالتأكيد لم تكن غريزة المقاتلين فقط هي التي هدتهم إلى مبادىء طبقوها خيرا من اعدائهم المدربين النظاميين ؟ لو قلنا ان أبو عنجة ، والزاكي وعنقره اقتبسوها من الزبير فماذا عن ود النجومى وعثمان دقنه ؟ .

لعل الاجابة هي الموهبة الطبيعية والخيال والخبرة . فالابداع التكتيكى والاستراتيجى كنتاج للفكر العسكرى تحتل فيه الدراسة والتحصيل والخبرة جزءا محدودا ، فالشاعر لا يمكن أن يبدع شعرا ولو قرأ دواوين الدنيا ، والرسام لن يجسد فنه في لوحة فنية ولو ظل يمسك بريشته طول النهار والليل ، ما لم يكن ذا موهبة طبيعية اصيلة ليقويها بالدرس والتحصيل والخبرة . ولم يبتعد فردريك كثيرا عن الحقيقة عندما اعترض على تعيين أحد قادته الأغبياء اعتمادا على خبرتهم عبر عشرات المعارك قائلا « هناك بغل في صفوف الجيش البروسى اشترك في أربعين حملة ولكنه لا يزال بغلا » واخيرا الخيال .. الخيال الناضج الذى تسنده خبرة عملية ، خيال القادة أنفسهم وهم يجسمون النظريات في تشكيلات ووحدات ومعارك .

والملاحظ ان السنوات التى تطور فيها جيش المهدية من بعد هجوم الخرطوم إلى أواخر الثمانينات باشراف يعقوب ، كانت قيادته تضع دائماً هذه المبادىء نصب أعينها ، وكلما زاد حجم القوات ، كلما ارتفع مستوى القادة لتحمل مسئوليات قيادية أكبر ، وادراكا منهم لتلك النظريات حاولوا تطويرها وجعلها أكثر فعالية باستخدام نيران المدفعية ، فكان أن أعيد تنظيم المدفعية في بطاريات وبدأ صنع الذخيرة محليا .

ولنقارن الآن تلك التكتيكات التى نفذت عام ٨٤و٨٥ بما حدث في هجمتي ابراهيم الخليل وعثمان أزرق عام ١٨٩٨ ، لم يكن حملة الأسلحة النارية وحملة السلاح الأبيض منفصلين عن بعضها البعض ، بل ذاب حملة الأسلحة النارية أفرادا ، وليس جماعات وسط حملة السلاح الأبيض . ولم يكونوا قوة منفصلة لا في المقدمة ولا في الجنب . وعندما رأى حملة السلاح الأبيض العدو اندفعوا للامام وحملوا معهم حملة السلاح النارى .. وعندما بدأ حملة البنادق اطلاق النار

لم تكن الطلقات من صف واحد أو في جهة واحدة، بل فقاقيع من الدخان إنتشرت هنا وهناك :

ولو دققنا النظر فى تقدم الخليفة فى ضحى يوم الخميس الأول من سبتمبر ، نجد أن التهليل والتكبير بدأ بعد أن أفرغ حملة البنادق طلقاتهم فى الهواء . ليس المهم هنا أثر هذه الطلقات فقد اطلقت على بعد آلاف الياردات من العدو .. بل من أين وجهت. وجهت من حملة البنادق. وأين كان هؤلاء؟ كانوا فى الصف الأمامى فى مواجهة غطت ٤ أميال، وعندما انتشر دخان البنادق غطى مواجهة الجيش من أقصاها إلى أقصاها . بل عندما قرر الخليفة التقدم ومواجهة عدوه فى كررى كان ذلك الفصل التام بين عناصر النيران والاقتحام هو أول ملامح خطته المبدئية [١] والتى على أساسها أعد وهيأ جيشه قبل خمسة أيام من المعركة ، فقد كان الخليفة من المدرسة القديمة صاحبة النظريات والتجارب المستمدة من عشرات المعارك ، ومن تطبيق لخيال ناضج .

ولكن هجوم الخليل وعثمان كان شيئا مختلفا تماما، سواء فى هندسة الاصطفاف ، أو فى ميكانيكية الاقتحام . فعندما صد هجوم عثمان وأصبحت قواته عاجزة عن التقدم رقد حملة البنادق على الأرض واتخذوا مراكز ضربنار ووجهوا نيرانهم نحو العدو . صحيح انهم وجهوا نيرانا مؤثرة نوعا ضد العدو ولكن ما الفائدة الآن من نيرانهم ؟ .... فقد أبيد حملة السلاح الأبيض الذين كان وصولهم للزريبة هو الغرض الأساسى من هذه النيران لتمكينهم من الالتحام.. ولم يكن الهدف أبدا هو سقوط بضع مئات من القتلى والجرحى داخل صفوف العدو .

وهكذا نستطيع أن نلمح الفارق العظيم بين التطبيق السليم لأفكار عسكرية تعتبر متقدمة بالنسبة لاعدائها فى الأيام الأولى.. وبين هجمات لم تتميز إلا بالشجاعة الحسية الخارقة .. ما هى أسباب هذا التدهور والانحدار غير الطبيعى الذى أعقب فترة من الرقى الفكرى والابداع التكتيكى أذهلت حتى أقوى أمم الأرض فى ذلك الحين ؟

السبب واضح طبعا وهو القادة "Generalship" فكل القادة الاكفاء الذين قامت

---

(١) انظر الملحق « ب » .

على أكتافهم تلك الأمجـاد العسكرية إختفوا من فى الميدان يوم ٢ سبتمبر : ودالنجومى الجسور قتل وكله حسرة ومرارة فى مهمة إنتحارية ، أبو عنجة استاذ تحريك المجاميع توفى ، الزاكى الذى قاد عشرات الألوف مدافعا ومقتحما .. أعدم، النور عنقره وكل كفاءته التى وضحت خلال أكثر من ربع قرن افتقدت، فقد كان بعيدا فى القضارف تحوطه الشكوك . لقد افتقدت الثورة رجالها وقادتها فى يومها الحاسم ، فقد كان هؤلاء قادتها وعلى أكتافهم برزت مبادئها العسكرية وهم الذين نفذوها وصانوها وطوروها لتماشى المواقف المختلفة التى تعرضوا لها .

ولكن القادة فى يوم ٢ سبتمبر كانوا شيئا مختلفا فابراهيم الخليل على الرغم من ذكائه وآرائه الناضجة فى النطاق الاستراتيجى على الأقل لم يقاتل ضد هكس ولا جراهام ولا غردون . ولعلنا تحدثنا عنه وعن موقفه بما فيه الكفاية .

هل يمكن أن يرفع اللوم عن قادة الهجوم الأول اذا اعتبرنا انهم توقعوا غطاءا قويا من المدفعية ، لا أظن فهم يعلمون أن أغلب المدفعية نصبت ضد البواخر بل وكان ابراهيم مشرفا على وضعها هناك ، ثم انهم لابد قد أحسوا بمدى مدفعيتهم الضئيل قبل ذلك .

صحيح ان الانتصار والهزيمـة يعزيان فى الحروب دائمـا إلى تطبيق أفكـار متجددة ، ولكن تطبيق أفكار معينة جديدة كانت سببا للنصـر .. يمكن ان تصبح بعد ١٥ عاما هى السبب فى الهزيمة . فقد أصبحت نظريات ووسـائل متخلفة ، وحلت محلها نظريات وأسس جديدة . لكن المدهش — وبالذات فى المرحلة الأولى — أن قوات المهدية دخلت المعركة ولم تستطيع حتى تطبيق نظريات أوجدتها هى قبل ١٥ عاما ولم تتمسك بمبادئها القديمة .. بل قعدت بنفسها عن تطبيق تلك النظريات التى مهما بدت عتيقة إلا أنها مثلت الحد الأدنى المأمون فى ذلك الحين .

قد يبدو صحيحا أن أتباع سبل تكتيكية سليمة، سواء فى تشكيل الاقتحام أو فى استخدام حملة البنادق كان سيؤدى إلى تغيير ضئيل محدود فى النتيجة النهائية للمرحلة الأولى . فقد كان أثر نيران السردار ماحقا كما كانت الأخطاء فى

الاستراتيجية والتوقيت أعظم من أن يخفف من أثرها اتباع تكتيك ناجح ، ولكن ذلك التكتيك السليم كان يجب أن يبرز من جيش أمة أمضت العشرين عاما الأخيرة من عمرها فى معارك متصلة .

* * * * * * * *

فى سعت ٦٥٠ كان شيخ الدين على وشك الوصول إلى جبال كررى .. وبمواجهة الملازمين العريضة الكثيفة كان واضحا انهم سيتمكنون من تغطية كل جبل أبو زريبة بقممه الثلاثة . ادار اقتحام الموجه الأولى الامير العريفى الربيع بربعه القوى الذى احتشدت فى صفوفه ٢٠٠٠ بندقية ، يساره ربع عثمان آدم ، وتدافعت خلفهم كل ارباع الملازمين . فصلت الف ياردة بين كتلة الملازمين وكتلة الراية الخضراء ، وقد اتجهت للمنطقة التى حددت لها إحتلالها مباشرة . لقد كفل الهجوم الأول بمحوريه بقيادة عثمان أزرق والخليل انشغال مدفعية وألوية الزريبة عن عثمان شيخ الدين وعبد الله أبو ســوار . وتمكنت قــوة الملازمين من التقدم لاحتلال مناطق تشكيلها دون تدخل من مدفعية ونيران العدو . فقد كان خط سيرها يبعد حوالى ثلاثة أميال من الزريبة . وعندما أصبحت على بعد الف يارده إنتظمت وخفت سرعة الصفوف الأمامية للملازمين قليلا لتسمح لربع عثمان آدم بتجاوزهم من اليسار للاحاطة والالتفاف حول ميمنة العدو ومنعه من الانسحاب شمالا .

تتكون جبال كررى مسرح المعركة الوشيكه الاندلاع ، من هيئتين طبيعيتين ترتفعان أحيانا لأكثر من ثلاثمائة قدم هما جبل أبوزريبة ، وجبل دهم . ويفصل بينهما سرج عرضه أكثر من ألف ياردة . أما جبل كررى الذى سميت المنطقة باسمه فهو عبارة عن تلة منعزلة صغيرة تكاد لا ترتفع عن سطح الأرض بالقرب من شاطىء النيل . تتكون أكبر الهيئتين « جبل أبو زريبة » من ثلاثة قمم تشكل بمحاورها المختلفة الاتجاهات ، وخلف بعضها البعض ، اتجاها عاما للجنوب الشرقى أو الشمال الغربى سنرمز لها بالجبل الشمالى والأوسط الجنوبى . وتغطى كل تلك المنطقة، مرتفعاتها أو منخفضاتها، صخور حادة داكنة اللون تعوق تحرك الجمال والخيول وتقلل من سرعتها لحد بعيد .

وعندما بعث كتشنر بكل القوة الراكبة المصرية لاحتلال جبل كررى قبل الفجر ، كان هدفه الأساسى هو منع العدو من الالتفاف وتطويق الالوية المصرية فى يمين الزريبة بعد أن أضعفت بنقل أغلب عناصر نيرانها للفرقة البريطانية يسار الزريبة . وقد وزع برود وود قواته الراكبة على النحو التالى :

احتلت ٨ سرايا هجانه مترجلة الجبل الشمالى والأوسط . واحتلت مدفعية الخيالة الجبل الجنوبى وقد اتجهت لجهة الجنوب الغربى . اصطفوا فى صفين متتاليين وارتكزوا على أقدامهم . أما الخيالة « ٩ سرايا » فقد وضعوا فى العمق ليسدوا الثغرة بين الجبل الأوسط والجنوبى ، بينما تجمعت كل الخيول والجمال بدون راكبيها فى المنحدر الخلفى لابوزريبة . وبينما كان برود يتوقع هجوما جانبيا صغيرا اذ به يجد نفسه مواجها لهجوم رئيسى اشترك فيه عشرة الف رجل (١) أغلبهم مسلحون بالبنادق وخلفهم خمسة آلاف آخرون . أصبح موقفه عصبيا ، فقد سحب منه السردار أقوى قطعه النارية — ٤ مدافع مكسيم — وأمره بارسالها للزريبة لتشترك فى صد الهجوم المباشر .

وبينما كان الفاصل يتسع بين الراية الخضراء والملازمين وكل منهم يتجه نحو هدفه ، الراية الخضراء شمال سلسلة الجبال بعيدا عن المرتفعات ، والملازمون نحو أبو زريبه ، أدرك برود حرج موقفه والمسافة تقصر بسرعة بينه وبين الكتلة البشرية المندفعة نحوه وهى تغطى الصخور والأشجار فى تقدمها ، وأدرك انه لا قبل له بمواجهتها . فقد تمكن ربع عثمان آدم من تسلق قمة أبو زريبة الشمالية متجاوزا

---

(١) من هنا نرى الفارق العظيم فى تقدير القوة العددية لجيش الخليفة كما قدمها المؤرخون استنادا على معلومات ونجت ، وما شوهد حقيقة . فينما ذكر الجميع ان قوة الملازمين التى اقتحمت جبال كررى كانت ١٥٠٠٠ مقاتل . نجد أن التقدير المذكور أعلاه « ١٠٠٠٠ » هو تقدير برود وود نفسه الذى اشتبك معها . وقدمه ضمن تقريره إلى الجنرال هنتر قائد الفرقة المصرية :

"The force attacking us which was now at right angle with the force attacking the Zeriba was some 10000 strong and came on with great rapidity".

دار الوثائق المركزية .

Cairint. 1/60/320 DIV OC REPORT

« كانت القوة التى تقدمت مسرعة للهجوم علينا ، والتى شكل محور تقدمها زاوية قائمة مع محور تقدم القوة التى هاجمت الزريبة ، تقدر بحوالى ١٠٠٠٠ مقاتل » .

صفوف الملازمين . وعندها أمر برود وود كل الخيالة والهجانة المترجلة بالانسحاب فورا والعودة لحيواناتهم في الخلف وركوبها والتقهقر لجبل دهم . كما أمر بطارية الخيول المجرورة بالانسحاب لجنوب جبل دهم على ان تتبعهم الخيالة [1].

لقد شاهد السردار تطور الموقف كاملا من الزريبة . وأدرك الخطر الداهم الذى أطبق على أغلب قوته الراكبة . ومن مكانه فى الزريبة بعث لبرود وود باشارة آمرا اياه بالعودة فورا لداخل الزريبة والاحتماء بالمشاة، الا أن برود وود رفض تنفيذ الأمر وفضل الانسحاب لجهة الشمال ، جارا خلفه كل قوة شيخ الدين . ذلك هو ما برر به برود وود تصرفه ونال به أعظم الثناء . فنتيجه قراره كانت أثرا حاسما وبعيدا على كل المعركة ، وليس فقط على سلامة سرايا الفرسان والهجانة .

والواضح ان دوافع برود وود لاتخاذ قراره ذاك كانت تختلف تماما فى الحقيقة عن الدوافع التى قدمها . والسبب باختصار هو أنه حتى لو أراد اطاعة السردار لما استطاع . فان اندفاع الملازمين إلى الأمام وبسرعة أكبر من سرعة القوات الراكبة وسط الصخور ، وبوصول ربع العريفى الربيع إلى قمة أبو زريبة الجنوبية واحتلالها مندفعا للامام ، أصبحت أى محاولة للانسحاب المباشر متجنبا كتل مشاة الملازمين مستحيلة ، كما كان الاصطدام بهم محتما . كما ان قراره فى البداية لم يكن الانسحاب شمالا « كما نرى من الخرطة » بل كان الانسحاب لجبل دهم واحتلاله بواسطة مدفعية الخيالة لتغطية إنسحاب الهجانة للزريبة .

فحينماوصل الهجانة والخيالة بهرولتهم المضطربة إلى مرابط خيولهم وامتطوها مسرعين ، كانت طلائع عثمان آدم قد احتلت القمة الشمالية ، وتوقف حملة البنادق لاطلاق بنادقهم على العدو المنسحب بينما استمر حملة السلاح الأبيض فى الاندفاع للأمام . ومكنتهم قوة الاندفاع المكتسبة من الانحدار على طول السرج من اللحاق بالهجانة المتعثرة وسط الصخور الحادة وتمكنوا من الالتحام بمؤخرتهم وسرعان ما تلاشت الصفوف الخلفية للهجانة وابيدت عن آخرها . وفى دقائق تساقط أكثر من خمسين من العدو وفقد أكثر من سبعين جملا . أتاح الاشتباك

---

(١) أنظر الخريطة رقم ٧ « المرحلة الأولى سعت ٧٠٥ »

مع مؤخرة الهجانة فاصلا زمنيا قصيرا لبقيتها لتخليص أنفسهم والاسراع فى الانسحاب باتجاه الشمال الشرقى نحو الموقع الجديد فى جبل دهم . كما وفر لبطارية الخيول المجرورة الزمن الكافى لفتح نيرانها من الموقع الجديد ـ فى جبل دهم ـ على الربع المتقدم .

تمكنت بقية كتلة الملازمين المتأخرة قليلا من الوصول للقمم الثلاثة وتغطيتها وتوقفوا للحظة قصيرة حتى لمحوا فريستهم وهى تحاول الافلات . وبعدها تدفقوا نحو السرج وقد اتجهوا خلف قوات برود وود المنسحبة . وسرعان ما تلاحمت صفوفهم مع صفوف عثمان آدم وهى تندفع بميلانها لجهة الشرق ، فالتحمت القوتان واكتملت المواجهة العريضة مرة أخرى وطلائعها تتقدم امامها .

كانت معركة الزريبة قد خفت قليلا ، فوجهت أغلب مدفعية الفرقة المصرية نيرانها نحو الآلاف المندفعة خلف برود وود . وبانضمام مدافع مدفعية الخيول « كروب ٩ رطل » من جبل دهم بدأت نيران العدو تتكثف وتزداد عنفا . إلا ان اصوات الانفجارات لم تتمكن حتى من ابطاء خطوة الآلاف المقتحمة .

ادرك برود وود ان اتخاذ مواقعه فى جبل دهم ، ما هو إلا تأجيل مؤقت للكارثة . فلا نيران مدفعية الخيول الموجهة نحو صفوف الملازمين من مدى قريب مباشر افلحت فى التأثير عليهم ، ولا نيران الزريبة الكثيفة البعيدة قللت من قوة اندفاعهم . كان أكثر مما اثار قلقه هو الهجانة ، بخطواتهـــم البطيئة ، ومعاناة الحيوانات وهى تجاهد لشق طريقها مسرعة وسط الصخور الحادة . أما الخيالة فبامكانها المناورة والانسحاب مسرعة إلى أى مكان . لمح برود وود أحد الزوارق « ملك » تراقب الموقف من بعيد ، ولم تكن بمستطيعة التدخل فقد كانت المعركة حتى الآن محصورة بين الجبال . بدأ الزورق فى التقدم شمالا للتدخل فى اللحظة المناسبة ، وعندها قرر اعادة الهجانة للزريبة تحت غطاء من نيران الزورق ، ومهما كلفه الأمر ، ولو حتى الاستعانة بكل خيالته فى هجمة خيالة يائسة .

قرر برود وود ان تنسحب الهجانة شرقا نحو النيل ثم تنعطف جنوبا بمحاذاته إلى داخل الزريبة ، بدلا من طريق الانسحاب المباشر من دهم إلى الزريبة . فذلك

الطريق الطويل يوفر الفرصة للخيالة لقطع طريق اقتحام الملازمين ، ليمكن الهجانة من الوصول لشاطىء النيل . وهناك يمكن للزورق ان يمد يد المساعدة . كما ان حركة الحيوانات السريعة فى أرض الشاطىء الهشة كانت كفيلة بتخليصهم من مطارديهم . ولما كان الاتجاه المباشر للنيل يمثل جزءا من سفح جبل دهم الجنوبى ، وهى أرض مغطاة بالصخور الا أن إنحدارها كان خفيفا نحو النيل ، فقد بدأت الهجانة فى التحرك عبر هذا الطريق شرقا نحو النيل بدلا من الاتجاه للجنوب الشرقى للزريبة مباشرة .

تمكن العريفى ربيع من تجميع قوته بعد انضمام ربع عثمان آدم وتقدموا ككتلة واحدة تحت قيادته مرة أخرى . تجمعت فى مواجهته أربعة رايات كاملة أى حوالى ألف مقاتل . أدرك الربيع غرض الهجانة وهى تقترب من النيل بعد أن عبرت المنطقة الصخرية بينها وبين النيل ، وأنها تحاول كالفريسة المطاردة أن تلوذ وتحتمى بالزريبة بعد أن تصل لشاطىء النيل . وأدرك أن فريسته التى كادت أن تصبح تحت رحمته لابد متمكنة من الافلات ان وصلت شاطىء النيل ، فالجمال بخطواتها الخفيفة المسرعة ستجد الأرض المثالية لتستعيد سرعتها فى أرض الشاطىء .

كانت الهجانة تبعد عنه الف ومائتى ياردة أمامه لجهة الشرق ، والخيالة تتجمع على بعد ثمانمائة ياردة يساره وكانت هى الأخرى صيدا ثمينا . بينما بقى للهجانة الف وخمسمائة ياردة من الزريبة بعد أن وصلت للأرض المنخفضة واتجهت مباشرة جنوبا بحذاء النيل . كان السير فى نفس خط سيرها عقيما ، لذا اتخذ قرارا سريعا بالاتجاه نحو الزريبة لتقصير الفاصل بينه وبينها والاصطدام معها وقطع طريق انسحابها المحاذى لشاطىء النيل .

أدار الأمير العريفى الربيع عنان جواده بعنف لجهة الشرق وأشار ببندقيته لجنود الصف الأمامى ليتبعوه ومن خلفهم كل قوة الملازمين . وفى دقائق معدودة كانت الآلاف قد غيرت اتجاهها لجهة الشرق فى سرعة ودقة مثيرة للاعجاب وانطلقت بسرعتها المعهودة ، ليس خلف الهجانة مباشرة بل إلى نقطة تقع فى منتصف المسافة بينهم وبين الزريبة . تجاهل العريفى كل الخيالة التى كانت على يساره تجاهلا تاما فقد أدرك أن صيده الحقيقى هو الهجانة .

أدرك برود وود أن مناورة العدو الأخيرة ستمكنه من الاصطدام بالهجانة وابادتها ، فباتجاهه الجديد وبخطواته المسرعة كان كفيلا بالوصول اليها قبل أن تتمكن من الافلات والوصول إلى داخل الزريبة . ولم يبق الا مسلك أخير يأخذه لانقاذ هجانته . وهو القيام بهجمة يائسة بكل خيالته والاصطدام مباشرة مع كتلة الملازمين الكثيفة لتعطيلهم واستخلاص بضعة دقائق لفتح طريق الانسحاب للهجانه . أمر برود وود كل خيالته بالاصطفاف في سفح جبل دهم في اصطفاف الهجوم "In Line" استعدادا لشن هجمة الخيالة ، واتجهوا جنوبا لتسديد هجومهم .

بينما كانت سرايا برود وود تنتقل من الاصطفاف العادى إلى اصطفاف الهجوم . كان موقف الهجانة وهى تتجه جنوبا بمحاذاة النهر ميئوسا منه فقد كان الملازمون بمواجهتهم التى تجاوزت ستمائة ياردة والالآف التى اندفعت خلفها يقصرون المسافة بسرعة لنقطة الاصطدام مع الهجانة . الهجانة وهى تتجه جنوبا والملازمين ينحدرون شرقا في زاوية قائمة مع أعدائهم ، ولم يبق الا أربعمائة ياردة وتصبح كل هجانة برود وود أثرا بعد عين .

ولكن فجأة تغير الموقف .. فان تغيير الملازمين اتجاههم نحو النيل وعبور منطقة جبال كررى إلى الأرض المكشوفة عرضهم كهدف عريض للبارجة « ملك » أقوى قطع الأسطول ، والتى ظلت مغلولة اليدين حتى تلك اللحظة والمعركة تدور بين الصخور الساترة . فكان أن اشتعلت كل البارجة بالقصف المحموم بدون تصويب تقريبا ، وبأقصى سرعة مكنتها منهم عملية التعبئة والتفريغ . حجب دخان الرشاشات والمدفعية البارجة من الأعين ، كان أثرها ماحقا وسريعا « ١ مدفع ١٢ رطل سريع الطلقات ، ٢ مدفع نوردنفلدت ، ١ مدفع هاوترز ، ٤ مدافع مكسيم و ٢٥ من بنادق الطاقم » وسرعان ما انضمت لها البارجة « الظافر » لتكمل الباقى . وكأن جدارا من الرصاص الساخن والغبار وقطع الصخور قد نبت فجأة أمام ووسط الملازمين حائلا بينهم وبين التقدم . وتساقط المئات فى تلك اللحظة ،

واختفى الصف الأول والثانى من الوجود (١) وكأنما بفعل ساحر . اشترك فى قصف الملازمين لحظة تعرضهم الكامل وتحملوا نيران كثيفة مؤثرة من أكثر من اتجاه ومن مصدر : الزوارق من النيل مباشرة أمامهم — ونيران لوائى ماكدونالد ولويس من الزريبة جنوبا ، ومدفعية الخيول من خلفهم .

توقف الاقتحام للحظات كانت كافية للهجانة للانزلاق والابتعاد عن نقطة الاصطدام الخطرة . حاول الملازمون التقدم مرة أخرى رغم القصف المؤثر الذى بدأ يتناول أجنحتهم وتشكيلاتهم — فتوقفوا وبدأوا فى اعادة تنظيم صفوفهم للتقدم. أصيب جواد الأمير العريفى ربيع فى تلك الأثناء . وكانت قوته قد تجمعت مرة أخرى فى كتلة كثيفة عاجزة عن التقدم ، وراغبة عن التقهقر .

وبكل الغيظ والحنق الذى فاضت به جوانحهم ، عادوا مرة أخرى شمالا لجبل دهم للتنفيس عن غضبهم بالاشتباك مع بقية قوات برود وود والتى لا زالت تحتل جبل دهم . وتكونت من كل مدفعية الخيالة فى السفوح الغربية لدهم ، وثمانى سرايا خيالة لازالت مصطفة فى اصطفاف فى الهجوم .

سرعان ما بدأ الملازمون فى قطـــع المسافة التى فصلتهم عن عدوهم . كانت سرية مدفعية الخيول هى الهدف الأقرب وقد إتجهت مدافعها جنوبا . وتوالى قصفها على أجناب الملازمين . وعندما كر الملازمون عائدون لجهة الشمال للاشتباك مع الخيالة أمرهم برود وود باخلاء الموقع والانضمام له . شاهدت مقدمة الملازمين محاولة الانسحاب ، وبينما انشغل أفراد طواقم المدافع بتجميع مدافعهم وذخائرهم صب الملازمون نيرانا كثيفة تمكنت من اصابة بضعة خيول وأفراد وسط سرية

---

(١) وصف لى هذا المشهد على ود الزين أحد القلاثل الذين خرجوا أحياء من تلك اللحظة بالاضافة للامير العريفى الربيع — وبصوت مرتجف ذكر أن أحد اقربائه كان فى النهاية اليسرى للصف الأول العريض بينما كان هو فى أقصى اليمين وفصلت بينهم أربعة رايات كاملة . وعندما بدأ الزورق فى الضرب عليهم بالرشاشات التفت فجأة ووجد أن كل الرايات الأربعة قد اختفت وتساقط جنودها على الأرض وشاهد قريبه يقف بعيدا وسرعان ما سقط هو الآخر . وعندما زرته كان ضريرا وثقيل السمع فكانت ابنته « سيدة مسنة زربه اللسان » تتولى نقل كلامه المتقطع إلى ، وكنت الاحظ انها تذكر بعض كلمات المواساة لوالدها بين الفينة والأخرى وعندما سألتها أجابت أن والدها لا يكف عن التساؤل لماذا عمر وبقى طيلة هذه السنين وحيدا من أربعة رايات كاملة أبيدت فيها عشيرته واصدقائه فى لحظات .

« الرايات — ٢٣ / ٥ / ٧١ استجواب الشيخ حسين ود الزين » .

المدفعية أثناء إنشغال الاطقم باعادة تركيبها . عند ذلك أمرهم برود وود بترك المدافع التى لم يتمكنوا من ربط عجلاتها بالخيول ، والاسراع بالانضمام اليه . تمكن جزء من فرسان الملازمين فى تلك الأثناء من التجمع فى كتلة واحدة واندفعوا أمام المشاة لاقتحام موقع المدافع ــ وأحس هؤلاء أن العدو وشيك على الاصطدام بهم ، فتخلوا عن مدفعين كانا فى الخلف وأسرعوا بالانضمام لصفوف برود وود التى تجمعت استعدادا للانسحاب شمالا . وتلك هى اللحظة التى قرر فيها برود وود الانسحاب شمالا ، وليس قبل ذلك أبدا كما ذكر الكثيرون . ولم يكن أمامه ملجأ آخر . الطريق للزريبة مسدود بآلاف من الملازمين ، غربا الراية الخضراء، جنوبا كل قوات المرحلة الأولى فى لحظات هجومها الحاسم .

سرعان ما غطى فرسان الملازمين المدفعين وتجاوزوهما إلى صفوف الخيالة التى أعطت ظهورها لهم واتجهت شمالا عبر الصخور والأحجار . كانت المطاردة فى البداية متكافئة ، فقد اشترك فيها فرسان الملازمين وكانوا على قلتهم كفيلون بالوصول لعدوهم . لكن سرعان ما اشترك كل المشاة فى المطاردة . وحتى المشاة أنفسهم كان الفاصل بينهم وبين عدوهم الراكب يقصر كلما مضى الزمن، فالمناطق الوعرة فى صف المشاة دائما . وعلى السفوح الشمالية بدأ فرسان الملازمين فى الاشتباك فعلا مع العناصر المتأخرة لفرسان برود وود . وهنا أسرعت السرايا الخليفه وجمعت صفوفها بقيادة الميجور ماهون وشنت هجمة من الجانب الأيمن. كانت هجمة ناجحة فقد كانت سراياه متماسكة كقطعة واحدة بينما تبعثر فرسان الملازمين فى اقتحامهم المنفرد المسرع خلف عدوهم . تمكن هجوم الميجور ماهون من شل حركة فرسان الملازمين . وبرزت أخيرا الصورة النهائية للمطاردة : كتلة من الفرسان وخلفها كتلة أخرى كثيفة عريضة من المشاة وهى تندفع خلفها باقصى ما مكنتهم سرعة أقدامهم . بينما تابعهم ، وبنفس سرعتهم ، زورقان يقذفان الحمم عــلى اجنابهم ومقدمتهم كلما سنحت الفرصة ، وكلما اقتربوا من فريستهم .

ولكن برود وود سرعان ما تمكن من تخليص سراياه من منطقة كررى الوعرة والانطلاق شمالا فى الأرض المنبسطة مودعا بآلاف الطلقات خلفه . واستمر

الملازمون فى المطاردة بمعظم قوتهم « لم يفقدوا أكثر من ألف مقاتل » فى مطاردته شمالا . تبطىء الخيالة من سرعتها أثر الانهاك من التحرك وسط الجبال خلال الساعة الماضية فيقصر الفاصل بينها والملازمين وتقترب القوتان .. ثم يتمدد الفاصل مرة أخرى .

أين كان شيخ الدين طوال كل هذه الأحداث ؟ ذكر كل من شاهد شيخ الدين فى تلك اللحظة بأنه كان أبعد ما يكون عن المعركة ، واكتفى ببساطة بأن تبع حشود الملازمين وسط مربعه بعيدا عن مناورات وتحركات الصفوف الأمامية. ويمكن أن نكتفى هنا بتبرير تصرفه بعدم خبرته وحداثة سنه (١) .

ماذا كان هدف قادة الملازمين من تلك المطاردة العقيمة ! هل كان لديهم ثمة أمل أن يتمكن مشاتهم باللحاق بفرسان وهم على ظهور جيادهم ؟ أم أن ذلك لم يكن هدفهم فى البداية ولكن بطء سرعة الفرسان بين كل فترة وأخرى جعلهم يأملون فى اللحاق بهم ؟ أم أن هدفهم كان فقط طردهم من أرض المعركة ؟ ان كان هدفهم هو الأخير ، فقد أفلحوا فى طرد أنفسهم وعشرة ألف جندى — أقوى فرق الخليفة — وان يبعدوها عن أرض المعركة فى لحظة كان هو فى أمس الحاجة اليها .

وفى الساعة الثامنة وعندما أمر السردار قواته بالخروج من الزريبة والتقدم نحو أمدرمان، فى اللحظة التى حددت لبدء المرحلة الثانية التى كان لشيخ الدين نصيب الأسد فيها : كانت قواته جالسة على الأرض بعد ركض سريع لمدة نصف ساعة لتستريح من عناء الطريق الشاق الطويل الذى قطعته فى مطاردتها المجهضه، وكانت على بعد أربعة أميال من أرض المعركة .

* * * * * * * *

فى تمام الساعة السابعة والخمسين دقيقة بدأ الخليفة يلاحظ فلول الجرحى

---

(١) هناك أقاويل كثيرة عن موقف شيخ الدين وتصرفاته الغريبة فقد ذكر على الجله لا حفاده انه عندما وصل لشيخ الدين لابلاغه رسالة الخليفة . وجده فى الخلف بعيدا عن صفوفه « وراكب ومخلف » وذكر عيسى ود أحمد أن شيخ الدين بعد ابلاغه برسالة الخليفة لم يرد عليه واكتفى بالصمت . ،
أحاديث السيد بابو نمر — المجلد .
أقوال السيد عبد الله محمد نور — قلى — شريط مسجل .

ومن حمـــلوهم تتقاطر بالمئـــات ثم الألـــوف إنقسمت لشـــلل صغيرة بدأت تظهر على جانبي جبل سركاب . منها من تقدم شمال الجبل متجها غربا ضاربا في الصحراء ليحتمى من الجحيم الذى انفتح خلفهم ومنها من تقدم حول الجبل متجها جنوبا لامدرمان . كانت تلك بقايا الهجوم الأول فلول،ابراهيم الخليل وعثمان أزرق . وهى تشق طريقها متعثرة حاملة جرحاها وموتاها إلى الخلف .

أما مسرح المعركة التى لم يمض على بدئها ساعة واحدة فقد غطى بالآلاف الجثث التى تكدست بصفوف منتظمة تشابه نفس الترتيب والنظام الذى تقدمت به، مما يوضح أن الصفوف تساقطت فى لحظة واحدة أمام نيران الرشاشات التى حصدت صفوفا بأكملها فى ثوانى . مع فرق بسيط ، فقد كانت كل هذه الصفوف تموج حركة وأناشيد قبل ساعة،وهى الآن جثث هامدة أو فى رعشات النزع الأخير. لطخت الدماء المنسكبة الملابس والحصى وأحجار الجبال ، سواء الدماء البشرية أو دماء الخيول وهى تنطلق صاهلة هنا وهناك مثخنة بالجراح وقد خلت ظهورها من راكبيها . أما قذائف المدفعية والرشاشات فقد استمرت فى تغطية كل السهل فى مطاردتها لبقايا الخليل وعثمان .

لفتت عناصر استطلاع الخليفة فى قمة سركاب نظرة إلى حدثين،مؤخرة قوة شيخ الدين الهائلة وهى تكاد تختفى وراء جبال كررى فى طريقها شمالا أثناء مطاردتها لخيالة برود وود ... كما لاحظوا حركة نشطة داخل الزريبة . فقد فتح مشاة الفرقة الانجليزية ثغرة فى صفوفهم لتتقدم خلالها كتيبة الرماحة الحادية والعشرين فى مهمتها الجديدة .

التفت الخليفة مسرعا لعلى الجله وناداه قائلا « قول لى عثمان ارجع للكفار الفى الجبل ... فى الجبل » فقد أحس أن اللحظة الحاسمة قد دنت وحان الوقت لتسديد الهجوم الثانى . كان على الجله راجلا فى هذه اللحظة بعد أن أنكسرت قدم جواده فى المرحلة الأولى للمعركة . انطلق على الجله ليعبر السهل العريض ، وقبل أن يختفى عن الأنظار أرسل الخليفة أحد ملازميه لتبليغ شيخ الدين نفس الرسالة زيادة فى ضمان وصول رسالته لو تعرض على الجله لاخطار المعركة. ثم أمر يعقوب بارسال ربع لتعزيز عثمان دقنه فى خور أبو سنط ، فالواضح أنه

كان أول من سيواجه تقدم الرماحة . أمر الخليفة بالحاق الربع لعثمان من الراية الزرقاء وتعزيزه بحملة بنادق من حرسه الخاص . ومن هناك تحرك الخليفة ملتفا جنوب جبل سركاب ثم اتجه شرقا نحو خور أبو سنط لمواقع عثمان دقنه ، ليشرف على الاصطدام الوشيك الوقوع بين فرسان الرماحة الذين شاهد بداية تقدمهم من الزريبة ، وبين رجال عثمان دقنه فى خور أبو سنط الذى كان مكتظا برجال المدندوه ، بالاضافة إلى طلائع التعزيز من صفوف الراية الزرقاء التى كانت تسير مع مجرى الخور للانضمام لعثمان دقنه والوصول اليه فى التوقيت المناسب للتصدى لآخر هجوم بالفرســـان شـــهدته مسارح حروب القرن التاسع عشر . هجمة فرسان الرماحة المشهورة .

* * * * * * * *

الصـــدام

« أنت يا شيخ عثمان الله يخليك فى نصرة الدين .... أحرس البحر »

تعليمات الخليفة لعثمان دقنة .

تقدم عثمان دقنة على رأس رجاله نحو سركاب ، كان يتقدم فى البداية خلف صفوف أبراهيم الخليل ولكنه إنفصل عنه واتجه شرقا مباشرة ، متخذا طريقا مستورا خلال أشجار خور أبو سنط القصيرة . كان عثمان دقنة راجلا وتبعثر هنا وهناك بضعة أمراء على ظهور جيادهم . لم يكن القائد الأسطورى ، ولا مقاتلوه المشهورون فى أحسن حالاتهم ذلك اليوم . فقد افتقد أحسن معاونيه — محمد موسى دقنة رئيس أركانه وابن أخيه — ومحمد الطاهر المجذوب أكفأ قادته . ومن أمراء أرباعه القدامى لم يبق معه الا أبراهيم سعيد . ولم تزد قوته على سبعمائة مقاتل ، كانوا أخلص المخلصين ، ولم تفلح سنوات القتال والتنقل المتصل ولا حتى الهزيمة فى عطبرة فى زعزعة إيمانهم وإخلاصهم لقائدهم . وتمكن من جمعهم بعد جهد جهيد فردا فردا فى طريق عودته لامدرمان من القضارف . لم تزد قوته النارية عن ثلاثين بندقية ، كانت هى كل المتبقى من آلاف البنادق التى غنمت من حاميات سواكن ، طوكر ، ومعارك التب وطماى . وذلك السبب — قلة البنادق — هو الذى حدد واجب عثمان دقنة . فقد اكتفى الخليفة بأن أوكل اليه أمر حراسة طريق الانسحاب لامدرمان ، ولم يخصص له واجبا هجوميا ضمن المراحل المختلفة لخطة الخليفة .

اختار عثمان دقنة بقعه عميقة من خور أبو سنط تبعد قليلا عن النيل فى أعظم اتساع للخور . امتد خور أبو سنط فى إنحداره نحو النيل مبللا بالمياه أثر هطول الأمطار قبل ليلتين .. وأفلحت حرارة الشمس فى تغطيته بطبقة رقيقة من الطين الجاف أخفت تحتها الطين اللزج المتجمع من الأمطار . تبعد هذه النقطة من النيل مسافة ميل ، شديدة الانحدار رملية الاطراف — تكسرت شواطىء الخور

في تعاريج وكتل رملية كبيرة ، وشكل انحدار الأرض المفاجيء شبه زاوية قائمة مع القاع الذى إمتد لعمق ستة أقدام أو سبعة أقدام .

لم ينظم دقنه رجاله في صف أو صفوف طويلة لتغطية بقعة الأرض الواسعة بين سركاب والنيل ، فلم يكن عثمان بالرجل الذى يكتفى بتنفيذ واجبه السلبى بل قرر استغلاله لأبعد مدى . وبدأ بسرعة في تنفيذ خطته السريعة ، التى اعتمدت على نقطة واحدة ـ جذب العدو لكمين معد في أرض مناسبة تتعادل فيها كفته مع العدو ويقل فيها تفوق نيران العدو الساحق.أما اذا إشتبك معه في معركة تقليدية فكفة العدو سترجح والنتيجة ستكون في صالحه. وعلى هذا الأساس نظم صفوفه:

اصطف كل حملة البنادق على الضفة الشمالية خارج الخور ـ وقوفا على ارجلهم حيث برزوا كهدف ظاهر كبير من مسافة بعيدة . أما البقية الباقية فأمرها الجلوس على الأرض . سرعان ما غطى رجال الهدندوة قاع الخور وضفته المنحدرة هنا وهناك وجلسوا بصدورهم العارية ، وقد وضع كل منهم سيفه أو سكينه المعقوفه بالقرب منه . سادت همهمة لبضع دقائق تبعها سكون وصمت شاملين بناء على أوامر قائدهم . كانوا مدربين على مثل هذه العمليات الصامتة مع عثمان دقنة . دام السكون فترة قصيرة حتى الساعة الثامنة والنصف حين قطعته ضجة طلائع ربع التعزيز . كان تقدم ربع التعزيز من الراية الزرقاء نحو خور أبو سنط مستورا ، فقد حدد لهم الخليفة الطريق . فاستفادوا من مرتفعات سركاب لإخفاء تقدمهم عن عين العدو التى تمثلت في أطواف الرماحة المتقدمة ، ثم كفلت أشجار الخور. . ساترا لبقية تقدمهم لحين إنضماهم لعثمان دقنه الذى سر بحضورهم . فقد كان موقفه ضعيفا . وأسرع باعادة تنظيمهم . فصل حملة البنادق وضمهم إلى بنادقه في اعلا. ارتفع عدد حمله البنادق إلى مائة وخمسين وقفوا بفواصل قصيرة طولها ياردتين أو ثلاثة بين كل فرد وجاره . أما حملة السلاح الأبيض فقد حاول دقنة ضمهم وقعودهم على الأرض مع رجاله . الا ان ضيق الخور جعله عاجزا عن ايوائهم جميعا مما أرغمهم على التشابك والتلاحم في كتلة واحدة كثيفة ، تكدس فيها ألفا رجل حيث بلغت مواجهتهم وقد اتجهوا شمالا ٤٠٠ ياردة وعمقها أكثر من اثنى عشر صفا .

وهكذا قبع عثمان دقنه ساكنا فى انتظار آخر لقاء مع اعـــدائه القدامى البريطانيين. أما خلف الخور فقد تشتت بضعة ألوف من الجرحى وحملتهم فى طريقهم لامدرمان بعد إنضمام جرحى آخرين من الغرب البعيد ، وضع بعضهم جرحاهم على الأرض ثم بدأوا فى التجمع مرة أخرى للعودة والانضمام للراية الزرقاء التى كانت أقرب راية خلف سركاب .

وعندما وصـــل الخليفة مباشرة بعد ربع التعزيز ، أسرع دقنة لاستقباله ونقل الخليفة لعثمان ما شاهده من تقدم فرسان العدو . وانطلق عثمان عائدا لتنظيم قوته المتضخمة بعد إنضمام الربع المعزز .. كل هذا تحت سمع وبصر الخليفة الذى كان كثير الاهتمام بالمعركة المرتقبة للدرجة التى جعلته يتخلى عن موقع رئاسته الآمن والتقدم للاشراف على المعركة عن كثب،فقد كان حساسا لجهة النيل والطريق لامدرمان . فتلك الجهة التى كانت تحميها مدفعية وبنادق الطوابى اصبحت مكشوفة بعد تدمير الطوابى ، وأصبح للعدو فيها عنصر نيران قوى يمكنه من اكتساح الشاطىء لابعد مدى . فمن مكانه ذاك تمكن من رؤية البواخر . وما العمل اذا استطاع العدو الانطلاق مسرعا جنوبا نحو امدرمان تحت حماية وغطاء نيران البوارج والوصول اليها قبل الخليفة ؟ صحيح ان ثلثى جيشه ما زال سليما لم يمس بعد فى إنتظار اشارة الهجوم على العدو ولكن الزمن لم يحل بعد ، ولم يلحظ ما يبرر نية العدو فى مغادرة الزريبة .

** ** ** **

أمنت نيران كتشنر المتفوقة نصرا سريعا فى المراحل الأولى للمعركة ، وبدون ثمن تقريبا . ولكن الموقف ما زال مهتزا . فهنا وهناك آلاف المقاتلين فى طريقهم لامدرمان ، ولو ظل فى الزريبة أكثر من ذلك فهم لابد واصلوها قبله. ولم تكن تلك الفلول هى التى سببت له القلق والضيق .. بل أين اختفى ذلك الجيش العرمرم الذى شاهده ظهر أمس ؟ لقد رأى أمام عينيه نهاية جزء كبير منهم .. وشاهد جزءا كبيرا آخرا سليما ينطلق شمالا خلف برود وود . ولكن تلك الفرقة التى عبرت كررى خلف الخيالة المصرية لم تشغل باله فهم أبعد منه من امدرمان . هل هـذا هو كل جيش الخليفة ؟ استدعى ونجت وأكد له مخاوفه ..

فالراية الزرقاء ، أكبر راية منفردة وثلث التجمع لم تشاهد فى المعركة صباح هذا اليوم ولا بد انها انطلقت مع الفلول نحو امدرمان لتقف وقفتها الأخيرة، ليبدأ القتال الشاق وسط شوارع امدرمان من جديد ولكن فى ظروف حالكة هذه المرة ، فلن يتيسر له تكرار مذبحة سهول كررى مرة أخرى مع مثل ذلك العدو الذى شاهد بعينيه كيف يموت رجاله .

لقد كان كتشنر تواقا للوصول إلى أمدرمان واحتلالها قبل الخليفة . وكان مستعدا للمخاطرة مهما كانت عواقبها . فلن يدفع ثمنا أفدح من قتال مع جيش الخليفة داخل امدرمان . لم يكن اشفاقا من ارتفاع نسبة الخسائر ولكنه لم يرغب فى خوض معركة تظل فيها ورقته الرابحة — نيران المدفعية والبوارج — مجمدة مشلولة . اذن فليدفع فرسانه للأمام للاشتباك المبكر مع العدو وحرمانه من اعادة تجميع صفوفه وقطع طريق انسحابه لامدرمان وتعطيله ، والبحث عن الفرقة المفقودة إلى أن يلحق بهم بألويته الستة فى السباق نحو أمدرمان . تحرك جنرال جاتكر نحو الكولونيل مارتن بجواده عبر الزريبة وأصدر تعليماته . بعد دقائق تجمعت كتيبة الرماحة خارج الزريبة، وفى سعت ٨٠٠ انطلقت جنوبا .

كان تقدم الكتيبة بسريتين فى الأمام وإثنين فى الخلف وباصطفاف التقدم العادى"Column of troops"أى كل فصيلة من فصائل السرايا الأربعة خلف بعضها البعض. فى سعت ٨١٥. توقفت الكتيبة فى المنحدر الشمالى لجبل سركاب حيث اخفت كتلة سركاب الصخرية الضخمة جنوبهم وغربهم كل احتياطى الخليفة متمثلا فى الراية الزرقاء . ولكنهم شاهدوا الألوف من الجرحى وحملتهم فى طريقهم لامدرمان . كما كان الطريق المباشر من الزريبة لامدرمان بحذاء النيل ، وهو المهم ، خاليا من العدو ومقاوماته الصغيرة ، فهو الطريق الملاصق للنيل والذى سيكفل لالوية المشاة سيرا قصيرا مباشرا لامدرمان ليصل اليها قبل بقية جيش الخليفة . نصب جماعة اشارة الكتيبة أعلام الاشارة عاليا وأرسلوا اشارة مفصلة بالموقف بالهيلوغراف .

سرعان ما خفقت أعلام الاشارة خفقاتها السريعة من الزريبة حاملة رد السردار « تقدم ونظف الطريق من اليسار — طريق النيل — وابذل كل جهدك

لمنع العدو من العودة لامدرمان » كانت الأوامر واضحة ومحددة . الا أن قائد الكتيبة قرر القيام باستكشاف قبل التقدم .

كان هناك بضعة جنود من جيش الخليفة تبعثروا فى قمة سركاب واتخذوا مواقعهم وسط الصخور . وما ان انفصل الطوفان من الكتيبة حتى تقدم أحدهم متجها جنوبا مباشرة نحو أمدرمان شاقا طريقه فى قلب الجبل لاستكشاف الجناح الأيمن لتقدم الكتيبة ، أما الطوف الثانى فقد إنعطف يسارا واختفى برهة من الزمن ليظهر مرة أخرى وهو يتسلق الامتداد الشرقى لجبل سركاب .

أما الطوف الأول فبمجرد بدء تقدمه خلال الصخور تعرض لنيران قوية من بنادق الخليفة التى اتخذت مواقعها وسط الصخور « كان أولئك جزء من حرس الخليفة الخاص ، وقد احتلوا قمة جبل سركاب كنقطة ملاحظة لارسال التقارير ليعقوب والخليفة » وعلى الرغم من النيران التى صوبت نحو الطوف ، إلا أنه تمهل قليلا ليملأ ناظريه بالمنظر الذى امتد أمامه حتى مدينة امدرمان . لم يلحظ شيئا غير الفلول التى غطت السهل جماعات وأفراد . فقد حجبت قمة الجبل عن يمينه مشهد كل الراية الزرقاء جنوب غرب الجبل . ولما بدأت الطلقات التى وجهت نحوه من القمة تجد طريقها وسط صفوفه ، فقد استدار عائدا ليقدم تقريره .

أما الطوف الثانى ، فانعطف يسارا وتسلق نهاية إمتداد الجبل الشرقى . وعندما اعتلاه أبصر نفس المنظر . منظر الفلول العائدة ، بالاضافة إلى منظر آخر استرعى انتباهه وجعله يقف عدة دقائق لترتسم تفاصيله فى ذاكرته . فبينه وبين الفلول التى فصلت جيش كتشنر عن امدرمان ، شاهد ثلة من الرجال قدرها بحوالى ٥٠٠ مقاتل تقف ثابتة وقد اتجهت شمالا حائلا بينهم وبين تفريق بقايا جيش الخليفة .. كانت تلك المجموعة تقف على ضفة مجرى للمياه ،أوحى منظر الأشجار على جانبيه انه مجرى صغير جاف . « فى الواقع كانت القوة التى رآها قائد الطوف هى الصف الأمامى ـــ حملة البنادق من الراية الزرقاء وبعض رجال عثمان دقنه الذين وقفوا على أقدامهم فى الضفة الشمالية للخور ،وكانوا هدفا ظاهرا للعدو من ذلك الارتفاع . وكان استكشاف الطوف الثانى فى لحظات تقدم ربع التعزيز من الراية الزرقاء « ٢٠٠٠ رجل » للانضمام لعثمان دقنة ولكن تعرجات

وثنيات الأرض لم تمكنه من رؤية تقدم تلك القوة الكبيرة . أى شاهد رجال عثمان دقنة في لحظات السكون القصيرة بعد أن جلسوا على الأرض بعددهم الاصلى قبل إنضمام التعزيز (١) » .

عاد قائد الطوف الثاني ، ووصف المنظر الذى شاهده لقائد الكتيبة الذى ركز أسئلته على ثلة الرجال الذين كانوا فى انتظاره ولم يكونوا من المتقهقرين أو الجرحى . بدأت الفكرة تتجمع فى رأس الكولونيل مارتن ، شن هجمة بالفرسان على تلك الثلة من الرجال واختراقها واللحاق بالفلول خلفها وتشتيتها . كانت أغلب دوافع مارتن شخصية لا تمت للموقف التكتيكى إلا بقليل الصلة . فقد كانت تلك أول تجربة ميدانية للكتيبة ، ولم تشترك من قبل فى أى عملية خارج بريطانيا ، ولا في أى من حروب القرن التاسع عشر ، أو فى بناء أمجاد الامبراطورية «ماعدا فصيلة منها خصصت لحراسة نابليون فى سانت هيلانه » فى الوقت الذى نال فيه سلاح الفرسان نصيب الأسد من الاشادة والتخليد بالأشعار والأغاني . وها قد لاحت في الأفق فرصة أخيرة لشن هجمة فرسان ، قمة الاثارة وأمل كل فارس في تلك الفترة . وتلك كانت الفكرة المسيطرة على كل أفراد الكتيبة سيطرة تامة « كما اعترف تشرشل فيما بعد » . « أما شنها ضد أى عدو .. وفى أى أرض .. وفى أى ظروف ، فقد كان هذا امرا ثانويا» . والخيالة البريطانية منذ زمن طويل إنحصر تدريبها وتهيئتها لشن الهجمات بالسلاح الأبيض "Shock tactics" وقليل خلاف ذلك .

اذن كانت رغبة الكولونيل مارتن رغبة طبيعية فى المساهمة في المعركة ، والالتحام مع العدو (٢) . وعلى كل ، لم يكن بضعة مئات من الرجال

(١) أنظر الخريطة رقم ٨ « الصدام سعت ٠٨٤٠ . »

(٢) نجد هنا بعض الاختلاف في تقرير الكولونيل مارتن الذى قدمه للسردار وبين الحقيقة – والواضح ان الكولونيل حاول تبرير موقفه خشية من سخط السردار فقد كانت نسبة الخسائر فى كتيبته أعلى نسبة فقد كتب « وعزمت على اجتياح جناحهم الأيمن »

"and determined to turn their right flank"

دار الوثائق المركزية

Colonel Martin Report 1/60/320

فهو هنا ينفى انه اتجه مباشرة نحوهم ، بينمانجد ان تشرشل–الذى اشترك فى الهجوم ووصف ←

الحفــاة العراة بالقوة التي تتردد كتيبة فرســان بريطانية أمامهــا كثيرا . ولذا لم يتقدم الكولونيل مارتن نحو النيل لفتح الطريق تقدم المشاة، بل اتجه نحو تجمع العدو ، ثم استدار بكل كتيبته التي تجمعت في السفح الشمالي لجبل سركاب ، وانحدر بهم شرقا في اتجاه النهر باتجاه مائل قليلا لجهة الجنوب . واستمر بتشكيله القديم إلى أن حاذى خور أبو سنط الذى وقف حملة بنادق الأنصار على أعلاه وبدأوا في اطلاق البنادق على الكتيبة . وعلى بعد ستمائة ياردة من الخور عزفت طبلة الكتيبة النغمات المميزة للاصطفاف في صف واحد استعدادا لشن هجمة الفرسان . وبينما الكتيبة تتقدم بخطوة عادية ، بدأت الفصائل الخلفية للسرايا في التحرك أماما من جهة اليمين للدخول في الصف الطويل الذى اصطفت فيه الكتيبة وبلغ طوله حوالى ثلاثمائة ياردة . في تلك اللحظات توقف اطلاق النار من رجال عثمان دقنه . ووقفوا ينظرون إلى الكتيبه في ترقب وهي تتحرك وتصطف أمامهم فبدوا لبرهة وجيزة وكأنهم على وشك الاستسلام ، ولكن الكولونيل استبعد هذا الخاطر بسرعة– فلم يرغب في ان يفسد هجمته الرائعة المرتقبة بأميال أخرى مملة في مطاردة الفلول – اذا استسلم هؤلاء .

← المشهد بعد ثلاثين عاما بعد أن تطهر من عوامل التحيز – يذكر :

The trumpet sounded right wheel into line and all sixteen troops swung round towards the blue black riflemen"

« عندها عزفت الطبلة النغمات المميزة لا صطفاف الهجوم . وتدافعت ستة عشر فصيلة لجهة اليمين لتأخذ مكانها في صف الهجوم المسدد نحو حملة البنادق السود من العدو » .

Churchill W., *'My early life'* – The sensation of a cavalary charge – p. 188

ويؤيده خطاب الملازم روبرت سمث لخطيبته وهو يصف الهجوم .

"See formed body of about 200 men six hundred yards to our left. Front troops left wheel. Immediately met by volleys fairly accurately aimed. Bullets seems to be whistling and splasning all round. My right hand drops. "Right wheel into line, Charge" looking round see Khor 12 feet wide, 6 feet deep. IN FRONT. Every side a compact mass of white robed men.." Oriental Studies Department, University of Durham - G/15433

ويستطرد تقرير مارتن

"By this time we were within 200 yards of their right when a large body→

وعلى بعد اربعمائة ياردة وفى سعت ٨٣٧ . أشار لحامل الطبلة خلفه ، فانطلقت النغمات السريعة المتواصلة المميزة لكلمة « هجوم » .. وبدأت هجمة الرماحة .

** ** ** **

كان حملة البنادق من جنود عثمان دقنه تحت قيادة أبراهيم سعيد ، وأغلبهم من ربع التعزيز ، يقفون على أقدامهم على بعد عشر ياردات خارج الخور . أما داخل الخور ، ومع توافد ربع التعزيز وضغط حشوده ، ومع ضيق الخور فقد بدأت صفوف حملة السلاح الأبيض تمتد حتى بلغت ٤٠٠ ياردة . وهم أكثر كثافة فى اليسار أى فى الاتجاه الذى وصل منه ربع التعزيز ، وحيث بلغت كثافة وعمق المواجهة فى تلك البقعه إلى خمسة عشر أو ستة عشر صفا ، تكونت من رجال تلاصقت أكتافهم فعلا وكونوا كتلة سميكة . وبعدها بدأت الكثافة والعمق يخفان قليلا قليلا إلى جهة اليمين حيث تبعثر رجال المدندوة ممن كانوا فى احتلال الخور أصلا . وبذلك أصبح صف حملة البنادق موازيا للطرف الأيمن ، حيث قلت كثافة الرجال كثيرا ، ولم يكن موازيا لكتلة الرجال السميكة من رجال التعزيز .

→jumped out of a small Khor and commenced a very heavy fire".

فهو هنا يذكر « على بعد ٢٠٠ ياردة اندفعت أعداد كبير من العدو وفتحت نيرانا قوية ثقيلة » ، والواقع ان صف حملة البنادق فتح نيرانه من مسافة ٥٠٠ ياردة – وان « الاعداد الكبيرة » لم تقفز خارج الخور الا عندما اصبح الرماحة على مسافة أقل من ٣٠ ياردة والقوة التى اندفعت خارج الخور أغلبها كان من حملة السلاح الأبيض . فمارتن يحاول ان يوضح انه تعرض لنيران ثقيلة مبررا الخسائر ومبرراً هجومه . فنحن نجد أن تشرشل يصف تلك اللحظات قائلا :

I recall it to my mind so frequently after the event that the impression is as clear as it was quarter of a century ago.... Then I saw before me, the row of crouching blue figures firing frantically, wreathed in white smoke, after this I glaneed to the right and left at my troop, I looked again towards the enemy. The scene appeared to be suddenly transformed, the blue black were still firing , but behind them there came into view a depression like a shallow sunken road. This was crowded and crammed with men rising from the ground where they had hidden. Bright flags →

واكتملت أخيرا الصورة النهائية لكمين الرماحة المشهور . أكثر من الفى مقاتل جلسوا على الأرض وقد ارتفعت اسنة حرابهم الثقيلة إلى أعلا ، اخفاهم انخفاض مفاجيء لستة أقدام من سطح الأرض ، واعلاهم وقف صف من حملة البنادق . وبعد أن نظم عثمان رجاله وقف فيهم خطيبا . وارتفع صوته العالى ليصل لحملة البنادق الذين اعطوه ظهورهم ، مذكرا اياهم ان المهم أولا هو انزال العدو من خيوله حتى يترجلوا على الأرض ، ويمكن بعدها احداث الخسائر . فالعدو الراكب اذا فقد خيوله وترجل فرسانه أصبح من السهل عليهم ابادته . فالواجب الأول هو ابادة الخيول ، فهم مهما تعرضوا للخسائر من نيران العدو وهو فى وسطهم ، فتفوقهم العددى كفيل باحتمالها . وبعد أن دعا لهم لهم بالخير انسحب مسافة قليلة نحو مكان الخليفة وتساق طرف الخور الشمالى ليراقب العدو .

وعندما حاذى الرماحة مكانه على بعد ستمائة ياردة ، أشار بيده لحملة البنادق لفتح نيرانهم . ارتكز هؤلاء على الأرض ، وفتحوا نيرانا مؤثرة ، وبدأ فرسان العدو يتساقطون واحدا بعد الآخر . فقد كان المدى قريبا ، والهدف واضحا. وعندما ابطأت الكتيبة من خطواتها لتتمكن من اتخاذ تشكيل الهجوم ، خشى عثمان أن تكون نية العدو هى التوقف عن التقدم مباشرة نحوه أو الالتفاف حوله . فاشار بيده إلى حملة البنادق بايقاف الضرب . وتوقف هؤلاء على الرغم من أن فرسان العدو كانوا على بعد اربعمائة ياردة منهم . وعندما اكتمل اصطفاف العدو واندفعوا فى هجمتهم السريعة ، وأصبح لا مفر لهم من الاصطدام بمقاتليه ،

→appeared as if by magic, and as if arrived from no where Emirs on horse backs and around the mass of the enemy."

« لا زال المشهد منطبعا فى ذاكرتى كما كان منذ ربع قرن مضى .. لقد شاهدت أمامى صفا طويلا من حملة بنادق العدو يطلقون بنادقهم بسرعة وحماس . وقد غطى الدخان الأبيض صفوفهم .. فالتفت لجهة اليمين واليسار وتأكدت من صفوف فصيلتى — ثم انتقل بصرى نحو العدو مرة أخرى .. وفى تلك اللحظة القصيرة تغير المشهد أمامى فجأة .. حقيقة لا زال صف حملة البنادق أمامى يطلقون بنادقهم ، ولكن فجأة برز الموجود انخفاض مفاجىء للارض . ازدحم قاعه برجال نهضوا فجأة من قاعه حيث جلسوا مختبئين وبرز الامراء على ظهور جيادهم والاعلام تخفق وكأنما انشقت بطن الأرض عنهم . »

أمرهم بالنهوض من الأرض لتلقى الصدمة .

** ** ** **

غرس فرسان الرماحة مهاميزهم في الجياد ، واندفعوا نحو العدو وقد أشرعوا رماحهم الطويلة أمامهم.وانطلقت صيحة الهجوم من الفرسان فى الصف الطويل «[1]» وهو يندفع نحو الخور . فهنا صفان أو أكثر قليلا من العدو ، وسيتساقط بضعة فرسان وبضعة جياد من نيران العدو . ولكن العدو كان من المشاة ، وعدده ليس كبيرا وسيتم خرقه وتشتيته ، وعبور الخور الصغير والاندفاع لاتمام المهمة.ولكن فجأة تغير الموقف كله . فوراء صف الجنود الذى رأوه أمامهم برز آلاف المقاتلين من الخور كالنبت الشيطاني .. لا أحد يدرى كيف انشقت بطن الأرض عنهم . وبدلا عن الانخفاض البسيط الذى بدأ وكأنه يتساوى مع سطح الأرض ، ظهر

---

(١) كانت معركة أبو سنط منعزلة تماما عن بقية المعركة . الا ان هناك مراقبين راقباها عن كثب وتمكنوا من رؤية كمين عثمان دقنة قبل حدوثه . أحدهما هو المؤرخ محمد عبد الرحيم الذى كان يرقد على الأرض جريحا في خور أبو سنط وشاهد كل تفاصيل الصدام منذ تقدم الرماحة . أما الآخر فهو الكابتن بيتي قبطان الباخرة الذى شاهد عثمان دقنة وهو ينظم رجاله وادرك مع تقدم الرماحة انه يعد لهم كمينا .

فقد ذكر المؤرخ محمد عبد الرحيم أنه بعد اصابته في جبال كررى في اشتباك الملازمين عاد وهو يتوكأ إلى أن أتعبه النزيف فرقد على الخور . وفي طريقة سمع اشاعة تتردد وسط الجرحى ان عثمان دقنه والهدندوة هربوا وتركوا أرض المعركة . ولكنه سرعان ما شاهده ينظم رجاله وصوته العـالى يرتفع وسط الضجيج . وعنـدما سقط الرماحة في الكمين وأعمل الهدندوة فيهم السيوف شبه المنظر كان الهدندوة في تلك البرهة القصيرة وكأنهم يعرضوا « أي يقفزون في الهواء عالياً » وبعدها ينزلون سيوفهم الباترة على فرسان الانجليز بالضبط كما يفعلون فى رقصات الحرب » .

أما بيتى فقابله تشرشل بعد عشرين عاما وكان تشرشل قد أصبح وزيرا للبحرية وبيتي ادميرالا وقد حدث تشرشل عن انطباعه . « لقد شاهدت كمين العدو منذ لحظات الاعداد ولم أفهم بالضبط ماكان هو هدفه وسرعان ما أدركته عندما شاهدتكم تندفعون بخيولكم وامضيت لحظات عصيبة ، كيف انبهكم للخطر المخيف .. وفكرت فى أن أطلق مدفعي نحو العدو لتنبيهكم ولكن كان الاحتمال أقوى فى أن تصيبكم القذيفة . وبدأت اصرخ فيكم لا شعوريا واقفز في الهواء لتأخذوا حذركم ولكن بالطبع كان صياحي على بعد أميال منكم .

وسأله تشرشل « وعندما سقطنا وسط العدو . كيف كان المنظر » فاجابه : « آه يا صديقى .. كنتم بالضبط كحبات من الأرز تطفو فى قدح من الزيت المقلى . »

Churchil, W. My Early life, p. 193

أمامهم فجأة منخفض من الأرض يمتد عمقه لستة أقدام غطته الشجيرات ، كثير الانحناءات والكتل الرملية التى اندس أمامها وخلفها الفي مقاتل . وبرزت عشرات الاعلام والامراء على خيولهم يموجون وسط الحشد . وضحت الحقيقة المرة للكولونيل مارتن وهو مندفع على رأس كتيبته فى أقصى سرعة لجواده . وأدرك أى موقف تورط فيه . ولكن فات الأوان ، فلن يستطيع إيقاف جواده قبل وصوله للآلاف المتربصة ، دعك من إيقاف كتيبة . فلم يبق من مفر إلا زيادة سرعة جواده لعل قوة الاندفاع تمكنهم من شق طريقهم للطرف البعيد للخور .

أما صف البنادق الأول من رجال عثمان دقنة فاضطر إلى التقدم مدفوعا بضغط الحشود الخلفية التى وثبت للأمام للاصطدام بالعدو متجاهلة طبيعته الراكبة وصدمة خيوله ، منهم من رفع حربته ومنهم من وقف مشرعا سيفه لانزاله على أول جسم يصدم به ، وبعضهم رقد على ظهره فى الأرض وقد رفع حربته وسيفه فى الهواء لتصبح مانعا حادا باترا لكل من يمر فوقها .

تناقصت المسافة الفاصلة بين القوتين بسرعة .. وحل أخيرا الاصطدام المروع .. ويمكن تخيل قوة الاصطدام .. صف يبلغ طوله ٣٠٠ ياردة من الفرسان على جياد منطلقة بأقصى سرعتها مشرعة الحراب أمامها .. وصفوف أخرى من المشاة فى إنتظارهم . وعلى بعد ياردات من الخور التحمت القوتان . سقط ثلاثون فارسا من كتيبة الرماحة على الأرض من شدة الصدمة .. وكانوا بالطبع أسوأ الجميع حظا .. وسقط أكثر من مائة من صفوف عثمان دقنة .. ومرت ثوانى وكأن الدنيا قد توقفت عن الحركة . أما بقية الكتيبة فقد تمكنت فى اندفاعها الهائل من اكتساح صفوف حملة البنادق فى المقدمة .. ليس للطرف الآخر من الخور .. بل ليرتفعوا فى الهواء عاليا وتهبط الخيول بعد برهة بدت أطول من الدهر لعمق ستة أقدام فى قاع الخور حيث كان رجال عثمان دقنة فى إنتظارهم .. دام أثر الاصطدام الثانى ثوانى قليلة وبعدها هز كل من فى الخور نفسه من أثر الصدمة . وكانت خيول الرماحة الهاربة قد أوصلتهم للطرف الآخر للخور وبدأوا فى تسلق ضفته الجنوبية . وهنا فقط بدأ الالتحام . كان هذا شأن الفصائل الثلاثة التى شقت طريقها وسط رجال الهدندوة . أما فصيلة الملازم جرانفيل فى أقصى

اليمين والتى حاولت إختراق كتلة ربع التعزيز فى أكثف أماكنها، فلم يقدر لها ولا لخيولها عبور الخور واختراق أكداس التعزيز وابيدت كلها، تقريبا فقد واجهت الطرف الايسر لصف البنادق وبالتالى سقطت وسط كتلة ربع التعزيز السميكة . أما الفصيلة الثانية بقيادة الملازم تشرشل فقد هجمت واخترقت صفوف الهدندوة قليلة الكثافة التى مثلت نهاية صفوف عثمان دقنه اليمنى . أما قادة الفصائل الثالثة والرابعة فقد انثنوا لجهة اليمين للاصطدام مع العدو . فأصبحت السرية اليمنى وهى تندفع للأمام وفى نفس الوقت تنثنى اجنحتها للداخل كطرفى هلال .. أما السرايا الثلاث يسار السرية الأولى .. والتى تكونت من أثنى عشرة فصيلة فقد هجموا واخترقوا . . . . الهواء .

ارتفعت وإنخفضت الاسنة الباترة فى لمعات سريعة وهى تخلف وراءها خيوطا دموية فى وجوه وأعضاء الفرسان وخيولهم . وجهت الضربات للجياد . فمن غرس حربته فى اجسامها ، ومن الصق فوهة بندقيته على رقابها وأطلقها ليتهاوى الجواد وفارسه للأرض لتتناولهم الاسنة الباترة ، وتجمع عدة مقاتلين ممن أفقدتهم الصدمة أسلحتهم حول أحد الفرسان،وأمسكوا بقدميه لجره بالأرض..

ثلاثون ثانية كانت المعركة قد وصلت قمتها .. وتعالت أصوات سقوط الحديد على الحديد .. سيوف الهدندوة القصيرة .. مع حراب الرماحة الطويلة . فلم يعد هناك مجال لاستخدام البنادق .. ولم يجد الرماحة طبنجاتهم فما ارتفع ساعد ليصوب الا وبتر .. ولم تسمع فى تلك اللحظات إلا الهمسات السريعة للسيوف وهى تشق الهواء نحو أهدافها لا يقاطعها إلا بضع طلقات متقطعة من طبنجات الرماحة . وينزل السيف ليبتر كل ما يقابله ، لجام الحصان أو فخذ راكبه أو عنق الحيوان . وبدأت خوذات الرماحة تتساقط هنا وهناك ، وشوهد رجلان يتقاتلان بالايادى وأسلحتهم معلقة فى اجنابهم ، فالسلاح لم يعد يشفى غلة الحقد ولا بد من الامساك بخناق العدو . وزادت الخيول وهى تنطلق صاهلة بدون راكبيها من عنف الضجة ، فقد انطلقت يمينا ويسارا وهى تصطدم بالرجال من الجانبين وتلقيهم على الأرض .

قاتل رجال عثمان دقنة بشجاعة وبعزيمة عززتها الاحقاد القديمة . فمن من

هؤلاء لم يفقد عزيزا عبر رحلة السنوات الطويلة الدموية وراء قائدهم ؟ ولم تكن شجاعتهم شيئا جديدا فى ميدان كررى فالشجاعة كانت ظاهرة عامة ذلك اليوم .. أما الجديد فقد كانت هى القوة الوحيدة التى مكنتها قيادتها الذكية من الاشتباك والالتحام يدا بيد مع العدو .. ففى معركة كررى لم يكن السؤال هو كيف تقتل العدو .. بل كيف تصل اليه .. وفى سبيل ذلك سالت الدماء أنهارا وراحت آلاف الأرواح . ولكن دقنه مكن رجاله من الامساك بخناق العدو .. ولم يمسكوا بخناقه فقط ، بل اقتلعوا حنجرته فى غضبتهم الجارفة .

والواقع ان الجزء الأكبر من القوة التى تربعت داخل الخور لم تجد حتى فرصة فى الاقتراب من العدو والمساهمة فى المعركة ، فالحيز ضيق والآلاف متزاحمة للوصول للعدو . كانت معركتهم شيئا يختلف تماما عن ماجرى شمالها فى سهول كررى . فهنا معركة متكافئة .. ليس فيها بوارج لتقصف من بعيد ، ولا رشاشات مكسيم لتحصد الصفوف ولا شظايا مدفعية كتشنر بعيدة المدى، بل كان الرجال ضد الرجال والاسنة ضد الأسنة . وكان المقياس هو أقسى اختبار يواجهه البشر الشجاعة الخارقة التى لا تعرف قيودا ولا حدودا . وللعدل اجتازت كلا القوتين الاختبار بنجاح، لكن العقل والتدبير الذى وجه كلا القوتين الشجاعتين كان واضحا انه تمثل فى القوة التى اتجهت صفوفها شمالا .. ووقفت على قدميها .

وأخيرا استطاعت الخيول التى غرست المهاميز فى أجنابها حتى نزفت دماءها ان تنطلق بركابها إلى الأمام ، يدفعها جنون الألم ، عبر المانع البشرى . ووصلت بقـــايا الكتيبة إلى نهاية الخور والضربات تلاحـــق الفرسان من كل جانب إلى أن استطاعوا نفض اعداءهم خلفهم وإنطلقوا بنفس السرعة بضعة مئات من الياردات بعيدا عن منال أعداءهم .

دامت تلك المعركة الدموية بالضبط مائة ثانية . وضاعت ثوانى ثمينة من كلا الجانبين قبل ان يفيقوا من أثر الصدمة والدهشة، ويبدأ رد الفعل المتأخر، الرماحة لكى ينطلقوا بعيدا عن الكمين الذى سقطوا وسطه .. ورجال عثمان دقنه ليبدأوا تسديد الضربات . وطوال لحظات احتدام المعركة ، لم يلحظ الرماحة شبحا لرجل ملتحى جلس على فروته يرقب المعركة .. فقد كان الخليفة عبدالله

على بعـد ياردات من مكان الاصطدام . وشـهد المعركة من أولها لآخرها ولم يتحرك إلا بعد ان غادر الرماحة المنطقة . ولابد انه لم يستطيع السيطرة على فضوله لرؤية هذا العدو الجديد الذى طالما سمع عنه ولم يواجهه .. البريطانيين .

انطلق الرماحة خارج الخور وتوقفوا على بعد ثلاثمائة ياردة منه وبدأوا فى تجميع صفوفهم والانتظام مرة أخرى فى نفس التشكيل ، تشكيل الهجوم . أما عثمان فقد عاد مرة أخرى وسط رجاله ليعيد تنظيمهم الذى اختل بعد اختراق الفرسان .. عكس اتجاه جنوده بنفس الترتيب القديم . جمع من بقى من حملة البنادق ووضعهم فى الامام واتجهوا جنوبا ، ووضع وجمع صفوف السلاح الأبيض خلفهم .. وأمر حاملى البنادق بفتح نيرانهم على العدو بينما وقف حملة السلاح الأبيض خلفهم فى استعداد لتحمل الصدمة الثانية من الاتجاه المضاد .

ولكن اللكولونيل مارتن كان فاقدا الرغبه فى خوض تجربة مريرة مرة أخرى ، فجمع سراياه ووضع ثلاث سرايا فى تشكيل الهجوم والسرية الرابعة خلفهم فى تشكيل السرية الراكبة وانعطف لجهة اليمين ملتفا حول رجال دقنه . ثم توقف واتجه غربا بكامل مواجهته لفتح النيران على جنب عثمان دقنة . وبالطبع مكنتهم طبيعتهم الراكبة من اتمام المناورة بسرعة . ولكن رد فعل عثمان دقنه كان أسرع فقد أعاد تغيير مواجهته بسرعة ليحرم عدوه من صب نيرانه على جانبه الايسر فدفع برجاله غربا خارج الخور وعادوا واتجهوا شرقا بحيث اتخذت الصفوف زاوية قائمة مع الخور .وفى الواقع شكلت كل من القوتين زاوية قائمة مع موقعها السابق .. استمر اطلاق النار بضعة دقائق ولما طال التراشق (١) بالنيران جمع عثمان دقنه صفوفه للتقدم والهجوم على العدو . فلم يفصلهم عنه فى الاتجاه الجديد أكثر من ستمائة ياردة . ولكن الخليفة الذى امتطى جواده أمره بالكف ، فقد أدت قوته مهمتها وطلب منه التحرك وضم رجاله للراية الزرقاء خلف جبل سركاب فقد اقترب توقيت المرحلة الثانية ، ولم يكن عثمان دقنة بالغباء لكى يقود هجوما بمشاته على عدوه الراكب يفوقه سرعة وخفة وحركة . استمر تبادل النيران فى المواجهة الجديدة فترة قصيرة توقف بعدها من جانب الرماحة وتجمعوا مرة أخرى

---

(١) الخريطة رقم ٩ « الصدام سعت ٩٠٠ »

وعادوا بخطوة بطيئة متثاقلة شمالا إلى الزريبة .. يحملون موتاهم وجرحاهم .

بلغت خسائر كتيبة الرماحة سبعون رجلا بين قتيل وجريح ومائه وعشرون جوادا .. وبذلك فقدت قيمتها واهم مواصفاتها القتالية ككتيبة فرسان . بينما فقد دقنة ثلاثين رجلا . (١) .

** ** ** **

لقد أدرك دقنه ضعف موقفه وان المواجهة المباشرة مع العدو ستنتهى بابادة رجاله . وشاهد من مكانه آلاف الجرحى والموتى وهم فى طريقهم لامدرمان - ومنذ شهور احس باختلاف نوعية العدو الذى يواجهه عن اعدائه القدامى . وأدرك تفوقه الواضح فى أسلحة القتل الحديثة . فقد اختبره فى موقعة عطبرة .

أصبح الحل الوحيد أمامه هو الالتحام مع العدو بسرعة ، وعدم التعرض من مسافة بعيدة لنيرانه . فالتعرض كفيل بترجيح كفة العدو . كانت قوته بسيطة ، وأغلب تسليحه بالسلاح الأبيض . فكانت فرصته الوحيدة فى التعادل مع العدو تكمن فى تحقيق مفاجأة تكتيكية .

ان المفاجأة تعتمد دائما على عنصرين : الأول هو وضع العدو فى موقف لا يتوقعه اطلاقا سواء فى السلاح أو التوقيت أو الاتجاه أو حجم القوة ، والعنصر الثانى هو .. السرعة . أى بعد تحقيق المفاجأة يجب استغلالها وتوجيه الضربة الرئيسية قبل أن يفيق العدو . تماما كطعنة السكين السريعة ، حين تشاهد الدم .. قبل أن تحس بالالم .

لم يزد رجال دقنه عن ٧٠٠ رجل مسلحين بالسلاح الأبيض ، ولم يكن بمستطيع حماية كل المواجهة العريضة بين سركاب والنيل من اختراق طلائع العدو ، ولم يكن بمستطيع تأخيره وتعطيله طويلا . فكبر المواجهة من جهة وقلة قوته أجبرته منذ البداية على تجنب خوض معركة دفاعية تقليدية فى خطوط دفاعية عادية . اذن تحتم عليه اختيار الأرض التى تناسب مواصفات قوته . فاختار خور

---

(١) احصى كابتن برجز احدى عشر جمجمة فى موضع المعركة واذا طبقت عليها نفس النسبة السابقة نجد أن عدد خسائر عثمان دقنة كان ثلاثين رجلا .

أبو سنط فى أعظم اتساعه وعمقه لاخفاء قوته . وإلى هنا كان كل ذلك كمينا عاديا . ولكن الكمين يوضع فى العادة فى منطقة أو طريق يكون العدو مجبرا على اتخاذه . وكان تحقيق ذلك صعبا مع عدو راكب يتقدم عبر منطقة واسعة وله هو حرية اختيار طريقه لامدرمان . ولو سلك طريقا يمر بغير نقطة الكمين فمن الصعب اللحاق به ، أو تغيير الاتجاه والتحرك نحوه ، فقد كان عدوا راكبا — وذلك حدد النقطة الرئيسية في خطته . الا وهى جذب العدو نحوه وإلى مكانه هو بالذات . والمعلومات التى أوصلها له الخليفة بتقدم خيالة العدو حددت أسلوب معركته الخاطفة . فلم يكن هناك ما يثير شهية الفرسان مثل فلول بعيدة تتراجع مسرعة ويقف حائلا بينها وبين تلك الفلول صف صغير من حملة البنادق وبضع مئات من الرجال ، فلكى يشق فرسان العدو طريقهم وسط الصف الأول ، وهو الصف الوحيد الذى بدا لناظرهم ، كان لابد لهم من الاندفاع نحوه بسرعة شديدة لخرقه وبالتالى يجدون انفسهم وسط الكتلة البشرية فى قاع الخور . بالطبع كان عثمان دقنة معتادا على تكتيكات الانجليز وبالذات الفرسان . وما حدث كان بالضبط تكرارا لما حدث في طماى ضد جراهام حين دفع عثمان دقنة ببضعة صفوف اندفع نحوها فرسان جراهام تمكن عثمان بعدها من خرق الضلع الخلفى للمربع بمشاته حملة السلاح الأبيض .

وبعد ان ضمن جذب عدوه ، أعد العنصر الأول من المفاجأة « اعداد موقف يكون فيه المظهر غير المخبر » أى الظهور بمظهر يختلف عن الحقيقة ، مظهرا يعرفه العدو ويهيء نفسه له ليفاجأ بعد فوات الأوان بموقف آخر يختلف تماما . لقد أظهر دقنه للعدو صفا واحدا من البنادق بينما اخفى الجزء الرئيسى من قوته خلفهم مباشرة . وبدلا من صف تكون من بضع مئات فى مكان عالى ، وجد العدو نفسه غارقا وسط خضم بشرى مسلح يزيد عدده عن الألفين . اذن تركزت مفاجأته أساسا فى تمكنه من إخفاء حجم قوته الحقيقية .

أما العنصر الثانى ،السرعة ، سرعة توجيه الضربة القاضية . فالزمن وهو يمضى مسرعا فى العادة يشكل عاملا مضادا سلبيا فى العمليات المفاجئة . وكلما مضى، كلما تأقلم العدو على الموقف الجديد وبالتالى تبدأ الدماء تجرى فى أطرافه المتجمدة

المشلولة ، ويبدأ بعدها رد الفعل المضاد . وذلك العمل السريع يتطلب تهيئة وهندسة معينة من القوة بحيث تستطيع إنزال أكبر قدر من الضرر بالعدو ، بصب أكبر كمية من النيران، لو كانت العملية تتم بالأسلحة النارية، أو أكثر عدد من الأسنة الباترة في التحام لا يستطيع العدو منه فكاكا . وهنا أصاب بعض الخلل خطة عثمان دقنه ، وجانبه التوفيق لحد ما . فعندما إنحدرت كتيبة الرماحة من شاهق وهبطت، هبطت وسط خطوطه الرهيفة بدلا من الكتلة المتماسكة. والا لكان مصير الكتيبة هو الابادة التامة . فالفصيلة الوحيده التي سقطت وسط رجال التعزيز إبيدت عن آخرها . ولعل السبب كان هو إنشغال دقنه بتنظيم قوته المتضخمة ، فلم يلحظ عدم تطابق وموازاة صف حملة البنادق في اعلا « الطعم » مع الكتلة البشرية في القاع « المصيدة » فكان أن تحمل العدو جزءا هينا من عنف الضربة الرئيسية وبالتالي وجد الفرصة في استغلال الزمن لصالحه — فالملفت للنظر هو ان عنصر السرعة، ذلك العنصر المهم في المفاجأة ، وفره العدو في البداية بهجمته بالخيول وهي منطلقة في أقصى سرعتها، وكان من المفروض أن يتوقف ضرر عامل الزمن بالنسبة لعثمان دقنه بمجرد سقوطهم في الخور . فالخطة لو مضت كما قدر لها ؛ لكان الزمن تجمد بالنسبة للفرسان ولكان سقوطهم وسط الكتلة الكثيفة كفيلا بايقافهم وشل حركتهم نهائيا إلى أن تتم ابادتهم بسهولة .

كان عثمان دقنة رائعا سواء في تخطيطه لمعركته الصغيرة أو في ادارتها أثناء اشتعالها، بارعا في جذب العدو نحوه بحيث أظهر لهم جزءا قليلا من قوته ليغريهم بالهجوم .. موفقا في اختيار الأرض العميقة الواسعة في تلك البقعة من خور أبو سنط بحيث لم يعد للعدو مفر من السقوط فيها، استاذا في توجيه الضربات للخيل أولا بدلا من توجيهها للفرسان في ارتفاعهم النسبي عن الأرض، سريعا في رد فعله وتغيير مواجهته بسرعة لمواجهة نيرانهم .. حكيما في رفضه مطاردة عدو راكب .

⁂ ⁂ ⁂ ⁂

انطلق على الجلة وراء عثمان شيخ الدين ، وقد فصلته عنه اربعة أميال كاملة . واضطر لكي يصله من أقصر طريق ان ينحرف لناحية النيل وسط الرصاص

والشظايا المتطايرة التى وجهت نحو بقايا وجرحى عثمان أزرق . تمكن من قطع الميل الأول والثانى سالما . وعلى مسافة ميل من جبل كررى أصيب جواده وسقط فوقه الجواد . ترجل على من الجواد وانطلق مسرعا على قدميه والرصاص يتطاير حوله،واختار طريقه وسط المنخفض الهضبى بين دهم وأبو زريبه وأصبح معرضا كهدف قريب فى متناول نيران كل الزريبة ، ولكنه فضل ذلك الطريق ، فابتعاده عن النيل كان يحتّم عليه تسلق جبال كررى وبالتالى ضياع زمن أكبر .

وعندما اجتاز سلسلة الجبال اخيرا أبصر بالغبار الهائل الذى أثارته آلاف شيخ الدين وهى تحاول اللحاق برود وود . كان عثمان يبعد عنه أكثر من ميلين .

ضاعف على الجله سرعته إلى أن تمكن من اللحاق بمؤخرة جيش عثمان وتحدث مسرعا مع بعض الملازمين وهم فى ركضهم السريع فتعرفوا على شخصيته فاستطاعوا إيقاف أحد الفرسان فى الخلف وأنزلوه وامتطى الجله جواده وانطلق مسرعا للأمام شاقا الصفوف المضطربة للحاق بعثمان .

أما عثمان فمنذ تركه الجبال خلفه فى مطاردته العقيمة لبرود وود فقد تنازعه عاملان . احساسه بالخطأ فى الابتعاد كل تلك المسافة عن أرض المعركة . ولم يحس به كل الزمن فبين كل فترة وأخرى يبطئ برود وود وتتقارب القوتان ويكاد عثمان ان ينجح فى الاطباق عليها . . . ولكن برود وود سرعان مايضاعف سرعته ويمتد الفاصل مرة اخرى بين القوتين . اما العامل الآخر فهو تصميمه على الاشتراك باى طريقة فى المعركة وان ينال شرف تحطيم جزء من قوة العدو . فافلات الهجانة منه ونيران الزريبة التى صدته عند هجومه عليها ، جعلت كل تصميمه وغيظه ينحصر فى الخيالة التى انطلقت امامه .

أخيرا تمكن على الجله من الوصول لعثمان شيخ الدين وأبلغه أوامر الخليفة . فزاد شيخ الدين سرعة جواده وأرسل بضعة رسل لايقاف التقدم المسرع . وبعد زمن غير قصير توقفت الآلاف نهائيا وأنفاسها تتلاهث وعرقها يتصبب نتيجة للقتال المتواصل ساعة كاملة ، والركض السريع ساعة أخرى . فأمرهم عثمان بالجلوس على الأرض ليستريحوا وينطلقوا بعدها عائدين للمعركة الرئيسية .

* * * * * * * *

المرحلة الثانية

« ناس براهيم الخليل العيال الصغار روحوا للمقام الدايم . . . . واحنا يانا فوق خليلنا .. تبلدية وقعت .. تبلدية وقعت فوق الكفار » .

الأمير يعقوب سعت ٩٥٥ .

فى الثامنة والنصف أغلق السردار نظارة ميدانه ، وأعلن أن العدو قد هزم في المرحلة الأولى . وأصدر تعليماته ببدء التقدم نحو أمدرمان للوصول اليها قبل العدو المنسحب . ارتفعت أصوات الأبواق لتعلن الويته السته المتحصنة بالزريبة للتجمع خارجها والتحرك نحو امدرمان . استغرقت قوة السردار نصف ساعة لاعادة صرف الذخيرة لكل القوة ، وربع ساعة أخرى للتجمع والتهيؤ فى تشكيل المسير . كانت مخاطرة من السردار .. فثلثا العدو ما زال فى أرض المعركة سليما ، ولكنه كان على استعداد لتحملها . تقدمت الفرقة الانجليزية فى المقدمة ، لواء ليتلتون فى اليسار ، ولواء ووشوب فى اليمين . على أن يتبعهم لواء ماكسويل المصرى . ثم لواء لويس ، وأخيرا ماكدونالد .

كان ترتيب السير للتقدم الأصلى هو أن تتقدم الألوية خلف بعضها جنوبا حتى تتجمع وتصل الألوية المتقدمة إلى سركاب كوثبة أولى . وبعدها تأخذ الألوية مكانها غرب ألوية المقدمة فى تشكيل المعركة ، وتتقدم فى مواجهة عريضة نحو أمدرمان . ولكن السردار فضل أن تحتل الفرقة الانجليزية مواجهة أعرض ، خصوصا وقد كان هدفها الأول هو احتلال جبل سركاب كوثبة أولى ، حيث يمكنها احتلال تلك الهيئة المرتفعة من التحكم والسيطرة على ميدان ضربنار واسع ، وتفتيت أى نذر لهجوم مضاد قبل أن تتجمع . قرر السردار أن تتقدم ألوية الفرقة المصرية خلف ويمين مواجهة الفرقة الانجليزية بعيدا عن النيل منحازة إلى الغرب حيث كان التهديد متوقعا . وبذلك تقدمت كل حملة السردار فى شكل حرف «L» إنجليزى مقلوبا «⅃» لتكفل حماية مقدمة وأجناب التقدم من اختراق وتسلل العدو أثناء التقدم للوثبة الأولى .

أدى ذلك إلى بروز فراغ كبير بين الفرقة الانجليزية وباقي الألوية . سارع اللواء الثالث — لواء ماكسويل لسد تلك الثغرة . فضاعف من سرعته لمحاولة الاحتفاظ بالفاصل المعتاد . أما الألوية الخلفية ، فقد كان ماكدونالد أساسا ، وحسب ترتيب احتلال الزريبة ، أمام لويس . ولكن هنتر قائد الفرقة المصرية عدل الترتيب بحيث يبقى ماكدونالد في المؤخرة . فقد ترك أكثر قادته خبرة وكفاءة ليحموا مؤخرته . فلم يغب عن ذهنه الحشد الضخم الذى انطلق شمالا وراء برود وود . وكان هذا هو الخطر الحقيقى في رأيه ، أن تتعرض مؤخرته لهجوم من الخلف ، وكانت حمايتها تستلزم ، تحت تلك الظروف ، عملية منفصلة "Rear guard operation" ولكن كانت هنالك اسبقية عاجلة أخرى ، سرعة الوصول لامدرمان بكل قوته وكله أمل فى كسب السباق والوصول اليها قبل بقية جيش الخليفة . أما الفرقة المفقودة — الراية الزرقاء — فقد كان أغلب الظن أما أنها عادت لامدرمان لتدافع داخلها ، أو اشترك الجزء الأكبر منها فى المعركة الأولى . ظن السردار أن الخطر الذى يتهدده سينقض عليه من الخلف . وكان يجهل أن الخطر الداهم كان يجثم على مسافة قليلة من الوثبة المتقدمة ، ولا يفصله عنها إلا جبل سركاب الصغير ، فكل الراية الزرقاء كانت تحتشد خلف سركاب فى تلك اللحظة . لذلك قرر دعم مؤخرته التى تمثلت فى لواء ماكدونالد بأقصى ما تحتمله قيادة وادارة لواء مشاه من دعم بالنيران ، فالحقت لماكدونالد ثلاثة سرايا من المدفعية من أحدث قطع مدفعيته « ١٨ مدفع طراز ١٥ رطل » وعززت صفوفه بثمانية مدافع مكسيم ، كما حملت عربات الذخيرة المجرورة بالبغال بكميات ضخمة من الذخيرة « ٩٠٠ طلقة مدفعية » وأثقلت أحمال اللواء بالدرجة التى حدت من سرعة حركته لحد كبير . فقد شاهد السردار الأثر الماحق لتجمع نيران المدفعية والرشاشات ، وأدرك أن القول الفصل للنيران المركزة ، وليس للبنادق والسناكى وحشود المشاه .

تقدم لواءا الفرقة الانجليزية مباشرة نحو امتداد سركاب ، تدفع أقدام الجنود رغبة عارمة فى الوصول للقمة ، وارتياد المجهول ، ما أخفته عنهم كتلة سركاب .. مدينة امدرمان وحشود العدو . ولم يكن السردار بأقل رغبة منهم ،

وهو يركب في صفوف المقدمة بين لوائي الفرقة الانجليزية، يرفرف العلم المصرى فوقه وحوله أركانحربه .

وما أن انتظمت الألوية فى تشكيل التقدم حتى تعرضت من مسافة بعيدة لنيران كثيفة من قمة جبل سركاب حيث اتخذت عناصر استطلاع الخليفة مواقعها. أدار النيران الأمير خير السيد بعد إنضمامه لها . وأمضى تلك اللحظات فى نشاط محموم ، موزع بين ادارة النيران وتمرير المعلومات بسرعة تتناسب مع تلاحق الأحداث ، وبين تنظيم دفاعه عن الموقع .

لم يلتفت السردار ولا ألويته إلى نيران خير السيد — واستمر فى التقدم مسرعا للوصول للأرض العالية على امتداد سركاب . في سعت ٩٣٥ بدأ جواد السردار وهو يحاذي الصفوف الأمامية للفرقة الانجليزية — فى السير وسط الصخور الصغيرة التى تبعثرت أمام المنحدر الشمالى لامتداد جبل سركاب . وبينما إنشغلت مدفعية ماكسويل فى الرد على عاصفة الطلقات المنطلقة من قمة سركاب ، وبينما مواجهة الفرقة تتقدم فى منحدرات سركاب الجنوبية ، بدأت جماعات جرحى الرماحة تشق طريقها للخلف وسط طوابير الفرقة المتقدمة وهم يفسحون لهم الطريق ، ويرمقون الجرحى ووجوههم واعضاءهم المثخنة بالجراح باستغراب ، فلم يصل خبر هجمة الرماحة ونكبتها إلى الاسماع بعد ، والكل كان يعتقد ان حظ الجميع مثل حظه هو ، قصف ونيران تقصف بالآلاف من العدو من بعيد ، وهو آمن داخل زريبته .

** ** ** **

قطع الخليفة المسافة من خور أبو سنط إلى رئاسته الأصلية مسرعا ، فلم يكن موكبه كبيرا ، فقد مضى ليشهد هجمة الرماحة بدون حراسة تقريبا وهناك فقط أحس ان هجمة الرماحة كانت مقدمة لتقدم العدو نحو امدرمان . وها قد حانت اللحظة الحاسمة التى وفر لها أكثر من ثلثى جيشه . لم يكد الخليفة يصل إلى رئاسته حتى شاهد أربعة رجال يتقدمون نحوه وقد حملوا جثة وسطهم ، وقد تدلى الذراعان فى شكل الموت ، فسأل « جثة من هذه ؟ » فأجابه أحد الرجال انها جثة

أبراهيم الخليل . فأطرق الخليفة مدة من الزمن الزمن ثم رفع يديه وقرأ الفاتحة ، وقرأها من حوله في صمت وأمر فاحضر عنقريبه ووضعت عليه فروة الجلد وحملت عليه الجثة لدفنها بمنزله بامدرمان .

سرعان ما بدأت البلاغات تتوالى من خير السيد عن تقدم العدو نحو امدرمان — ووصلت أصوات الطلقات النارية إلى اسماع من كانوا في الرئاسة . لقد بدأ العدو في التقدم نحو امدرمان . وها هو الآن (مكشوفا) في السهل العريض بلا خنادق لتحميه ولا بوارج تسنده ، ولا نيران مدفعية أرضية ثابتة لتقف حائلا بينه وبين الفناء ، وحانت لحظة توجيه الضربة القاضية ، فليقذف نحوه اذن بالراية الزرقاء في التحام نهائي .. ولكن كان يجب أن يتم التحام الراية الزرقاء تحت وبعد هجوم وغطاء نيران شيخ الدين .. آه شيخ الدين .. أين شيخ الدين ؟! .

وصل علي الجلة في الوقت المناسب كعادته . وترجل عن جواده وكلاهما ، الرجل ، والجواد ، يتصببان عرقا ، وتتلاحق أنفاسهما . كان المجهود الذى بذله والمسافات التي قطعها ، تارة ماشيا ، وأخرى راكبا فوق طاقة البشر . أبلغ علي الجلة الخليفة بمكان عثمان ، وأنه في طريق العودة لأرض المعركة . ووقف علي الجلة بعد إنتهائه من تقدم تقريره وانتظر أوامر الخليفة .

أطرق الخليفة برأسه واستغرق في تفكير عميق ورأسه يعمل بسرعة . وخيم صمت ثقيل على كل رئاسته والجميع في انتظار قراره. كانت لحظة حرجه حاسمة، فالعدو كاد أن يصل إلى سركاب ، وعما قليل سيجد نفسه مدافعا ضد عدو متقدم. مدافعا ، وكل قوته النارية على بعد خمسة أميال . وها قد حانت اللحظة الحاسمة ، ولكن الخلل أصاب خطته بصورة غير متوقعة . فهجوم الراية الزرقاء ، المقدر له ان يشن بصورة مفاجئة ، وعند إنشغال العدو بنيران ثقيلة من الخلف يعززها هجوم فرسان من الراية الخضراء ، سيصبح هجوما لا تسنده غير القوة العددية والأسنة البيضاء .

كان السؤال هو ، هل يقذف بالراية الزرقاء في هجوم يفقد كثيرا من فرص النجاح ، ولكن في توقيت مناسب والفرصة لازالت سانحة ؟ أم ينتظر

شيخ الدين .. وشيخ الدين بعيد ، وحتى عندما يصل لا يدرى أحد أين سيكون العدو ، وفى أى موقف ، وهل يمكن اللحاق به قبل وصوله لامدرمان ؟

رفع الخليفة رأسه أخيرا وتحدث مع على الجلة وأسر اليه بتعليماته فانطلق على الجلة مرة أخرى نحو الأمير يعقوب .. إلى الراية الزرقاء .

**** *** *** ****

أما شيخ الدين فقد ترك رجاله ليستريحوا نصف ساعة قبل أن يأمرهم بالتحرك ثم تجمعت القوة مرة أخرى . الا أن الصفوف اختلت نتيجة تعثر الجموع المتعبة أثر الركض السريع والقتال المتصل خلال الساعتين الماضيتين . فقد شوهد الخيالة وقد اردفوا على كل حصان رجل أو رجلين متعبين . أما حملة البنادق فقد تبعثروا وسط القوة ، فقد كانوا أكثر الجميع إنهاكا بأحمالهم الثقيلة وجهدهم المتواصل خلال المعركة الماضية . وركب عثمان كالعادة متهاديا وسط المربع الذى كونه حرسه من الملازمين .

لم يتقدم عثمان جنوبا مباشرة ، بل انعطف للجنوب الغربى لينضم للراية الخضراء التى ظلت ساكنه طوال فترة الأحداث الرهيبة الماضية ، متمسكة بالمكان الذى احتلته . ولم يحاول عبد الله أبو سوار ان يساند عثمان فى مطاردته للخيالة .. ولم يحرك ساكنا وهو يرى ألوية كتشنر تتجمع جنوب جبل كررى . بل ظل مختفيا عن الأنظار والنيران ، منفذا أوامر الخليفة بدقة . وفى سعت ٩٣٠ لاحت طلائع شيخ الدين فى الأفق .

**** *** *** ****

بوصول السردار إلى سركاب اتخذت كل الحملة شكلها النهائى . ثعبان بشرى هائل اتخذ جسده الطويل زاوية حادة مع النيل (١) . ولكن بدلا من الرأس المدبب ، مثلت مواجهة الفرقة الانجليزية رأسا مسطحا ، والألوية الثلاثة تتقدم باستمرار لجهة الجنوب الغربى لتحاذى الفرقة الانجليزية ولتصبح فى زاوية قائمة مع النيل . ومن هنا بدأت الثغرات واتساع الفواصل تزداد تدريجيا . فقد كان على ماكسويل ولوائه يتقدم مباشرة خلف الفرقة الانجليزية ، ان يسرع ليأخذ مكانه عن يمينها فى سركاب ، ليمكن لويس وماكدونالد من الاصطفاف يمينه وليبدأ

---

(١) أنظر خريطة رقم ١٠ « المرحلة الثانية سعت ٩٣٥ »

التقدم جنوبا نحو امدرمان بمواجهة عريضة مكونة من خمسة ألوية . وعندما عدل قائد الفرقة المصرية فى ترتيب اصطفاف الفرقة مفضلا ان يضع ماكدونالد فى المؤخرة، اضطر ماكدونالد وهو المتحرك أولا من الزريبة لأن يتجه لجهة الغرب مباشرة ، بدلا من الجنوب الغربى ليتيح الفرصة للويس من خلفه ليتجاوزه . وبينما كانت الألوية الامامية تتدافع مسرعة لجهة الجنوب ، كان ماكدونالد يتجه غربا . وكلما مضى الزمن كلما ازداد الفاصل بين ماكدونالد وبين بقية الألوية وهو يتقدم بخطوة بطيئة مثقلا بالذخائر والمدفعية ، إلى أن أصبح الفاصل بينه وبين لويس ميلا كاملا .

فى سعت ٩٣٥ كان ماكدونالد بتقدمه برتل الألويه "In column of Brigades" قد توغل ميلين غربا، وأصبح أكثر ألوية السردار بعدا عن النيل وفى أكثر الأماكن ارتفاعا فى السهل العريض بين كررى وسركاب. وبذلك كان اللواء الوحيد الذى مكـــنه موقعه من رؤية نذر الهجوم المرتقب. فقد انكشفت لناظره فجأة كل الراية الزرقاء وهى فى لحظات التحشد .

أوقف ماكدونالد اللواء واتجه به ناحية الجنوب الغربى ، وبدأ فى تغيير اصطفافه وتحريك كتائبه لمواجهة الهجوم المرتقب الذى كان واضحا انه سيوجه نحوه ، وسيصبح بانعزاله أكبر ضحاياه . كان اصطفاف ماكدونالد أثناء التقدم كالآتى : شكلت ثلاثة كتائب فى الامام، أما الكتيبة الرابعة فقد أخذت مكانها فى الخلف . الكتيبة الحادية عشر السودانية فى اليسار ، الكتيبة المصرية الثانية فى الوسط ، ثم الكتيبة السودانية العاشرة فى اليمين . أما الكتيبة السودانية التاسعة فتقدمت يمين وخلف الكتائب الامامية . تقدمت كل كتيبة باربعة سرايا فى الأمام وسريتين فى الخلف . بينما أخذت مدافع سرايا المدفعية الثلاث مكانها محاذية للكتيبة الخلفية « ١٨ مدفع » ، ثم خلف الجميع تقدمت جماعات المكسيم « أربعة جماعات أى ٨ مدافع » كانت نية ماكدونالد ان يتجه بهذا التشكيل لجهة الغرب إلى أن يتجاوزه لويس ، وبعدها يحول اتجاه لجهة الجنوب ليأخذ مكانه فى تشكيل الجيش كله ، ومن ثم يسهل تغيير التشكيل لتشكيل المعركة "In Line" أى وضع الكتائب الأربعة فى صف واحد .

وفى سعت ٩٣٥ ، عندما أبصر ماكدونالد تحشد الراية الزرقاء أمر الكتائب بالاصطفاف في المقدمة . وقبل أن تبدأ في التحرك لتنفيذ أوامره أمر أقرب سرية مدفعية بفتح نيرانها فورا وبدون تصويب نحو الراية الزرقاء .

انطلقت دانة ماكدونالد الأولى نحو الراية الزرقاء من مسافة ١٥٠٠ ياردة ولازالت صفوفهـا تتجمع ، ثم فتحت كـل مدفعيته نيرانها على الراية الزرقاء. وبينما البطاريات منشغلة بالقصف المتواصل ، كانت كتائبه تتدافع لأخذ مكانها في الاصطفاف الجديد . بعد قليل كان كل لواء ماكدونالد قد اصطف في الخط الأمامى متجها للجنوب الغربى . وضع ماكدونالد كل مدفعيته في الخط الأمامى بين السرايا «٢٦ قطعة مدفعية – ١٨ مدفع و٨ رشاشات » وبذلك أصبح اللواء في مواجهة بلغ طولها ١٥٠٠ ياردة توفرت لها الفرصة لانتاج أكبر كمية من النيران الأمامية ، نيران الرشاشات والبنادق ، وبدأ في قصف الهجوم حتى قبل أن يبدأ .

اتخذ لواء ماكدونالد الاصطفاف التالى : مدفعين مكسيم فى أقصى اليسار فالكتيبة السودانية الحادية عشرة ، ثم بطارية الميدان الخامسة ، فالكتيبة المصرية الثانية ، تتوسط سراياها سرية الميدان المصرية الثانية ومدفعي مكسيم . وبين الكتيبة المصرية الثانية والسودانية العاشرة ، احتلت سرية المدفعية المصرية السابعة ومد فعي مكسيم مواقعها . وفى أقصى اليمين وضع الكتيبة السودانية التاسعة وضم لمجموعتها مدفعي مكسيم . وفى كل كتيبة وضعت أربعة سرايا في الخط الأمامى وسريتين في الصف الخلفى .

عند اقتراب السردار من قمة سركاب ، ارتفع فجأة صوت دوي عال طغى على طقطقة نيران الأسلحة الصغيرة الصادرة من قمة جبل سركاب . كانت تلك دانـة ماكدونالد الأولى التى اطلقها نحـو الراية الزرقـاء . التفت السردار للخلف فشاهد كل لواء ماكدونالد وقـد توقف – وبدأ في تغيير اصطفاف السير

"Column of Brigades" إلى اصطفاف المعركة "In Line" وفى لمـح البصر أدرك الموقف. وعلم ان عدوه قداطبق على ظهره. وسرعان مازايل السردار بروده وجموده واشتعل حماسا ونشاطا وهو يتواثب بجواده هنا وهناك، متجاهلا قادة الفرق وقادة

الالوية أحيانا ليتصل بقادة الوحدات ، مبعثرا الألوية وكأنها قطع من الحصى . وبدأت مناورة السردار الصعبة .

كان الهدف النهائي للسردار في تلك اللحظة هو وضع كل ألويته الخمسة ومدفعيته في خط دفاع واحد صلب يتجه غربا بدلا من اتجاه الجنوب ، ليتيح لنيرانه أكبر مجال كما فعل في الزريبة ، وان يقفل كل الثغرات التي برزت بين الألوية أثناء التحرك . انطلق بجواده أولا للفرقة الانجليزية ، أقرب الفرق اليه وكانت مقدمتها قد شارفت الوصول لأعلى امتداد جبل سركاب الشرقي . وأمر لواء ووشوب ، متخطيا قائد الفرقة ، بالاسراع جريا لنجدة ماكدونالد ، وأن يعكس اتجاهه لجهة الجنوب لاحتلال مكانه يسار ماكدونالد لاطالة مواجهته القصيرة أمام مواجهة الراية الزرقاء العريضة الكثيفة ، وليسد الثغرة بين ماكدونالد ولويس . تحرك اللواء ليقطع كل تلك المسافة جريا وقد ترك معداته للواء ماكسويل — ثم أسرع السردار بنفسه للويس آمرا اياه بتغيير مواجهته غربا بدلا من اتجاه تقدمه للجنوب لمؤازرة ماكدونالد والتصدى بمدفعيته للراية الزرقاء « اشتملت مدفعية لويس على ثمانية مدافع وبطارية مكسيم » وأخيرا أمر السردار لواء ليتلتون الانجليزى ولواء ماكسويل بتحويل مواجهتهما غربا بدلا من الجنوب ، وتسلق قمة جبل سركاب الرئيسية ، للهجوم على الجانب الأيمن للعدو الكامن خلف الجبل (١) .

وسرعان ما بدأت الألوية في تنفيذ مناورة السردار . لواء ماكدونالد في مواجهته العريضة ، وقد اتجه للجنوب الغربي للتصدى للهجوم ، وعلى مسافة كبيرة منه توقف لواء لويس وقد اتجه غربا ، ولواء ووشوب في الطريق مسرعا لسد الثغرة بين ماكدونالد ولويس . في تلك الأثناء وصل لواءآ ليتلتون وماكسويل بكل مدفعيتهما ورشاشاتهما لقمة جبل سركاب وقد انتشرت الكتائب في مواجهة عريضة ، وبدت لنظر الاسطول على النهر ، والخليفة في رئاسته على السواء ، كجدار بشري طويل يزحف للغرب طوله أكثر من ٤٠٠٠ ياردة متساوى الارتفاع على طول السهل ، مع انحناء مفاجيء لاعلى حيث تقدم لواءآ ليتلتون وماكسويل وهما على قمة وجانبي سركاب .

---

(١) انظر خريطة رقم (١٠) المرحلة الثانية سعت ٩٣٥

وفي سعت ٩٤٥ . كان جيش كتشنر ، ما عدا لواء ووشوب الذى كان يركض مسرعا لسد الثغرة ، وكل مدفعيته ورشاشاته الأرضية قد فتحت نيرانها على مواجهة وأجناب الراية الزرقاء قبل أن تندفع فى الهجوم الرئيسى خلف يعقوب.

** ** ** **

أمضى يعقوب نصف الساعة الأخيرة منذ التاسعة ، فى إعادة تنظيم صفوف رايته . فخلاف قوته الأصلية ، وبانضمام فلول معارك الشمال ، والتعزيزات التى وصلت أخيرا لامدرمان أصبحت الراية الزرقاء تضم اشتاتا متباينة من البشر انقسمت إلى أحدى وخمسين راية تفاوتت قوة كل راية بين ألف وخمسمائة وخمسة وعشرين رجلا . كادت صفوفها تختفى تحت مئات الرايات التى مثلت ٤٩ قبيلة وفروع قبائل مختلفة . أما القادة المباشرون فكانوا ١٥١ أميرا و٢٦٩ رأس مية . لم تعدم الراية الزرقاء بين صفوفها اسماء أمراء كبار وقادة وحكام مناطق وصلوا للاشتراك فى المعركة ، عثمان الدكيم . محمد المهدى الابن الأكبر للمهدى ، محمد ود بشارة ومحمد الزاكى عثمان « بعد الافراج عنه » .وبالإضافة إلى تلك القوة المتباينة العناصر ، كان موقع يعقوب فى الساعتين الأخيرتين ، كاحتياطى خلف جبل سركاب وبعيدا عن المعركة ، ملجأ للجرحى وحملة الموتى وبقايا هجمات المرحلة الأولى . وأخيرا انضم اليها الربع الذى اشترك فى معركة خور أبو سنط ووصل بعد الخليفة مباشرة . ولكن كانت تلك الاعداد الكبيرة قليلة الأثر من حيث القوة النارية فلم يتوفر فى صفوفها أكثر من ألف بندقية ومن أنواع شتى ، بنادق صيد الأفيال ، وأبو لفتة ، وحثالة ترسانة الخليفة من البنادق، فكل البنادق الصالحة والحديثة نسبيا — بنادق « رمنجتون » — أخذها شيخ الدين لتسليح الملازمين .

تمكن يعقوب أخيرا من تنظيم صفوفه ثم استدعى أمراء الرايات وأوضح لكل منهم مكانه . اصطفت قوته فى مواجهة طولها ٤٠٠٠ ياردة وخلفها حوالى ٢٣ صفا فى عدم إنتظام واضح — فحشود الراية الزرقاء لم تكن كالملازمين المدربين بل وصل أغلبهم من غرب السودان حديثا — وتكدس فرسانها حول أجناب ومقدمة المشاة .

وأثناء انتظار تعليمات الخليفة بالهجوم ، تمكن يعقوب من مشاهدة لواء ماكدونالد منفردا في أقصى لحظات انحرافه للغرب . ولم يتمكن بالطبع من رؤية باقي الألوية ، لنفس الأسباب التي أخفته هو ، وقوف سركاب حائلا بين الخصمين.

وقف يعقوب وقد نفذ صبره وبدأ يضيق ذرعا وهو يرى العدو يمر من أمامه ، واللحظة المناسبة كادت أن تفلت . دل تزايد أصوات الطلقات من القمة عــلى اقتراب مقدمــة العــدو من سركاب ثم بدت طلائعه ممثلة في سريتين في خط الأفق على القمة وهم يدفعون من كانوا يحتلونها ، ويتقدمون بثبات نحو موقع الراية الزرقاء . وهنا صاح محمد المهدى من مكانه في الجناح الأيمن وهو يرى الجنود يتقدمون نحوهم « إلى متى ننتظر .. إلى أن يمسكونا بأيديهم ؟ » ثم اطلق جواده نحو سركاب (١) وحيدا. سرعان ما انفصل جزء كبيرا من فرسان الراية الزرقاء الذين كانوا في الجناح الأيمن بقيادة عثمان الدكيم ومحمد ود بشارة واندفعوا خلف محمد المهدى لا تفصلهم منه إلا مسافة قصيرة . كادت طلائع لواء ماكسويل ان تصل الانحدار الخلفى لسركاب وهم يطلقون النار بلا إنقطاع من البنادق ، ومن مدفع مكسيم احتل موقعه في قمة الجبل ، بدأت نيرانه السريعة في حصد الفرسان المندفعين لأعلى الجبل. أصيب جواد محمد المهدى فتهاوى

---

(١) من تطابق الروايات المحلية المختلفة ومن مواقع القبور الآن يتضح ان محمد المهدى اندفع شرقا مباشرة وواجه طلائع ماكسويل المبكرة الممثلة فى سريتين ولم ينتظر أوامر الهجوم العام من يعقوب . وبينما نجد قبر يعقوب الآن يقع بالضبط فى خط سير اقتحام الراية الزرقاء ، نجد ان قبر محمد المهدى يبتعد قليلا عن خط سير اقتحامه . الاحتمال الأقوى ان من دفنوه أخذوه بعيدا عن صخور سركاب إلى بقعة ظليلة ودفن هناك . كما يؤيد ذلك الشيخ بابكر بدرى « وصاح محمد المهدى إلى متى ننتظر .. إلى ان يمسكونا بأيديهم » أى هجم محمد المهدى على عدو متقدم قريب وماكدونالد كان على بعد ١٢٠٠ ياردة وكان ثابتا . ويؤيد ذلك تقرير قائد الفرقة المصرية هنتر باشا :

"At 9.54 hr. I ordered two companies of the 13th Bn. to clear signal hill" which they did and surprised a body of enemy who were climbing up the other side of the hill in support of those on top – Egyptian Division OC Report Cairint 1/60/320

دار الوثائق المركزية

« فى سعت ٩١٥ أمرت سريتين من الكتيبة الثالثة عشر باحتلال جبل الاشارة » يقصد بجبل الاشارة سركاب فقد استخدم من قبل لاقامة عنصر اشارة » وعندما احتلوه واجهوا جماعات من العدو تندفع للامام نحو المنحدر الخلفى لتعزيز من كانوا فى القمة . »

إلى الأرض وقفز راكبه من الجواد وقد امتشق حسامه (١) وهجم وحيدا راجلا وبقية الفرسان على مسافة خلفه إلى أن أصيب بعدة عيارات نارية فسقط على الأرض(٢) وسرعان ما تهاوت البقية الباقية من جميع من هجموا فى محوره ومن ضمنهم ود بشارة ، وود الدكيم .

كل هذا ويعقوب يقف وقد نفذ صبره فى إنتظار هجوم شيخ الدين ليتطابق الهجومان ، أو وصول (٣) أوامر الخليفة بالهجوم . أخيرا وصل على الجلة يحمل تعليمات الخليفة بأن يسلم الراية لود الدكيم وان يبلغ لرئاسة الخليفة فى الخلف .

كان الأمير يعقوب على صهوة جواده ، ولم يكن يحمل سلاحا خلاف حربة طويلة ، وخلفه مباشرة تجمع حرس الراية الزرقاء حولها وهى ترفرف عاليا . أطرق الأمير يعقوب مدة طويلة ثم رفع رأسه والتفت إلى الخلف لرئاسة الخليفة. كان مكانه يبعد حوالى ١٨٠٠ ياردة من الرئاسة ومن هناك رأى جثة مغطاة بعمامة

---

(١) الشريط رقم «٣» أقوال الحاج أمين أحمد شرفي . تؤيد هذه الواقعة سقوط جواد محمد المهدى واندفاعه بقدميه نحو العدو لأن زوجته عندما ذهبت لأرض المعركة بعد بضعة أيام لدفنه وجدت الطين عالقا بقدميه وحذاءه مما يؤكد هجومه مترجلا بعد سقوط جواده .

(٢) أنظر خريطة رقم ١٠ « المرحلة الثانية سعت ٩٣٥ »

(٣) يستطرد قائد الفرقة المصرية جنرال هنتر فيذكر ان لوائى ماكسويل وليتلتون وصلا لقمة سر كاب ووجها نيرانهما من هناك نحو الراية الزرقاء قبل هجومها المسدد نحو ماكدونالد ويؤكد ذلك أن الراية الزرقاء بقيادة يعقوب وقفت تنتظر متجمده إلى أن امرها الخليفة بالهجوم .

"935hr. – The actual situation now appears to be as follows:

A force of dervish spearmen and horsemen with a black flag were about 600 yards on the desert side of the signal hill. Macdonald Brigade about 1200 yards from this force and halted. Maz well Brigade on signal hill and climbing the slopesof the ridge – Lewis Brigade ordered to change front to the right on the slopes of the signal hill to enfilade the force of dervishes with the black flag, and all commenced fire while advancing."

« سعت ٩٣٥ : كان الموقف كالآتى :

على بعد ٦٠٠ ياردة غرب جبل الا شارة « جبل سر كاب » وقفت قوة يميزها علم أسود و كانت تبعد حوالى ١٢٠٠ ياردة من لواء ماكدونالد بعد توقفه . لواء ماكسويل يتسلق منحدرات سر كاب . بينما حول لويس مواجهته لجهة اليمين لفتح نيرانه على الراية السوداء . وفتح الجميع نيرانهم وهم يتقدمون » .

وضعت في عنقريب الخليفة وحملها بغل وقد اتجه الركب الصغير نحو امدرمان ، فأدرك انها جثة شخصية مهمة . التفت الأمير يعقوب إلى من حوله وتساءل « الشايلنه دا منو » فأجابوه بأنها جثة الخليل . فصمت لحظة ثم رفع حربته (١) عاليا وصاح « الأنصار ... يا أسفاه ؟ ! أنحنا يانا فوق خيلنا والعيال الصغار ناس ابراهيم الخليل روحوا للمقام الدائم .. واحنا يانا فوق خيلنا وماسكين راياتنا .. تبلدية وقعت فوق الكفار .. تبلدية وقعت .. ارفعوا راياتكم واطلقوا خيولكم . »

---

(١) كانت تلك اللحظة لحظة مهمة وحاسمة في المعركة ، ومثلت الانفصام الزمني والخلل النهائي في خطة الخليفة . ولذلك كان يجب معالجة ظروفها بتفصيل وتدقيق أكثر :

هناك ثلاثة روايات تدعمها اسانيد قوية عن ما جرى في تلك اللحظة – خلاف روايات أخرى متعددة عوملت كاقاويل . أما الرواية المذكورة اعلاه فهي رواية شاهد عيان . رواية العمدة آدم يوسف الذي كان يقف على بعد امتار قليلة من يعقوب وتلك هي الالفاظ التي سمعها باذنه وأكد لي أنها نفس الالفاظ وهو يذكرها وكأنه سمعها قبل دقائق .

« شريط سجل لاقوال العمدة آدم يوسف – ياما – بحر العرب ١٣ يناير ٧١ » ولذلك وجدت نفسي مجبرا على اعتبارها « البينة الرئيسية »

أما الرواية الثانية فهي رواية الحاج امين أحمد شرفي نقلا عن علي الجلة . ومفادها أن علي الجلة عندما وصل ليعقوب وأخبره ان الخليفة يطلب حضوره من الخلف ، وبينما يعقوب يتساءل هل هذا زمن يطلبني فيه ، وكل الراية مستعدة للهجوم اذ حانت منه التفاتة فرأى أن هناك فارسا وحيدا « دفر » بمعنى هجم هجوما منفردا "Individual Charge" فسأل عن من هو فاجيب أنه محمد المهدي .. فهتف قائلا بحسره «سبحان الله كان ود المهدي الصغير سخي بالموت.أنا يعقوب الكملت شبابي وشيبي في خير الدنيا منتظر حياة بعد دا ! .. .. قول لي خليفة المهدي ودعناك الله ورسوله والملاقاة في الآخره . »

« شريط سجل لاقوال الحاج امين أحمد شرفي . قطعة رقم «٣» ود نوباوي ٧١/٥/١٨ »

كما ترى أن تلك الرواية لا تختلف عن الرواية الأولى في مغزاها الا في اختلاف حسرة يعقوب هل انصبت على « دفرة ود المهدي » أم على « جثة ابراهيم الخليل » وكلا هما بالطبع شبان صغار السن وتؤيد رواية الشيخ بابكر بدري هذه الرواية .

أما الرواية الثالثة رواية يوسف ميخائيل ويمكن أخذ أقواله بجدية أكثر في هذه الحالات . فالثابت ان يوسف ميخائيل كان أحد امراء الراية الزرقاء ، وأحد الكتبة واشترك في معركة امدرمان فتقول الآتي :–

« بقينا احنا ناس الراية الزرقاء أم الدين راية سيدنا . الذي علينا مدار الأمل وبنجيب النصر مع الأمير يعقوب واقفين وشايلين « كلمة غير واضحة » . عند ذلك أرسل الخليفة وطلب أخيه يعقوب وقال له الراية ينزل بها ود الدكيم وانت احضر داخل القلعة . عند ذلك قام يعقوب غضبان وقال أنا عبدك يارحمن . وضرب طبل الحرب وقال يا يوسف هذا يوم شنو » قلت يا سيدي اليوم الذي يرضاه الرحمن ليس عندنا الا الحرب والقتال كان واقف معاي عبد المعطي ماطوس والآن في موجود وهو لي

ثم إنطلق يركض بجواده على طوال مواجهة الصف الإول وهو يكرر « تبلدية وقعت فوق الكفار .. تبلدية وقعت فوق الكفار » وردت الصفوف الأولى عليه بهز بنادقها وسيوفها عاليا فوق رؤوسها ، ثم عاد لمكانة الأول واتجه لجهة الشمال الشرقى نحو العدو ورفع حربته عاليا .. ولكز جواده وانطلق عبر السهل الواسع نحو لواء ماكدونالد، وانطلقت كل الآلاف فى الراية الزرقاء خلفه منحدرة هادرة فى اتجاه العدو . وبدأت بذلك المرحلة الثانية .

انطلق يعقوب بأقصى سرعة لجواده جنوبا للوثوب نحو ماكدونالد . كان يسبق الصف الأمامى بمسافة غير قصيرة منطلقا غير مبال بقذائف المدفعية التى انهالت على الراية الزرقاء بتركيز شديد من الأمام ، ومن جهة اليمين . . قد تنطلق قذيفة هنا وهناك قريبا منه ، وتحت شدة الانفجار والدوى العالى وتعالى الغبار والشظايا يقف جواده لثوانى قصيرة إلى أن يتبدد أثر الانفجار فيلكزه مرة أخرى وينثنى لجهة اليمين أو اليسار ثم ينطلق للأمام مرة أخرى وحربته مشرعة عالية أمامه ، وخلفه أثنا عشر ألف رجل .

أدى اندفاع يعقوب السريع إلى تشتيت قواته لثلاث كتل بشرية ضخمة منطلقة بسرعة: فى اليمين كتلة صغيرة تتدافع صفوفها شرقا نحو سركاب لأخذ مكان من سقطوا فى الهجوم المبكر والتصدى لهجوم لوائى ماكسويل وليتلتون. كتلة أخرى اتجهت للشمال الشرقى مباشرة نحـــو الثغرة التى فصلت بين لوائى ماكدونالد ولويس ، والتى كان لواء ووشوب يركض مسرعا لسدها، أما الكتلة الرئيسية فى اليسار فقد انطلقت خلف يعقوب وهو يندفع للأمام لا يلوى على شيء.

أما الكتلة (١) اليمنى ، فقد تفتت اندفاعها أمام نيران الالوية المتقدمة عبر سركاب ، فتقهقر من بقي من الجرحى غربا . أما كتله يعقوب فقد بدأت المسافة

شهود . عند ذلك نزلنا سويا لما تقدم بحصانه تقلنا رجلينا بقينا فى آخر الجيش .. »

وهناك رواية أخرى متطرفة تقول أن محمد المهدى عندما هجم على سرايا مكسويل صاح فى وجه يعقوب وهو ينطلق بجواده بصوت سمعه الجميع « يالضايقين حلوها مرها ضوقوه » فاستفزت الكلمات يعقوب فلم يطق صبرا بعد هذا فهجم ، ويمكن تجاهل هذه الرواية الأخيرة فالثابت ان هنالك فاصلا زمنيا كبيرا بين هجوم محمد المهدى وهجوم يعقوب .

(١) أنظر خريطة رقم ١١ المرحلة الثانية سعت ٩٠٥٥ .

بينه وبين بقية الصفوف تتمدد لاختفاء جزء كبير من الصفوف الأمامية ومن الاجناب التي تعرضت لنيران جانبية من لوائى ليتلتون وماكسويل ، ونيران مدفعية جبل سركاب التي كثفتها إنضمام البطارية ٣٢ وجماعة مكسيم كان لها أثر قاتلا من ذلك الارتفاع .

وفى الواقع إنحصرت الراية الزرقاء ، عندما تمددت منطلقة خلف يعقوب ، بين خط نيران تجاوز طوله ٤٠٠٠ ياردة تمثل فى ثلاثة الوية — ليتلتون — لويس ماكسويل . امتصت تلك النيران جزءا كبيرا من صدمة الهجوم نحو ماكدونالد ، وخففت من أثره لحد بعيد . وعلى الرغم من تحمل ماكدونالد لجزء هين من صدمة الهجوم الا ان نيرانه الامامية أكملت الباقى . فقد شاهدت العدو قبل الجميع . كما كانت أقدامهم ثابتة على الأرض وتمكنوا من التصويب الدقيق المتواصل . فالضرب لم يكن هذه المرة أرشاقا بالجماعات .. بل منفردا ، وبأقصى سرعة أما مدفعية ماكدونالد فقد اطلقت طلقات المنثار "Sharpnel" فى المدى البعيد، ولكن عندما اقتربت الصفوف المقتحمة واصبحت فى مدى ٤٠٠ ياردة — استبدلت بالذخيرة خرطوش شظايا "Case shot". أطلق لواء ماكدونالد وحده فى تلك الدقائق المعدودة أكثر من ٤٥٠ دانه كان أثرها فتاكا . فالقلة فقط تمكنت من التسلل عبر قطع الشظايا الكثيفة ، ما تساقط منها من أعلى "Sharpnel" (١) ومن اندفع من الامام مباشرة (خرطوشة الشظايا) الـ "Case shot" وعند إنضمام نيران رشاشات ماكدونالد الثمانية التى فتحت نيرانها منذ البداية ، بدأت الكتل تتناقص بسرعة كلما اقتربت من السياج البشرى وألسنة اللهب التى انطلقت منه .

** ** ** **

أين كان شيخ الدين فى تلك الأثناء ؟ أخيرا قبل العاشرة بدقائق شوهد بضعة

(١) أوضح تقرير قائد مدفعية السردار الذى كان فى تلك اللحظة ضمن مجموعة لواء ماكدونالد أثر المدفعية .

"The effect of shrapnel and case shot was tremendous. I personally withnessed and directed it."

Chief of Arty Report, Col Longe, Cairint 1/60/30

« كان أثر مدفعية الشاربنيل والكانستر ماحقاً . كما شاهدته أثناء ادارتى للنيران . »

دار الوثائق المركزية .

أفراد يتقدمون بين فتحات جبال كررى ، كانت هذه هى طلائع شيخ الدين المنهكة . ولكن مسافتهم من أقرب قوة للعدو - لواء ماكدونالد - كانت أكثر من ميلين . كما كان أمامهم مانعا طبيعيا ليعبروه ، كل سلسلة جبال كررى . وعندما استعدت قوة أبو سوار وعثمان شيخ الدين المتحدتان للتقدم لشن المحور الثانى للمرحلة الثانية والذى كان مقررا له أن يتم حسب الخطة فى نفس اللحظات ومتطابقا مع هجوم يعقوب ، كان هجوم الراية الزرقاء يلفظ أنفاسه الأخيرة . وعندما التفتوا لجهة اليمين جهة النهر لاحظوا عاصفة من الغبار تتحرك من جهة النهر نحو أرض المعركة . كانت تلك خيالة برود وود التى أمضى زمنا طويلا فى مطاردتها ، وقد عادت بالطريق الأقصر - طريق النهر - بعد أن وثقت من أنه كف عن مطاردتها .

* * * * * * * *

إجتازت ألوية السردار سركاب ووصلت صفوفها المتقدمة إلى الأرض المسطحة التى امتدت غرب سركاب . وفى تقدمها تحت غطاء نيران المدفعية من القمة لم يقف فى طريقها مباشرة الا الفراغ الذى خلفه اندفاع الراية الزرقاء للأمام - تبعثر فى ذلك الفضاء بضعة مقاتلين هنا وهناك وأغلبهم من الأفراد الاداريين "Camp followers" والعجزة كبار السن - كانت تلك الثلل البسيطة هى العقبة الوحيدةالتى فصلت بين الالوية المتقدمة وبين آخر مجموعة منتظمة فى ساحة المعركة فى تلك اللحظة .. رئاسة الخليفة وحرسه الخاص .

وقف عبد الرحمن أحمد على صهوة جواده وسط تلك الثلة . لقد أصم دوى الانفجارات المتلاحقة أذنيه ، وأحس باندفاع الراية الهائل خلف يعقوب ، وسمع اسم شقيقه أبراهيم الخليل يتردد أكثر من مرة . التفت وسأل من كان بقربه « أين الخليل ؟ » فأجيب أن الخليل استشهد . وسأل أين يعقوب ؟ فأجيب أن يعقوب « دفر » نحو العدو . فسأل أين الكفار ؟ فأجيب أنهم أمامه . فطلب منهم أن يوجهوا الجواد نحوهم . فأدار أحدهم لجام الجواد إلى أن اتجه للعدو ، فهمز عبد الرحمن الحيوان وفرقع صوته فوق رأس الجواد وانطلق به مباشرة نحو العدو ، وقد أشرع حربته أمامه والطلقات تتطاير حوله إلى أن اصطدم بصف الجنود

المتقدمين من صفوف ماكدونالد وأسقط الاصطدام عدة جنود قبل أن تخترقه عدة سناكي فسقط الجواد على الأرض وسقط فوقه راكبه .. الأعمى .

*** **** **** ****

وأخيرا اختفت الصفوف التى أمضى يعقوب الساعات الأخيرة فى تجميعها وتنظيمها. وحلت محلها جماعات وثلل وافراد كانوا هم البقية الباقية التى شوهدت وسط الدخان والغبار وقد انطلقت خلف قائدها بأقصى سرعة حملتهم بها أقدامهم. لقد قطعت كتلة الراية الزرقاء الرئيسية خلف يعقوب ١٠٠٠ ياردة ، ولكنها دفعت ثمنا غاليا لتلك المسافة ، فالجثث المكدسة بدأت تغطى الأرض فى ذلك الزمن القصير وهى تشير لطريق الراية الدموى .

وفى الساعة ٩٥٥ أصيب الأمير يعقوب وهو على صهوة جواده من مجموعة رشاش ، فسقط على الأرض منكفئا على وجهه . وظل ممسكا حربته بعد أن توفى. كان يعقوب فى مقدمة الراية الزرقاء منذ بداية هجومها إلى أن أصيب .. وكان مكان سقطته على بعد ٦٠٠ ياردة من الصف الأمامى لجنود ماكدونالد . ترجل فارسان وسط عاصفة الطلقات ورفعا يعقوب وحملاه عائدين إلى الخلف ولكنهما سقطا بنيران الرشاشات . وكان ذلك مصير كل من حاول رفع الجثة والعودة بها . استمرت البقية فى الاندفاع نحو لواء ماكدونالد . وعلى الرغم من نيران المدفعية والرشاشات التى واجهت المقدمة ، الا أن الاصابات كانت فى الوسط والعمق أكثر من الصفوف الامامية ، فتوقفت المؤخرة وتمكنت الصفوف الأمامية وأغلبها من الفرسان والامراء من الاستمرار فى التقدم حتى مسافة ١٠٠ ياردة حيث تمكنت نيران ماكدونالد من ايقاف أغلبها . أما الاحياء منهم فاندفعوا حتى التصقوا تقريبا بفوهات البنادق المشرعة أمامهم ، وتمكن بعضهم من قذف حرابه داخل صفوف ماكدونالد ، وإلى هؤلاء الأخيرين تعزى معظم إصابات لواء ماكدونالد .

أما الكتلة اليمنى المتأخرة قليلا عن يعقوب ، فقد اندفعت نحو الثغرة الكائنة بين لويس وماكدونالد . وعلى الرغم من تعرضها لنيران جانبية أفقدتها جزءا كبيرا من قوتها ، الا أن البقية الباقية تمكنت من التدفق خلال الثغرة للالتفاف حول ماكدونالد . وانضمت اليها بقايا الكتلة الرئيسية واتجهوا لليسار ، فواجهوا نيران الرشاشات التى حولت اتجاهها نحوهم ، فاندفعوا لليمين فواجهوا لواء لويس ونيران

الرشاشات والمدفعية من أعلى جبل سركاب ، وحاولوا العودة مرة أخرى من حيث أتوا ولكن لواء ووشوب كان قد سد الثغرة . وسرعان ما احاطت بهم خيالة وهجانة برود وود التي وصلت لأرض المعركة في تلك اللحظة وإنضمت لها سرية من كتيبة الرماحة . وانطلقت صيحات الفرسان البريطانيين والمصريين بلهجة ركيكة بكلمة « أمان .. أمان » فاستسلموا (١) وقادهم الفرسان شرقا نحو النهر حيث بدأ الاسرى يتجمعون .

أما حرس الراية الزرقاء فقد انطلقوا على أقدامهم خلف حاملها وهو على صهوة جواده . ثم توقفوا وغرست الراية على بعد ٣٠٠ ياردة شمال سركاب . ورغما عن الرصاص الذى بدأ ينهال من ثلاث الويه على ذلك الهدف الذى لاتخطئه عين ، إلا أن حملتها بدأوا يجمعون الحجارة لتسند الراية الضخمة التى ارتفعت قناتها لأكثر من عشرين قدما . ونتيجة للنيران المتواصلة بدأت اعداد كبيرة من حرس الراية في التساقط حولها. وبدأت تجذب اعداد أخرى من الكتل الخلفيه تجمعت حولها وهم يطلقون نيرانهم على الألوية المتقدمة .

والراية شامخة ترفرف .. من بداية الهجوم وحتى لحظاته الأخيرة ، ثم تعرضت للنيران التى غطت كل المكان . وبدأت الثقوب تظهر فيها وحملتها لا يتجاوزون العشرين وهم يتساقطون من حولها . ولكن سرعان ما وجه جزء كبير من نيران الألوية المتقدمة ومن مدفعية جبل سركاب نحوها . تناقصت الاعداد حولها إلى أن مرت فترة لم يكن حولها غير ثلاثة أفراد ، وفى الواقع مرت لحظات كان حولها ثلاثة مقاتلين يحملونها ويتقدمون بثبات نحو ٩٠٠٠ رجل .. وكانوا جرحى ، الا أنهم استمروا فى الامساك بها حتى لا تسقط على الأرض . وعندما بدأ تساقط المقاتلين يزداد من حولها مرت لحظات أوشكت الراية فيها أن تقف وحيدة أسرعت الصفوف الخلفية للراية الزرقاء لتعزيز حملتها . فكان يتسلل اليها جزء من المقاتلين لحراستها أثناء اندفاعهم للأمام ، وسرعان ما تصوب اليهم النيران المضبوطة من قمة جبل سركاب فيتناقص عددهم ثم ينضم إلى بقيتهم جزء آخر .. فشكلت الراية وحماتها هدفا مثاليا لمدفعيه القمة وللألوية المتقدمة ، فانصبت

---

(١) كان العمدة آدم يوسف أحد المصادر الرئيسية عن تلك اللحظات ضمن هؤلاء .

حولها الطلقات وأصبحت أخيرا مصيدة للموت وهي ترفرف عاليا. وعندما اجتازها آخر صف من الذين انضموا تحت لوائها كان حولها ثلاثين شخصا حملها أحدهم وتقدم خلف الصفوف وهي مندفعة للأمام . ولكن سرعان ما التهمت نيران الرشاشات كل من كان حولها ما عداه .. فاستمر متقدما بها حتى سقط بعد ان غرسها في الأرض . وعندما وصلت الألوية المتقدمة وأحصت عدد القتلى حول حول الراية في مكانها ذاك وجدوا مائة من القتلى واضعافهم من الجرحى . كانت الراية الزرقاء وما تساقط حولها ، مشهدا مجسما للشجاعة والصلابة نادرا ما قدم التاريخ مثله . حمل الراية أحد اركانحرب كتشنر خلف السردار وهو في طريقه لامدرمان كعلامة للنصر . ولكن كانت للراية الزرقاء لعنتها الخاصة على اعدائها فقد لمحت إحدى البوارج النيلية ، من النيل البعيد ، قطعة القماش الضخمة وهي ترفرف ، فاطلقت نيرانها عليها وتبعتها بقية البوارج ، إلى أن تنبه سلاطين فأسرع بجواده ورماها على الأرض .

** ** ** **

في العاشرة صباحا كانت ساحة المعركة التي انحصرت بين جبال كررى وسركاب والنيل قد بدأت تتخذ شكلها النهائي . مقبرة كبيرة امتلأت بآلالاف من جثث الموتى والخيول . الجثث وهى مكدسة كان تنبيء بالضبط عن تطور المعركة وأماكن الاشتباك . فشرق جبل سركاب في اتجاه النيل بدأت آثار طريق الخيل الدموى نحو الزريبة ؛ جثث تراصت هنا وهناك وبكثافة متزايدة في اتجاه الشمال . وغرب سركاب آثار هجوم يعقوب . وانقسام رايته في اللحظات الأخيرة الى ثلاث أقسام مثلتها مجموعة من الجثث غرب جبل سركاب مباشرة وراء جثة أميرها ود بشارة ، ومجموعة أخرى أكثف وأعرض امتدت في خط مال نحو اتجاه الشمال الشرقي ــ والمجموعة اليسرى التي اندفعت مباشرة نحو ماكدونالد. وثلة أخرى تكدست حــول كــوم من الحجارة ، حرس الراية الزرقاء . أما الاحياء فقد أخذ جزء كبير منهم ، حوالى ٢٠٠٠ ، فى الاسر وأغلبهم جرحى . ومن بقايا الراية الزرقاء شوهدت جماعات هنا وهناك وقد تبعثروا متجهين غربا نحو الصحراء بينما امتلأ الطريق المؤدى لامدرمان ببضعة ألوف تحمل جرحاها

متقهقرة جنوبا .

أما قتلى العدو فقد ميزتهم ملابسهم الرسمية عن الجثث السمراء وملابسها البيضاء .. ثمانون من هجانة برود وود تبعثروا وسط جبال كررى .. أكثر من مائة في مكان الزريبة الأولى وخمسة وعشرون داخل خور شمبات ، أما جرحاهم فقد نقلوا للمستشفى المتحرك حيث بدأ الأطباء فى اسعافهم .

فى سعت ١٠١٠ بدأ واضحا ان الهجوم يلفظ أنفاسه الأخيرة على الرغم من استمرار تدفق المقاتلين من الخلف ولكن باعداد أقل وأكثرهم من كبار السن أو من الجرحى ممن حاولوا اعادة الكرة ونيل الشهادة .

وهنا فقط بدأت طلائع شيخ الدين وأبو سوار تبدو فى الأفق .

لقد فقدت الراية الزرقاء ما يربو على ٢٤٥٠ (١٦٠٠ قتلى ١٨٥٠ جرحى) وسقط معظم امرائها المشهورين وكان ضمن القتلى :

١ ــ الأمير يعقوب
٢ ــ الزاكى عثمان
٣ ــ عثمان الدكيم
٤ ــ محمد ود بشاره
٥ ــ محمد المهدى
٦ ــ الأمير أب يسام
٧ ــ مساعد ادريس « أمير الفلايته »
٨ ــ عبد الرحمن تاماوى « أمير التامه »
٩ ــ قدح الدم
١٠ ــ الغالى جوده
١١ ــ عبد الرحمن على « أمير البديرية »
١٢ ــ أزرق جبريل « أمير الفلايتة »
١٣ ــ الطاهر مكى « أمير البرقو »
١٤ ــ عبد السيد موسى « أمير البرقو »

١٥ ـ أحمد أبو جديرى	« أمير البرنو »
١٦ ـ دينا ابراهيم	« أمير الجوامعة »
١٧ ـ أحمد حمدان	« أمير الحمر »
١٨ ـ محمد ود نوباوى	« أمير بنى جرار »
١٩ ـ عوض السيد قريش	« أمير الكبابيش »
٢٠ ـ الأمير خير الله	« أمير الكبابيش »
٢١ ـ أبوبكر محمد الأمين	« أمير الجميعاب»
٢٢ ـ جاد الله عيسى	« أمير الزيداب »
٢٣ ـ أحمد حمدان العركى	« أمير العركيين »
٢٤ ـ سليمان كشه	« أمير سكان امدرمان »

** ** ** **

يستحسن أن نتعرض هنا لهجوم الراية الزرقاء كعملية منفصلة، ونصرف النظر مؤقتا عن هجومها ضمن الاطار العام لعمليات المرحلة الثانية ، فلم يحن وقت محاسبة شيخ الدين بعد .

توفر لهجوم الراية الزرقاء ، كعملية منفردة ، عناصر نجاح قوية فى البداية ، ولكن تدخل بعض العوامل أدى إلى ضياع مجهود كل تلك القوة البشرية الضخمة وفى دقائق معدودة ، وبطريقة لا تصدق . لنحاول حصر عناصر الايجابية والسلبية فى هجوم الراية الزرقاء بسرعة ، والعناصر الأخيرة بعضها كان بمحض ارادتها وبعضها كان خارجا عن ارادتها .

لقد كمنت العناصر الايجابية فى وضع الراية وواجباتها ضمن الخطة الأصلية وفى قوة موقفها وضعف موقف العدو فى لحظات هجومها حسب المخطط .

وقوة موقف الراية الزرقاء ينحصر على التحديد فى ظهورها كحشد كبير مفاجيء وكقوة عددية هائلة وكتلة اقتحام بالسلاح الأبيض ، ظلت مختبئة ساكنة لمدة ٣ ساعات ، ينبع هجومها ، ويبدأ تعرضه من مكان قريب من العدو ، متلافيا

بذلك أكبر عوامل فناء وانكسار هجمات المرحلة الأولى ـ التعرض من مسافة كبيرة ، وبالتالى لزمن أطول لقوة نيران متفوقة .

كانت تلك عوامل القوة فى موقف الراية الزرقاء ، قبل شن هجومها . أما عناصر الضعف فى موقف العدو ، وبالطبع كل ضعف فى العدو ينعكس كازدياد نسبى لقوة موقف يعقوب ، فقد كمنت أولا فى انعزال مدفعية ورشاشات البوارج وتجميد نيرانها . فالمدى بعيد وكل جيش السردار وقف حائلا بينها وبين الراية الزرقاء . ثانيا كان الهجوم سيوجه نحو جيش السردار وهو متحرك ، وأقدامه غير ثابته على الأرض . وهو فى موقف متساوى مع قوات الراية الزرقاء .. وحتى المدفعية أصبحت متحركة ، ومدافعها غير مثبته ، والذخائر مجرورة على مسافة بعيدة فى الخلف ، ولـــن تتاح للمدفعية الفرصة التى اتيحت لها فى التعامل مع الهجومين الصباحيين . كما كان الهجوم سيوجه نحو الجنب الأيمن والخلفى لقوات كتشنر ، وسيستلزم تغيير المواجهة زمنا آخر تستغله الراية الزرقاء للاقتراب من العدو ، بحيث عندما يتمكن العدو أخيرا من الاصطفاف بمشاته وتتمكن مدفعيته ورشاشاته ومشاته من فتح نيرانهم المؤثرة يتم الالتحام وهو الغاية المنشودة فى عمليات ذلك اليوم . فليس أثنا عشر ألف من الرجال الشجعان بالقوة التى تباد فى دقائق ، وبواسطة عدو متحرك مهما بلغت قوة نيرانه .

اذن ما هى العناصر السلبية التى تحركت كخليه سرطانيه مجنونه وأدت إلى ذلك الانهيار المثير للدهشة ـ شبه ابادة ، وفى دقائق معدودة لأكثر من أثنى عشر الف من الرجال حاولوا أن يتخطوا أقل من ١٢٠٠ ياردة ، والزمان والمكان يقفان فـــى صفهم ؟ سببان . الأول عكس مايبـــدو فى الظـــاهر هـــو هجـــوم بالسلاح الأبيض دون ان يسنده غطاء نيران . فالراية الزرقاء عـــلى الرغم من تفوقها العددى إلا ان قوتها النارية كانت ضعيفة للغاية « ١٠٠٠ بندقية أغلبها من انواع قديمة » . ولو توفر لها غطاء نيران معقول مع سرعة اندفاعها وصدمة قوتها العددية الكبيرة لكان موقفها قد اختلف . فالعدو هدف كبير وظاهر وثابت والمدى قريب . ولكن مدفعية الخليفة انتهى أمرها بالاندفاع المبكر لسريتى ماكسويل واحتلالهـــا لقمة سركاب حيث وضـــع المدفعـــان . ومـــع ذلك فالشك كان كبيرا فى مقدرة مدفعية الخليفة لابراز أى تأثير حتى لو تركت لها حرية العمل .

كانت نيران الملازمين هى أمل الراية الوحيد .

أما السبب المهم لفشل الهجوم حقيقة فهو يكمن فى الدقائق الخمس والعشرين التى انقضت منذ وقعت عين ماكدونالد على يعقوب وهو يقف متجمدا حتى ابتداء الهجوم . أى منذ سعت ٩٣٥ ، وإلى سعت ٩٥٥ . فتلك الدقائق الثمينة وهى تمضى مسرعة هى التى حددت مصير الهجوم .

ولعلنا لازلنا نذكر تعرضنا فى الفصل السابق « الصدام » لأهمية العنصر الثانى من عناصر المفاجأة وهو « السرعة » . لقد أعد يعقوب العنصر الأول « الموقف المتغير المفاجىء » أو « المخبر غير المظهر » باختباء الراية الزرقاء وجمودها وسكونها بعيدا عن مسرح الأحداث . ولكن جمودها الذى كان « نعمه » قبل سعت ٩٣٤ ، أصبح « نقمه » فى الدقائق الثمينة التى تلت سعت ٩٣٥ . فتلك الدقائق الثلاثون ، ويعقوب يقف متجمدا بعد رؤية العدو له هى التى مكنت ماكدونالد من التوقف ورص قوته لمواجهة الهجوم ، ولاطلاق دانته الأولى منبها السردار ثم بقية الألوية وبعدها انتقلت المبادأة للعدو ، ويعقوب أخذ يفقدها تدريجيا . وموقف العدو يزداد قوة لحظة بعد أخرى « ويتحرر » من ضعفه الناتج من تحقيق يعقوب للعنصر الأول .

ولو اندفع يعقوب وشن هجومه بمجرد رؤية العدو له ، لكانت فرصة النجاح أكبر ، فالوية السردار كانت مبعثرة فى السهل العريض ، والثغرات واسعة بينها ، ومواجهتها تتجه إلى اتجـــاه آخر وتغييرها لمواجهة الهجـــوم الجديد كان سيولد الارتباك الذى يحرم السردار من ابراز أهم عناصر قوته وهى النيران المركزة . والمسافة كانت بينه وبين هدفه الاول — لواء ماكدونالد — لا تزيد عن ١٢٠٠ ياردة . ومن السهولة بمكان وصول يعقوب والتحامه معهم قبل تعرضه لأى نيران مؤثرة . وكانت النتيجة لصالحه حتى بدون معاونة نيران الملازمين . ولكن طوال فترة وقوفه متجمدا ، كان العدو ينتقل من الضعف للقوة . وأخيرا ، عندما تحركت الراية الزرقاء سعت ٩٥٥ . وجدت أمامها بدلا من الالوية المبعثرة المرتبكة خطا صلبا من الجنود طوله أكثر من ٤٠٠٠ ياردة يقذف الحمم ويشل جنبها الأيمن ، وبدلا من لواء ماكدونالد المنعزل كغنيمة سهلة ، وجدت قطعة مقاومة صلبة .

اذن أفلت الموقف من يد يعقوب لعاملين : احدهما كان من صنع يده ، والآخر كان هو مناورة السردار السريعة . ولكن العلاقة السببية بينهما واضحة .

فمناورة السردار السريعة ومقدرته على حشد قوات كبيرة فى أماكن معينة وبسرعة ، هى التى حسمت الموقف فى النهاية لصالحه ، وقذفه للوائين شرقا فى رد فعل سريع لمهاجمة الجانب الأيمن للراية الزرقاء وهى متقدمة ، هى العملية التى أنقذت ماكدونالد . وتغييره لمواجهتى لوائى ليتلتون وماكسويل وأمره اياهما بالتقدم ، ثم فتح نيرانهما الضخمة من قمة جبل سركاب نحو جنب الراية الزرقاء خفف كثيرا من عنف الهجوم على ماكدونالد . وعندما انضمت لهما المدفعية ووجدت المدى الصحيح ، أجبرت يعقوب على تخصيص جزء كبير من رايته وتغيير إتجاهه نحو الشرق بدلا من الشمال الشرقى لمواجهة تدخل العدو من الجانب الأيمن ، وبالتالى قلت قوة صدمتها لحد بعيد .

كما ان قوة تسليح ماكدونالد « أكبر مجموعة من المدفعية الرشاشات خصصت للواء منفرد » مكنت ماكدونالد من صد الهجوم أو على الأقل تفتيت تحشده من مسافة بعيدة بقذائف المدفعية العادية والرشاشات فى المدى البعيد ، ثم باستخدام مدفعية الخرطوش "Case shot" فى المدى القريب ، وكانت نيران الأخيرة مؤثرة للغاية فى المسافات القريبة . ثم كان هناك العامل الأخير وهو المهم . ألا وهو ثبات الجنود السودانيين « تكون ثلاثة أرباع لواء ماكدونالد من السودانيين » . فقلائل من الجنود من كان باستطاعتهم الثبات فى مواقعهم فى مواجهة الخضم البشرى المندفع نحوهم فقد ثبتوا طوال تدفق الهجوم عليهم ولم يتزحزح أحد منهم من مكانه بل استمروا فى اطلاق بنادقهم دون أن تتخلخل صفوفهم ، أو تبدر منهم بادرة تدل على نية التراجع والانسحاب ، وهو ما انقذ لواء ماكدونالد بالتأكيد . فأقل تفكير فى التقهقر شمالا أو شرقا كانت نتيجته مؤكدة : شمالا سيسقطون بين أنياب شيخ الدين الذى بدأت طلائعه أخيرا فى التدفق من جبال كررى ، شرقا كانوا سيجدون أنفسهم فى مكان لا يستطيع باقى الجيش مد يد المساعدة لهم .

لقد حسمت تلك الدقائق الموقف . ومهما كانت قوة مبررات واعذار يعقوب الا أنها لن تغفر له مسئولية ضياع تلك الفرصة الثمينة وبالتالى اشتراكه فى

النهاية فى خطأ لم يكن فى الأصل خطأه . فقد كان خطأ شيخ الدين . لقد وجد الرجل نفسه في موقف لا يحسد عليه . هل يهجم بدون غطاء النيران الموعود مخالفا تخطيط العملية ولكن فى توقيت مناسب ؟ أم ينتظر شيخ الدين لتنطبق هجمتيهما معا فى عملية مضمونة . وظل فى انتظار شيخ الدين وهو لا يدرى ما كان يفعله العدو . فقد حجبه سر كاب عنه . إلى ان وصلته أوامر الخليفة بهجوم الراية « بغض النظر عمن سيقود الهجوم . » فالخليفة قبلا كان قد ضاق ذرعا ، ويؤكد هذا رسله العديدين لشيخ الدين ، وكلمات الحنق التى وصفه بها . ولكن كان ذلك يعقوب الرزين المتمسك بالتنفيذ الدقيق للأوامر والذى لا يخالف لشقيقه أمرا مهما اغرته الظروف بالتحرك دونه .

وهنا يجب ان نبرىء يعقوب براءة تامة من تهمة الصقت به وتمس كفاءته ومقدرته ووزنه القيادى مساسا كبيرا . فهناك مدرسة كبيرة — فى غرب السودان — حيث أصبحت عبارته « تبلدية وقعت » مثلا شعبيا — تؤمن بأن هجوم يعقوب واندفاعه كان نتيجة لانفعال عاطفي عند رؤيته لجثة شاب صغير السن — أيا كان أبراهيم الخليل أم محمد المهدى . وحقيقة من يستمع لتلك العبارات يميل لهذا الرأى فورا . ولكن المدقق لتصرفات يعقوب قبل انطلاقه قائدا للهجوم يخرج بنتيجة مغايرة تماما — فيعقوب « عرض » جيئة وذهابا أمام الصفوف الأمامية وهو يردد تلك العبارات . وذلك تصرف شخصى قصد ان يثير به الحماس فى الآخرين قبل أن يقودهم للهجوم . ويعقوب لم يهجم إلا بعد ان وصلته أوامر الخليفة ليسمح بهجوم رايته ، بل وتحمل استفزازا فى سبيل إنتظارها . ويوسف ميخائيل ورواية على الجلة يؤكدان هذا . وتقرير قادة الفرق يؤكد مع ما ذكره الشيخ بابكر بدرى ان محمد المهدى وجزء من الراية الزرقاء اندفع للهجوم بمدة قبل ان يندفع يعقوب . بل الواقع لم يكن خطأ يعقوب هو الانفعال العاطفى ، بل التريث وضبط النفس .

ولعل توجيه جهده الرئيسى نحو لواء ماكدونالد وحده ، أظهر قصده كهدف متواضع ، وهو ابادة أحد الالوية ، وبالتالى سيؤدى ذلك إلى تحقيق أثر محدود فى النتيجة الختامية للمعركة — ارتفاع نسبى فى درجة الخسائر . ويبدو

وكأن يعقوب ثبت عينيه على فريسته بعناد — لواء ماكدونالد — ولم يستطيع ان يحول بصره عنها رغم وجـــود صيد سمين آخر . ولكن في واقـــع الأمر ، كان توجيه هجـــومه للثغرة بين لويس وماكدونالد هي الفرصة الحقيقية للقضاء على ماكدونالد من جهة وليصول ويجول بتدفق رجاله خلف وبين خطوط العدو ، كما كان الهجوم المباشر على الوية متقدمة من مكان مرتفع وحاكم ، ومدفعيتها مثبته في ذلك المرتفع « جبل سركاب » غير حكيما على الاطلاق .

لقد كان هجوم يعقوب هو نقطة التحول الحقيقية في معركة بدت كمعركة خاسرة من بدايتها ، فقد أضاع الخليفة الفرص واحدة أثر أخرى من بين يديه . فقد كانت الراية الزرقاء وهي خلف جبل سركاب تشكل آخر عقبة بين السردار وأمدرمان وبتحركها من مكانها ذاك أصبحت امدرمان مدينة مفتوحة أمام السردار . وبعدها أصبح السردار في موقف يمكنه من بدء السباق نحوها بفرص أعلى من تلك التي توفرت لشيخ الدين وعبدالله أبو سوار . وموقف الأخير يقودنا للتساؤل ، ليس حيال كل الأحداث من بدايتها ، بل عن موقفه حيال هجوم الراية الزرقاء . فعبد الله ظل طوال هذه المدة وهو في جبال كررى ، ورايته في كامل استعدادها ولم تتعرض لاجهاد المعركة فيما عدا الأميال القليلة التي قطعتها في الصباح المبكر من خور شمبات إلى جبال كررى وبخطوة عادية . وكانت قواته إلى تلك اللحظة ولحظة هجوم يعقوب قوات نشطه . ومعها قوة فرسان لا يستهان بها « ٤٠٠ فارس » اذن ما الذي منعها من تعزيز هجوم يعقوب بهجوم آخر من جانبها من جهة الشمال وهي في نفس موقع يعقوب ومن نفس المسافة للعدو .. وصفوفها لم تكتو بنيرانه بعد؟

الواضح ان افتقار جيش الخليفة لعنصر مواصلات ولو بدائي مضمون أثناء المعركة خلاف الرسل ، كان ذا أثر فعال في فشله في تنفيذ خطته وادارته للمعركة ، بحيث يضمن له المقدرة على المناورة وتحريك قواته وحشدها في الوقت المناسب. فعندما وصل عيسى ود أحمد لعبد الله طالبا منه الهجوم كان قد مضى على هجوم الراية الزرقاء ربع ساعة ، وكانت طلائع شيخ الدين قد اقتربت ، ففضلوا الاقتحام معه . وحتى النيران والدخان الذي شوهد وهو ينطلق في السماء مبلغا الخليفة بتقدم السردار من جبل الرويان إلى أمدرمان ، لم يشاهد في يوم المعركة . ولقد رأينا

المشاق التي تكبدها الخليفة للوصول لشيخ الدين وهو في مطاردته لبرود ووذ . فتلك كانت من أهم الاسباب التي حرمت يعقوب والخليفة من إيصال وسائلهما بسرعة تتناسب مع المواقف العاجلة الحرجة . فهجوم الراية الخضراء على الرغم من قوتها الصغيرة نسبيا « ٤٠٠٠ » لو شن في تلك اللحظات متطابقا مع هجوم يعقوب ، لما انتهى دون ان يحقق أثرا فعالا .

** ** ** **

كيف سارت الأمور في رئاسة الخليفة ؟ ذكر كل من كان بالقرب من الخليفة في ذلك اليوم ان الرجل ظل ثابت الجنان وهو يدير معركته ويرسل الآلاف للموت ، فيما عدا لحظات ضيق صبره من طول غياب وتصرفات شيخ الدين الخرقاء .

ولا بد أنه عندما قذف بالراية الزرقاء كان قد أحس قبلا ان الأمل ضعيف في إنتصار شامل ، وأدرك ان خطته مزقت شر ممزق . أما الخليفة علي ود حلو فبمجرد انطلاق يعقوب أمر ملازميه بأن ينطلقوا خلفه ، وعندما وصلت طلائع ليتلتون وماكسويل لقمة سركاب ، وثبتت المدافع لتصد هجوم ود الدكيم وتقصف أجناب الراية الزرقاء ، وجهت جزءا لا يستهان به من نيرانها نحو رئاسة الخليفة التي اكتظت بما لا يقل عن ١٥٠٠ مقاتل في تلك اللحظة . وجدت نيرانها بعض الضحايا حتى من ذلك المدى البعيد . كان الخليفة علي ود حلو من أوائل الضحايا فقد أصيب بطلقة في ساقه وأجريت له عملية جراحية مستعجلة لاستخراج الطلقة. بالطبع كان نصل السكين والتراب هي كل معدات العملية ، فقد رقد الرجل المسن الصبور على الأرض وشق لحم ساقه وأخرجت الرصاصة ثم حشي الجرح بالتراب واحضر عنقريب أرقد عليه .

ثم بدأ تقدم لواء ليتلتون نحوهم . فاستدعى الخليفة ملازمه الخاص « أب جكه » وطلب منه أخذ باقي الحرس وصد هجوم العدو . تقدم حرس الخليفة

نحو العدو ولم يفلح في صده (١) ، بل أفلح في تأخير العدو برهة من الزمن .

وعندما أحس الخليفة بحرج الموقف في رئاسته بعد هجوم الراية الزرقاء أرسل لشيخ الدين وعبد الله أبو سوار طالبا ارسال نجدة سريعة لئلا تقع الرئاسة في الأسر . وعلق قائلا والالم يحز في نفسه « كلما نرسل زول لشيخ الدين ، ما يجينا راجع » فارتفع صوت علي ود الحلو من عنقريبه مقترحا ارسال احد ملازميه الموثوق بهم — الملازم عيسى ود أحمد . وانطلق هذا بجواد سريع بالتفاف واسع نحو جهة الغرب .

بعدها اقتربت صفوف السردار من رئاسة الخليفة وازدادت حدة نيرانه وإنعزلت رئاسة الخليفة وبرزت كهدف كبير للألوية ، وبدأ من كانوا حوله في محاولة إقناعه بالانسحاب لامدرمان لئلا يقع في الاسر . تولى محاولة إقناع الخليفة مجلس شوراه والقضاة ، فهم الوحيدون الذين توفرت لهم الشجاعة لطرق مثل هذا الأمر معه . تولى الحديث الشيخ محمد البدوى والسيد المكى وعبد الله البنا . فقال الشيخ محمد البدوى « الحرب سجال ورجال . نمشي امدرمان نموت تحت القبة .. وهل تريد يا سيدى ان تستهلك كل جيوش المهدية في معركة واحدة؟ »

وقال السيد المكى « مادمت حيا فالدين منصور فلنتحيز من العدو لئلا يتمكنوا من أسرنا » ومع اشتداد النيران واقتراب العدو استمدوا جراءة أكثر مع خطر الموت القريب فصاح أحدهم : « كان مُلك الملك بفرش .. كان مهدية النبى

---

(١) يقدر الشيخ بابكر بدرى زمن وقوع تلك الأحداث بعد الساعة ١١ر٣٠ . فهو يقول « وفي نحو الساعة الحادية عشر والنصف جاء من اخبر الخليفة باستشهاد .. أبراهيم الخليل .. وبعد قليل جعلونا صفا والراية الزرقاء أمامنا فرأيا سلاح العدو يلمع ويخفق تبعا لحركاتهم ورأيناهم كالحجارة الصفراء فلما ظهروا نادى خليفة المهدى بصوت سمعناه ، « اب جكه قوم اخد الاخوان دول صدوا اعداء الله ديل . » فقام اب جكه وسلاح الامدادية ونحن ننظرهم فتقدموا وضربوا بطلق متقطع فلم يرجع احد من مات ومن تماوت ومنهم عمنا .. »

الا ان التقدير الصحيح يجب ان يكون حوالى العاشرة والنصف . باعتبار ان هجوم الراية الزرقاء شن قبل العاشرة . وفي الحادية عشر كان الخليفة على مشارف امدرمان في رحلة العودة .

هاجر » (1) كل هذا والخليفة صامت ينظر ساهما إلى كل منهم . بعدها بقليل حمل أحد الجرحى إلى الخليفة وأخبره باستشهاد يعقوب . فاطرق الخليفة ومنذ تلك اللحظة فقد كل اهتمامه بتطورات المعركة . فقد اصيب بهزة عنيفة لم يفق منها ابدا . وأصبح كل همه الاستشهاد على فروته . فقد ذكر الشيخ بابكر بدرى « قال السيد المكى ان الخليفة كان يتكلم مسفر الوجه لم تظهر عليه علامة يأس أو خوف حتى جاء من أخبره ان الأمير يعقوب استشهد فاطرق مليا وجرى عرقه ولم يتكلم بعدها » . سكت الجميع والرصاص يتطاير من حولهم احتراما لحزنه وهنا فقط انضم اليهم عثمان دقنه وعثر على حمار الخليفة الأبيض الكبير يقوده غلامه عبدالله فتعاون دقنه مع أب جكه وانهضا الخليفة . فلم يقاوم . ومشى دقنه راجلا بالقرب منه وهو يتحدث معه فى محاورة طويلة تخللتها الآيات القرآنية وأبيات الشعر . وهو يمسك بيده ويتحدث : « ان تلك ليست نهاية كل شيء . » وتحدث

---

(1) بينما يذكر هـ . جاكسون ان الذى افلح فى اقناع الخليفة بالعودة لامدرمان والقتال داخلها هو عثمان دقنة ويؤيده تأييدا جزئيا الشيخ عبد الله محمد نور الذى ذكر ان عثمان دقنة انضم لرئاسة الخليفة وكان جالسا بالقرب منه . نجد ان الشيخ بابكر بدرى يذكر ان محمد البنا هو الذى اقنعه بالعودة وقد اعتمد جاكسون على استجواب « عبد الله ومحمد بلال الجعلى كاتب عثمان دقنة والذى كان متواجدا معه فى امدرمان :

Osman Digna himself went up to the Khalifa and seizing him by the hand said that all was not over. They would collect another force and once again try the issue with the forces of the Government. "One day," he said, "we will both die fighting on horse back, but it is of no use waiting here upon your sheep skin...."

Jackson, H.C., *Osman Digna, p.* 156

« تقدم عثمان دقنة نحو الخليفة ووضع يده فى يديه وذكر له ان ذلك ليست نهاية كل شيء ، ويجب معاودة الكرة مرة أخرى ضد العدو بعد تجميع قواتهم وقال له « يوما ما سيموت كلانا على صهوات الجياد ونحن نقاتل . ولكن ما الفائدة الآن من الجلوس على فروتك وانتظار الموت . »

بينما يقول الشيخ بابكر بدرى نقلا عن ود البنا :

قال الشيخ محمد عمر البنا لما سمعت كلام السيد المكى ونظرت للخليفة فلم ينكره قمت وأمسكت خليفة المهدى من عضده الذى لا يلمس لغيره وانهضته فتبعنى وخطونا خطوات بارجلنا فلحقنا أحد بحمار اركبنا عليه خليفة المهدى .. »

بابكر بدرى حياتى - الجزء الأول ص ١٨٢ .

أقوال الشيخ عبدالله محمد نور - شريط مسجل - رقم ٣ - قلى - النيل الأبيض .

كثيرا عن المرات المتعددة التى ابيد فيها جنوده وعاد هو وحيدا مثخنا بالجراح ليبدأ كفاحه من جديد . وبالتأكيد سيتمكن الخليفة من جمع جيش آخر يواصل به الكفاح ضد العدو الغازى « يوما ما سيموت كلانا ونحن نحارب على صهوات جيادنا ولكن ما الفائدة من الجلوس على فروتك وانتظار العدو والموت برصاصه جالسا . » وتقدم معه مسافة وهو يطيب خاطره ثم ودعه واعدا اياه باللحاق به فى امدرمان ، وانثنى عائدا لرجاله .

تحرك ركب الخليفة الصغير نحو امدرمان عن طريق يبعد أربعة أميال غرب النيل . وسرعان ما بدأ من حوله يتسللون ، ولم يبق معه الا يونس الدكيم . وبعد قليل غاب وسط آلاف الجرحى والموت وهم فى تقهقرهم نحو امدرمان . وهكذا عاد الرجل مهزوما كسيرا كما بدأ رحلته إلى المجد والقوة .. على ظهر حمار .. وشق طريقه وحيدا مطرقا وسط الآلاف إلى أن وصل استراحته الشمالية خارج أمدرمان . حيث نزل من حماره واستراح قليلا وأمر بعض الملازمين الذين وصلوا من أرض المعركة بالنفخ فى الامبايه وضرب النحاس لتجميع بقية المقاتلين من داخل أمدرمان وبدء القتال مرة أخرى من داخلها .

لم ينضم للخليفة فى استراحته الشمالية الا الخليفة على ود حلو محمولا على عنقريبه وقد ربطت ساقه بعد ان توقف النزيف . ومن هناك ارسل الخليفة لشيخ الدين بعد أن علم بفشل هجومه ليوافيه فى منزله فى امدرمان ثم أمتطى حماره وتوجه ومعه على ود حلو بجانبه إلى الجامع ثم أمر بالنفخ فى الامبايه مرة أخرى . وبعدها دخل إلى منزله وأحضر له الطعام ، وكان أول طعام يذوقه ذلك اليوم . فخلط قليلا من العسل والماء وشربه ولم يقرب طعاما غيره .

وأخيرا مضى الخليفة وحيدا بدون حرس لضريح المهدى واجتاز القبة المدمره إلى أن وصل الضريح .

** ** ** **

أخيرا فى سعت ١١٠٠ وصل الجزء الاعظم من الفرقة المفقودة — حقيقة — إلى جبال كررى . وشرع فى التجمع مع صفوف الراية الخضراء واجتمع قائد

ربع مقدمة الملازمين ، جابر أبو شليخات ، مع عبد الله أبو سوار .

وبينما كانت صفوفهما تتجمع ، وأثناء إعادة تنظيمها ، وقفا يشاهدان هجوم الراية الزرقاء في أعنف لحظاته وهما يلتفتان بين الفينه والأخرى إلى الخلف لاستعجال إنتظام صفوفهما . ولما كان لواء ماكدونالد أقرب قوات العدو اليهما ، وكان يقف حائلا بينهما وبين الحشد الرئيسي للعدو ، فقد رأيا الوثوب عليه أولا واكتساحه والتقدم بعدها نحو القوة الرئيسية للعدو ، كما مثل لواء ماكدونالد باتجاهه للجنوب الغربي وبانعزاله عن بقية قوة السردار ، فرصة عظيمة للتسديد ضربة مفاجئة للعدو من الخلف .

فاستدار جابر وعبد الله عائدين وانحدار نحو الحشود في شمال الجبـــل ليستعجلا قوات الرايتين لبدء الهجوم ، واشتركا مع أمراء الرايات في تنظيم صفوف الملازمين التي بدأت تتوالى للانضمام في التجمع - ربع جابر أبو شليخات في المقدمة ، تلاه ما تبقى من ربع العريفي الربيع ، وبفاصل كبير تقدمت كتلة الملازمين الرئيسية بدون إنتظام وخلفها مربع شيخ الدين . وضع أبو شليخات أكبر عدد من حملة البنادق تمكن من استخلاصه من الصفوف المضطربة في الأمام . الا أن قيمة هؤلاء قلت كثيرا لفقدانهم أغلب ذخيرتهم في المعركة الأولى ضد هجانه برود وود وسط جبال كررى وأثناء مطاردتهم لها . بعد ذلك إنتظم الملازمون في صفوف عريضة خلف بعضها البعض تكونت من أغلب الاعداد التي وصلت على عجل . ولكن جزءا كبيرا من الملازمين ، حوالى نصفهم ، كان لا يزال في طريقه لكررى يتعثر في الخلف محاولا اللحاق بالمقدمة . وهؤلاء لم يجدوا الفرصة ابدا في الانضمام داخل صفوف الاقتحام . أما عبد الله أبو سوار فقد احتل الجناح الأيمن . وكانت صفوفه منتظمة منذ البداية . وهي تقف على أهـــبة الاستعداد للاقتحام . وأمضى عبد الله أبو سوار وقتا أليما في انتظار الملازمين وهو يشاهد مجزرة الراية الزرقاء أمامه في السهل . وفي أقصى يمين الراية الخضراء ، بفاصل ٢٠٠ ياردة تجمع فرسان دغيم بقيادة الأمير عبد الجليل أحمد . ضرب جناحهم الأيمن في أقصى الصحراء ، وضاق أبو سوار ذرعا بالزمن الضائع . وقبل ان يتم الملازمين تجمعهم وصل عيسى ود أحمد رسولا من الخليفة ، وأبلغهم ان

رئاسة الخليفة قد هوجمت وهو يطلب النجدة . ولم ينتظر أبو سوار أكثر من ذلك . وبدون ان يلتفت حتى للملازمين صاح قائلا لحامل رايته « جُر يا عبد القيوم .. أقلع الراية » خُلعت الراية وتقدمت حشودها فى اندفاع سريع نحو جبال كررى ، وما ان شاهد الملازمون تحركها إلا واندفعوا أيضا بمحاذاتها لاجتياز أبو زريبة ومنحدراته .

بعد قليل برز الوضع النهائى للقوة المقتحمة . مواجهة طولها أكثر من ٢٠٠٠ ياردة زادها فرسان دغيم امتداد لجهة الغرب أما عمقها فقد تجاوز عشرة صفوف ولأكثر من الف ياردة في الخلف ، خلف تلك الصفوف المنتظمة ، تبعثرت آلاف أخرى لم تجد الفرصة بعد فى الانضمام أو الانتظام فى صفوفها ، كان أغلب هؤلاء بالطبع من ملازمى شيخ الدين (١) وقد انهكهم القتال والأميال الطويلة من الركض والمشى السريع .

---

(١) أخشى اننا سنجد أنفسنا مرة أخرى أمام مغالطة تاريخية كبرى . فخلا فا لما ذكر كل من قدم المعركة تاريخيا « وصفا كاملا فى حوالى عشرين كتابا » من ان الهجوم الأخير اشتركت فيه كل الراية الخضراء وكل قوة الملازمين « ٢٠٫٠٠٠ مقاتل حسب التقديم التقليدى ، و ١٤٫٠٠٠ حسب ما اوضحنا فى الصفحات السابقة . » نجد ان المؤرخ محمد عبد الرحيم يذكر الآتى :

« ولكن قبل ان يصل شيخ الدين بقوته إلى خط النار جاءه فارس قال له يقول لكم الخليفة سيروا إلى جبال المرخيات . ولعله – رأى بعد موت أخيه الأمير يعقوب وابراهيم الخليل وتبديد الجيوش ماجعله يخاف على ابنه الذى انثنى عن هجومه ولم يعمل عملا يذكر . »

دار الوثائق المركزية – أوراق محمد عبدالرحيم . معجم الشخصيات – شيخ الدين ص ٧٧٨ .

وعلى الرغم من مخالفة محمد عبد الرحيم لجميع المؤرخين وأغلب تقارير قادة الوحدات بعد المعركة الا ان قرائن الأحوال تقف فى صفه لحد ما . أولا : عندما خرج الخليفة من امدرمان وتكاملت كل دفع الهجرة الثلاث بلغت حوالى ٣٠٫٠٠٠ بما فيهم النساء والأطفال منهم ٩٠٠٠ رجل مسلح بالبنادق فمن أين تسنى له جمع تلك القوة النارية وبقية الرايات أبيد معظمها ؟ فاغلب الظن ان اغلب تلك القوة كانت من الملازمين . ثانيا : شوهدت اعداد ضخمة تتجه غربا نحو جبال المرخيات بعد نهاية المعركة – ولم يكن من الراية الخضراء ، فقد أبيدت الراية تماما :

Yet the crowds continued to run the gauntlet, and I myself saw at least 10,000 men make good their escape." *River War, p.* 167

« ولكن الحشود استمرت فى عبور خطى النار ، وشاهدت أنا شخصيا ١٠٠٠٠ رجل يتقهقرون »

ولكن حتى لو أخذنا حذرنا من المبالغة العددية المعهودة – من أين أتت تلك الحشود ، الواضح انها كانت من بقايا هجوم الراية الزرقاء والملازمين ، وكثيرا منهم لم يكن مصابا . كما ان كثيرا من

وفي سعت ١٠١٠ وصلت قوات الملازمين والراية الخضراء قمم وسفوح أبو زريبه وبدأت في التدفق نحو سهل كرري متجهة نحو لواء ماكدونالد . وأعلن (الملازمين) دخولهم للمعركة بعد طول إنتظار بعاصفة من نيران بنادقهم على العدو . وسرعان ما غطوا السـهل وهم يتدافعون بسرعتهم المعهودة نحو لواء ماكدونالد . ومن مسافة ١٢٠٠ ياردة بدأ توقف حملة البنادق بين فينة وأخرى لفتح نيرانهم المؤثرة وسط لواء ماكدونالد الذى انشغل بتغيير مواجهته لمواجهة الهجوم الجديد . وبدأت اعداد الخسائر تزداد . ومن مسافة ٦٠٠ ياردة تمكنت الموجة الأولى التى تقدمت كثيرا عن القوة الرئيسية للملازمين ان تصيب أكثر من ١٢٠ من الصفوف المتراصة من العدو .

** ** ** **

كان هجوم الراية الزرقاء في لحظاته الأخيرة ، ومن الحشد الضخم الذى

أمراء أرباع الملازمين خرجوا سالمين من المعركة . ولعل ذلك التفسير يوضح إنكسار الهجوم المشترك المسدد نحو ماكدونالد وهو فى ذلك الموقف الميئوس منه .

ولكن ما يجعل رواية محمد عبد الرحيم ضعيفة نوعا ما هى أنه كان فى تلك اللحظات يرقد جريحا فى خور أبو سنط أو فى طريقه لامدرمان بعيدا عن مسرح المعركة اذن فمعلوماته مستقاة فى الغالب من زملائه الملازمين بعد المعركة ، فلم يكن شاهد عيان فى تلك اللحظات . ثانيا من الثابت ان جزءا من الملازمين اشترك فى المعركة . بدليل ألف وستمائة منجماجمهم عثر عليها فى مسرح اقتحامهم . وبدليل تساقط ١٢٠ من لواء ماكدونالد فى تلك اللحظة وبأعيرة نارية – والراية الخضراء لم يكن بين صفوفها بندقية واحدة . وبدليل تساقط امراء ارباع « أبو شليخات ومسعود وعثمان آدم » .

فالمرجح اذن ان جزءا فقط ، حوالى نصفها ، اشترك فى الاقتحام أو حوالى ربعين أو ثلاثة حسب رواية شاهد العيان حسين ود الزين « الرايات شريط مسجل رقم ٤ – « ربعين أو ثلاثة فقط كان المتحدث ضمنهم » .ولا بد ان رواية محمد عبد الرحيم عن أوامر الخليفة لشيخ الدين بعدم الهجوم أخذت مكانها بعد اقتناعه بمنطق القضاة « انت يا سيدى داير تضيع جيوش المهدية كلها فى معركة واحدة » وان مكان شيخ الدين فى المؤخرة مكنه بعد استلام رسالة الخليفة من استخراج بقية قوته قبل ان تشترك فى المعركة – كما أنه من الثابت أيضا ان الخليفة ارسل لشيخ الدين لينضم له فى امدرمان . والسؤال هو : هل استلم شيخ الدين الرسالة قبل هجوم الملازمين أم بعده ؟ فرواية محمد عبد الرحيم ،وقرائن الاحوال فقط هى التى تؤيدها ، تذكر انه استلمها قبل أو أثناء الاقتحام وقبل ان يتورط كل الملازمين فى الهجوم. والغالب كانت تلك اللحظة هى اللحظة التى انتهزها على دينار وانطلق بعدها غربا للفاشر ، هذا بالطبع خلاف روايات سماعية كثيرة عاملتها كاقاويل تردد العبارة « شيخ الدين ماحارب ، » « أو شيخ الدين ما داير يحارب » .

اندفع قبل نصف ساعة لم يتبق إلا فلول محور يعقوب فى محاولتها اليائسة للوصول للواء ماكدونالد ، وأغلبها تحول إلى جثث متراصة مكدسة فى انتفاضتها الأخيرة.

وعندما انطلقت الطلقات الأولى من طلائع الملازمين ، وقبل تدفق قوات الهجوم المشتركة عبر منحدرات وقمم كررى ، أحس ماكدونالد بالخطر الجديد الداهم الذى اندفع نحوه . وكان عليه وهو ينقل ثقل نيرانه ومشاته من اتجاه لاتجاه آخر مضاد ، ان يوازن حجمها وحشدها فى كل لحظة مع التزايد أو الاضمحلال النسبى فى قوة كل من الهجومين اللذان شنا نحوه من اتجاهين متعاكسين .

كان هناك هجوم الراية الزرقاء فى لحظاته الأخيرة من الجنوب ، وكان هناك هجوم الملازمين والراية الخضراء من الشمال وقوته تتزايد وصفوفه تقترب بين كل لحظة وأخرى . فقرر نقل معظم قوته للاتجاه المعاكس . أى الشمال الغربى وترك جزءا أقل لمجابهة بقايا هجوم يعقوب . فتحت الرشاشات والمدفعية نيرانا مبكرة بينما كان ماكدونالد يصدر تعليماته لقادة الكتائب . التفت ماكدونالد باحثا عن النجدة من بقية الألوية . ولكنها كانت بعيدة ومشغولة فى مواجهتها الجديدة بالتقدم نحو الغرب . وأقرب وحدة صديقة كانت لواء لويس الذى تحمل ولايزال يتحمل جزءا من هجوم يعقوب . ارسل ماكدونالد فارسا سريعا للسردار طالبا النجدة . وقرر التصدى للهجوم وحده إلى أن تصل النجدة . وتلك هى اللحظات التى أدخلت ماكدونالد التاريخ . فقد أثار بروده (١) وسيطرته الكاملة على لوائه لاجراء تلك المناورة الصعبة فى تلك الظروف ، وفى ذلك الزمن القصير إعجاب الجميع ، واحتلت تلك اللحظات مكانا بارزا فى حروب القرن التاسع عشر .

أمر الكتيبة التاسعة فى أقصى اليمين بأن تحول اتجاها تسعين درجة لليمين فى حركة قصيرة سريعة ، فاصبحت فى أقصى اليسار بالنسبة للمواجهة الجديدة ، والركن الايسر للتشكيل الجديد ، ووضع سرية مدفعية ومدفعى مكسيم يسارها

---

(١) عندما حاول قائد الكتيبة التاسعة ، بمبادأة منه قبل استلام الأوامر ، تحريك كتيبته للمواجهة الجديدة استدعى ماكدونالد قادة الكتائب فى تلك اللحظات الحرجة والرصاص يئز فوق رؤوسهم وويخهم قائلا : « أريد ان تكون تحركاتكم وتصرفاتكم تماما كأنكم فى أرض الطابور . »

مع لواء كالنسون الذى كان يجرجر نفسه خارج الزريبة . قوت تلك التعزيزات من موقف ماكدونالد لحد بعيد . فعندما عبرت الرايتان الخضراوان جبال كررى وتكاملت قواتهما فى السهل وأصبحتا على مسافة ٥٠٠ ياردة ، وجدت أمامها مواجهة بلغ طولها ٤٠٠٠ ياردة .

** ** ** ** **

فصلت أكثر من مائتى ياردة بين صفوف جابر أبو شليخات وبين ربع العريفى الربيع الذى فقد جزءا كبيراً من مقاتليه بعد تعرضهم لنيران البوارج فى المعركة الصباحية . بينما رفرفت الراية الخضراء الغامقة « ملازمين » وسط التكثف الرئيسى وراء الصفوف الأمامية المتقدمة التى حصلت على قوة دافعه مكتسبة من إنحدار الأرض . وبالطبع إختفت نهائيا الصفوف والمكعبات البشرية ذات الشكل المنتظم المحـــدد والخطوات المنتظمة التى أثارت إعجـــاب العـــدو فى صباح ذلك اليوم ، بعد الأميال والركض السريع والقتال المتواصل منذ الصباح ، وحلت محلها صفوف وكتل بشرية متباينة الكثافة مضطربة الخطوات ، حتى الارباع التى كونت الكتلة الرئيسية تداخلت فى بعضها البعض ، خاصة أرباع عثمان آدم والعريفى وجابر فضل، التى اندفعت خلف صفوف المقدمة بقيادة أبو شليخات وكانت أغلب عناصرها الأمامية قد ابتعدت قليلا عن باقى الكتلة الرئيسية بفاصل ٢٠٠ ياردة، تزداد أو تتناقص كلما توقفت المقدمة لتصويب بنادقها واطلاقها نحو لواء ماكدونالد وهو يباشر مناورته الصعبة ، بينما خفف إنشغال كتائبه بإتخاذ المواجهة الجديدة من أثر نيرانها المباشرة قليلا ، مما وفر للصفوف الأمامية للملازمين زمنا كافيا يتوقف أثناءه الأفراد لبرهة قصيرة لتصويب بنادقهم . ارتفعت الخسائر وسط كتائب ماكدونالد وأثناء تحركاتها إلى ٢٠٠ بين قتيل وجريحا وتمكنت بقية قوات الاقتحام من عبور أكثر من ١٢٠٠ ياردة دون التعرض للنيران المباشرة للواء ماكدونالد . ولكنها تعرضت لنيران أخرى .

فقد كانت البوارج هى عنصر المدفعية الوحيد من وحدات السردار التى تبعت شيخ الدين فى مطاردته لبرود وود واستطاعت باستمرار تحديد مكانه بالضبط خـــلال رحلة العودة ، لم تتوفر لمدفعيتها الرؤية أو المدى المناسب الا بعد تدفق

الملازمين نحو السهل . وهنا استطاعت مدفعيتها التدخل فى تلك اللحظة فى المعركة من مرساها يمين مكان الزريبة القديم على بعد ٤٠٠٠ ياردة من قوات الاقتحام ، فاشتركت فيها بأثر حاسم ، منفسة عن غيظها لوقوفها مكتوفة اليدين طوال معركة الراية الزرقاء ، حين حالت تحركات الألوية المختلفة بينها وبين التدخل . لم يكن أثر نيران البوارج واضحا فى الصفوف الأمامية ولكنها وجدت أهدافها واضحة فى العمق والتكثف الرئيسى للراية ، فوجهت نحـوه نـيرانا مركزة حـوالى « ٣٠ دانه » أدت إلى تخلخل الصفوف وتقليل كثافتها .

تدافعت (١) أرباع الراية الخضراء نحو ركن ماكدونالد الأيسر . ربع عجب الفيه فى أقصى اليمين ، بشارة برجوب ، ود مخاوى فابوبكر عامر . أما الفرسان ، فقد استدعى عبد الله أبو سوار الأمير عبد الجليل أحمد ، قائد فرسان دغيم ، وأمره وهو يؤشر للغرب ، بأن ينحرف غربا بعيدا عن كتلة المشاة ويلتف التفافا واسعا ليتجه بعده شرقا مباشرة ليجتاح الجناح الأيسر لماكدونالد . أومأ عبد الجليل برأسه موافقا وانطلق مسرعا عائدا لصفوف الفرسان فى أقصى اليمين ليقود كتيبته وينطلق غربا .

رفرفت الراية الخضراء عالية فوق عبد الله أبو سوار ، وهو ينحرف بجواده لجهة الشرق ليتجه مباشرة نحو ماكدونالد . وبعدها زاد سرعته قليلا ليصبح فى مدى رشاشات ماكدونالد . فقد كان موقع الراية الخضراء فى الجناح الأيمن للهجوم مواجها مباشرة للركن الأيسر لماكدونالد ، أقوى نقطة فى كل مواجهته « ٣ رشاشات ١٢ مدفع » والرشاشات كانت من أوائل وحدات ماكدونالد التى اتخذت مكانها فى المواجهة الجديدة .

وحينما وصلت طلائع الراية الخضراء لمسافة ٧٠٠ ياردة من ماكدونالد كانت تواجه نيرانا كثيفة من الرشاشات والمدفعية « اطلقت المدفعية مالا يقل عن ٢٠٠ دانه خرطوشة شظايا Case shot و١٥٠ دانه شاربنيل فى أقل من عشرين دقيقة» وعندما بدأت الصفوف تتلاشى كان الأمير عبدالله أبو سوار من أوائل ضحاياها تبعه ضحايا آخرون من كبار أمراء الراية الخضراء ، وتساقطت عدة جثث كان أصحابها

---

(١) أنظر الخريطة رقم ١٣ المرحلة الثانية سعت ١٠٢٠ .

« ليلحم » زاوية المواجهة القديمة مع المواجهة الجديدة . ثم توالت كتائبه لتأخذ مكانها يمين الكتيبة السودانية (١) التاسعة : نقل الكتيبة الحادية عشر من مكانها في أقصى اليسار لتأخذ مكانها يمين الكتيبة التاسعة ، ووضع سرية المدفعية الثانية بينهما . أما الكتيبة العاشرة فقد استدارت للخلف بعد نداء « خلف دور » وأسرعت خلف الجدار البشرى الجديد لتحتل مكانها يمين الكتيبة الحادية عشر ، ووضع سرية المدفعية الثالثة بينهما . ثم وزع مدافع المكسيم بين السرايا . وبذلك وضع كتائبه السودانية الثلاثة وقد اتجهت للشمال الغربى لمواجهة الهجوم الجديد ، ثم دفع بالكتيبة المصرية لتكون زاوية قائمة مع باقى الكتائب فى الاتجاه القديم — الجنوب الغربى — لإتمام عملية إيقاف بقايا هجوم يعقوب . ولم تستمر معركة الكتيبة المصرية طويلا فبقايا الراية الزرقاء كانت قبلا قد نالت نصيبها كاملا من نيران ماكدونالد ولويس فأصبح ثللا صغيرة سرعان ما تلاشت . وبين طقطقة مدافع المكسيم وإنفجارات وأزير رصاص الملازمين فوق الرووس ، تعالت أصوات نداءات قادة الكتائب والسرايا « يمين دور » « خلف دور » « سريعا مارش » يتبعها الدوى المكتوم المنتظم لخطوات الجنود الثقيلة وهى تتحرك مسرعة بكتل منتظمة الشكل لتأخذ مكانها فى المواجهة الجديدة .

كان لواء ووشوب فى سباق مع الزمن لسد الثغرة بين لواء ماكدونالد ولويس فى أثناء هجوم الــراية الزرقاء ، وعندما بدأت صفوف الكتائب فى الاصطفاف لفتح نيرانها نحو الراية الزرقاء ، كان واضحا للجميع ان ووشوب قد تأخر قليلا . فهجوم الراية الزرقاء كسرت شوكته قبلا وخفت حدته . ولكن بدأت الطلقات تسمع مرة أخرى من اتجاه بعيد من الشمال . وظهرت فى الأفق طلائع شيخ الدين والراية الخضراء . وصل جنرال كاتكر قائد الفرقة الانجليزية لصفوف ووشوب وأدرك موقف ماكدونالد الحرج . فأمر أقرب كتائب ووشوب بالتحرك جريا وبسرعة مضاعفة لنجدة ماكدونالد الذى كان موقفه ميئوسا منه فى تلك اللحظة . فانطلقت الكتيبة الأولى وأسرعت لاطالة مواجهة ماكدونالد لجهة اليمين . وسرعان ما انضمت لها خيالة وهجانة برود وود فى مؤخرة الجميع

---

(١) أنظر خريطة رقم ١٢ « مناورة ماكدونالد »

يحملون اسماء صنعت الثورة المهدية وهي لم تزل في المهد .. وعلى رأسهم أحمد برجوب أمير اللحويين*، محمد علوان ، ومئات آخرون .. ولكن كل ذلك لم يمنع حشود الراية الخضراء من الاندفاع للأمام أمام عنف النيران المتزايد . وعندما حاول الأمير عجب الفيه ايقاف الهجوم وصرف النظر عن ذلك الاتجاه بعد ان شاهد الخسائر المتلاحقة ، ارتفع صوت من الخلف هاتفا « احنا ناس شهادة ودايرين نحفظ بيعتنا للمهدى » فاندفع الهجوم مرة أخرى في نفس الاتجاه .. وإلى النهاية .

وعندما اكتمل اصطفاف لواء ماكدونالد أخيرا بكل عناصره ، بمشاته ومدفعيته ورشاشاته في المواجهة الجديدة ، كان ما تبقى من الصفوف الأمامية للملازمين على مسافة مائتي ياردة من مواجهته ولكنها لم تكن صفوفا ، بل كانت جماعات من ثلاثة لخمسة أفراد، أما التجمع الرئيسى الكثيف فكان على بعد ٥٠٠ ياردة من صفوف ماكدونالد . وعلى الرغم من عنف النيران المتزايد تمكنت تلك الصفوف من فتح نيرانها على مواجهة العدو العريضة .. وبالطبع وجدت كل طلقاتها بالتقريب مقتلا بين الصفوف المتراصة المتلاصقة ، ولكنها بدأت تقل شيئا فشيئا إلى أن توقفت نهائيا ، فقذفوا بنادقهم وتقدموا وقد أشرعوا سيوفهم وحرابهم .. لماذا ؟ لقد نفذت ذخيرتهم التى استهلكتها المعركة السابقة . فتقدموا بالسلاح الأبيض .

في تلك اللحظات وصلت الكتيبة الأولى من لواء ووشوب عابرة المسافة التى فصلت بينها وبين لواء ماكدونالد عدوا ، واستطاعت انقاذ موقف ماكدونالد الحرج .. فكما نفذت ذخيرة الملازمين كان ذلك بالضبط هو موقف كتائب ماكدونالد السودانية . فالضرب الانفرادى الذى أمر به ماكدونالد لانتاج أكبر كمية من النيران بسرعة وبدون ضبط استنفذ معظم ذخيرة الكتائب . ولم يبق لكل جندى أكثر من طلقة أو طلقتين . وكانت النتيجة الحتمية هي الاستعداد بالسناكي لتبدأ معركة السلاح الأبيض وبالطبع كانت كفة الملازمين سترجح حتى بعد نفاذ ذخيرتهم ، ولكن وصول كتيبة ووشوب غير الموقف لحد بعيد . فقد بدأت في فتح نيران جانبية مركزة .

وسرعان ما برزت كفاءة البندقية الجديدة « لى متفورد » وهى تقذف بمئات الطلقات المصوبة فى دوى وانفجار واحد منتظم منغم . فتحت نيرانا جانبية منفردة أولا على العناصر المتقدمة من الملازمين والتى اشرعت أسلحتها استعدادا للالتحام مع صفوف ماكدونالد . واستطاعت ابادة معظمها إلا بضعة منهم تمكنوا من الوصول لصفوف ماكدونالد حيث غرسوا حرابهم فى الصف الطويل ثم سقطوا على الأرض ، منهم من تلقى أكثر من طعنة من سناكى العدو ومنهم من اخترق جسده رصاص العدو وماسورة البندقية ملتصقة على جسده .

وبعد أن زال الخطر القريب بدأت الكتيبة فى ضرب الجماعات "Volleys" نحو الكتل الرئيسية للملازمين، وتمكنت نيرانها بالاشتراك مع دانات البوارج من إيقاف التجمع الرئيسى ، مما وفر زمنا كافيا تمكن خلاله ضباط الكتائب الثلاثة من احضار الذخيرة من الخلف وتوزيعها على صفوف الكتائب . فاشتركت بنيرانها مرة أخرى فى المعركة .

أما موجات الهجوم على الصفوف المتراصة وعلى عاصفة النيران التى هبت عليهم من أكثر من اتجـــاه .. من النيل .. البوارج ، ومن الامام نيران الكـــتائب ماكدونالد .. ومن الجنب كتيبة ووشوب ، فقد كانت فى نفس مستواها فى الهجمات السابقة ، جسارة وتصميما لا يقف دونها ودون الهدف إلا الموت . والصفوف ؟! .. يتقدم كل الصف فينثنى أمام النيران الساحقة ثم يتمزق فيتحطم فيختفى رجاله أمام النيران الحاصدة ، وقبل ان يتلاشى الدخان يتقدم صف آخر . لقد تكرر هذا المشهد ستة عشر مرة .. ستة عشرة صفا مرت بنفس المراحل .. صفا وراء الآخر .. نفس الأطوار التى مر بها الصف الأول مر بها الأخير ولم يحاول أحد منهم النكوص على عقبيه أو الرقاد على الأرض بل اندفع لملاقاه النار وقد تجسم كل أملهم وطموحهم فى الوصول للعدو ، ولكن كان يحول دونهم العدو جدار من رصاص ساخن . منهم من اندفع حاملا بندقيته الفارغة ليضرب بها العدو ومنهم قذف حربته . ومنهم من تقدم اعزل وكل سلاحه قبضته وغضبه الجارف ، حتى حمله الاعلام أصروا على الوصول باعلامهم لصفوف العدو ولم يجدوا ما يشفى غليلهم غير إستخدام أقنيه الأعلام .

أما صفوف أبو سوار فلم تستطيع حتى الوصول لتلك المسافة لإفتقارها للسلاح النارى ، ولأنها منذ البداية لم تجد الفرصة التي وجدها الملازمون وهم يتقدمون نحو عدو متحرك ومنشغل بترتيب صفوفه . بل كان هجومهم مباشرة أمام الافواه الفاغرة للرشاشات لتلتهم صفوفهم واحدا بعد الآخر ..

وعندما اقتربت الساعة من الحادية عشر كان واضحا ان مصير الهجوم الثالث لقوات الخليفة أصبح كسابقيه . ونفس المنظر المتكرر دائما ، بدأ فى البروز ، الجثث .. الخيول .. النيران العنيفة وهى تصلى الحشود حمما .

أما الانتفاضة الأخيرة لجيش الخليفة فى ذلك اليوم فقد كانت هجوم فرسان دغيم على الجناح الأيسر لماكدونالد . فقد اتجه الأمير عبد الجليل حسب تعليماته غربا ، ليلتف حول ماكدونالد وليهاجم جناحه الأيسر متطابقا مع هجوم المشاة . كان هذا تكتيكا سليما فى الماضى عندما كان أقصى مدى للبنادق هو ٢٠٠ ياردة وقبل ظهور قصف الرشاشات والمدفعية الكثيف . ولكن خلال الزمن القليل الذى استغرقه أحمد عبد الجليل ليكمل التفافته الواسعة كانت الكتلة الرئيسية لمشاة الهجوم قد ابيدت وقبلا تمكنت نيران ماكدونالد من إيقاف التجمع الرئيسى للهجوم من مسافة ٧٠٠ ياردة . وعندما شن هجوم الفرسان من جيش الخليفة كان يساند بضع ثلل صغيرة من المشاة تندفع نحو ماكدونالد ، فتمكن من توجيه جزء كبير من نيرانه فى وجه الهجوم الراكب المندفع نحو الكتيبة الثانية المصرية فى هجمة يائسة بدون هدف واضح إلا الموت ، فلم تبق هناك صفوفا من المشاة لتساندها هجمة الفرسان .

وبأقصى سرعة للجياد إنطلقت الهجمة الأخيرة لجيش الخليفة فى معركة كررى ، وقد اشرعت الحراب الطويلة أمام الفرسان ولوحوا بسيوفهم يمينا ويسارا فى انطلاقهم نحو العدو . والبعض لم يحمل سلاحا على الاطلاق خلاف الرايات ، وسرعان ما دخلوا داخل نطاق نيران ماكدونالد . وبدأ فرسان دغيم يتساقطون واحدا بعد الآخر حتى ابيدوا عن آخرهم . ولم تستطيع آخر هجمة قام بها جيش الخليفة ان تصل إلى أعدائه ، بل وصلت اليهم الجياد ، بدون راكبيها ، واخترقت صفوفهم . وانتهت بذلك هجمة فرسان دغيم التى رمز اليها المؤرخون الأوربيون

« بهجوم فرسان البقارة » .

في سعت ١١٠٠ صد الهجوم الأخير لجيش الخليفة ، وتجسم الثمن الغالى الذى دفع ، فى الجثث التى تكدست حتى وصلت تحت أقدام صفوف ماكدونالد وجزء كبير منها طعن بالسونكى موضحا ان الفرصة التى توفرت لهجوم شيخ الدين وعبد الله أبو سوار لم تتح لاحد غيرهما اللهم الا لعثمان دقنه .

ولم يمض زمن قليل حتى كان السهل الذى يفصل بين أرض المعركة والجبال البعيدة غربا أو جنوبا قد امتلأ بآلالاف التى تحركت غربا نحو جبال المرخيات كالنقط السوداء الصغيرة تحمل جرحاها وموتاها .

.. ..

سقط فى هجوم الملازمين والراية الخضراء ٥٠٠٠ من القتلى « ٢١٠٠ من الراية الخضراء ، و ٢٠٠٠ من الملازمين » . بلغ عدد الجرحى من الراية الخضراء ٢٠٠٠ « أى أبيدت تماما » ومن الملازمين ٢٤٠٠ رجل .

وسقط كبار الأمراء الآتى ذكرهم قتلى فى الهجوم :

الراية الخضراء :

الأمير عبد الله أبو سوار « أمير الراية »
الأمير أحمد عبد الجليل « قائد فرسان دغيم »
الأمير محمد علوان « قائد ربع من أرباع دغيم »
الأمير أحمد عبد الله برجوب « قائد ربع اللحويين »
الأمير محمد مخاوى

الملازمين :

الأمير مسعود « أمير ربع »
الأمير عثمان آدم « أمير ربع »

وبنهاية المرحلة الثانية بتلك الطريقة الخرافية ، انتهت معركة كررى . وبالتالى انتهت دولة الخليفة كدولة مستقلة فى سعت ١١٣٠ يوم ٢ سبتمبر .. فلم يستطيع الخليفة ابدا بعدها تجميع جيش كالذى حشده فى كررى .

لعلنا نذكر ان خطة الخليفة بنيت اساسا على المرحلة الثانية . وهذه المرحلة تمثلت عملياتها فى كماشة تطبق على العدو المتقدم نحو امدرمان ، أحد ذراعيها « الملازمين » يصلى مؤخرة العدو نيرانا كثيفة من الشمال ، والطرف الثانى — الراية الزرقاء تمثل نصلا حادا يشق لحم العدو من الجنوب ، على ان تتم حركة اقفال الكماشة فى لحظة واحدة .

ولكن نصف الساعة التى فصلت بين الهجومين ، أدت إلى الانفصال الزمنى لانطباق فكى الكماشة بحيث أصبحتا حركتين منفصلتين مختلفتين . وأدى هذا إلى مواجهة العدو لهجومين منفصلين تماما ، سواء فى مراحل الهجوم ،أو التجمع أو التشكيل ثم المحاور وأخيرا الابتداء . وتمكن العدو بالتالى من التعامل معها بالتجزئة Piecemeal .. وأدى ذلك إلى أن قدمت معركة كررى تاريخيا وعسكريا كمعركة ذات ثلاثة مراحل ، أو ثلاثة هجمات رئيسية .

ولعل الصفحات السابقة أوضحت الأسباب التى أدت لذلك الانفصال الزمنى — والسبب الرئيسى أوضح من أن يذكر وهو باختصار .. تحركات الملازمين ومن خلفهم شيخ الدين — سواء ان قصد أو لم يقصد .. وسواء كانت نتيجة لقيادته المتهورة أو لعدم تمكنه من ابراز أى تأثير قيادى على أقوى فرق الخليفة فى أكثر الساعات حسما ، وتركه الحبل على الغارب لامراء أرباعه .

وعندما استجوب ونجت الأحياء من الامراء بعد المعركة عن أسباب فشلها أجابوا بلا استثناء « عثمان شيخ الدين » ولعل الطيب ود العربى لم يبتعد كثيرا عن الحقيقة عندما قال بعد نهاية المعركة لمن اقترحوا عليه الاستراحة تحت ظل شجرة ظليلة قبل دخول أمدرمان ورفض خوفا من الوقوع فى الأسر : « دا رأى العيال القبيل ضيعنا » . فغيابه أكثر من ساعة ونصف ، وأبعاده لاقوى فرقة فى جيش الخليفة لمسافة ثلاثة أميال عن أرض المعركة وعودته كل تلك المسافة — ويبدو أن نيته كانت الابتعاد لمسافة أطول لولا ان تداركه « على الجله » — كانت السبب الرئيسى فى تأخير هجومه وبالتالى أدى ذلك إلى تعديل رئيسى فى تنفيذ المرحلة الثانية ، المرحلة الرئيسية .

وبالطبع كان ذلك انهيارا أساسيا لكل الخطة . صحيح ان كثيرا من اللوم

يقع أيضا على أبو سوار ، لانه لم يحرك ساكنا أثناء هجوم يعقوب وبالتالى وقع العبء كله على يعقوب . بل قنع بانتظار شيخ الدين . ولكن عذره كان واضحا ، وهو تمسكه الدقيق بالتعليمات . ان الزمن، والزمن وحده كان هو العنصر الحاسم في تنفيذ المرحلة الثانية، وعلى هذا الاساس أمر شيخ الدين بأن يضع نفسه فى جبال كررى رهنا للاشارة بالهجوم ، ولو مكث فى مكانه ذلك لكان بامكانه بالتأكيد تأدية دوره فى الخطة الرئيسية حسب مارسم له . ولم يكن الخليفة قصير النظر عندما أدرك — ولكن بعد فوات الأوان — ان عثمان ليس هـــو الرجل الملائم لقيادة كل الملازمين وحاول ان يخفف الاضرار فسحب ثلثهم من قيادته واعطاها لعثمان أزرق.

كان شيخ الدين فى الثالثة والعشرين من عمره ولم يشترك فى معركة واحدة من قبل .. وكان القائد الحقيقى للقوة الضاربة فى كل الجيش . وكان تواقا إلى اثبات كفاءته فى ميدان القتال . وانطلاقا من هذا اصر على الهجوم نهارا ليرى الاخرين أثر بنادق الملازمين وتدريبهم الممتاز . وعلى هذا الاساس وثب على هجانة وخيالة برود وود فقد رأى فيها صيدا ثمينا . وللحق ادار امراءه الجزء الأول من معركته ضدها بكفاءة وبادراك سليم وأســتطاعوا إصابتها بخسائر جسيمة وهذا هو المطلوب ولكن الجزء الثانى منها ، مطاردته لقوة راكبة لأميال طويلة ، أدى إلى عواقب وخيمة .

وعلينا الآن أن نبحث عن أثر الانفصال الزمنى فى المرحلة الثانية ، حتى أصبحت مرحلتين ، الثانية ، والثالثة ، وفى النتيجة النهائية للمعركة .

عندما كانت الراية الزرقاء تقف قبل الهجوم على ماكدونالد ، كان جبل سركاب يحجبها عن أربعة من الوية السردار، وكانت مدفعية العدو المجرورة بالبغال متحركة ومتجهة جنوبا .. والويته تتجه جنوبا .. وهى متحركة .. وبوارجه عاجزة عن التدخل . كانت خيالته الانجليزية تبعد ثلاثة أميال عن أرض المعركة، وخيالته المصرية تجاهد وسط جبال كررى للعودة لصفوف المشاة . وعندما تدفقت الراية الزرقاء نحو ماكدونالد بعد طول إنتظار الملازمين استطاعت قوة العدو وهى تجابه هجوما من اتجاه واحد محدد ، ان تجمع رجالها وتركز نيرانها على ذلك الهجوم فى مناورة سهلة سريعة . لان اتجاه الهجوم وتجمعه كان من مكان واحد وقريب واستطاعت

ان توجه ضربات قاصمة للراية الزرقاء ، فتت جهدها وإنقسمت إلى ثلاثة محاور سهل التهامها بعدها .

وعندما بدأ عثمان شيخ الدين هجومه كان هجوم الراية الزرقاء قد اضمحل ان لم تكسر شوكته نهائيا ، فوجهت قوة النيران المعادية الهائلة تلك مرة أخرى نحو الاتجاه الجديد للهجوم وشملت نيران كل المواجهة الجديدة لماكدونالد بنيرانها القوية بالاضافة للكتيبة الاولى لووشوب ببنادقها «لى متفورد» وهجانة برود وود، ولواء كولنسون، ومدفعية البوارج ، فانتهى الهجوم الثانى إلى مصير الهجوم الأول، وفشل لسبب بسيط ، لأن السردار تمكن من نقل وحشد واطلاق نيرانه كاملة لمواجهة هجوم الراية الزرقاء ثم تمكن من نقلها وحشدها مرة أخرى لمواجهة شيخ الدين وعبد الله أبو سوارولم يكن بمستطيع ذلك الا لتوفر خمسة واربعين دقيقة بين الهجومين . وتحدث الكثيرون عن غضب الخليفة وغيظه وهو يرى هجوم الراية الزرقاء فى قمته، وصفوف المحور الثانى وهى لا تزال تتجمع وتصطف .

والآن ، وعلى ضوء موقف السردار فى تلك اللحظات وبين سعت ٩٣٠ وسعت ١٠٠٠ « ما الذى كان سيحققه الهجومان لو شنا فى لحظة واحدة ؟ ويجب أن نذكر أن المبدأ العام والنتيجة النهائية هى لن تتغير ، طالما ان الهجوم شن فى وضح النهار . فذلك قد حـــدد سلفا النتيجة النهائية للمعركة . فأخطاء الخليفة الاستراتيجية عندما اختار كررى مسرحا للمعركة، وعندما هجم نهارا كانت أفدح وأعظم من ان يتداركها أى نجاح تكتيكى مهما بلغ من حسن التخطيط وقـــوة الحشد . ولكن النتيجة النهائية لم تكن لتبرز بتلك الصورة « ٢٦٠٠٠ » من الخسائر وسط جيشه ، وخمسمائة من الخسائر وسط جيش العدو .

فألوية السردار وهى تتبعثر هنا وهناك لمجابهة الراية الزرقاء، ولنجدة ماكدونالد ولمواجهة عثمان شيخ الدين وود حلو .. كانت ستتعرض لنسبة خسائر جسيمة، قد تتعرض الراية الزرقاء لنفس الخسائر ولكن كان ذلك يعنى اكتساح شيخ الدين لكل لواء ماكدونالد واصطدامه بعد ذلك بووشوب وماكسويل ، كل هذا ومدفعية السردار كلها عاجزة عن التدخل ، فما كان يفصل بين الجيشين فى تلك اللحظة لم يكن آلاف اليارادت ، بل مئاتها ان لم تكن القوتان قد التحمتا فعلا . وهذا

الالتحام كان مستطاعاً بفضل تشتت مجهود مدفعية السردار وسرعة التقدم غير العادية لمشاة الخليفة ، واضطراب صفوف ألوية السردار وهى تحول مواجهتها لمواجهة عدة محاور لعدو يهاجم من أكثر من اتجاه .

وابتعاد المعركة عن شاطىء النيل وبالتالى عن نيران أسطول السردار النهرى كان يعنى ان المعركة ستصبح معركة التحام داخل صفوف السردار ، فقوة الهجومين مجتمعين « ٢٦٠٠٠ » مهما واجهت من نيران السردار وهو فى موقف أضعف ، كان جزء منها سيتمكن من الوصول إلى قلب ألويته ونقل المعركة لداخل صفوفه ، وكان هذا شيئا مختلفا تماما عن القتال فى المرحلة الأولى .. وكان كفيلا برفع نسبة الخسائر داخل الجيش الغازى .

المدينــة الجريحــة

« أتلك (١) هى شهامة المنتصر ؟ ! »

تشرشل

وسط الدماء والاشلاء المتناثرة ورائحة البارود العابقة ، استغرق الخليفة عبد الله فى صلاة حارة طويلة أمام ضريح المهدى . وأمام قبر رفيق عمره ، نكس الخليفة رأسه ، وهو يستلهم رفيقه الصبر والنصيحة فى لحظة الضيق . شمل الظلام المكان إلا من بصيص ضوء الشمس المتسرب عبر ثغرات الدانات أثر قصف القبة ، خيم سكون عميق داخل المحراب حول الرجل الملتحى الراكع ، لا يقطعه إلا اصوات الطلقات المتقطعة المتزايدة العنف والسرعة وضجيج مئات من خيول الفرسان الذين ملأوا صرح الجامع .

كان أولئك الفرسان تحت قيادة يعقوب أبو زينب محافظ امدرمان . تمكن من تجميعهم من بقايا المعركة ، ومن شرطة امدرمان ، ومن العدد القليل الذى تجمع من الجرحى واستجاب لنداء الامباية . وأوكل الخليفة اليه تجميعهم لبدء الدفاع من داخل أمدرمان ومضى هو للمحراب . ادار معركة المدينة يعقوب فأرسل كل المقاتلين والبنادق القليلة التى اجتمعت لديه شمالا ليدافعوا خلف السور الكبير .

كان الأمير المسن منهكا للغاية . فقد امضى يوما مرهقا منذ أن بدأ قصف المدينة ظهر الخميس . موزعا جهده والعدد البسيط المتوفر لديه من شرطة امدرمان لرفع الانقاض ، واسعاف الجرحى وقفل ثغرات السور بقطع الحجارة والأخشاب ، واقتلع عدة أبواب ونوافذ لقفل الثغرات الكبيرة المتخلفة مـــن قصف دانات « الليدايت » .

وتزايدت مسئولياته المتشبعة بعد أن أوكلت اليه ادارة معركة المدينة ، وهو

---

(1) "Is this the chivalry of the conquerer?!"
Churchill

يقذف بكل قادر على حمل السلاح شمالا ليدافع عن السور(١). وزاد الارتباك ازدحام رئاسته في الجامع بمئات من الأشخاص ، ممن وصلوا من أرض المعركة ، وكل هدفهم هو الموت وملاقاة ربهم تحت قبة المهدى . ومن ضمنهم كبار القوم من الخلفاء وكبار الأمراء .

وضع الخليفة على ود حلو عنقريبه تحت القبة ورفض التحرك إلى منزله . وأسرع الخليفة شريف وأحضر ابناء المهدى وأجلسهم حوله ليموتوا سويا . وتناثر عدد كبير من كبار الامراء ، يونس الدكيم ، عثمان دقنه ، وانضم اليهم شيخ الدين بعد قليل بعد وصوله من المعركة .

دار الهمس حول اتخاذ أى السبيلين ، الدفاع في معركـــة يائسة داخل أمدرمان ؟ أم الهجرة غربا ؟ كان الرأى الغالب هو الدفاع داخل امدرمان . ولكن الرجل الذى يملك حق الاجابة كان معتكفا منذ ساعات داخل الضريح وليس هناك من يجرؤ على قطع خلوته .

بدأت أصوات طلقات الرشاشات تتزايد . وارتفعت مرة أخرى أصوات إنفجارات المدفعية منبئة عن اقتراب السردار من المدينة . وصل فارس ينهب الأرض نهبا وترجل واتجه نحو يعقوب أبو زينب وأنبأه ان السردار قد دخل المدينة من البوابة الكبيرة .

اتجه يعقوب مباشرة نحو مدخل الضريح ووقف منتظرا الخليفة على أحر من الجمر لينقل له النبأ . أخيرا وعندما بدأ قرص الشمس في الانحدار غربا خرج الخليفة من المحراب وقد فارقته نظرته الجامدة الخاوية التى كست ملامحه منذ ان سمع بمقتل الأمير يعقوب . أصدر تعليماته للأمير يعقوب أبو زينب بالهجرة غربا لكل من يرغب على أن يصحبه الخلفاء ، وان تنبه العوائل للخروج من امدرمان . ومن هناك مضى الخليفة إلى منزل أخيه يعقوب ليأخذ بعض الوثائق الهامة وليأخذ عائلته على ان يلتقوا جميعا خارج امدرمان .

وعندما أبلغ الأمير يعقوب أبو زينب تعليمات الخليفة للحشد الذى اجتمع داخل القبة رفض كثيرون التحرك . كان الخليفة على ود حلو والخليفة شريف يجلسان

---

(١) انظر خريطة رقم ٤.

سويا . أما الخليفة علي ود حلو فقد أخذ بالقوة حسب أوامر الخليفة . وعندما أصر على عدم التحرك ووضع سيفه أمامه تقدم الأمير ود مخاوى « ابن شقيقته » وخطف سيفه واوعز إلى اثنين من ملازميته بحمل عنقريبه ، وأخذ ليلحق بركب الخليفة .

وبعد قليل، عندما بدأت ظلال المغيب تغلف المدينة بدأت الشوارع والأزقة المؤدية لجهة الجنوب تمتلىء بالرجال والنساء والأطفال وهم في طريقهم خارج المدينة .

** ** ** **

ما ان تلاشت موجات الهجوم الأخير ، الا وأمر السردار كل جيشه بمواصلة التقدم مرة أخرى نحو أمدرمان . وسرعان ما لملمت الألوية صفوفها بعد ارسال الجرحى للخلف وتعويض الذخائر ، واستدارت آلة حرب السردار الهائلة مرة أخرى جنوبا ، بينما اندفعت عناصره الراكبة لعدة أميال غربا وجنوبا لمحاولة تشتيت الالوف التي اتجهت غربا ضاربة في الصحراء — أو نحو امدرمان .

تقدمت خيالة برود وود من سفوح كررى في مواجهة عريضة تكونت من صفين من الفرسان — وشقت طريقها لعدة أميال لجهة الغرب بين أنات وحشرجة الموت الصادرة من الالوف . وهي تشق طريقها بين كتل متزايدة الكثافة كلما اتجهت غربا — ولكنها لم تكد تقطع عدة أميال الا وعادت ادراجها . بينما تقدمت كتيبة الرماحة وهي أقل عزما ، وأكثر حذرا ، عبر نفس الطريق الذى عبرته قبل ساعات ودفعت فيه ثمنا غاليا . ولكنها عادت أيضا بعد قليل .

فلم تكن تلك الفلول المنهزمة والتي كان ثمانون في المائة منها من الجرحى بقطيع من البشر المذعور لتبعث خلفه بضعة كتائب « لتهشه » وتشتت شمله ، فقد إنتهت معركة الرايات والارباع وبدأت معركة الجرحى .. معركة الأفراد .

وسرعان ما وجد الفرسان أنفسهم يواجهون عدوا يختلف عما تصوروه تماما . وجدوا مقاومة صلبة من كل جريح ، وخاض كل جريح معركته الإنفرادية قبل قبل ان يسمح للغزاة بدخول مدينته . فمن وسط كل ثلة من الجثث المكدسة قفز

أحد الجرحى فجأة وأفرغ آخر طاقة فى جسده فى طعنة سريعة ، أو هب أحد الجرحى جالسا فجأة من رقدة الموت المتجمدة ليطلق مقذوفا ويجندل أحد جنود العدو . تكرر هذا المشهد مئات المرات وأدى إلى الظاهرة التى أسماها المراسلون الحربيون « خصائص حرب السودان « "Sudan War tradition" وأدى أخيرا إلى بروز مظهر آخر من مظاهر الحروب .. قتل الجرحى حتى بعد استسلامهم، وأدى بالتالى إلى استغلال تلك الذريعة « مقاومة الجرحى» — استغلالا بشعا بواسطة قوات السردار فى مجزرة إنتقامية لم يشهد تاريخ الحروب لها مثيلا إلا قليلا . ووصلت تفاصيل فضيحتها إلى أسماع العالم وأثارت ضجة كبيرة (١) .

فتذرعا بالحذر من الجرحى والأسرى ، وعبر تقدمها غربا لعدة أميال ، أبادت الوية السردار اعدادا ضخمة من الجرحى والأسرى . « أصدر السردار قبل معركة عطبرة منشورا يذكر فيه قادته وجنوده بالقوانين العالمية فى معاملة الاسرى . ولكنه امتنع عن اصداره قبل معركة امدرمان . »

ولو كان علينا ان نستمع لرواية شاهد العيان — ونستون تشرشل — والمؤلف الشاب ليس بصاحب مصلحة فى التحيز ضد الجيش الذى قاتل فى صفوفه — بل العكس هو الصحيح ، فتشرشل يذكر بالحرف الواحد (٢) : « واود أن أسجل

---

(١) اثارت هذه النقطة ضجة كبيرة فى العالم الخارجى بعد ان كشف أمرها . وشغلت بال الصحافة العالمية مما أدى إلى مناقشة الموضوع فى البرلمان

Daily Telegraph 23/3/99
Daily Mirror 21/3/99
The Times 17/2/99
The British Mucecum – Collindale

وقد طلبت الملكة فكتوريا ايضاحا من كتشنر عن طريق لورد سالسبورى الذى سلم لكتشنر الايضاح ، وبالطبع أنكر كتشنر ذلك الاجراء ولكنه اعترف صراحة باهماله فى معالجة الجرحى . اذ انه ترك الجرحى ليلاقوا مصيرهم دون ان تقدم لهم أى عناية طبية.

Telegraph of Lord Kitchener to Lord Cromer –
PRO./30/57/14. The British Pulic Records Office,
21 Chancery Lane

(٢) "I personally record, that there was a very general impression that the fewer the prisoners, the greater will be the satisfaction of the commandor".
Churchill Winston. *The River War* (1899), p. 195

هنا بما احسسته أنا شخصيا عن الشعور الطاغي وسط الحملة انه من دواعي سرور السردار ورضاءه أخذ أقل عدد من الاسرى » والمعنى واضح . ويستطرد المؤلف ويذكر ان الدعاية الضخمة التي سبقت الحملة والمعركة أدت إلى تلك المجازر : « واثارت (١) مشاعرهم للدرجة التي دفعتهم للاعتقاد بأن اتيان ذلك الأمر الشائن عمل صحيح . فقد صورت لهم الاعداء كحشرات سامة لا تستحق ان تعيش . ونتج عن ذلك ان اعدادا كبيرة من الجرحى قتلوا بعد المعركة . »

ولقد قسم تشرشل الجرحى لثلاثة أقسام : القسم الأول أولئك الذين اعتبروا خطرين في نظرهم . وطبعا كان هذا هو القسم الأكبر وقد تمت ابادته . والقسم الثاني كانت جروحهم جروحا خطيرة ومؤلمة فابيدوا رحمة بهم !!! ونرى هنا ان السردار اباح لنفسه الاجابة على سؤال فلسفي معقد باراحتهم من الآلام ! أما القسم الثالث فعلى الرغم من استسلامهم وتجريدهم من أسلحتهم ولم ينضوا تحت القسمين أعلاه فقد تمت ابادتهم أيضا .

« أما (٢) عن القسم الثالث فليس هناك شك أو جدال فيما تعرض له . فان اعدادا لا استطيع حصرها بالضبط — تمت ابادتهم حتى بعد ان القوا باسلحتهم وطلبوا الرحمة . ولقد استمعت وفحصت أدلة كثيرة تبرهن هذه النقطة . »

في الثانية عشر ظهرا أمر السردار كل الحملة بالتوقف في خور شمبات وعلى ضفاف النيل للاستراحة وتناول وجبة الغذاء . وفي تمام الثانية والنصف بدأ تقدم السردار لدخول أمدرمان مع أنغام موسيقى الكتائب السودانية . توسط

---

(١)

"Had inflamed their passions, and had led them to believe that it was quite correct to regard their enemies as VERMIN, unfit to live, The result was that there were many wounded who were killed."

p. 196

(٢)

"About the third class there can be no dispute, how many I cannot tell, were despatched, although they threw down their arms and appealed for quarter. I have examined and listened to a great deal of evidence on this point."

p. 196

السردار كتائب لواء المقدمة — لواء ماكسويل — مع سرية المدفعية البريطانية ومجموعة كبيرة من رشاشات المكسيم .

سرعان ما اقترب ركب السردار من حائط امدرمان ليستقبل الجيش الغازى بعاصفة من الطلقات انطلقت من مئات ممن وقفوا خلف السور الكبير ، أجابت عليها البطارية ٣٢ والرشاشات بعنفها المعهود . ولما كانت نيران المدافعين توجه من مواقع جهزت على عجل ، فسرعان ما اسكتت .

إنعطف ركب السردار شرقا بحذاء الحائط نحو النيل بحثا عن منفذ للدخول ، وجدت الثغرة الكبيرة التى سببها قصف مدفعية الهاوترز من الضفة السرقية ، وقد سدتها قطع الأخشاب والأبواب والحجارة . واستمروا فى التقدم شرقا إلى أن وصلوا للبوابة الكبيرة فحطمت ودخل منها السردار وبدأ تقدمه نحو قبة المهدى .

إتخذ السردار طريقه عبر شارع امدرمان الرئيسى — شارع الهجرة — وطوال مسيرته جنوبا ، برز أمام الأعين منظرا واحد، فلم تشاهد عين غير الجثث والاشلاء ولم تسمع اذن غير انات الجرحى ، ولم تصعد للانوف رائحة غير رائحة الجثث المتحللة للانسان والحيوان ، ولكلا الجنسين ، ومن كل الأعمار ، وقد استلقوا فى شمس الظهر الملتهبة وهم فى النزع الأخير . كان ذلك حصاد ثلاثمائه دانه عيار « ٥٠ رطل » اطلقت نحو المدينة الخالية من الجنود في يومى ١و٢ سبتمبر . وفي الواقع لم يخل منزل واحد فى امدرمان فى ذلك اليوم من جرحى . وعندما بدأت ظلال المغيب تسدل استارها على المدينة الجريحة ، اندفع فارس ملثم مباشرة نحو الكلونيل سلاطين الذى تقدم نحوه مسرعا وباهتمام بالغ . أسر الفارس اليه بأمر ما فاسرع سلاطين ونقله للسردار . وسرعان ما سرى الخبر سريان النار فى الهشيم للصفوف الخليفه « الخليفة غادر المدينة » متى ؟ « قبل ساعتين » ، فى أى اتجاه؟ « جنوبا » .

عين السردار الكولونيل برود وود لمطاردته بكل لواء الفرسان المصرى . وأسرع هذا وحشد سراياه بخيول متعبة وجنود أكثر تعبا ، وبعد استراحة قصيرة شق مدينة امدرمان جنوبا عبر ديم أبو سعد والفتيحاب .

• • • •

كان الطريق المحاذي للنيل مزدحماً بمئات ممن غادروا المدينة بعوائلهم وعدتهم فقفلوا الطريق الرئيسي للجنوب . ولم يكن من الحكمة والليل يرخي سدوله شق طريقه وسط هؤلاء . فضرب برود وود مع ادلائه غربا داخل الصحراء لتفاديهم على ان يعود صباح اليوم التالى للنيل لملاقاة باخرة التموين التي ارسلت لمتابعته وتموينه . حملت الباخرة بمؤونة أسبوع فلم يتمكن برود وود في انطلاقته السريعة من حمل مؤنة تكفي لأكثر من عدة ساعات .

سرعان ما وجد برود وود نفسه يتعثر وسط المستنقعات بخيوله وفرسانه المتعبين ، كان الظلام حالكا والجياد منهكة ، فأوقف تقدم جنوده للمبيت فى العاشرة مساء . وتحرك في الساعة الثالثة صباحا ليعود للنيل لملاقاة الباخرة . وصلوا لنقطة مقابلة الباخرة ولكنها لم تصل وظلوا فى انتظارها طيلة النهار . وبعد ان وصلت ، كان الفاصل بين برود وود وفريسته قد امتد والأمل ضعيف في اللحاق به.فكر برودوود عائدا لامدرمان.وانتهت بذلك المحاولة الأولى من سلسلة محاولات مطاردة الخليفة .

أقام السردار رئاسته فى جامع الخليفة بامدرمان بعد ان زار بيت الخليفة واطلق سراح السجناء الأوربيين من السجن . ووزعت الويته داخل سور الجامع الفسيح لمبيت ليلتها . ولم يقف اطلاق النار المتقطع داخل المدينة حتى اليوم التالى .

وفى صباح اليوم التالى . احضر عددا كبيرا من كبار الاسرى وهم جرحى ممن القى القبض عليهم ومثلوا أمام سلاطين . أمر سلاطين باعدام الأمير العريفى الربيع ورابح الحبشي ،وأبو قلب ،ودود وابراهيم الشاهر من امراء الملازمين. وأخذوا غرب امدرمان – فى مكان الاعدام « ميدان الربيع حاليا » !

وبعدها ابيحت المدينة لمدة ٣ أيام – وقد اصدر السردار امره باباحة نهب غلال ومنازل الخليفة بواسطة الجنود وسرعان ما اختلط الحابل بالنابل وامتد إلى كل منازل الاهالى . وراح ضحيتها عدد كبير من المواطنين قتلوا على أبواب منازلهم وهم يذودون عن اعراضهم وأموالهم . كما اصدر السردار أوامره بهدم قبة المهدى .

* * * * * *

كيف بدت أرض المعركة ، تلك المقبرة الكبيرة بعد ثلاثة (١) أيام ؟ كانت صفوف الجثث المتراصة تدل بالضبط على سير وتطور المعركة . امتداد جبل سركاب الشرقي وقد غطته جثث الكارا عبر طريق ابراهيم الخليل الدموى ، أكوام من الجثث بفاصل ثلاثة ياردات بين كل جثة وأخرى تحت سطح الجبل عندما بدأت المدفعية فتكها ، تزايدت كثافتها كلما تقدمت شمالا نحو الزريبة حتى المكان الذى فتحت فيه البنادق والرشاشات نيرانها حيث تكدست الصفوف ، وأحيانا ثلاث جثث فوق بعضها البعض ، فقد أحصيت ٤٠٠ جثة فى قطعة من الأرض لا تزيد مساحتها عن مائة ياردة مربعة .

خطان طويلان من الجثث المكدسة يبدآن من كررى ومن سركاب ويلتقيان فى البقعة التى كان يقف عليها لواء ماكدونالد، وازدادت كثافتها فى البقعة التى ظلت الراية السوداء ترفرف عليها ، وشمالها تكدست الجثث التى اختلط فيها اللون القرمزى ، بلون الملابس البيضاء ، بلون الجياد الأصهب . هجمة فرسان دغيم. وفى سهول كررى ، كشف ضوء النجوم كل مساء عن جثث أبطال وقادة عسكريين عظام ، كللت اسماؤهم هذه الصفحات أكثر من مرة ، يعقوب ، ود بشارة الشجاع ، الخليل ، عثمان أزرق ، أبو سوار ..

« وحيث سقط العدو لم تكن هناك مراسم الدفن والموسيقى ولا الاحتفالات التى تمجد عظمة الرجولة الصامدة . ولكنهم كانوا اشجع من مشى على وجه الأرض ، دمروا ولم يقهروا بقوة الآلة » (٢) .

والجرحى ؟ لقد ظلت شمس الصيف تسلط سياطها عليهم يوما بعد يوم ،

---

(١) انظر خريطه رقم (١٤) الثمن .

(٢)

But there was nothing *deluce et decorum* about the Deruish dead; nothing of the *dignity of unconquerable manhood, yet thhse were as brave men as ever walked the earth, destroyed, nat conquered by machinery.*

Churchil

والعشرات ترحف بضع ياردات يوميا .. للنيل لتبتلع قطرة ماء .. والكثيرون لم يتمكنوا من الوصول أبدا فماتوا وأنظارهم ترنوا لماء النيل .

ولكن جزءا آخر من الجرحى رقدوا فى نفس أماكنهم تحت الشجيرات الصغيرة ووجدوا أحياء حتى بعد أسبوع من المعركة ، كيف استطاعوا ذلك ؟! نساء امدرمان [1] . لقد ظلت النساء فى شغل شاغل طوال تلك الأيام وهن يتسللن وقد تلفحن بالظلام كل ليلة ، لدفن الموتى ، وعلاج الجرحى ، يحملن الماء والطعام ، وكتمت الجبال الساكنة سرهن كل ليلة ، وهى تستمع لعويل الثكالى وهن يدفن موتاهن ، والهمس المتقطع عبر الدموع المتساقطة الممتزجة بماء الشرب ..

---

(١) تؤيد اوراق يوسف ميخائيل استنتاج تشرشل من تسلل النساء كل ليلة من المدينة لا رض المعركة لعلاج الجرحى ودفن الموتى فقد زار ارض المعركة بعد ٤ أيام ليدفن احد زملائه فوجد كثيرا من النساء ضمنهن امرأة ناحبه تبحث عن جثة عثمان ازرق لتدفنه فوقف معها مواسيا .

أوراق يوسف ميخائيل ص ١٢٦ .

نهـــاية المطـاف

« مهما كانت نظرتنا الخليفة فاننا لانملك الا أن نعجب بميتته الشجاعة . »

ونجـــت

كان العاهل الطريد يحث بعيره على السير السريع وقد فارقه الذهول وعاد اليه التصميم وتوقد الذهن . لم يكن هذه المرة على رأس جيوشه الهائلة التى تقدم بها أمس وكله ثقة فى النصر بل كان على رأس الثكالى واليتامى . لقد تغلب على شلل صدمته وأهوال اليوم العاصف بسرعة ، سيفعل مثل رفيقه عثمان دقنه . سيعاود القتال ، وليست هذه نهاية كل شيء ، لينطلق غربا ويعيد تعبئة قوته ويبدأ كل شيء من جديد . فما زال هناك جيش أحمد فضيل فى القضارف ، والختيم موسى فى الأبيض ، وعربى دفع الله فى الرجاف . سيرسل اليهم لينضموا اليه وبعدها يقتحم امدرمان ويدخلها ظافرا كما فعل مع الامام قبل ثلاثة عشر عاما.

كان حوله عدد من الامراء هم يونس الدكيم ، وشيخ الدين ، وعثمان دقنه ، وعبدالباقى عبد الوكيل ، ويعقوب أبو زينب ، والصديق بن المهدى ، وعدد كبير من الملازمين الذين عادوا مع شيخ الدين بعد انضمامه له فى امدرمان ، وخلفهم مجموعة كبيرة من النساء والاطفال يسيرون على أقدامهم ، كانت هذه هى المجموعة الأولى التى سار على رأسها الخليفة ، وخلفها كانت تتجمع مجموعتان تأخرتا قليلا حتى يتم تنبيه العوائل .

خيم صمت لا يقطعه إلا وقع الاقدام والدواب المسرعة ، وعندما بدأت ظلال المغيب تغلف القافلة المسرعة ، شق السكون فجأة دوى إنفجارات المدفعية وطقطقة الرشاشات . فقد إنكشفت القافلة كلها فجأة للبوارج عندما تقدمت لعبور خور أبو عنجه (١) . لم يلتفت الخليفة إلى قصف المدفعية ، فقد كان المدى بعيدا ولكنه اثار الذعر والاضطراب وسط جموع النساء والاطفال الذين ساروا على أقدامهم .

---

(١) فى مكان كوبرى أبو عنجة على شارع الأربعين حاليا .

سرعان ما أرخى الليل استاره ، ليخفي تقدم القافلة المسرعة وعلى رأسها الأمير أبراهيم مخير (من عرب الزيادية) الذى كان دليل الخليفة لنقطة المقابلة.

استمرت القافلة في سيرها لمدة ثلاثة أيام (١) ، عانوا فيها ضنكا شديدا وبدأ الأطفال والنساء يتساقطون وتورمت أقدامهم من السير المتواصل ، وفي عصر يوم الاثنين أشرفوا على ام غنيم حيث إنتظرتهم الجمال (٢) والخيول والمؤن فى حراسة عرب الزيادية . تهالكت القافلة المنهكة من السير المتواصل والجوع ، فأكلوا وشربوا ووزع النساء والأطفال على الجمال والأبقار للركوب ومكثوا يوما واحدا إلى أن انضم لهم الخليفة على ود حلو وهو لا يزال محمولا على عنقريب أثر اصابة ساقه. ومن هناك أرسل للختيم موسى ولأحمد فضيل لموافاته في أبو ركبه:

« فنعلمك أيها الحبيب انا عنك سائلون ولك بالخير والبركة داعون ومازلت ملحوظا منا بعين الرضا ومزيد الاكرام لما أنت عليه من القيام بأمر الدين وبذل الهمة فيه جزاك الله عن ذلك خيرا وهداك سيرا وشكر مسعاك وحفظك وتولاك ثم نعلمك أيها الحبيب اننا بحمد الله تعالى فيمن معنا من الأنصار بخير وقد انحزنا عن الاعداء بعد حصول الحرب بيننا وبينهم إلى جهة دار الجوامعة بنواحي المحل المسمى بالغبشه فنحن الآن به فى أمن وأمان ومزيد اطمئنان وليس القصد من حضورنا فى هذه الجهة المذكورة الا التحيز عن الاعداء اخذا بالحزم والا فليس القصد ان شاء الله الا اعادة الكرة على الأعداء المخذولين ومحاربتهم حتى ينتصر الدين ان شاء الله تعالى ويهلك الكافرون . »

** ** ** **

---

(١) ذكر لى السيد موسى يعقوب أنه كان فى الثالثة عشر من عمره آنذاك ، وأنه لم يذق ولا لقمة طعام واحدة فى تلك الا يام اذ كان يسير فى الدفعة الأولى التى صحبت الخليفة .

(٢) الواضح ان معلومات موسى يعقوب والفكى حامد الزملو تؤيد اوراق يوسف ميخائيل فى ان يعقوب دبر أمر الا نسحاب من امدرمان . فقد كان معارضا للنهاية خوض المعركة فى امدرمان . وقد ذكر يوسف ميخائيل ان يعقوب أرسل كميات ضخمة من المؤن والجمال قبل المعركة فى الفاشوشيه لتنتظرهم هناك .

١ - أوراق يوسف ميخائيل . ٢ - أقوال الفكى حامد الزحلو . شريط مسجل رقم ٤ - الرماش ٧١/٥/٢٣ .

تدافع سكان أمدرمان في عملية خروج كبيرة "Exodus" وبالاخص أبناء الغرب أما للعودة لمساقط رؤوسهم أو اللحاق بالخليفة . لقد جرهم الخليفة من أوطانهم قسرا ، وهاهم يعودون اليها بعد عشرة أعوام .

كانت أبرز المجموعات التي خرجت من أمدرمان هي مجموعة الخليفة شريف ومعه أبناء المهدى وأغلب الاشراف حيث مضوا مباشرة إلى الفاشوشيه . تلتها مجموعة كبيرة من الفور والرزيقات في طريقهم مباشرة إلى دارفور ليلحقوا بعلي دينار .

في اليوم الخامس من سبتمبر بدأت المحاولة الثانية للحاق بالخليفة ومطاردته بقيادة عبد العظيم بك زعيم العبابدة بقوة بلغ عدد أفرادها ٦٨٥ ، تكونت من أخلاط القبائل ومعظمها من الهواوير والسواراب والجعليين . واستمرت المطاردة إلى الشفيق . ولكن عبد العظيم قفل راجعا لأن جماله لم تستطيع اللحاق بالخليفة في اندفاعه السريع ، كما كان الفاصل بينهما أكبر من أن يستطيع عبد العظيم طيه بجماله المنهكة [١] .

بعد راحة قصيرة لم تدم أكثر من يومين ، فارق الخليفة النيل الأبيض

---

(١) أوضحت المعلومات التي قدمها عبد العظيم أن الخليفة في طريقه للأبيض . وتقدير الخليفة ان اعداءه سيظنونه ذاهبا إلى الأبيض جعله يغير اتجاهه إلى الجنوب ، إلى جبال النوبة المنيعة .

كما ألقت المعلومات التي قدمها عبدالعظيم الضوء على الاعداد الكبيرة التي تجمعت من القبائل المذكورة .

١ — الزياديه .
٢ — دغيم .
٣ — كنانه .
٤ — الجمع .
٥ — الحمر .
٦ — المجانين .
٧ — الشانخاب .
٨ — التعايشة .
٩ — الحمر .
١٠ — الرزيقات .
١١ — الهبانية .
١٢ — المسيريه .

واوضح في تقريره ان هدفهم الاساسي من الانضمام للخليفة هو تقدمه نحو أوطانهم وانهم سيتخلون عنه بمجرد وصولهم .

وضرب غربا فى اندفاعة سريعة لمنطقة جبال النوبة ، ليستجمع قواه من جديد ويجمع فلوله متفائلا ببدء نضاله من جبل قدير ، نفس المكان الذى شهد إنتصارات المهدية الأولى . زار قبر والده أولا فى أبى ركبه حيث إنضم اليه الختيم موسى بحامية الأبيض . كان وصول الختيم موسى (١) أول الغيث بالنسبة للخليفة ، وارتفعت معنوياته كثيرا . فحامية الأبيض على الرغم من صغرها كانت تضم جنودا لازالوا يحتفظون بولائهم وصلابتهم القديمة ، ولم تهزهم أهوال المعركة التى قاسى منها بقية من كانوا معهم .

وبعد أن تجمع رجاله (٢) اتجه غربا إلى شركيلا حيث قرر أن يستقر هنالك، وفى طريقه لشركيلا ، لم يقدر الكمية التى يحتاج اليها من الماء وهو يجتاز منطقة الجفاف القاحلة ، فتوفى كثيرون من العطش (٣) . وأخيرا وصل لشركيلا فأقام فيها حوالى الشهرين وأمضى تلك الأيام كلها انتظارا لأحمد فضيل . فلما لم يصل قرر الاستمرار فى رحلته إلى أن يصل جبل قدير وسط جبال النوبة . غير انه ترك العائلات فى منهل السيسبانة ، وتحرك بالمقاتلين فقط . فلم يستطع التكهن بنوايا ملوك الجبال نحوه ، وفعلا جاهره أهل جبلى تقلى بالعداء ولكنه استطاع التغلب عليهم وشق طريقه وسط الجبال جنوبا نحو قدير . وأرسل من هناك لمنهل السيسبانه لاستدعاء العائلات التى تركها فى حراسة مائة مقاتل فقط من الملازمين ، وعند إقترابهم من خور قمرايه داهمهم فجأة عدد كبير —حوالى ألف مقاتل— من رجال الملك أبو رنبيط وابادوا جزء كبيرا من الحرس . الا ان أغلب النساء اختفين وسط الخور الكبيرة إلى ان وصلتهم نجدة الخليفة . فقد حملت الجبال أصداء دوى الرصاص ، فبعث لهم الخليفة ربعا بقيادة فضل الحسنة ثم لحقهم الخليفة وتمكن من استخلاص بعض النساء اللائى سباهن رجال الملك أبو رنيط واستمر فى رحلته نحو جبل قدير .

---

(١) من الصعب تحديد تواريخ تنقلات الخليفة السريعة بالضبط فى تلك الأيام . فانعدام الوثائق من جهة والاعتماد من جهة أخرى على التواريخ والمعلومات الشفوية من رواة كانوا فى سن المراهقة آنذاك أمر يصعب معه التأكد من صحة التواريخ .

(٢) قدر المؤرخ محمد عبد الرحيم عدد من توفوا بـ ٢٠٠٠ ذكر منهم الشيخ أحمد ود البارو عالم الفقه المشهور .

(٣) أنظر خريطة رقم ١٥ « إنسحاب الخليفة » .

وفي رحلته الشاقة جنوبا تعرض اكثر من مرة للاشتباك مع ملوك الجبال ، خرج منها جميعا منتصرا . وآخرها كان في جبل جراده . فعندما اقترب من جبل جراده ارسل الخليفة مبعوثا ليعرف نوايا سكان الجبل فبادروه بالحرب ، فاقتحم الجبال وصفى امرهم واقام نحو ٤٥ يوما في الجبل . ثم تحرك جنوبا الى ان وصل جبل قدير حيث استقبله الملك بوش ملك جبل قدير بحفاوة وكرم أزالا كثيرا من ارهاق الجسد ، ومرارة النفس . واستقر هناك مدة تقدر بثلاثة اشهر وبعدها عـــاد لشـــركيـــلا .

** ** ** **

أخيرا وصل أحمد فضيل – كبلوخر في واترلو – بعد سلسلة من المغامرات العنيفة. فقد استجاب لنداء الخليفة بالانضمام له في امدرمان لحراسة الضفة الشرقية. وفي طريقه لأمدرمان ، وبالقرب من رفاعه وقعت المعركة وعلم بالهزيمة . وسرعان ما وصله مبعوثان من قبل السردار وسلاطين يحملان نبأ المعركة ويطلبانه التسليم . ولكن أحمد فضيل ثار ثورة عارمة ورد بأن قتل أحد الرسل باعتباره خائنا ، واعاد الثاني لسلاطين ليحمل إجابته بأنه لن يستسلم وسيقاتل للنهاية .

بعدها غير إتجاهه وعاد جنوبا لعبور النيل الأزرق عند التقائه بنهر الرهد ، ليعبر غربا إلى الخليفة . وهناك وصله خطاب الخليفة – ولكنه عاد وقرر العودة للقضارف فقد ترك جنوده عوائلهم وعدتهم في القضارف . ولكن الموقف في القضارف كان قد تغير قبلا ، فقد سمع الكولونيل بارسونز بنتيجة معركة امدرمان وقرر التقدم واحتلال القضارف وهي خالية . وبعد اشتباك عنيف خارج المدينة مع الربع الذى ترك لحراستها بقيادة الأمير سعد الله تمكن بارسونز من شق طريقه للمدينة ، حيث استسلم لهم الأمير النور عنقره بدون مقاومة .

إحتل بارسونز المدينة وحصنها وإنتظر أحمد فضيل الذى تقدم وهاجم دفاعاتها ثلاثة هجمات عنيفة لم يكتب له فيها النجاح وفقد جزءا كبيرا من قوته فضرب حولها الحصار وإنتظر أن يرغمهم الجوع على التسليم .

وصلت أنباء الحصار للجنرال رندل في الخرطوم فقرر ارسال حملة لفك حصار القضارف ، عقد لواء قيادتها للكولونيل كولنسون . تكونت من ثلاث

كتائب سودانية وكل سرايا الهجانة الثمانية . والحق بالحملة عنصر مدفعية البوارج المدرعة . ولكن أحمد فضيل أدرك أنه سينحصر بين نارين ، ففك الحصار وجمع قوته واتجه جنوبا ليعبر نهر الدندر منحرفا لجهة الجنوب ، بدلا من ان يتجه غربا مباشرة ليتجنب البوارج التى ظن أنها لا تستطيع الوصول لذلك المدى .

فى السابع من نوفمبر عبر نهر الرهد بسلام وتقدم غربا إلى أن وصل لنهر الدندر فى بقعة تقابل كركوج على النيل الأزرق . وتوقف هناك للاستكشاف .

ولكن الجنرال رندل أرسل قوة أخرى لاستعادة كل منطقة الجزيرة بقيادة الكولونيل لويس محملة على البوارج . كان تقدم الكولونيل لويس سريعا بحيث تحتم اصطدامه بأحمد فضيل وهو يجاهد لشق أرض الجزيرة ليصل للنيل الأبيض ومنها للخليفة .

ولقد شهد الشهران اللذان تلا توقف أحمد فضيل على نهر الدندر مطاردة بين لويس وأحمد فضيل أشبه بالروايات البوليسية ، أحمد فضيل ووراءه النساء والأطفال بعد ان عبر الدندر يبحث عن نقطة مناسبة بعيدة عن مرمى البوارج ليعبر منها بجيشه الكبير ، مبتعدا عن النيل والبوارج وسط أحراش وغابات الدندر وهو يتثنى يمنة ويسره مقتربا من النيل وهو مجبر للحصول على الطعام والشراب ، مبتعدا عنه وهو يتجنب البواخر . ولكن تقدمه دائما كان فى اتجاه الجنوب نحو الرصيرص ليتمكن من عبوره فى بقعة لا تصلها البوارج ، ولويس يتحرك ببوارجه تارة جنوبا وأخرى شمالا ، ويبعث بمشاته على طول الضفاف شرقا وغربا مستجيبا للاشاعات المضللة عن مكان أحمد فضيل (١).

وصل أحمد فضيل فى انعطافته الواسعة إلى الداخلة حوالى ٢٠ ميلا جنوب الروصيرص فى يوم ١٨ ديسمبر . وعبرت قواته المتقدمة النيل الأبيض بسرعة . ووقف على الشاطىء ليشرف على عبور النساء والأطفال قبل أن يصلهم العدو .

وصلت الأنباء للويس الذى إنضم له الشيخ بكر على رأس ٤٠٠ رجل ، وأسرع هذا لمهاجمة أحمد فضيل ، بعد أن عزم على مهاجمة الجزء الذى لم يتمكن من العبور ولازال فى الضفة الشرقية أولا .

---

(١) انظر الخريطة رقم ١٥ « انسحاب الخليفة ».

فاجأ لويس أحمد فضيل ونصف رجاله على الضفة الغربية ، والنصف الثانى على الضفة الشرقية وقد أقام دفاعا محكما فى جزيرة الداخله لتغطية عبوره . وبعد ان انضمت للويس بوارج المدفعية « الداخلة » « والملك » تحمل تعزيزا من مائتى جندى ، بدأ الهجوم . وتطور لمعركة ضارية من الثامنة صباحا حتى مغيب الشمس لاقتحام دفاعات أحمد فضيل ، تكبد فيها لويس ١١٧ جريحا . خلاف عدد كبير من رجال الشيخ بكر الموالين . وقتل ٥٠٠ من رجال أحمد فضيل واسر ٢٧٠٠ مقاتل ممن دافعوا داخل الجزيرة وعدة مئات من النساء والأطفال .

أفلت أحمد فضيل بالبقية الباقية واخترق الجزيرة في اندفاعة سريعة . ولكن التعب والارهاق كانا قد اخذا من رجاله . وعندما تصدت لهم قوة كبيرة مرسلة على البارجة المتمة فى الرنك فى يوم ٢٢ يناير ، استسلم عدد كبير منهم ، وقنع أحمد فضيل بتصميمه المعهود بعبور النيل الأبيض على اطواف صغيرة من الطرور ومعه ثلة من الرجال لا تتجاوز ثلاثون رجلا . حيث التحق بالخليفة فى دار الجوامعة فى شركيلا .

** ** ** **

بدأت المحاولة الثالثة للقضاء على الخليفة يوم ٢٩ ديسمبر حين جهزت قوة مختلطة بقيادة الكولونيل كتشنر (١) وأمرت بالتقدم ومهاجمة الخليفة فى كردفان باعتبار ان القوة المتوافرة تحت يد الخليفة لا تتجاوز ١٠٠٠ مقاتل . تكونت الحملة من الوحدات التالية :—

سريتين خيالة مصرية .

الكتيبة الثانية المصرية .

الكتيبة الرابعة عشر المصرية .

٢ مكسيم .

٢ مدفع .

سرية هجانة .

١٦٠٠ جمل لحمل مياه الشرب .

---

(١) شقيق السردار

كانت المشكلة الأساسية التى سيواجهها الكولونيل كتشنر هى الحصول على مياه الشرب وهو يشق طريقه عبر كردفان في زمن الجفاف .

فارقت الحملة النيل يوم ٢٣ يناير من كوهي بعد ان بعثت بجماعة متقدمة لاحتلال منطلق الوثبة التالية ــ آبار جديد . وبعدها شقت الحملة طريقها للجنوب الغربى وسط اشجار متزايدة الكثافة كلما تقدموا غربا . كان تقدم الحملة منهكاً للغاية واشبه بتقدم هكس في الطريق نفسه قبل ستة عشر عاما . فقد كانت تعلميات قائد الحملة صارمة للغاية فيما يختص بالاقتصاد فى استخدام المياه . كما كان التقدم وسط أرض قاحلة لم يصادفهم فيها من مظاهر الحياة الا أشباح من السكان الجياع يتحركون فى أرجائها .

وعند وصولهم لجديد وجدوا أغلب مياه الآبار آسنة وغير صالحة للشرب. أقاموا ثلاثة أيام فى جديد واستأنفوا السير يوم ٢٦ نحو أبو ركبة حيث أمضوا ليلتهم حول كوخ القش الذى بنى لاقامة الخليفة عند زيارة قبر والده كعادته .

استجوبوا أحد السكان فأخطرهم ان الخليفة زار قبر والده فى أبو ركبة ثلاثة مرات، إلا ان مقره الحالى هو شركيلا غربا. تحركت الحملة نحو شركيلا يوم ٢٨ يناير ، وعندما اقتربت من العقيله استقبلوا بمشهد اثار الدهشة ثم الفزع ــ فقد وجدوا أمامهم مدينة كاملة بشوارعها وأزقتها المخططة المستوية المستقيمة موضحة ان ولع الخليفة بالنظام الدقيق لم يفارقه حتى فى أيام يأسه، إلا ان الاعجاب سرعان ما تحول إلى ذعر عندما سرح بصرهم لمتابعة امتدادها لبضعة أميال .أوضح عدد الاكواخ الخالية ان سكان هذه المدينة لا ينقص عن عشرة آلاف وان عدد المقاتلين لا ينقص عن ٥٠٠٠ أو ٦٠٠٠ مقاتل .

باتت الحملة الليلة فى معسكر العقيله وفى صبيحة اليوم التالى بعثت بعناصر استكشاف للتقدم نحو معسكر الخليفة فى شركيلا . زحف الفرسان للأمام وسرعان ما تم الاتصال بعناصر العدو المتقدمة . وعندما تجاوزها واقتربوا من شركيلا ووجدوا الخليفة يقف مستعدا لهم ، شاهدوا منظرا مصغرا للمشهد الذى اصطدمت به أعين الرماحة فى ضحى واحد سبتمبر ، الرايات المرفرفة والمواجهة العريضة من حملة البنادق الذين تجاوز عددهم ٢٠٠٠ مقاتل ، وخلفهم عدد ضخم لم

يستطع الفرسان حصره من حملة السلاح الأبيض .

سارع الفرسان بقيادة الميجور متفورد بالانسحاب للخلف وتبليغ الكولونيل بما شاهدوه مؤكدين ضخامة الاعداد التى دل عليها معسكر العقيله .

كان ذلك فوق طاقة قائد الحملة الذى تقدم نحو الخليفة وهو يظن أن قوته لا تزيد عن الف مقاتل . كما كانت أوامر السردار للكولونيل كتشنر واضحة ، أما أن يهاجم ، أو يعود فورا — وان لا ينتظر دقيقة واحدة خوفا من تكرار مأساة شيكان .

استدارت الحملة شرقا عائدة أدراجها . كان الانسحاب شاقا ومؤلما ، فالرهبة التي سادت الانسحاب وسط الأشجار الكثيفة، وتوقع هجوم الخليفة كل لحظة ، وقلة المياه والعطش المتزايد ، ومناظر الجوع والجثث التى ملأت طرق الأرض القاحلة اذا أضيف اليها الاحساس بالخيبة والفشل ، جعلت رحلة العودة ثقيلة على النفوس والاجساد . وعندما شاهدت أعين الكولونيل كتشنر مياه النيل الأبيض العريض ، وقد القت البوارج مراسيها للعودة به لم يصدق عينيه . وانتهت بذلك المحاولة الثالثة الفاشلة للقضاء على الخليفة .

** ** ** **

كيف أمضى الخليفة عامه الأخير ؟ كان عام ١٨٩٩ عاما ثقيل الوطأة على الخليفه ، وهـو يمضى أيام أفول نجمـه فى نفس المنطقة التى شـهدت بزوغه . أمضى الخليفة أغلب أيامه فى زيارة الغار الذى كان يتعبد فيه المهدى فى قدير منقطعا عن العالم فى خلوات طويلة تمتد لأيام . ومن شركيلا زار غار المهدى فى قدير ثلاثة مرات . كما كان يزور قبر والده فى أبى ركبه وشيد كوخا صغيرا يمضى اليه منفردا .

أما فيما عدا ذلك فقد أمضى معظم أيامه فى ادارة وتوجيه الحملات الخاطفة بقيادة أحمد فضيل أو الملك بوش ملك جبل قدير أو الختيم موسى . كانت العادة أن يبعث بالطيب ود العربى أحد محافظى أمدرمان السابقين إلى ملوك الجبال طالبا التموين بالذرة ، فان رفضوا وجه نحوهم حملات تأديبية بقيادة الختيم أو أحمد

فضيل —وعندما انسحب الختيم موسى لما شهده من استعداد وقوة لا قبل له بمواجهتها جهزها لهم ملك جبل لوقان ، قرعه الخليفة تقريعا عنيفا وأوضح لهم ان انسحابهم سيقوى من عزيمة ملوك الجبال .

الواقع ان تدبير الطعام لسكان المعسكر كان يشغل حيزا كبيرا من نشاط الخليفة . اذ أمضوا أغلب شهور تلك السنة فى شبة مجاعة دائمة . لا سيما وان اعداد النساء والقصر كانت تتجاوز الالوف ، وقد حـدثنا من عاصر تلك الفترة عن الأهوال التى قاسوها ، وشناعة المجاعة التى واجهوها ، حتى انهم كانوا خلال الشهور الطويلة لا يجدون حبة ذرة فى بعض الاحيان .

وعلى الرغم من وجود كثير من المخلصين حول الخليفة ، فان ذكريات المعركة الرهيبة التى فقد فيها معظم جيشه وأقرب الاقربين اليه ظلت تلازمه طول الوقت . وزاد من آلامه الاخبار المتواترة عن تداعى باقى سلطته ، وعن المطاردة والتقتيل الذى تعرضت له عشيرته على يد الأمير أبو دقل الذى كان يتعقب التعايشة أينما وجدوا . كما كان وجود على دينار فى دارفور سدا منيعا فى وجه الخليفة لجهة الغرب ، ومرور البوارج المتواصل على النيل الأبيض أقام سدا فى وجهه من من ناحية الشرق ، فانحصر فى كردفان . وبعث مرتين للخليفة محمد شريف الذى تخلف فى جزيرة أبا راجيا اياه الانضمام له ومعه أبناء المهدى ، غير ان الخليفة شريف رفض طلبه . وحاول من حوله التخفيف عنه دائما . وقد ظل هؤلاء معه للنهاية : —

على ود حلو

عثمان دقنه .

يونس الدكيم .

عثمان شيخ الدين .

أحمد فضيل .

الأمير اسماعيل أحمد .

على الجله .

أبو جكه .

عبد الباقى عبد الوكيل .
هارون شقيق الخليفة .
فضل الحسنه ..
بشير عجب الفيه .
يعقوب أبو زينب .
حامد على .
الصديق بن المهدى .

وعندما اقترب فرسان الكولونيل كتشنر من معسكر الخليفة ، شاهدوا اعداد ضخمة كانت تتجاوز العشرة آلاف شخصا ، ولكن ذلك كان فى يناير . ومع تعاقب الشهور وازدياد المجاعة بدأت أعداد كبيرة فى الانفضاض من حول الخليفة عائدة لأوطانها . وكان هو يسمح لهم دائما بذلك مخيرا اياهم بين البقاء معه أو العودة لديارهم ، بعد أن بدأ اليأس يتطرق اليه عقب انضمام أحمد فضيل بدون جيشه ، فقد كان يعول على قواته املا كبيرة . وعندما حل شهر نوفمبر وسير ونجت حملته الأخيرة نحو الخليفة ، لم يكن حوله إلا نحو ٣٠٠٠ مقاتل فقط .

* * * *

فى أواخر أكتوبر إنتشرت فى أسواق وأزقة أمدرمان شائعات غامضة عن تحرك الخليفة ، وعن أسلحة مجهزة مدفونة فى أمدرمان استعدادا لتفجير الثورة من جديد مؤازرة له . توالت التقارير لشعبة الاستخبارات عن تأهب سكان أمدرمان والقرى المجاورة لبدء الثورة من جديد . ساد الجو المتوتر المشحون بالشائعات المدينه ، وأخيرا تبلورت الشائعات فى أنباء مؤكدة : الخليفة يتقدم ، ليس ليتوارى فى أحراش كردفان ودارفور .. بل يتقدم نحو أمدرمان .

ففى أوائل نوفمبر دفع الخليفة بأحمد فضيل على رأس قوة متقدمة للحصول على الأطعمة اللازمة لبدء التقدم . واصل أحمد فضيل طوافه لجمع المحاصيل إلى ان أشرف على ضفاف النيل فاصطدم بأحدى البوارج ، وتبادل معها إطلاق النيران ومن ثم كر عائدا لينضم للخليفة ، وتأكدت اشاعة تقدم الخليفة .

فى عشرين أكتوبر ، وقبل مغادرة الخرطوم للقـــاهرة أصدر السردار

تعليماته بتجهيز الحملة الرابعة للتوجه لكردفان والقضاء على الخليفة .

أوكلت قيادة الحملة للكولونيل ونجت رئيس شعبة المخابرات وتكونت من الوحدات التالية :

١ سرية خيالة مصرية .
٦ سرايا هجانة .
سرية المدفعية الثانية .
سرية مكسيم .
مدافع مكسيم محمولة على الخيول "Galloping Maxims"
لواء مشاة تكون من :
الكتيبة السودانية التاسعة .
الكتيبة السودانية الثالثة عشر .
كتيبة سودانية من الغير نظاميين .
عناصر من فرسان القبائل .

على ان تتجمع كل القوة فى كاكا على النيل الأبيض ، ٣٨٠ ميل جنوب الخرطوم .

فى الساعة الرابعة من صباح ٢١ نوفمبر ١٨٩٩ ، فارق الكولونيل ونجت النيل من الفاشوشية واتجه غربا على رأس ٣٧٠٠ رجل فى اندفاعة سريعة للحاق بالخليفة في قدير قبل أن يتوارى مرة أخرى في جبال النوبة .

أمضت الحملة جــزءا من الليل على بعد خمسة أميال جنوب الفاشوشية وواصلت التقدم على ضوء القمر خلف ستار من الفرسان إلى نفيسة حيث تلقى ونجت معلومات مؤكدة عن وجود أحمد فضيل فى نفيسة ، وهو يحمل كميات وافرة من الذرة فى طريقه لمعسكر الخليفة .

وقبل فجر الثاني والعشرين تحركت كل القوة بتشكيل الاقتحام نحو نفيسة ، وعند اقتحامها وجد المعسكر خاليا . أوضح استجواب الشخص الوحيد الذى عثر عليه ان أحمد فضيل تحرك أمس إلى ود عادل على مسافة خمسة أميال .سارع

ونجت وبعث بكل قواته الراكبة تعززها بطارية المكسيم ومدفعان إلى أبو عادل على ان يلحق بهم بمشاته فورا .

تقدمت القوات الراكبة واحتلت هضبة مرتفعة تشرف كل معسكر أحمد فضيل ومع أول خيوط الفجر فتحت نيرانها .

جمع أحمد فضيل قوته بسرعة مستترا بالأشجار والحشائش ، وبشجاعته وتصميمه المعهود ، هجم عدة هجمات عنيفة ، ولكن نيران الرشاشات والبنادق اوقفتها على بعد ٥٠ ياردة من صفوف الفرسان . وعندما جمع قواه للمرة الأخيرة وهجم هجومه الرابع كان كل مشاة الحملة قد وصلوا وعززوا الفرسان والهجانة المترجلين فاستطاعوا صده بسهولة .

فقد أحمد فضيل ٤٠٠ رجل وبعدها إنسحب لينضم إلى الخليفة فى أم دبيكرات . عثر ونجت على كميات كبيرة من الحبوب . وأفاد استجواب الاسرى ان الخليفة فى الحمرة على مسافة ثلاثة أيام من أبو عادل وانه سيتقدم نحوه من جديد حيث كان من المقرر ان ينضم له أحمد فضيل حاملا المؤن ليبدأ التقدم شمالا نحو أمدرمان .

كان على ونجت أن يتخذ قرارا هاما : اما أن ينتظر الخليفة ، أو يتقدم لاحتلال آبار جديد حارما الخليفة من مصدر الحياة الوحيد فى تلك المنطقة ، ولكن المخاطرة تكمن فى أن الخليفة قد يسبقه لا حتلالها ، وبالتالى يحرم ونجت منها ويضطر لاقتحام الآبار فى ظروف قد لا تناسبه اطلاقا . فقرر ونجت أخيرا ان يخاطر ويتقدم نحو جديد .

فى منتصف ليلة ٢٣ نوفمبر تقدمت الحملة نحو جديد ، ووصلها بعد سير متواصل فى الساعة العاشرة من يوم ٢٤ ، فاحتلت الآبار ، وتنفس ونجت الصعداء، وفى جديد عثروا على رجل كان قد ترك معسكر الخليفة ، وأوضحت المعلومات التى قدمها ان الخليفة يعسكر بكل قواته فى أم دبيكرات على بعد سبعة أميال . أكد استكشاف سريع بالخيالة نحو معسكر الخليفة صحة هذه المعلومات . وبعد راحة قصيرة أمر ونجت كل الحملة بالتقدم نحو أم دبيكرات . بدأ التقدم سعت ١٢٢٠ .

* * * * * * * *

ليس هناك تفسير للدوافع التى حدت بالخليفة لترك مكمنه الحصين فى جبال النوبة والتقدم نحو أمدرمان مهاجما إلا رغبته فى خوض معركة يائسة أخيرة، أما ان يحقق فيها نجاحا أو يموت ميتة كريمة . فتقدمه على رأس ٤١٥٠ رجل لمهاجمة أمدرمان ، والطريقة التى جدد فيها البيعة للراغب فى الاستمرار معه وعدم حرصه على حشد أكبر عدد ممكن ، بل تشجيعه لكل من لا يرغب فى القتال على ترك صفوفه، وأخيرا اختياره لميتته الشجاعة بتلك الطريقة، توضح ان قراره كان قرارا قدريا أملاه اليأس وليس الأمل فى استعادة سلطته . عكس ما يبدو فى الظاهر من ان فشل الحملات الثلاث التى وجهت نحوه بعد امدرمان قد شجعته وقوت من عزيمته فى أخذ المبادأة والتقدم نحو أمدرمان .

وقد أقام الخليفة فى أم دبيكرات مدة لا تتجاوز أسبوعين فى أنتظار أحمد فضيل . وفى صبيحة يوم ٢٣ سمع الخليفة دويا بعيدا متواصلا . فجمع قوته وإنتظر قلقا . وسرعان ما وصل أحمد فضيل مع كوكبة من رجاله وملابسه ملطخة بالدماء وأعطى تقريرا سريعا عن المعركة التى فقد فيها ثلاثة أخماس قوته ، موضحا قوة العدو ونواياه .

أرسل الخليفة رواد استطلاع من الفرسان بقيادة على الجلة للاستكشاف وتحديد مكان العدو بدقة أكثر .

عاد على الجلة قبل المغيب وأوضح ان العدو قد احتل آبار جديد .

كان الطريق للشمال مقفولا أمامه بواسطة ونجت ، وكان الشرق محرما عليه بالبوارج على النيل الأبيض ، أما إنسحابه للجنوب فقد كان استحالة عملية بعد احتلال العدو لمصدر المياه الوحيد فى المنطقة . فأتخذ الخليفة قراره بأن يقف وقفته النهائية وينتظر فى أم دبيكرات .

جمع الخليفة كل من كان فى المعسكر ووقف فيهم خطيبا :

« أنتم كنتم معى طوال المصارعة العنيفة بينى وبين العدو ، وقد خسرت أكثر من نصف جيشى فى أمدرمان ، وقد قررت مقابلة العدو والاستشهاد هنا ،

وانا احللكم جميعا من بيعتي ، ومن أراد الخروج الآن قبل هجوم العدو فليفعل وانا عافي وراضي عن الجميع » .

ثم توسط الحلقة ، وأمضى أغلب الليل جالسا يتقبل البيعة الجديدة على دوى النقارة والنحاس اللذين وصل دويهم المكتوم إلى آذان ونجت وهو يتأهب للتقدم نحو الخليفة من آبار جديد .

رددت أكواخ القش التى أحاطت بقرية أم دبيكرات الصغيرة ، أصداء الطبول ، وغطت الأشجار والحشائش الطويلة كل المنطقة لمسافة ميل ونصف غرب الديم حيث نهض تل متوسط الارتفاع بلغ طوله نحو الميل يكشف من مكان عليه ميدان ضربنار لمدى ٥٠٠ ياردة .

تقدم الخليفة نحو هذا التل قبل الفجر بأكثر من ساعتين وأقام رئاسته في المنخفض فشاهد تقدم ونجت أمامه مباشرة على بعد ٢٠٠ ياردة . فى الميول الخلفية للتل اصطف حملة السلاح الأبيض « ٢٠٠٠ مقاتل » وعلى بعد ٣٠٠ ياردة يسار هؤلاء اصطف حملة البنادق من الملازمين في جبهة عرضها ٤٠٠ ياردة . تولى القيادة الفعلية الأمير أحمد فضيل متوسطا الاصطافين . تولى قيادة حملة البنادق الأمير عبد الباقى عبد الوكيل ، بينما تولى قيادة السلاح الأبيض الأمير بشير عجب الفيه وعثمان دقنه (١) .

جلس الخليفة على صهوة جواده ، وحوله الخليفة على ود حلو ويعقوب أبو زينب ، والصديق بن المهدى ، وشقيقه هارون .

أما ونجت فقد نشر ستارة من سرايا الفرسان فى الأمام وعززها بمدافع المكسيم الراكبه ، بينما حمت سرايا الهجانة الاجناب . وعلى الرغم من ضوء القمر الذى غمر الأرض الا أن العملية الليلية تعثرت كثيرا لكثافة الأشجار على جانبى الطريق ، مما اضطر قوات ونجت لاستخدام السكاكين الكبيرة لشق طريقهم .

فى سعت ٣٤٠ . وعلى بعد ثلاثة أميال من معسكر الخليفة « الديم » اتخذت الحملة تشكيل القتال في جبهة عرضها ٦٠٠ ياردة .

---

(١) أنظر خريطة رقم ١٦ معركة أم دبيكرات .

في سعت ٣٤٥ . وصلت الخيالة ومدفعية المكسيم إلى أسفل المنحدرات الأمامية للتل. تقدمت باقي القوة في صمت تام خلفهم مستترين بالحشائش الطويلة ، إلى أن وصلوا إلى التل حيث توقفوا ورقدوا على الأرض . وسحبت الخيالة للخلف إنتظارا لضوء الفجر .

شاهد أحمد فضيل تقدم العدو مباشرة نحو الفراغ بين حملة السلاح الأبيض وحملة البنادق فأمـــر حملة البنادق بالتحرك لليمين لسد الثغرة . أحس ونجت بالحركة . وقبل بزوغ الفجر بدقائق في سعت ٥٠٥ . أمر ونجت كل عناصر نيرانه من مدفعية ورشاشات وبنادق مشاه بفتح نيرانها خشية هجوم الخليفة عليه قبل ضوء الشمس . وذلك ما انقذ موقفه إلى حد بعيد . فقد ثبت الملازمون لنيران العدو وردوا عليها بنيران ثقيلة متواصلة من بنادقهم تمهيدا لإقتحام السلاح الأبيض ولكن نيران العدو كانت مؤثرة حتى في الظلام فالمدى كان قريبا . وبدأ جنود الخليفة من حملة السلاح الأبيض يتساقطون . ومع أول ضوء وبصيحة واحدة اندفع حملة السلاح الأبيض للأمام ، الا ان النيران المتواصلة تمكنت من حصد أغلب صفوفهم . وعندما ازداد الضوء قليلا وجه ونجت نيرانا ساحقة نحو الملازمين أوقفت تقدمهم . وبعدها أمر كل جنوده بالتقدم نحو الديم تحت غطاء من نيران المكسيم وهم يدفعون امامهم حملة البنادق الذين تقهقروا للخلف وهم يطلقون بنادقهم بثبات .

وخلف حملة السيوف وفي مواجهة الكتيبة التاسعة إنكشفت في ضوء الفجر ثلة من الرجال وقد ترجلت عن جيادها وجلس أفرادها على الأرض . فوجهت الرشاشات من أعلى التل نيرانا حاصدة عليهم ، بينما تقدمت نحوهم الكتيبة التاسعة وهي تطلق نيران بنادقها ، وسرعان ما ابيدو جميعا . كانت تلك الثلة هي رئاسة الخليفة .

* * * * * * * *

شاهد الخليفة النيران التي أبادت الصفوف من أمامه . وعندما بدأ تقدم العدو أمر كل امرائه بالترجل عن جيادهم وافترش فروته على الأرض وجلس عليها واتجه للقبلة . جلس الخليفة على ود حلو عن يمينه ونادى أحمد فضيل الذي

كان مشغولا باعادة تجميع رجاله وأجلسه عن يساره وجلس خلفه بقية من كانوا في رئاسته ، وعندما وجهت نيران الرشاشات من أعلى التل ، وقف اب جكه امام الخليفة محاولا ستره بجلبابه من الرصاص المتطاير فأصيب وسقط أمام الخليفة فأخذ الخليفة رأسه ووضعه في حجره ، فحاول أحمد فضيل إبعاده من الخليفة فمنعه الخليفة مؤنبا « أب جكة شالني اربعتاشر سنه انا ما اشيله يوم استشهاده . »

أصيب الخليفة في ذراعه الأيسر فستر الجرح وغطى الدماء النازفة بيده اليمنى ، وعندما بدأ مشاة الكتيبة التاسعة في التقدم نحوهم لم يطق الخليفة علي ود حلو صبرا فاستل سيفه ووقف ليتقدم لمواجهة العدو وهو يظلع ، فصاح فيه الخليفة آمرا بالجلوس . وكانت تلك آخر كلمات نطق بها ، فقد أصيب بعدها بثلاثة طلقات في صدره اخترقت احداها قلبه .

وفي الساعة الخامسة وأربعون دقيقة في يوم ٢٤ نوفمبر ، ومع الخفقات الأخيرة لأنفاس الخليفة المتلاشية ، تلاشى نهائيا ورسميا آخر مظهر من مظاهر السودان المستقل . وتمت التصفية النهائية للثورة المهدية ، وانطوت بذلك صفحة (١)

---

(١) يصف تقرير ونجت الرسمي الذي كتبه بعد دقائق من تلك الاحداث وأرسله زافا الخرطوم نبأ أستشهاد الخليفة لحظاته الاخيرة كما استقاها من يونس الدكيم .

Seeing his followers retiring he made an ineffectual attempt to rally them, but recognizing that the day was lost he had called on his Emirs to dismount from their horses, and seating himself on his "Furwa" or sheep-skin, as is the custom of Arab chiefs who disdain to surrender– he had placed Khalifa Ali Wad Hilu on his right arm, Ahmed Fedil on his left, whilst the remaining Emirs seated themselves round him, with their body-guard in line some 20 paces to their front. And in this position they had unflinchingly met their death. They were given a fitting burial under our supervision by the surviving member of their own tribesmen.

وعندما احس انه قد فقد اليوم ، امر امراءه بالترجل من جيادهم ، وأجلس نفسه على فروته كعادة زعماء العرب الذين لا يقبلون الاستسلام ، واجلس أحمد فضيل عن يساره والخليفة علي ود حلو في يمينه ، وجلس بقية الامراء حوله بينما اصطف حرسه الخاص على بعد عشرين خطوة أمامه . وفي ذلك المكان ، وبثبات وبدون ان ترمش اعينهم ، واجهوا الموت وقام أفراد عشيرتهم بدفنهم دفنا يليق بمكانتهم تحت اشرافنا الشخصي .

Col. Wingate Report to the Sirdar – 25th. Nov. 1899 WO/32/6143
Public Records Office Chancery Lane, London.

مضيئة من تاريخ الانسانية ، يقف العقل والقلم أمامها عاجزا عن تصوير وحصر الافاق العريضة التى ارتادتها ، والآلام والآمال التى فجرتها . وبينما كان ضوء شمس ذلك اليوم يزداد بين لحظة وأخرى ، بدأ نجم دولة الأمجاد فى الافول تاركا الافق لعهد آخر ، وتجمعت كل تلك السنوات التى كانت دائما حبلى بالنار والنور ، بالأمجاد والجراح فى لمحة صغيرة كطرفة عين ، أو كوهج أعشى الأبصار ثم اختفى . وفى تلك البقعة الصغيرة من الأرض تجمعت أجساد رجال مثلوا نهاية صف طويل من الأبطال الذين سقطوا بعد أن صنعوا دولتهم ، وضعوها فى القلوب أولا ، ثم بنوها على أسنة الرماح .

** ** ** **

سقط من جنود الخليفة ١٠٠٠ مقاتل بين قتيل وجريح ، وأسر ٣١٥٠ مقاتل و ٦٢٥٠ من النساء والاطفال .

وتوفى عدا الخليفة عبد الله والخليفة على ود حلو ، هؤلاء الامراء .

الأمير أحمد فضيل .

الأمير بشير عجب الفيه .

الأمير حامد على .

الصديق بن المهدى .

هارون محمد ــ شقيق الخليفة (١) .

وأسر المذكورون بعد :

شيخ الدين .

الأمير يونس .

الأمير على فرفار .

الأمير الختيم موسى .

الأمير اسماعيل أحمد .

الأمير فضل حسنه .

---

(١) ذكر ونجت فى تقريره خطأ أن يعقوب أبو زينب وعبد الباقى عبد الوكيل كانا ضمن القتل . توفى يعقوب أبو زينب عام ١٩١٢ وتوفى عبد الباقى بعد عام ١٩١٠ .

وأفلت عثمان دقنه وانطلق شرقا .

* * * *

وأبطال روايتنا ، أو ما تبقى منهم ، ماذا فعل بهم الزمن ؟

نجح عثمان دقنه فى الانسحاب من معركة أم دبيكرات فى اللحظة الأخيرة قبل ان تتمكن الكتيبة السودانية التاسعة من الاحاطة برئاسة الخليفة ثم بالديم . وبسرعته المعهودة تمكن من الوصول للنيل الأبيض وعبره فى الظلام بالقرب من الدويم واخترق الجزيرة فى اندفاعه سريعة وواصل تقدمه واغلبه ماشيا إلى أن وصل شواطىء البحر الأحمر حيث ظل مختفيا فى أحد كهوف الجبال انتظارا لسمبوك يبحر به إلى الجزيرة العربية .

وقد أواه أحد مقاتليه القدامى وترك معه خادما وكلبا لتحذيره . ولم يعلم بمكانه شخص غيره . وفى تلك الأثناء كانت سلطات الاحتلال قد قلبت الأرض بحثا عنه وخصصت جائزة مالية لمن يدل عليه حيا ام ميتا . فبعث الرجل ابن أخيه ليبلغ للسلطات عن مكان دقنه ، ان كان خوفا أم طمعا . فجهزت قوة مسلحة رافقت الرجل لمخبأ دقنه واحاطت بالكهف . وكان الخادم يعد فى الطعام ودقنه مضطجعا يقرأ فى مصحف عندما سمع نباح الكلب ، فسأل الخادم الذى أوصاه سيده من قبل ، فاجابه بان الكلب ينبح فى بعض قطعان الماشية الماره وعاود دقنه قراءته ، ثم فوجىء بدخول الجنود عليه ، والقى القبض عليه فورا . وبينما كان الجنود يقيدونه بالسلاسل ، لم يعرهم التفاتا بل التفت لصديقه الذى وشى به وقال له بمرارة قولته التى أصبحت مثلا :

« ود على انا انقبضت علك ماتكون بعتنى رخيص »

اما عثمان شيخ الدين فقد اخذ للسجن برشيد وتوفى عام ١٩٠٠م بالغرغرينه بعد تسمم الجرح الذى اصيب به اثناء المعركة . ويؤكد من كانوا معه من الاسرى ان الجرح كان جرحا عاديا وبدأ يتماثل للشفاء ولكن علاجه اهمل عمدا لاسباب معينة . كما توفى محمود ود احمد عام ١٩٠٦ اثر مرض طويل . وتوفى معظم الأسرى من عشيرة الخليفة عبد الله فى سجن رشيد وعددهم تجاوز الالوف بالسل

الرئوى نتيجة لبرودة الجو وسؤ التغذية ، واغلب من توفـــوا كانـــوا من النساء والاطفال . وبعد وفاة يعقوب ابو زينب لم يبق حيا الا الامير يونس الدكيم ، فقد عاد لامدرمان وعمر طويلا وتوفى عام ١٩٣٦ .

اما الخليفة محمد شريف فبعد انسحابه لامدرمان استقر بالجزيرة ابا فترة من الزمن ثم سمح له بالاقامة فى الشكابه ، احدى القرى المتاخمة لسنار . وقد وصل بلاغ كاذب لسلطات الاحتلال بان الخليفة محمد شريف يقوم باستعدادات لاشعال الثورة من جديد ، وان اتباعه يكدسون الاسلحة . فتحرك الكولونيـــل لويس حاكم المنطقة وحاصر المنزل ولم يكن هناك بالطبع اى اثر يبرر صحة الادعاء فقد كانوا يمضون حياة وادعة عادية . ولكن لويس امر بقتل الخليفة شريف وكل ابناء المهدى ولم ينج منهم الا اثنان .

استراتيجية الخليفة

« الحرب خدعة »

محمد صلعم

ونحن نتناول معركة امدرمان بالتحليل والتقييم ، ومن خلفها كل حملة السردار ، على ضوء مقاييس محددة للنشاط والفعاليات العسكرية ، سواء فى نطاق الاستراتيجية [1] العليا ، أو الاستراتيجية أو تكتيك الخليفة أو النواحى الادارية ، سنجد أنفسنا نتعامل مع أسس ومقاييس تتداخل فى بعضها البعض ، وتؤثر كل منها على الأخرى تأثيرا مباشرا . وان كان هذا مبدأ وظاهرة عامة عند كل محاولة لدراسة أو تحليل المعارك والحملات العسكرية، إلا اننا سنجدها فى هذه الحالة — معركة امدرمان — وهى أكثر وضوحا .

فالخليفة مثل احدى تلك الحالات النادرة فى التاريخ الحديث . مثله فى ذلك مثل نابليون وفردريك . فلأ نه كان رأس الدولة ، أصبح هو المخطط للاستراتيجية العليا لبلاده لسنوات طويلة ، وبصفته قائدا عاما والمهيمن مباشرة على كل النواحى العسكرية أصبح هو المخطط للاستراتيجية الميدانية ، وكقائد القوة الميدانية يوم ١ و ٢ سبتمبر فى امدرمان كان هو المسئول عن تكتيك المعركة .

وأرجو أن لا نتوه هنا فى التعاريف المتعددة لكل من أوجه النشاط العسكرى المذكور أعلاه ، والتى سنتناولها واحدة تلو الأخرى .

فالاستراتيجية العليا "Grand Strategy" وبغض النظر عن عشرات التعاريف — وفى هذه الحالة معركة فى أواخر القرن التاسع عشر هى باختصار — « توجيه وتسخير طاقات الأمة المادية والمعنوية وظروفها الداخلية والخارجية فى خدمة الموقف العسكرى باعتباره احدى الوسائل لتحقيق أهداف الأمة . »

---

(١) بالنسبة للعقيدة الشرقية فالاستراتيجية تمثل الاستراتيجية العليا ، وفن المعركة "Operational Art" يمثل الاستراتيجية .

ولأن مسرح نشاطها هو الأمة أو الدولة . فكان لها ان تتأثر ، وبالتالى تتفاعل داخلها عوامل حضارية ، واجتماعية وإقتصادية ، ودبلوماسية .

لذا نجد دائما ان مبادىء وأسس ومقاييس الاستراتيجية العليا تتباين تباينا واضحا مع أسس الاستراتيجية الميدانية، على الرغم من أن الأخيرة احدى فروعها. فالموجه للاستراتيجية العليا يوجهها « نحو » قومه . لذا تعتمد أسس الاستراتيجية العليا على المبادىء والصدق "Morality". وبينما توجه الاستراتيجية «ضد» العدو ، لذا فهى تعتمد فى المكان الأول على الخداع "Deception" . فالمبادىء وليس غيرها هى التى تدفع الأمم والشعوب لتتوحد خلف قيادتها . باذلة دماءها وثرواتها وطاقاتها من أجل الأهداف القومية .

ومن دروس التاريخ ، تمثل النجاح الشامل فى الاستراتيجية العليا دائما عندما تباشر نشاطها من خلال أو أثر « دعوة » أيا كانت : دينية ، أو وطنية ، أو عنصرية ، أو حضارية . كان هذا شأن النبى صلى الله عليه وسلم وشأن النبى داؤد فى دعوة دينية وحضارية ، وشأن نابليون وهو يحمل لشعوب أوربا مبادىء الثورة الفرنسية على فوهات المدافع ، وعصر الاقطاع فى لحظات احتضاره ، وشأن بسمارك وحروب منتصف القرن التاسع عشر فى الدعوة القومية ، أو جيوش الرايخ الثالث وهى تجتاح دول أوربا مسكرة بدعوة سيادة الجنس الآرى. فالدعوات هى التى تلهب أحاسيس الشعوب .

ولكن ليست القضية كلها بهذه البساطة ، تحويل الامم إلى قبائل مقاتلة بعد شحنها بالطاقات المعنوية . فهناك أيضا الوجه الآخر من المسألة — الجانب الخارجى ، أمم أخرى خلفها « دعوات » ووراءها « جيوش » . ولو كانت كل هذه الامم اعداء ، لكان الموضوع فى غاية البساطة . ولكن هناك دول محايدة ودول صديقة ، على الأقل مؤقتا طالما التقت مصالح الدول — وهنا يأتى دور السياسة الخارجية وتسخيرها كأحد فروع الاستراتيجية العليا للمعركة بواسطة الدعم ، سواء الدعم العسكرى المباشر أو الدعم المادى أو المعنوى والدبلوماسى .

ولعلنا نتساءل كيف ساهمت سياسة الخليفة الخارجية كعنصر من عناصر استراتيجيته العليا ، وهو يخوض حربا مصيرية لمدة عامين، منذ أول معركة فركة

عام ٩٦ إلى سبتمبر ٩٨ . وكيف نقيم استغلاله وتوجيهه لها للمساهمة فى مجهوده الحربى .

ونحن نحاول ذلك يجب أن نضع خلفية صغيرة نصب أعيننا . ألا وهى سلوك السياسة الخارجية للثورة المهدية منذ بدايتها ، وإنعزالها التام دوليا ، ورفضها لأى تعاون مع أى دول أخرى . فهى سياسة مستمدة من دعوة دينية ترفض أى التعاون مع أى دولة غير إسلامية . وذلك التعاون فى نظرها يعتبر مناقضا لاهدافها. فالأجانب « كفار » وحتى الخلافة العثمانية الاسلامية ، كان العداء والرفض القاطع نحو أى تعاون معها أوضح وأكثر عنفا . فهنا إختلطت الدعوة الدينية بالدعوة الوطنية ، فقد مثلوا دولا محتلة مستعمرة .

لذا امتنع المهدى عن استغلال « التكالب على أفريقيا » فى البداية وضرب الدول الأوربية ببعضها البعض وخصوصا فرنسا التى تصطدم مصالحها مع مصالح بريطانيا والتى كان بإمكانها أن تمده بالسلاح والذخيرة والمستشارين . وقد قدمت يد صداقتها أكثر من مرة للثورة الفتية . فالمهدى بعد شيكان ، وهو يعسكر فى الرهد فى طريقه لاقتحام الخرطوم ، استقبل ضابط المخابرات الفرنسى الغامض « باين » الذى شرح وقدم استعداد حكومته لمد المهدى بالسلاح . ورفض المهدى رفضا قاطعا وتجاهل الرجل إلى أن توفى متأثرا بحمى الملاريا . ولا يمكن أن نتجاهل حكمة رفضه فى ذلك الحين . فقوته العسكرية كانت تكفى لتحقيق أهدافه الأولية ، فماله يربط نفسه مع دول أخرى ، ويفتح ثغرة ليتسلل بها « كفار » آخرون كان أهم ركائز دعوته التى جذبت اليها الملايين ، هى محاربتهم .

ومن الثابت ان امدرمان استقبلت بعد سقوط الخرطوم وفودا من دول اسلامية عديدة حتى من أقاصى اسيا للتهنئة وللحج . وتغنى شعر محمد اقبال بأمجاد المهدى فى الهند البعيدة . ولا يدرى أحد كيف استغلها المهدى فى جعل ثورته ثورة عالمية بحلف اسلامى (١) كبير يضم الدول الاسلامية المقهورة التى رزحت

(١) على الرغم من ان تجربة الدعوة الاسلامية وهى تنتشر بحد السيف كانت مثله الأعلى الا أن المهدى لم يغفل الطرق السلمية عن طريق الوفود والخطابات والدعاية ويتضح لنا من مراسلاته انه ركز على « الشعوب » الاسلامية وليس على الحكومات الاسلامية . وأسلم طريق لهؤلاء كان عبر الاتصال بدعوات أخرى قريبة من دعوته . فهو عندما يكتب لسكان مصر طالبا نصره وتعزيزه يكتب للتجار والعمد =

تحت نيران الاستعمار الغربي أو الخلافه العثمانيه. على أى حال ، جعلت وفاة المهدى المبكره بعد ستة شهور الاجابة على هذا السؤال شبه مستحيلة .

ولكن بعد مضى خمسة عشر عاما ، اختلف الوضع الدولى والداخلى – كما اوضحنا فى الباب الثانى ، وبرز التوغل الاستعمارى فى أفريقيا والسباق نحو حوض النيل بصورة أكثر ضراوة بين بريطانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، وبلجيكا من جهـــة وبرز تضاوءل وتخلف قوة الخليفة العسكرية من جهة أخرى . والتوغل الاستعمارى من عدة جهات ، سرعان ما ولد الاحتكاك ، فالتضارب والتناقض بين الدول الأوربية فأصبحت الظروف أكثر ملائمة ، ان لم تكن حتمية ، لاستغلال العداوة بين فرنسا وبريطانيا للحصول على السلاح من الأولى . فاسلحة ٨٥ أصبحت لا تستطيع الوقوف لحظات امام أسلحة ١٨٩٨ ، بعد التطور التكنيكى الهائل فى أسلحة الدمار .

وتلك كانت إحدى الفرص المفتوحة أمام الخليفة . وقد قدمت له عن طريق وفد المفاوضات الأثيوبى نيابة عن الملك منليك الذى مثل الفرنسيين . وحاول منليك ان يوضح له ان لا سبيل للانتصار على الاستعمار الأوربى الا باستغلال تضارب مصالح الدول الغربية وتناقضها . وإلى هنا لم تكن هناك غضاضة فى الاستفادة من الســـلاح الفرنسى . فليس هناك ما يشير إلى ان اطماع فرنسا فى

= أما مراكش فلم يتصل بالولاة والحكام بل كان اتصاله بالمراكشين المقيمين فى مصر بعد ان اخبروه يقبولهم الدعوة وعين احدهم حاكما لمراكش . وكذلك كان الامر بالنسبة للشام فقد عين أحد تجارها « عبد الله الكحال » وكلفه بنشر الدعوة فى الشام .

وابرز دليل على تفضيله التفاهم مع الدعوات والشعوب هى منحه منصب الخلافة الثالثه للسنوسى زعيم السنوسيه بالصحراء الكبرى .

أما الخليفة فقد اختلف الوضع فى عهده ، فقد أجبرته الظروف الداخلية ثم هزيمة ود النجومى ثم العدوان الخارجى ، على غض النظر مؤقتا عن غزو البلاد الاسلامية . ولكنه سار على خطى المهدى فى السياسة الخارجية فخطاباته لخديوى مصر والسلطان العثمانى ، والملكة فكتوريا عبارة عن خطابات عدائية ودعوات للتسليم وانذارات وتختلف تماما عن خطاباته الودية التى أرسلها لعبد الله الفيصل عندما عينه واليا على نجد وكلفه باشعال الثورة ، أو لحزيفة بن سعد عندما كلفه بنشر الدعوة فى الحجاز أو خطابه إلى قبيلة قريش وسكان المدينة .

ولعل الحاكم الوحيد الذى سعى الخليفة سعيا جادا لكسب مؤازرته كان رابح الوبير عاهل تشاد . شقير : ص (٦١٧ ، ٩٢٢ ، ٩٢٨ ، ١٠٠٩ ، ١١٣٧ ، ١٢٦٦) .

السودان حتى ذلك الحين كانت أكثر من تمكين الخليفة من الانتصار على البريطانين وإيقاف تقدمهم جنوبا لاتاحة الفرصة للفرنسيين للتقدم وللاستيلاء على منابع النيل بواسطة مارشاند من الغرب، وبعثة ليجور من الشرق .

الا ان الشق الثاني من العرض الفرنسي الذى جاء متأخرا في عام ٩٨ ،وهو بسط الحماية الفرنسية على دولة الخليفة واعتبار نفسها محمية فرنسية ، فليس هناك من يختلف مع الخليفة في صواب رأيه وبعد نظره . ولقد شاهدنا ممثل الرأى الفرنسي – رئيس الوفد الحبشي – عندما حلت اللحظة الحرجة ، وأخرج العلم الفرنسي ليضعه الخليفة أمام حدوده لتعزيز موقفه أمام الغزاة الأوربيين وأخذه الخليفة وأخفاه في منزله . ولا بد أن الكواليس الخلفية في بيت الخليفة شهدت نشاطا ومناورات سياسية كثيرة في تلك الفترة . قادها شيخ الدين من جهة ، ويعقوب من جهة أخرى . فقد صاح شيخ الدين في وجه والده وهو يشكو تسلط يعقوب وتزمته ورفضه للتعاون مع الإوربيين « وهل هناك دولة تخلو من النصارى » فشيخ الدين كان أكثر امراء المهدية عصرية في ثقافته ، ومثل المرونة في السياسة الخارجية « انا مطلع على كتب وتواريخ كثيرة .. والانجليز ديل ليهم تار كبير عليك لقتلك هكس وغردون ، ويعقوب يقول لى كيف تدخل فى طاعة النصارى؟ وهل تخلو دولة من النصارى ؟ » .

وكما أفادت مصادر « هولت » المحلية ، فان الخليفة فكر جديا في استخدام العلم الفرنسي ووضعه في السبلوكة في الشهر الأخير قبل المعركة ، مع احساسه المتزايد بقوة العدو الجديد عند وصول فلول محمود بعد هزيمة عطبرة ووصفها للقوة الماحقة لاسلحة تدمير العدو ، وحين بدأت ثقة الخليفة في مقدرة جيشه تهتز قليلا .

والواضح ان الخليفة قبل ذلك لم يكن يعطى أى غزو من جهة الشمال وزنا كبيرا ، ولم يكن تقييمه العسكرى للبريطانيين عاليا حسب خبرته في المعارك التى خاضتها جيوشه سواء في شيكان أو الخرطوم ، وأخيرا عندما تصدوا وطاردوا البعثة الانجليزية بقيادة ولزلى . وهذا الأمر قد يلقى بعض الضوء على تصرفات كثيرة ، ولعلها تبرئه جزئيا من مأساة توشكى . وان كانت تلك يشوبها كثير

من الظلال المؤلمة ، ومحل شك فى أن هدف الخليفة الأصلى كان هو القضاء على ود النجومى والقبائل المنافسة ، فلا يمكن أن يكون ذلك هدفه عندما بعث جيش محمود ود أحمد للشمال . فقد عانى محمود من نفس الظروف التى عانى منها النجومى من ضعف ونقص فى الاعداد والتموين . وأخيرا ووجه محمود بنفس الاتهامات التى صبها الخليفة على ود النجومى ، وهى الحذر والمبالغة فى اعطاء العدو وزنا أكبر من وزنه . لا يمكن ابدا ان يكون قصد الخليفة هو ابادة جيش محمود . فمحمود ربيبه ، وابن عمه ، وجيشه من عشيرة الخليفة .

على أية حال ، انتصر الرأى المتصلب — رأى يعقوب — ونحى الخليفة اقتراح الاثيوبيين ، ورأى شيخ الدين بوضع نفسه كمحمية فرنسية جانبا . وأيا كان السبب الرئيسى ، سواء بسبب ضغوط يعقوب القوية ، أو لاعتقاد الخليفة بمقدرته على مواجهة الغزو منفردا وتأثره بعقيدة المهدى فى السياسة الخارجية ، فلا يمكن إلا ان نعجب بأصالة موقفه كرأس للدولة ومدير للاستراتيجية العليا عند إتخاذه قراره هذا، عكس ما يحيط بالقرار ظاهريا من عدم مرونة وتصلب. فعندما وصف كلوزفتس الحرب « بأنها امتداد للصراع السياسى ، بطرق أخرى » أو انها « أداة سياسية » فهو يعنى انها « حالة طارئة » فهى « وسيلة » . وليس النصر العسكرى « غاية » فى حد ذاته . وسيلة لتحقيق أهداف سياسية . ولكى نجعل ماقاله فيلسوف العسكرية ملائما لكل العصور وأكثر شمولية ، فيمكن أن نستبدل كلمة السياسة بمعناها الكلاسيكى الضيق ، بكلمة السياسة بمعناها الشامل العصرى . كانعكاس لصراع العقائد والمبادىء وخلفها التيارات الاقتصادية والحضارية أو الاجتماعية و « الانسانية » . فالسياسة بذلك المعنى حالة دائمة ، وهو ما يجب ان تصبو اليه أعيننا بعد المعركة .

اذن فالهدف الحقيقى من الحرب هو فرض ارادتك على العدو لتحقيق سلم أحسن . سواء أكان ضم أراضى وشعوب أخرى للامبراطورية كهدف سالسبورى وكرومر عندما أرسلا السردار لقلب أفريقيا . أو لحفظ استقلال بلاده لاستمرار دعوة المهدية كهدف الخليفة . فلا يعقل اذن ان نحصر كل نظرتنا ونحرق كل قواربنا من أجل « النصر العسكرى » فى معناة الضيق . ولقد شاهدنا كيف كان

الخليفة يوازن حتى وهو يدخل معركته المصيرية لتوزيع قوته العسكرية بين مسارح الحرب المختلفة لحفظ التوازن ضد اعدائه ، سواء منهم من فى الداخل أو من من الخارج . ولم يصب كل طاقاته العسكرية أمام العدو الشمالى ، اذن فالاولى به أن لا يتهاون لحظة فى هدفه الاعلى ألا وهو استقلال بلاده . فهل يلقى بنفسه وأمته بين أنياب عدو جديد لمجرد تحقيق إنتصار حربى على عدوه المتقدم نحوه الآن. وهل يضحى باستقلال أمته جزئيا أو كليا بفتح الثغرات أمام « قبيلة أخرى بيضاء » لا تختلف أهدافها فى المدى الطويل عن أهداف « قبيلة » الانجليز . والاخيرة على الاقل اشتبك جيشه معها مرارا وهم على أرضه منذ سنتين . أما الاولى فلا يدرى ما هى أساليبها وما هى قوتها المهم كلهم « بيض الوجوه » وكلهم « كفار » .

ولا بد انه ادرك هذه الحمى الجديدة المسعورة التى اصابت هؤلاء البيض فعادوا يتدافعون لاقتسام ترابه بعد ان تركوه وشأنه سنين طويلة . فها هى خطابات عربى دفع الله تتحدث عن تقدم البيض من جهة الغرب ، وهاهم الايطاليون يتقدمون لنهش بلاده منذ سنين من الشرق . والبريطانيون من الشمال ، وهاهم الفرنسيون يتقدمون نحوه لنفس الأهداف وان اختلفت أساليبهم وكانوا أكثر « أدبا » فى وسائلهم . فهم يخفون قبضتهم الحديدية داخل قفاز من الحرير . من الصعوبة على شخص يدرك هذه الظروف وبعد ذلك يضع علما أجنبيا ليرفرف فى بلاده جنبا إلى جنب ، مع الاعلام المطرزة بالآيات القرآنية .

أين اذن كمنت فرصة الخليفة الحقيقية فى عقد حلف يؤازره فى معركته القادمة ؟ لقد كانت فرصة الخليفة الحقيقية مع الحبشة . فالعاهل الأثيوبى الجديد « منليك » برهن على انه يرتفع لمستوى الأحداث متناسيا الضغائن والأحقاد القديمة .

فبعد الفوضى التى سادت أثيوبيا عدة سنين بعد مقتل الملك جون على يد الزاكى ، بدأ صعود نجم الأمير منليك إلى أن أصبح امبراطورا لأثيوبيا . ولم يستغرق العاهل الأثيوبى زمنا طويلا ليدرك — عكس باقى قومه — ان اعداء امته الحقيقيين هم الأوربيون ، وليس جيرانه المسلمين . وأمل فى أن يوحد جهود الامتين ضد المد الأوربى الاستعمارى . وعندما قرر التفرغ لمواجهتهم وشن الحرب على الايطاليين ، وفى نفس اليوم الذى مزق فيه اتفاقية « اوسيالى » ، مطلقا الشرارة

الاولى فى الحرب ، أسرع وبعث وفدا للمفاوضات لعقد اتفاقية مع الخليفة برئاسة الحبشى المسلم محمد الطيب . ولكن رد الخليفة كان باردا ومتعاليا ، فقد طلب من العاهل الأثيوبى ان يتقدم كتابة بطلب اتفاقية مكتوبه « أغسطس ٩٥ » وبعدها ينظر فى الطلب . ولكن كل ذلك لم يثبط همة العاهل الأثيوبى فقد عاود ارسال مبعوثه مرة أخرى للخليفة . وحتى بعد إنتصار العاهل الأثيوبى الساحق على عدوه وإنهزام الخليفة فى دنقلا ، جدد العاهل دعوته للخليفة فى عقد حلف . وعلى الرغم من ان الخليفة لم يتنازل عن لهجته المتعالية ، الا ان ميله للتعاون وضح فى خطابه الذى أرسله مع سفيره المتجول ، محمد عثمان خالد . فقد وافق على « النظر فى أمر التعاون » على شريطة ان يقطع منليك كل صلاته مع الأوربيين . كان ذلك أكثر من طاقة العاهل الأثيوبى ، وهو يحتفل بانتصاره على الايطاليين ، بالبنادق والمدافع الفرنسية . وعلى الرغم من ان منليك وضح ان هدفه الأول هو الاستفادة من تناقض مصالح الأوربيين لتحقيق مصالحه هو ، إلا ان الاتصالات الدبلوماسية لم تنقطع بين الجانبين ، حتى قبل شهر من معركة امدرمان ، فى ذلك المشهد الذى سبق وصفه (١) ووصلا فيه إلى قمة التعاون للدرجة التى تنازل فيها الخليفة عن جبال شنقول ، وقبل استلام العلم الفرنسى .

كان التعاون مع العاهل الأثيوبى أقل خطرا وأعظم فائدة لزمن مؤقت ولهدف محدود لاحراز نصر عسكرى . فليس الاحباش ممن يخشى شرهم . ومن المستبعد ان يكون لدى العاهل الأثيوبى أى مطامع اقليمية ، والعدو المشترك كان كفيلا ان يوحد بين جهودهما . وكان بامكان الخليفة الاستفادة من القوة البشرية الأثيوبية الهائلة . فقد خاضوا معركة القلابات بربع مليون جندى وخاضوا معركة « عدوة » بربع مليون آخر . وازدادت فعاليتهم بعد التسليح الحديث . ولكن على الرغم من ان الوثائق التى بقيت لتروى الرواية لا تحدثنا عن كل شيء ، فمن المؤكد ان المحادثات والمفاوضات الشفهية كانت أهم ، الا أن الواضح ان ما أثار حساسيته ضد التعاون مع الأثيوبين هو ارتباطهم بالفرنسيين .

**** *** **** ****

والشق الثانى ، وهو الأهم ، داخليا ، ما مدى نجاح الخليفة فى حشد

---

(١) الحشد ص ٣٠٧

طاقات امته لمعركته القادمة ؟ لقد اطلعنا على بعض خطابات الخليفة لحكامه فى الباب الثانى وشاهدناه يعتصر آخر الطاقات البشرية ، وآخر حبـة ذرة ليقذف بها فى المعركة . ونستطيع ان نقول باطمئنان ان الخليفة نجح نجاحا نسبيا فى ذلك المجال ، على الرغم من العوامل السلبية التى ترتبت على سياسته الداخلية لسنوات طويلة . وكل من شاهد معركة امدرمان وشاهد كيف ماتت تلك الالوف ، وكيف واجهت نيران العدو ، لم يستطيع تمالك نفسه إعجابا فى بعض الأحيان ، أو عجز عن تفسير هذه الظاهرة أغلب الاحيان ، كل ذلك برز كدليل ناصع على مقدرة الخليفة القيادية والتعبوية ، ولكن قبل ذلك يجب ان يوجه الاعجاب لامته ومقدرتها الفائقة فى البذل والتضحية .

ولكن مجرد ان الخليفة لم يستطع أن يحشد أكثر من أربعين ألف مقاتل كان أمر يدعو للدهشة . فقد تفاخرت أرض « العرضه » قبل عشر سنوات بتماوج مائة ألف مقاتل فوق ساحتها ! .

وهنا نلمح ظاهرة ديالكتيكيه . فنجاح الخليفة المتواصل فى تقديم عشرات الالوف من المقاتلين بسخاء طيلة خمسة عشر عاما ، هى التى أدت فى النهاية إلى أن يشكو جيشه « فقر الدم » فى القوة البشرية . فقد خاضت تلك الامة أكثر من خمس معارك طاحنه بحشد يتراوح بين خمسين ومائة ألف مقاتل فى كل منها وهى الابيض — الخرطوم — شيكان — القلابات — دبراسين . وعشرات المعارك بحشد يتراوح بين عشرة الف وخمسون الف مقاتل ، حملات دارفور المتصلة ، أبو طليح ، كسلا ، عطبرة ، الخ .. وعشرات مضاعفة من المعارك بحشد أقل من عشرة آلاف مقاتل ، سواء منها من كان ضد الاعداء الخارجين أو المقاومة العصيان والثورات الداخلية . وتلك المعارك المتصلة واضطرار الخليفة للاحتفاظ دائما بجيش عامل كبير ، أدت فى النهاية لكارثة على مستوى الأمة ، كارثة أكبر من اضعاف قوة جيشه فقط . فقد حرمت الارض من الايادى العاملة ، وتضافر ذلك العامل مع شح الأمطار ، وعندما تلاه عام آخر غطت فيه عاصفة الجراد السماء والتهمت محصول الذرة ، كانت النتيجة مجاعة سنة (سته) المشهورة التى راح ضحيتها الملايين . وقد ساهمت كل تلك العوامل من حروب وثورات داخلية ومجاعات

واوبئة إلى أن أصبحت البلاد أشبه بالقفار ، فقد تناقص ثعداد سكان السودان في تلك الفترة إلى ثلاثة ملايين فقط .

ومن كل المعارك ، كان أثر حروب الحبشة أكثر وضوحا في استهلاك قوته العسكرية ، ليس كما فقط ، بل كيفا . ففيها أبيد الجهادية الاوائل الذين كان من المقدر لهم أن يصبحوا النواة القتالية لجيش حديث نسبيا على مستوى عال من التدريب والانضباط . فلم يستطع الخليفة بعدها ابدا أن يقدم لميدان المعركة جيشا أقوى حشدا أو تسليحا أو تدريبا . وذلك الاستنزاف نتيجة للحروب المتصلة وخصوصا حروب الحبشة ، أدت إلى إظهار استراتيجية الخليفة العسكرية في النهاية بمظهر يختلف تماما عن الحقيقة . وهو الانحطاط بمستوى فن الحروب إلى حروب بدائية اشبه بالحروب القبلية البربرية كل قوامها الكثرة العددية والشجاعة الفائقة ، أو أنه بكر قبل غيره من الأوربيين في دخول « الموضه » التي سادت في مطلع القرن العشرين . موضة التعبئة لكل أفراد الامة "Conscription" . واظهرته بمظهر من انحاز للمدرسة الأولى من مدرستين فكريتين لازال الخلاف بينهما قائما حتى اليوم . المدرسة الأولى مدرسة كلوزفتس ، صاحبة مبدأ الأمة المقاتلة "The Nation in Arms" ومبـــدأ "Absolute War" « الحرب للجميع » تلك المبادىء التي بشر بها كلوزفتس وأدى تطبيقها سواء بواسطة مولتكه وبسمارك في الحرب السـبعينية ، أو هـندنبرج ، وغليـوم ، وفوش ، في الحرب الأولى إلى اتهامه بأن مبادئه كانت هي الذريعة والخلفية الفكرية الثقافية لمجــازر الحرب العالمية الأولى. فقد إنتشرت بعدها طريقة التعبئة العامة. وبدأت المباريات والتفاخر بين الدول الأوربية ايهم يكون صاحب أكبر قطيع بشري . فكان ان خاض غمار الحرب عشرات الملايين .

والمدرسة الثانية الحديثة ، تلك التي تزعمها ديجول، وليدل هارت، وفولر والتي هالتها المذابح الجماعية في الحرب الأولى ، فحاولت تعديل النظرية الأساسية للحرب ، النظرة الحسابية ، ونادت بالعودة للحروب الاولى « حروب المحترفين » "Elite and Professional Armies" جيوش صغيرة مدربة تدريبا عاليا بخفة حركة عالية "Mobility" حيث يمكن لفن الحرب ولصفات الفروسية الظهور

مرة أخرى ، وحيث يمكن تحقيق الأهداف العسكرية بأقل دماء ممكنة ، اعتمادا على النشاط الاستراتيجى أكثر من المعركة التكتيكية التى تميزت بها الحرب الأولى ، وكان أبرز سماتها الخنادق والرشاشات ومسارح الحرب المحدودة .

ولعل ظواهر الأمور ترسخ الانطباع بانضمام الخليفة إلى المدرسة الأولى ، فلا يمكن ان يتجادل اثنان كما سبق وأوضحنا فى نجاح الرجل فى تطبيق مبدأ « الأمة المقاتلة » ولكن المدقق سيخرج بحقيقتين : أولها ان الخليفة كان أقرب للمدرسة الثانية وشرع فعلا فى إنشاء جيش نظامى بدرجة عالية من التدريب والانضباط ، ولكن الزمن لم يمهله ، والظروف لم تمكنه . ثانيا : ان نجاحه لم يكن كاملا فى تكتل أمته خلفه وخصوصا النصف الشمالى من دولته . ولا بد هنا ان نلمح بصمات أتوقراطية التعايشة وهى تبدو ظاهرة للعيان .

حقيقة ركز الخليفة جهدا كبيرا فى سبيل إنشاء جيش نظامى مستديم . وكانت تلك الفكرة ملحة فى ذهنه لسنين عديدة . وما جهادية أبو عنجة إلا من صنعه هو شخصيا . وما احتفاظه باطقم المدفعية المصريين من دون حملة هكس الا بايعازه ، وما منحه لاسكندر بك وسيد جمعه والضباط العظام المحترفين رتبة امراء إلا دلالة واضحة ، وما فصله لكل شئون الملازمين وتسليحهم بأحسن بنادقه ، الا بأوامره الشخصية . وعندما أبيد جهادية أبو عنجة فى معركة القلابات كان ذلك ثمنا فادحا للنصر ، فقد كلفه النصر وحداته النظامية ونواته الصلبة لانشاء الجيش النظامى الحديث . ولكنه عاد لبنائه بنشاط وهمه . وكان نتاج محاولته الأخيرة هى « الملازمين » فقد جمع ما تبقى من جهادية أبو عنجه « الكارا » وبدأ فى تجنيد شباب القبائل المنتخبين من أبناء الزعماء ومن باقى الجيش حتى وصل العدد إلى حوالى ١٥٫٠٠٠ . وقد بهروا كل من شاهدهم من الأوربيين فى مقدمة الجيش عند تقدم الخليفة نحو المعركة يوم ١ سبتمبر . فتوحيد الخطوات وإنتظام الصفوف والتوقف بحركة رشيقة فى لحظة واحدة دفعت تشرشل لذكر تعليقه الشهير « فى شيكان واجهنا غلاة المتعصبين ، وفى أبو طليح واجهنا قوما يذودون عن أوطانهم ، أما فى أمدرمان فقد شاهدنا روعة وجلال الجيوش النظامية»
"at Shiykan we met fanatics, at Abu Klea we met patriots, but at Omdurman we saw the glory of an army"

وعبارة تشرشل تلخص كل قصة تطور جيش المهدية .

ولم يغامر الخليفة اطلاقا باشراكهم فى القتال قبل أن يشتد عودهم ، بل احتفظ بهم فى العاصمة للتدريب . فحتى حملات جبال النوبة الثانية ، أو تمرد البطاحين ومعارك الشمال كلها فركه ، دنقلا ، أبو حمد ، وحتى معركة عطبرة التى ظن انها معركة فاصلة مع العدو ، لم تغره بالتضحية بهم . وبالطبع كان تأمين حكمه فى العاصمة هدفا موازيا لذلك الهدف طوال تلك السنوات .

ولكن إقتراب العدو من الشمال أجبر الخليفة للعودة إلى سياسة الأمة المقاتلة وأسرع فى حث ولاته على ارسال كل قادر على حمل السلاح ، وإنعكست تلك أساسا فى الراية الزرقاء التى ضمت اشتاتا من البشر ومثلث نتاج « التعبئة » والجيش الشعبى أو المتطوعين من الاحتياطى .

وأثر تلك الحروب باستنزافها واستهلاكها لمـوارد الخليفة البشريـة والاقتصادية فى نطاق «الاستراتيجية العليا» عاد وإنعكس على استراتيجيته الميدانية . فان أحد أهداف الخليفة الرئيسية من إنشاء الجيش النظامى الحديث هو تمكين قوته العسكرية من الانفتاح على استراتيجية ميدانية منطلقة منفتحة ، وليست مجمدة مشلولة . وأهم عناصر الاستراتيجية « صحيحة الجسم » هى خفة الحركة . وفى ذلك الزمن — نهاية القرن التاسع عشر حين اعتمدت الحركة على الدواب — ولا أقصد الخيول والفرسان وما يمكن تصنيفها الآن تحت الحيوانات المقاتلة فى القول المقاتل "Fighting Eehelon" بل أقصد الحملة — تلك التى تحمل المؤن والحبوب والماء خلف الجيش المقاتل لتمكنه من التحرك والتوغل لمئات الأميال مبتعدا ومستقلا عن قاعدته الادارية أو الاعتماد على الموارد المحلية فى الطريق ، ليسدد ضرباته الاستراتيجية .

ولقد شاهدنا كيف حرك الخليفة بسهولة ويسر وبراعة تثير الاعجاب جيشا يبلغ تعداده ٨٠٠٠٠ عام ٨٨ بقيادة أبو عنجة ليعبر مئات الأميال من جبال النوبة فى أقصى الغرب ، إلى قندر العاصمة الأثيوبية فى أقصى الشرق ، متقدما باستراتيجية أصيلة على عدة محاور . ولكن كان خلف أبو عنجة آلافا من الجمال لتحمل مؤونته وذخيرته وكانت الأرض عامرة بالسكان والزراعة .

ولكننا في عام ٩٨ شاهدنا الخليفة متسمرا وجيشه الكبير حوله في امدرمان ، وهو غير قادر على الحركة اطلاقا "Immobile". وشاهدنا المشاق التي تكبدها محمود ود أحمد عندما تحرك شمالا واشتكى منها للخليفة في عشرات الخطابات ، ولوحظ عندما قرر ان يقف وقفته الأخيرة في السبلوكه وعجز حتى أن يمون حامية صغيرة لا يتجاوز عددها ٢٠٠٠ مقاتل . كل تلك أوضحت ان الخليفة عاني من نقص شديد في الجمال والحبوب . ولا يمكن إلا ان نلمح هنا آثار تمرد الكبابيش أكبر مصادر الجمال ، وعرب صحراء بيوضة ، ومراوغة الشكرية بقيادة زعيمهم الداهية أبو سن .

وكان هناك سببا لا يقل أهمية عن أثر الحروب الطويلة المتواصلة في التسبب في ذلك القحط البشري ، وحقيقة ليس في الحشد البشري فحسب، بل تسببت في أضرار مست صميم استراتيجية الخليفة العليا. وهذا اوضح من أن يذكر — ذلك هـو الدور الذي لعبته أتوقراطية التعايشة في غرس بـذور التفرقة ، ومنها ـبدأ التخلخل يصيب معنويات الامة — أهـم مقومات الاستراتيجية العليـا . فجزء لا يستهان بـه من الامة لم يقف موقف سلبيا فقط ، بـل تكتل ضد الخليفة . سواء من عمل ضده جهرا وامتشق الحسام مثل عبد الله ود سعد ومقاتلو ورثلي ، أو من عمل ضده في الخفاء وساهم في أن أصبح تقدم السردار ، خلاف المعارك المتفرقة ، كالنزهة . وبدلا من ان يشق طريقه عبر أراضي معادية ، شق السردار طريقه عبر أراضي محايدة أحيانا ، وصديقة حينا آخر (١) . وأيا كانت دوافع ومبررات الخليفة — ولعلنا قد تعرضنا لها في الباب الأولى ، الا أن اتوقراطية

---

(١) حقيقة كانت مجزرة المتمة هي القشة التي قصمت ظهر البعير وفجرت كل الخلافات المكبوتة وبعدها برزت ظاهرة التحول الواضح من سكان الشمال بل حتى داخل العاصمة . أما قبل ذلك فمن الصعب التعميم . فقبل بدء الغزو وفي السنوات الأخيرة لحكم الخليفة برز نوع من الاستقرار والرضاء بالأمر الواقع فتقارير المخابرات تتحدث عن أهالي دنقلا الذين هاجروا لمصر وطلبوا العودة لاوطانهم بعد استقرار الحالة .

وتشرشل يتحدث عن مالمسه الضباط الانجليز الذين إشتركوا في السنة الأولى للحملة من أن شعور الاهالي كان « هم يخشون الخليفة ولكنهم يبغضون الحكومة » أي حكومة الاحتلال .

"They feared the Khalifa, but they hated the Govt."

Churchill, Vol I p. 358

التعايشة كانت سببا رئيسيا فى ذلك التحول ــ تعيين حكام المناطق وقادة الجيوش من عشيرة الخليفة ، تهجير التعايشة والبقارة إلى أمدرمان ، وتخصيص الأراضي الخصبة لهم فى الجزيرة وعلى النيل الأبيض ، الاشاعات الدائرة حول حملة ود النجومى ، تكتل الاشراف ، وأخيرا مجزرة المتمة . وسنرى كيف أدى ذلك التحول إلى التسبب في ضرر بالغ يمس صميم استراتيجية الخليفة الميدانية ، كـــما أصاب استراتيجيته العليا .

كيف ساهمت محاولات الخليفة لسنين طويلة لخلق الدولة العصرية فى السودان في مجهوده للمعركة ؟ لقد وحد المهدى الامة ووضع لها الاطار الفلسفى ، وأعطاها الزاد المعنوى الذى افتقرت اليه . وبقى دور خليفته فى قيادة امته عبر التطور الاجتماعى الطبيعى من المجتمع القبلى إلى مجتمع الدولة المتقدم .

ومن جميع مساهمات الخليفة فى إنشاء الدولة الحديثة ، مركزة الحكم ، تنظيم الحكم الاقليمى ، توحيد مصادر التشريع ، البريد المنتظم ، بناء العاصمة ، صيانة البواخر والتلغراف ، وقيام مئات من الحرف ، فرض القراءة والكتابة إجباريا على الاطفال فى الخلاوى ، الاستفادة من أى آلة ورثها من الحكم السابق سواء المطابع أو الأوراق ، نال الجيش الحديث نصيب الأسد ، للدرجة التى تجعل المرء يشك ان الهدف الاصلى من خلق الدولة العصرية هو خلق الجيش الحديث ــ وللدرجة التى أغرته على القيام بعمليات تهجير جباره لسكان أقاليم بحالها . فقد سادت طيلة سنين حكمه فكرة واحدة وهى ترحيل سكان دارفور وكردفان ، وتغيير وجه الحياة بالنسبة لهم حيث امضوا حياتهم لقرون طويلة فى حياة البداوة والتنقل ، والرفض لأى سلطة مهما كانت ، ولم يبال أبدا بروابطهم العاطفية بديارهم عندما نقلهم إلى أمدرمان والجزيرة وأجبرهم على حياة المدن والزراعة ، كل ذلك ليضمن أماكن حشد جاهزة قريبة تكتظ بالمحاربين ليصبحوا فى متناول يده ليوجههم حيث يشاء بسرعة وسهولة .

وكل الكفاءة التكنيكية التى إستطاع الخليفه وضع يده عليها سخرت للجيش . الاطباء المصريين استغلت معرفتهم للكيمياء لمصانع الذخيرة ، وكل العمال المهرة استخدموا فى الترسانات والمصانع الحربية ، وحتى أوانى الطعام النحاسية جمع

كل ما استطاع وضع يده عليها من الأهالى ليصنع ظروف الذخيرة .

** ** ** ** **

لئن كان التفهم والاعجاب هو احساسنا الغالب فى مرورنا السريع على استراتيجية الخليفة العليا ، إلا اننا ، حتى ونحن نتجنب الحكم المبكر ، لانملك إلا ان يتزعزع اعجابنا قليلا فى تقييمنا السريع لاستراتيجيته التى دخل بها معركة امدرمان .

فالخليفة ادار استراتيجيته بنفس الاسس التى ادار بها استراتيجيته العليا — الوضوح والمواجهة ، عكس المطلوب دائما ، وهو الخداع أو المفاجأة . وقبل ان نتحدث عـــن استراتيجية الخليفة ، يجدر بنا ان نلم الماما سريعا بمشاكل الاستراتيجية عامة ، ومبادئها وعناصرها . فعشرات التعاريف التى حاولت شرح الاستراتيجية بكلمات بسيطة، تمتلىء فى العادة بالثغرات التى تؤدى إلى سوء الفهم والتحريف فى النهاية .

فالتعريف الكلاسيكى الذى قدمه كلوزفتس ، قدمه مقارنا اياها بالتكتيك « التكتيك هو استخدام القوات المسلحة فى المعركة ، بينما الاستراتيجية هى استخدام المعارك فى سبيل الوصول إلى هدف الحرب » وعيب هذا التعريف الذى استغله خصوم كلوزفتس الفكريين ، وعلى التحديد ليدل هارت ، انه يحتم حدوث المعارك الحاسمة . فالاصل هنا التكتيك « نشاط المعركة » وحتمية الالتحام مع العدو . بينما برهن هؤلاء فى سياحة تاريخية غطت عدة قرون ، انه ليس من الضرورى حدوث المعركة الحاسمة على الاطلاق ، وان البحث عن المعارك ، هو بحث عن المتاعب . بل وتوغلوا إلى نهاية الشوط من ان الاستراتيجية الناجحة هى تجنب المعركة الحاسمة ، ووضع العدو فى موقف ميئوس منه نفسيا ، بدون تصفيته وإبادته جسديا .

ولكننا عندما نضع في الاعتبار تصور كلوزفتس ربيب الحروب النابليونية ، حين كان مئات الالوف من الجنود يزحفون على اقدامهم ببطء ، نجد أنه من الصعب تطبيق ما نادى به المحدثون بتجنب المعركة الحاسمة ، والاعتماد على استراتيجية خالصة . فبين بدء تقدم العدو ووصوله نجد فسحة من الزمن تمتد لشهور

مما يجعل امكانية تحقيق مبادىء ليدل هارت ظروفا شاذة ، أما الظاهرة العامة فهى حتمية المعركة ، وقد أجاب كلوزفتس قبلا على خصومه عندما ذكر « توجد حالات يضطر فيها العدو إلى القاء سلاحه قبل الدخول فى المعركة .. ولكنها حالات نادرة . »

ولا نود هنا ان نحشر أنفسنا في جدل مع فلاسفة العسكرية ، ولكن الواضح ان الرأى المعارض « لكوزفتس » وقع فى نفس الخطأ . وهو أخذ ظاهرة معينة وتعميمها . متناسيا ان الحرب شأنها شأن كل النشاط البشرى عبارة عن مواقف متغيرة دائما ، مختلفة أحيانا .

هل كان أمام السردار أى سبيل لتجنب المواجهة ووضع الخليفة في موقف ميئوس منه دون الدخول فى معركة حاسمة ؟ لا . فلا طبيعة الأرض واعتماده الكلى على النيل ، ولا طبيعة مقاتلى الخليفة من تصميم وصمود بل الرغبة فى الموت ، لا التهديد بالابادة ، ولا المحاصرة والتجويع كان سيجدى معهم فتيلا (١).

هل كان أمام الخليفة سبيلا لتجنب المعركة ووضع العدو فى موقف ميئوس منه ، لكسر شوكته القتالية وليفعل بهم بعد ذلك ما يشاء ، سواء الابادة أو الاسر ؟ .... نعم . ومن هنا سننطلق فى نقد استراتيجيته . ولكن قبل ذلك لنبحث قليلا عن تعاريف أخرى للاستراتيجية ، علنا نعثر على الاجابة الكاملة لنبدء على ضوئها تقييمنا بالموضوعية المنشودة .

عرف « مولتكه » ــ الربيب الفكرى لكلوزفتس ، الاستراتيجية بأنها « استخدام الوسائل والمصادر الموضوعة تحت تصرف القائد العسكرى لتحقيق الاهداف المخصصة له . » وقد قصد مولتكه ، وهو يتحدث من موقعه ، أن

---

(١) لعل المسلك الوحيد المفتوح للسردار – لتجنب معركة تكتيكية حاسمة كان هو ايقاف التقـدم شمال امدرمان وانشاء حكومة تكون عاصمتها أجدى مدى الشمال مثل عطبرة أو شندى أو بربر منتظراً انهيار دولة الخليفة من الداخل أو تقدم الخيفة نحوه.وحتى لو تجاهلنا التكاليف المادية عند اتخاذ هذا المسلك، سنجد أنفسنا نتجاهلة عندما نذكر أن هدف الحملة كان الوصول لمنـابع النيل بسرعة . اذن فوصوله لامدرمان كان محتماً .
أنظر الحمل والذئاب ص (١٩١) .

يحقق هدفين بضربة واحدة ، أولهما فصل الاستراتيجية العليا « مسئولية بسمارك » عن الاستراتيجية الميدانية « مسئوليته هو كرئيس الاركان » فهو يركز على كلمة القائد العسكرى "General" بعد ان طمستها شخصية نابليون وفردريك . وهذا لا يعنينا فى كثير أو قليل فحالتنا تختلف تماما . أما الهدف الثانى فهو التعميم ، وعدم حتمية المعارك . فهو يتحدث عن الوسائل والمصادر ، ثم يقفز إلى تحقيق الهدف متخطيا حلقة كلوزفتس الرئيسية التى تربط بينهما « المعارك » وبذلك وضع الاستراتيجية العسكرية فى مكانها الطبيعى ، مثلها مثل بقية نشاطات العقل البشرى عندما يخطط ، الاستراتيجية الاقتصادية ، أو الاستراتيجية السياسية . الخ ..

وحقيقة نجد ان الشمول الذى قصده « مولتكه » يلقى الضوء على لب المسألة فى الاستراتيجية . فهى لا تختلف عن التخطيط الاقتصــادى أو الاستراتيجية الاقتصادية فى انها أولا وأخيرا مسألة اختيار "Selection" واستثمار "Investment" إختيار لأحسن السبل لاستخدام المصادر والطاقات المتوفرة، سواء فى اختيار الأرض المناسبة ، أو التوقيت ، أو حجم القوة أو الاغراض "Objectives" والهدف دائما فى الحرب كما هو فى الاقتصاد، تحقيق أكبر «ناتج» بأقل مجهود وأقل «صرف» . وذلك المبدأ يحتم دائما مواجهة القائد لمشكلة الاختيار، أو القرارات "Decisions" كما يسميها العسكريون .

ومجال الاستثمار الحقيقى لتحقيق ذلك الهدف ــ أكبر ناتج بأقل مجهود ــ يكمن فى .. العــدو . فهو مجال الاستثمار الحقيقى . وطاقاتنا العسكرية هى « المجهود » وتأثيرها فى العدو يمثل « الناتج » . ولو كان الموضوع حسابيا لاستحال تحقيق ذلك الهدف « أقل ناتج بأقل مجهود » . فحسابيا الناتج يعادل المجهود .

فالعدو متقدما ــ أم مدافعا ، يمر بمواقف متغيرة تزداد قوته فيها وتتناقص ، وعوامل الأرض ، والزمن ، وحشدنا العسكرى ، كلها عوامل ثابتة جامدة لا تحتاج لتنبؤ عندما ننظر اليها وهى منفصلة من العدو . وإنما المتغير دائما هو موقف العدو خلال ردود فعله عندما تمارس كل هذه العوامل تأثيرها فيه ماديا أو معنويا ، ومن خلال ردود فعله لتدخلنا وتصرفاتنا وتحريكنا وتوزيعنا لحشدنا العسكرى . وموقف العدو المتغير فى تلك الحالة هو مجال التحسس والاختيار . وذلك يستلزم منا

دائما تحسس ذلك الخيط الرفيع في موقف العدو حين يكون في أضعف مواقفه ونبنى عليه اختيارنا . في أي أرض نواجهه أو نبتعد عنه ، وفي أي زمن نقذف نحوه بقوتنا وتحت أي ظروف وبأي طريقة ، فاكتشاف خيط الموازنة الرفيع الذى يربط وينسق بين عدة عوامل هو النجاح الامثل في الاستراتيجية . فهناك دائما اللحظة المثالية أو أكثر لحظات العدو ضعفا ، ولو تقدمت أو تأخرت لازداد قوة ، ولكنها قد تحل وهو في أرض غير مناسبة ولو تقدم منها أو تأخر عنها بضعة أميال ، لتوفرت الأرض المثالية لنا ، وهذه الأخيرة عندما يصلها ، يصلها وهو في أحسن حالاته المعنوية وهو مالا نرغبه . ذلك ما قصده كلوزفتس حينما ذكر « كل شيء يعتمد على خيط الخيال الحريرى "All hangs on the silken thread of imagination" ولكن عندما نغزل نحن هذا الخيط بأيدينا ونجبر العدو رغما عن ارادته لاتخاذ موقف يناسبنا نحن ولا يناسبه هو ، يصبح ذلك هو قمة النجاح في الاستراتيجية .

والموجه للاستراتيجية في العادة يوجهها نحو عدة مسارح حروب ، أو على الاقل نحو عدة جبهات ومحاور متعددة . ويستلزم ذلك في العادة موازنة دقيقة لتخصيص جزء مقدر بدقة من طاقاته العسكرية يكفي فقط وباقتصاد حذر للقضاء على العدو في كل مسرح أو محور . فالاسراف والتبذير في تخصيص طاقاتنا لجهة ما ينتج عنه التقتير ، وبالتالى الضرر ، الذى يمس أهدافا وجبهات أخرى .

والبحث عن خيط الموازنة يبدو انه هو الذى سيقودنا في النهاية لتعريف الاستراتيجية بـ « الخطوط العريضة لمجموعة من القرارات (الاختيارات) المنسقة التي يراها القائد مقدما وينظمها في خطة متماسكة لمواجهة عدو يستطيع ان يتنبأ بردود فعله » وهذا الجزء الأخير « يستطيع ان يتنبأ بردود فعله » مهم للغاية فالعدو أيضا لسوء الحظ يملك نعمة التفكير . وليس هناك حدود لعبقرية العقل البشرى .. أو غبائه . وذلك ما كان ولينجتون ينبه له قادته دائما ، ان ينظروا للوجه الآخر للمسألة "The other side of the hill" .

هل انحطتنا بالاستراتيجية إلى مستوى تقدير الموقف العادى ؟ ان الاختلاف حقيقة يكمن في «الابعاد» وليس في «الجوهر». فالبعد الزمنى بين القرار وتنفيذه

يجعل التنبوء بأفعال وردود فعل العدو خلال هذه الفسحة الزمنية هو الصفة الغالبة . وذلك مما يجعل الاستراتيجية فنا"Art" يعتمد على الحدس الصادق "Intuition" أكثر منها علما "Science or craft"يعتمد على الحساب . أما فى تقدير الموقف التكتيكى فيقل كثيرا الاعتماد على التنبوء ، فها هو العدو أمامك ، وهاهي ردود فعله أمامك والارض والتوقيت والحشد أكثر تحديدا .

والتعرض للعدو وهو فى أضعف مواقفه — أى منها — هى الضمان لتحقيق أنجح استثمار أو « أكبر ناتج بأقل مجهود » كما برهن تاريخ الصراع البشرى ، منذ ان ارفع قابيل هرواته الضخمة وهوى بها ليحطم رأس هابيل ، وإلى يومنا هذا . عكس مواجهته مباشرة وهو فى موقف قوى . فذلك بالضبط كمن ينطح الحائط براسه ، ليصل لما وراءه ، بدلا من ان يقفز فوقه .

وأكثر لحظات ضعف الجيوش — كالانسان — هى اللحظة التى يفاجأ فيها ويضبط فيها متلبسا فى لحظة ضعفه بعد مفاجأته . والابتعاد دائما عن « السلوك المباشر » هى اضمن سبيل لتحقيق ذلك الموقف ، مفاجأته أو على الأقل زعزعته . "Dislocation"

فالاقتراب غير المباشر — كاحدى سبل السلوك غير المباشر البعيد — هو أقرب واسهل طريق للمكان الامثل لتحقيق تلك المفاجأة وزعزعة العدو . وهذا المكان الامثل هو خطوط تموينه ومواصلاته الخليفة . وإن شبهنا النصر والمعركة التكتيكية بالثمرة أو الزهرة ، فخطوط الامداد هى ساق الشجرة الذى يمرر الماء والاملاح ولولاه لما أثمرت ثمرة ، ولما تفتحت زهرة . والانسان اذا أحس بخطر من الخلف يستدير لمواجهته ، والجيوش تستدير فى زمن أطول وبمشقة أكبر ، وزمن استدارتها هى أكثر لحظات ضعفها ، هذا اذا لم تستسلم اذا سقط « شريان الحياة » ، خطوط تموينها ، فى يد العدو ، وأجبرت عن طريق الموقف النفسى على الاستسلام .

كانت الخطوط الخلفية هى إحدى السلبيات فى «الهجوم الاستراتيجى» التى اشار اليها كلوزفتس بوضوح فى بحثه الحسابى العلمى المجرد «عن الحرب». "On War"

« سلبيات الهجوم الاستراتيجى .. ثانيا : الفراغ الذى تتركه القوة المتقدمة

خلفها ، وهو مهم وحيوى لبقائها ، ولا يمكن حمايته بقوة الهجوم نفسها » .

"The decreasing forces of the attack; In the second place, the space which a military force in it's advance leaves behind, cannot always be covered by the attack itself."

ولم يكن استغلال هذا الضعف جديدا على استراتيجية المهدية . فقطع خطوط امداد هكس كان هو المسمار الأول الذى دق فى نعشه ، وقطع خطوط امداد غردون النهرية — باحتلال بربر ، والأرضية بتفجير عثمان دقنه للثورة فى شرق السودان كانت هى حكم الاعدام على « قائد الجيش الذى لا يقهر » والتصدى لبعثة الانقاذ فى أبو طليح وهى ترنو بأنظارها وحلوقها ظامئة لماء النيل ، كانت تدل على ادراك صحيح لتأثيره .

ونادرا ما تجسم فى تاريخ الحروب سلبيات الهجوم التى اشار لها « كلوزفتس » كما تجسمت فى موقف السردار ، ليمكن عدوه من استغلاله فى استراتيجية غنية . ولم تستمر السلبيات والضعف أياما أو شهورا ، بل استمرت سنينا ، ولم تمتد لعشرات الأميال ، بل لمئات الأميال .

لقد كمن ضعف السردار فى خطوط تموينه ، وتوفرت بذلك فرصة عظيمة للخليفة لضربه ، ولكنه لم يتمكن من انتهازها الا لضعف موقفه هو الآخر ، كان السردار كالسلحفاة ، مقدمة قوية مصفحة ، وبطن هشة ناعمة يسهل خرقها . ولم تتجسم عبارة كلوزفتس عندما وصف الهجوم بأنه « عملية سلبية ذات هدف إيجابى » كما تجسمت فى تقدم السردار . لقد ابرز تقدم السردار سمات سلبية الهجوم ، وهو الفراغ السلبى أو المعادى الذى تتركه القوات خلفها كأبرز ما يستغله الجانب الآخر لخلق الموقف النفسى ، أى وضعه فى موقف ميئوس منه — وهو فى حد ذاته غاية ، كما ينادى المعاصرون ، أو استغلاله لابادة العدو ، كما نادى كلوزفتس .

لقد كانت خطوط امداد السردار هى « كعب اخيل » الذى كان على الخليفة ان يوجه اليها ضرباته الاستراتيجية . فنادرا ما اعتمد مصير حملة وبقائها على خيط رفيع مثلما اعتمدت حملة السردار على خط السكة حديد لفترة طويلة ، أو على النهر طوال الوقت — خط طويل مستقيم لمئات الأميال صعب الحماية .

والواقع تلك سمة من سمات استراتيجية القرن التاسع عشر المحدودة . فان اختراع السكة حديد بدلا من أن يؤدى إلى استراتيجية أكثر مرونة بمقدرتها السريعة الفائقة على نقل القوات والتموين بكميات هائلة فى أيام بدلا من شهور ، أدى إلى استراتيجية مقفولة مشلولة . وغلت السكك الحديدية يد الاستراتيجية المرنة كثيرا ، فقد أصبح الاعتماد كلية على رأس السكة حديد حيث تصب القطارات المؤن والتعزيزات . وزادت حساسية القادة وهم يتقدمون للامام وينظرون فوق اكتافهم للخلف دائما خشية ابتعادهم عن خطهم الحديدى — شريان الحياة — أو خشية قطعه بواسطة العدو . فأدى الأمر فى النهاية إلى استراتيجية مستقيمة يابسة — عكس الرقى والابداع الذى شهده مطلع القرن، وابرزه الاستراتيجى العظيم «نابليون» بتجسيمه واستخدامه الاستراتيجى البارع لتنظيم الفرق الجديدة "Divisional System" للتقدم والدفاع بمحاور متعددة، بل لأقصى مدى فى استخدامه للتقدم الاستراتيجى المنتشر "Strategic Barrage" .

كان ذلك الأثر السلبى ، استراتيجية السكك الحديدية ، واضحا فى نهاية القرن، وكان أوضح سمات الحرب الاهلية الأمريكية، وأهم سمات حرب البوير. وحتى عندما حاول مولتكه ان يخفف من اضراره فى الحرب السبعينية واستخدم خطوط السكة الحديدية «كشبكات»، وليس «كخطوط» ليزيد من مرونتها ، وبعد مجهود ونفقات باهظة ، لم يستطيع ان يتحرر تماما من عبودية استراتيجيتها الصلبة.

ويمكن تقسيم أطوار استراتيجية الخليفة ، على ضوء امكانية استثمارها ، أى من خلال موقف العدو ، إلى قسمين رئيسيين ، قبل عطبره ، وبعد عطبره ، والواضح ان الفرصة التى توفرت للخليفة قبل عطبره كانت أكبر ، ومجال اتخاذ استراتيجية ثرية صحيحة الجسم أوسع . فما ان وصل الخط الحديدى إلى عطبره ، وهو يحمل اطنانا من المؤن وقطع البوارج . إلا وكان مصير معركة امدرمان قد حدد لحد كبير .

فتقدم السردار إلى حلفا وخط السكة حديد يتبعه خطوة بخطوة ثم ينفصل عنه ليشق صحراء العتمور وليمضى السردار مجبر على الالتصاق بالنيل ، والمعارك تمضى بوتيرة واحـــدة — السردار دائـــما هو الأقوى وهو المنتصر ، فركه ،

الحفير دنقلا ، ثم يزحف خطه الحديدى متعثرا لمئات الأميال شرقا ، عبر الصحراء بعيدا عن النيل ، عبر العواصف الرملية ، لا تحرسه الا بضع كتائب من الخلف ، وأقل منهم فى حراسة العمال والمعدات ليلتقيا أخيرا بعد معركة أبو حمد عند انحناءة النيل الكبرى . وعند التقائهما حانت فرصة الخليفة العظمى . فقبل اللقاء كان الاعتماد أساسا على البوارج ، وسنعالج تلك فى مجال آخر – أما بعد أبو حمد فقد القى الثقل الاعظم مرة أخرى على السكة حديد .

وعلى الرغم من العوامل المضادة التى قد تبرر ظاهريا عدم انتهازه لتلك الفرصة ، الا ان الحقيقة تختلف قليلا . أول العوامل المضادة هى فقدان الخليفة لطريقة مخابرات دقيقة . ذلك العنصر الهام من عناصر الاستراتيجية الذى يجعل التنبوء فنا وليس سحرا ، لتوضح موقف العدو ومراكز ضعفه وقوته ، فلم تنتظم إلا فى الفترة الأخيرة . وقد شاهدنا أثرها على الفور فى تقارير عبد الباقى . فقد ادرك عبد الباقى أين كانت قوة السردار الرئيسية ، عندما عاد واعتمد مرة أخرى على البوارج فى تقدمه الأخير نحو امدرمان . وكانت نتيجة تقارير عبد الباقى وهو يعزف على نغمة البوارج ويصف جمع الحطب ونتائج استجواب الأسرى موضحا خطورتها ، ان شرع الخليفة فورا ، فى إنشاء دفاعاته على شاطىء النيل ، وفى تجهيز الالغام المائية .

ولكن قبل ذلك كان كل اعتماده على خطابات وتقارير حكامه . ولعل لبعد المسافة أثرا كبيرا – فلم يكن الزاكى عثمان ، ولا محمد الزين ، ولا محمود بالكفاءة التى تمكنهم من تصور الموقف بوضوح رؤيا كافية ونقله للخليفة، فقد انحصر همهم كله فى هزم العدو ومواجهته – فلم يتسنى للخليفة ابدا تصور قوة أو ضعف العدو الا بعد ان نظمت المخابرات بقيادة الأمير عبد الباقى . وكان ذلك القصور هو العنصر السلبى الاول الذى منع الخليفة من انتهاز فرصته الذهبية.

أما العنصر الثانى فهو يدخل ضمن سلبيات « استراتيجية الخليفة العليا » وهو حياد أهالى المنطقة الشمالية أو انضمامهم للجيش الغازى، بعد إخلاء الخليفة للمنطقة وسحبه قواته منها . وقد تعرضنا لذلك فى بحثنا عن استراتيجية الخليفة العليا . وها قد وضح أثرها فى استراتيجيته . والمرء يعجب حقا من السهولة التى

كان يمكن لبضعة عشرات من الاهالى تسبيب أضرار بالغة للسردار للدرجة التى تسبب له الشلل ، فى غارات متقطعة لتقطع خط السكة حديد عبر مئات من الأميال الخالية . ولنا ان نقارن هنا بين مئات من الاهالى قبل خمسة عشر عاما وهـــم يتطوعون باختيارهم لينضموا فى صفوف هكس ليضللوه ولينقلوا للمهدى تقاريرا صادقة عدة مرات يوميا ، وليدفنوا الابـــار ، ولنـــا ان نقارن حصار الخرطوم وعشرات من الأهالى بل من كبار الضباط وهم يتسللون يوميا ليصفوا الحالة فى الخرطوم بالضبط ، ونقارنها بتقدم السردار « وسره محفوظ » وخطوطه مؤمنة . نحن لا يمكن ان نتجاهل الظروف المحيطة بالمعركة — "Environments"

وأكبر دليل على أثر ذلك فى تسبيب قصور ادراك الخليفة وجهله عن عدوه المتقدم ، انه ظل حتى قبل شهور بسيطة من المعركة وهو يظن ان العدو سيتقدم نحوه بمحورين كما فعلت حملة ولزلى ، عن طريق النيل ، وعن طريق صحراء بيوضة كما فعل طابور الصحراء "Desert Column" وهذا ما جعله يدفع بيونس الدكيم إلى ابار جبره وابار جقدول فى الطريق الذى يشق الصحراء إلى المتمة، بينما كان العمل يجرى منذ سنتين فى خط حديدى طوله ٣٠٠ ميلا، ووصل إلى عطبره.

ولكن حتى لو اضفنا لكل تلك العوامل ، شلل الخليفة بامدرمان وعجزه عن المناورة بجيشه الكبير ليطعن كتشنر من الخلف أو الجنب لصعوبة التموين ولقلة الجمال ، نجد ان فرصة الخليفة الذهبية ظلت سانحة خلال كل تلك الفترة التى مثلت أقصى لحظات الضعف فى السردار .

كيف ؟ الاجابة هى عثمان أزرق . بطل الحدود الشمالية . اخصائى الغارات الصحراوية والضربات المفاجئة . وليست هذه محاولة خيالية ظالمة منا لمحاسبة الخليفة بعد سبعين عاما ، ونحن لا ندرى كل الظروف ، ونحن لسنا هو . ولكن حقيقة كانت تلك فرصة الخليفة الوحيدة ومن الصعب تخيل طريقة أخرى ليناور بها مع طبيعة الأرض المكشوفة ومع صعوبة تحركه (١) .

(١) لعل المذكور أدناه يوضح ما نقصده :

The situation south of Halfa now was that the nearest large force of Dervishes was at Kerma under the command of Osman Azrak, who from time to time sent raiding parties north of Akasha and the railway as far as Ambigol had been destroyed many times.

وتحتاج منا لوقفة قصيرة لدراسة نظريات عثمان أزرق التي خلفت لتجنى أعظم ثمارها في مثل ذلك الموقف . فالواقع ان عثمان أزرق وجد الاجابة الصحيحة لسؤال كان يشغل بال المفكرين واحتل الجدل حوله حيزا كبيرا من الفكر العسكرى فى أواخر القرن الماضى .

وهو استخدام الفرسان "Cavalry" هل تستخدم مجاميع الفرسان للاستفادة القصوى من قوة صدمة السلاح الأبيض "Arme Blanche" وقمتها هجمة الفرسان "Cavalry charge" كما استخدموا تكتيكيا لقرون باعتبار قوة صدمتها فقط؟ أم استخدامهـــم الاستراتيجى كمشاة راكبة "Mounted infantry" سلحوا بالبنادق والمدافع والاستفادة منهم كعنصر نيران بخفة حركة وسرعة عالية تتمكن مجاميعها من صب نيرانها فى أماكن غير متوقعة أو حساسة أو بعيدة ، محققة المفاجأة والاثر المطلوب ، وبأسس تختلف تمامـــا عن استخدامهم التكتيكى القديم كجزء مكمل لتشكيلات المشاة ثقيلى الحركة ؟ (١) (٢) .

ولم يجد البريطانيون رغما عن حروبهم الكثيرة فى القرن التاسع عشر الاجابة

Extracts from a Leutenants Diary *Sudan Notes & Records* Vol XIX, Part I, p. 175

كان الموقف الآن جنوب حلفا كالآتى : « أقرب قوة كبيرة للعدو كانت فى كرمه تحت قيادة عثمان أزرق ، الذى كان يشن غاراته شمال عكاشه . وقد دمرت غاراته خط السكة حديد حتى امبكول مرات عديدة . »

(١) التاريخ يعيد نفسه ، فنفس هذا النزاع ثار مرة أخرى بعد ثلاثين عاما حول استخدام المدرعات « الخيول الحديدية » فى العشرينيات بعد الحرب العالمية الأولى . هل هو الاستخدام التكتيكى للمدرعات ونيرانها ودرعها لمساعدة المشاة فى مواقف تكتيكية محلية أم الاستخدام الاستراتيجى للمدرعات السريعة المرنة بتوفر الجنازير لعبور الاراضى الوعرة بعيدا عن الطرق المعبدة ثم بعد ذلك يأتى استغلال الدرع والنيران. أو بعبارة أخرى أيهما أولا الجنزير أم المدفع والدرع ؟ الواضح طبعا أى المدرستين انتصرت فى الحرب العالمية الثانية .

(٢) الغريب حقا ان اسطورة صدمة السلاح الأبيض "Formidable Arme' Blanche'" عاشت إلى عهد قريب — فحتى عام ١٩٣٩ شهد فرق والوية الفرسان البولنديين تهاجم بخيولها المدرعات الألمانية فى شجاعة نادرة أشبه بشجاعة فرسان دغيم . كانت حربة الفرسان الطويلة ضد مدفع الدبابة الطويل ورشاشاتها . بل حتى عام ١٩٤١ شهدت الجبهة الشرقية فى الجنوب فرق « بوديونى » من الخيالة الروسية وهى تهاجم المواقع الالمانية .

الصحيحة إلا بعد ان دفعوا ثمنا غاليا في حرب البوير .فقد ووجهوا بعدو كله راكب تقريبا Mounted Infantry ووقف تقسيمهم : السلاح الأبيض للفرسان ، والبنادق للمشاة حائرا . فكل البوير كانوا مشاة راكبين يحملون البنادق ، ولم يكن أحد يدرى بالضبط من أين ستقع ضرباتهم ، فكانوا يظهرون بخيولهم فجأة وباعداد بسيطة دائما خلف خطوط البريطانيين ويسببون لهم أضرارا جسيمة .

لقد احس عثمان ازرق بميزة الفرسان الاستراتيجية عن ميزتها التكتيكية . فلم يحتفظ بهم لتوجيه هجمات وصدمات محلية بالسلاح الأبيض. بل كانت كل قوته من المشاة الراكبين "Mounted Infantry"— بين ثلاثمائة وخمسمائة فارس سلحوا جميعا ببنادق رمنجتون في استغلال رائع لقوة نيران تتحرك بسرعة مذهلة وتنقض فجأة من اتجاه الصحراء ، وبعيدا عن طرق الصحراء المتوقعة ، ودائما خلف الاعداء. فكان ان تفاخر سجل عثمان العسكرى بما لايقل عن مائة غارة أغلبها داخل الحدود المصرية .

وحينما دفع الخليفة بمحمود للشمال ، وبعد ان عاد السردار والقى ثقله مرة أخرى على الخطوط الحديدية وقد تم أكمالها في خط واحد من حلفا حتى بربر ، كان ذلك هو الوقت الملائم لتطبيق نظريات عثمان أزرق . فالذخائر والمؤن والبوارج المفككة والتعزيزات وهي تنهال على السردار المتردد في مهاجمة محمود كانت هي انسب لحظة . خط سكة حديد يمتـــد لاكثر من ٣٠٠ ميل تحرسه « كتائب السكة حـــديد » فقط وحدات جعل تسليحها وتدريبها قيمتها القتالية منخفضة لحد بعيد ، كان ذلك هو مجال عثمان أزرق لابادة احدى الكتائب بعد التفاف واسع ، أو ضيق ، وقطع الخط الحديدى في عدة أماكن ونسفه أو فكه. ولم يكن ذلك باستحالة فنية ، فترسانة يعقوب مليئة بالمواد المتفجرة ، وقد شاهدنا اثر انجازها الماحق في الباخرة الاسماعيلية . مجهود بسيط يوجه في اللحظة المناسبة وفي المكان المناسب كان كفيلا بوضع السردار في نفس موضع محمود وهو يبعث الخطـــاب تـــلو الخطاب يشكو للخليفة من قـــلة التموين ، كـــانت كفيلة بأن تجعل اسلاك التلغراف تهتز بمئات البرقيات للاستنجاد . ومجرد ان يظل التلغراف سليما لم يمس حتى اللحظة الأخيرة ، وقطع سلكه لا يكلف احد

الاهالى إلا بضعة دقائق ، تجسيم لروح العمليات التى اتسمت بها معارك الخليفة الأخيرة ، فلعل أول عمل عدائي قام به عثمان ضد قواته الاحتلال كان هو قطع خط التلغراف ، وذلك مافعله محمد الخير في بربر .

كان الاستغناء عن بضعة مئات من الوف الجياد المحتشدة فى امدرمان ووضعها تحت قيادة عثمان أزرق — أو أي قائد كفء — كفيلة بتحقيق أعظم الاثر بأقل مجهود وأقل مخاطرة . وكانت كفيلة بتحرير استراتيجية الخليفة من « قرحتها » الدائمة .. التموين . فعثمان ازرق تمت كل عملياته وهو يعبر مئات الاميال في الصحراء بعيدا عن مصادر التموين والمياه . والواضح أنه وجد المعادلة الصحيحة لتموين عملياته السريعة بعيدة المدى .

** ** ** **

أما بعد معركة عطبرة فقد عاد السردار والقى ثقله على البوارج ، وعندما وصل الخط الحديدى إلى عطبرة وانشئت ورشة تركيب البوارج المحملة على السكة الحديدية وبدأت تقذف النيل بالبوارج المدرعة قوية التسليح ، قوى مركز السردار وصار تصيد ضعف موقفه « مجال الاستثمار » صعبا وأكثر إنحصارا وتحديدا .

فحتى الطبيعة ساهمت فى تقوية السردار وجعل تقدمه منيعاInvincibleلدرجة نادرة الحدوث فى تاريخ الحروب . فما خلفه — فراغ كلوزفتس السلبى — خطوط الامداد والتموين « كعب اخيل » — أصبحت مؤمنة — الرياح الشمالية تدفع ببوارجه جنوبا جارة خلفها مئات من الصنادل حاملة اطنانا من المؤن ، وتيار النيل السريع يدفع بالصنادل الفارغة شمالا تحت حماية البوارج المدرعة لتعود محملة باطنان أخرى من قاعدته الادارية عطبره . وأخيرا النيل على بعد ياردات يساره ... لماء الشرب ! .

أما من امامه فقد قدمت له الطبيعة طريق تقدم مثالي . ارض مكشوفة لمئات الاميال . وبدلا من ان يتقدم السردار خلال الطرق الضيقة كما فعل هكس فى كردفان وجراهام في شرق السودان ، تقدم عبر طريق واسع عرضه مئات الأميال "Grand Highway"

في القرن التاسع عشر كان النجاح التكتيكي يقاس لحد بعيد بمقدرة القادة على تحـــويل اصطفاف جيوشهم ووضعها في تشكيل المعركة "In line" لتسمح بأكبر كمية من النيران ، ولتقدم أعرض مواجهة ممكنة . فالجيوش تتقدم بتشكيل التقدم"In column"في عمق يبلغ أميالا للخلف ،ولكنها تقاتل في تشكيل المعركة. وتغيير تشكيلها لمواجهة العدو ، تكمن كل الخطورة فيه ، في لحظات الاضطراب التي تسود الحشود قبل ان تقف كقطعة متماسكة أخيرا . ولكن السردار لم يتعرض لذلك الخطر الامامي أولاً لأن الخليفة لم يشاء ان يتعرض له حتى وصوله امدرمان . وثانيا لأن الطبيعة قدمت للسردار طريق تقدم يكاد ان يكون بعرض لا نهائي . فكان تقدم السردار دائما في تشكيل المعركة تقريبا .

وذلك درس يجب ان يتعلمه الجميع . وهو ان الصحراء دائما في صالح المتحرك . فانعدام أي هيئات طبيعية ــ اذا استثنينا النيل في هذه الحالة ــ يجعل التمسك بالأرض صعبا وغير ذي موضوعية . فالمهم هنا هو قوة العدو ، وليس الأرض . فالمعارك في الصحراء كالمعارك البحرية ، لا تهم فيها مئات الأميال من مساحات المياه ــ أو الرمال ــ بل المهم هو سفن العدو . وذلك ما جعل حرب الصحراء حرب معدات "Equipment" وآلات أكثر منها مجالا للمشاة ، لتمكن من الحركة والتدمير والمناورة السريعة . والتفوق فيـــها يكون من نصيب من يتحرك أسرع ، ولصاحب النيران ذات المدى الأبعد والاكثر فعالية .

أما اجنابه ، فالتصاق السردار بكتفه الأيسر على النيل كفاه مشقة بذل أي مجهود لحماية الجنب الأيسر ، فقد حرسته بوارجه القوية . اما جنبه الأيمن المكشوف فقد كفلت له الصحراء المستوية الحماية من المفاجأة ، فالرؤيا لا يحجبها الا خط الافق . وكفل له استكشاف الهجانة لعشرات الاميال غربا ، انذارا مبكرا يوفر له زمنا كافيا للاستعداد .

وحقيقة يحتار المرء كيف كان بامكان الخليفة ان يناور بجيشه الكبير ليتجنب الهجوم المباشر على السردار ــ فأي محاولة من جانب الخليفة للالتفاف حول السردار لمفاجأته وطعنه من اليمين أو الخلف ، كانت تعني مع الأرض المكشوفة واستكشاف الهجانة ــ التفافا واسعا يصل إلى عشرين أو خمس وعشرين ميلا

غرب النيل — ولكن مجرد الابتعاد عن النيل كان يعنى ذلك ان تحمل القوات ماء الشرب معها .

من النظرة الاولى يبدو للمرء انه لم يكن امام الخليفة مفر من اتباع استراتيجية صماء . ان يهاجم الخليفة هجوما مباشرا اماميا أو ينتظر السردار — فى أقوى موقف ليهاجمه . فخلاف سلبيات الخليفة التى منعته من التحرك للشمال ، أفلح تقدم السردار المنيع فى جعل الأمر سيان بالنسبة له ، أن يواجهه فى كررى أو فى المتمه أو فى عطبرة . ونفس الموقف على طول المائتى ميل ، وأى منهم لا يحقق امتيازا على الآخر .

عفوا .. ولكننا قلنا ان ذلك يبدو من النظرة الأولى ، فحقيقة لا يوجد فى الاستراتيجية ما يدعى استراتيجية صماء ، أو استراتيجية مشلولة ، طالما قلنا انها موجهة نحو عدو يتغير موقفه دواما . فالمدقق يستطيع ان يرى انه بقيت للخليفة ثلاث فرص أو مسالك تمكنه من الانفتاح على استراتيجية منفتحة منطلقة ، كليا أو جزئيا .

ان الاستراتيجية فى أعظم نجاحها هى تلك التى تمكن بالنشاط الاستراتيجى فقط — دون التكتيكى ، وبأقل نسبة منه — بتحقيق الجزء الأكبر من الهدف العسكرى . ويبدأ نجاحها ، وبالتالى فعاليتها ، يقل تدريجيا كلما زاد الاعتماد على النشاط التكتيكى فى المعركة ، أو كلما وقع العبء كله على النشاط التكتيكى كما حدث يوم ٢ سبتمبر ٩٨ فى معركة كبيرة تستمر لبضع ساعات ، ففى تلك الحالة كانت فعالية الاستراتيجية فى أدنى درجاتها . اما ان دلت كل الظواهر على ذلك الموقف — كما اظهر لنا تقدم السردار المنيع — وأصبح الموقف التكتيكى الحاسم شر لا بد منه ، فهنا يصبح هدف الاستراتيجية الأساسى وينحصر دورها فى تهيئة الموقف التكتيكى المناسب بتقليل مقاومة العدو التكتيكية لاقصى درجة ممكنة "Nullifying his resistance" كتمهيد للمعركة التكتيكية فى أحسن ظروفها .

وسنرى كيف ، حتى بعد بدء تقدم السردار من عطبرة ، تفاوتت فعالية الاستراتيجية ، بين الفعالية الكاملة ، والفعالية الجزئية ، ونحن نمر مرورا سريعا على المسالك الثلاث المفتوحة للخليفة .

حقيقة كانت فرصة الخليفة تكمن فى اتباع اقتراح محمد الزاكى ومن

خلفه يعقوب بالهجرة غربا ، وانتهت مناقشة الاقتراح بتلك النهاية الدرامية التى سبق وصفها (١) . فانسحاب الخليفة لكردفان كان يشطر بضربة واحدة أكثر من ثلثى قوة نيران السردار ، ويكبده نفس المشاق التى تكبدها هكس وأدت إلى فنائه ، صعوبة الحصول على مياه الشرب ، وابتعاده عن خط تموينه ، وطرق كردفان الضيقة التى تحيط بها الاشجار والغابات من كل جانب ، أهالى المنطقة وولائهم للخليفة ، وتحييد أثر البواخر مركز قوة السردار . وعندما انفعل الخليفة وأمر بصفع مقدم الاقتراح ووضعه فى السجن ، كان واضحا ان رد فعله كان نابعا من موقفه كمدير لاستراتيجية عليا ، وليس إستراتيجية عسكرية بحته .

أما المسلك الثانى المنادى بملاقاة العدو فى السبلوكة ، تلك البقعة التى تبرز فجأة لتقلب ميزان القوى رأسا على عقب ضد السردار بعد أن ظل فى صالحه طوال ٢٠٠ ميل من التقدم. فهو موجه من ناحية نحو الهدف المثالى للاستراتيجية المنطلقة: خطوط الامداد — البوارج — عندما عاد السردار والقى ثقله مرة أخرى عليها ، بعد ان حملت على السكة حديد وجمعت فى ورشة عطبرة . فاحتلال السبلوكه أو حتى تحصينها بالمواقع والمدافع كان كفيلا بايقاف تقدم السردار إلى ان يتم تنظيف المجرى من المعقوقات ، والجبال من المدافعين ، وما اصعب ذلك . خصوصا وارتفاع النيل فى تلك المنطقة لدرجة تسمح بالملاحة ، لا يستمر أكثر من شهرين — من يوليو لسبتمبر .

اما الشق الثانى — تقليل مقاومة العدو تمهيدا للمعركة — بحرمانه من عنصر تكتيكى رئيسى — مدفعية البوارج فليس هناك ما يضاف لما ذكره عثمان دقنة وابراهيم الخليل فى المجلس العاصف عندما (٢) ايدا اقتراح الدفاع فى السبلوكه . الا ان نقطة الخلاف الرئيسية بين الخليل ودقنه : هل ينتقل كل الجيش للوقوف الوقفة الرئيسية الحاسمة فى السبلوقة ؟ أم يدافع فقط عن الموقع كموقع مهم مهم ولحراسة المدفعية ، بجزء من الجيش فقط ؟ فهى تلقى ضوءا قويا على نقطة الضعف الوحيدة فى اختيار السبلوكه للوقفة النهائية — فالقوة التى تدافع فيها مهما كان حجمها ستعزل من خطوط تموينها بامدرمان لو التف السردار حول جبال

---

(١) الحشد ص. ٣٠٥

(٢) الحشد ص (٣١٥)

السبلوكة متفاديا حشد الخليفة ومنفصلا عن اسطوله النهرى كما فعل فعلا . وفعلا نوقش أمر التخلي عن الاسطول النهرى وتركه شمال السبلوكه بين كتشنر ونجت، وكتشنر وكرومر عندما علم ونجت بنية الخليفة باحتلال السبلوكه.، على ان يلتف كتشنر حول الجبال ويندفع مباشرة لامدرمان تاركا الخليفة في الجبال معزولا .

ولعل الرأى الذى حبذ معاملة السبلوكة كموقع مهم فقط يوفر باحتلاله تقليل مقاومة العدو بعزل البوارج كان أقرب للصواب . وعلى كل ، وسواء ان كان هذا أم ذاك ، فلم يكن موقع السبلوكة بالموقع الذى يترك بدون استغلاله لاقصى حد .

أما المسلك الأخير ، اتباع استراتيجية مسخرة تماما لتقديم موقف تكتيكى احسن بتقليل مقاومته قبل دخوله المعركة ، بعد ان اصبح خوضها محتما ، فكان يمكن اتباعه عن طريقين ، أولا ازعاج العدو يوميا بعد مغيب الشمس وحلول الظلام بمناوشته وازعاجه "Harassing" ثانيا : باختيار موقع مناسب لمعركته الحاسمة يبرز قوته هو ، ويقلل من قوة العدو . مرة أخرى تشى ظواهر الامور بأن الخليفة منح الشق الثانى إهتمامه الأكبر ، ولكنه تجاهل الشق الأول وهو لا يقل أهمية .

ولعلنا نذكر ان المبدأ الأول فى الاستراتيجية هو معاملة العدو « مجال الاستثمار» كمواقف متغيرة ، مهما بدا ان موقفه قويا على الدوام ومهما بدا محصنا ضد الضعف . ومناعة تقدم السردار كانت تتغير يوميا إلى ضعف نسبى .. كان ذلك عند حلول الظلام كل ليلة . فمنذ ان بدأ السردار تقدمه من عطبرة كان الضعف يبرز عندما تلملم قوته نفسها وتنكمش داخل زريبة رهيفة لا يحرسها إلا الديدبانيه. وكان اوضح قبل ان تنضم كل الويه السردار فى معسكر ود حامد . فقبل ود حامد كانت الالوية المصرية تتقدم بأرجلها واحدا واحدا ، بينما حملت الفرقة الانجليزية على البواخر . اما بعد ود حامد فقد تقدمت كل القوة ، وهى تدافع كل ليلة محصورة فى دائرة صغيرة تكدس فيها عشرون ألف رجل يحوطهم الظلام الدامس من كل جانب ، وتغمرهم الأمطار الغزيرة فى عدة ليالى . لعل ذلك كان أحسن موقف لتصوير كلمات كلوزفتس :

The decreasing first of the attack ; for in the second place, the force

cannot go on uninterruptedly up to it's conclusion, it must have stages of rest when it's action is neutralized, and the state of defence steps out of itself.

« أسباب اضمحلال قوة الهجوم : في المكان الاول ، لا يمكن للهجوم ان يستمر بنفس إيجابيته من البداية للنهاية بدون توقف ، وفي توقفه يفقد الهجوم مبادأته ويصبح محايدا ويبرز كحالة دفاع موقت . » وهنا كان يجب على الخليفة اتباع استراتيجية النفس الطويل على أساس سلسلة من العمليات التكتيكية الصغيرة تحقق في المدى البعيد في مجموعها الهدف الاستراتيجي ، تقليل مقاومة العدو عند دخوله المعركة الرئيسية واستنزافه "Attrition" وليس المهم هنا استنزافه جسديا ، بل معنويا .

فالهدف هنا هو ان يصل العدو لكرري وهو مزعزع نفسيا وقد اهتزت معنويـــاته "Shaken" . والخليفة كان ملما بأثر مثـــل تلك العمليات الإزعاجية على نفسية العدو . فقد كان ذلك هو الواجب الرئيسي لجهادية ابو عنجه ونيران بنادقهم تنصب على جنود هكس ليلا ونهارا حارمة اياهم النوم طوال تقدم الحملة . وكان ذلك هو الهدف من قصف الخرطوم بالمدفعية كل ليلة ، وكانت هذه هي سمة العشرات من عمليات عثمان دقنه ، وهو يتابع العدو ويناوشه ليلا ونهارا قبل الاشتباك الحاسم الأخير . واخيرا وضح اهتمام الخليفة بذلك الامر في خطته المبدئية التي قدمها جاسوس ونجت الذهبي : الطيب ود الحسين[1] . وهي ان يتقدم الملازمين حتى يقتربوا من المدى المؤثر لبنادقهم ويصبون نيرانهم « طول الليل » على العدو ، وعند اول ضوء تهجم الراية الزرقاء بالسلاح الابيض على عدو متزعزع نفسيا متعب جسمانيا من عدم النوم ، وقد تفتت عزيمته ولانت مقاومته الصلبة تمهيدا لتوجيه الضربة القاضية بالسلاح الابيض .

كانت تلك استراتيجية ناجحة للغاية في هدفها المحدود . ولو نفذت على اصغر مستوى كانت ستحرز اثرا كبيرا حتى في مستوى فرسان عبد الباقي ، اذا اضيفت لواجبات اطواف الاستكشاف واجبات اطواف محاربة ، ثم زيد عددها قليلا وخصصت لها قوة اكبر من الفرسان . فقوات عبد الباقي لم تبعد في اغلب الاحيان اكثر من خمسة اميال عن القوة الرئيسية للعدو . ودائما كانت على مسافة

---

(١) انظر الملحق «ب» خطة الخليفه .

النظر منهم ، وكان من السهل عليها الانقضاض كل ليلة على ذلك الهدف الضخم الذى تكدس داخله عشرات الالوف ، وصب نيرانها عليه ــ ولقد شاهدنا خطابات عبد الباقي وهو يستجدى الخليفة ان يسمح له بالمناوشة ، رغما عن اوامر الخليفة القاطعة بتجنبها .

ماهو عذر الخليفة فى تجاهل ذلك المسلك الذى اتخذه مرارا واثبت نجاحه اكثر من مرة ؟ نجد الاجابة مرة أخرى فى خطة الخليفة المبدئية التى وضعها قبل التحرك من امدرمان «ملحق ب» . والغريب ان احساس الخليفة باهمية ذلك المسلك هو الذى منعه من اتخاذه على تلك الصورة ــ عمليات صغيرة كل ليلة . فقد قرر ان ينفذه على نطاق واســع "grand scale operation" . بأن يجمع كل العمليات الليلية الازعاجية الصغيرة فى عملية ليلية ضخمة فى ليــلة المعركة نفسها تشترك فيها كل نيران الملازمين بتأثير مباشر ، وبأثر اكــبر والعملية تتم قبل ساعات من الاقتحام الرئيسى .

ولابد ان الخليفة وازن كالعادة بين مزايا تلك الاستراتيجية ، وبين اخطار العمليات المنعزلة وهى بعيدة عن اشرافه الشخصى ، واثرها لو فشلت على معنويات جيشه المهتزة من قبل، بعد وصول فلول محمود من عطبرة . ولكن سارت الامور على غير مايشتهى . وقد اوضحنا ماهى الملابسات التى أدت الى منعه من تنفيذ خطته الاولى (١) .

اما الشق الثاني ، عندما ينحصر الدور الاستراتيجي فى تقديم أحسن المكان والظروف للمعركة التكتيكية الحاسمة . فالواضح ان الخليفة عندما أختاره منح بعض الاعتبار للشق الأول ، أى اختيار أرض وتوقيت مناسب لعمليته الليلية الازعاجية . وهو اختيار كررى للمعركة . فيجدر بنا ان نعيد حتمية اختيارها بالنسبة للخليفة ، ونحن نفعل ذلك يجب أن لاننسى العوامل النفسية ــ اشاعة نبؤة المهدى .

ان احتــلال امدرمان كان هو الهــدف الاول للعــدو"Primary object"

---

(١) انظر ليلا أم نهارا .

فاما ان يدافع الخليفة داخلها واما ان ينتظر عدوه خارجها . اما دفاعه بداخلها فقد نوقشت ظروفه من قبل ، وعندما تحتم عـــلى الخليفة اتخاذ المسلك الثاني ، لم يكن هناك موقع احسن من كررى لتنفيذ خطته « الخطة المبدئية » فى مكان يبرز قوته هو ويبرز ضعف العدو :

أولا : كررى تقع فى الطريق المباشر لامدرمان ــ طريق النيل، والعدو مجبر على الالتصاق بالنيل . اما الجبال الغربية ، المرخيات ، فهى تبعد السردار عن بوارجه ولكنها تفتح طريقا مباشرا لتقدم السردار لامدرمان(١) .

ثانيا : سلسلة جبال كررى وسركاب هى الهيئة الطبيعية الوحيدة البارزة على امتداد النيل لمئات الاميال وعلى بعد مأمون من بوارج النيل ــ لتمكن الخليفة من اخفاء جيشه وايوائه استعدادا لاجراء مناورته الليلية « التفاف السلاح الابيض حول جنب العدو ، وتقدم الملازمين لصب نيرانهم ليلا وهم على بعد مأمون من النيل ».

ثالثا : التصاق العدو بالنيل سيجعله فى مكان منخفض ، بينما يوفر انحدار الارض نحوه من الجبال قوة دافعة جديدة لاقتحام السلاح الابيض ، كما قدمت الاشجار على مجارى الخيران وهى فى انحدارها نحو النيل ، ساترا يكفل للملازمين التقدم وصب نيرانهم ، وبالذات خور عمر، وخور ابو سنط، وخور شمبات . واهم من ذلك ، كانت تلك المنطقة قريبة من امدرمان .

** ** ** **

لقد تعرضنا لتكتيكات الخليفة أثناء المعركة فى حينها ، وعقب كل اشتباك من اشتباكات المعركة الخمس، وسنقتصر هنا على الدروس التى ابرزتها ، معركة امدرمان للعالم وهو على ابواب القرن العشرين ، وباعتبارها آخر معركة فى القرن التاسع عشر .

الملاحظ دائما ان النقاد العسكريين قيموا معركتنا كمعركة تقليدية على طراز واترلو . لماذا ؟ منذ واترلو كانت سمات المعارك الاوربية هى الاعتماد على خط

---

(١) حسب رواية العمدة آدم يوسف كان الجنود يسألون لماذا لا ينتظرون العدو فى الجبال الغربية طلما ان تأثير بوارجه كان ماحقا لهذه الدرجة كما وصفها اشقائهم الذين حاربوا فى عطبره .

صلب من الجنود تتلاصق اكتافه يتقدم مشرعا سناكي البنادق كسنة واحدة حادة وهو يطلق نيران البنادق متقدما بثبات على نغمات الموسيقى العسكرية ، وهو يصيح صيحة الحرب – متجاهلا الخسائر التي قد تحدثها بنادق ذلك العهد البطيئة في صفوفه ، لاجتياح العـــدو "Storming the enemy" تمامـــا كما فعـــل السردار بعد مغادرته الزريبة وهو يجاهد لوضع ألويته الستة في هذا الخط متجها جنوبا لامدرمان قبل أن يتحطم تشكيله امام هجمتي الراية الزرقاء والملازمين ، وكما فعل مرة أخرى بعد تصفيتها ، وقد اتجه غربا لعدة اميال عندما (١) اصطفت ألويته الستة مرة اخرى في خط واحد ، قبل ان يستدير مرة اخرى جنوبا لامدرمان بنفس التشكيل . وتماما كالخليل وهو يصيح في رجاله « سدوا الفرقة » محاولا قفل الثغرات التي احدثتها الرشاشات والمدفعية ، ليقدم للعدو خطا متماسكا من الرجال ، وتلك كانت علاقة امدرمان بواترلو ، وخلاف ذلك نجد انها اقرب لمعارك الحرب العالمية الاولى منها لمعارك القرن التاسع عشر .

كان كل هم القادة منذ واترلو بناء هذا الصف كاسرع واضمن وسيلة للقضاء على العدو . ونلاحظ ان ذلك التكتيك – الاعتماد على السلاح الابيض "Arme Blanche" باعتباره العنصر الاساسي للهجـــوم – كان فعالا قبل تدخل عدة عوامل ، اهمها الثورة الصناعية وتلتها الثورة التكنيكية . فاقتحام السلاح الابيض كان فعالا عندما كان اقصى مدى للبندقية هو ٢٠٠ ياردة ، وعندما كان حجم نيران البندقية لايتجاوز طلقة في الدقيقة ، وقبل اختراع الكوردايت والرشاش الاتوماتيكي ، وقبل التقدم الملموس في صناعة ذخيرة المدفعية وزيادة مداها ، ولكن على الرغم من ذلك التطور لم يتحرر العسكريون تماما من اسطورة السلاح الابيض .

---

(١) اعتمد ثيوبولد مثلا في تشبيهة لمعركة أمدرمان بمعركة واترلو ، في ان الوية السردار كانت تتكون من صفين من الجنود أثناء المرحلة الأولى عندما فتحوا نيرانهم من خلف الزريبة . الصف الامامي مرتكزا والصف الخلفي واقفا ، تماما كما حدث في واترلو . ولكن فحص الصور الفوتوغرافية واللوحات أثبت ان ذلك الا صطفاف اتخذ على نطاق محدود . وحتى لو صح ذلك فهو وجه مقارنة ضعيف بين المعركتين أما التشابه الحقيقي فهو يكمن في انحصار مساحة المعركة .

Theobald, *The Mahdiya* - p. 298
The Imperial War Museum, London,
Artillery Museum, Woolwich.

وظلت النظرة العامة للمعركة هي « الالتحام » الرجال ضد الرجال ، والاسنة ضد الاسنة ، وقد برزوا فوق سطح الأرض ، ولم يكن استخدام النيران هو الاساس ابدا . ووضحت هذه في جميع حروب القرن التاسع عشر في معركة الما في القـــرم ، هجوم لـواء الفرسان الخفيف "Charge of the light Brigade" ومعارك الحرب السبعينية وفي سيدان . ولعل النظرة العامة للدفاع المؤقت اثناء التقدم أو كجزء من المعركة توضح مانقصده . الا وهو تكتيك المربعات .

فعندما اغفى نابليون عدة دقائق في واترلو استيقظ فجأة على صوت ضجة عالية ، وعندما سأل وعرف الاجابة احس انه قد فقد المعركة . فقد هجم مارشال ناى بكل خيالته على مواقع ولنجتون . وصاح نابليون باكيا « ألا أستطيع أن استريح دقيقة إلا وينهار العالم أمامي ، كيف يهجم شخص بدون غطاء نيران ! ؟ » .

فالذى حدث أن ولنجتون سحب جزءا من مشاته بضع مئات من الياردات خلف المنحدر بعيدا عن أعين الفرنسيين ، وظن ناى انهم انسحبوا ، فثارت شهية الفرسان ، وهجم باعداد هائلة من الخيالة ليفاجأ خلف المنحدر بمنظر لم يشاهد من قبل . لقد نظم ولنجتون مشاته في مربعات صغيرة تتجه اضلاعها لكل الاتجاهات وفتحت نيرانها فورا على الخيول المتدفقة من أعلى ، فسرعان ماتحطم هجوم الخيالة . فالفرسان وهم يندفعون وينقسمون وسط الازقة بين المربعات البشرية فقدوا قوة صدمتهم . وعبثا حاولوا اجتياح احدى المربعات من اى جنب فقد تغلبت «حولية » المربعات على ميزة الفرسان بالمناورة بالأجناب أو من الخلف . ومنذ ذلك الحين بدأت اسطورة المربعات . ونلاحظ ان الارض فيها دائما تأتي في مرتبة ثانوية . ولم تكن أبدا في المرتبة التى نضعها فيها الآن ، كاحدى العناصر الهامة في التكتيك لتحقيق اكبر أثر للنيران ، وللحماية من النيران . بل المهم دائما هو الالتحام مع الافراد .

وعلى الرغم من قيام الدليل الواضح على جدوى المربعات المحدود، إلا انها ظلت التكتيك السائد طيلة القرن « لعل النظرة السائدة لمناعة المربعات توضح في اشعار كبلنج . فالدهشة والاستغراب التى تسود شعره عندما يتحدث عمن خرق المربع البريطاني الشهير « عثمان دقنة » واضحة . الا أنها بدأت تخف عندما خرق

مرة ثالثة ورابعة » .

ولكن معركة امدرمان كاكبر معركة بعد الانقلاب التكنيكي في صناعة الاسلحة ، كانت اقرب لمعارك الحرب العالمية الاولى ــ بل في الواقع كانت هي والحرب الروسية اليابانية ، معمل التجارب لمعارك الحرب العالمية الاولى "Experimental Laboratory" .

فتقارير قادة الوحدات بعد المعركة ، أشبه بتقارير عن نتائج اختبارات منها بتقارير المعارك . فقد طلب مكتب الحرب البريطاني تقاريرا مفصلة عن تأثير وخواص الاسلحة الجديدة ، مدافع المكسيم ودانات الليدايت "Lyddite" ودانات الشاربنيل "Sharpnal" والبندقية الجديدة لي متفورد "Lee Motford" .

وبعدها بدأ القادة يتخلون عن « الاكتف المتلاصقة » بأن تقتحم صفوف المشاة بفواصل كبيرة بين الافراد لتقليل اثر شلل الرشاش "Machine Gun Paralysis" الذى برز كأهم سمات الحرب العالمية الاولى والذى أبادت نيرانه صفوفا بأكملها في نفس مستوى معركة امدرمان ، فقد صدت هجمات شبيهة بهجوم عثمان ازرق اكثر من ثلاثين مرة في الحرب الاولى راح فيها ملايين من المشاة المقتحمة ، كما ابرزت حرب الخنادق "Trench Warfare" للحماية من النيران ، ولتمكين نيران الرشاشات من ابراز فعاليتها . فحتى السلاح الابيض في اكثر لحظات فعاليته عند هجوم الفرسان "Cavalry charge" وتكتيك صدمة الفرسان "Shock tactics" اثبت فشلا واضحا في ام درمان . فما ذكره المؤلف الشاب « تشرشل» عن هجمة فرسان الرماحة اثار ضجة واسعة وسط المفكرين العسكريين ، واستخدم كبرهان قوى بواسطة مدرسة « المشاة الراكبة» فقد ذكر : « بعد هجوم الرماحة الباهظ الثمن ، وعندما استدارت الكتيبة لتواجه العدو كانت نيران البنادق هى التى اوقفتهم ، لو كانت حتى لديهم فكرة في الهجوم على الكتيبة ، وكانت نيران البنادق هى التى احدثت بعض الخسائر في صفوفهم لو حدثت فيهم خسائر على الاطلاق . اما هجوم الفرسان بالرماح المشرعة فلم يهز منهم شعرة واحدة » .

لقد كانت المعركة معلما واضحا يشير الى طبيعة الحرب القادمة ، حرب الخنادق . فقد كان المنتصر فيها دائما من لزم جانب الدفاع ، داخل خنادقه أم خلف زرائبه ، أم ثابتا على أقدامه فى العراء ، وعندما خرج من مكمنه ليهجم فى خور ابو سنط رد كسيرا مثخنا بالجراح . اما ايجابية الهجوم فلم تبرز إلا من نيران المدفعية المحمولة على قطع متحركة آليا « البوارج » ويجب أن لاتخدعنا هنا كلمة بوارج ، فقد استخدمت استخداما ارضيا بحتا ـ كانت أشبه بالمدفعية ذاتية الحركة .

كان هذا فى الدفاع ، وماذا عن هجوم المشاة ، هل يلغى امام هذه النيران الهائلة ؟ لقد استغرق العثور على الاجابة سنينا عديدة حتى بعد الحرب العالمية الاولى . وطبقت الاجابة عمليا عندما تولى الامر نابغة اكتوى بنار هجوم المشاة من احلك مواقعه ، عندما كان عريفا فى الحرب العالمية الاولى ـ وهو يواجه نيران الرشاشات والمدفعية مقتحما اياها بالسونكى ـ ادولف هتلر ـ الذى كان يتقزز للنهاية من فكرة اقتحام المشاة بالسونكى . فبرز للوجود استخدام المشاة لمساندة الدبابات « الخنادق المتحركة » عنصر الاقتحام الرئيسى ، عكس المفهوم القديم ، وهو مساندة الدبابات للمشاة .

نقطة أخيرة جانبية . لقد اتسمت معركة امدرمان بسمات غير اخلاقية تصل فى أغلب الاحيان الى درجة الوحشية ، قتل الجرحى ، قتل الاسرى بعد استسلامهم اباحة المدينة ونبش القبور .

لماذا ؟ السبب يكمن فى كتابات سلاطين واوهرلدر وتصويرهم لتلك البلاد وكأنها تلغ فى الدماء كنوع من الدعاية للحرب . والسبب أخيرا كان يكمن فى استغلال الحكومة لنغمة الثأر لغردون ، بطل المسيحية والحضارة فى غياهب القارة . واستغرق الامر عشرات السنين لاقلام اوربية بل وبريطانية أمينة لتوضح بالضبط ماهو غردون (١) .

---

(١) لا زالت آثار حمى غردون باقية حتى الآن ولقد أحصى كاتب هذه السطور فى المملكة المتحدة عشرات من الحانات باسم « جنرال غردون » وهناك أغنيات شعبية كثيرة لا زالت تذكر عنه حتى اليوم. فعندما نشرت اعـلانا لا ستعدادى لمقابلة أى شخص لديه وثائق أو معلومات ، رد على المستر ليلفورد صاحب حانة « جنرال تشارلس غردون » قائلا انه صاحب حانة فقط وليس لديه وثائق أو كتب ولكنه

لقد ساهمت الأشعار والأغاني في تمجيد غردون طوال خمسة عشر عاما وصورت موته كأنه طعنة في شرف الامبراطورية . فكان أن اتخذت كل الحملة مظهر حملة ثأرية . وليس أوضح من هذا ان جميع الصحف البريطانية ظهرت عندما نشرت نبأ عنوان انتصار السردار بعنوان واحد كبير « الثأر لغردون » « . (1) "Gordon avenged"

بامكانه أن يجعلني أعيش في « جو » غردون . وعندما ذهبت وجدت مغنيا شعبيا يعزف أغنية شعبية قديمة انتشرت بعد مقتله ، عندما فشلت حملة الانقاذ في انقاذه :

Too late, too late to save him,
In vain, in vain they tried,
He was Englands pride when he lived,
He was Englands glory when he died.

ولا بد ان للناحية السياسية وزنا . فقد استخدمها حزب المحافظين القوى سلاحا للتشهير بجلادستون رئيس الحكومة من حزب الاحرار على انه هو المتسبب في اهانة الشرف الامبراطوري . فقد رفض جلادستون التدخل في السودان وقال – ان كان مخلصا أم لا – انه لا يحارب قوما يدافعون عن حريتهم وكان الرجل الوحيد الذي توفرت له الشجاعة ليرفض في البداية – واصفا اياها بالسخف – فكرة إرسال حملة كاملة لانقاذ رجل واحد ، يعتقد انه هو المسئول أولا وأخيرا عن الموقف الذي تورط فيه.

(1) أغلب الصحف ظهرت في يومي ٩و١٠ وعنوان «الثأر لغردون» في الصفحة الأولى ، وأبرزت الصلاة التي أقيمت في ذكراه في سرايا غردون بوصف مسهب .

Times – 9.9.98
Daily Telegraph – 10.9.98
Daily Mirror – 9.9.98
The British Museum, Collindale.

المصـــادر العربيـــة

المصادر الاولية :

١ – أولئك الذين اشتركوا في المعركة : ابرزهم

أ – أقوال العمدة آدم يوسف : اشترك في هجوم الراية الزرقاء « شريط مسجل رقم (١) ورقم (٢) « ياما بحر العرب ٢١ر١ر٧١ »

ب – أقوال الشيخ حسين ود الزين : اشترك في المعركة ضمن الملازمين « الرايات – النيل الأزرق ٢٧ر٥ر٧١ » .

ج – أقوال الشيخ عبد الله محمد نور : ملازم الخليفة على ود حلـــو كان في رئاسة الخليفة طوال زمن المعركة « شريط مسجل رقم (٣) » « قلى – النيل الابيض – ٢٩ر٦ر٧١ » .

د – أقوال الشيخ احمد النور : اشترك في عمليات الضفة الشرقية – « العباسية – ١٣ر٦ر٧١ » .

٢ – الوثائق :

أ – دار الوثائق المركزية – الخرطـــوم :

١ – أوراق الأمير يعقوب – كشوفات الجنود وتنظيم جيش المهدية وهي محفوظه في ثمانية صناديق ، من الصندوق ٢ر٤٣ الى الصندوق ٢ر٥٠ وتشمل كل كشوفات الجنود ووحداتهم ورواجع الذخيرة والاسلحة ، غير منظمة « Pool » أغلبها غـــير مؤرخ » .

ب – مراسلات الامراء المذكورين بعدمن عام ١٣١٤–١٣١٦ أما الخطابات المشار اليها ادناه فهي الخطابات التي وردت في البحث .

(١) خطاب الخليفة لعثمان ادم بتاريخ :١٢ رجب ١٣٠٥ ١ر١١ر٣٢

(٢) خطاب محمد ود بشاره للخليفة بتاريخ١٥٤صفر ١٣١٤ ١ر٢ر٣ر٢٨٧

(٣) ،، ،، ،، ،، ،، :١٨ ،، ١٣١٤ ١ر٢ر٣ر٢٨٩

(٤) ،، ،، ،، ،، ،، :١٨ ،، ١٣١٤ ١ر٢ر٣ر٢٩٠

(٥) ،، ،، ،، ،، ،، :٢٣ ،، ١٣١٤ ١ر٢ر٣ر٢٩٤

(٦) ،، ،، ،، ،، ،، :غايه ،، ١٣١٤ ١ر٢ر٣ر٢٩٧

(٧) ،، ،، ،، ،، ،، :،، ،، ١٣١٤ ١ر٢ر٣ر٢٩٨

(٨) ،، ،، ،، ،، ،، :١ربيع اول ١٣١٤ ١ر٢ر٣ر٣٠٠

(٩) ،، ،، ،، ،، ،، :،، ،، ١٣١٤ ١ر٢ر٣ر٣٠٢

(١٠) ،، ،، ،، ،، ،، :،، ،، ١٣١٤ ١ر٢ر٣ر٣٠٣

(١١) ،، ،، ،، ،، ،، :٣جمادى ١٣١٤ ١ر٢ر٣ر٣٣٧

(١٢) ،، ،، ،، ،، ،، :١٠ ،، ١٣١٤ ١ر٢ر٣ر٣٤٠

(١٣) ،، ،، ،، ،، ،، :١١ ،، ١٣١٤ ١ر٢ر٣ر٣٤٣

(١٤) خطاب محمود ود احمد للخليفة بتاريخ :٢٠ جمادي اخر ١٣١٤ ١ر١٥ر٤ر٢٧٠

(١٥) ،، قادة الارباع لمحمود ،، :٢٢محرم ١٣١٥ ١ر٨ر٣ر٢

(١٦) ،، محمود للخليفة ،، :٢٣ ،، ١٣١٥ ١ر٨ر١ر٢

(١٧) ،، الخليفة لمحمود ،، :٢ صفر ١٣١٥ ١ر٢٨ر٤ر٣

(١٨) ،، محمود للخليفة ،، :٢٤ صفر ١٣١٥ ١ر٨ر١ر٣

(١٩) ،، الخليفة لاحمدفضيل ،، :١٥محرم ١٣١٦ ١ر٢١ر٤ر٣٢٦

(٢٠) ،، ،، ،، ،، ،، ،، :١٥محرم ١٣١٦ ١ر٢١ر٤ر٣٢٦

(٢١) ،، ،، ،، ،، ،، ،، :٢٩ربيع أول ١٣١٦ ١ر٢١ر٤ر٣٤٢

(٢٢) ،، ،، ،، ،، ،، ،، :،، ،، ١٣١٦ ١ر٢١ر٤ر٣٤٣

(٢٣) ،، ،، ،، ،، ،، ،، :٨،،الثاني ١٣١٦ ١ر٢١ر٤ر٣٤٤

(مرفقا خطاب النور عنقره)

(٢٤) خطاب الختيم موسى للخليفة بتاريخ :١٧محرم ١٣١٦ ١ر١٤ر٧ر٢٣

(٢٥) ،، ،، ،، ،، ،، ،، :١٩ ،، ١٣١٦ ١ر١٤ر٧ر٣٤

(٢٦) ،، ،، ،، ، ،، :آخر ،، ١٣١٦ ١ر١٤ر٧ر٣٢

(٢٧) ،، ،، ،، ،، ،، :٣ربيع اول ١٣١٦ ١ر٦ر١٠ر٢٤٠

(٢٨) ،، ،، ،، ،، ،، :٢٩،، ،، ١٣١٦ ١ر٦ر١٠ر٢٣٥

(٢٩) ،، ،، ،، ،، ،، ،، :٧ ،،آخر ١٣١٦ ١ر٦ر١٠ر٢٤٤

(٣٠) ،، عثمان الدكيم ،، ،، :٢٠ محرم ١٣١٦ ١ر١٨ر٩ر٤٢٧

(٣١) ،، عدلان محمد سرور،، ،، :٨ ،، ١٣١٦ ١ر٦ر١٦ر٢٨٩

(٣٢) ،، ،، ،، ،، ،، ،، :١٩صفر ١٣١٦ ١ر٦ر١٦ر٣٤

(٣٣) تقرير عبد الباقي الوكيل للخليفة المؤرخ :٧ صفر ١٣١٦ ١ر٦ر١٢ر٢٧٤

(٣٤) ،، ،، ،، ،، ،، ،، :اول ،، ١٣١٦ ١ر٦ر١٢ر٢٧٥

(٣٥) ،، ،، ،، ، ،، :٢ ،، ١٣١٦ ١ر٦ر١٢ر٢٧٦

(٣٦) ،، ،، ،، ،، ،، :٢١محرم ١٣١٦ ١ر٦ر١٢ر٢٧٩

(٣٧) ،، ،، ،، ، ،، :١٨صفر ١٣١٦ ١ر٦ر١٢ر٢٨٧

(٣٨) ،، ،، ،، ،، ،، :٤ربيع اول ١٣١٦ ١ر٦ر١٢ر٢٩٦

(٣٩) تقرير عبدالباقي الوكيل للخليفة بتاريخ :١٧ربيع اول ١٣١٦ ١ر٦ر١٢ر٣٠١

(٤٠) ،، ،، ،، ،، ،، ،،: ،، ١٣١٦ ١ر٦ر١٢ر٣٠٢

(٤١) ،، ،، ،، ،، ،، :١٩ ،، ١٣١٦ ١ر٦ر١٢ر٣٠٣

(٤٢) ،، ،، ،، ،، ،، :٢٠ ،، ١٣١٦ ١ر٦ر١٢ر٣٠٤

(٤٣) ،، ،، ،، ،، ،، :٢١ ،، ١٣١٦ ١ر٦ر١٢ر٣٠٦

(٤٤) ،، ،، ،، ،، ،، :٢٣ ،، ١٣١٦ ١ر٦ر١٢ر٣٠٩

(٤٥) ،، ،، ،، ،، ،، :٢٤ ،، ١٣١٦ ١ر٦ر١٢ر٣١٠

(٤٦) ،، ،، ،، ،، ،، :٢٤ ،، ١٣١٦ ١ر٦ر١٢ر٣١١

(٤٧) ،، ،، ،، ،، ،، :٢٥ ،، ١٣١٦ ١ر٦ر١٢ر٣١٢

(٤٨) ،، ،، ،، ،، ،، :٢٦ ،، ١٣١٦ ١ر٦ر١٢ر٣١٣

(٤٩) ،، ،، ،، ،، ،، :اول ربيع آخر ١٣١٦ ١ر٦ر١٢ر٣١٤

(٥٠) ،، ،، ،، ،، ،، ،، ،، ١٣١٦ ١ر٦ر١٢ر٣١٥

(٥١) ،، ،، ،، ،، ،، :٢ ،، ،، ١٣١٦ ١ر٦ر١٢ر٣١٦

(٥٢) ،، ،، ،، ،، ،، :٦ ،، ،، ١٣١٦ ١ر٦ر١٢ر٣١٧

(٥٣) ،، ،، ،، ،، ،، :٧ ،، ،، ١٣١٦ ١ر٦ر١٢ر٣١٨

(٥٤) ،، عبد الباقي ،، ،، :٩ربيع أخر ١٣١٦ ١ر٦ر١٢ر٣١٩

(٥٥) ،، ،، ،، ،، ،، ،،: ،، ١٣١٦ ١ر٦ر١٢ر٣٢٠

(٥٦) ،، ،، ،، ،، ،، :١٠ربيع آخر ١٣١٦ ١ر٦ر١٢ر٣٢١

(٥٧) ،، ،، ،، ،، ،، :١١ ،، ١٣١٦ ١ر٦ر١٢ر٣٢٢

(٥٨) ،، ،، ،، ،، ،، ،،: ،، ١٣١٦ ١ر٦ر١٢ر٣٢٣

(٥٩) ،، ،، ،، ،، ،، :١٣ربيع آخر ١٣١٦ ١ر٦ر١٢ر٣٢٥

ج – مطبوعات دار الوثائق :

١ – دفتر وقائع عثمان دقنـــه .

٢ – منشـــورات المهدى – أربعة اجزاء .

د – مجموعات خاصة :

١ / أوراق ونجت – جامعة درام المملكة المتحدة – صندوق رقم ١٧ – مذكرات الزبير باشا بخط اليد .

٢ / مجموعة السيد محمد السيد الخليفة :

أ – خطاب المهدى للاتكال فى الخصوص والعموم على خليفته لآدم عمر ملك جبـــال تقلى .

ب – خطاب المهدى للاتكال فى الخصوص والعموم على خليفته لقمر الديـــن .

٣ / مجموعة السيد عز الدين المهـــدى :

أ – منشور الخليفة فى الحث على الجهاد

ب – منشور الخليفة فى الاتكال على الله

٤ / مجموعة السيد عبد الله الأمير – مذكرات النـــور عنقـــره بخـــط اليـــد .

المصادر الثانوية العربية

١ ـ أقوال سماعية : ابرزهم :

أ ـ السيد : موسى يعقوب (٨٦عام) ابن الأمير يعقوب استقى روايته من الأمير يونس الدكيم والأمير اسماعيل احمد ، كان في الثالثة عشر عندما خرج الخليفة من امدرمان للغرب وشاهد معركة أم دبيكرات. « امدرمان ـ العباسية ٨ر٧ر٧١ » .

ب ـ الحاج أمين أحمد شرفي (٨٨عام) ابن شقيقة الأمير احمد عبدالكريم أمير أمراء الراية الصفراء واستقى روايته عنه . كان في السادسة عشر في زمن المعركة « ودنوباوى ١١ر٥ر٧١ » .

ج ـ السيد بابو نمر ـ حفيد على الجله واستقى روايته منه (المجلد ٢٦ر١٢ر٧٠) .

د ـ الشيخ خوجلى ابراهيم (٨٤عام) كان صبيا عندما شرع يوسف منصور في بناء طوابي السبلوكه (العقبة ١ر٦ر٧١)

هـ ـ الحاجة زينب بنت الأمير محمـــود ـ(٨٣ عام) كانت في العاشرة عندما أخذها الخليفة معه لشركيلا بعد خروجه من امدرمان (العباسية ٢ر٢ر٧٢)

ى ـ أهالى العجيجة ـ الشيخ احمد الكباشى عرفو : من أهالى العجيجه وابن كباشي عرفو الذى قابل الخليفة وسلاطين ليلة المعركة .

٢ ـ مخطوطات دار الوثائق المركزية (لم تنشر) :

أ ـ أوراق المرحوم محمد عبد الرحيم وأهمها :

١ ـ المجلد الأول ـ تاريخ المهدية

٢ ـ المجلد الثاني ـ تاريخ المهدية

٣ ـ المجلد الثالث ـ تاريخ المهدية

٤ – معجـــــم الشخصيـــات

٥ – تاريخ التركيـــــــــة

ب – أوراق يوســــف مخائيـــل .

ج – أوراق السيد عــلى المهـــدى

٣ – بحــوث :

أ – رسالة الماجستير الاستاذ عبد الله ابراهيم (معركة عطبرة) .

ب – بحث الفرق الاولى لكلية القادة والاركانحرب (تطور جيش المهدية)

٤ – كتــب :

أ – شقير – نعوم – جغرافية وتاريخ السودان – بيروت ١٩٦٧

ب – شبيكه – مكى – السودان عبر القرون – بــيروت

ج – شبيكه – مكى – الخرطوم بين غردون والمهدية – مطبوعات معهد الدراسات الاضافية الخرطوم .

د – محمد عبد الرحيم – النداء فى دفع الافتراء – امدرمان

هـ – بابكر بدرى – حياتي – المجلد الاول

و – جهاد فى سبيل الله – عبد الله محمد احمد – تحقيق اوراق على المهدى الخرطوم ١٩٦٥ .

ز – موسى المبارك – تاريخ دارفــور السياسى – الخرطوم .

ح – جوى ديوى – المنطق ونظرية البحث .

٥ – مجــلات :

أ – محاضرة –« معركة كررى من وجهة نظر الخليفة » القاها المرحوم العميد عبد الرحمن الفكى فى الجمعية الفلسفية ونشرت مسلسلة فى مجلة القلم .

١ – مجلة القلم العدد الأول بتاريخ فبراير ١٩٦٧

٢ – مجلة القلم العدد الثانى بتاريخ مارس ١٩٦٧

٣ – مجلة القلم العدد الثالث بتاريخ ابريـل ١٩٦٧

٤ ـ مجلة القلم العدد الخامس بتاريخ يونيو

ب ـ مجلة امدرمان ، صاحبها محمد عبد الرحيم ، تحرير التيجاني يوسف بشـــير ، صدرت فى امدرمـــــان .

١ ـ العدد الثاني بتاريخ ٣٠ر٩ر١٩٣٦

٢ ـ ،، الرابع ،، ٣١ر١٠ر١٩٣٦

٣ ـ ،، السادس ،، ٣٠ر١١ر١٩٣٦

٤ ـ ،، السابع ،، ١٥ر١٢ر١٩٣٦

٥ ـ ،، الثامن ،، ١ر١ر١٩٣٧

MILITARY PUBLICATIONS

(a) Weapons characterestics:

1. The Imperial War Muesium Publications, Pamphlets:
   a– Brassy, A.B., *The Naval Annual* (1899).
   b– Brothwick, G.N. *Yarrow, the First Hundred Years.*
   c– Maxium Gum
   d– Machine guns
   e– Handbook for ammunition 1897
2. Ellacott, S.E. *Guns* (London, 1955)
3. Weller, Jac., *Weapons and Tactics* (London, 1966).

(b) On Strategy:

1. Butler, J.R.M., *Grand Strategy* Vol. 1 & 2 (London, 1957).
2. Clausewitz, Carl Von., *On War* Vol. I,II,III (London, 1966).
3. Liddle Hart, B., *Strategy of the Indirect Approach* (London).
4. Howard, Michael, *The Theory and the Practice of War,* Ten essays presented to Sir Liddle Hart on his seventieth birthday (London, 1965).
5. Henderson, Col. G.F.R., *The Science of War* (London, 1933).
6. Brown, N., *Strategic Mobility* (London Institute for Strategic Studies, London, 1967).

Unprinted works : Gasim Badry thesis for M. A. University of Beirut.

News papers:

(a) The *Daily Telegraph* issue of :—

1. 28/8/98 London
2. 29/8/98 ,,
3. 30/8/98 ,,
4. 3/9/98 ,,
5. 5/9/98 ,,
6. 8/9/98 ,,
7. 1/9/98 ,,
8. 8/9/98 ,,
9. 9/9/98 ,,
10. 10/9/98 ,,
11. 23/9/98 ,,
12. 12/12/98 ,,

(b) *The Times :* 12/12/98; 3/1/98. London

(c) *The New Penny Magazine* Vol. 5 Vol. 2

25. Sanderson, G.N., *England, Europe and the Upper Nile* 1882, 1899 (Edinburgh, 1965).
26. Theobald, A.B., *Ali Dinar, Last Sultan of Darfur* (London, 1965).
27. Theobald, A.B., *The Mahdiya* (1957).
28. Wheeler, F.B., *Lord Kitchener* (London, 1916).
29. Wingate, F.R., *Mahdism in the Egyptian Sudan* (London, 1891).

EUROPCAN SECONDARY SOURCES

1. Sudan Notes and Records (S.N.R.):
   (a) Vol IX, Part 2, Interrogation of a Mahadist Emir Isa Wad El Zane, Wakil of Kordofan on his account on the battle of Omdurman.
   b. Vol. XIII, Part 2, Siege and Fall Of Khartoum
   c. Vol. XVII, Part I, 'Extracts from Alieutenant's diary'.
   d. Vol. XIX, Part 2, 'Extracts from a Lieutenants diary'.

Books:

1. Alford H.S., *The Egyptian Sudan-Its Loss and Recovery* (London, 1898).
2. Atteridge, A.H., *Famous Modern Battles* (London, 1913).
3. Berman, R., *The Mahdi of Allah* (London, 1931).
4. Blunt, W.S., *My diaries* Vol. I (New York, 1922).
5. Burleigh, B., *Sirdar and Khalifa* (London, 1898).
6. Burleigh, B., *Khartoum Campaign* (London, 1899).
7. Churchill, W.S., *The River War* Vols. I and II (London, 1899).
8. Churchill, W.S., *The River War* (London, 1951).
9. Gordon, C.G., *The Journals of Major Gen. C.G. Gordon at Khartoum* (London, 1885).
10. Hill, Richard, *Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian-Sudan* (Oxford, 1951).
11. Hill, Richard, *Egypt in the Sudan* ;Oxford, 1959).
12. Holt, P.M., *The Mahdist State in the Sudan* (Oxford, 1958).
13. Jackson, H.C., *Osman Digna* (London, 1921).
14. Knight, E.F., *Letters from the Sudan* (London, 1897).
15. Magnus, Phillip, *Kitchener, a Portrait of an Imperialist*; London, 1958).
16. MC Michacl, H.A. *History of the Arabs in the Sudan*
17. Nutting, Anthony, *Gordon* (London, 1966).
18. Nutting, Anthony, *Scramble for Africa* (London, 1953).
19. Ohrwalder, Father Joseph, *Ten Years Captivity in the Mahdist Camp* (London, 1893).
20. An Officer: *The Sudan Campaian* (London, 1899).
21. Shibeika, Mekki, *British Policy in the Sudan* 1882. 1902 ;Oxford, 1952).
22. Slatin, Rudolf, *Fire and Sword in the Sudan* (London, 1896).
23. Strachey, Lytton, *Eminent Victorians* (London, 1957).
24. Stevens, G.W., *With Kitchener to Khartoum* (London, 1899).

c. Cabinet Papers, Turkey, Egypt and the Sudan – F. 0.78, F. 0./141, F. 0./142,

d. Lord Cromers papers: F.0./78/30 49; F.0./78/50 50.

4. Wingate Papers, Oriental Studies Department, University of Durham, U.K.; with special emphasis on:

   (a) Colonel Wingate military report on the final campaign of UM Debiekrat (with sketches) 25/11/99 BOX 18.

   (b) Abbas Bey Diary, translated from Arabic, BOX 48

   (c) Lt. Robert Smith's letter to his fiance on his account of the charge of the 21st. Lancers at the Battle of Omdurman; 4/9/98 – 9/15/433

5. Private collections : Sayed Omer El Hag Musa, the war diary of Hunter Pasha

EUROPEN SOURCES
PRIMARY SOURCES

1. Central Records Office, Khartoum
   (a) The battle of Omdurman, 17 Volumes, with special emphasis: Cairint 1/60/320, including battle reports of the followin g units commanders:
      1. Major Gen. Gatacre, British Division O.C.
      2. Major Gen. Hunter, Egyptian Division O.C.
      3. Col Martin, O.C. 21 Lancers Regt.
      4. Col Broodwood, O.C. Egyptian Cavalary
      5. Capt Keppel, O.C. Nile Flotilla
      6. Capt Milne, 2 ND. in comd. Howitzer Battery
      7. Major Stewart Worthly, O.C. of the Friendly Arabs.
      8. Major Longe, O.C. of Egyptian Artillery
   (b) Field Intelligence Diary 1/60/321 (NOT PRINTED)
2. Intelligence Reports, Egypt and the Sudan (PRINTED)
   (a) Intelligence report, Egypt. No. 46, covering from 13/4/1896 to 25/4/1896.
   (b) Intelligence report, Egypt. No. 47, covering from 26/4/1896 to 22/5/1896.
   (c) Intelligence report, Egypt No. 48, covering from 22/5/1896 to 21/6/1896.
   (d) Intelligence report, Egypt No. 49, covering from 22/6/1896 to 27/8/1896.
   (e) Intelligence report, Egypt No. 50, covering from 28/8/1896 to 31/12/1896.
   (f) Intelligence report, Egypt No. 55, covering from 18/7/1896 to 30/9/1897.
   (i) Intelligence report, Egypt No. 59, covering from 13/2/1896 to 23/5/1896.
   (g) Intelligence report Sudan No. 60, covering from 25. 5. 98 to 31. 12. 98,
3. The Public Records office, 21 Chancery Lane, London, U.K.
   a. Lord Kitchner's Report on the battle of Umdurman to the War Office (with sketches) WO/32/6143.
   b. Lord Kitchner's telegram to Lord Gromer answering the Marques of Sallsberiys explanation to Lord Kitchener, 12.3.1968 Pro. 30/51/14.

تذييل

هذا العمل ثمرة تضافر جهود عديدة لابد لى فى نهايته أن أذكرها بالشكر والعرفان . . فأتقدم اولا بشكرى للسيد رئيس الجمهورية الذى لولا توجيهه الكريم لما ولد هـــذا البحث .

ولئن خصصت العميد أ.ح عبد الماجد حامد خليل بالشكر ، فليس لانه شرفنى بترشيحى لتولى هذا العمل فحسب ، بل لاطلاعه على المسودة الاصلية التى كتبت بقلم الرصاص كلمة كلمة وسطرا سطرا . ولم يبخل على ابدا بمشورته وتوجيهه ، ويجدر بي هنا ان اشير للتعاون الصادق المثمر الذى وجدته من قبل هيئة التدريب القتالى وعلى رأسها العقيد يوسف ترير ، الذى اشرف على تطور البحث ، والمقدم عمر احمد ابراهيم المشرف المباشر على هذا العمل .

وأخشى أننى لن أجد مايسعفنى من الكلمات للتعبير عن عرفاني بالجميل للعميد أ.ح محمد يحى منور لسعة صدره وتحمله اياى ، وهو تارة يشجعنى على الاندفاع فى مجالات البحث وتارة أخرى يكبح جماح نزواتي الفكرية .

وكمـــا سنرى فلهذا البحث جوانبـــه العسكرية والتاريخية ، امامن ناحيـــه جوانبه التاريخيـــة فأتقدم بشكرى للدكتور يوسف فضل ، استاذ شـــعبة ابحاث السودان الذى راجـــع مسودة هـــذا البحث من الناحيـــة التاريخية . ولعلنى سأقفز بالقـــارئ قفزة واسعة لاعـــبر عن تقديرى لسعة صـــدر البروفسور هولت « بجامعة لنـــدن » واستقباله وترحيبـــه بي اثناء رحلتى للمملكة المتحدة عنـــدما ذهبت لالم شمل مصادر البحث . وبنفس القدر اتوجه بشكرى للبروفسور رتشارد هل «بجامعة اكسفورد » والبروفسور ثاكر «بجامعة درام» الذى تفضل واعد لى فرقة صغيرة سريعة عن المسلك العلمى لكيفية معالجة المصادر المختلفة وطريقة تناولها ووزنها ، ثم فتح لى كنوز مكتبة الجامعة واوراق ونجت على مصراعيها . والمستر دائيل مدير المجلس البريطانى الذى ساهم فى الاعداد لرحلتى للمملكة المتحدة ولنعود للسودان مرة أخرى لنتحدث عن الاستاذ محمود عبد الله ابراهيم لاعارتي رسالته القيمة عن معركة عطبره ، ولتقديمه النصح الاول فى دراسة التاريخ ، فقد

كنت في مكتبه بعد ساعتين بالضبط من اطلاعي على امر التكليف الرسمي . وقبل ان اختم حديثي عن ابطال الجانب التاريخي يجدر بي ان اتقدم بشكرى لاسرة دار الوثائق المركزية بالخرطوم وعلى رأسها الدكتور ابوسليم مدير الدار واخص بالذكر السيد وداعة والدكتور فايز .

اما الدكتور عون الشريف الذى قام بتصحيح البحث من الناحية اللغوية ، فالثناء والتقدير يجب ان يوجه من القراء ، فهو الذى كفاهم شر اخطائي اللغوية والنحوية .

الاستاذ عبد الرحمن النصرى ، امين مكتبة جامعة الخرطوم ، أخشى انني سأكون معه كالصديق الجاهل ، يضر حين يظن انه ينفع ، واغرقه بالثناء حتى يختنق ، عندما اقول ان قوانين مكتبة جامعة الخرطوم المتصلبة تراخت كثيرا لتتيح لى الاطلاع على مراجع قسم «السودان» فى ظروف مريحة ومن ثم وفر عليّ زمنا وجهدا كثيرا كما قام باتصالات شخصيه عديده ساعدت فى تقدم البحث بتلك السرعه .

ولابد لى ان اتحدث عن ابناء الخليفة عبد الله فاخص منهم السيد محمد السيد الخليفة بابو ضلوع ، والعميد بالمعاش سليمان الخليفة والسيد عبد السلام الذى يستحق وقفة قصيرة ، فليس هنا مكانه الحقيقى بل كان من الواجب ايراد اسمه ضمن «مصادر» البحث : فقد استفدت من علمه الغزير والمامه الواسع بتاريخ المهدية فائدة عظيمة ، ولكننى ان إخترت ان اتحدث عنه هنا فذلك للجهد العظيم الذى بذله والمشاق التى تجشمها وهو يرشدني الى اثمن مصادر هذا البحث ، الاحياء ممن قاتلوا فى كررى ، ولم يكن الجهد الذى بذله السيد اسحق الخليفة محمد شريف في هذه الناحية بأقل أو اهون ، فهو لم يكتف بارشادى اليهم فقط بل تفضل احيانا كثيرة ورافقنى واشترك معى فى محاولتنا الصعبة لاعتصار معلوماتهم القيمة التى حبسوها فى الصدور زمنا طويلا .

فى مثل هذه العجالة ونحن نتناول تطور هذا البحث الطويل ، لابد ان هناك جنودا مجهولين سيشملهم النسيان . الرائد سابقا احمد محمد موسى الذى تحمل معى مشاق رحلتنا الخرافية عبر بوادى كردفان ونحن نطارد احد مصادر البحث

الثمينة ، والعم مكاوى سليمان اكرت الذي اتاح لى الاطلاع على مكتبته الخاصة ، والعريف اسماعيل احمد اسماعيل والوكيل عريف حيدر عبد الله سر الختم اللذان حولا الالغاز والطلاسم التى اكتبها الى كلمات وسطور مقرؤة والأخ محمد على كرار ، ومئات من المواطنين الطيبين الذين اكرموا وفادتي وآووني من الهجير والامـــطار خلال رحلاتي المختلفة .

وأخيراً الهيئه التى يعود لجهدها الفضل فى طباعة البحث وجعله فى متناول يد الوف القراء ، هيئة التأليف والترجمة والنشر بجامعة الخرطوم ، وأخص منهم السيد عمر الأمين شبر مدير المطبعـــه . والساده الفنيـــين — على محمد آدم عليش حسن أحمد — بشرى عثمان — خوجلى محمد ابراهيم — حسن عبد القادر عبد المجيد محمد ابراهيم والمسئول عن تصوير الخرائط والصـور .

شكرا لهـــم جميعا واعتذارى لمـــن لم تشملهم كلمـــاتي . .

رائـــد : **عصمت حسن زلفـــو**

فهرست الخرائط العسكرية

« الملاحق »

ملحق « أ »

صورة أصلية لأحد تقارير استخباوات الخليفة حررها الأمير عبد الباقي عبد الوكيل .

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالي الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم
وبعد فمن عبد ربه عبد الباقي عبد الوكيل الى قدوتي ومرشدي سيدي يعقوب بن السيد محمد
نفعنا الله به آمين بعد السلام وتقبيل الأيادي الكرام ظاهراً وباطناً مع راحات
الاقدام نعلم سيدي ان طلايع الخيول حضرت واخبرت ان اعداء الله
المخذولين قاموا من اول العقبة ودخلوا العقبة الموصلة الى الروايات
وحلة الكوداب وقبل ان ينزلوا بالروايات فصار حضور بعض الخيل المذكورة
وعرفنا بهذا الخبر وان ذلك عينا ثلاثة جوار ووجهناها الى الخيل الذي واقع
معهم ونحن ومن معنا من الاصحاب صار قيامنا من الجعباب(?) ونزلنا باول
السرو راب(?) الكاين ما بين قبة الشيخ الطيب والعقبة الامين كونه مريح للخيل
وفيه القشوش وعلى صرفهم الذي صرف مدة اقامتنا ينفقون الجراد وانشاء الله
هذا المحل يكون لنا رصد لعام حضور لعداء الله بجهة الشيخ الطيب حتى
يصير تحريزنا حسب الاشارة اما بخلاف ذلك لا يكون لنا قيام [illegible]
تاريخ عرضنا بخصوص قيام اعداء الله المخذولين ودخولهم العقبة وتقدمهم
الى الروايات وجهة الكوداب الكاينة بالغرب الى [illegible] ووقوف الخيول بهم
لكشف احوالهم وحضورها لنا وكونه من الضرورة معلومية سيدي بما وضحناه
لزم تحريره وسائل الدعاء الصالح [illegible] والسلام

[illegible]

نعلم سيدي ان الجمال عندنا [illegible] الجمال الذي توجه بهم المكرم عبد المجيد [illegible] امرهم
[illegible] الجبخانة [illegible] المكرم عبد المجيد المذكور بسرعة اعادة الجمال [illegible]
[illegible]

١٩ [illegible]

خطة هجوم الخليفه

الخليفة لازال داخل سور أمدرمان ، ولكنه سيتقدم قبل زمن كافى نحو كررى أو النوفلاب .

سينتظر الخليفة إلى أن يتقدم جيشنا إلى النقطة التى سيبدأون منها الهجوم وعندها سيقوم هو بهجوم مفاجىء أولا . سيبعث بالملازمين أولا بقيادة شيخ الدين إلى نقطة تبعد مسافة مرمى طلقة البندقية من جيشنا – وسيبعث بالفرسان وحاملى السلاح الأبيض إلى نقطة غرب جيشنا « بحيث يشكلوا زواية قائمة مع الملازمين » وسيكون الخليفة مع حرسه الخاص ى كررى أو النوفلاب .

وسيبدأ الملازمون إطلاق بنادقهم فى الليل ويستمرون فى إطلاقها حتى الفجر وعندها سيوقفون إطلاق النار ليبدأ إقتحام السلاح الأبيض والخيالة . ولو باءت محاولتهم بالفشل فسينضموا للخليفة للشروع فى محاولة أخرى .

ملحوظة :–

يجب أن يبدأ الجيش فى إطلاق نيرانه أولا على جيش الخليفة قبل أن يفتحوا نيرانهم إذ ذلك يثير الإضطراب فى صفوفهم .

THE KHALIFA PLAN OF ATTACK

The Khalifa is still inside the wall but he will come out in good time with all his troops to Kerreri or Nofalab.

He will wait until the troops come to the point from which they intend to attack, then he will make a sudden attack first - He will send first the Mulazimin under Shiekh El Din to a place at a rifle shot from the troops - The horsemen, sword and spearmen behind will stand to the west of the army and the Khalifa will wait with his body guard in Kerreri, or Nofalab The Mulazimin will begin fire before dawn, and will continue firing until dawn when they will stop fire and then the horsemen and swords - Spearmen will attack - if they were defeated they will return to the Khalifa and make another stand.

****

The army should begin firing at the Dervishes before they start to fire as this strikes terror in them

الملحق (ب) :

صفحة من مفكرة الاستخبارات الميدانية
حررها ونجت بعد استجوابه للطيب الحسين قبل المعركة بثلاثة أيام . كتب في أعلاها (خطة هجوم الخليفة) وهي كالآتي :—

KHALIFA'S PLAN OF ATTACK

The Khalifa is still inside the wall but he will come out in front line with all his troops to KERRERI or NOFELAB.

He will wait until the troops come to the point from which they intend to attack him. Then he will make a sudden attack first. He will send first the Mulazimin in front under Sheikh El Din to a place at 12 a rifle shot from the troops. The horsemen & swords & spearmen behind will stand to the west of the army & the Khalifa will wait with his bodyguard in Kerreri or Nofelab. The Mulazimin will begin fire before dawn & will continue firing until dawn when they will stop fire & then the horsemen & swords & spearmen will attack. If they were defeated they will return to the Khalifa & make another stand.

The army should begin firing five minutes before [illegible] to fire as their strikes [illegible] in [illegible]

ملحق «ج»

الخريطة الأصلية التى أرسلها الجنرال كتشنر وأرفقها مع تقرير العمليات عن معركة أم‌درمان موضحا تطورات المعركة .

J.ABU LEDAT ?

J.MARGARIN ?

Magnetic North
variation not yet determined

thick low bush

To Metemma

Troops by
Rawlinson Capt.

Khojalab Iᵈ

Salimi Iᵈ

Surveyed by M.G.Talbot major R.E.

MERKHIAT Hills commence about 1 Mile West of this line.

NOTE

Dervish forces shown in Green. 1st Stage, 2nd Stage, 3rd Stage

British and Egyptian forces shown in purple, red, and blue. 1st Stage, 2nd Stage, 3rd Stage

Brigades are numbered as follows

No. 1. First British Brig. Genl. Wauchope.
No. 2. Second British Brig. Genl. Lyttelton.
No. 3. Second Egyptian Brig. Col. Maxwell.
No. 4. Third Egyptian Brig. Col. Lewis
No. 5. First Egyptian Brig. Col. MacDonald.
No. 6. Fourth Egyptian Brig. Col. Collinson
38 Guns Artillery + 20 Maxims Col. Long.

SKETCH OF THE BATTLE OF

2nd SEPTEMBER 1898

Scale ... is = 1 Mile

Yards
Miles

Note. Planetabled from chained ... Heights above High Nile level, ... aneroid used not very reliable

Open Plain, with lit...

sloping gently down from ...

Smooth bare and open ground

Khor Shambat

to Omdurman

J. SURGHAM 350'

Open ... Gr...

Shambat village

River Nile

Gun Boats

صورة من تقرير العمليات الأصلى الذى أرسله ونجت بعد معركة أم ديكرات يصف فيه استشهاد الخليفة .

where we had forestalled him, had then endeavoured to make a turning movement, which had been crushed by our fire: Seeing his followers retiring, he made an ineffectual attempt to rally them, but recognizing that the day was lost he had called on his Emirs to dismount from their horses, and seating himself on his "furwa" or sheepskin — as is the custom of Arab Chiefs who disdain surrender — he had placed Khalifa Ali Wad Helu on his right and Ahmed Fedil on his left, whilst the remaining Emirs seated themselves round him, with their body-guards in line some 20 paces to their front and in this position they had unflinchingly met their death. They were given a fitting burial under our Supervision by the surviving members of their own tribesmen.

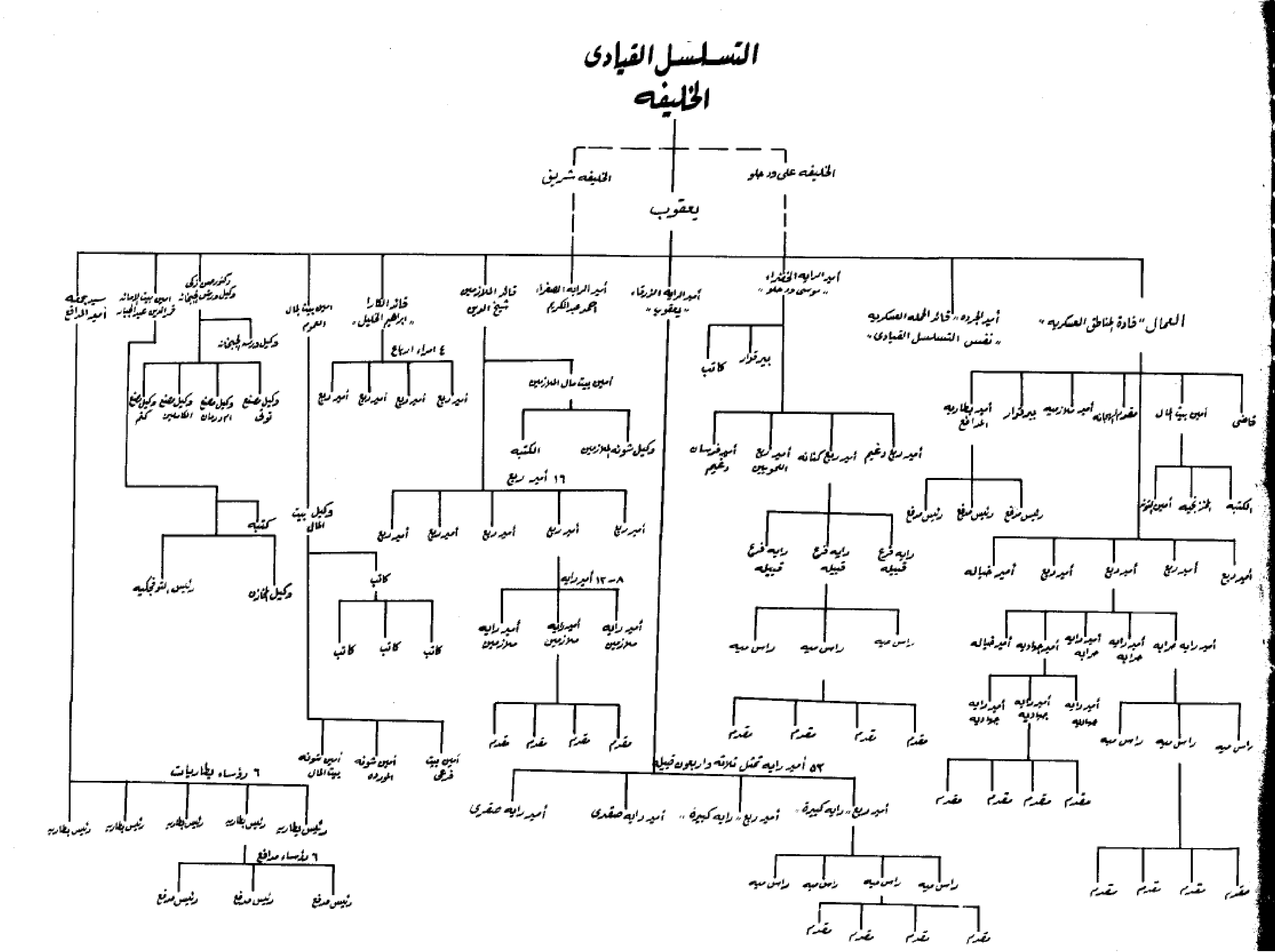
The Khalifa's death was the signal for wholesale surrender, and by the afternoon we had collected upwards of 3000 men and 6000 women and children besides quantities of rifles, swords, spears, cattle etc.



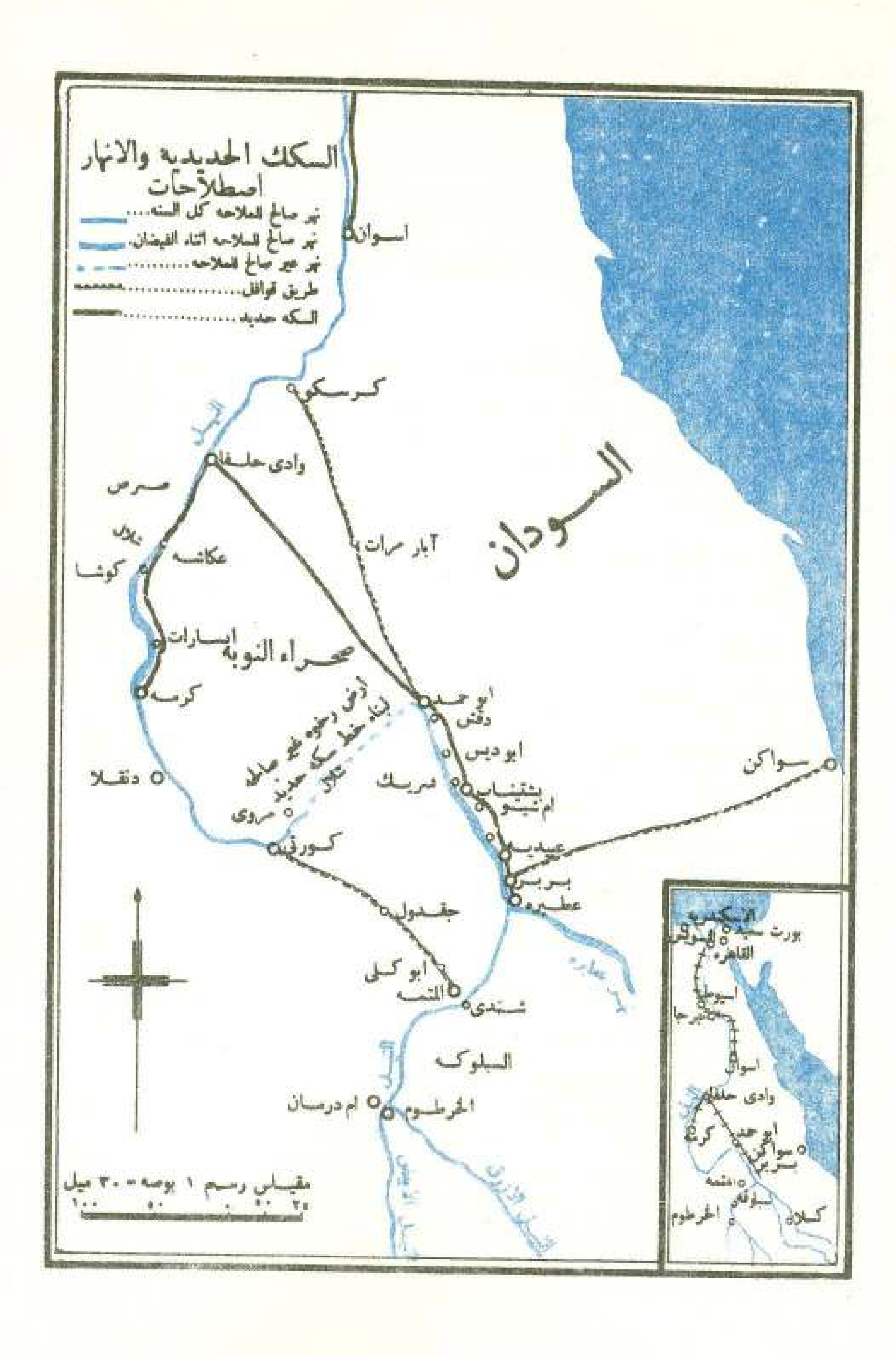


٥ المؤلف ٥

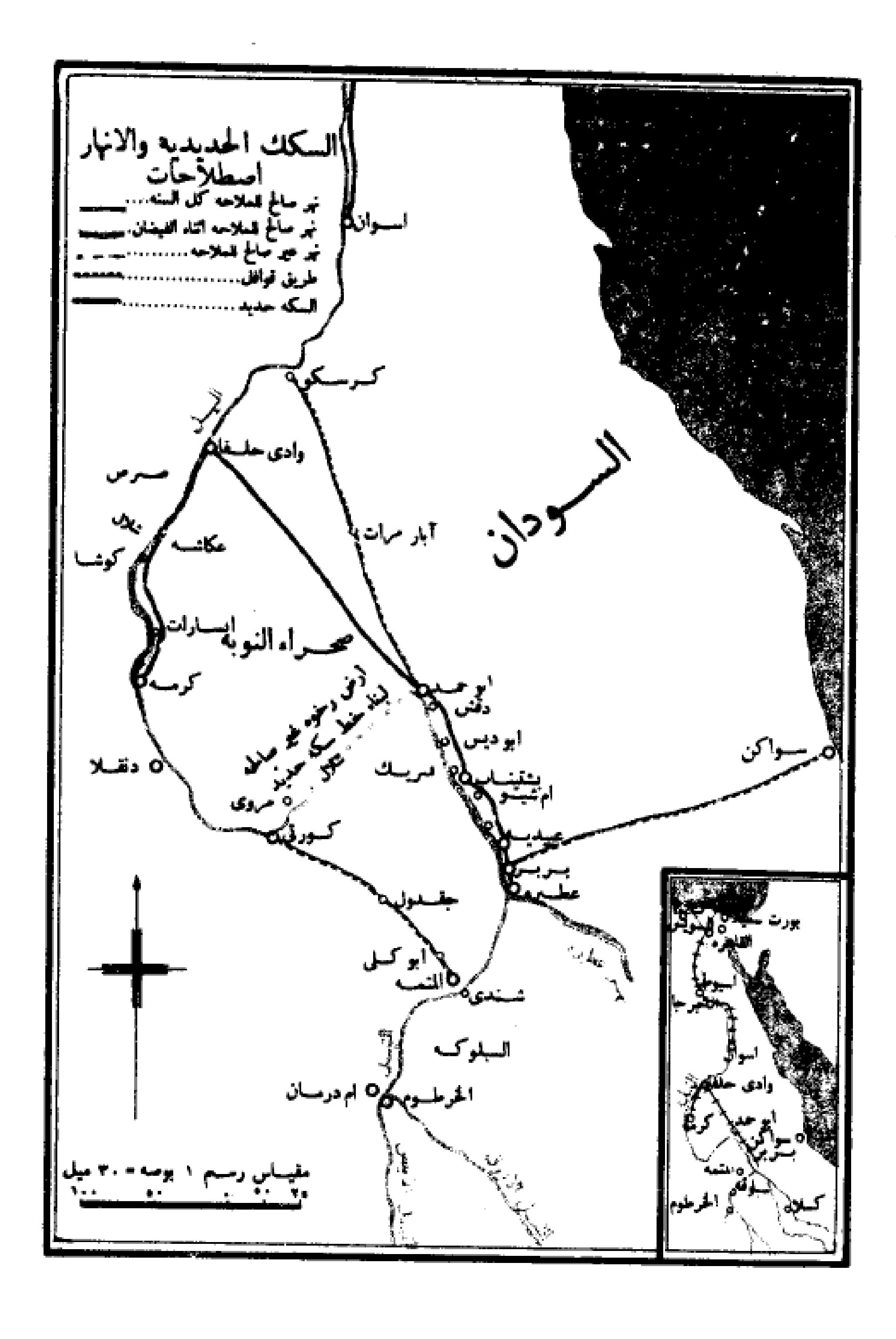
- ولد بامدرمان فى مايو / ١٩٤٢
- اكمل دراسته الثانوية ١٩٦٠ والتحق بالكلية الحربية فى نفس العام .
- تخرج من الكلية الحربية ١٩٦٣ برتبة ملازم ثانى والتحق بالقيادة الشماليه ومنها نقل لسلاح الاشارة ١٩٦٤ وظل به الى أن نقل هذا العام لفرع التدريب بالقيادة العامة .
- خدم فى اغلب بقاع السودان .
- خدم فى كل مسارح العمليات النشطه التى اشترك فيها الجيش السودانى .
- أوفد لدراسة عسكرية بجمهورية المانيا الاتحادية عام ١٩٦٣ ، والمملكة المتحدة عام ١٩٦٨ .

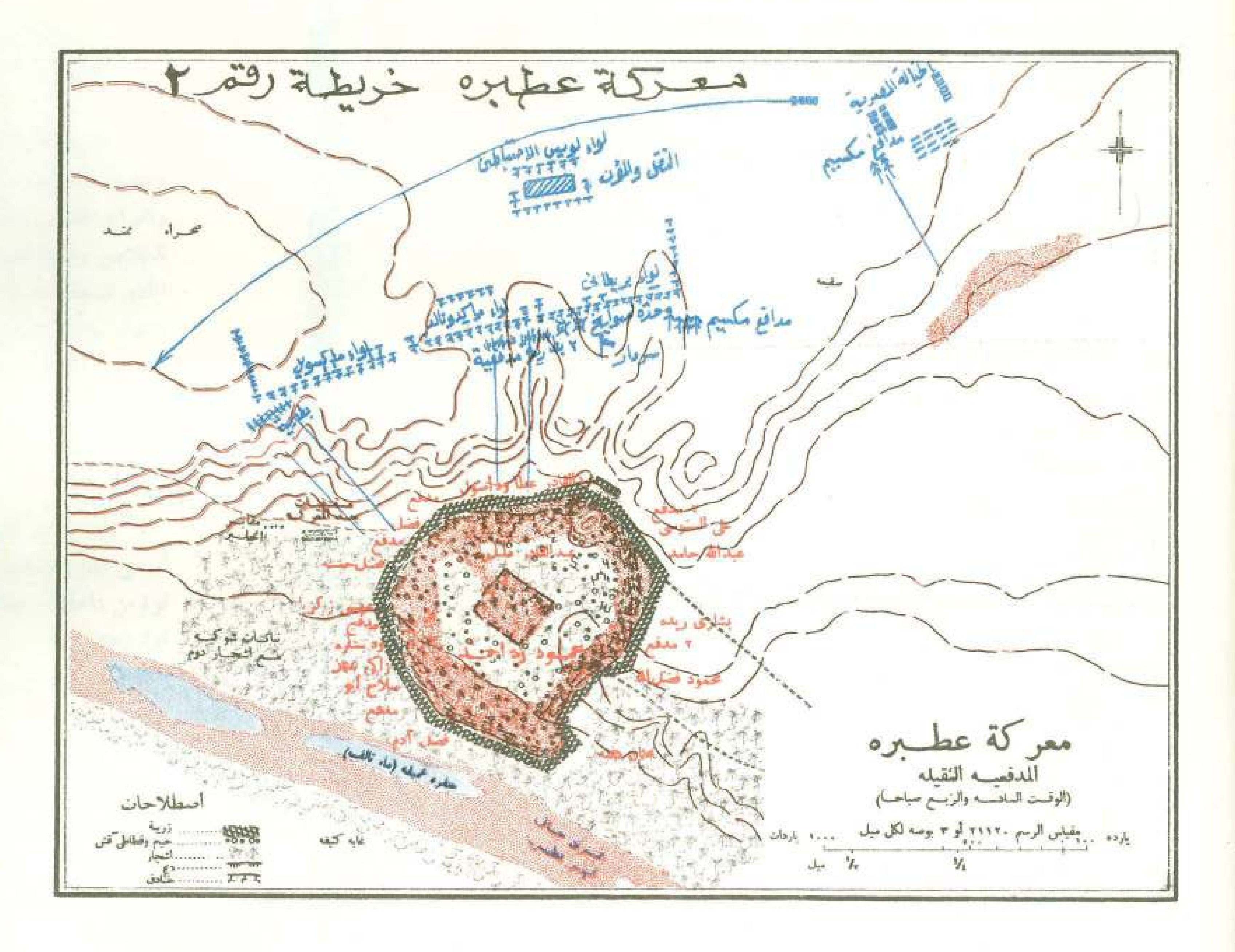


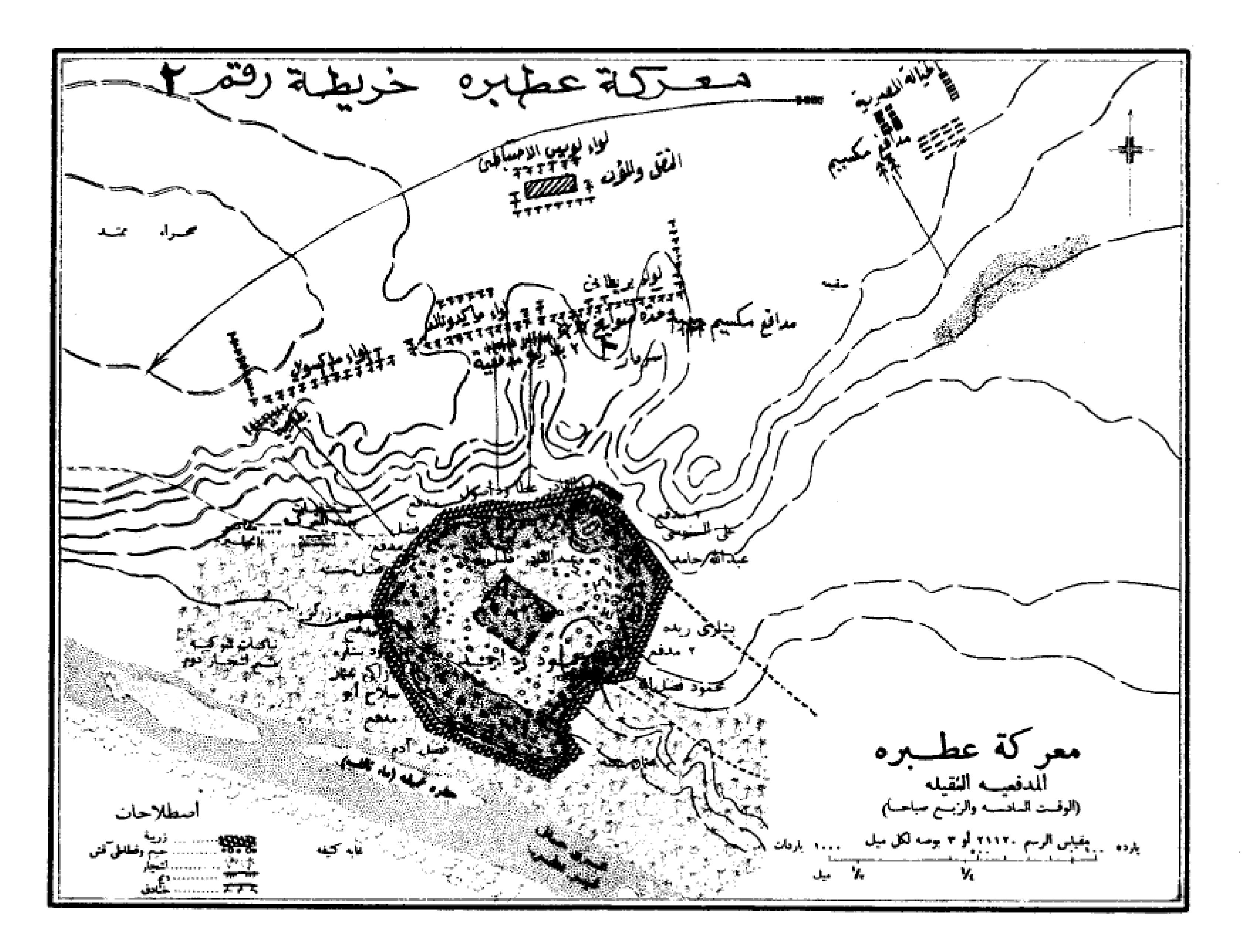
التسلسل القيادى
الخليفه
الخليفه شريف
يعقوب
الخليفه على ود حلو
سيد جمعه أمير المدافع
أمين بيت الأمانه
ركن ورصوازى وكيل ورش الجهاديه
أمين بيت المال العموم
قائد الكارا «ابراهيم الخليل»
قائد الملازمين شيخ الدين
أمير الرايه الصفراء محمد عبد الكريم
أمير الرايه الزرقاء «يعقوب»
أمير الرايه الخضراء «موسى ود حلو»
أمير الجرده «قائد الحمله العسكريه» «نفس التسلسل القيادى»
العمال «قادة المناطق العسكريه»
وكيل ورش الجهاديه
٤ أمراء ارباع
أمين بيت مال الملازمين
كاتب
أمير ربع
وكيل شونه الملازمين
الكتبه
١٦ أمير ربع
وكيل بيت المال
كتبه
رئيس الترفكيه
وكيل المخازن
٨ - ١٢ أمير رايه
أمير رايه ملازمين
مقدم
أمين بيت فرعى
أمين شونه الورده
أمين شونه بيت المال
٦ رؤساء بطاريات
رئيس بطاريه
٦ رؤساء مدافع
رئيس مدفع
٥٣ أمير رايه تمثل ثلاثه واربعون قبيله
أمير رايه صغرى
أمير ربع «رايه كبيرة»
راس ميه
أمير ربع دغيم
أمير ربع كنانه
أمير ربع التعويين
أمير فرسان دغيم
رايه فرع قبيله
قاضى
أمين بيت المال
مقدم الجهاديه
أمير ملازميه
بيرقدار
أمير بطاريه المدافع
رئيس مدفع
الكتبه
الخزنجيه
أمين المخزن
أمير قبائله
أمير رايه عرابه
أمير جهاديه
أمير رايه جهاديه



السكك الحديديه والانهار
اصطلاحات
نهر صالح للملاحه كل السنه
نهر صالح للملاحه اثناء الفيضان
نهر غير صالح للملاحه
طريق قوافل
السكه حديد
السودان
اسوان
كرسكو
وادى حلفا
صرص
عكاشه
كوشا
ابسارات
صحراء النوبه
كرمه
دنقلا
آبار مرات
ابو حمد
ابو ديس
بربر
عطبره
سواكن
كورتي
جقدول
ابو كلى
المتمه
شندى
السبلوكه
الخرطوم
ام درمان
مقياس رسم ١ بوصه = ٣٠ ميل


السكك الحديديه والانهار
اصطلاحات
نهر صالح للملاحه كل السنه
نهر صالح للملاحه اثناء الفيضان
نهر غير صالح للملاحه
طريق قوافل
السكه حديد
اسوان
كرسكو
وادي حلفا
صرص
عكاشه
كوشا
آبار مرات
السودان
صحراء النوبه
كرمه
ابو حمد
دقش
ابو ديس
بربر
عطبره
سواكن
دنقلا
مروي
كورتي
جقدول
ابو كلي
المتمه
شندي
البلوكه
ام درمان
الخرطوم
مقياس رسم ١ بوصه = ٣٠ ميل


معركة عطبره خريطة رقم ٣
لواء لويس الاحتياطي
الهجانة
لواء ماكدونالد
لواء مكسويل
لواء جاتاكر
مدافع مكسيم
خيالة المصرية
صحراء محمد
محمود ود أحمد
عبد الله حامد
علي الجعلي
بشارى ريده
محمود فضل الله
معركة عطبره
المدفعيه الثقيله
(الوقت الساعه والربع صباحا)
مقياس الرسم ٢١١٢٠ : ١ أو ٣ بوصه لكل ميل
ياردات
ميل
اصطلاحات
زريبة
خيم وخطاطيف قش
أشجار
خنادق
غابه كثيفه


معركة عطبره خريطة رقم ٢
لواء لويس الاسباني
الفتح واللون
صحراء عتمد
خيالة المصرية
مدافع مكسيم
لواء بريطاني
مدافع مكسيم
لواء ماكدونالد
معركة عطبره
المدفعيه الثقيله
(الوقت السادسه والربع صباحا)
مقياس الرسم ٢١١٢٠ أو ٣ بوصه لكل ميل
يارده
ياردات
ميل
اصطلاحات
زريبة
خيم وخنادق فتى
اشجار
خنادق
غابه كثيفه

Osman Digna



الأمير عثمان دقنة لحظة إعتقاله

Osman Digna



الأمير عثمان دقنة لحظة إعتقاله



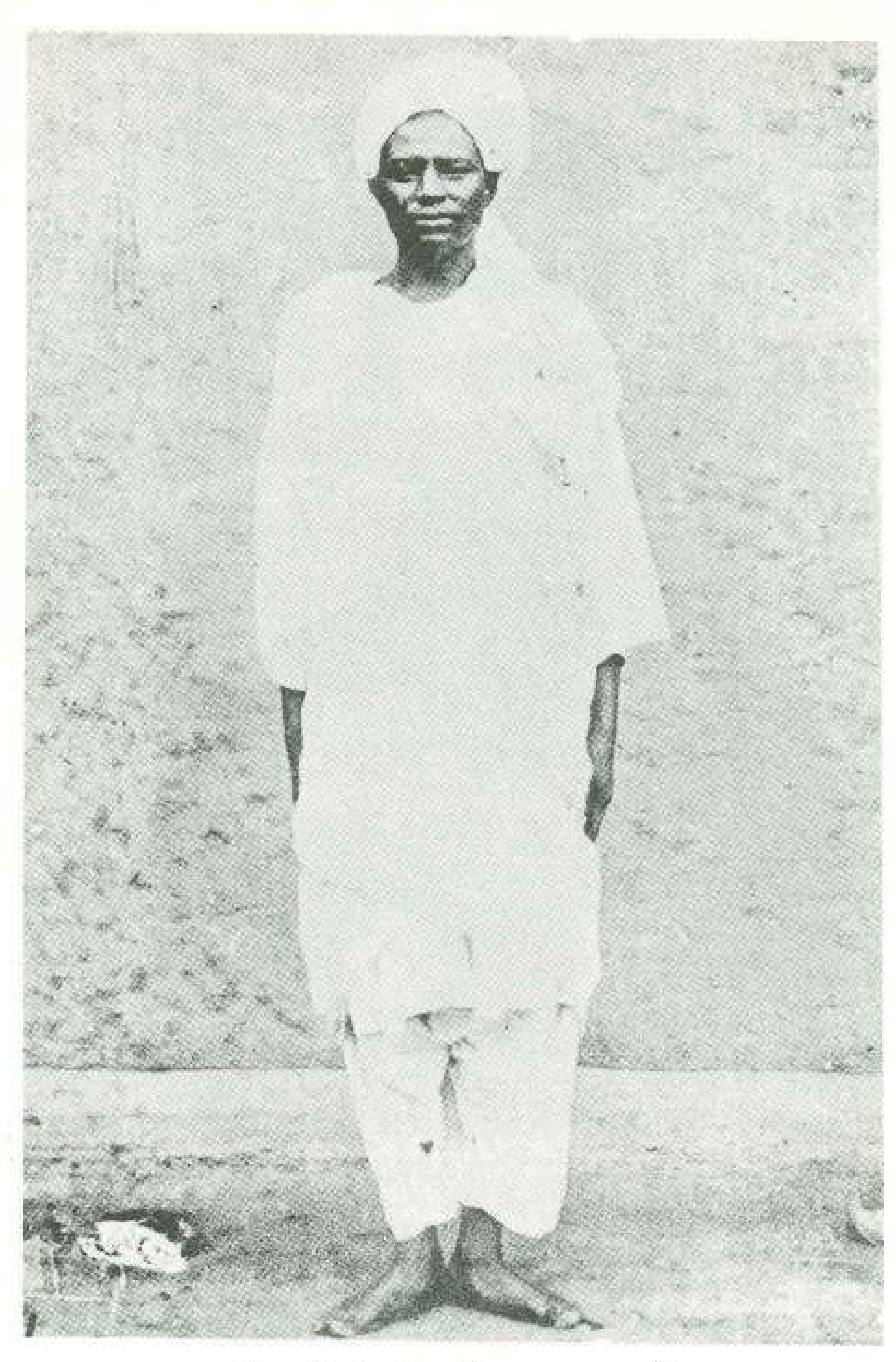
عثمان شيخ الدين بن الخليفة عبدالله
OSMAN SHEIK ELDIN SON OF
THE KHALIFA
K 252

عثمان شيخ الدين يرقد جريحا بعد أسره في أم دبيكرات
نوفمبر ١٨٩٩

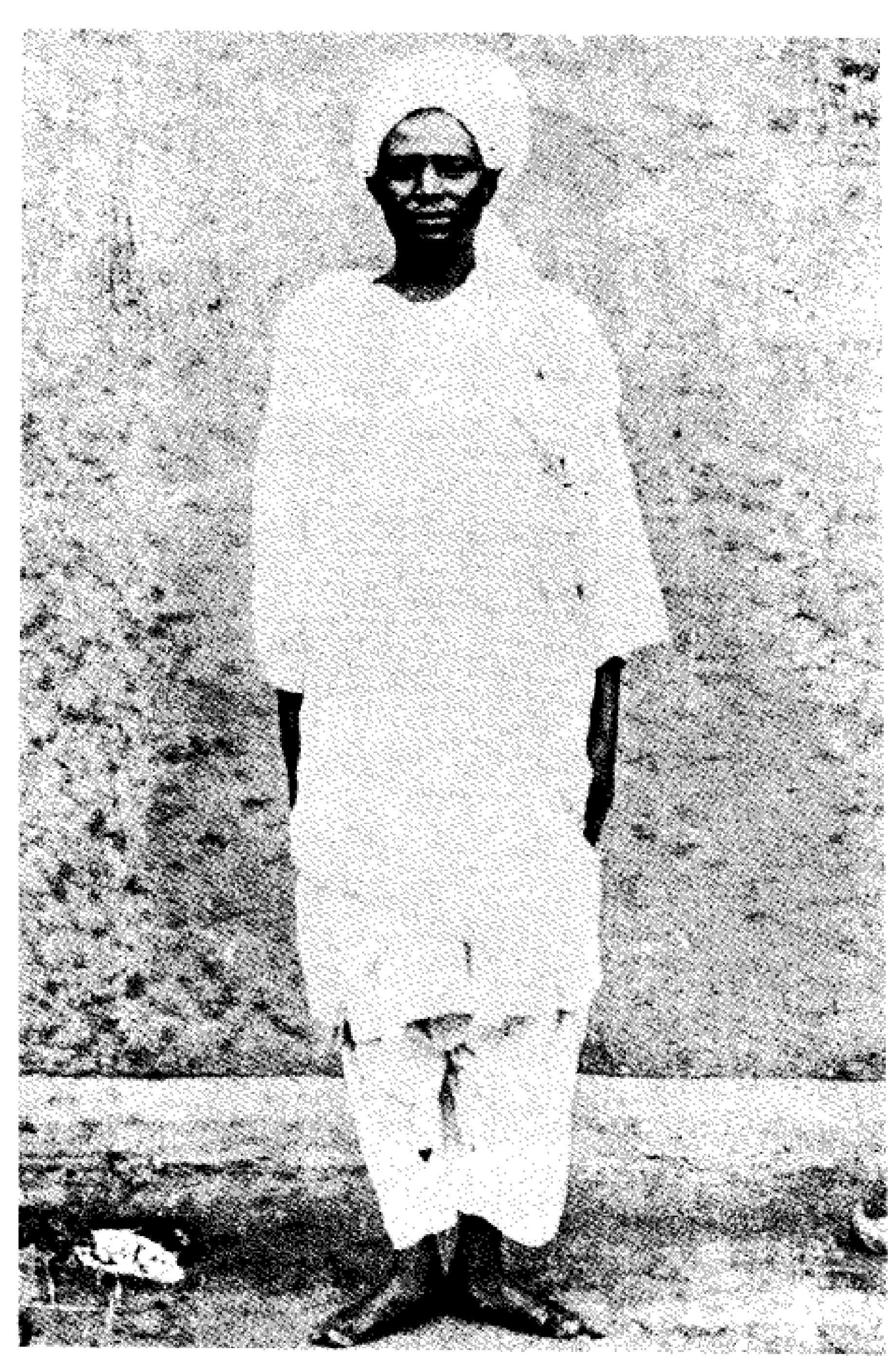


عثمان شيخ الدين بن الخليفه عبدالله
OSMAN SHEIK ELDIN SON OF
THE KHALIFA
K. 252

عثمان شيخ الدين يرقد جريحا بعد أسره فى أم دبيكرات
نوفمبر ١٨٩٩



الأمير محمود ود أحمد فى المعتقل برشيد



الأمير محمود ود أحمد فى المعتقل برشيد



رودلف سلاطين



Rudolph C. Slatin

رودلف سلاطين



MAJOR-GENERAL H. A. MACDONALD, C.B., D.S.O.

From Photograph by J. Munro, Dingwall] *[Photographer to the Queen.*

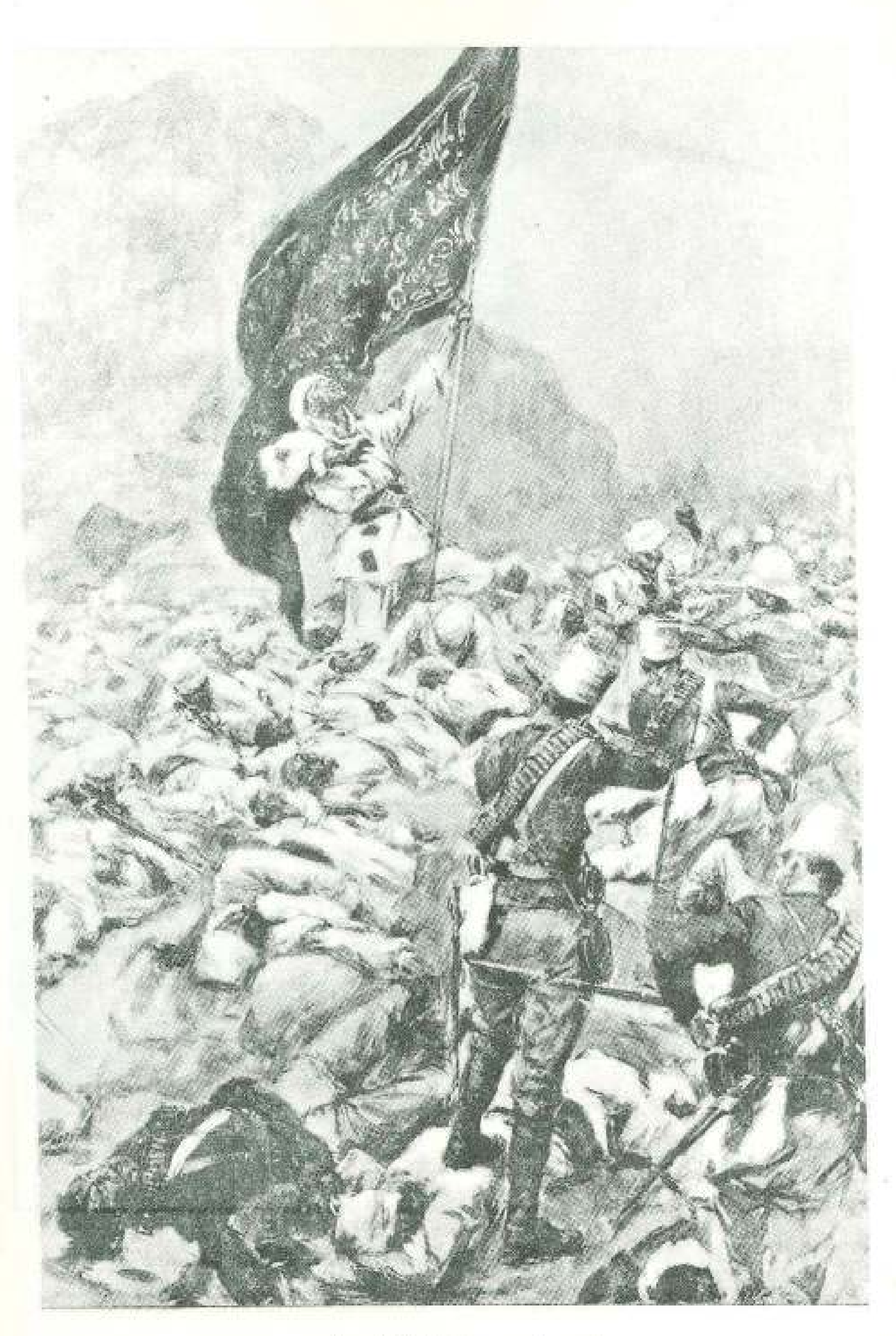
(الكولونيل ماكدونالد)



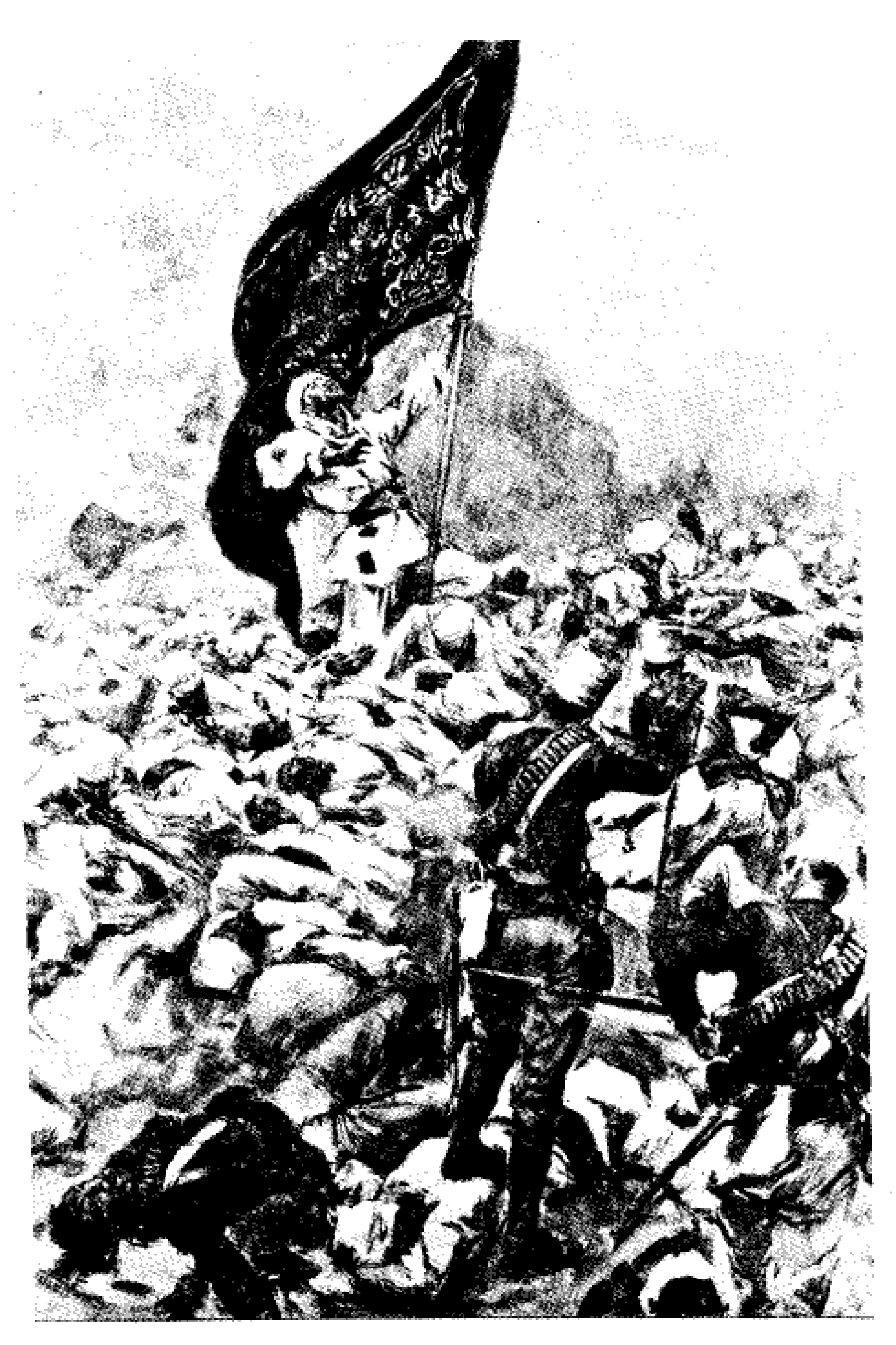
MAJOR-GENERAL H. A. MACDONALD, C.B., D.S.O.

From Photograph by J. Munro, Dingwall] [*Photographer to the Queen.*

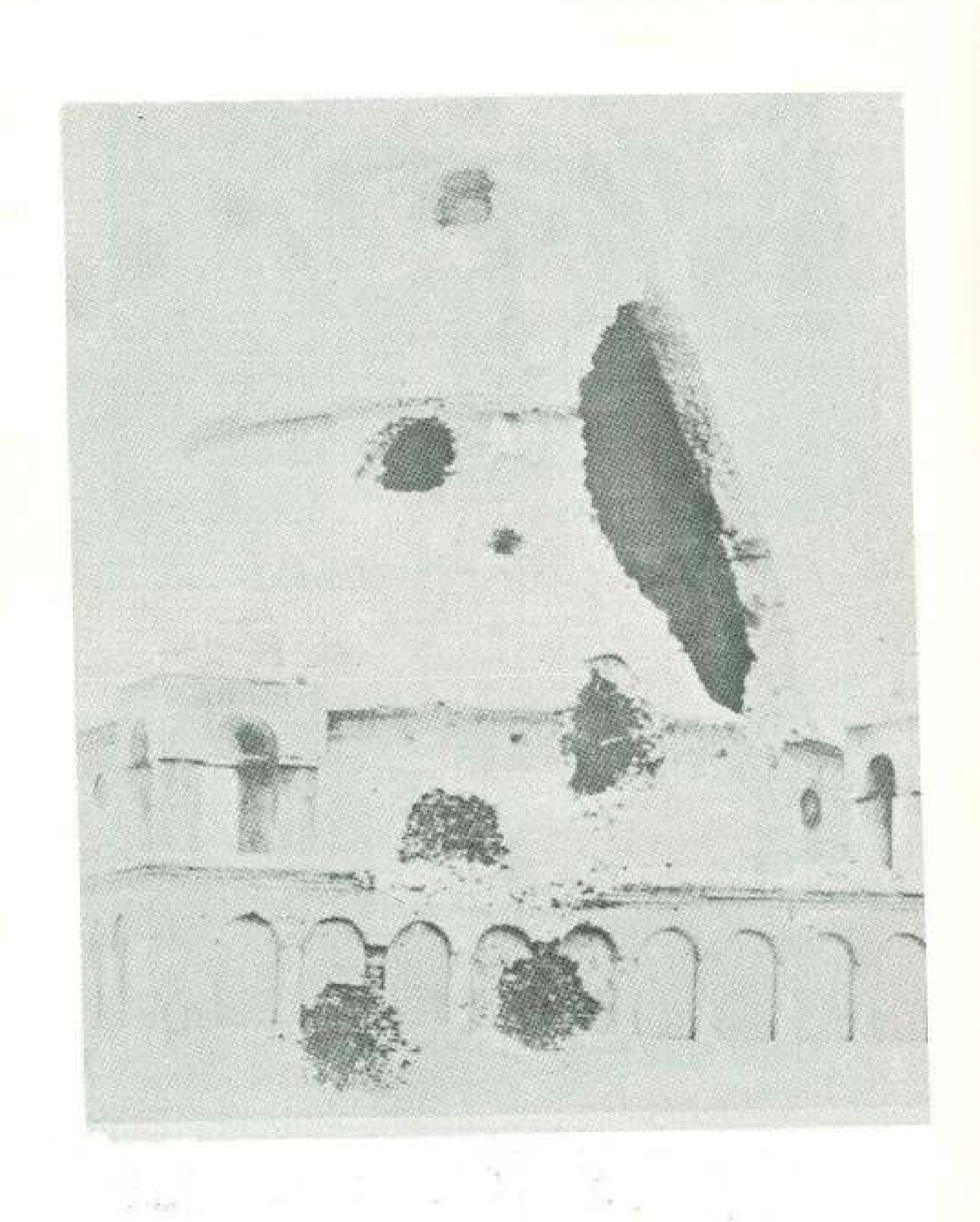
(الكولونيل ماكدونالد)



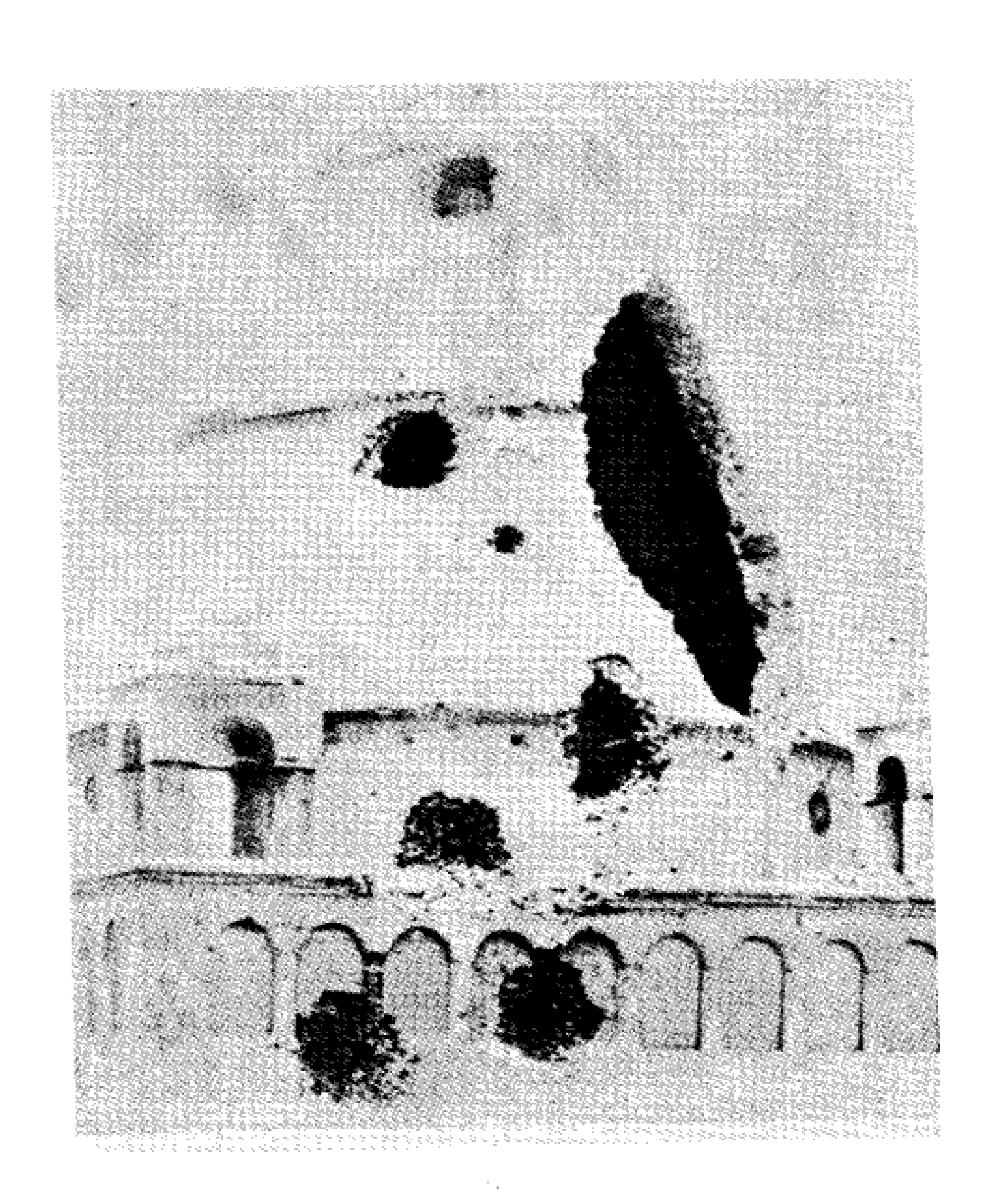
استبسال حملة الراية الزرقاء



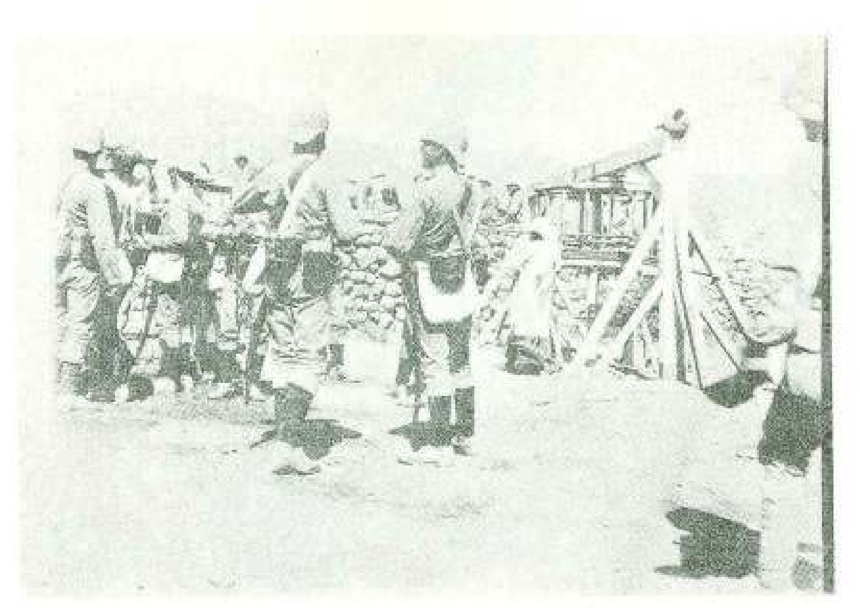
استبسال حملة الراية الزرقاء



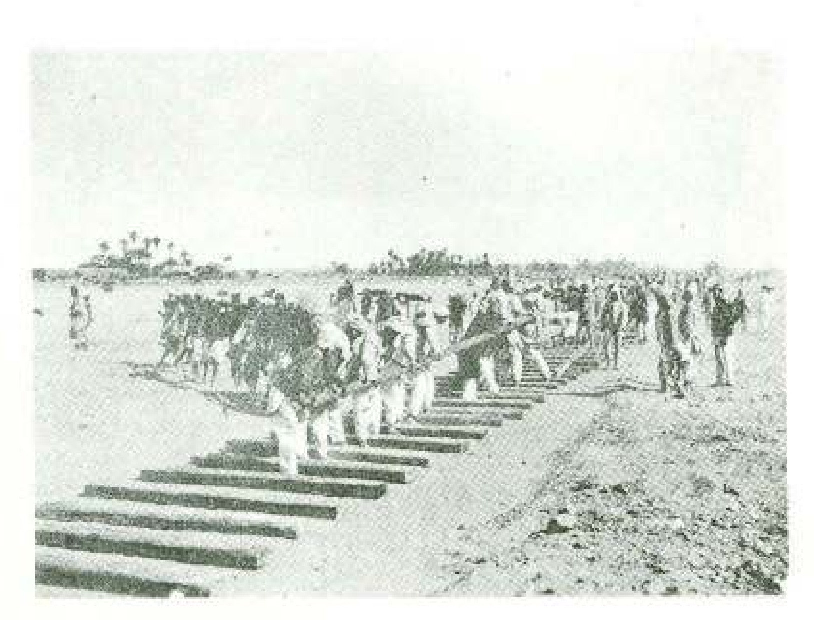
تدمير قبة المهدى – سعت ١٥٣٠ – ١ سبتمبر ١٨٩٨



تدمير قبة المهدى – سعت ١٥٣٠ – ١ سبتمبر ١٨٩٨



تشييد كبرى للسكه حديد فى دار مالى ۱۸۹۷



« الشريان الحديدى » مد خط سكه حديد الصحراء ۱۸۹۷



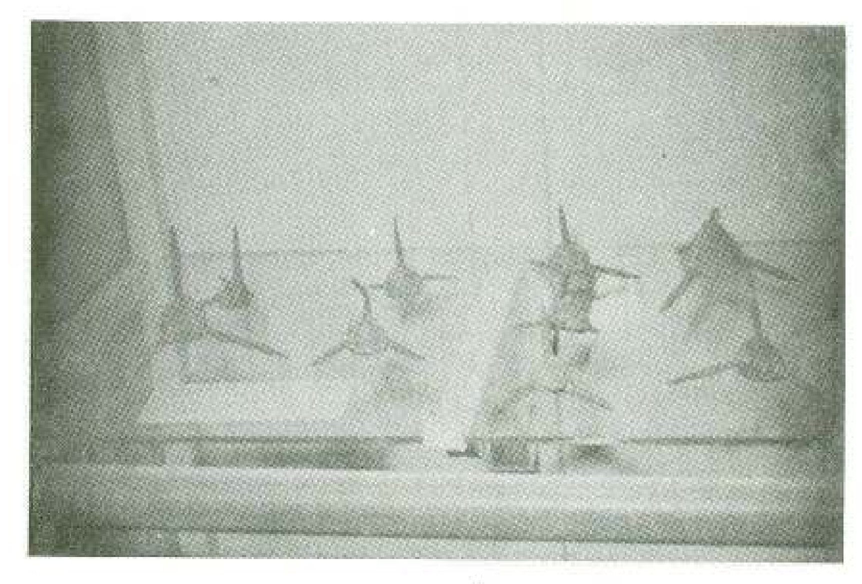
تشييد كبرى للسكه حديد فى دار مالى ١٨٩٧



« الشريان الحديدى » مد خط سكه حديد الصحراء ١٨٩٧



كررى – بعد المعركة



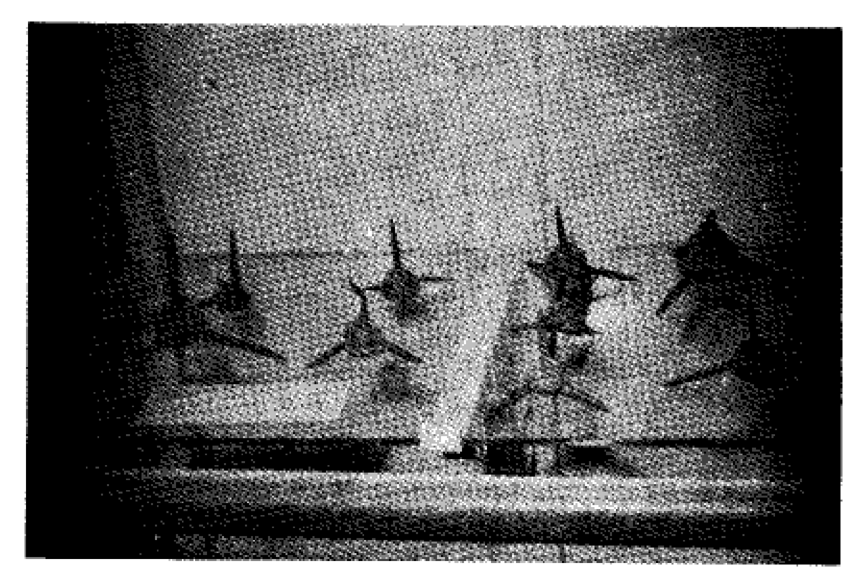
(الضريسه)

بعض من الموانع التى نثرها غردون فى خندق الخرطوم

لتعوق تقدم جيش المهدى



كررى – بعد المعركة



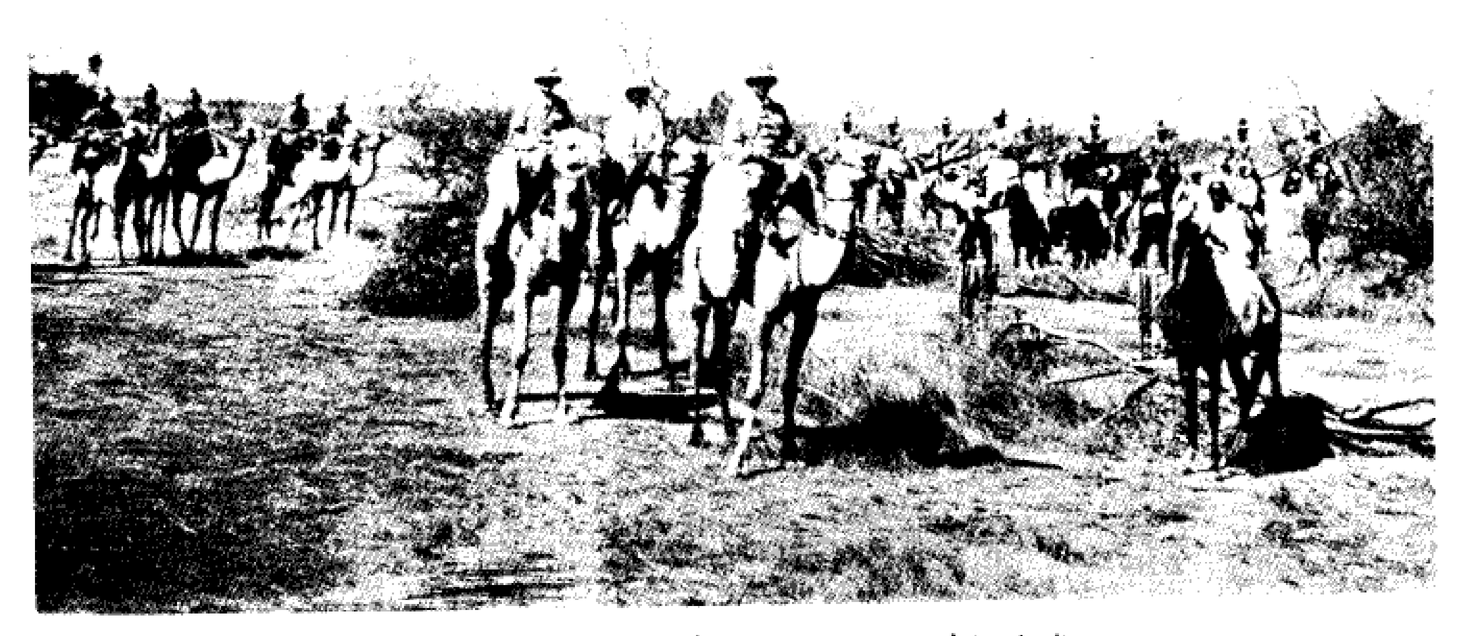
(الضريسه)

بعض من الموانع التى نثرها غردون فى خندق الخرطوم

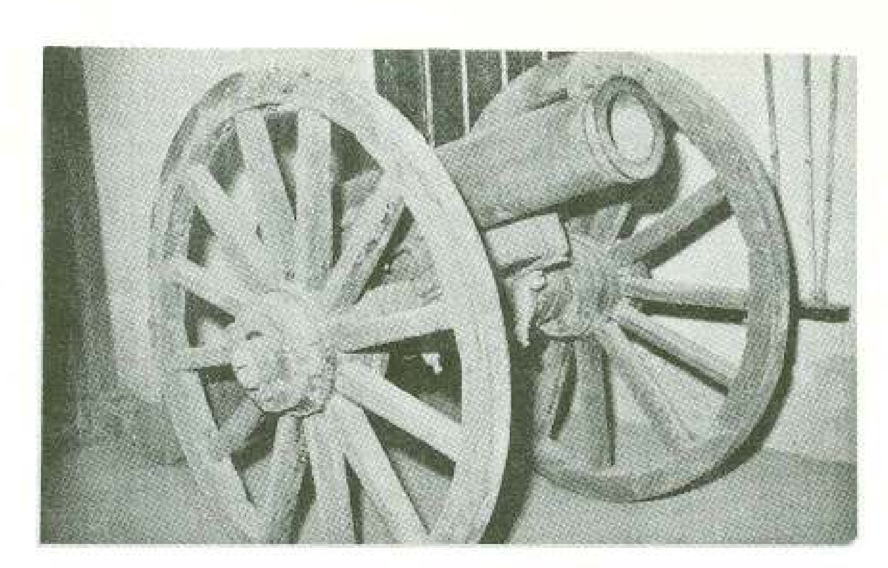
لتعوق تقدم جيش المهدى



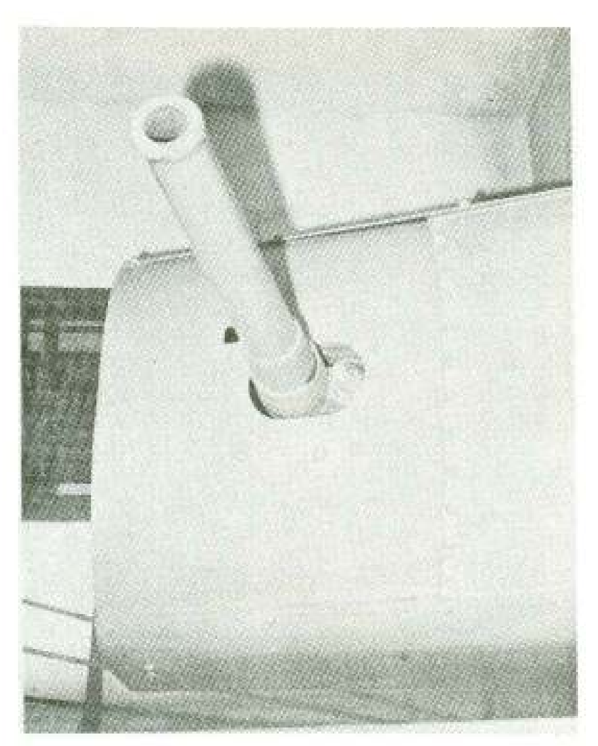
صورة التقطت لونجت مباشرة بعد معركة أم دبيكرات واستشهاد الخليفة ..
قبر الخليفة يتوسط العلمين المصرى والبريطانى



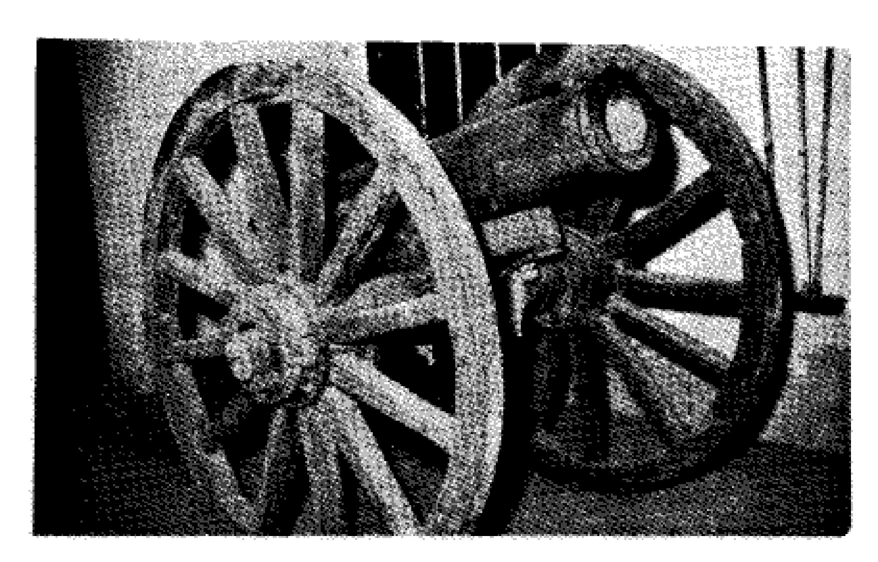
صورة التقطت لونجت مباشرة بعد معركة أم دبيكرات واستشهاد الخليفة ..
قبر الخليفة يتوسط العلمين المصرى والبريطانى



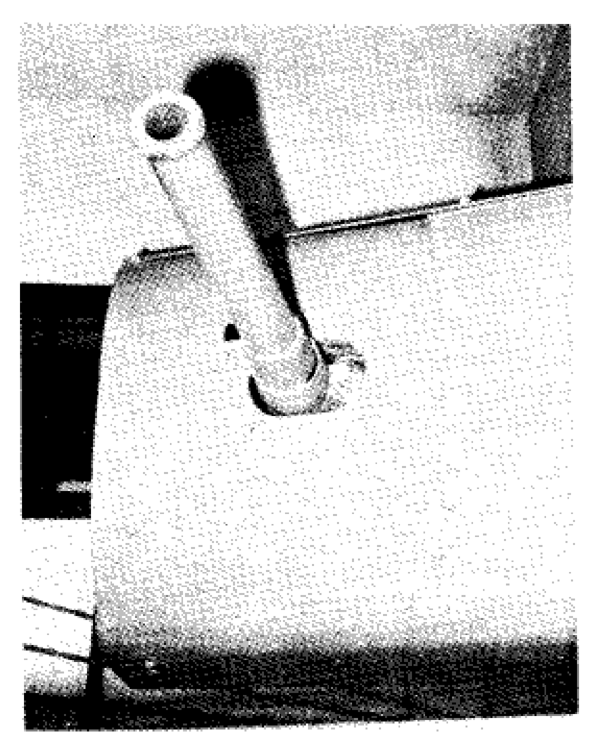
مدفـــع جبـــلى



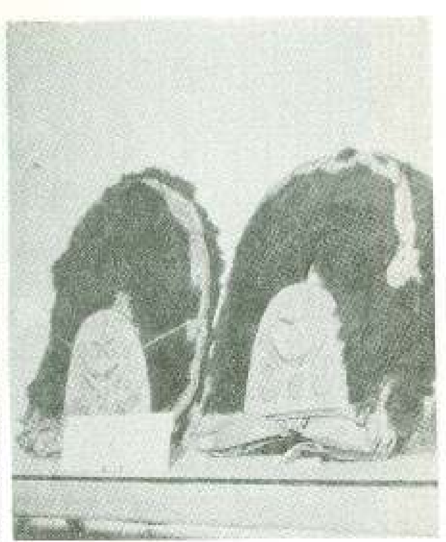
أحد مدافع الباخرة المدرعه (ملك) التى قصفت الملازمين
أثناء مطاردتهم للهجانة



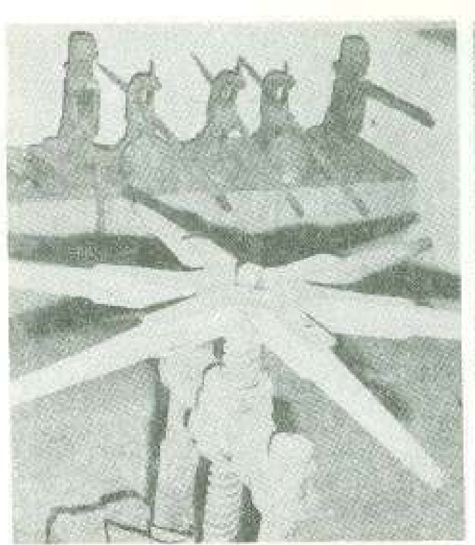
مدفــع جبــلى



أحد مدافع الباخرة المدرعه (ملك) التى قصفت الملازمين
أثناء مطاردتهم للهجانة



قبعات جنود هكس



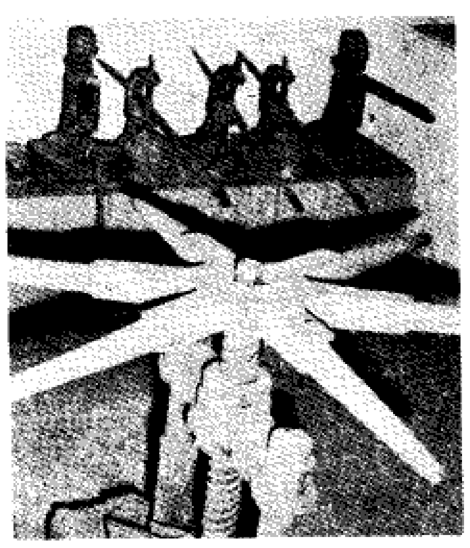
الة التعبئة بمصنع الذخيرة



المدفع جاتلنج



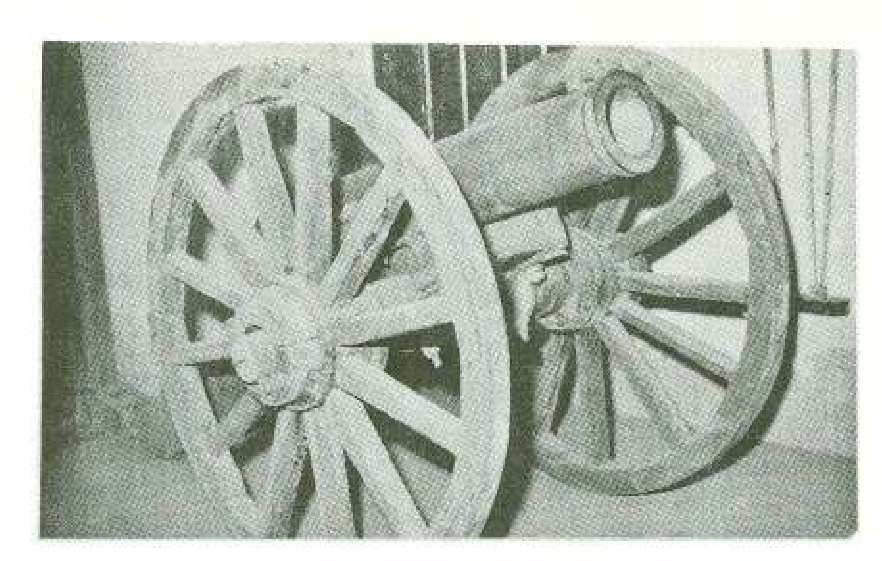
قبعات جنود هكس



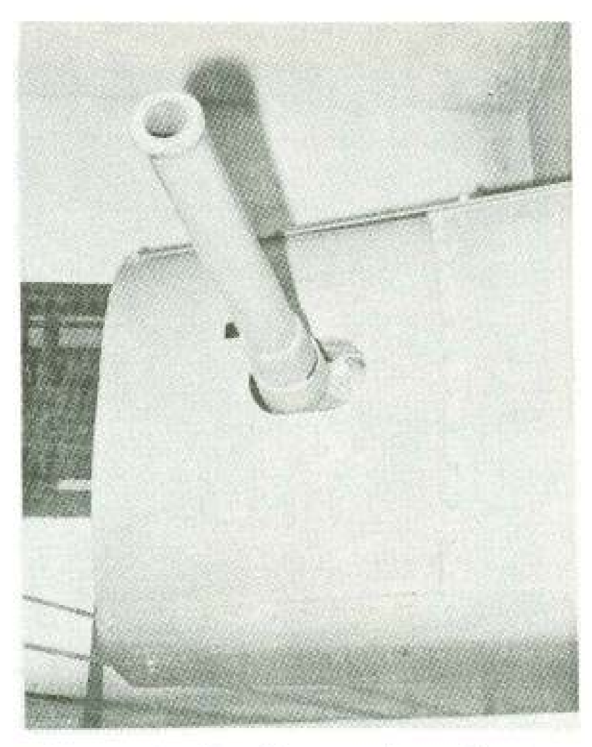
الة التعبئة بمصنع الذخيرة



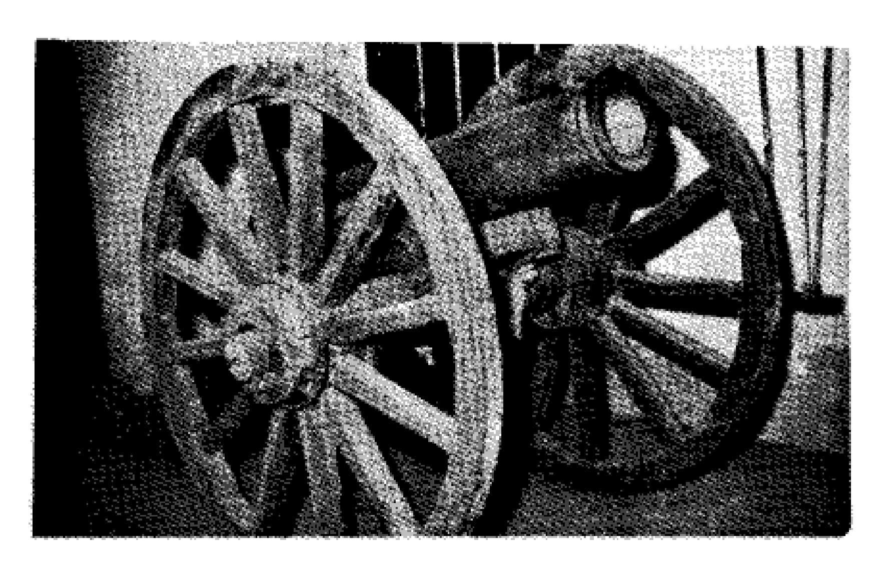
المدفع جاتلنج



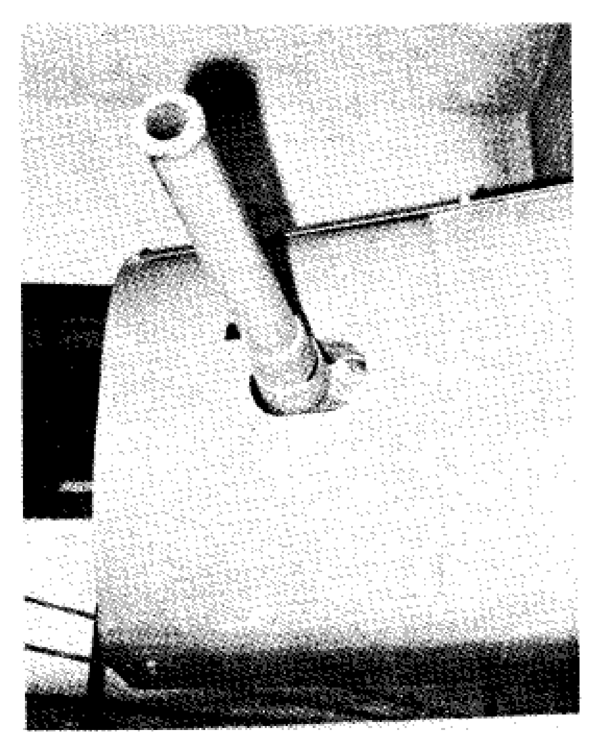
مدفـــع جبـــلى



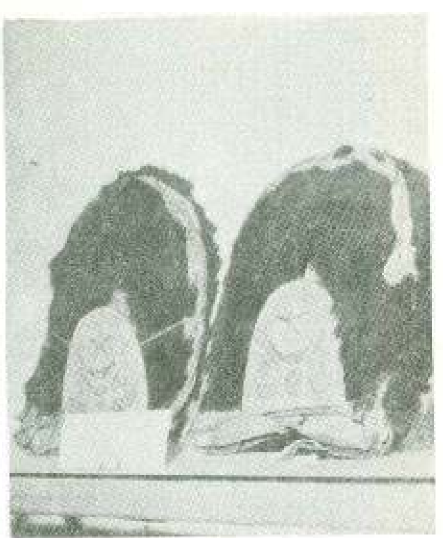
أحد مدافع الباخرة المدرعه (ملك) التى قصفت الملازمين
أثناء مطاردتهم للهجانة



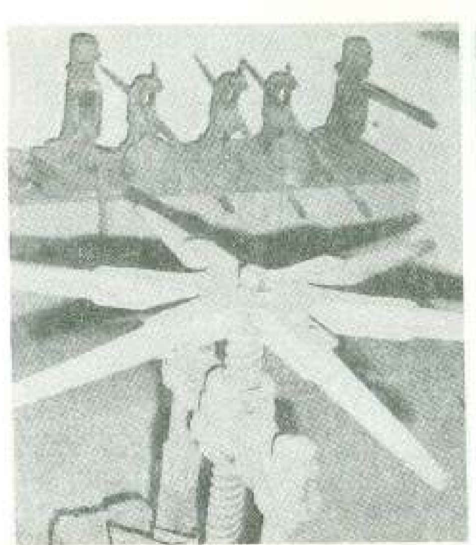
مدفـــع جبـــلى



أحد مدافع الباخرة المدرعه (مليك) التى قصفت الملازمين
أثناء مطاردتهم للهجانة



قبعات جنود هكس



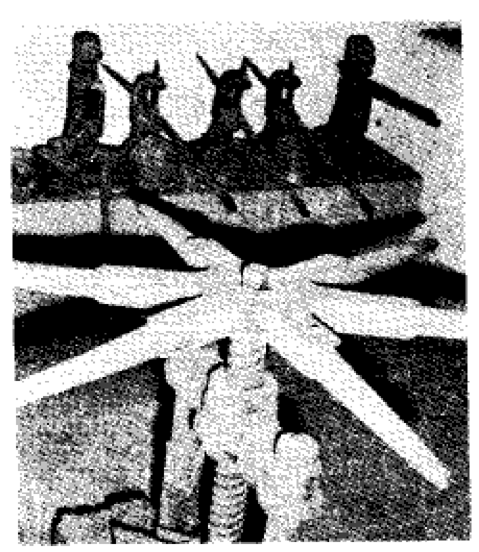
الة التعبئة بمصنع الذخيرة



المدفع جاتلنج



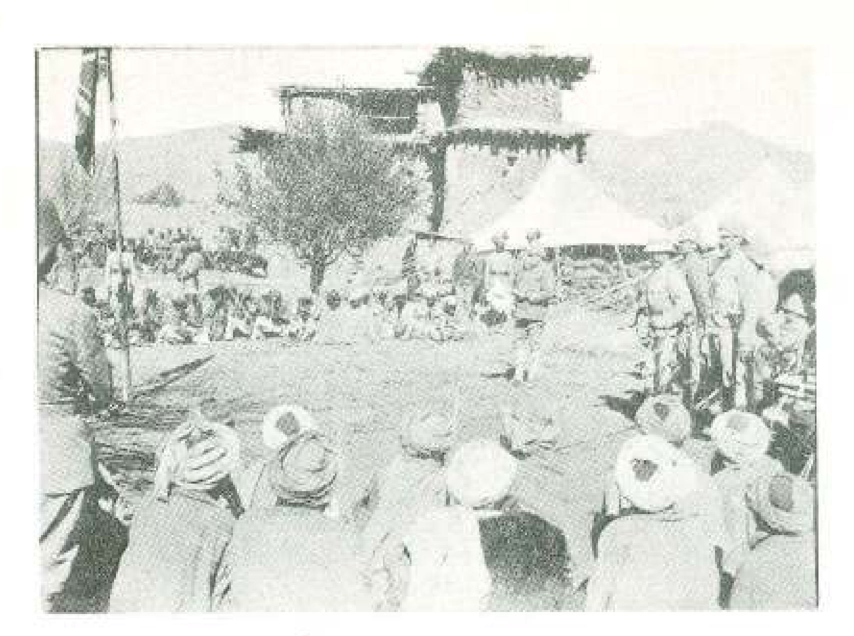
قبعات جنود هكس



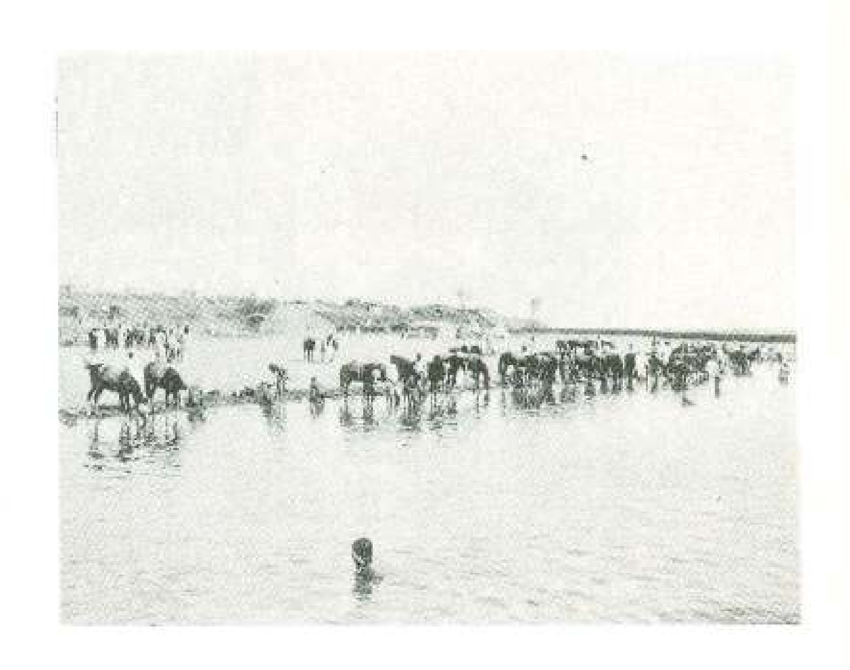
الة التعبئة بمصنع الذخيرة



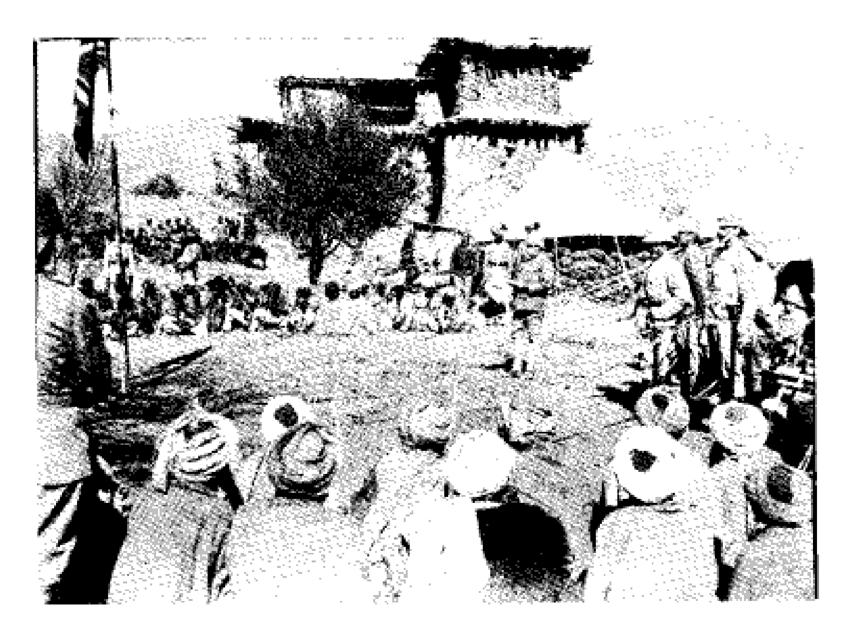
المدفع جاتلنج



إستجواب الاسرى بعد موقعة أبى حمد



الخيالة المصرية تسقى خيولها فى الرويان ١٨٩٨



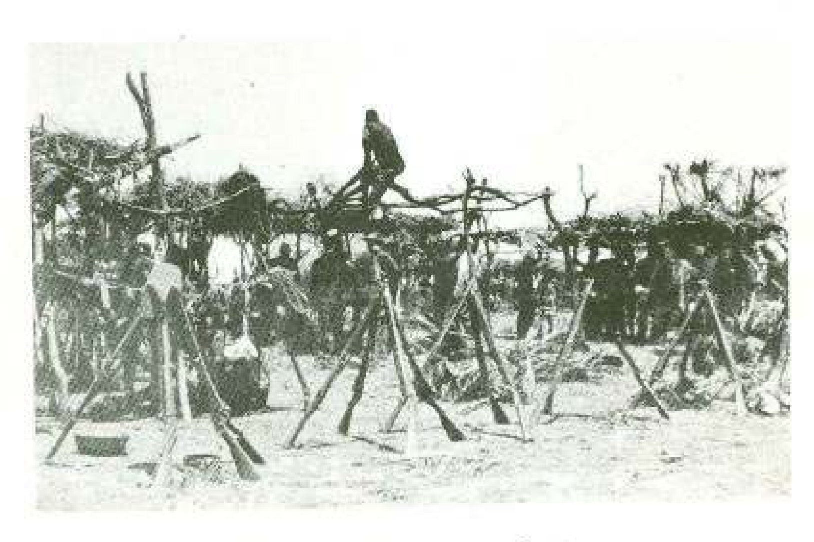
إستجواب الاسرى بعد موقعة أبى حمد



الخيالة المصرية تسقى خيولها فى الرويان ١٨٩٨



الفرقة المصرية أثناء التقدم الأخير وهى تعسكر فى الرويان



بناء المعسكر والزريبة فى الشيخ الطيب
أثناء التقدم الأخير لأم درمان – أغسطس ١٨٩٨



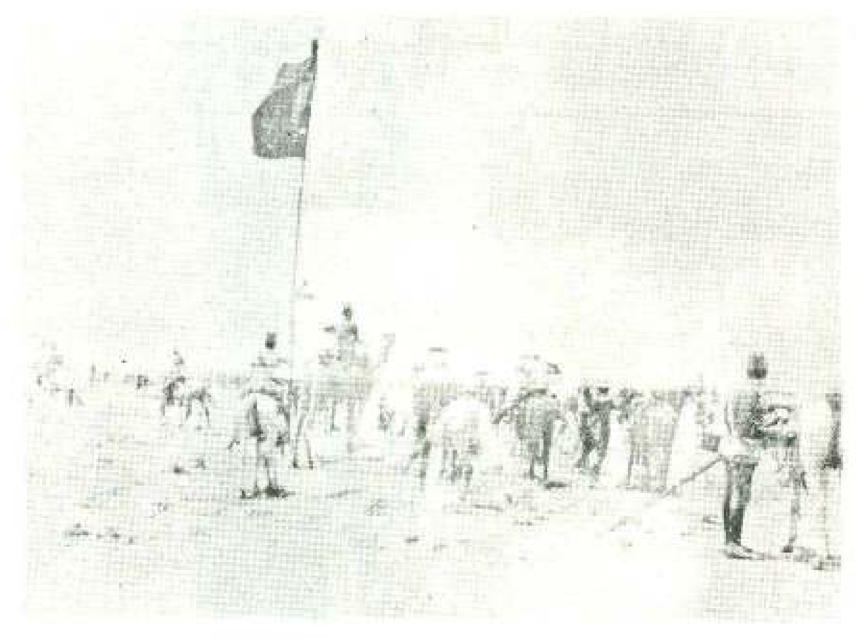
الفرقة المصرية أثناء التقدم الأخير وهى تعسكر فى الرويان



بناء المعسكر والزريبة فى الشيخ الطيب
أثناء التقدم الأخير لأمدرمان — أغسطس ١٨٩٨



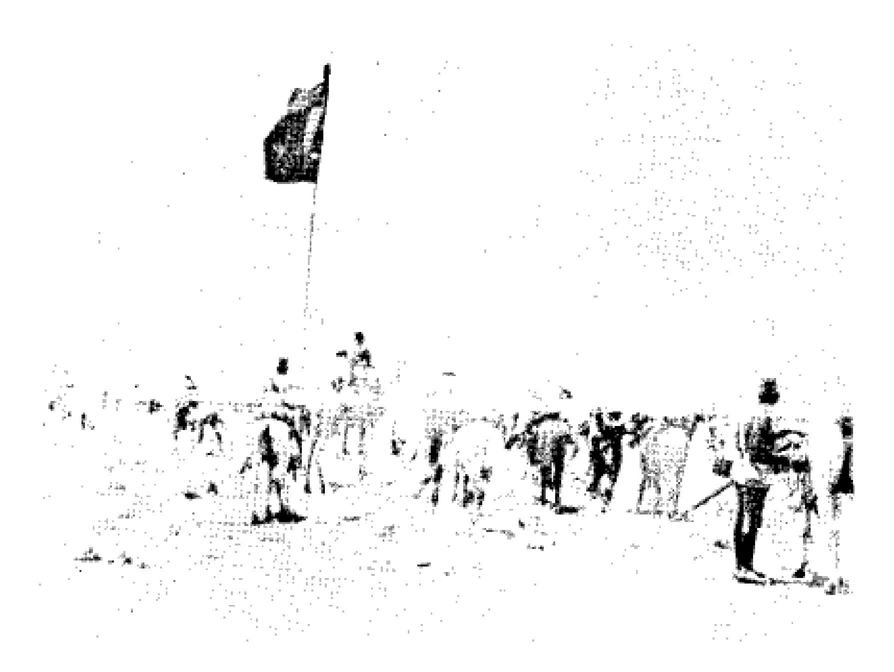
السردار وأركانه أثناء التقدم الأخير نحو امدرمان ١٨٩٨



السردار وأركانه عند بدء التقدم نحو أمدرمان وهم يحملون
الراية الزرقاء سعت ١١٥٠ ٢ سبتمبر ١٨٩٨



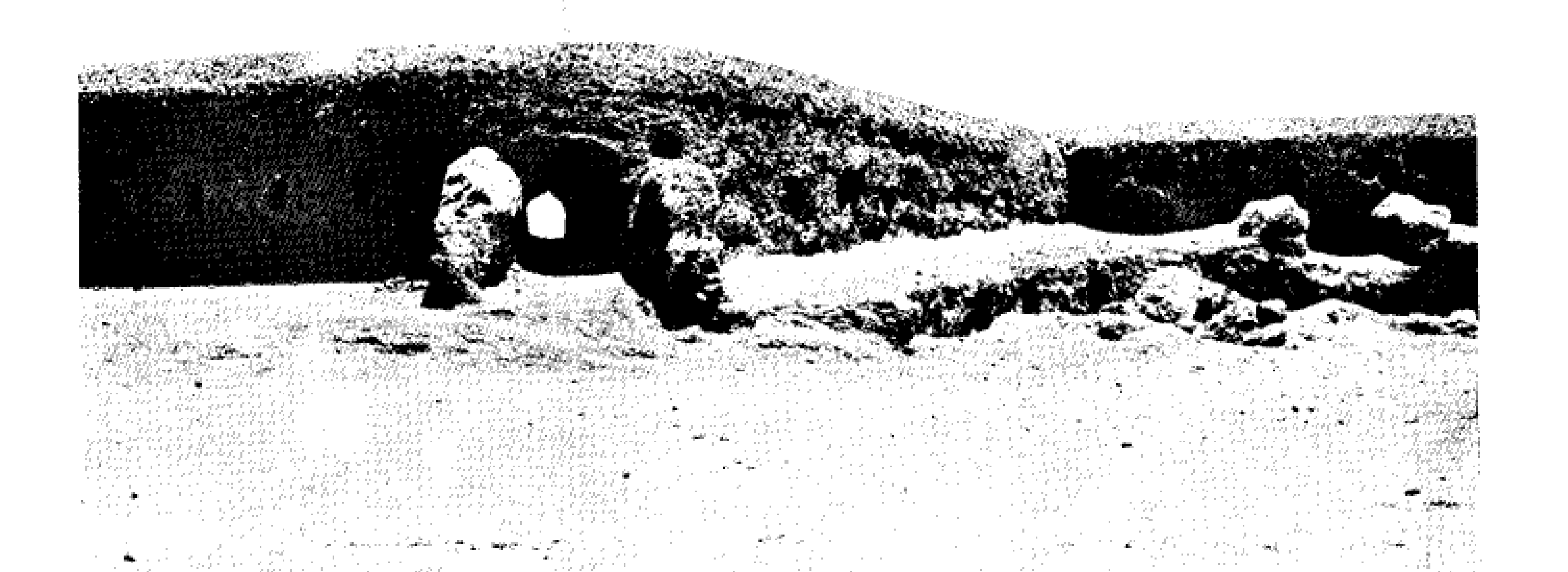
السردار وأركانه أثناء التقدم الأخير نحو امدرمان ١٨٩٨



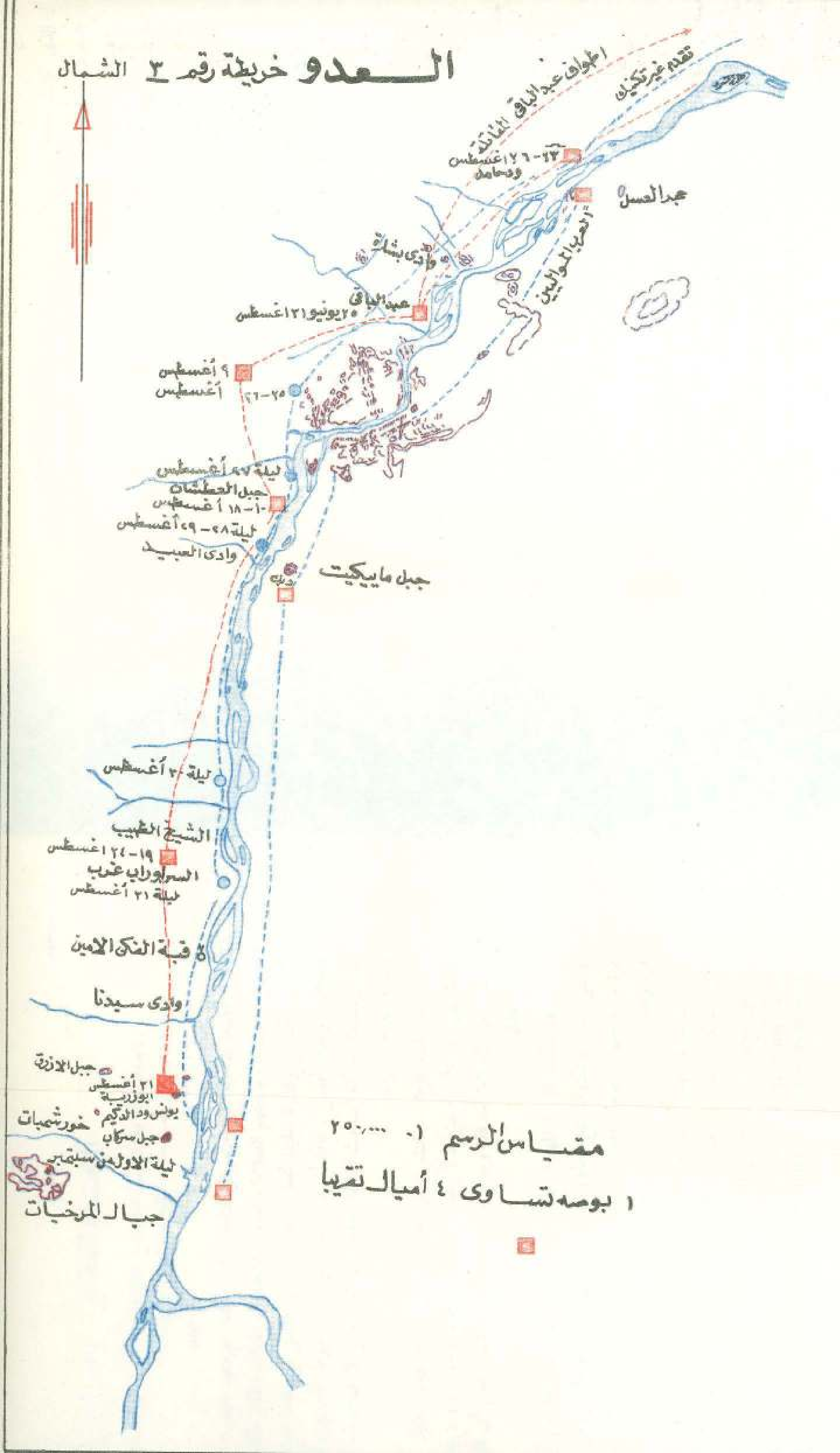
السردار وأركانه عند بدء التقدم نحو أمدرمان وهم يحملون
الراية الزرقاء سعت ١١٥٠ ٢ سبتمبر ١٨٩٨



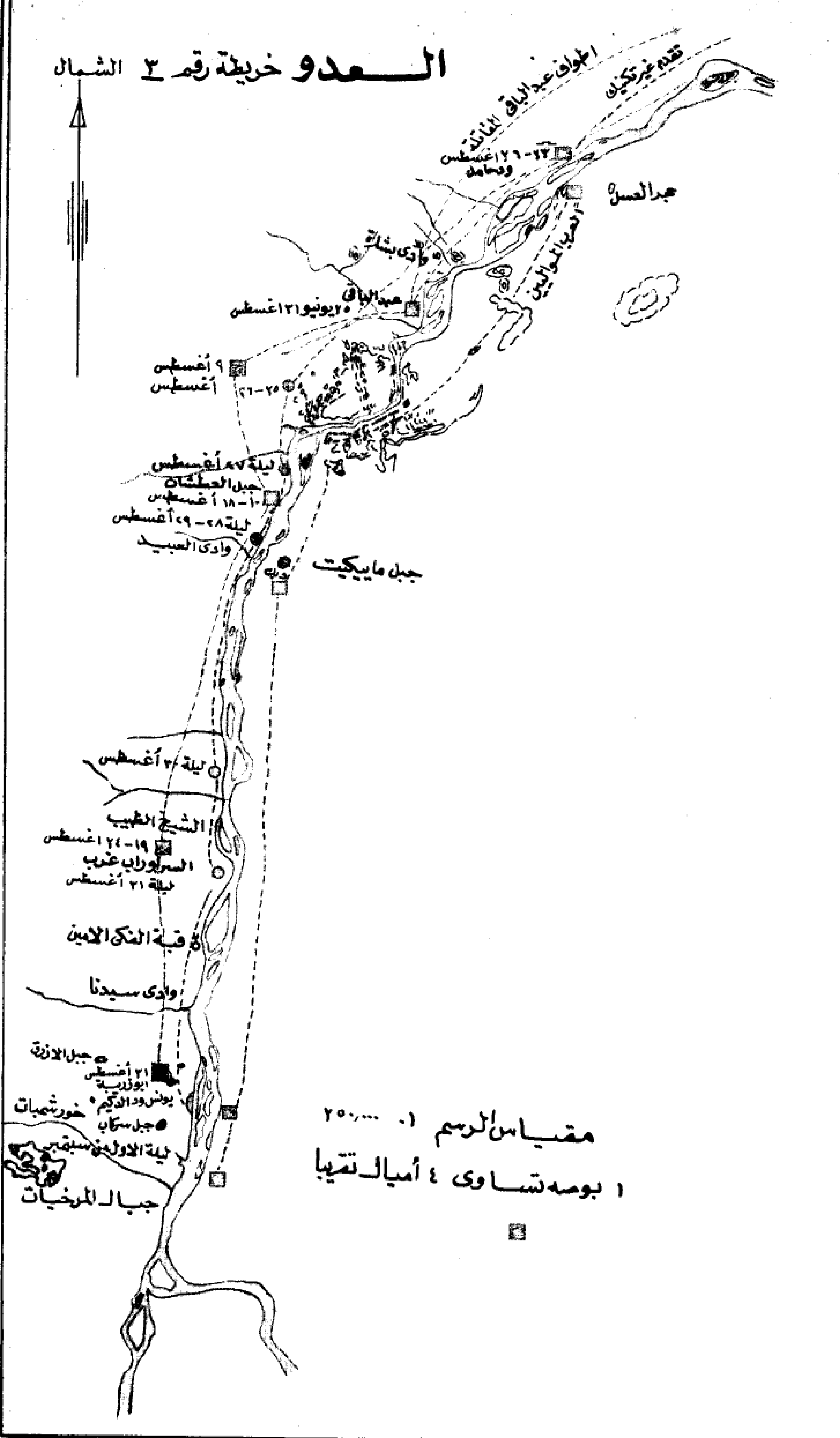
تجهيزات الخليفة الدفاعية ضد البوارج على شاطئ النيل بأم درمان



تجهيزات الخليفة الدفاعية ضد البوارج على شاطىء النيل بأم درمان



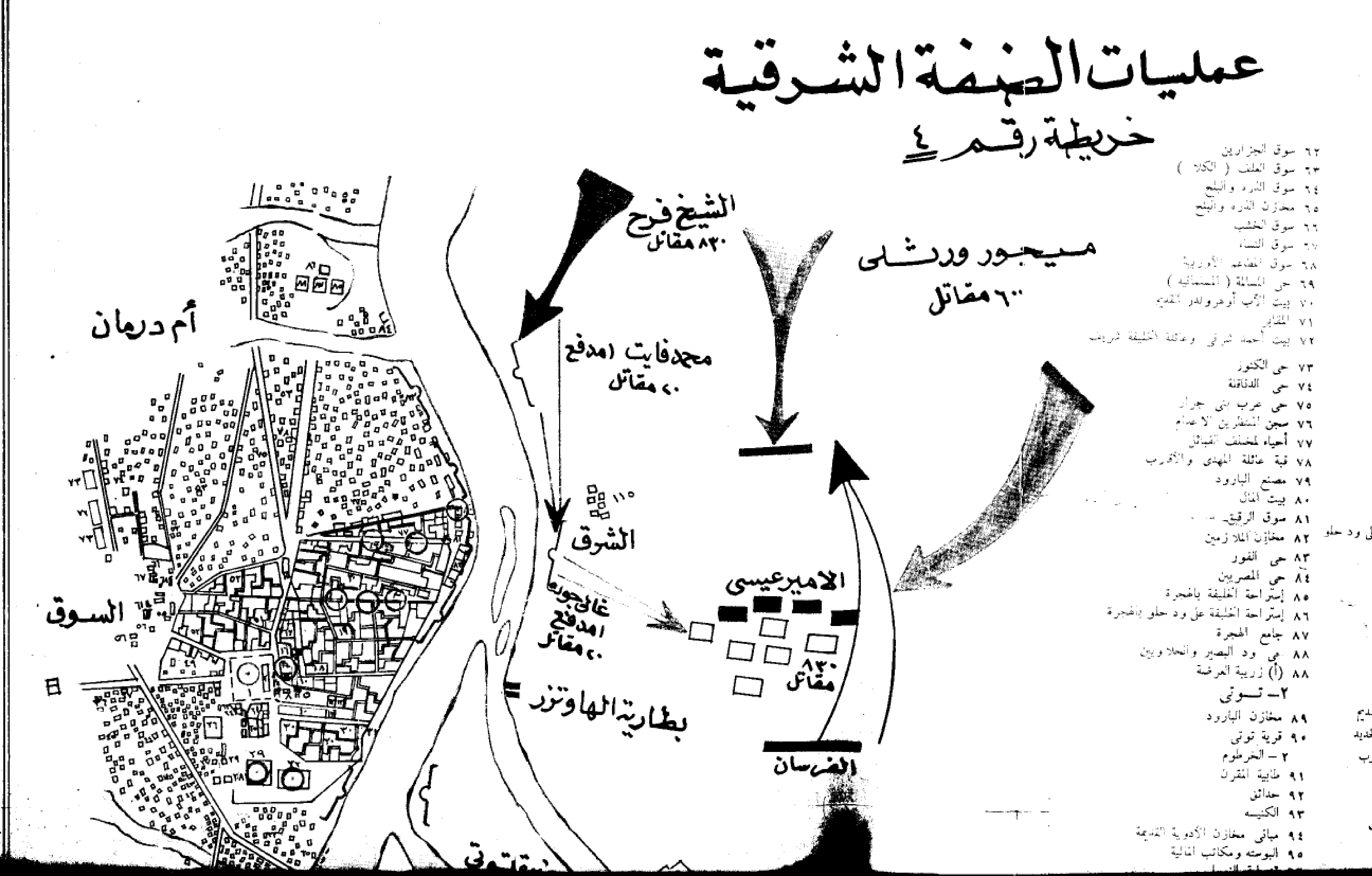
السـعدو خريطة رقم ٣
الشمال
اطواف عبد الباقي الفائتة
تقدم غيرتكين
٢٣-٢٦ أغسطس
عبد العسل
وادي بشارة
عبد الباقي
٢٠ يونيو ١٢١ أغسطس
٩ أغسطس
أغسطس
٢٥-٢٦
ليلة ٢٧ أغسطس
جبل العطشان
١٠-١٨ أغسطس
ليلة ٢٨-٢٩ أغسطس
وادي العبيد
جبل مايكيت
ليلة ٢٠ أغسطس
الشيخ الطيب
١٩-٢٤ أغسطس
السراوراب غرب
ليلة ٢١ أغسطس
قبة الفكي الامين
وادي سيدنا
جبل الازرق
٣١ أغسطس
ابوزريبة
يونس ود الدكيم
خور شمبات
جبل سركاب
ليلة الاول من سبتمبر
جبال المرخيات
مقياس الرسم ١: ٢٥٠,٠٠٠
١ بوصة تساوي ٤ أميال تقريبا



العدو خريطة رقم ٣
الشمال
طواف عبد الباقى القائد
تقدم غيرتكيلى
٢٣-٦ / ٢ اغسطس
ودحامد
عبد العسل
وادى بشارة
عبد الباقى
٢٥ يونيو ٣١ اغسطس
٩ أغسطس
أغسطس
٢٥-٢٦
ليلة ٢٧ أغسطس
جبل العطشان
١٠-١٨ أغسطس
ليلة ٢٨-٢٩ أغسطس
وادى العبيد
جبل مايكيت
ليلة ٢ أغسطس
الشيخ الطيب
١٩-٢٤ اغسطس
السرلوراب غرب
ليلة ٢١ أغسطس
قبة المكى الامين
وادى سيدنا
جبل الازرق
٢١ أغسطس
ابوزريبة
يونس ود الدكيم
خور شمبات
جبل سركاب
ليلة الاول من سبتمبر
جبال المرخيات
مقياس الرسم ١ : ٢٥٠،٠٠٠
١ بوصة تساوى ٤ أميال تقريبا



عمليات الضفة الشرقية
خريطة رقم ٤
الشيخ فرح
٨٣٠ مقاتل
ميجور ورشلى
٦٠٠ مقاتل
محمد فايت امدفع
٧٠ مقاتل
الشرق
١١٥
غالى جوته امدفع
٧٠ مقاتل
الامير عيسى
٨٣٠ مقاتل
بطارية الهاوتزر
الفرسان
أم درمان
السوق
٦٢ سوق الجزارين
٦٣ سوق العلف (الكلا)
٦٤ سوق الذره والبلح
٦٥ مخازن الذره والبلح
٦٦ سوق الخشب
٦٧ سوق النساء
٦٨ سوق المطاعم الأوربية
٦٩ حى المسالمة (المسلمانيه)
٧٠ بيت الأب أوهرولدر القديم
٧١ المقابر
٧٢ بيت أحمد شرفى وعائلة الخليفة شريف
٧٣ حى الكنوز
٧٤ حى الدناقلة
٧٥ حى عرب بنى جرار
٧٦ سجن المنتظرين الاعدام
٧٧ أحياء لمختلف القبائل
٧٨ قبة عائلة المهدى والأقارب
٧٩ مصنع البارود
٨٠ بيت المال
٨١ سوق الرقيق
٨٢ مخازن الملازمين
٨٣ حى الفور
٨٤ حى المصريين
٨٥ إستراحة الخليفة بالهجرة
٨٦ إستراحة الخليفة على ود حلو بالهجرة
٨٧ جامع الهجرة
٨٨ حى ود البصير والحلاوين
٨٨ (أ) زريبة المرخة
٢ــ توتى
٨٩ مخازن البارود
٩٠ قرية توتى
٢ ــ الخرطوم
٩١ طابية المقرن
٩٢ حدائق
٩٣ الكنيسه
٩٤ مبانى مخازن الأدوية القديمة
٩٥ البوستة ومكاتب المالية


عمليات الضفة الشرقية
خريطة رقم ٤
الشيخ فرح
٨٣٠ مقاتل
ميجور ورشلى
٦٠٠ مقاتل
محمد فايت امدفع
٧٠ مقاتل
الشرق
غالي جوده
امدفع
٧٠ مقاتل
الاميرعيسى
٨٣٠ مقاتل
بطارية الهاوتزر
الفرسان
أم درمان
السوق
توتى
٦٢ سوق الجزارين
٦٣ سوق العلف (الكلا)
٦٤ سوق الذره والبلح
٦٥ مخازن الذره والبلح
٦٦ سوق الخشب
٦٧ سوق النساء
٦٨ سوق المطاعم الأوربية
٦٩ حى المسالمة (المسلمانية)
٧٠ بيت الأب أوهروالدر القديم
٧١ المقابر
٧٢ بيت أحمد شرفي وعائلة الخليفة شريف
٧٣ حى الكنوز
٧٤ حى الدناقلة
٧٥ حى عرب بنى جرار
٧٦ سجن المنتظرين الاعدام
٧٧ أحياء لمختلف القبائل
٧٨ قبة عائلة المهدى والأقرب
٧٩ مصنع البارود
٨٠ بيت المال
٨١ سوق الرقيق
٨٢ مخازن الملازمين
٨٣ حى الفور
٨٤ حى المصريين
٨٥ إستراحة الخليفة بالهجرة
٨٦ إستراحة الخليفة على ود حلو بالهجرة
٨٧ جامع الهجرة
٨٨ حى ود البصير والملاويين
٨٨ (أ) زريبة المرضة
٢ـ توتى
٨٩ مخازن البارود
٩٠ قرية توتى
٢ ـ الخرطوم
٩١ طابية المقرن
٩٢ حدائق
٩٣ الكنيسه
٩٤ مبانى مخازن الأدوية القديمة
٩٥ البوسته ومكاتب المالية

عمليات الد

خريطة ر

مـيـ

امدرمان

١ – الجامع
٢ – المحراب
٣ – القبـــة
٤ – جامع الصفيح
٥ – جناح الخليفة
٦ – المحكمة
٧ – بيت الخليفة
٨ – سكن الحريمات
٩ – الخـــلوة
١٠ – منازل ملازمية الخليفة
١١ – منزل ابناء المهـــدى
١٢ – اســـطبلات الخليفة
١٣ – مخازن بيت الخليفة
١٤ – منزل المهـــدى
١٥ – منزل عائلة المهـــدى
١٦ – منزل الخليفة على ود حلو
٧١ – مـــاكن ملازمين الخليفة على ود حلو
١٨ – منزل عثمان شيخ الدين
١٩ – سور امدرمان الرتيبى
٢٠ – سور امدرمان الطينى
٢١ – منزل أقارب الخليفة
٢٢ – منزل سلاطين
٢٣ – منازل القضاة
٢٤ – منزل دودو
٢٥ – منزل الأمـــير يعقوب القديم
٢٦ – منزل الأمـــير يعقوب الجديد
٢٧ – منازل كتبة الأمـــير يعقوب
٢٨ – منزل سلاطين القديم
٢٩ – بيت الأمانة
٢٩ أ مخازن الرايات والنحاس
٣٠ – منازل أقارب الخليفة
٣١ – الساير
٣٢ – ورش الأسلحة
٣٣ – حى أهالى الغـــرب
٣٤ – حى البرقـــو والتكارنة
٣٥ – المشـــرع
٣٦ – إســـتراحة الخليـــفة
٣٧ طابية أمدرمان القديمة
٣٨ بيت قائد الجهادية
٣٩ حى الجهادية
٤٠ بيت الخليفة فى ديم يونس
٤١ حلة الفتيحاب
٤٢ حى البرنو والفلاتة
٤٣ بيت النور عنقره
٤٤ حى الحمر
٤٥ حى الكبابيش والجمالة
٤٦ حى الحمر
٤٧ حى الهبانيه
٤٨ حى الرزيقات
٤٩ حى الكنانيه
٥٠ بيت عبد الله ود أحمد
٥١ حى دغيم
٥٢ حى قبائل النيل الأبيض
٥٣ حى الجعليين
٥٤ سوق التجاريين
٥٥ محكمة السوق
٥٦ المشانق
٥٧ سوق الملح
٥٨ سوق القماش
٥٩ سوق الحلاقين
٦٠ سوق الخياطين

٦٢ سوق الجزارين
٦٣ سوق العلف (الكلا)
٦٤ سوق الذره والبلح
٦٥ مخازن الذره والبلح
٦٦ سوق الخشب
٦٧ سوق النساء
٦٨ سوق المطاعم الأوربية
٦٩ حى المسالمة (المسلمانيه)
٧٠ بيت الأب أوهرولدر القديم
٧١ المقابر
٧٢ بيت أحمد شرفى وعائلة الخليفة شريف
٧٣ حى الكنوز
٧٤ حى الدناقلة
٧٥ حى عرب بنى جرار
٧٦ سجن المنتظرين الاعدام
٧٧ أحياء لمختلف القبائل
٧٨ قبة عائلة المهدى والأقارب
٧٩ مصنع البارود
٨٠ بيت المال
٨١ سوق الرقيق
٨٢ مخازن الملازمين
٨٣ حى الفور
٨٤ حى المصريين
٨٥ إستراحة الخليفة بالهجرة
٨٦ إستراحة الخليفة على ود حلو بالهجرة
٨٧ جامع الهجرة
٨٨ حى ود البصير والحلاويين
٨٨ (أ) زريبة العرضة

٢– تـــوتى

٨٩ مخازن البارود
٩٠ قرية توتى

٣ – الخرطوم

٩١ طابية المقرن
٩٢ حدائق
٩٣ الكنيسه
٩٤ مبانى مخازن الأدوية القديمة
٩٥ البوستة ومكاتب المالية
٩٦ قنصلية النمسا
٩٧ مبنى الحكمدارية القديمة
٩٨ السرايا القديمة
٩٩ مخازن الذره
١٠٠ مخازن خامات تصنيع السلاح والذخيرة
١٠١ مبنى قشلاق الجنود القديم
١٠٢ مبنى المستشفى القديم
١٠٣ آثار طابية بحرى
١٠٤ مبنى مخازن الأسلحة الصغيرة والذخيرة
١٠٥ مخازن ذخيرة الحديقة
١٠٦ مصانع الظروف
١٠٧ ساحة الصلاة
١٠٨ مبنى قنصلية فرنسا
١٠٩ مبنى قنصلية إيطاليا
١١٠ منازل الأهالى
١١١ باب المسلمية
١١٢ آثار طابية الكلاكله –
١١٣ السرايا الشرقية
١١٤ آثار الطابية الشمالية
١١٥ حلة خوجلي
١١٦ إستراحة الخليفة بهجرة الشرق
١١٧ برى
١١٨ الكلاكله
١١٩ شجرة ماحى بك
١٢٠ الحلفايه

امدرمان

١ – الجامع
٢ – المحراب
٣ – القبـة
٤ – جامع الصفيح
٥ – جناح الخليفة
٦ – المحكمة
٧ – بيت الخليفة
٨ – سكن الحريمات
٩ – الخـلوة
١٠ – منازل ملازمية الخليفة
١١ – منزل ابناء المهـدى
١٢ – اسـطبلات الخليفة
١٣ – مخازن بيت الخليفة
١٤ – منزل المهـدى
١٥ – منزل عائلة المهـدى
١٦ – منزل الخليفة على ود حلو
١٧ – مساكن ملازمين الخليفة على ود حلو
١٨ – منزل عثمان شيخ الدين
١٩ – سور امدرمان الرئيسى
٢٠ – سور امدرمان الطينى
٢١ – منزل أقارب الخليفة
٢٢ – منزل سلاطين
٢٣ – منازل القضاة
٢٤ – منزل دودو
٢٥ – منزل الأمـير يعقوب القديم
٢٦ – منزل الأمـير يعقوب الجديد
٢٧ – منازل كتبة الأمـير يعقوب
٢٨ – منزل سلاطين القديم
٢٩ – بيت الأمانة
٢٩ أ مخازن الرايات والنحاس
٣٠ – منازل أقارب الخليفة
٣١ – السـاير
٣٢ – ورش الأسلحة
٣٣ – حى أهالى الغـرب
٣٤ – حى البرقـو والتكارنة
٣٥ – المشـرع
٣٦ – إسـتراحة الخليـفة
٣٧ طابية أمدرمان القديمة
٣٨ بيت قائد الجهادية
٣٩ حى الجهادية
٤٠ بيت الخليفة فى ديم يونس
٤١ حلة الفتيحاب
٤٢ حى البرقو والفلاته
٤٣ بيت النور عنقره
٤٤ حى الحمر
٤٥ حى الكبابيش والجماله
٤٦ حى الحمر
٤٧ حى الهبانيه
٤٨ حى الرزيقات
٤٩ حى الكنانيه
٥٠ بيت عبد الله ود أحمد
٥١ حى دغيم
٥٢ حى قبائل النيل الأبيض
٥٣ حى الجعليين
٥٤ سوق النجارين
٥٥ محكمة السوق
٥٦ المشانق
٥٧ سوق الملح
٥٨ سوق القماش
٥٩ سوق الحلاقين
٦٠ سوق الخياطين
٦١ سوق الخضار
٦٢ سوق الجزارين
٦٣ سوق العلف (الكلا)
٦٤ سوق الذره والبلح
٦٥ مخازن الذره والبلح
٦٦ سوق الخشب
٦٧ سوق النساء
٦٨ سوق المطاعم الأوربية
٦٩ حى المسالمة (المسلمانيه)
٧٠ بيت الأب أوهرولدر القديم
٧١ المقابر
٧٢ بيت أحمد شرفى وعائلة الخليفة شريف

٧٣ حى الكنوز
٧٤ حى الدناقلة
٧٥ حى عرب بنى جرار
٧٦ سجن المنتظرين الاعدام
٧٧ أحياء لمختلف القبائل
٧٨ قبة عائلة المهدى والأقارب
٧٩ مصنع البارود
٨٠ بيت المال
٨١ سوق الرقيق
٨٢ مخازن الملازمين
٨٣ حى الفور
٨٤ حى المصريين
٨٥ إستراحة الخليفة بالهجرة
٨٦ إستراحة الخليفة على ود حلو بالهجرة
٨٧ جامع الهجرة
٨٨ حى ود البصير والحلاويين
٨٨ (أ) زريبة المرضة

٢ – تـوتى

٨٩ مخازن البارود
٩٠ قرية توتى

٣ – الخرطوم

٩١ طابية المقرن
٩٢ حدائق
٩٣ الكنيسه
٩٤ مبانى مخازن الأدوية القديمة
٩٥ البوسته ومكاتب المالية
٩٦ قنصلية النمسا
٩٧ مبنى الحكمدارية القديمة
٩٨ السرايا القديمة
٩٩ مخازن الذره
١٠٠ مخازن خامات تصنيع السلاح والذخيرة
١٠١ مبنى قشلاق الجنود القديم
١٠٢ مبنى المستشفى القديم
١٠٣ آثار طابية بحرى
١٠٤ مبنى مخازن الأسلحة الصغيرة والذخيرة
١٠٥ مخازن ذخيرة الحديقة
١٠٦ مصانع الظروف
١٠٧ ساحة الصلاة
١٠٨ مبنى قنصلية فرنسا
١٠٩ مبنى قنصلية إيطاليا
١١٠ منازل الأهالى
١١١ باب المسلمية
١١٢ آثار طابية الكلاكله –
١١٣ السرايا الشرقية
١١٤ آثار الطابية الشمالية
١١٥ حلة خوجلى
١١٦ إستراحة الخليفة بهجرة الشرق
١١٧ برى
١١٨ الكلاكله
١١٩ شجرة ماحى بك
١٢٠ الحلفايه

خريطة ر

ميـ

امدرمان

- الجامع
- المحراب
- القبة
- جامع الصفيح
- جناح الخليفة
- المحكمة

٧– بيت الخليفة

٨– سكن الحريمات

٩– الخلوة

١٠– منازل ملازمية الخليفة

١١– منزل ابناء المهدى

١٢– اسطبلات الخليفة

١٣– مخازن بيت الخليفة

١٤– منزل المهدى

١٥– منزل عائلة المهدى

١٦– منزل الخليفة على ود حلو

١٧– مساكن ملازمين الخليفة على ود حلو

١٨– منزل عثمان شيخ الدين

١٩– سور امدرمان الرئيسى

٢٠– سور امدرمان الطينى

٢١– منزل أقرب الخليفة

٢٢– منزل سلاطين

٢٣– منازل القضاة

٢٤– منزل دودو

٢٥– منزل الأمير يعقوب القديم

٢٦– منزل الأمير يعقوب الجديد

٢٧– منازل كتبة الأمير يعقوب

٢٨– منزل سلاطين القديم

٢٩– بيت الأمانة

٢٩ أ مخازن الرايات والنحاس

٣٠– منازل أقارب الخليفة

٣١– الساير

٣٢– ورش الأسلحة

٣٣– حى أهالى الغرب

٣٤– حى البرقو والتكارنة

٣٥– المشرع

٣٦– إستراحة الخليفة

٣٧ طابية أمدرمان القديمة

٣٨ بيت قائد الجهادية

٣٩ حى الجهادية

٤٠ بيت الخليفة فى ديم يونس

٤١ حلة الفتيحاب

٤٢ حى البرنو والفلاته

٤٣ بيت النور عنقره

٤٤ حى الحمر

٤٥ حى الكبابيش والجماله

٤٦ حى الحمر

٤٧ حى الهبانية

٤٨ حى الرزيقات

٤٩ حى الكنانيه

٥٠ بيت عبد الله ود أحمد

٥١ حى دغيم

٥٢ حى قبائل النيل الأبيض

٥٣ حى الجعليين

٥٤ سوق التجاريين

٥٥ محكمة السوق

٥٦ المشانق

٥٧ سوق الملح

٥٨ سوق القماش

٥٩ سوق الحلاقين

٦٠ سوق الخياطين

٦١ سوق الخضار

٦٢ سوق الجزارين

٦٣ سوق العلف (الكلا)

٦٤ سوق الذره والبلح

٦٥ مخازن الذره والبلح

٦٦ سوق الخشب

٦٧ سوق النساء

٦٨ سوق المطاعم الأوربية

٦٩ حى المسالمة (المسلمانيه)

٧٠ بيت الأب أوهرولدر القديم

٧١ المقابر

٧٢ بيت أحمد شرفى وعائلة الخليفة شريف

٧٣ حى الكنوز

٧٤ حى الدناقلة

٧٥ حى عرب بنى جرار

٧٦ سجن المتظرين للاعدام

٧٧ أحياء لمختلف القبائل

٧٨ قبة عائلة المهدى والأقرب

٧٩ مصنع البارود

٨٠ بيت المال

٨١ سوق الرقيق

٨٢ مخازن الملازمين

٨٣ حى الفور

٨٤ حى المصريين

٨٥ إستراحة الخليفة بالهجرة

٨٦ إستراحة الخليفة على ود حلو بالهجرة

٨٧ جامع الهجرة

٨٨ حى ود البصير والحلاويين

٨٨ (أ) زريبة العرضة

٢– توتى

٨٩ مخازن البارود

٩٠ قرية توتى

٢ – الخرطوم

٩١ طابية المقرن

٩٢ حدائق

٩٣ الكنيسه

٩٤ مبانى مخازن الأدوية القديمة

٩٥ البوسته ومكاتب الدائرة

٩٦ قنصلية النمسا

٩٧ مبنى الحكمدارية القديمة

٩٨ السرايا القديمة

٩٩ مخازن الذره

١٠٠ مخازن خدمات تصنيع السلاح والذخيرة

١٠١ مبنى قشلاق الجنود القديم

١٠٢ مبنى المستشفى القديم

١٠٣ آثار طابية بحرى

١٠٤ مبنى مخازن الأسلحة الصغيرة والذخيرة

١٠٥ مخازن ذخيرة الحديقة

١٠٦ مصانع الظروف

١٠٧ ساحة الصلاة

١٠٨ مبنى قنصلية فرنسا

١٠٩ مبنى قنصلية إيطاليا

١١٠ منازل الأهالى

١١١ باب المسلمية

١١٢ آثار طابية الكلاكله –

١١٣ السرايا الشرقية

١١٤ آثار الطابية الشمالية

١١٥ حلة خوجلى

١١٦ إستراحة الخليفة بهجرة الشرق

١١٧ برى

١١٨ الكلاكله

١١٩ شجرة ماحى بك

١٢٠ الحلفايه

عمليات الـ
خريطة ر
مـيـ

امدرمان

١ – الجامع
٢ – المحراب
٣ – القبـة
٤ – جامع الصفيح
٥ – جناح الخليفة
٦ – المحكمة
٧ – بيت الخليفة
٨ – سكن الحريمات
٩ – الخـلوة
١٠– منازل ملازمية الخليفة
١١– منزل ابناء المهـدى
١٢– اسـطبلات الخليفة
١٣– مخازن بيت الخليفة
١٤– منزل المهـدى
١٥– منزل عائلة المهـدى
١٦– منزل الخليفة على ود حلو
١٧– مساكن ملازمين الخليفة على ود حلو
١٨– منزل عثمان شيخ الدين
١٩– سور امدرمان الرئيسى
٢٠– سور امدرمان الغربي
٢١– منزل أقارب الخليفة
٢٢– منزل سلاطين
٢٣– منازل القهوة
٢٤– منزل دودو
٢٥– منزل الأمـير يعقوب القديم
٢٦– منزل الأمـير يعقوب الجديد
٢٧– منازل كتبة الأمـير يعقوب
٢٨– منزل سلاطين القديم
٢٩– بيت الأمانة
٢٩ آ مخازن الرايات والنحاس
٣٠– منازل أقارب الخليفة
٣١– السابر
٣٢– ورش الأسلحة

٦٢ سوق الجزارين
٦٣ سوق العلف (الكلا)
٦٤ سوق الذره والبلح
٦٥ مخازن الذره والبلح
٦٦ سوق الخشب
٦٧ سوق النساء
٦٨ سوق المطاعم الأوربية
٦٩ حى المسالمة (المسالمية)
٧٠ بيت الأب أوهرولدر القديم
٧١ المقابر
٧٢ بيت أحمد شرفي وعائلة الخليفة شريف
٧٣ حى الكنوز
٧٤ حى الدناقلة
٧٥ حى عرب بنى جرار
٧٦ سجن المحكوم عليهم بالاعدام
٧٧ أحياء لمختلف القبائل
٧٨ قبة عائلة المهدى والأقارب
٧٩ مصنع البارود
٨٠ بيت المال
٨١ سوق الرقيق
٨٢ مخازن الملازمين
٨٣ حى الفور
٨٤ حى المصريين
٨٥ إستراحة الخليفة بالهجرة
٨٦ إستراحة الخليفة على ود حلو بالهجرة
٨٧ جامع الهجرة
٨٨ حى ود النصير والحلاويين
٨٨ (أ) زريبة العرضة

٢– تـوتى

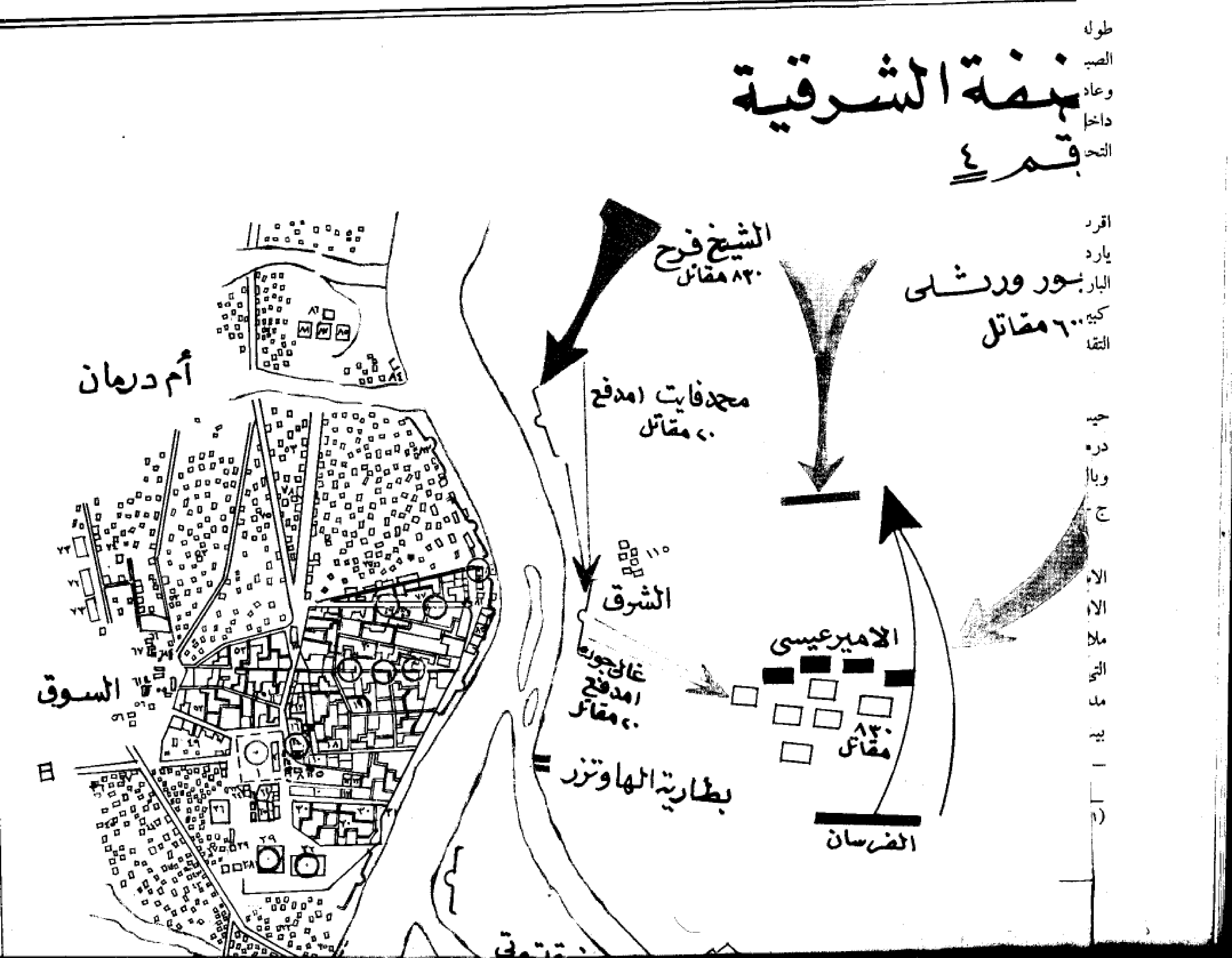
٨٩ مخازن البارود
٩٠ قرية توتى

٢ – الخرطوم

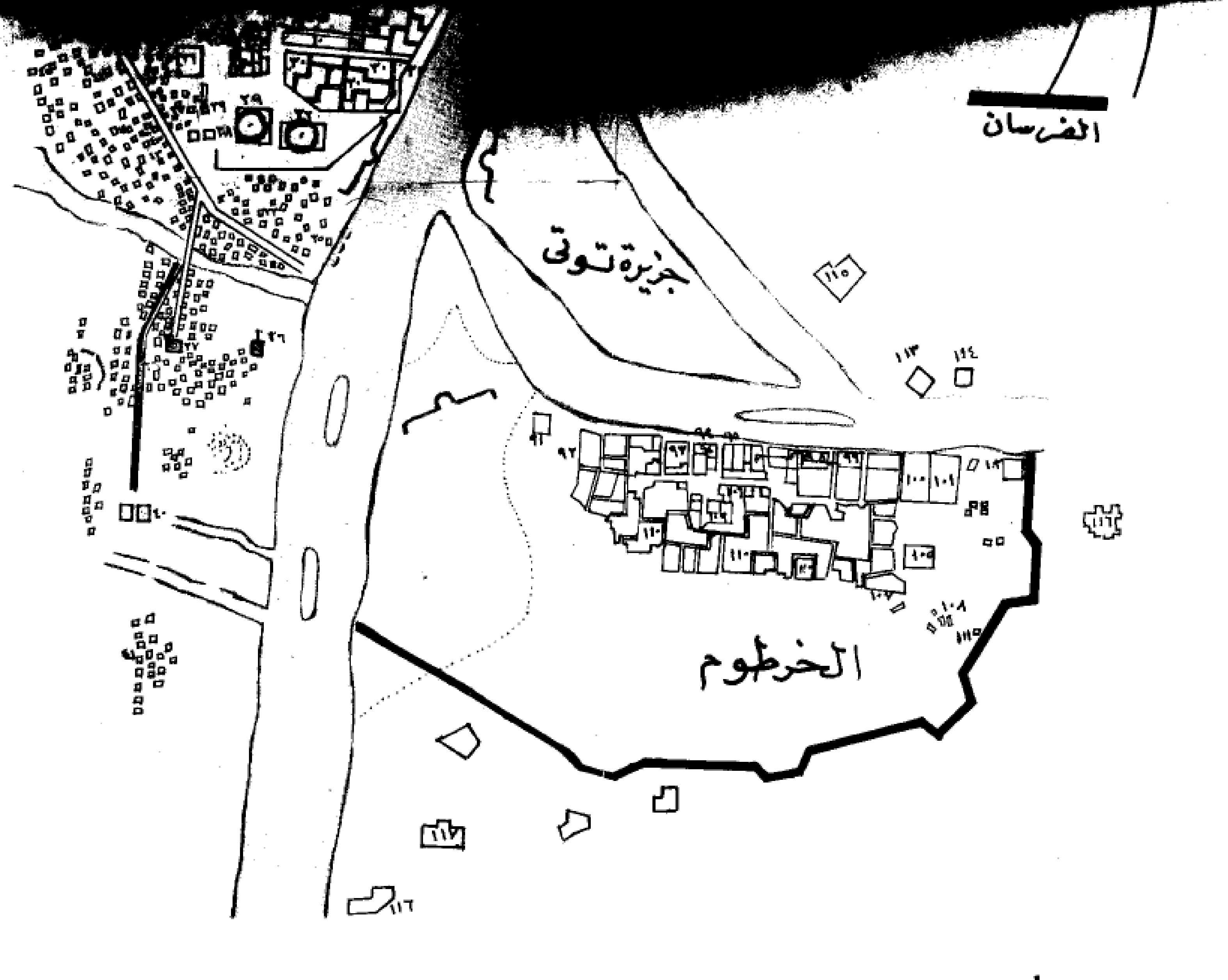
٩١ طابية المقرن
٩٢ حدائق
٩٣ الكنيسه
٩٤ مبانى مخازن الأدوية القديمة
٩٥ ابوجنه ومكاتب المدينة
٩٦ قنصلية النمسا
٩٧ مبنى الحكمدارية القديمة



الشرقية
الشيخ فرح
٨٣٠ مقاتل
٦٠٠ مقاتل
محمد فايت امدفع
٦٠ مقاتل
أم درمان
الشرق
غالي جوره
امدفع
٦٠ مقاتل
الامير عيسى
٨٣٠
مقاتل
السوق
بطارية الهاوتزر
الفرسان

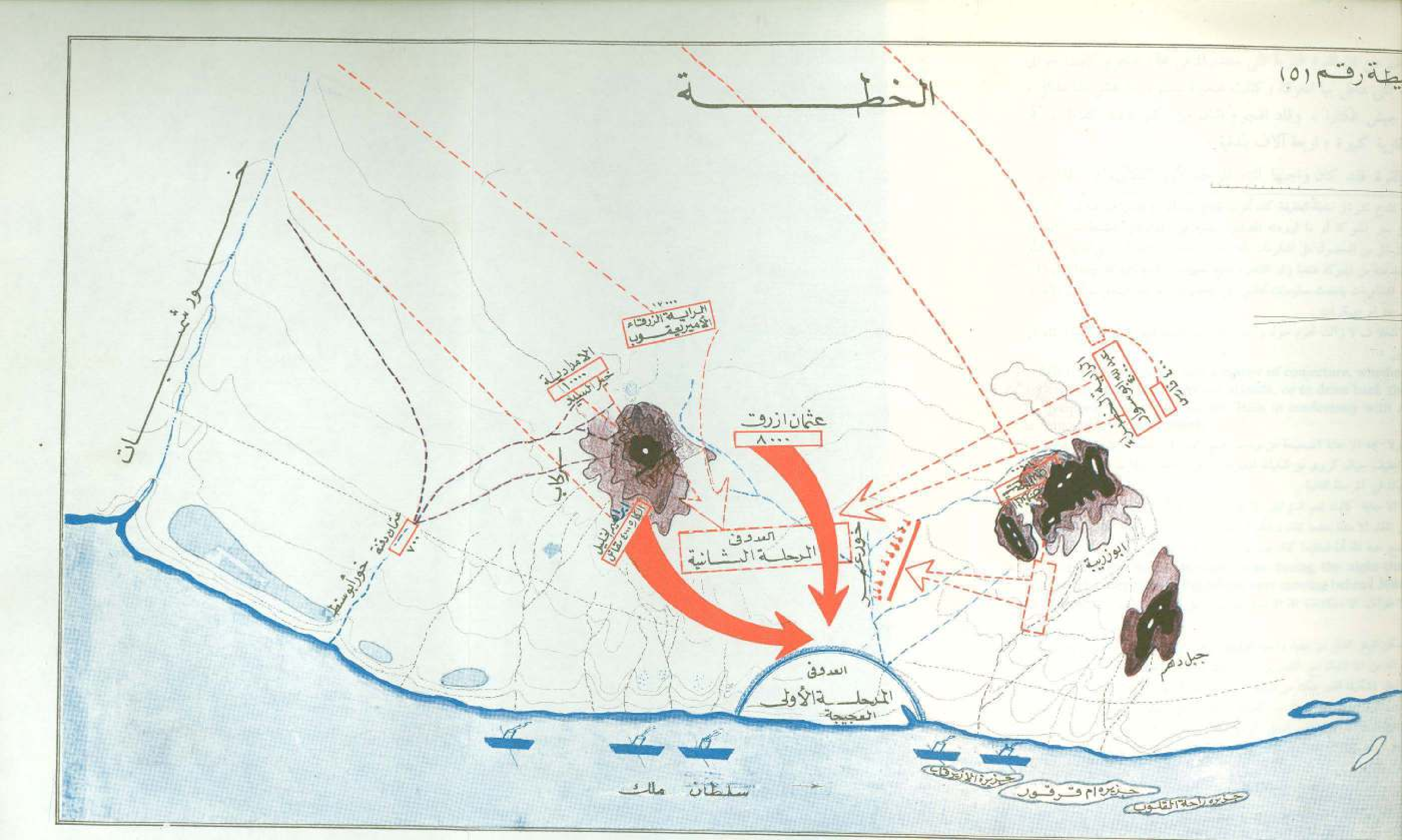

ـبهة الشرقية
قسم ٤
الشيخ فرح
٨٢٠ مقاتل
ـور ورشلى
٦٠٠ مقاتل
محدفايت امدفح
٧٠ مقاتل
الشرق
١١٠
غالي جوجه امدفح
٧٠ مقاتل
الامير عيسى
٨٢٠ مقاتل
بطارية الهاوتزر
الفرسان
أم درمان
السوق

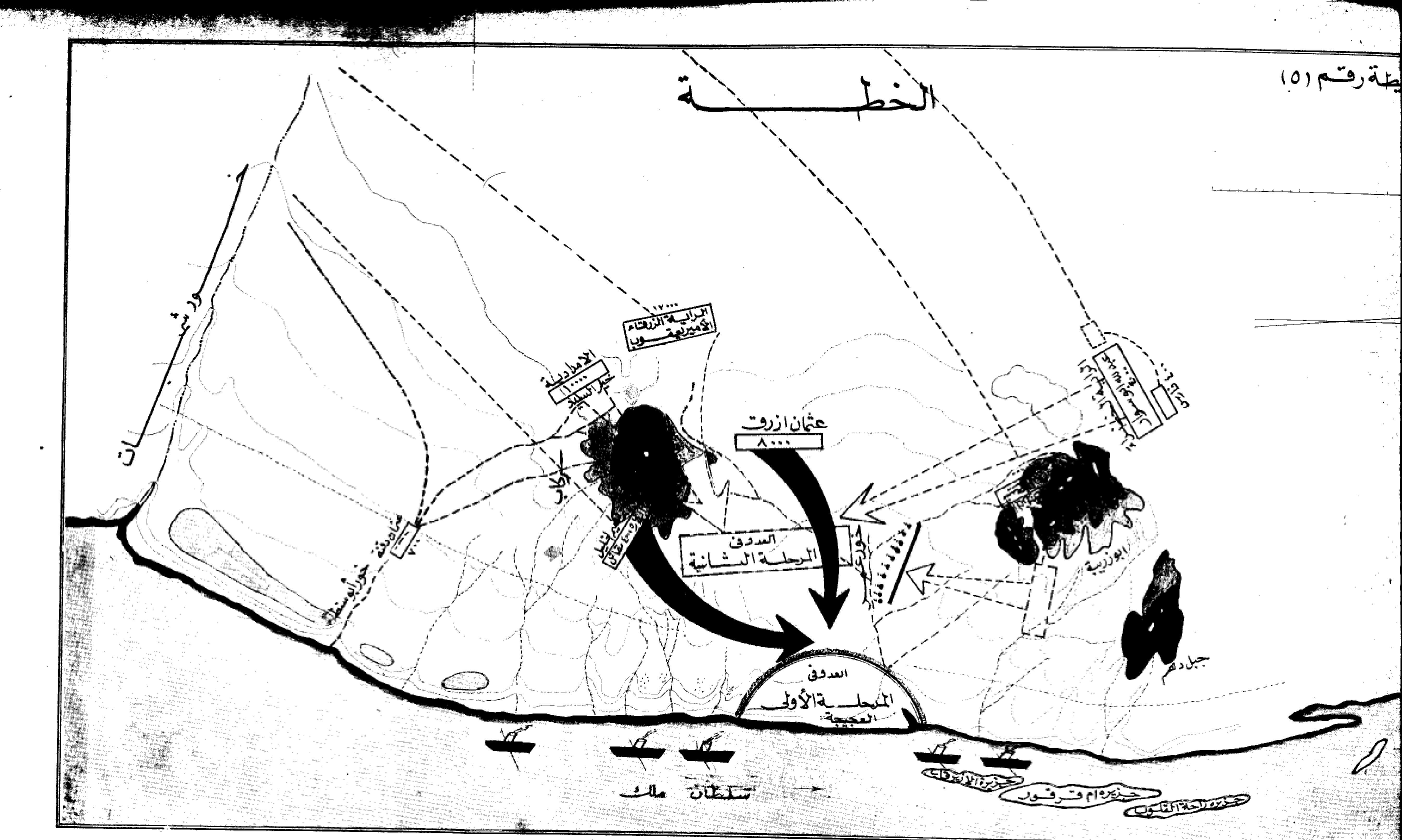

مقاتل
بطارية الهاوتزر
الفرسان
جزيرة توتى
الخرطوم
عدد الدانات ٥٠ رطل التى اطلقت فى سبتمبر = ٧٠ دانة
عدد الدانات التى اطلقت فى ٢ سبتمبر ٢٣٧ دانة



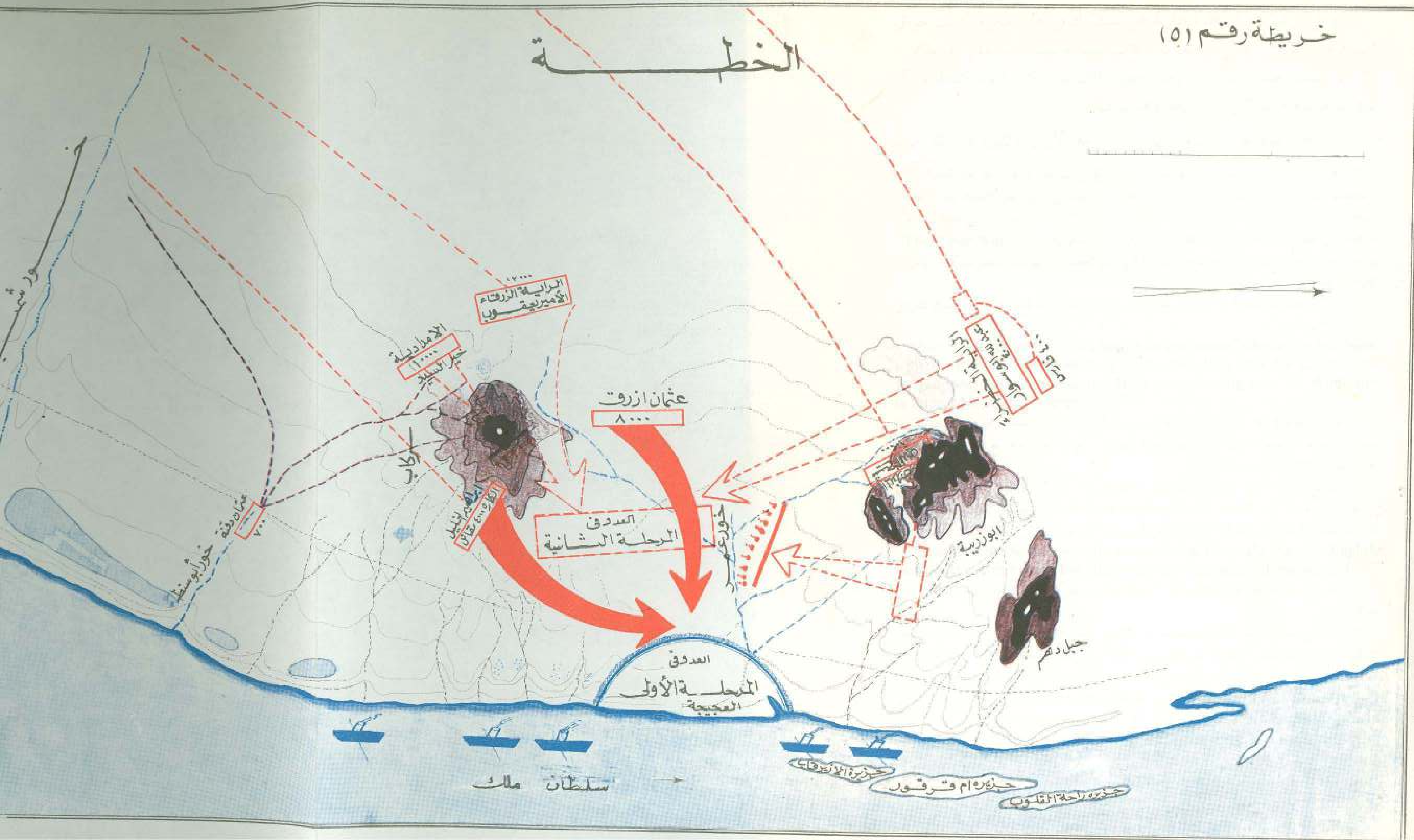
عدد الدانات ٥٠ رطل التى اطلقت فى سبتمبر = ٧٠ دانة

عدد الدانات التى اطلقلت فى ٢ سبتمبر ٣٣٧ دانة

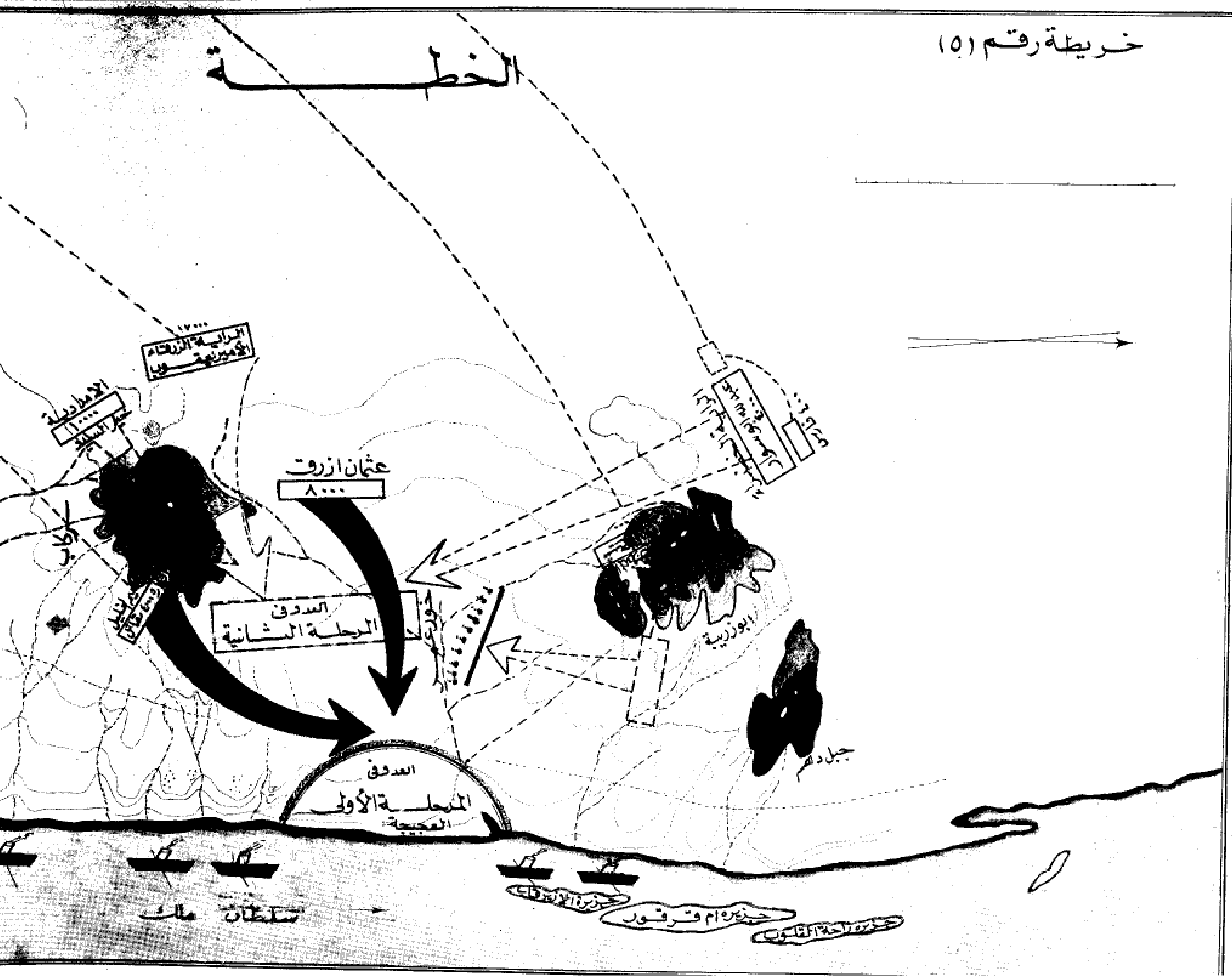

يطة رقم (٥)
الخطـــة
خور شبات
خور أبو سنط
عثمان دقنة
٧٠٠
الامدادية
١٠٠٠٠
خير السيد
١٧٠٠٠
الراية الزرقاء
الأمير يعقوب
عثمان ازرق
٨٠٠٠
العدو في
المرحلة الثانية
العدو في
المرحلة الأولى
العجيجة
بوزرية
جبل دهم
سلطان ملك
جزيرة ام قرقور
جزيرة راحة القلوب

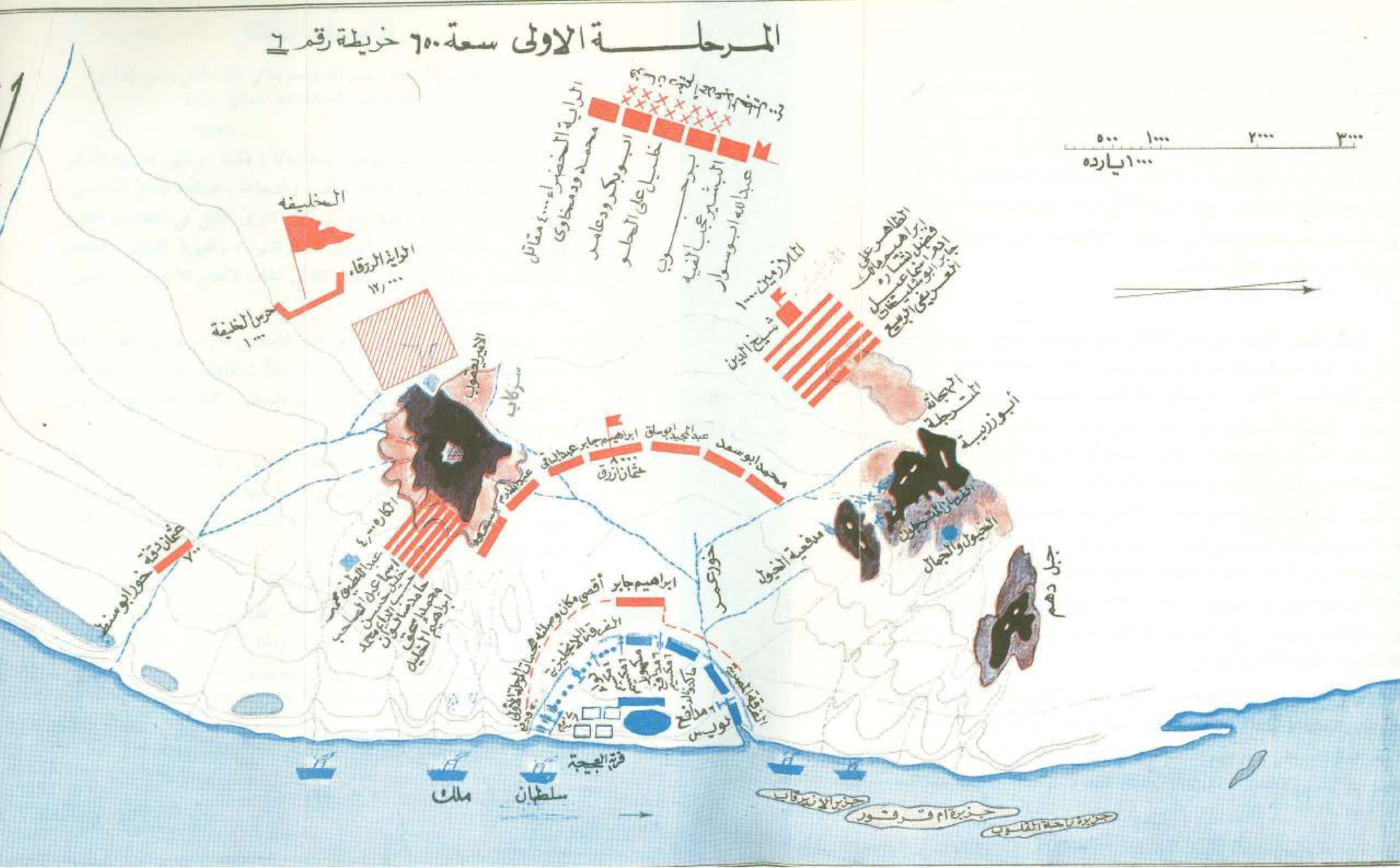


يطة رقم (٥)
الخطـــــة
خور شمسات
خور أبوسنطة
عثمان دقنة
٧٠٠
الإمدادية
١٠٠٠٠
الراية الزرقاء
الأمير يعقوب
١٢٠٠٠
ركاب
عثمان ازرق
٨٠٠٠
العدو في
المرحلة الثانية
العدو في
المرحلة الأولى
العجيجة
الراية الخضراء
عبد الله ابو سوار
٤٠٠ فارس
ابوزيبة
سلطان
ملك
جزيرة ام قرقور

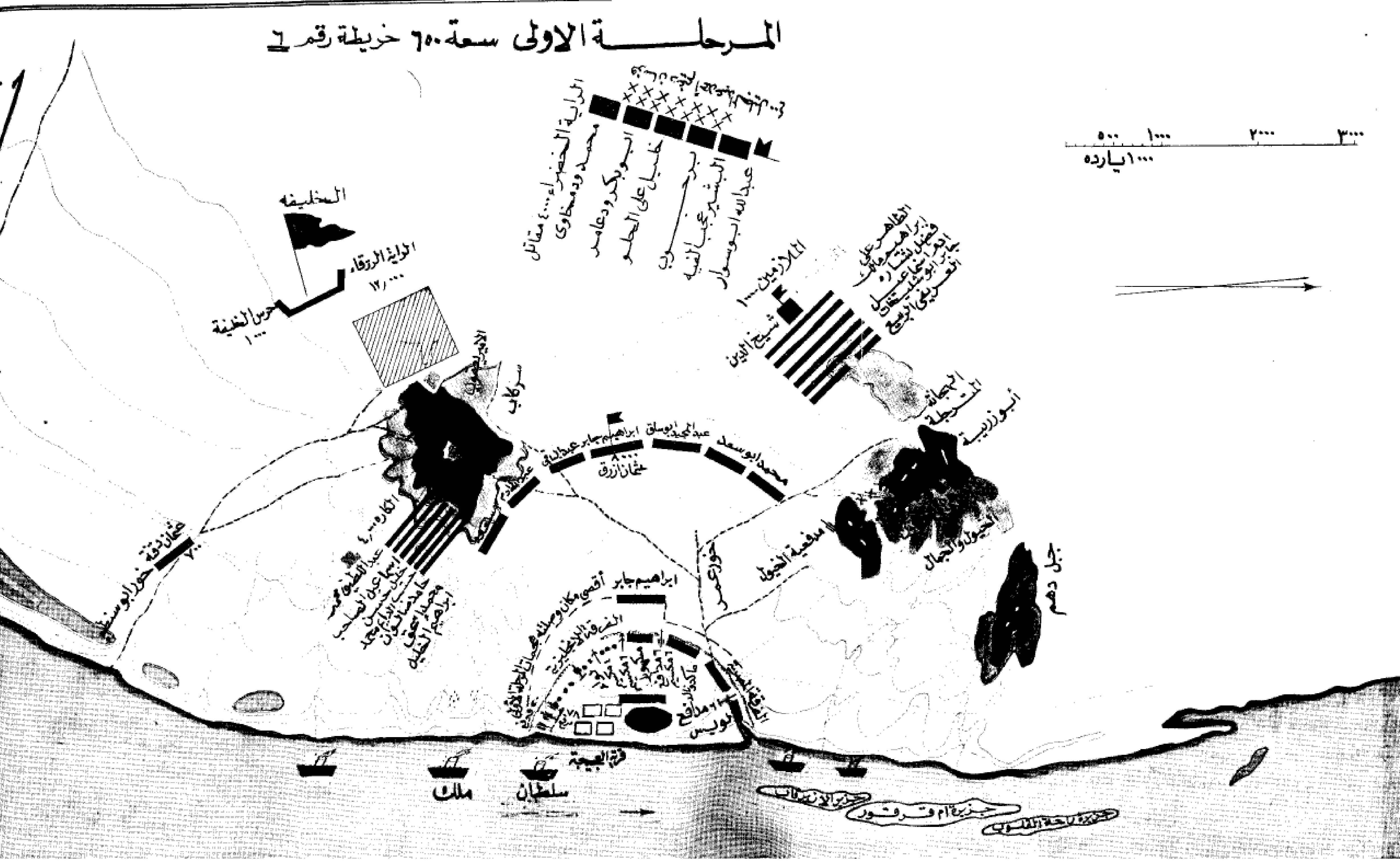


خريطة رقم (٥)
الخطـــة
الراية الزرقاء
الأمير يعقوب
١٢٠٠٠
الامدادية
١٠٠٠٠
عثمان دقنة
٧٠٠
خور ابو سنط
عثمان ازرق
٨٠٠٠
العدو في
المرحلة الثانية
ابو زريبة
جبل دهم
العدو في
المرحلة الأولى
العجيجة
سلطان
ملك
جزيرة ام قرقور
جزيرة راحة القلوب

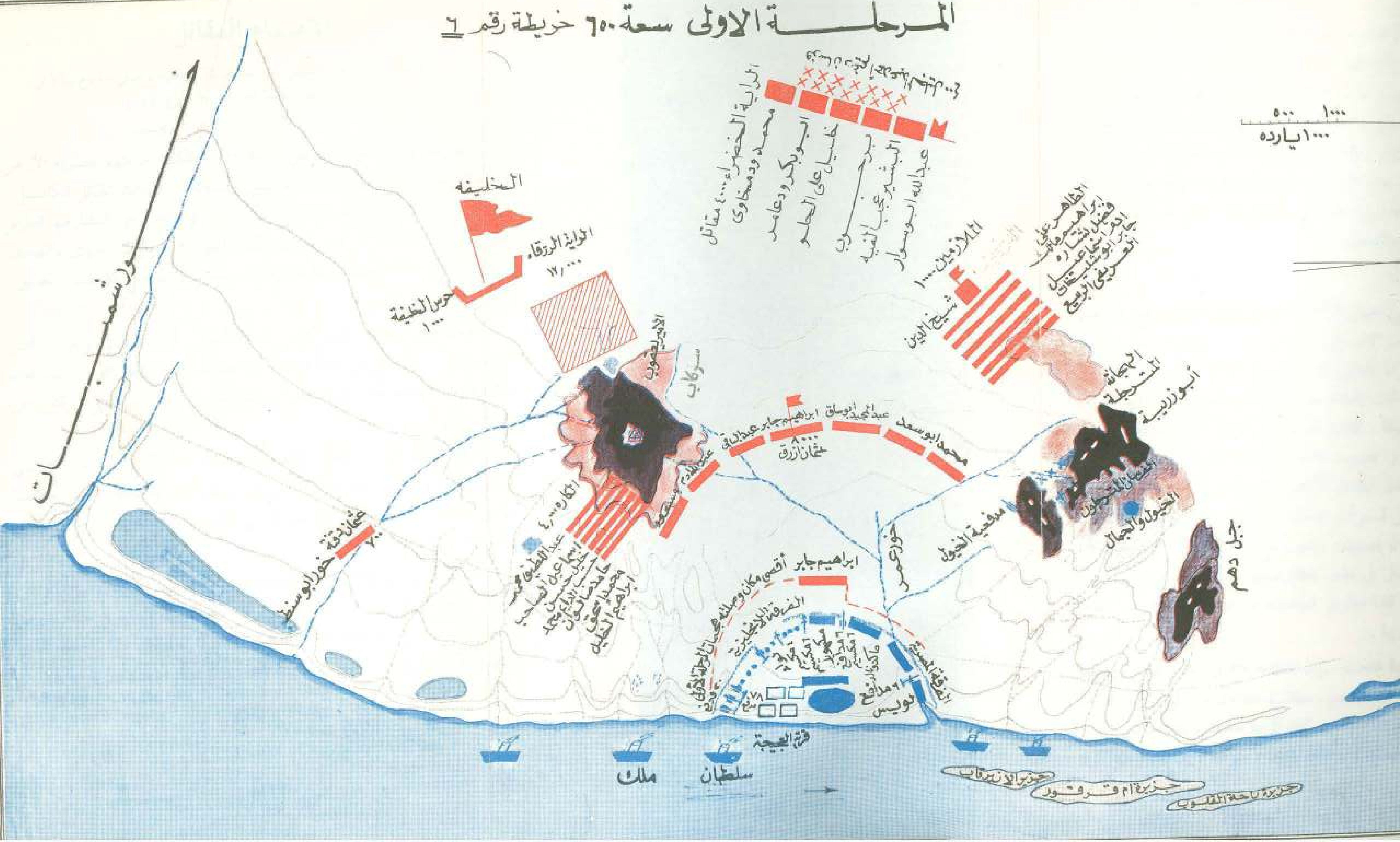

خريطة رقم (٥)
الخطــــة
عثمان ازرق
٨٠٠٠
العدو في
المرحلة الثانية
العدو في
المرحلة الأولى
العجيجة
ابوزريبة
جبل دهم
سلطان
ملك
جزيرة ام قرقور



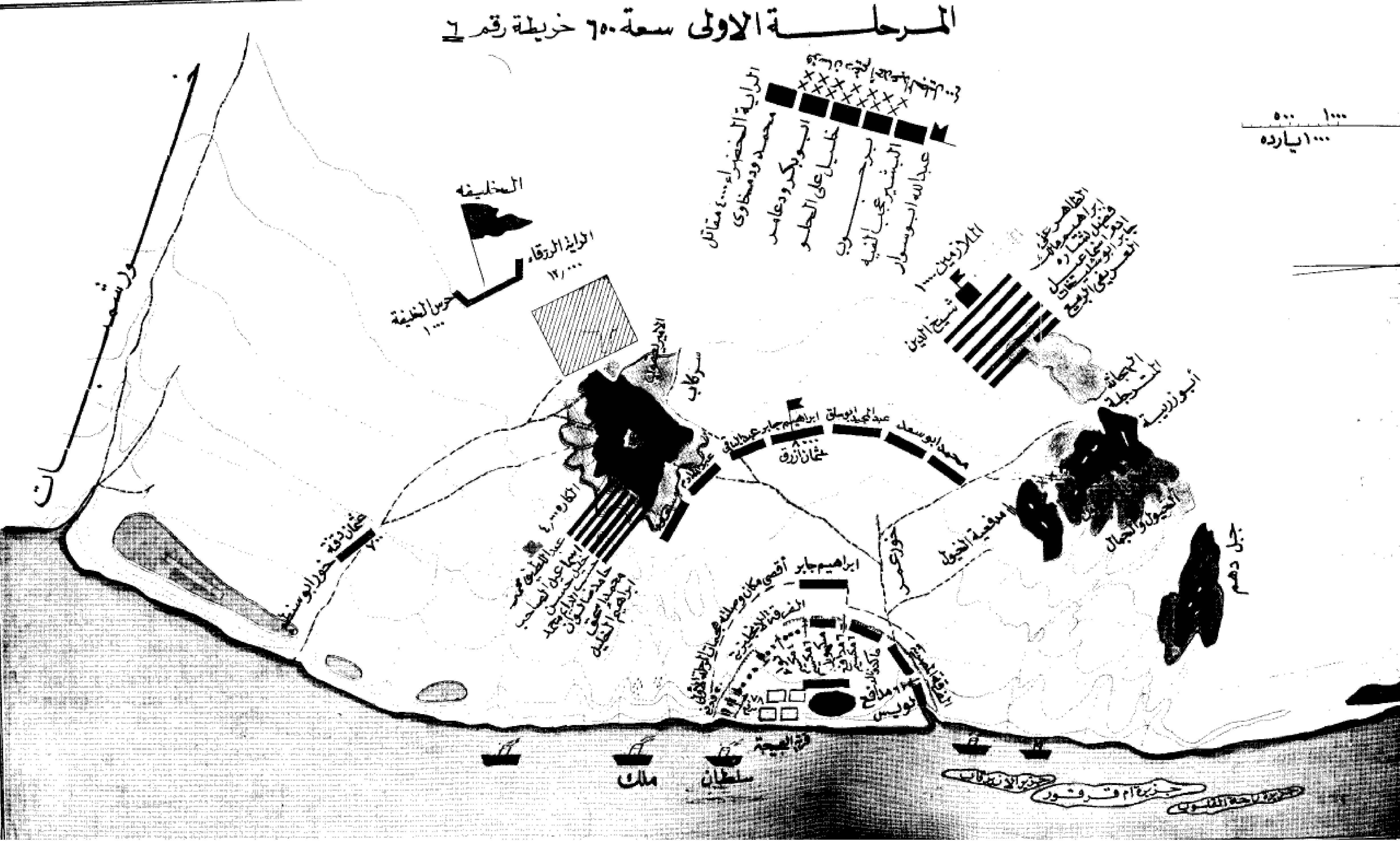
المرحلة الاولى سعة ٦٠٠ خريطة رقم ٦
الراية الخضراء ٤٠٠٠ مقاتل
محمد ودمحاوى
ابوبكر ودعامر
خليل على الحلو
برجوب
البشير عجب الفيه
عبدالله ابوسوار
الخليفه
الراية الزرقاء
١٧٫٠٠٠
حرس الخليفة
١٠٠٠
الامير يعقوب
سركاب
الملازمين ١٠٠٠
شيخ الدين
الطاهر على
ابراهيم مالك
فضل بشارة
ادم اسماعيل
جابر ابوشليتاوى
العربي الربيع
الهجانة
المترجلة
ابوزريبة
عبدالمجيد ابوساق
ابراهيم جابر عبدالباقى
عثمان ازرق
محمد ابوسعد
٨٠٠٠
الكاره ٤٠٠٠
عبداللطيف محمد
اسماعيل الصاحب
خليل حسين
الداير محمد
حامد صافون
محمد اسحق
ابراهيم الخليل
عثمان دقنة
خور ابوسنط
٧٠٠
ابراهيم جابر أقصى مكان وصلته هجمات الموجة الاولى
الفرقة الانجليزية
خورعمر
مدفعية الخيول
الخيول والجمال
جبل دهم
نويس
قلعة العجيجة
سلطان
ملك
جزيرة الانصاري
جزيرة ام قرقور
جزيرة راحة المقلوب
٥٠٠
١٠٠٠
٢٠٠٠
٣٠٠٠
١٠٠٠ ياردة

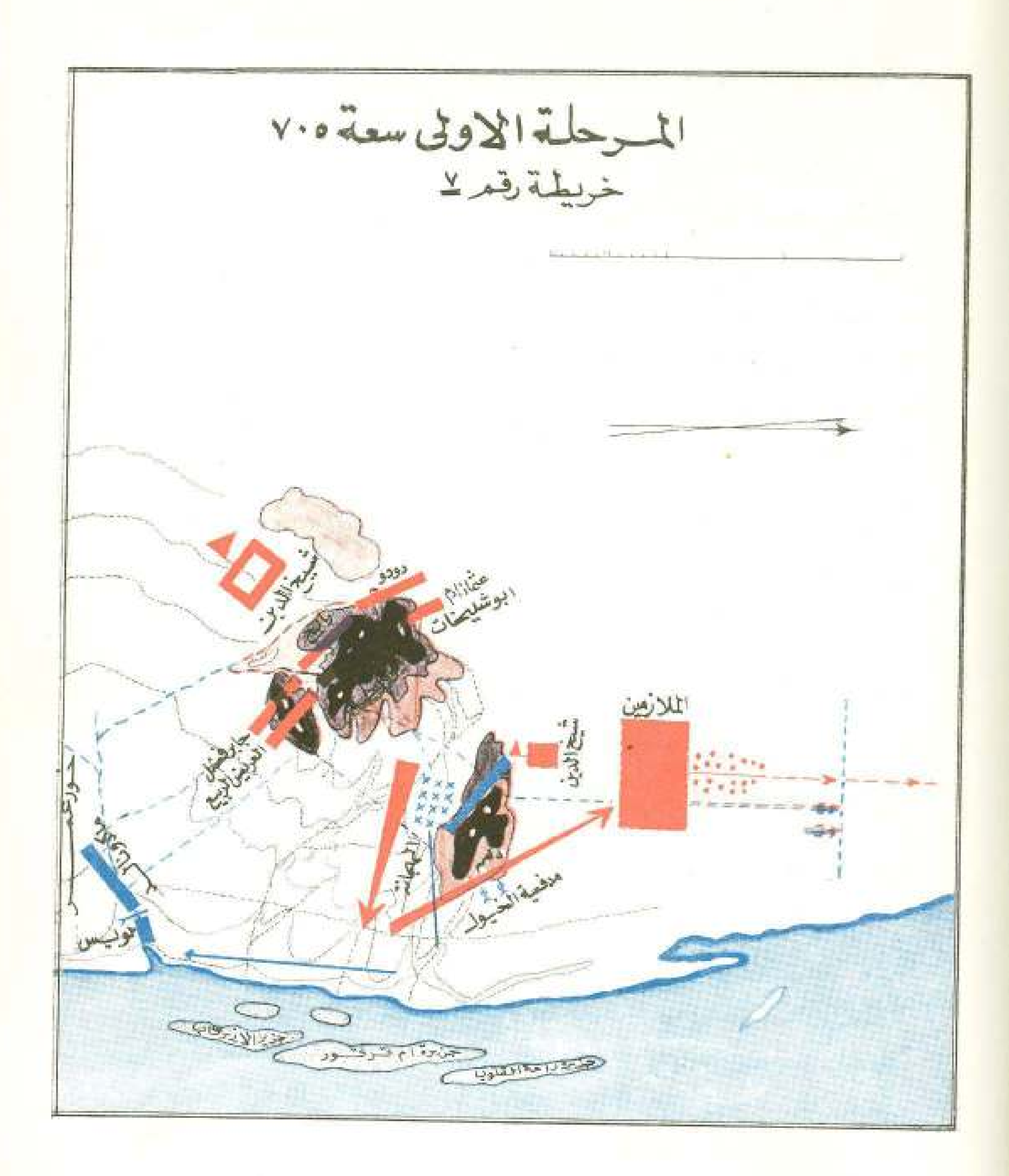


المرحلة الاولى خريطة رقم ٦
الخليفه
الراية الزرقاء ١٢,٠٠٠
حرس الخليفة ١٠٠٠
الراية الخضراء ٤٠٠٠ مقاتل
محمد ودمخاوى
ابوبكر ودعامر
خليل على الحلو
برجوب
البشير عجب الفيه
عبدالله ابوسوار
الملازمين ١٠٠٠
شيخ الدين
سركاب
ابوزريبة
جبل دهم
خورعمر
خورابوسنط
ملك
سلطان
قرية العجيجة
جزيرة ام قرقور
١٠٠٠ ياردة
٥٠٠
١٠٠٠
٢٠٠٠
٣٠٠٠



المرحلة الاولى سعة ٦٠٠ خريطة رقم ٦
الراية الخضراء ٤٠٠٠ مقاتل
محمد ودمخاوى
ابوبكر ودعامر
خليل على الحلو
برجوب
البشير عجب الفيه
عبدالله ابوسوار
الخليفه
الراية الزرقاء
١٧٫٠٠٠
حرس الخليفة
١٠٠٠
الامير يعقوب
سركاب
الملازمين ١٠٠٠٠
شيخ الدين
الظاهر على
ابراهيم مالك
فضل الله شارة
الهجانة
الترجلة
ابوزريبة
محمد ابوسعد
عبدالمجيد ابوساق
ابراهيم جابر عبدالباقى
٨٠٠٠
عثمان ازرق
عبدالقادر
الكاره ٤٠٠٠
عبداللطيف محمد
اسماعيل الصاحب
خليل حسين
حامد صالحوان
محمد اسحق
ابراهيم الخليل
عثمان دقنة
٧٠٠
خورابوسنط
خورشمبات
خور عمر
مقبرية الخيول
الخيول والجمال
جبل دهم
ابراهيم جابر أقصى مكان وصلته هجمات الراية الزرقاء
الفرقة الانجليزية
الفرقة المصرية
بويس
فرقة العجبة
سلطان
ملك
جزيرة ام قرقور
١٠٠٠ ياردة
٥٠٠
١٠٠٠


المرحلة الاولى سعة ٦٠٠ خريطة رقم ٦
خور شمبات
الخليفة
الراية الزرقاء
١٧,٠٠٠
حرس الخليفة
١٠٠٠
الراية الخضراء ٤٠٠٠ مقاتل
محمد ود مخاوى
ابو بكر ود عامر
خليل على الحلو
برجوب
البشير عجب الفيه
عبدالله ابو سوار
الملازمين ١٠٠٠
شيخ الدين
الظاهر على
ابراهيم مالك
فضل الشارة
ابو شلاش
العربي ابو الربيع
الجبال المرجلة
ابوزريبة
سركاب
عثمان ازرق
عبدالمجيد ابو سلق
محمد ابو سعد
عثمان دقنة
خور ابو سنط
عبداللطيف محمد
اسماعيل عبدالصاحب
حامد سالم
محمد اسحق
ابراهيم الخليل
ابراهيم جابر
خور عمر
مدفعية الخيول
الخيول والجمال
جبل دهم
قرية العجيجة
ملك
سلطان
جزيرة ام قرقور
١٠٠٠ ياردة



المرحلة الاولى سعة ٧٠٥
خريطة رقم ٧
دودو
ابوشليحات
الملازمين
شيخ الدين
مدفعية الخيول


المرحلة الاولى سعة ٧٠٥
خريطة رقم ٧
دودو
عتاد ام
ابوشيطات
الملازمين
تل الدين
مدفعية الجبول
تونس
جزيرة ام قرقور

خريطة رقم ٨

الصدام سعة ٨٤٠

سعة ٨٥٠
٥٠٠ ياردة
رجال عثمان دقنة الأصليين من الهدندوه
ربع العزيز
سعة ٨٣٠
الخليفة
عثمان دقنة
خور ابو سنط
سعة ٨٠٥
السرية الأولى
السرية الثانية
السرية الثالثة
السرية الرابعة
سعة ٨٤٣
سعة ٨٠٣٧
سعة ٨٢٥
سعة ٨١٥
الطوف الأول
الطوف الثاني

خريطة رقم ٨

الصـــــدام سعة ٨٤٠

سعة ٨٥٠

٥٠٠ يارده

رجال عثمان دقنة الاصليين من الهندوه

ربع العزيز

الخليفة

خـــــورابوســــنـــط

سعة ٨٣٠

عثمان دقنه

سعة ٨٠٥

السرية الأولى السرية الثانيـــه السرية الثالثة السرية الرابعة

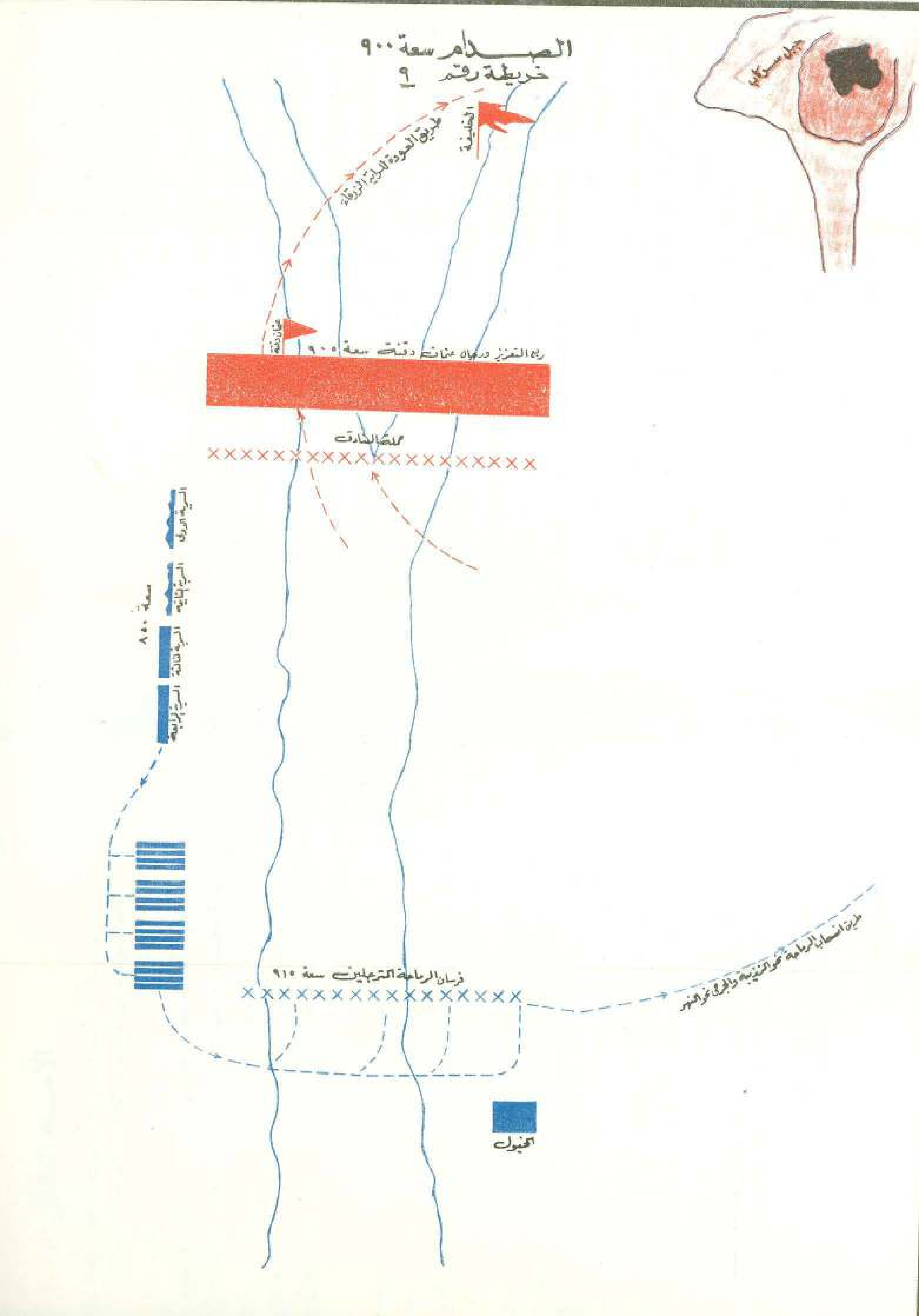
سعة ٨٤٣

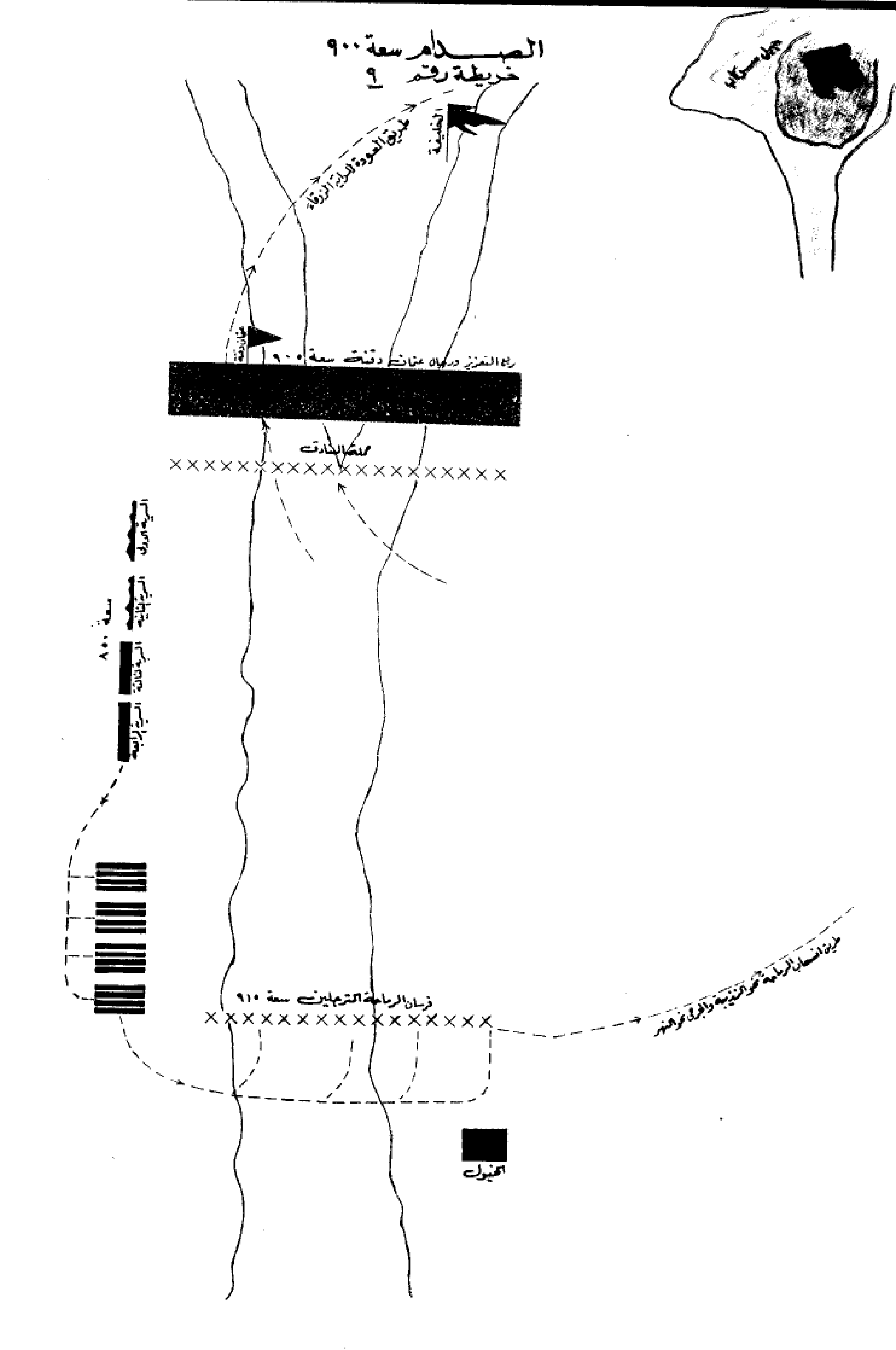
سعة ٨٢٥

الطرف الأول

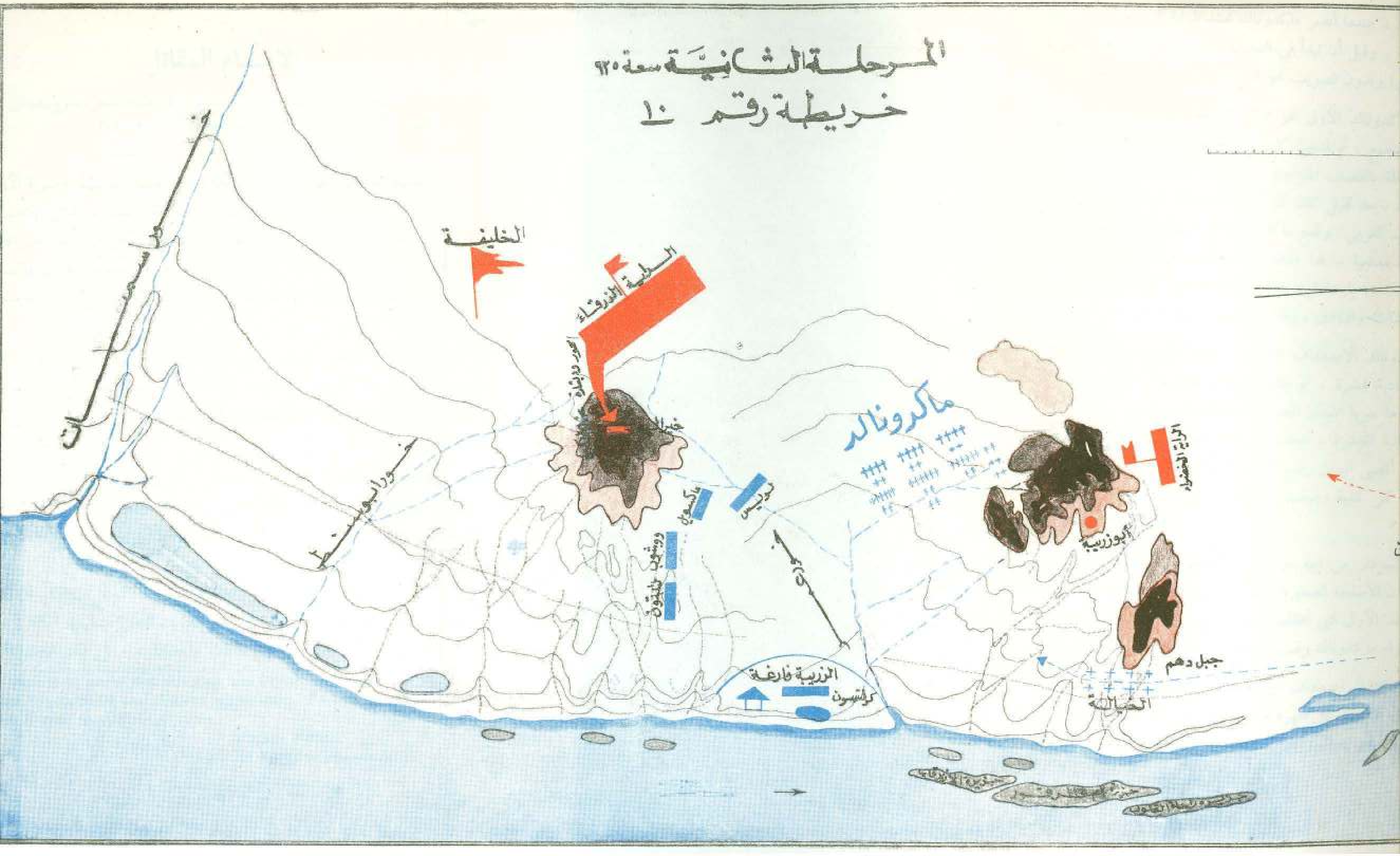
الطرف الثاني

سعة ٨١٥


الصدام سعة ٩٠٠
خريطة رقم ٩
جبل سركاب
الخليفة
طريق العودة للراية الزرقاء
عثمان دقنة
ربع التعزيز درجاه عثمان دقنة سعة ٩٠٠
سعة ٨٥٠
فرسان الرماحة المترجلين سعة ٩١٥
طريق انسحاب الرماحة نحو الزريبة والجري نحو النهر



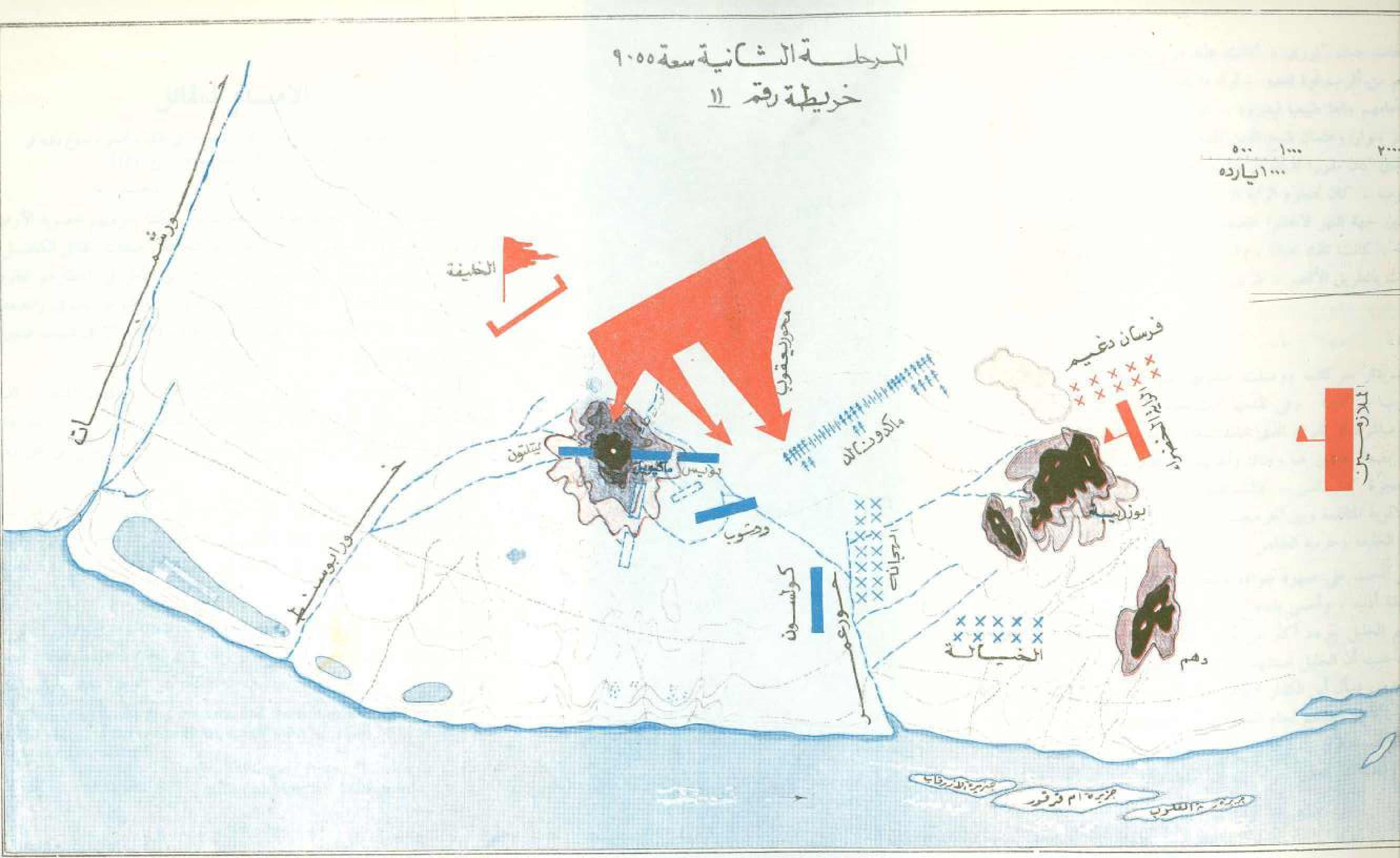
الصدام سعة ٩٠٠
خريطة رقم ٩
طريق العودة للراية الزرقاء
الخليفة
راية التعزيز ودراويش عثمان دقنة سعة ٩٠٠
السرية الأولى
السرية الثانية
السرية الثالثة
السرية الرابعة
سعة ٨٠٠
فرسان الرماحة التزهلين سعة ٩١٠
الخيول


المرحلة الثانية سعة ٩٣٠
خريطة رقم ١٠
الخليفة
الراية الزرقاء
ماكدونالد
ماكسويل
لويس
ووشوب
لتلتون
الزريبة فارغة
كولشسون
أبوزريبة
جبل دهم
الراية الخضراء



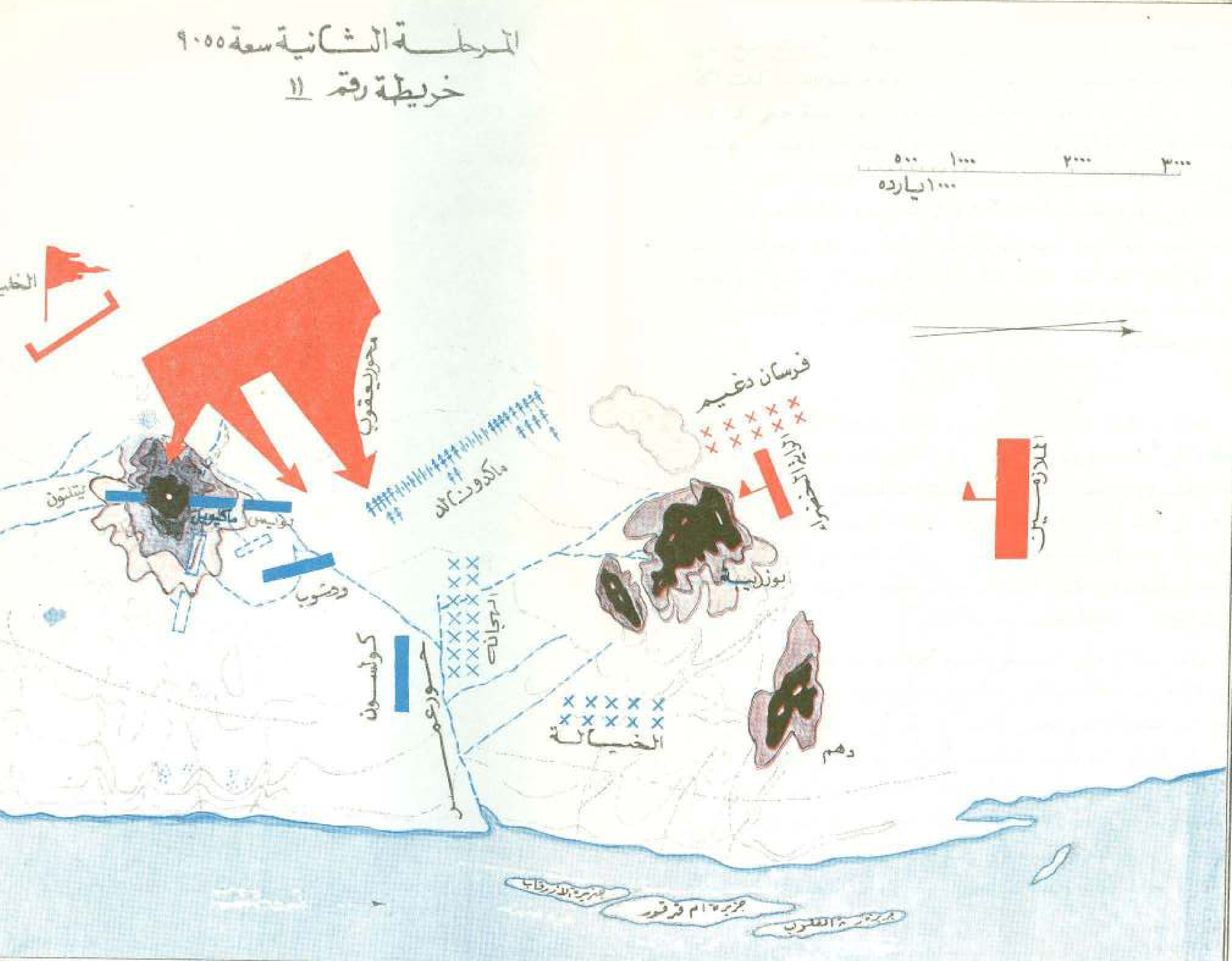
المرحلة الثانية سعة ٩٣٠
خريطة رقم ١٠
الخليفة
الراية الزرقاء
محور دو دبلة
ماكرونالد
ماكسويل
لويس
ووشوب
خور عمر
الزريبة فارغة
كرتشون
أبو زريبة
الراية الخضراء
جبل دهم
الخيالة
طلائع شيخ الدين


المرحلة الثانية سعة ٩٣٠
خريطة رقم ١٠
ماكرونالد
الراية الخضراء
أبو زريبة
جبل دهم
الخيالة
الزريبة فارغة
ماكسويل
لويس
وتشوب
خور عمر
طلائع شيخ الدين


المرحلة الثانية سعة ٩٠٥٥
خريطة رقم ١١
٥٠٠ ١٠٠٠ ٢٠٠٠
١٠٠٠ ياردة
خور شمبات
خور ابو سنط
الخليفة
محور يعقوب
ماكدونالد
ويلتون
ماكسويل
لويس
وشوب
كولسون
خور عمر
الهجانة
فرسان دغيم
الراية الخضراء
الملازمين
بوزلية
الخيالة
دهم
جزيرة الخرطوم
جزيرة ام فرقور
جزيرة القرب



المرحلة الثانية سعة ٩٠٥٥
خريطة رقم 11
٥٠٠ ١٠٠٠ ٢٠٠٠
١٠٠٠ ياردة
الخليفة
محور يعقوب
ماكدونالد
كولسون
الهجانة
الخيالة
فرسان دغيم
الراية الخضراء
الملازمين
دهم



المرحلة الثانية سعة ٩٠٥٥
خريطة رقم ١١
٥٠٠ ١٠٠٠ ٢٠٠٠ ٣٠٠٠
١٠٠٠ ياردة
محور يعقوب
بيتلتون
ماكسويل
لويس
وشوب
ماكدونالد
كولسون
حور عمر
الهجانة
الخيالة
فرسان دغيم
الراية الخضراء
الملازمين
دهم
جزيرة ام قرقور

المرحلة الثانية سعة ٩٠٥٥

خريطة رقم ١١

٥٠٠ ١٠٠٠ ٢٠٠٠ ٣٠٠٠

١٠٠٠ ياردة

محور يعقوب

ماكدونالد

فرسان دغيم

الراية الخضراء

الملازمين

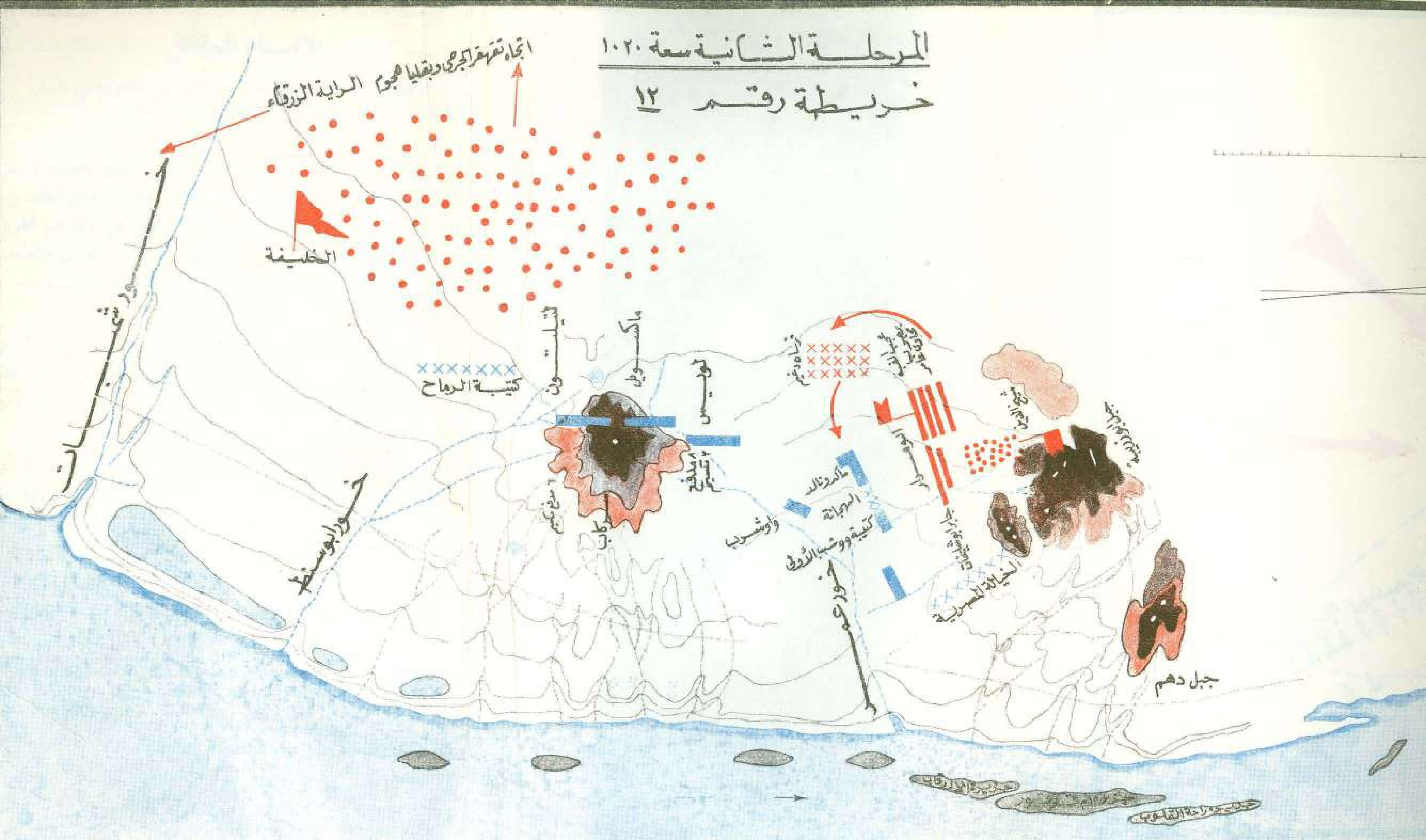
الهجانة

كولسون

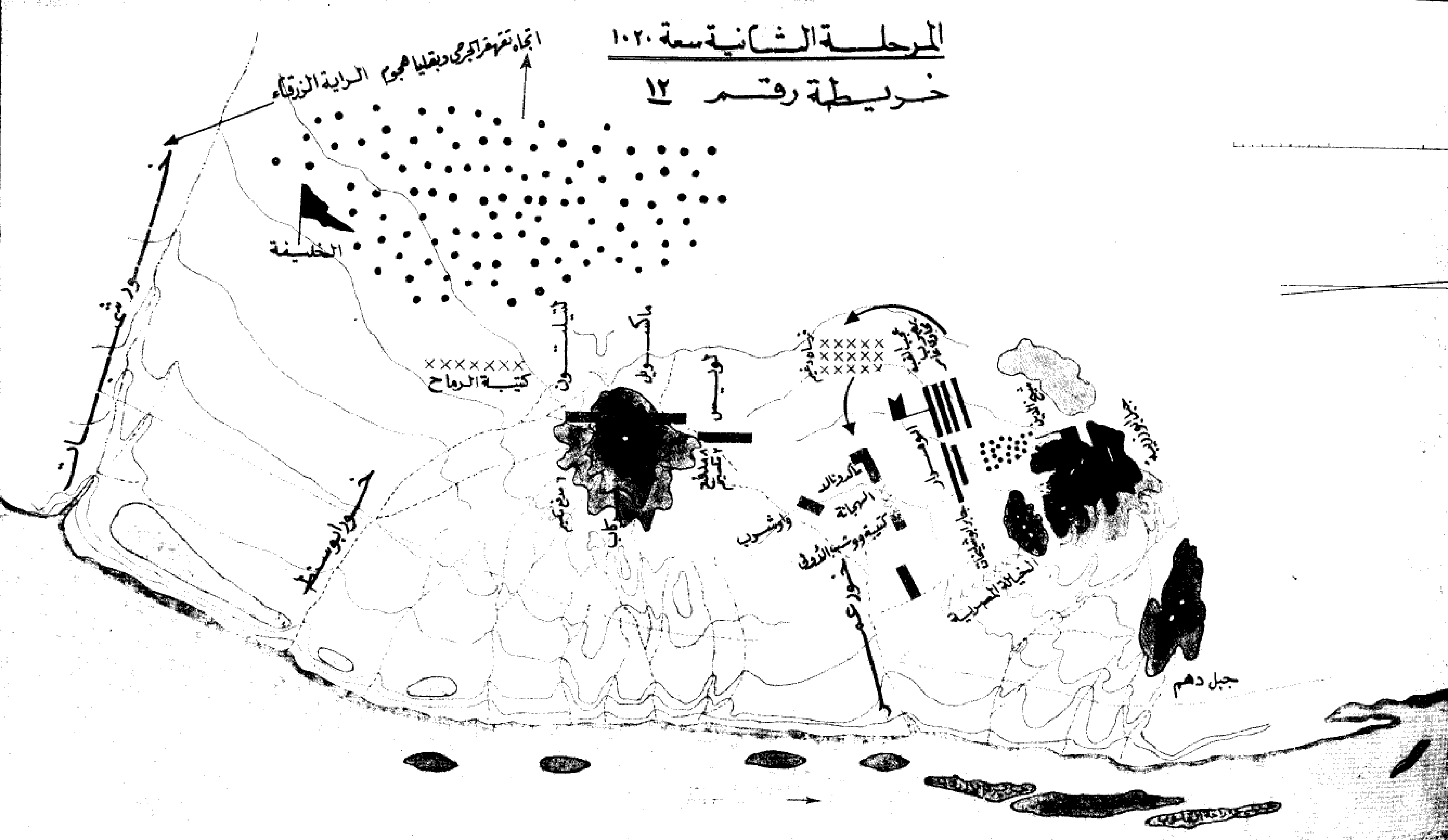
خور عمر

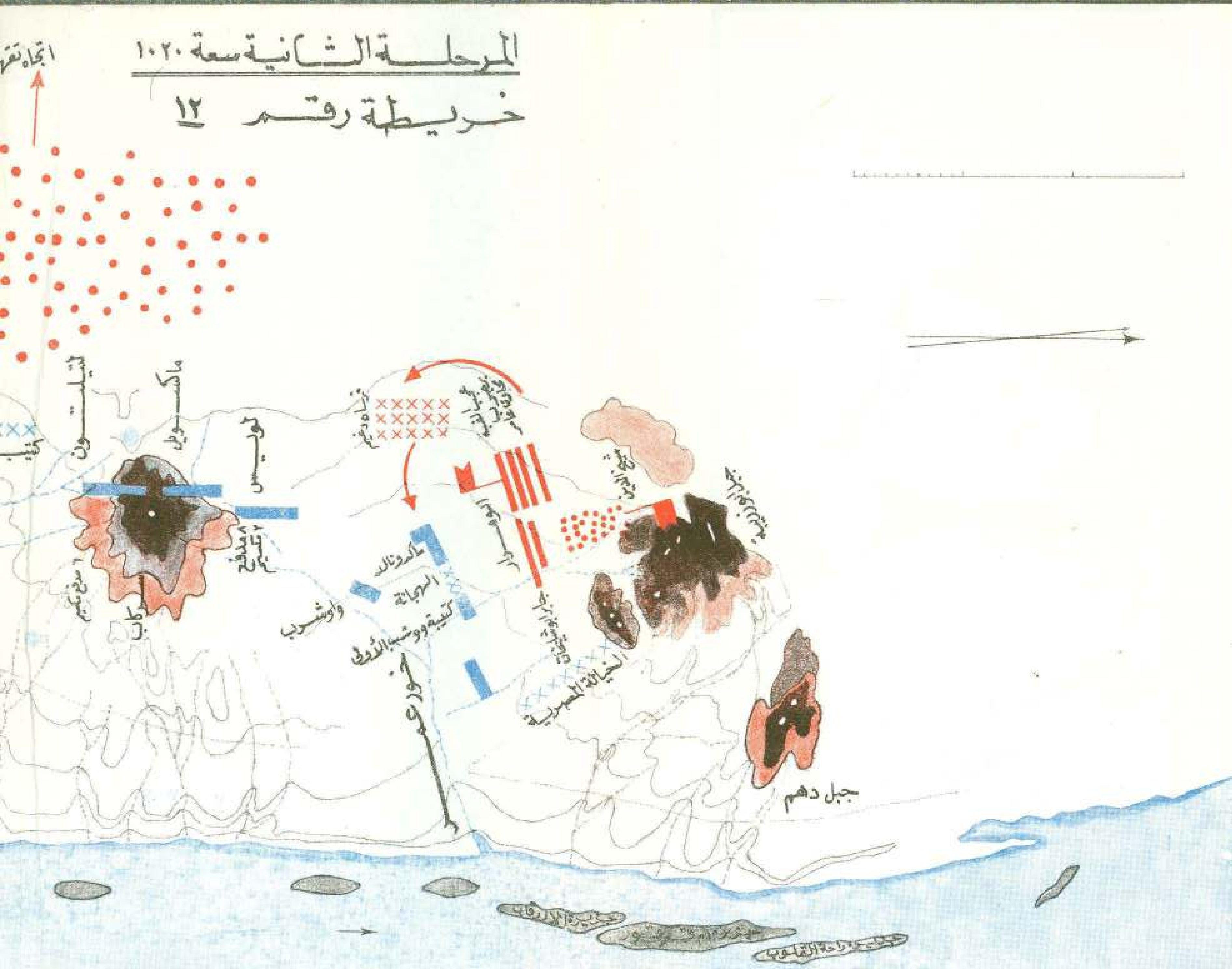
الخيالة

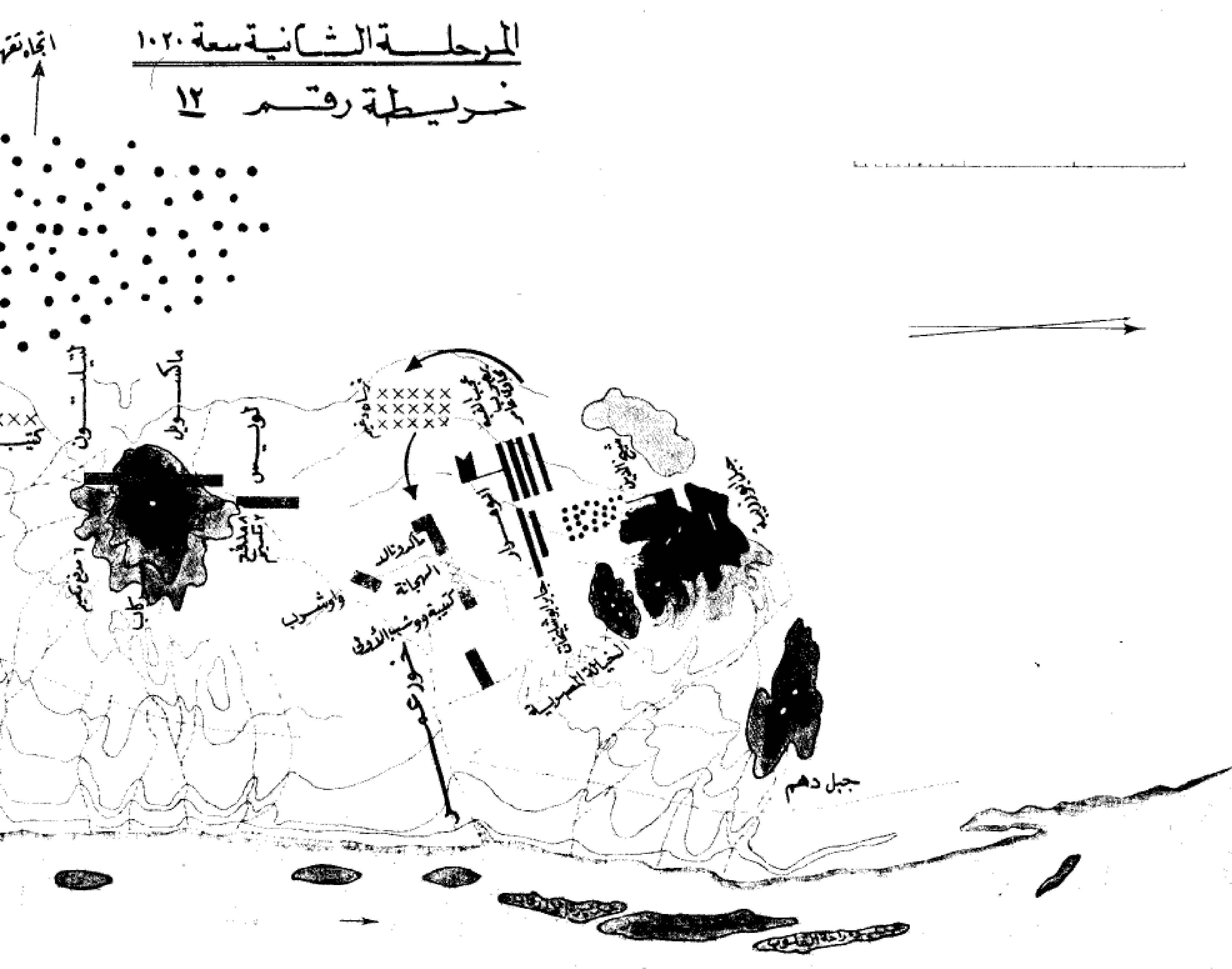
دهم



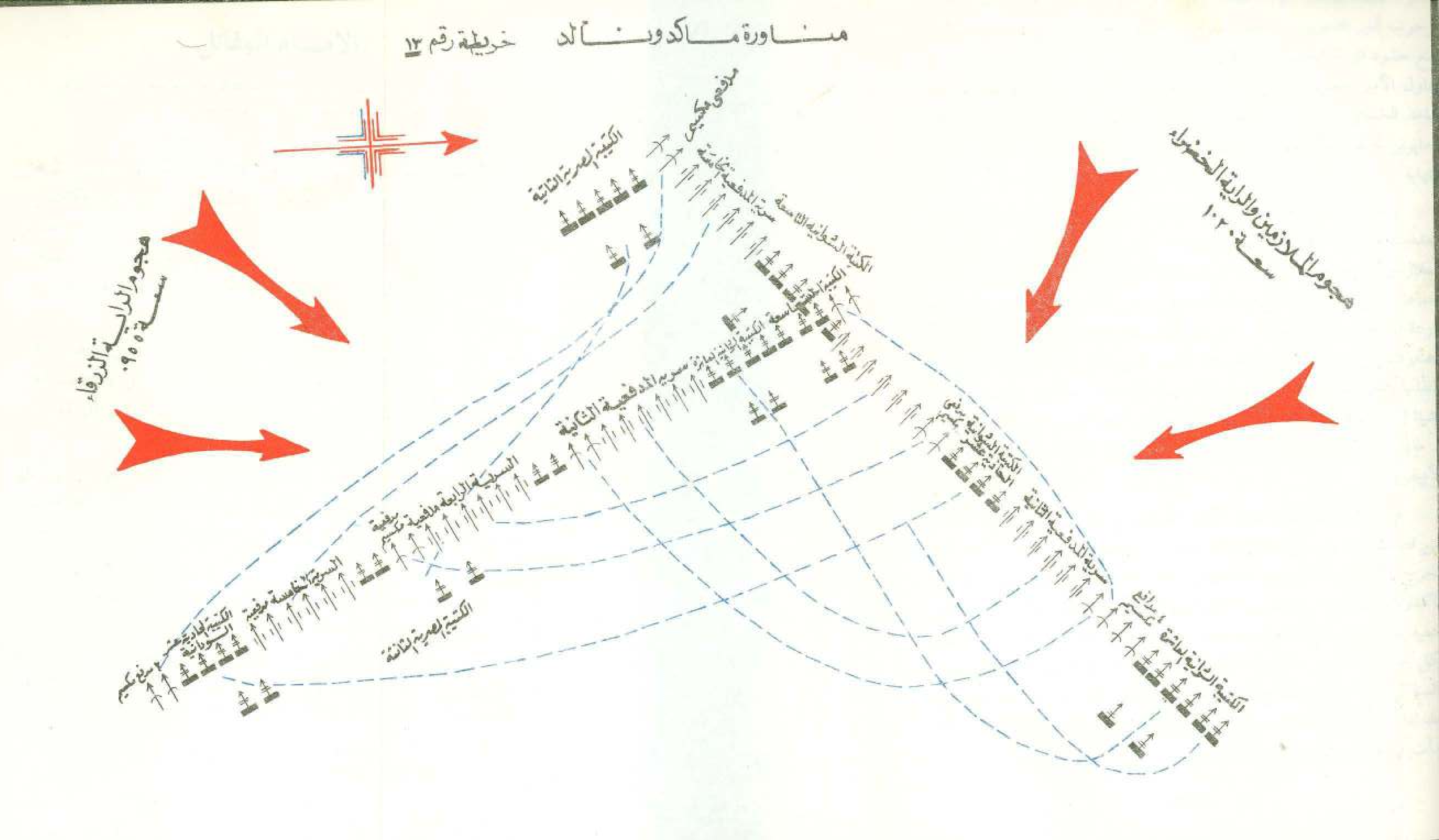
المرحلة الثانية سعة ١٠٢٠
خريطة رقم ١٢
اتجاه تقهقر الجرحى وبقايا هجوم الراية الزرقاء
الخليفة
خور شمبات
خور ابوسنط
كتيبة الرماح
لتيلتون
ماكسويل
لويس
٨ مدفع
٢ تكسيم
٦ مدفع تكسيم
وكاب
واوشوب
ماكدونالد
الهجانة
كتيبة ووشبة الأولى
خور عمر
فرسان دغيم
عجب الفية
يعقوب
عثمان عاصم
الموساد
جابر ابوشليفات
شيخ الدين
جبل ابوزريبة
الخيالة المصرية
جبل دهم


المرحلة الثانية سنة ١٠٢٠
خريطة رقم ١٢
اتجاه تقهقر الجرحى وبقايا هجوم الراية الزرقاء
الخليفة
كتيبة الرماح
لتيلتون
ماكسويل
لويس
٦ مدفع مكسيم
واوشوب
ماكدونالد
خور عمر
خور ابو سنط
خور شمبات
شيخ الدين
الخيالة المصرية
جبل دهم

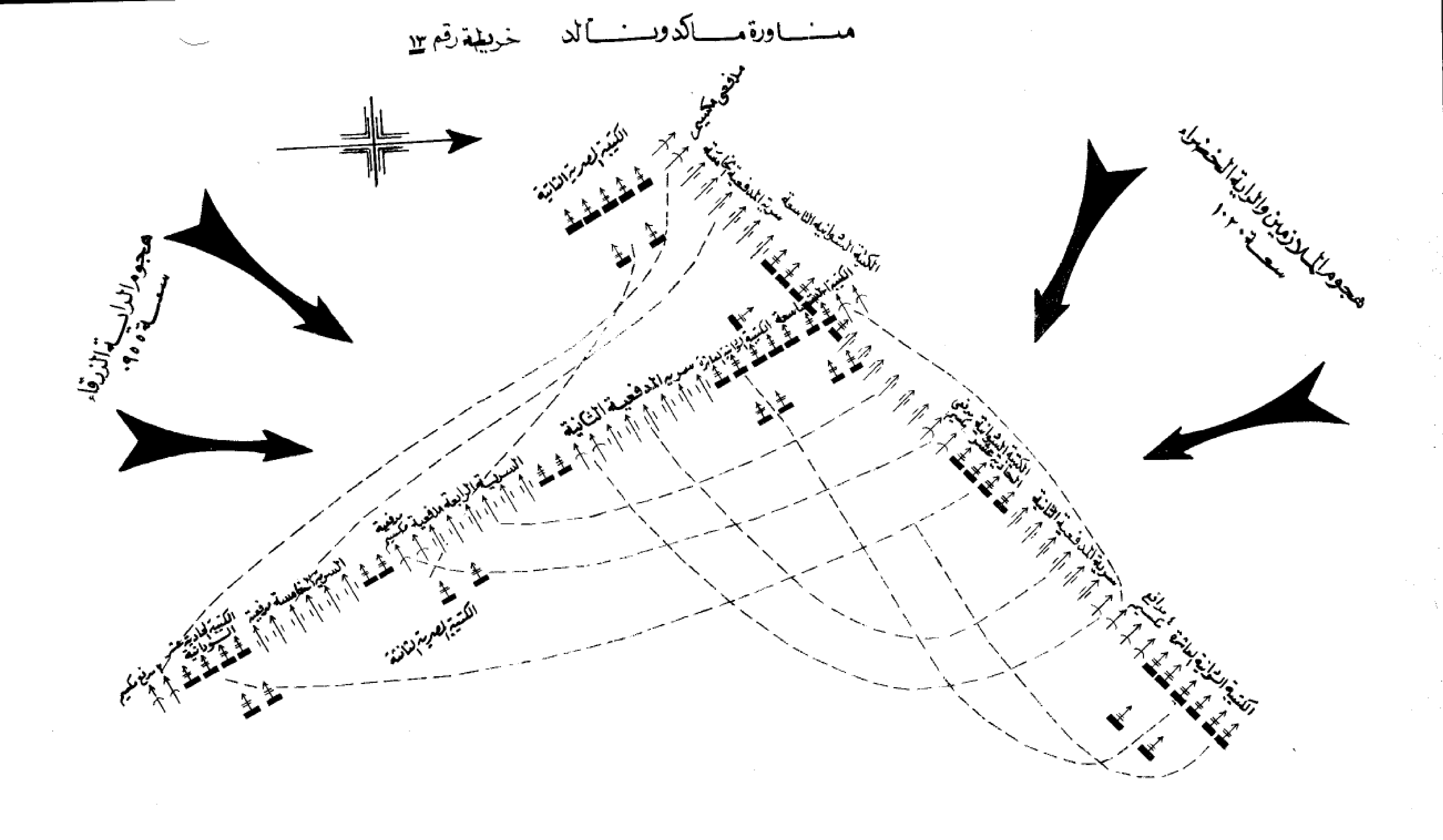

المرحلة الثانية سنة ١٠٢٠
خريطة رقم ١٢
لتيلتون
ماكسويل
ركاب
لويس
٨ مدفع
٢ تكميم
واوشرب
ماكدونالد
المهاجة
كتيبة ووشبا الأرقم
خور عمر
قرباه دغيم
ابو مرار
جار ابو شليخات
الخيالة المصرية
شيخ الدين
جبل ابو زريبة
جبل دهم



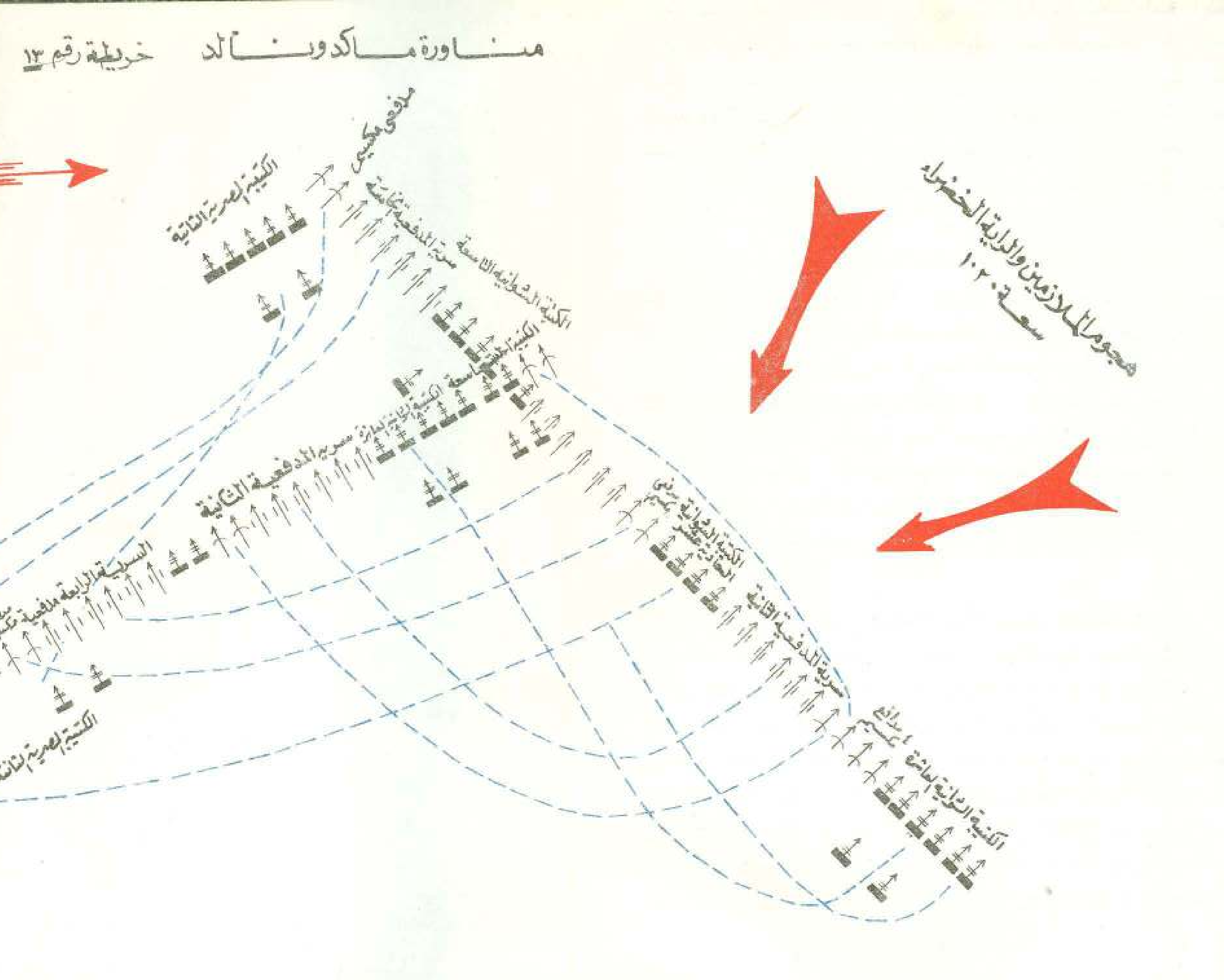
المرحلة الثانية سنة ١٠٢٠
خريطة رقم ١٢
لتيلتون
ماكسويل
لويس
٨ مدفع
٦ مدفع مكسيم
ماكدونالد
خور عمر
شيخ الدين
جبل ابو زريبة
جبل دهم



مناورة ماكدونالد
خريطة رقم ١٢
هجوم الملازمين والراية الخضراء
سنة ١٠٢٠٠
هجوم الراية الزرقاء
سنة ٩٥٥٠٠
الكتيبة المصرية الثانية
مدفعي مكسيم
سرية المدفعية الخامسة
الكتيبة السودانية التاسعة
سرية المدفعية الثانية
الكتيبة السودانية العاشرة
مدفعي مكسيم
السرية الرابعة مدفعية
مدفعية مكسيم
الكتيبة المصرية الثالثة
السرية الخامسة مدفعية
الكتيبة الحادية عشر السودانية
مدفع مكسيم

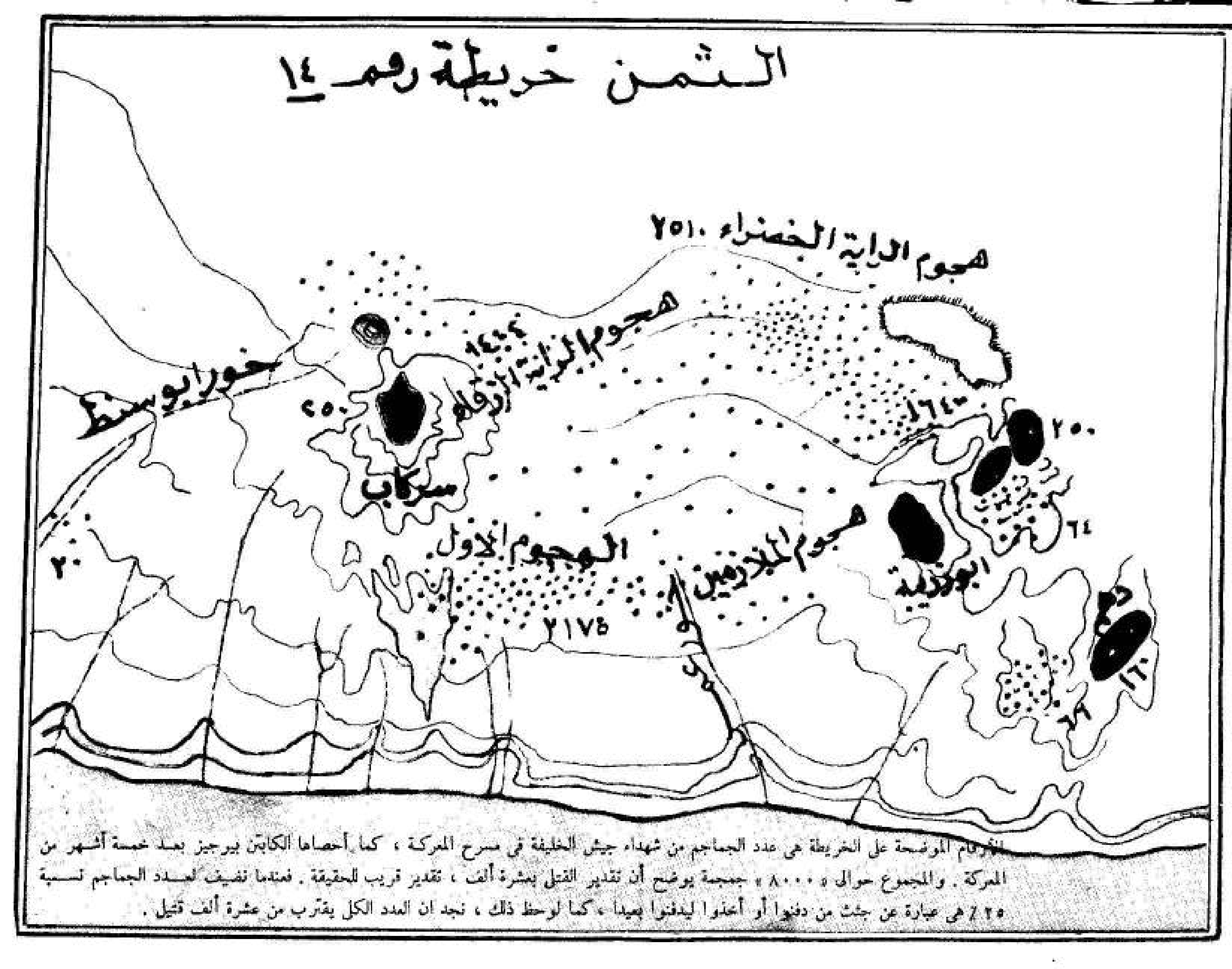


مناورة ماكدونالد
خريطة رقم ١٣
هجوم الملازمين والراية الخضراء
سعة ١٠٢٠
هجوم الراية الزرقاء
سعة ٩٥٥
الكتيبة المصرية الثانية
سرية المدفعية الخامسة
الكتيبة السودانية التاسعة
سرية المدفعية الثانية
السرية الرابعة مدفعية مكسيم
الكتيبة المصرية الثالثة
الكتيبة الحادية عشر السودانية

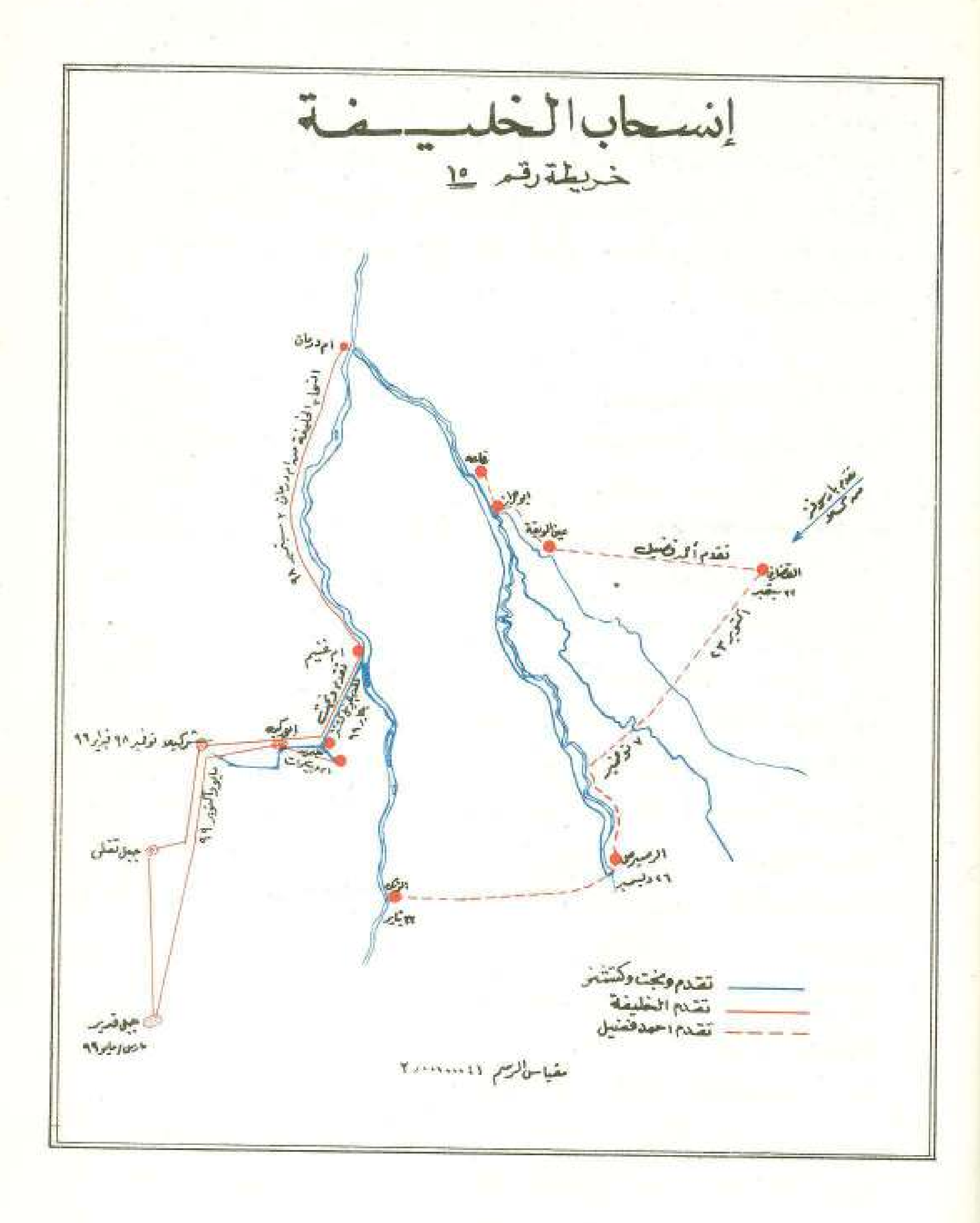

خريطة رقم ١٣
مناورة ماكدونالد
هجوم الملازمين والراية الخضراء
سعة ١٠٢٠
الكتيبة المصرية الثانية
سرية المدفعية الثانية
الكتيبة السودانية التاسعة
الكتيبة السودانية العاشرة
سرية الدفعية الثانية
السرية الرابعة المدفعية

الـتمـن خريطة رقم ١٤

الأرقام الموضحة على الخريطة هى عدد الجماجم من شهداء جيش الخليفة فى مسرح المعركة ، كما أحصاها الكابتن بيرجيز بعد خمسة أشهر من المعركة . والمجموع حوالى « ٨٠٠٠ » جمجمة يوضح أن تقدير القتل بعشرة ألف ، تقدير قريب للحقيقة . فعندما نضيف لعدد الجماجم نسبة ٢٥ ٪ هى عبارة عن جثث من دفنوا أو أخذوا ليدفنوا بعيدا ، كما لوحظ ذلك ، نجد ان العدد الكلى يقترب من عشرة ألف قتيل .



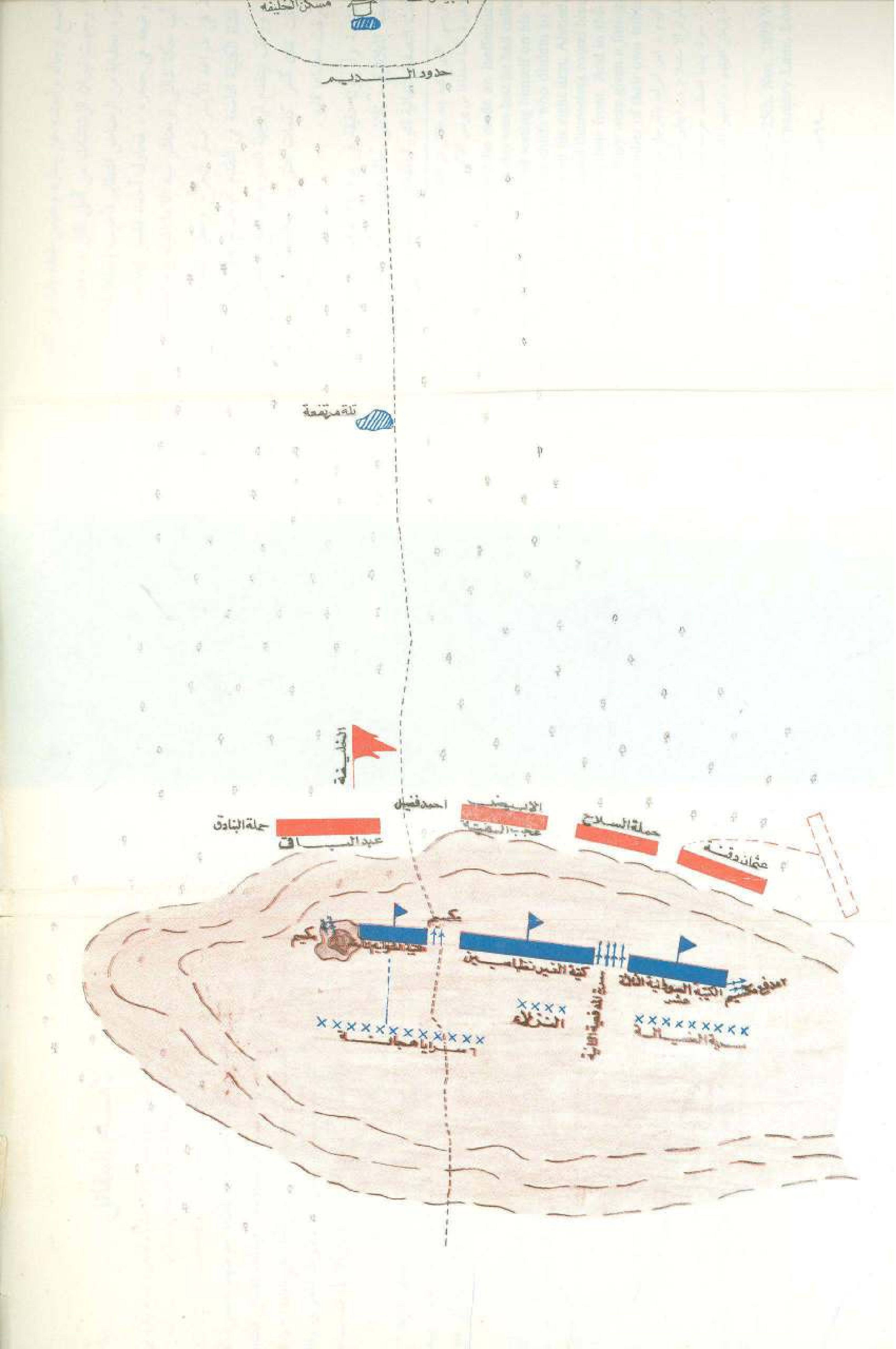
الأرقام الموضحة على الخريطة هي عدد الجماجم من شهداء جيش الخليفة في مسرح المعركة ، كما أحصاها الكابتن بيرجيز بعد خمسة أشهر من المعركة . والمجموع حوالى « ٨٠٠٠ » جمجمة يوضح أن تقدير القتلى بعشرة ألف ، تقدير قريب للحقيقة . فعندما نضيف لعدد الجماجم نسبة ٢٥٪ هي عبارة عن جثث من دفنوا أو أخذوا ليدفنوا بعيدا ، كما لوحظ ذلك ، نجد ان العدد الكل يقترب من عشرة ألف قتيل .



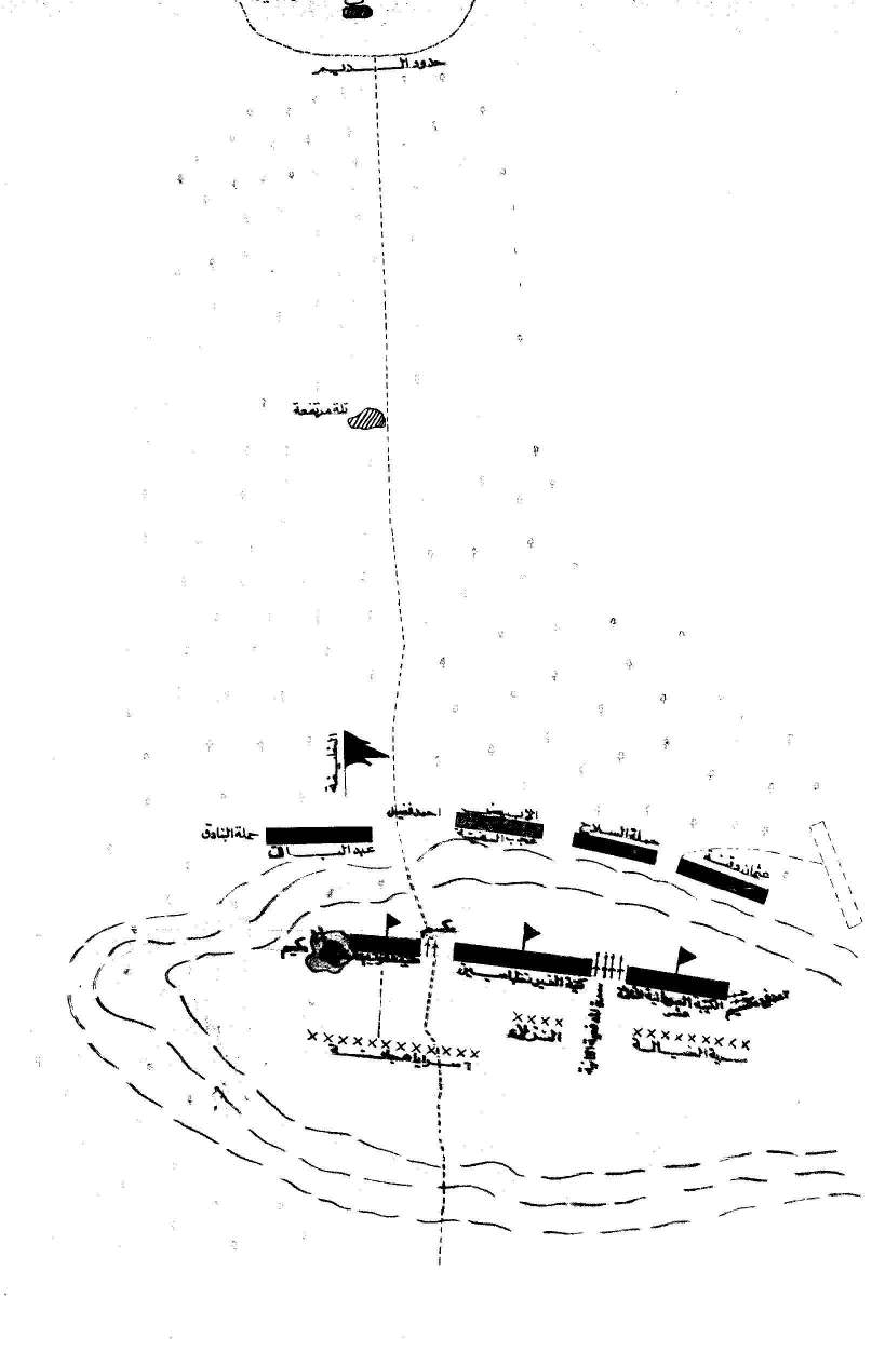
إنسحاب الخليفة
خريطة رقم ١٥
ام درمان
تقدم ونجت وكتشنر
تقدم الخليفة
تقدم احمد فضيل

إنسحاب الخليفة

خريطة رقم ١٠



مسكن الخليفه
تلة مرتفعة
الخليفة
حملة البنادق
احمد فضيل
حملة السلاح
عثمان دقنة
مكسيم
كتيبة النيل نظاميين
الكتيبة السودانية الثالثة عشر
مدفع مكسيم
سرية الخيالة
سرايا هجانة



حدود الـــديم
تلة مرتفعة
الخليفة
احمد فضيل
حملة البنادق
عبد البـــاقي
حملة السلاح
عثمان دقنة
كتيبة الفنيين نطاسي
الزلط
الخيالة

خريطه رقم ١٦

موقعة ام دبيكرات



خريطه رقم ١٦

موقعــة ام دبيكرات